Sharh El-Wasetiah



شرح العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام ابن تيمية





شرحها

العلامة محمد خليل هراس

العلامة محمد الصالح العثيمين

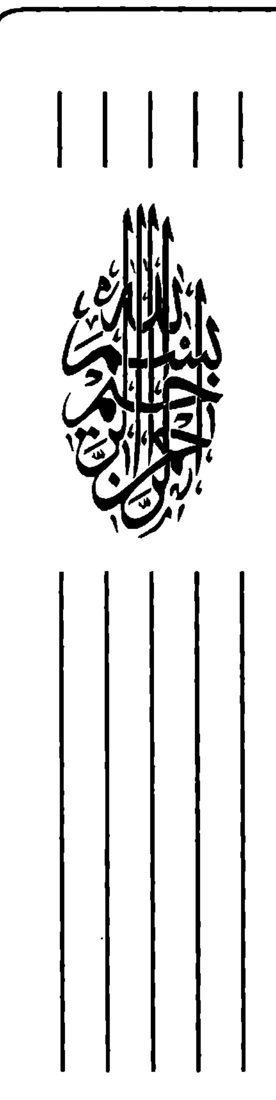
العلامة صالح بن فوزان الفوزان



على أحكام الشيخ محمد ناصر الدين الألباني

دار ابن الجوزي
القاهرة

شــرح
العقيدة الواسطية



١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

رقم الإيداع : ٢١٨٦٢/٢٠١٠



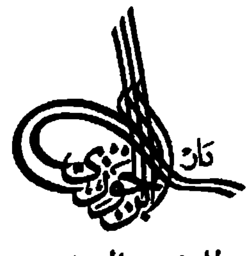
جمهورية مصر العربية - القاهرة

درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

ت: ٠٠٢٠٢٢٥٠٦١٩٠٣

تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٥٠٦١٦٢٠

e_mail: dar_ebn elgawzy @yahoo.com



للنشر والتوزيع

شــرح
العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام ابن تيمية

لأصحاب الفضيلة

محمد خليل هراس

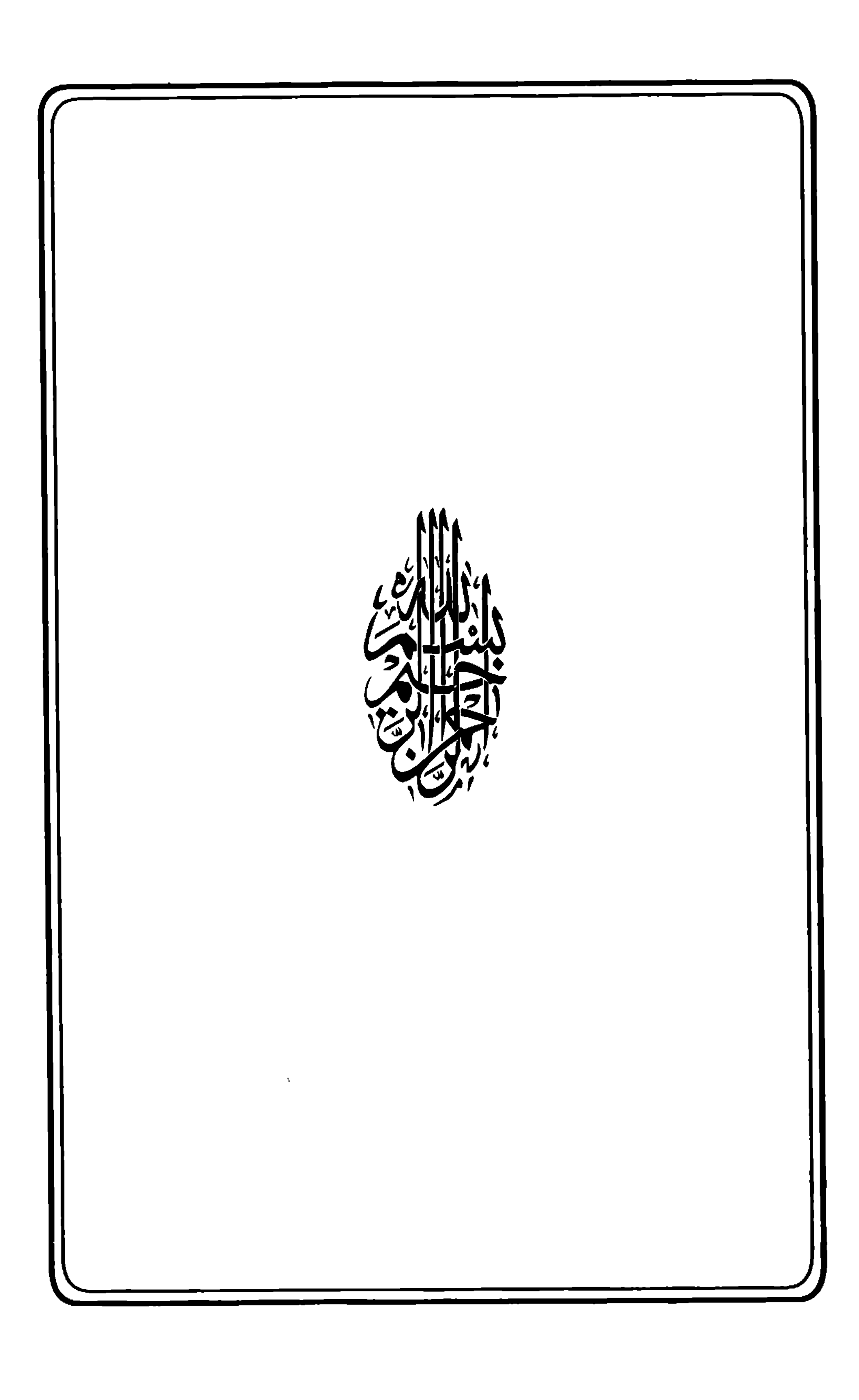
محمد بن صالح بن عثيمين

صالح بن فوزان الفوزان

الناشــر

دار ابن الجوزي

القاهـرة



مقدمة الناشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إن الحمدَ للَّهِ نَحْمَدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه ، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ، ومِن سيئاتِ أعمالِنا ، مَن يَهْدِه اللَّهُ فلا مُضِلَّ له ، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ له .

وأشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللَّهُ وحدَه لا شَريكَ له ، وأشْهَدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه .

أما بعدُ :

فلما كان كتاب « العقيدة الواسطية » لشيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه اللَّه – كتابًا جامعًا لمنهج أهل السنة والجماعة ، وهو مما لا غناء لمسلم عنه ، خاصة وأن العقيدة هى أصل هذا الدين ، وركنه المتين ؛ قمنا – بحمد اللَّه وتوفيقه – بإخراج هذا العمل لـ« شـرح العقيدة الواسطية » فى ثوبٍ جديد ، جمعنا فيه شروحًا ثلاثة لعلماءَ أجلاءَ وهم : الدكتور محمد خليل هراس ، والشيخ محمد بن صالح بن عثيمين ، رحمهما اللَّه ، والشيخ صالح الفوزان ، حفظه اللَّه ؛ لتتمَّ الفائدةَ ، وقدَّمنا فيها شروح الشيخ ابن عثيمين ؛ نظرًا لطول نَفَسِه فى شرحه للكتاب ، ثم أردفنا بشرح الشيخ صالح الفوزان ، ثم زيَّلنا بشرح الدكتور محمد خليل هراس ، مع تعليقات فضيلة الشيخ إسماعيل الأنصارى عليه ، ولم نلتزم الترتيب الزمنى لسَنَةِ الوفاة لما ذكرنا .

وقد جعلنا الترتيب على حسب تفصيل الأقوال ، ثم قمنا بتخريج الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، تخريجًا موجزًا ، مع ضبط الألفاظ التى تُشكِل على القارئ ، وقمنا بإضافة بعض الكلمات التى لا يستقيم السياق إلا بها ، ووضعناها بين معكوفين [ ] .

ولا ننسى أن نشكر كل من شارك فى إخراج هذا الكتاب ، ونخص بالذكر الأستاذ / محمد راضى مدكور ، والأستاذ / إبراهيم عبد الستار ، والأستاذ / محمد سامح محمد ، فجزاهم اللَّه خير الجزاء ، ونفع بهم .

نسأل اللَّه تعالى أن يرزقنا العلم النافع ، والفقه فى دينه ، وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم ، والحمد للَّه رب العالمين .

الناشـــر

مقدمة
الشيخ / محمد بن صالح بن عثيمين

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل ، فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا .

أما بعد ..

فقد مَنَّ الله تعالى علينا بشرح « العقيدة الواسطية » التى ألَّفها شيخ الإسلام ابن تيمية فى عقيدة أهل السنة والجماعة تقريرًا على الطلبة الذين درسوها علينا فى المسجد ، ومن أجل حرصهم على حفظ التقرير ، قاموا بتسجيله ثم تفريغه كتابة من أَشْرِطَةِ التسجيل .

ومن المعلوم أن الشرح المتلقى من التقرير ليس كالشرح المكتوب بالتحرير ؛ لأن الأول يعتريه من النقص والزيادة ما لا يعترى الثانى .

وقد تقدمت عدة مكاتب نشر بطلب طباعته .

ولكن ؛ لما كان الشرح المتلقى من التقرير ليس كالشرح المكتوب بالتحرير ، لذا رأيت من المهم أن أقرأ الشرح بتمهل من أجل إخراج الشرح على الوجه المرضى ، ففعلت ذلك ولله الحمد وحذفت ما لا يحتاج إليه ، وزدت ما يحتاج إليه .

وأسأل الله تعالى أن ينفع به كما نفع بأصله ، وأن يجعلنا من دعاة الحق وأنصاره ؛ إنه قريب مجيب .

محمد بن صالح بن عثيمين

٢٧/٣/١٤١٥هـ

مقدمة
الشيخ / صالح الفوزان

الحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد :

فهذا شرح مختصر على « العقيدة الواسطية » لشيخ الإسلام ابن تيمية، جمعته من المصادر التالية :

١ - الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية، للشيخ زيد بن عبد العزيز بن فياضٍ .

٢ - التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية، للشيخ عبد العزيز بن ناصرٍ الرشيد .

٣ - التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة، للشيخ عبد الرحمن بن ناصرٍ السعدى .

٤ - نقلت من فوائد علقتها على نسختى وقت الطلب .

٥ - وفيما يتعلق بتفسير الآيات نقلت من كتب التفسير، كـ « فتح القدير » للإمام محمد بن عليٍّ الشوكانى، و« تفسير القرآن العظيم »، للشيخ إسماعيل بن كثيرٍ .

وكانت جامعة الإمام محمد بن سعودٍ الإسلامية قد طبعته عدة مراتٍ، ووزعته على طلبة المرحلة الثانوية، فشكر اللَّه للقائمين عليها، وزادهم من الخير والتوفيق لما فيه صلاح المسلمين .

كما أنى أسأل اللَّه أن ينفع به، ويجعله مؤديًا للمطلوب من توضيح هذه العقيدة العظيمة، وأن يغفر لى ما وقع منى من أخطاء، ويثيبنى على ما فيه من صوابٍ، إنه سميع مجيب، وصلى اللَّه على نبينا محمدٍ وآله وصحبه وسلَّم، والحمد للَّه رب العالمين .

صالح بن فوزان الفوزان

مقدمة
الشيخ / محمد خليل هراس

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسّر وأَعِنْ

الحمد للّٰه رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، نبينا محمد ، عبد اللّٰه ورسوله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فلما كانت « العقيدة الواسطية » لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّٰه من أجمع ما كتب فى عقيدة أهل السنة والجماعة مع اختصار فى اللفظة ودقة فى العبارة ، وكانت تحتاج فى كثير من مواضعها إلى شرح يجلى غوامضها ويزيح السّتار عن مكنون جواهرها ، ويكون مع ذلك شرحًا بعيدًا عن الإسهاب والتطويل والإملال بكثرة النقول حتى يلائم مدارك الناشئين ويعطيهم زبدة الموضوع فى سهولة ويسر .

فقد استخرت اللّٰه تبارك وتعالى ، وأقدمت على هذا العمل ؛ رغم كثرة الشواغل وزحمة الصوارف ، سائلًا اللّٰه عزَّ وجلَّ أن ينفع به كل من قرأه وأن يجعله خالصًا لوجهه إنه قريب مجيب .

محمد خليل هراس

* قال المصنِّف :

بسم اللَّه[١] ....

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

البداءة بالبسملة هى شأن جميع المؤلفين ؛ اقتداء بكتاب اللَّه ؛ حيث أنزل البسملة فى ابتداء كل سورة واستنادًا إلى سنة الرسول ﷺ .

وإعراب البسملة ومعناها تكلم فيه الناس كثيرًا ، وفى متعلقها ، وأحسن ما يقال فى ذلك : أنها متعلقة بفعل محذوف متأخر مناسب للمقام ؛ فإذا قدمتها بين يدى الأكل ؛ يكون التقدير : باسم اللَّه آكل ، وبين يدى القراءة يكون التقدير : باسم اللَّه أقرأ .

نقدره فعلا ؛ لأن الأصل فى العمل الأفعال لا الأسماء ، ولهذا كانت الأفعال تعمل بلا شرط ، والأسماء لا تعمل إلا بشرط ؛ لأن العمل أصل فى الأفعال ، فرع فى الأسماء .

ونقدِّره متأخرًا لفائدتين :

الأولى : الحصر ؛ لأن تقديم المعمول يفيد الحصر ، فيكون : باسم اللَّه أقرأ ؛ بمنزلة : لا أقرأ إلا باسم اللَّه .

الثانية : تيمنًا بالبداءة باسم اللَّه سبحانه وتعالى .

ونقدره خاصًا ؛ لأن الخاص أدل على المقصود من العام ، إذ من الممكن أن أقول : التقدير : باسم اللَّه أبتدئ ، لكن (باسم اللَّه أبتدئ) لا تدل على تعيين المقصود ، لكن (باسم اللَّه أقرأ) خاص ، والخاص أدل على المعنى عن العام .

« اللَّه » علم على نفس اللَّه عز وجل ، ولا يُسمى به غيره ومعناه : المألوه ؛ أى : المعبود محبة وتعظيمًا وهو مشتق على القول الراجح لقوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام : ٣] ؛ فإن ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ متعلق بلفظ الجلالة ، يعنى : وهو المألوه فى السماوات وفى الأرض .

* **قال الشيخ الفوزان :**

ابتدأ المصنف ، رحمه اللَّه ، كتابه بالبسملة ؛ اقتداءً بالكتاب العزيز ، حيث جاءت البسملة فى ابتداء كل سورةٍ ، ما عدا سورة « براءة » ، واقتداءً بالنبى ﷺ ، حيث كان يبدأ بها فى مكاتباته .

....

وقوله : (بسم اللَّه) . الباء للاستعانة ، والاسم في اللغة ما دل على مسمًّى ، وفي الاصطلاح : ما دل على معنًى في نفسه ، ولم يقترن بزمانٍ .

والجار والمجرور متعلق بمحذوفٍ ينبغي أن يقدر متأخرًا ليفيد الحصر .

واللَّه : علم على الذات المقدسة ، ومعناه : ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ، مشتقٌّ من أله يأله ألوهةً ، بمعنى عبد يعبد عبادةً ، فاللَّه إله ، بمعنى مألوه ؛ أي : معبود .

❋ قال الشيخ هراس :

اختلف العلماء في البسملة ، هل هي آية من كل سورة افتتحت بها ، أو هي آية مستقلة أنزلت ، للفصل بها بين السور ، وللتبرك بالابتداء بها ؟ والمختار القول الثاني .

واتفقوا على أنها جزء آية من سورة « النمل » ، وعلى تركها في أول سورة « براءة » ؛ لأنها جعلت هي و« الأنفال » كسورة واحدة .

والباء في « باسم » للاستعانة ، وهي متعلقة بمحذوف قدره بعضهم فعلًا وقدره بعضهم اسمًا ، والقولان متقاربان ، وبكلٍّ ورد القرآن ، قال تعالى : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق : ١] ، وقال : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا﴾ [هود : ٤١] .

ويحسن جعل المقدر متأخرًا ، لأن « اسم » أحق بالتقديم ، ولأن تقديم الجار والمجرور يفيد اختصاص الاسم الكريم بكونه متبركًا به ، والاسم هو اللفظ الموضوع لمعنى تعيينًا له أو تمييزًا » .

واختلف في أصل اشتقاقه ، فقيل : إنه من السمة ، بمعنى العلامة . وقيل : من السمو . وهو المختار ، وهمزته همزة وصل ، وليس الاسم نفس المسمى كما زعم بعضهم ، فإن الاسم هو اللفظ الدال ، والمسمى هو المعنى المدلول عليه بذلك الاسم .

وليس هو كذلك نفس التسمية فإنها فعل المسمى ، يقال : سميت ولدي محمدًا . مثلًا .

وقول بعضهم : إن لفظ الاسم هنا مقحم ؛ لأن الاستعانة إنما تكون باللَّه عزَّ وجلَّ لا باسمه ، ليس بشيء ؛ لأن المراد ذكر الاسم الكريم باللسان ، كما في قوله : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى : ١] ، أي : سبحه ناطقًا باسم ربك متكلمًا به ، فالمراد التبرك بالابتداء بذكر اسمه تعالى .

واسم الجلالة ، قيل : إنه اسم جامد غير مشتق ؛ لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها ،

الرحمن(١) الرحيم(٢) ....

واسمه تعالى قديم، والقديم لا مادة له، فهو كسائر الأعلام المحضة التي لا تتضمن صفات تقوم بمسمياتها.

والصحيح أنه مشتق، واختلف في مبدأ اشتقاقه، فقيل: من أَلِهَ يَأْلَه أُلُوهَة وإِلَاهَة وأُلُوهِيَّة. بمعنى عبد عبادة، وقيل من أَلِهَ بكسر اللام يَأْلَه بفتحها أَلَهًا إذا تحير، والصحيح الأول، فهو إِلَه بمعنى مَأْلُوه أي معبود؛ ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: الله ذو الإِلَهِيَّة والعبودية على خلقه أجمعين، وعلى القول بالاشتقاق يكون وصفًا في الأصل، ولكن غلبت عليه العَلَمية فتجري عليه بقية الأسماء أخبارًا أو أوصافًا.

(١، ٢) قال الشيخ ابن عثيمين:

«الرحمن»: فهو ذو الرحمة الواسعة؛ لأن (فعلان) في اللغة العربية تدل على السعة والامتلاء؛ كما يقال: رجل غضبان: إذا امتلأ غضبًا.

«الرحيم»: اسم يدل على الفعل؛ لأنه فعيل بمعنى فاعل فهو دال على الفعل.

فيجمع من «الرحمن الرحيم»: أن رحمة الله واسعة وأنها واصلة إلى الخلق. وهذا هو ما أومأ إليه بعضهم بقوله: الرحمن رحمة عامة، والرحيم رحمة خاصة بالمؤمنين، ولما كانت رحمة الله للكافر رحمة خاصة في الدنيا فقط فكأنها لا رحمة لهم؛ لأنهم في الآخرة يقول تعالى لهم إذا سألوا الله أن يخرجهم من النار وتوسلوا إلى الله تعالى بربوبيته واعترافهم على أنفسهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧]؛ فلا تدركهم الرحمة، بل يدركهم العدل، فيقول الله عز وجل لهم: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

✽ قال الشيخ الفوزان:

(والرحمن الرحيم): اسمان كريمان من أسمائه الحسنى، دالان على اتصافه تعالى بالرحمة، على ما يليق بجلاله، فالرحمن ذو الرحمة العامة لجميع المخلوقات، والرحيم ذو الرحمة الخاصة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

افتتح هذه الرسالة الجليلة بهذه الخطبة المشتملة على حمد الله، والشهادتين، والصلاة والسلام على رسوله؛ تأسيًا بالرسول ﷺ في أحاديثه وخطبه، وعملًا بقوله ﷺ: «كل أمرٍ ذي بالٍ لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع» [رواه أبو داود وغيره][1].

(1) رواه أحمد (٢/٣٥٩) (٨٦٩٧)، وأبو داود (٤٨٤٠)، وابن ماجه (١٨٩٤).

الحمدُ للَّهِ(١) ....

ويروى : « ببسم اللَّه الرحمن الرحيم »[I].

ومعنى « أقطع » ؛ أى : معدوم البركة ، ويجمع بين الروايتين للحديث بأن الابتداء بـ : « بسم اللَّه » حقيقيٌ ، وبـ : « الحمد للَّه » نسبيٌ إضافيٌ .

✽ قال الشيخ هراس :

يقال : اللَّه رحمن رحيم سميع عليم . كما يقال : اللَّه الرحمن الرحيم . . .. إلخ .

والرحمن الرحيم اسمان كريمان من أسمائه الحسنى دالان على اتصافه تعالى بصفة الرحمة ، وهي صفة حقيقية له سبحانه على ما يليق بجلاله ، ولا يجوز القول بأن المراد بها لازمها كإرادة الإحسان ونحوه كما يزعم المعطِّلة ، وسيأتي مزيد بيان لذلك إن شاء اللَّه .

واختلفت في الجمع بينهما ، فقيل : المراد بالرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء في الدنيا ؛ لأن صيغة فعلان تدل على الامتلاء والكثرة ، والرحيم الذي يختص برحمته المؤمنين في الآخرة . وقيل العكس .

وقد ذهب العلامة ابن القيم رحمه اللَّه إلى أن الرحمن دال على الصفة القائمة بالذات ، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ، ولهذا لم يجئ الاسم الرحمن متعديًا في القرآن ، قال تعالى : ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ . ولم يقل : رحمانًا . وهذا أحسن ما قيل في الفرق بينهما .

وروى ابن عباس أنه قال : هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر . ومنع بعضهم كون الرحمن في البسملة نعتًا لاسم الجلالة؛ لأنه علم آخر للَّه لا يطلق على غيره والأعلام لا ينعت بها .

والصحيح أنه نعت له باعتبار ما فيه من معنى الوصفية ، فالرحمن اسمه تعالى ووصفه ولا تنافي اسميتُه وصفيتَه ، فمن حيث هو صفة جرى تابعًا على اسم اللَّه ، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع بل ورود الاسم العلم كقوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

اللَّه تعالى يحمد على كماله عز وجل وعلى إنعامه ؛ فنحن نحمد اللَّه عز وجل ؛ لأنه كامل الصفات من كل وجه ، ونحمده أيضًا لأنه كامل الإنعام والإحسان ، [قال تعالى] : ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل : ٥٣] ، وأكبر نعمة أنعم اللَّه بها على الخلق إرسال الرسل ، الذى به هداية الخلق .

(I) قال الألبانى فى « الإرواء » (١/٣٠) : ومما سبق يتبين أن الحديث بهذا اللفظ ضعيف جدًا .

....

❁ قال الشيخ الفوزان :

قوله : (الحمد لله) . الألف واللام للاستغراق ؛ أي : جميع المحامد لله ؛ ملكًا ، واستحقاقًا .

والحمد لغةً : الثناء بالصفات الجميلة والأفعال الحسنة .

وعرفًا : فعل ينبئ عن تعظيم المنعم ، بسبب كونه منعمًا ، وهو ضد الذم .

(للّه) تقدم الكلام على لفظ الجلالة .

❁ قال الشيخ هراس :

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ روى عن النبى ﷺ أنه قال : « كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله والصلاة عليَّ فهو أقطع أبتر ممحوق البركة »[1] . وورد مثل ذلك فى البسملة ، ولهذا جمع المؤلف بينهما عملًا بالروايتين ولا تعارض بينهما ، فإن الابتداء قسمان حقيقى وإضافى ، والحمد ضد الذم ، يقال : حمدت الرجل أحمده حمدًا ، ومحمدًا ومحمدة فهو محمود وحميد . ويقال : حمَّد الله بالتشديد . أثنى عليه المرة بعد الأخرى ، وقال : الحمد لله .

والحمد : هو الثناء باللسان على الجميل الاختيارى ، نعمة كان أو غيرها ، يقال : حمدت الرجل على إنعامه وحمدته على شجاعته ، وأما الشكر فعلى النعمة خاصة ويكون بالقلب واللسان والجوارح ، قال الشاعر :

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّى ثَلَاثَةً ... يَدِى وَلِسَانِى وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

وعلى هذا فبين الحمد والشكر عموم وخصوص من وجه ، يجتمعان فى الثناء باللسان على النعمة ، وينفرد الحمد فى الثناء باللسان على ما ليس بنعمة من الجميل الاختيارى ، وينفرد الشكر بالثناء بالقلب والجوارح على خصوص النعمة . فالحمد أعم متعلقًا وأخص آلة والشكر بالعكس .

وأما الفرق بين الحمد والمدح فقد قال ابن القيم : إن الحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه فلابد فيه من اقتران الإرادة بالخبر بخلاف المدح فإنه إخبار مجرد ، ولذلك كان المدح أوسع تناولًا ؛ لأنه يكون للحى والميت ، وللجماد أيضًا .

و« أل » فى الحمد للاستغراق ، ليتناول كل أفراد الحمد المحققة والمقدرة ، وقيل : للجنس ،

---

(1) عزاه الحافظ السخاوى فى « القول البديع من الصلاة على الحبيب الشفيع » إلى فوائد ابن عمرو بن منده بلفظ : « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بذكر الله ثم الصلاة عليَّ فهو أقطع ممحوق من كل بركة » . ثم قال السخاوى : والحديث مشهور لكن بغير هذا اللفظ . وذكر أنه ضعيف . « إسماعيل الأنصاري » .

الذى أرْسَل رسولَه [(١)] ....

ومعناه أن الحمد الكامل ثابت للّه ، وهذا يقتضى ثبوت كل ما يحمد عليه من صفات كماله ونعوت جماله ، إذ مَن عَدِمَ صفات الكمال فليس بمحمود على الإطلاقَ ، ولكن غايته ألّا يكون محمودًا من كل وجه وبكل اعتبار بجميع أنواع الحمد إلا من حاز صفات الكمال [(1)] جميعها .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

ولهذا يقول المؤلف : « الحمد للّه الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » .

والمراد بالرسول هنا الجنس ؛ فإن جميع الرسل أرسلوا بالهدى ودين الحق ، ولكن الذى أكمل اللّه به الرسالة محمد ﷺ ؛ فإنه قد ختم اللّه به الأنبياء ، وتم به البناء ؛ كما وصف محمد ﷺ نفسه بالنسبة للرسل ، كرجل بنى قصرًا وأتمه ؛ إلا موضع لبنة ، فكان الناس يأتون إلى هذا القصر ويتعجبون منه ؛ إلا موضع هذه اللبنة ؛ يقول : « فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » [(2)]. عليه الصلاة والسلام .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(الذى أرسل رسوله) اللّه سبحانه يحمد على نعمه ، التى لا تحصى ، ومن أجل هذه النعم أن (أرسل) ؛ أى : بعث (رسوله) محمدًا ﷺ .

والرسول لغةً : من بعث برسالةٍ .

وشرعًا : هو إنسان ذكر أوحى إليه بشرعٍ وأمر بتبليغه .

❁ قال الشيخ هراس :

الرسول فى اللغة هو من بعث برسالة . يقال : أرسله بكذا . إذا طلب إليه تأديته وتبليغه ، وجمعه رسْل بسكون السين ، ورسُل بضمها ، وفى لسان الشرع : إنسان ذكر حر أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه ، فإن أُوحِىَ إليه ولم يؤمر بالتبليغ فهو نبى ، فكل رسول نبى ولا عكس ، فقد يكون نبيًا غير رسول .

---

(1) عبارة ابن القيم من « مدارج السالكين » : « وغايته أنه محمود من وجه دون وجه ولا يكون محمودًا بكل وجه وبكل اعتبار بجميع أنواع الحمد إلا من استولى على صفات الكمال جميعها ، فلو عدم منها صفة واحدة لنقص من حمده بحسبها » . هذا نص عبارة ابن القيم ، وقد حصل فى نقل المؤلف لها خلل ظاهر فليتنبه لذلك . « إسماعيل الأنصاري » .

(2) أخرجه البخارى (٣٥٣٥) ، ومسلم (٢٢٨٦) .

بالهُدَى(١) ....

والمراد بالرسول المضاف إلى ضمير الرب هنا محمد ﷺ.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

« بالهدى »: الباء هنا للمصاحبة، والهدى هو العلم النافع ويحتمل أن تكون الباء للتعدية، أى: إن المرسل به هو الهدى ودين الحق.

* قال الشيخ الفوزان:

(بالهدى)؛ أى: العلم النافع، وهو كل ما جاء به النبى ﷺ من الإخبارات الصادقة، والأوامر والنواهى، وسائر الشرائع النافعة.

والهدى نوعان:

النوع الأول: هدًى بمعنى الدلالة والبيان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ٧١]. وهذا يقوم به الرسول ﷺ، كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

النوع الثانى: هدًى بمعنى التوفيق والإلهام، وهذا هو المنفى عن الرسول ﷺ، ولا يقدر عليه إلا الله تعالى، كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

* قال الشيخ هراس:

والهدى فى اللغة: البيان والدلالة كما فى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾، فإن المعنى بيّنّا لهم، وكما فى قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

والهدى بهذا المعنى عام لجميع الناس، ولهذا يوصف به القرآن كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾. ويوصف به الرسول ﷺ كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وقد يأتى الهدى بمعنى التوفيق والإلهام، فيكون خاصًا بمن يشاء الله هدايته، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾. ولهذا نفاه الله عن رسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

ودينِ الحقِّ(١) ؛ ليُظْهِرَه على الدينِ كلِّه(٢) ، ....

والمراد بالهدى هنا كل ما جاء به النبي ﷺ من الاختيارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع والعمل الصالح .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

« ودين الحق » : هو العمل الصالح ؛ لأن الدين هو العمل أو الجزاء على العمل ؛ فمن إطلاقه على العمل : قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران : ١٩] ، ومن إطلاقه على الجزاء قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار : ١٧] . والحق ضد الباطل ، هو – أي الحق – المتضمن لجلب المصالح ودرء المفاسد في الأحكام والأخبار .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(ودين الحق) هو العمل الصالح ، والدين يطلق ويراد به الجزاء ، كقوله تعالى : ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ . ويطلق ويراد به الخضوع والانقياد .

وإضافة الدين إلى الحق من إضافة الموصوف إلى صفته ؛ أي : الدين الحق ، والحق مصدر : حق يحق . بمعنى : ثبت ووجب ، وضده الباطل .

❁ قال الشيخ هراس :

والدين يأتي لعدة معانٍ ؛ منها الجزاء كما في قوله تعالى : ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة : ٤] ، ومنه قولهم : « كما يدين الفتى يدان » .

ومنها الخضوع والانقياد ، يقال : دان له بمعنى ذلَّ وخضع ، ويقال : دان الله بكذا أو على كذا بمعنى اتخذه دينًا يعبده به .

والمراد بالدين هنا جميع ما أرسل الله به رسول الله ﷺ من الأحكام والشرائع ، اعتقادية كانت أم قولية أم فعلية ، وإضافته إلى الحق من إضافة الموصول إلى صفته ، أي الدين الحق .

والحق مصدر حق يحق إذا ثبت ووجب . فالمراد به الثابت الواقع ، ويقابله الباطل الذي لا حقيقة له .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

« ليظهره على الدين كله » : اللام للتعليل ومعنى « ليظهره » ؛ أي : يعليه ؛ لأن الظهور بمعنى العلو ، ومنه : ظهر الدابة أعلاها ، ومنه : ظهر الأرض سطحها ؛ كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر : ٤٥] .

وكَفَى باللَّهِ شهيدًا[1]، ....

والهاء فى « يظهره » هل هو عائد على الرسول أو على الدين ؟ إن كان عائدًا على « دين الحق » ؛ فكل مَن قاتل لدين الحق سيكون هو العالى ؛ لأن اللَّه يقول : « ليظهره » ؛ يظهر هذا الدين على الدين كله ، وعلى ما لا دين له فيظهره عليهم من باب أولى ؛ لأن من لا يدين أخبث ممن يدين بباطل ؛ فإذن : كل الأديان التى يزعم أهلها أنهم على حق سيكون دين الإسلام عليها ظاهرًا ، ومَن سواهم من باب أولى .

وإن كان عائدًا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فإنما يظهر اللَّه رسوله ؛ لأن معه دين الحق .

وعلى كلا التقديرين ؛ فإن من تمسك بهذا الدين الحق ؛ فهو الظاهر العالى ، ومن ابتغى العزة فى غيره ؛ فقد ابتغى الذلَّ ؛ لأنه لا ظهور ولا عزة ولا كرامة إلا بالدين الحق ، ولهذا أنا أدعوكم معشر الإخوة إلى التمسك بدين اللَّه ظاهرًا وباطنًا فى العبادة والسلوك والأخلاق ، وفى الدعوة إليه ، حتى تقوم الملة وتستقيم الأمة .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ؛ أى : ليعليه على جميع الأديان بالحجة والبيان والجهاد حتى يظهر على مخالفيه من أهل الأرض ، من عربٍ وعجمٍ ، ملِّيين ومشركين ، وقد وقع ذلك ، فإن المسلمين جاهدوا فى اللَّه حق جهاده ، حتى اتسعت رقعة البلاد الإسلامية ، وانتشر هذا الدين فى المشارق والمغارب .

❁ **قال الشيخ هراس :**

اللام فى قوله : ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ لام التعليل وهى متعلقة بـ : « أرسل » ، وهو من الظهور بمعنى العلو والغلبة ، أى : ليجعله عاليًا على الأديان كلها بالحجة والبرهان . و« أل » فى الدين للجنس ، فيدخل فيه كل دين باطل ، وهو ما عدا الإسلام .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قوله : ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ . يقول أهل اللغة : إن الباء هنا زائدة ، لتحسين اللفظ والمبالغة فى الكفاية ، وأصلها : « وكفى اللَّه » .

و« شهيدًا » : تمييز محول عن الفاعل ؛ لأن أصلها « وكفت شهادة اللَّه » - المؤلف جاء بالآية - ولو قال قائل : ما مناسبة ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ ؛ لقوله : ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ؟

....

قيل: المناسبة ظاهرة؛ لأن هذا النبى عليه الصلاة والسلام جاء يدعو الناس ويقول: «من أطاعنى دخل الجنة، ومن عصانى دخل النار»[1]. ويقول بلسان الحال: من أطاعنى سالمته، ومن عصانى حاربته ويحارب الناس بهذا الدين، ويستبيح دماءهم وأموالهم ونساءهم وذريتهم، وهو فى ذلك منصور مؤزر غالب غير مغلوب؛ فهذا التمكين له فى الأرض؛ أى تمكين الله لرسوله فى الأرض: شهادة من الله عز وجل فِعْلية بأنه صادق وأن دينه حق؛ لأن كل من افترى على الله كذبًا فمآله الخِذلان والزوال والعدم، وانظر إلى الذين ادَّعوا النبوة ماذا كان مآلهم؟ أن نسوا وأهلكوا؛ كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسى . . . وغيرهما ممن ادعوا النبوة، كلهم تلاشوا وبان بطلان قولهم، وحُرموا الصواب والسداد لكن هذا النبى محمدًا ﷺ على العكس دعوته إلى الآن، والحمد لله، باقية - ونسأل الله أن يثبتنا وإياكم عليها - وإلى أن تقوم الساعة ثابتة راسخة، يستباح بدعوته إلى اليوم دماء من ناوأها من الكفار وأموالهم، وتسبى نساؤهم وذريتهم، هذه الشهادة فِعْلية، ما أخذه الله ولا فضحه ولا كذبه، ولهذا جاءت بعد قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

❊ قال الشيخ الفوزان:

(وكفى بالله شهيدًا)؛ أى: شاهدًا أنه رسوله ومطلع على جميع أفعاله، وناصره على أعدائه، وفى ذلك دلالة قاطعة على صدق هذا الرسول؛ إذ لو كان مفتريًا لعاجله الله بالعقوبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤، ٥٤].

❊ قال الشيخ هراس:

والشهيد فعيل، وهو مبالغة من شهد، وهو إما من الشهادة بمعنى الإخبار والإعلام، أو من الشهادة بمعنى الحضور والمعنى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾: مخبرًا بصدق رسوله أو حاضرًا مطلعًا لا يغيب عنه شىء.

والمعنى الإجمالى لما تقدم أن جميع أوصاف الكمال ثابتة لله على أكمل الوجوه وأتمها.

ومما يحمد عليه سبحانه نعمه على عباده التى لا يحصى أحد من الخلق عدها، وأعظمها إرساله محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين، وبشرى للمتقين، ليظهره على جميع الأديان بالحجة

---

(1) أخرجه البخارى (٢٧٨٠).

وأَشْهَدُ(١) أن لا إلهَ إلا اللَّهُ(٢) وحدَه(٣) لا شريكَ له(٤)، ....

والبرهان، والعز والتمكين والسلطان، وكفى بالله شهيدًا على صدق رسوله وحقيقة ما جاء به.

(١ - ٤) قال الشيخ ابن عثيمين:

«أشهد»؛ بمعنى: أقر بقلبي ناطقًا بلساني؛ لأن الشهادة نطق وإخبار عما في القلب؛ فأنت عند القاضي تشهد بحق فلان على فلان؛ تشهد باللسان المعبر عما في القلب واختيرت الشهادة دون الإقرار؛ لأن الشهادة أصلها من شهود الشيء؛ أي: حضوره ورؤيته؛ فكأن هذا المخبر عما في قلبه الناطق بلسانه؛ كأنه يشاهد الأمر بعينه.

«لا إله إلا الله»؛ أي: لا معبود حق إلا الله، وعلى هذا يكون خبر لا محذوفا، ولفظ الجلالة بدلًا منه.

«وحده» هي من حيث المعنى توكيد للإثبات.

«لا شريك له»: توكيد للنفي.

❊ قال الشيخ الفوزان:

(وأشهد أن لا إله إلا الله)؛ أي: أقر وأعترف أن لا معبود بحقٍّ إلا الله.

(وحده لا شريك له) في هاتين الكلمتين تأكيد لما تضمنته شهادة أن لا إله إلا الله من النفي والإثبات؛ نفي الإلهية عما سوى الله، وإثباتها لله، فقوله: (وحده) تأكيد للإثبات، وقوله: (لا شريك له) تأكيد للنفي.

❊ قال الشيخ هراس:

وشهادته سبحانه تكون بقوله وفعله وتأييده لرسوله بالنصر والمعجزات والبراهين المتنوعة على أن ما جاء به هو الحق المبين.

الشهادة: الإخبار بالشيء عن علم به واعتقاد لصحته وثبوته، ولا تعتبر الشهادة إلا إذا كانت مصحوبة بالإقرار والإذعان وواطأ القلب عليها اللسان، فإن الله قد كذب المنافقين في قولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾. مع أنهم قالوا [ذلك](1) بألسنتهم.

❊ قال الشيخ هراس:

ولا إله إلا الله هي كلمة التوحيد التي اتفقت عليها كلمة الرسل صلوات الله وسلامه

---

(1) زيادة يقتضيها السياق.

إقرارًا [١] به وتوحيدًا [٢]، ....

عليهم أجمعين، بل هي خلاصة دعواتهم وزبدة رسالاتهم، وما من رسول منهم إلا جعلها مفتتح أمره وقطب رحاه، كما قال نبينا ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا اللَّه. فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم، إلا بحقها وحسابهم على اللَّه عزَّ وجلَّ».

ودلالة هذه الكلمة على التوحيد باعتبار اشتمالها على النفى والإثبات المقتضى للحصر وهو أبلغ من الإثبات المجرد، كقولنا: اللَّه واحد. مثلًا فهى تدل بصدرها على نفى الإلهية عما سوى اللَّه تعالى، وتدل بعجزها على إثبات الإلهية له وحده. ولابد فيها من إضمار خبر تقديره: لا معبود بحق موجود إلا اللَّه.

وأما قوله: «وحده لا شريك له»؛ فهو تأكيد لما دلت عليه كلمة التوحيد.

(١، ٢) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

«إقرارًا به»: «إقرارًا» هذه مصدر، وإن شئت؛ فقل: إنه مفعول مطلق؛ لأنه مصدر معنوى لقوله: «أشهد»، وأهل النحو يقولون: إذا كان المصدر بمعنى الفعل دون حروفه؛ فهو مصدر معنوى، أو مفعول مطلق، وإذا كان بمعناه وحروفه؛ فهو مصدر لفظى فـ: قمت قيامًا: مصدر لفظى، و: قمت وقوفًا: مصدر معنوى، و: جلست جلوسًا: لفظى، و: جلست قعودًا: معنوى.

«وتوحيدًا» مصدر مؤكد لقوله: «لا إله إلا اللَّه».

❊ **قال الشيخ الفوزان:**

وقوله: (إقرارًا به وتوحيدًا) مصدران مؤكدان لمعنى الجملة السابقة. (وأشهد أن لا إله إلا اللَّه) إلخ؛ أى: إقرارًا باللسان، (وتوحيدًا)؛ أى: إخلاصًا فى كل عبادةٍ قوليةٍ أو فعليةٍ أو اعتقاديةٍ.

❊ **قال الشيخ هراس:**

وقوله: «إقرارًا به». مصدر مؤكد لمعنى الفعل أشهد، والمراد إقرار القلب واللسان.

وقوله توحيدًا أى: إخلاصًا للَّه عزَّ وجلَّ فى العبادة، فالمراد به التوحيد الإرادى الطلبى المبنى على توحيد المعرفة والإثبات.

وأشْهَدُ(١) أن محمدًا عبدُه(٢) ورسولُه(٣) ....

(١- ٣) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

نقول فى « أشهد » ما قلنا فى « أشهد » الأولى .

محمد : هو ابن عبد اللّه بن عبد المطلب القرشى الهاشمى الذى هو من سلاسة إسماعيل بن إبراهيم ، أشرف الناس نسبًا ، عليه الصلاة والسلام .

هذا النبى الكريم هو عبد اللّه ورسوله ، وهو أعبد الناس للّه ، وأشدهم تحقيقًا لعبادته ، كان عليه الصلاة والسلام يقوم فى الليل حتى تتورم قدماه ويقال له : كيف تصنع هذا وقد غفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فيقول : « أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟ »[1] .

لأن اللّه تعالى أثنى على العبد الشكور حين قال عن نوح : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ [الإسراء : ٣] ، فأراد النبى عليه الصلاة والسلام أن يصل إلى هذه الغاية ، وأن يعبد اللّه تعالى حق عبادته ، ولهذا كان أتقى الناس ، وأخشى الناس للّه ، وأشدهم رغبة فيما عند اللّه تعالى ؛ فهو عبد للّه ، ومقتضى عبوديته أنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا وليس له حق فى الربوبية إطلاقًا بل هو عبد محتاج إلى اللّه مفتقر له يسأله ويدعوه ويرجوه ويخافه ، بل إن اللّه أمره أن يعلن وأن يبلغ بلاغًا خاصًا بأنه لا يملك شيئًا من هذه الأمور فقال : ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف : ١٨٨] ، وأمره أن يقول : ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ [الأنعام : ٥٠] ، وأمره أن يقول : ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا إِلَّا بَلَٰغٗا﴾ [الجن : ٢١- ٢٣] ﴿إِلَّا﴾ استثناء منقطع ؛ أى : لكن أبلغ بلاغًا من اللّه ورسالاته .

فالحاصل أن محمدًا صلوات اللّه وسلامه عليه عبد للّهِ ، ومقتضى هذه العبودية أنه لا حق له فى شىء من شئون الربوبية إطلاقًا .

وإذا كان محمد رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه بهذه المثابة ، فما بالك بمن دونه من عباد اللّه ؟ ! فإنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ، ولا لغيرهم أبدًا وبهذا يتبين سفه أولئك القوم الذين يدعون من يدعونهم أولياء من دون اللّه عز وجل .

قوله : « ورسوله » : هذا أيضًا وصف لا يكون لأحد بعد رسول اللّه ﷺ ؛ لأنه خاتم النبيين ؛

(1) أخرجه البخارى (٤٨٣٦) ، ومسلم (٢٨١٩) .

....

فهو رسول اللَّه الذى بلغ مكانًا لم يبلغه أحد من البشر ، بل ولا من الملائكة فيما نعلم اللهم إلا حملة العرش ، وصل إلى ما فوق السماء السابعة ، وصل إلى موضع سمع فيه صريف أقلام القضاء[1] الذى يقضى به اللَّه عز وجل فى خلقه ، ما وصل أحد فيما نعلم إلى هذا المستوى ، وكلمه اللَّه عز وجل بدون واسطة ، وأرسله إلى الخلق كافة وأيده بالآيات العظيمة التى لم تكن لأحد من البشر أو الرسل قبله ، وهو هذا القرآن العظيم ؛ فإن هذا القرآن لا نظير له فى آيات الأنبياء السابقين أبدًا ، ولهذا قال اللَّه تعالى : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت : ٥٠، ٥١] ، هذا يكفى عن كل شىء ، ولكن لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، أما المُعرض ؛ فسيقول كما قال من سبقه : هذا أساطير الأولين .

الحاصل أن محمدًا ﷺ رسول اللَّه وخاتم النبيين ، ختم اللَّه به النبوة والرسالة أيضًا ، لأنه إذا انتفت النبوة ، وهى أعم من الرسالة ، انتفت الرسالة التى هى أخص ؛ لأن انتفاء الأعم يستلزم انتفاء الأخص ؛ فرسول اللَّه عليه الصلاة والسلام هو خاتم النبيين .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله) ؛ أى : أقر بلسانى ، وأعتقد بقلبى أن اللَّه أرسل عبده محمدًا ﷺ إلى الناس كافةً ؛ لأن الشهادة لهذا الرسول بالرسالة مقرونة بالشهادة للَّه بالتوحيد ، لا تكفى إحداهما عن الأخرى .

وفى قوله : (عبده ورسوله) . ردٌّ على أهل الإفراط والتفريط فى حق الرسول ﷺ ، فأهل الإفراط غلوا فى حقه ورفعوه فوق منزلة العبودية .

وأهل التفريط قد نبذوا ما جاء به وراء ظهورهم ، كأنه غير رسولٍ .

فشهادة أنه عبد اللَّه تنفى الغلو فيه ورفعه فوق منزلته ، وشهادة أنه رسول اللَّه تقتضى الإيمان به وطاعته فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر ، واجتناب ما نهى عنه ، واتباعه فيما شرع .

❁ قال الشيخ هراس :

وجعل الشهادة للرسول ﷺ بالرسالة والعبودية مقرونة بالشهادة للَّه بالتوحيد للإشارة إلى أنه لابد من كل منهما ، فلا تغنى إحداهما عن الأخرى ، ولهذا قرن بينهما فى الأذان وفى

---

(1) أخرجه البخارى (٣٤٩) ، ومسلم (١٦٣) .

صلَّى اللَّهُ عليه(١) ....

التشهد . وقال بعضهم فى تفسير قوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح : ٤] يعنى : لا أذكر إلا ذكرت معي[1] .

وإنما جمع له بين وصفى الرسالة والعبودية لأنهما أعلى ما يوصف به العبد ، والعبادة هى الحكمة التى خلق اللَّه الخلق لأجلها كما قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، فكمال المخلوق فى تحقيق تلك الغاية ، وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ، ولهذا ذكر اللَّه نبيه بلقب العبد فى أسمى أحواله وأشرف مقاماته كالإسراء ، به وقيامه بالدعوة إلى اللَّه والإيحاء إليه ، والتحدى بالذى أنزل عليه ، ونبه بوصف العبودية أيضًا إلى الرد على أهل الغلو الذين قد يتجاوزون بالرسول ﷺ قدره ويرفعونه إلى مرتبة الألوهية ، كما يفعل ضُلَّال الصوفية قبحهم اللَّه ، وقد صح عنه ﷺ أنه قال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، وإنما أنا عبد فقولوا : عبد اللَّه ورسوله »[2] . والمقصود أن هذه الشهادة تتضمن اعتراف العبد بكمال عبوديته ﷺ لربه وكمال رسالته ، وأنه فاق جميع البشر فى كل خصلة كمالِه ، ولا تتم هذه الشهادة حتى يصدقه العبد فى كل ما أخبر به ، ويطيعه فى كل ما أمر به ، وينتهى عما نهى عنه .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

معنى « صلى اللَّه عليه » : أحسن ما قيل فيه ما قاله أبو العالية رحمه اللَّه ؛ قال : « صلاة اللَّه على رسوله : ثناؤه عليه فى الملأ الأعلى »[3] .

وأما من فسر صلاة اللَّه عليه بالرحمة ؛ فقوله ضعيف ؛ لأن الرحمة تكون لكل أحد ، ولهذا أجمع العلماء على أنك يجوز أن تقول : فلان رحمه اللَّه . واختلفوا ؛ هل يجوز أن تقول : فلان صلى اللَّه عليه ؟ وهذا يدل على أن الصلاة غير الرحمة . وأيضا ؛ فقد قال اللَّه تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة : ١٥٧] . والعطف يقتضى المغايرة ، إذن ؛ فالصلاة أخص من الرحمة ؛ فصلاة اللَّه على رسوله ثناؤه عليه فى الملأ الأعلى .

(1) رواه إسماعيل بن إسحاق القاضى فى فضل الصلاة على النبى ﷺ عن مجاهد قال : حدثنا ابن عبد اللَّه قال : ثنا سفيان قال : ثنا ابن أبى نجيح عن مجاهد : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ . قال : لا أذكر إلا ذكرت معى أشهد أن لا إله إلا اللَّه ، أشهد أن محمدًا رسول اللَّه . أهـ . « إسماعيل الأنصاري » .

(2) أخرجه البخارى ومسلم .

(3) أخرجه البخارى (٣٩٣/٨) .

وعلى آلِه وصَحْبِه(١) ....

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

وقوله : (صلى اللَّه عليه) الصلاة لغةً : الدعاء ، وأصح ما قيل فى معنى الصلاة من اللَّه على الرسول : ما ذكره البخارى فى « صحيحه » ، عن أبى العالية ، قال : « صلاة اللَّه على رسوله ثناؤه عليه فى الملأ الأعلى »[1].

❁ **قال الشيخ هراس :**

الصلاة فى اللغة الدعاء ، قال تعالى : ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، وأصح ما قيل فى صلاة اللَّه على رسوله هو ما ذكره البخارى فى « صحيحه » عن أبى العالية ، قال : « صلاة اللَّه على رسوله ثناؤه عليه عند الملائكة » .

والمشهور أن الصلاة من الملائكة الاستغفار كما فى الحديث الصحيح : « والملائكة يصلون على أحدكم ما دام فى مجلسه الذى فيه يقولون : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه » . ومن الآدميين التضرع والدعاء .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « وعلى آله » ، و(آله) هنا : أتباعه على دينه هذا إذا ذكرت الآل وحدها أو مع الصحب ؛ فإنها تكون بمعنى أتباعه على دينه منذ بعث إلى يوم القيامة ويدل على أن الآل بمعنى الأتباع على الدين قوله تعالى فى آل فرعون : ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر : ٤٦] ؛ أى : أتباعه على دينه .

أما إذا قرنت بالأتباع ؛ فقيل : آله وأتباعه ، فالآل هم المؤمنون من آل البيت ؛ أى : بيت الرسول عليه الصلاة والسلام .

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه لم يذكر الأتباع هنا ؛ قال : « آله وصحبه » ؛ فنقول : آله هم أتباعه على دينه ، وصحبه كل من اجتمع بالنبى ﷺ مؤمنًا به ومات على ذلك .

وعطف « الصحب » هنا على « الآل » من باب عطف الخاص على العام ؛ لأن الصحبة أخص من مطلق الاتباع .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

(وعلى آله) آل الشخص من ينتمون إليه بصلةٍ وثيقةٍ من قرابةٍ ونحوها ، وأحسن ما قيل فى

---

(1) رواه البخارى معلقًا (٥٣٢/٨- فتح) بإسناد حسن .

وسلَّمَ(١) تسليمًا مَزيدًا(٢) .

المراد بآل الرسول ﷺ هنا أنهم أتباعه على دينه .

(وأصحابه) جمع صاحبٍ ، من عطف الخاص على العام ، والصحابي : هو من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ، ومات على ذلك .

❁ قال الشيخ هراس :

وآل الشخص هم من يمتُّون إليه بصلة وثيقة من قرابة ونحوها وآله ﷺ يراد بهم أحيانًا من حرمت عليهم الصدقة وهم بنو هاشم وبنو المطلب ، ويراد بهم أحيانًا كل من تبعه على دينه ، وأصل « آل » أهل ، أبدلت الهاء همزة فتوالت همزتان فقلبت الثانية منهما ألفًا ويصغر على : أهيل أو : أويل ، ولا يستعمل إلا فيما شرف غالبًا فلا يقال : آل الإسكاف . وآل الحجام . والمراد بالصحب أصحابه ﷺ هم كل من لقيه حال حياته مؤمنًا ومات على ذلك .

(١ ، ٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « وسلم تسليما مزيدًا » : (سلم) فيها السلامة من الآفات ، وفي الصلاة حصول الخيرات ؛ فجمع المؤلف في هذه الصيغة بين سؤال اللّه تعالى أن يحقق لنبيه الخيرات - وأخصها : الثناء عليه في الملأ الأعلى - وأن يزيل عنه الآفات ، وكذلك من اتبعه .

والجملة في قوله : « صلى » و« سلم » خبرية لفظًا طلبية معنى ؛ لأن المراد بها الدعاء .

قوله : « مزيدًا » ؛ بمعنى : زائدًا أو زيادة ، والمراد تسليمًا زائدًا على الصلاة ، فيكون دعاء آخر بالسلام بعد الصلاة .

والرسول عند أهل العلم : « من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه »(1) .

وقد نبئ ﷺ بـ : ﴿اقْرَأْ﴾ وأرسل بالمدثر ؛ فبقوله تعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ . إلى قوله تعالى : ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق : ١- ٥] كان نبيًّا ، وبقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر : ١، ٢] كان رسولا عليه الصلاة والسلام .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(وسلم تسليمًا مزيدًا) السلام بمعنى التحية ، أو السلامة من النقائص والرذائل .

---

(1) الصحيحة للألباني (٢٦٦٨) .

أمَّا بعدُ[1] :

وقوله : (مزيدًا) . اسم مفعولٍ من الزيادة ، وهى النمو ، وجمع بين الصلاة والسلام ؛ امتثالًا لقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

❊ قال الشيخ هراس :

والسلام اسم مصدر من سلم تسليمًا عليه ، بمعنى طلب له السلامة من كل مكروه ، وهو اسم من أسمائه تعالى ، ومعناه : البراءة والخلاص من النقائص والعيوب ، أو الذى يسلم على عباده المؤمنين فى الآخرة .

ومزيدًا : صفة لتسليمًا ، وهو اسم مفعول من زاد المتعدى ، والتقدير : مزيدًا فيه .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

« أما بعد » : (أما) هذه نائبة عن اسم شرط وفعله ، التقدير : مهما يكن من شىء ؛ قال ابن مالك :

أَمَّا كَمَهْمَا يَكُ مِنْ شَىْءٍ وَفَا لِتِلْوِ تِلْوِهَا وجوبًا أُلِفَا

فقولهم : أما بعد : التقدير : مهما يكن من شىء بعد هذا ؛ فهذا .

وعليه ؛ فالفاء هنا رابطة للجواب والجملة بعدها فى محل جزم جواب الشرط ، ويحتمل عندى أن تكون : « أما بعد ؛ فهذا » ؛ أى أن (أما) حرف شرط وتفصيل أو حرف شرط فقط مجرد عن التفصيل ، والتقدير : أما بعد ذكر هذا ، فأنا أذكر كذا وكذا . ولا حاجة أن نقدر فعل شرط ، ونقول : إن (أما) حرف ناب مناب الجملة .

❊ قال الشيخ الفوزان :

« أما بعد » : هذه الكلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ آخر ، ومعناها : مهما يكن من شىءٍ ، ويستحب الإتيان بها فى الخطب والمكاتبات ؛ اقتداءً بالنبى ﷺ ، حيث كان يفعل ذلك .

❊ قال الشيخ هراس :

« أما بعد » : كلمة يؤتى بها للدلالة على الشروع فى المقصود ، وكان النبى ﷺ يستعملها كثيرًا فى خطبه وكتبه . وتقديرها عند النحويين : مهما يكن من شىء بعد .

فهذا(١) اعتقادُ(٢) ....

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

« **فهذا** » : الإشارة لابد أن تكون إلى شيء موجود ، فأنا عندما أقول : هذا ؛ فإنى أشير إلى شيء محسوس ظاهر ، وهنا المؤلف كتب الخطبة قبل الكتاب وقبل أن يبرز الكتاب لعالم الشاهد ؛ فكيف ذلك ؟!

أقول : إن العلماء يقولون : إن كان المؤلف كتب الكتاب ثم كتب المقدمة والخطبة ؛ فالمشار إليه موجود ومحسوس ، ولا إشكال فيه ، وإن لم يكن كتبه ، فإن المؤلف يشير إلى ما قام فى ذهنه عن المعانى التى سيكتبها فى هذا الكتاب ، وعندى فيه وجه ثالث ، وهو أن المؤلف قال هذا باعتبار حال المخاطب ، والمخاطب لم يخاطب بذلك إلا بعد أن برز الكتاب وصدر ؛ فكأنه يقول : « فهذا الذى بين يديك كذا وكذا » .

هذه إذن ثلاثة أوجه .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

« **فهذا** » : إشارة إلى ما تضمنته هذه الرسالة ، واحتوت عليه من العقائد الإيمانية التى أجملها بقوله : (وهو الإيمان بالله - إلخ) .

❁ **قال الشيخ هراس :**

والإشارة بقوله : « هذا » إلى ما تضمنه هذا المؤلف من العقائد الإيمانية التى أجملها فى قوله : « وهو الإيمان بالله . .. إلخ » .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

« **اعتقادا** » : افتعال من العقد وهو الربط والشد هذا من حيث التصريف اللغوى ، وأما فى الاصطلاح عنهم ؛ فهو حكم الذهن الجازم ؛ يقال : اعتقدت كذا ؛ يعنى : جزمت به فى قلبى ؛ فهو حكم الذهن الجازم ؛ فإن طابق الواقع ؛ فصحيح ، وإن خالف الواقع ؛ ففاسد ؛ فاعتقادنا أن الله إله واحد صحيح ، واعتقاد النصارى أن الله ثالث ثلاثة باطل ؛ لأنه مخالف للواقع ووجه ارتباطه بالمعنى اللغوى ظاهر ؛ لأن هذا الذى حكم فى قلبه على شيء ما كأنه عقده عليه وشده عليه بحيث لا يتفلت منه .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

« **اعتقاد** » : مصدر اعتقد كذا ، إذا اتخذه عقيدةً ، والعقيدة : هى ما يعقد عليه المرء قلبه ،

الفرقةِ(١) الناجيةِ(٢) ....

تقول : اعتقدت كذا ؛ أى : عقدت عليه القلب ، والضمير .

وأصله مأخوذ من عقد الحبل ، إذا ربطه . ثم استعمل فى عقيدة القلب وتصميمه الجازم .

❁ قال الشيخ هراس :

« والاعتقاد » : مصدر اعتقد كذا ، إذ اتخذه عقيدة له ، بمعنى عقد عليه الضمير والقلب ودان للّه به ، وأصله من عقد الحبل ، ثم استعمل فى التصميم والاعتقاد الحازم .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

« الفرقة » بكسر الفاء ؛ بمعنى : الطائفة ، قال اللّه تعالى : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة : ١٢٢] ، وأما الفرقة بالضم ؛ فهى مأخوذة من الافتراق .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(الفرقة) ؛ أى : الطائفة والجماعة .

❁ قال الشيخ هراس :

والفرقة - بكسر الفاء - : الطائفة من الناس .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

« الناجية » : اسم فاعل من نجا ، إذا سلم ؛ ناجية فى الدنيا من البدع سالمة منها ، وناجية فى الآخرة من النار .

ووجه ذلك أن النبى ﷺ قال : « وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا واحدة » . قالوا : من هى يا رسول اللّه ؟ قال : « من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي »[1] .

هذا الحديث يبين لنا معنى (الناجية) ؛ فمن كان على مثل ما عليه النبى ﷺ وأصحابه ؛ فهو ناجٍ من البدع . و« كلها فى النار إلا واحدة » : إذا هى ناجية من النار ؛ فالنجاة هنا من البدع فى الدنيا ، ومن النار فى الآخرة .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(الناجية) ؛ أى : التى سلمت من الهلاك والشرور فى الدنيا والآخرة ، وحصلت على السعادة . وهذا الوصف مأخوذ من قوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى على الحق منصورةً ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر اللّه » . [رواه البخارى ومسلم][2] .

---

(1) صحيح الجامع للألبانى (٢٠٤٢) .

(2) البخارى (٧٣١١) ، ومسلم (١٥٣٢/٣) .

المنصورةِ(١) إلى قيامِ الساعةِ(٢)؛ ....

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

«المنصورة» عبر المؤلف بذلك موافقة للحديث؛ حيث قال النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين»[1]. والظهور الانتصار؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]، والذى ينصرها هو اللّٰه وملائكته والمؤمنون؛ فهى منصورة إلى قيام الساعة؛ منصورة من الرب عز وجل، ومن الملائكة، ومن عباده المؤمنين، حتى قد يُنْصَرُ الإِنْسَانُ من الجن، ينصره الجنُّ ويُرهبون عدوه.

❋ **قال الشيخ الفوزان:**

(المنصورة)؛ أى: المؤيدة على من خالفها.

❋ **قال الشيخ هراس:**

ووصفها بأنها الناجية المنصورة أخذًا من قوله عليه السلام: «لا تزال طائفة من أمتى على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر اللّٰه».

ومن قوله فى الحديث الآخر: «ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلهم فى النار إلا واحدة، وهى من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

«إلى قيام الساعة»؛ أى: إلى يوم القيامة؛ فهى منصورة إلى قيام الساعة.

وهنا يَرِد إشكال، وهو أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر بأن الساعة تقوم على شرار الخلق[2]، وأنه لا تقوم حتى لا يقال: اللّٰه اللّٰه[3]. فكيف نجمع بين هذا وبين قوله: «إلى قيام الساعة»؟!

والجواب: أن يقال: إن المراد: إلى قرب قيام الساعة؛ لقوله فى الحديث: «حتى يأتى أمر اللّٰه». أو: إلى قيام الساعة؛ أى: ساعتهم، وهو موتهم؛ لأن من مات فقد قامت قيامته، لكن الأول أقرب؛ فهم منصورون إلى قرب قيام الساعة، وإنما لجأنا إلى هذا التأويل لدليل، والتأويل بدليل جائز؛ لأن الكل من عند اللّٰه.

---

(1) أخرجه البخارى (٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧).

(2) أخرجه مسلم (١٩٢٤).

(3) أخرجه مسلم (١٤٨).

أهلِ السنةِ والجماعةِ[1]، ....

❋ قال الشيخ الفوزان :

(إلى قيام الساعة) ؛ أى : مجىء ساعة موتهم بمجىء الريح التى تقبض روح كل مؤمنٍ، فهذه هى الساعة فى حق المؤمنين .

وأما الساعة التى يكون بها انتهاء الدنيا فهى لا تقوم إلا على شرار الناس ؛ لما فى صحيح مسلمٍ : « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض اللَّه اللَّه »[1] .

وروى الإمام الحاكم من حديث عبد اللَّه بن عمرٍو ، رضى اللَّه عنهما ، وفيه : « ويبعث اللَّه ريحًا ، ريحها ريح المسك ، ومسها مس الحرير ، فلا تترك أحدًا فى قلبه مثقال ذرةٍ من إيمانٍ إلا قبضته ، ثم يبقى شرار الناس ، فعليهم تقوم الساعة »[2] .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

« أهل السنة والجماعة » : أضافهم إلى السنة ؛ لأنهم متمسكون بها ، والجماعة ؛ لأنهم مجتمعون عليها .

فإن قلت : كيف يقول : « أهل السنة والجماعة » ؛ لأنهم جماعة ؛ فكيف يضاف الشىء إلى نفسه ؟ !

فالجواب : أن الأُصل أن كلمة الجماعة بمعنى الاجتماع ؛ فهى اسم مصدر ، هذا فى الأصل ، ثم نقلت من هذا الأصل إلى القوم المجتمعين ، وعليه ؛ فيكون معنى أهل السنة والجماعة ؛ أى : أهل السنة والاجتماع ، سموا أهل السنة ؛ لأنهم متمسكون بها ، وسموا أهل الجماعة ؛ لأنهم مجتمعون عليها .

ولهذا لم تفترق هذه الفرقة كما افترق أهل البدع ؛ نجد أهل البدع ؛ كالجهمية والروافض متفرقين ، وغيرهم من أهل التعطيل متفرقين ، لكن هذه الفرقة مجتمعة على الحق ، وإن كان قد يحصل بينهم خلاف ، لكنه خلاف لا يضر ، وهو خلافٌ لا يُضلل أحدهم الآخر به ؛ أى أن صدورهم تتسع له ، وإلا ؛ فقد اختلفوا فى أشياء مما يتعلق بالعقيدة ، مثل : هل رأى النبى ﷺ ربه بعينه أم لم يره ؟ ومثله : هل عذاب القبر على البدن والروح أو الروح فقط ؟ ومثل بعض الأمور

---

(1) رواه مسلم (١/١٣١) (١٤٨) .

(2) رواه مسلم (٣/١٥٢٤) (١٥٢٥) (١٩٢٤) موقوفًا على عبد اللَّه بن عمرو .

....

يختلفون فيها ، لكنها مسائل تعد فرعية بالنسبة للأصول ، وليست من الأصول . ثم هم مع ذلك إذا اختلفوا ؛ لا يُضلل بعضهم بعضًا ؛ بخلاف أهل البدع .

إذن فهم مجتمعون على السنة ؛ فهم أهل السنة والجماعة .

وعلم من كلام المؤلف رحمه الله أنه لا يدخل فيهم من خالفهم فى طريقتهم ؛ فالأشاعرة مثلا والماتريدية لا يعدون من أهل السنة والجماعة فى هذا الباب ؛ لأنهم مخالفون لما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه فى إجراء صفات الله سبحانه وتعالى على حقيقتها ، ولهذا يخطئ من يقول : إن أهل السنة والجماعة ثلاثة : سلفيون ، وأشعريون ، وماتريديون . فهذا خطأ ؛ نقول : كيف يكون الجميع أهل سنة وهم مختلفون ؟ ! فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ ! وكيف يكونون أهل سنة وكل واحد يرد على الآخر ؟ ! هذا لا يمكن ؛ إلا إذا أمكن الجمع بين الضدين ؛ فنعم ، وإلا ؛ فلا شك أن أحدهم وحده هو صاحب السنة ؛ فمن هو ؟ ! الأشعرية ، أم الماتريدية ، أم السلفية ؟ ! نقول : من وافق السنة ؛ فهو صاحب السنة ومن خالف السنة ؛ فليس صاحب سنة ؛ فنحن نقول : السلف هم أهل السنة والجماعة ، ولا يصدق الوصف على غيرهم أبدًا والكلمات تعتبر بمعانيها لننظر كيف نسمى من خالف السنة أهل سنة ؟ ! لا يمكن ! وكيف يمكن أن نقول عن ثلاث طوائف مختلفة : إنهم مجتمعون ؟ ! فأين الاجتماع ؟ ! فأهل السنة والجماعة هم السلف معتقدًا ، حتى المتأخر إلى يوم القيامة إذا كان على طريقة النبى ﷺ وأصحابه ؛ فإنه سلفى .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

(أهل السنة) « أهل » بالكسر على أنه بدل من « الفرقة » ، ويجوز الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، تقديره (هم) .

والسنة : هى الطريقة التى كان عليها رسول الله ﷺ ؛ من أقواله وأفعاله وتقريراته .

وسموا أهل السنة ؛ لانتسابهم لسنة الرسول ﷺ دون غيرها من المقالات والمذاهب ، بخلاف أهل البدع ؛ فإنهم ينسبون إلى بدعهم وضلالاتهم ؛ كالقدرية والمرجئة ، وتارةً ينسبون إلى إمامهم كالجهمية ، وتارةً ينسبون إلى أفعالهم القبيحة كالرافضة والخوارج .

(والجماعة)لغةً : الفرقة المجتمعة من الناس ، والمراد بهم هنا الذين اجتمعوا على الحق الثابت بالكتاب والسنة ، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسانٍ ، ولو كانوا قلةً ، كما قال ابن

وهو الإيمانُ باللَّهِ(١) ....

مسعودٍ رضى اللَّه عنه : « الجماعة ما وافق الحق ، وإن كنت وحدك ، فإنك أنت الجماعة حينئذٍ » .

❊ قال الشيخ هراس :

وقوله : « أهل السنة والجماعة » بدل من الفرقة ، والمراد بالسنة الطريقة التى كان عليها رسول اللَّه ﷺ وأصحابه قبل ظهور البدع والمقالات . والجماعة فى الأصل القوم المجتمعون ، والمراد بهم هنا سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين الذين اجتمعوا على الحق الصريح من كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

هذه العقيدة أصَّلها لنا النبى ﷺ فى جواب جبريل حين سأل النبى ﷺ : ما الإسلام ؟ ما الإيمان ؟ ما الإحسان ؟ متى الساعة ؟ فالإيمان - قال له : « أن تؤمن باللَّه وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره »[1].

« الإيمان باللَّه » : الإيمان فى اللغة : يقول كثير من الناس : إنه التصديق ؛ فصدقت وآمنت معناهما لغة واحد ، وقد سبق لنا فى « التفسير » أن هذا القول لا يصح بل الإيمان فى اللغة : الإقرار بالشىء عن تصديق به ؛ بدليل أنك تقول : آمنت بكذا وأقررت بكذا وصدقت فلانا . ولا تقول : آمنت فلانًا .

إذن فالإيمان يتضمن معنًى زائدًا على مجرد التصديق ، وهو الإقرار والاعتراف المستلزم للقبول للأخبار والإذعان للأحكام ، هذا الإيمان ، أما مجرد أن تؤمن بأن اللَّه موجود ؛ فهذا ليس بإيمان ، حتى يكون هذا الإيمان مستلزمًا للقبول فى الأخبار والإذعان فى الأحكام ، وإلا ؛ فليس إيمانًا .

والإيمان باللَّه يتضمن أربعة أمور :

١ - الإيمان بوجوده سبحانه وتعالى .

٢ - الإيمان بربوبيته ؛ أى : الانفراد بالربوبية .

٣ - الإيمان بانفراده بالألوهية .

---

(1) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه .

....

٤ - الإيمان بأسمائه وصفاته . لا يمكن أن يتحقق الإيمان إلا بذلك .

فمن لم يؤمن بوجود الله ؛ فليس بمؤمن ، ومن آمن بوجود الله لا بانفراده بالربوبية ؛ فليس بمؤمن ، ومن آمن بالله وانفراده بالربوبية لا بالألوهية ؛ فليس بمؤمن ، ومن آمن بالله وانفراده بالربوبية والألوهية لكن لم يؤمن بأسمائه وصفاته ؛ فليس بمؤمن ، وإن كان الأخير فيه من يسلب عنه الإيمان بالكلية وفيه من سلب عنه كمال الإيمان .

الإيمان بوجوده :

إذا قال قائل : ما الدليل على وجود الله عز وجل ؟

قلنا : الدليل على وجود الله : العقل ، والحس ، والشرع ؛

ثلاثة كلها تدل على وجود الله ، وإن شئت ، فزد : الفطرة ، فتكون الدلائل على وجود الله أربعة : العقل ، والحس ، والفطرة ، والشرع . وأخّرنا الشرع ، لا لأنه لا يستحق التقديم ، لكن لأننا نخاطب من لا يؤمن بالشرع .

- فأما دلالة العقل ؛ فنقول : هل وجود هذه الكائنات بنفسها ، أو وُجدت هكذا صدفة ؟

فإن قلت : وجدت بنفسها ؛ فمستحيل عقلا ما دامت هى معدومة ؛ كيف تكون موجودة وهى معدومة ؟ ! المعدوم ليس بشيء حتى يوجد ، إذن لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها ، وإن قلت : وجدت صدفة ، فنقول : هذا يستحيل أيضًا ؛ فأنت أيها الجاحد ؛ هل ما أنتج من الطائرات والصواريخ والسيارات والآلات بأنواعها ؛ هل وجد هذا صدفة ؟ ! فيقول : لا يمكن أن يكون . فكذلك هذه الأطيار والجبال والشمس والقمر والنجوم والشجر والجمر والرمال والبحار وغير ذلك لا يمكن أن توجد صدفة أبدًا .

ويقال : إن طائفة من السُّمنية جاءوا إلى أبى حنيفة رحمه الله ، وهم من أهل الهند ، فناظروه فى إثبات الخالق عز وجل ، وكان أبو حنيفة من أذكى العلماء فوعدهم أن يأتوا بعد يوم أو يومين ، فجاءوا ؛ قالوا : ماذا قلت ؟ قال : أنا أفكر فى سفينة مملوءة من البضائع والأرزاق جاءت تشق عبـب الماء حتى أرست فى الميناء ونزلت الحمولة وذهبت ، وليس فيها قائد ولا حمالون .

قالوا : تفكر بهذا ؟ ! قال : نعم . قالوا : إذن ليس لك عقل ! هل يُعقل أن سفينة تأتى بدون قيّـ وتنزل وتنصرف ؟ ! هذا ليس معقول ! قال : كيف لا تعقلون هذا ، وتعقلون أن هذه السماوات والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والناس كلها بدون صانع ؟ فعرفوا

....

أن الرجل خاطبهم بعقولهم ، وعجزوا عن جوابه هذا أو معناه .

وقيل لأعرابى من البادية : بم عرفت ربك ؟ فقال : الأثر يدل على المسير ، والبعرة تدل على البعير ؛ فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ؛ ألا تدل على السميع البصير ؟

ولهذا قال الله عز وجل : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور : ٣٥] .

فحينئذ يكون العقل دالًّا دلالة قطعية على وجود الله .

- وأما دلالة الحس على وجود الله ؛ فإن الإنسان يدعو الله عز وجل ؛ يقول : يا رب ! ويدعو بالشيء ، ثم يستجاب له فيه ، وهذه دلالة حسّية ، هو نفسه لم يدعُ إلا الله ، واستجاب الله له ، رأى ذلك رأى العين . وكذلك نحن نسمع عمَّن سبق وعمَّن فى عصرنا ؛ أن الله استجاب له .

فالأعرابى الذى دخل والرسول ﷺ يخطب الناس يوم الجمعة قال : هلكت الأموال ، وانقطعت السبل فادع الله أن يغيثنا . قال أنس : والله ، ما فى السماء من سحاب ولا قزعة (أى : قطعة سحاب) وما بيننا وبين سَلْع (جبل فى المدينة تأتى من جهته السحب) من بيت ولا دار .. وبعد دعاء الرسول ﷺ فورًا خرجت سحابة مثل الترس ، وارتفعت فى السماء وانتشرت ورعدت ، وبرقت ، ونزل المطر ، فما نزل الرسول ﷺ إلا والمطر يتحادر من لحيته عليه الصلاة والسلام[1] .

وهذا أمر واقع يدل على وجود الخالق دلالة حسية .

وفى القرآن كثير من هذا ؛ مثل : ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء : ٨٣، ٨٤] وغير ذلك من الآيات .

- وأما دلالة الفطرة ؛ فإن كثيرًا من الناس الذين لم تنحرف فطرهم يؤمنون بوجود الله ، حتى البهائم العجم تؤمن بوجود الله ، وقصة النملة التى رويت عن سليمان عليه الصلاة والسلام ؛ [أنه] خرج يستسقى ، فوجد نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها نحو السماء ، تقول : اللهم إنا خلق من خلقك ؛ فلا تمنع عنا سُقياك .

---

(1) أخرجه البخارى (٩٣٣) ، ومسلم (٨٩٧) .

....

فقال: « ارجعوا؛ فقد سقيتم بدعوة غيركم ».

فالفطر مجبولة على معرفة الله عز وجل وتوحيده. وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣]. فهذه الآية تدل على أن الإنسان مجبول بفطرته على شهادته بوجود الله وربوبيته وسواء أقلنا: إن الله استخرجهم من ظهر آدم واستشهدهم. أو قلنا: إن هذا هو ما رَكّب الله تعالى في فطرهم من الإقرار به. فإن الآية تدل على أن الإنسان يعرف ربه بفطرته.

هذه أدلة أربعة تدل على وجود الله سبحانه وتعالى.

- وأما دلالة الشرع؛ فلأن ما جاءت به الرسل من شرائع الله تعالى المتضمنة لجميع ما يصلح الخلق يدل على أن الذى أرسل بها رب رحيم حكيم، ولا سيما هذا القرآن المجيد الذى أعجز البشر والجن أن يأتوا بمثله.

❁ قال الشيخ الفوزان:

(وهو) ؛ أى: اعتقاد الفرقة الناجية، (الإيمان) الإيمان معناه لغةً: التصديق، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ٧١] أى: مصدقٍ.

وتعريفه شرعًا: أنه قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح.

وقوله: (بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر؛ خيره وشره). هذه هى أركان الإيمان الستة التى لا يصح إيمان أحدٍ إلا إذا آمن بها جميعًا على الوجه الصحيح الذى دل عليه الكتاب والسنة، وهذه الأركان هى:

١ - الإيمان بالله، وهو الاعتقاد الجازم بأنه رب كل شيءٍ ومليكه، وأنه متصف بصفات الكمال، منزه عن كل عيبٍ ونقصٍ، وأنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، والقيام بذلك علمًا وعملًا.

❁ قال الشيخ هراس:

هذه الأمور الستة هى أركان الإيمان، فلا يتم إيمان أحد إلا إذا آمن بها جميعًا على الوجه الصحيح الذى دل عليه الكتاب والسنة، فمن جحد شيئًا منها أو آمن به على غير هذا الوجه فقد

وملائكته[1] ....

كفر ، وقد ذكرت كلها فى حديث جبريل المشهور حين جاء إلى النبى ﷺ فى صورة أعرابى يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وتؤمن بالبعث بعد الموت ، وبالقدر خيره وشره ، حلوه ومره من الله تعالى » .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الملائكة جمع : ملأك ، وأصل ملأك : مألك ؛ لأنه من الألوكة ، والألوكة فى اللغة الرسالة ؛ قال الله تعالى : ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ﴾ [فاطر : ١] .

فالملائكة عالم غيبى ، خلقهم الله عز وجل من نور ، وجعلهم طائعين له متذللين له ، ولكل منهم وظائف خصَّه الله بها ، ونعلم من وظائفهم :

أولا : جبريل : موكل بالوحى ، ينزل به من الله تعالى إلى الرسل .

ثانيًا : إسرافيل : موكل بنفخ الصور ، وهو أيضًا أحد حملة العرش .

ثالثًا : ميكائيل : موكل بالقطر والنبات .

وهؤلاء الثلاثة كلهم موكلون بما فيه حياة ؛ فجبريل موكل بالوحى وفيه حياة القلوب ، وميكائيل بالقطر والنبات وفيه حياة الأرض ، وإسرافيل بنفخ الصور وفيه حياة الأجساد يوم المعاد .

ولهذا كان النبى ﷺ يتوسل بربوبية الله لهم فى دعاء الاستفتاح فى صلاة الليل ، فيقول : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم »[1] ، هذا الدعاء الذى كان يقوله فى قيام الليل متوسلا بربوبية الله لهم .

كذلك نعلم أن منهم من وُكِّل بقبض أرواح بنى آدم ، أو بقبض روح كل ذى روح وهم : ملك الموت وأعوانه ولا يسمى : عزرائيل ؛ لأنه لم يثبت عن النبى عليه الصلاة والسلام أن اسمه هذا .

قال تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام : ٦١] . وقال تعالى : ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة : ١١] . وقال تعالى : ﴿ٱللَّهُ

---

(1) أخرجه مسلم (٧٧٠) .

....

﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

ولا منافاة بين هذه الآيات الثلاث ؛ فإن الملائكة تقبض الروح ؛ فإن ملك الموت إذا أخرجها من البدن تكون عنده ملائكة ، إن كان الرجل من أهل الجنة ؛ فيكون معهم حنوط من الجنة ، وكفن من الجنة ، يأخذون هذه الروح الطيبة ، ويجعلونها فى هذا الكفن ، ويصعدون بها إلى الله عز وجل حتى تقف بين يدى الله عز وجل ، ثم يقول : « اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض » . فترجع الروح إلى الجسد من أجل الاختبار : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ وإن كان الميت غير مؤمن والعياذ بالله ، فإنه ينزل ملائكة معهم كفن من النار ، وحنوط من النار ، يأخذون الروح ، ويجعلونها فى هذا الكفن ، ثم يصعدون بها إلى السماء ، فتغلق أبواب السماء دونها وتطرح إلى الأرض ؛ قال الله تعالى : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] ، ثم يقول الله : « اكتبوا كتاب عبدى فى سجين »[1] . نسأل الله العافية ! .

هؤلاء موكلون بقبض الروح من ملك الموت إذا قبضها ، وملك الموت هو الذى يباشر قبضها ؛ فلا منافاة إذن ، والذى يأمر بذلك هو الله ، فيكون فى الحقيقة هو المتوفى .

ومنهم ملائكة سياحون فى الأرض ، يلتمسون حِلَق الذكر ، إذا وجدوا حلقة العلم والذكر ؛ جلسوا[2] .

وكذلك هناك ملائكة يكتبون أعمال الإنسان : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ كِرَامًا كَٰتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢] ، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] .

دخل أحد أصحاب الإمام أحمد عليه وهو مريض رحمه الله فوجده يئن من المرض ، فقال له : يا أبا عبد الله ! تئن ، وقد قال طاوس : إن الملك يكتب حتى أنين المريض ؛ لأن الله يقول : ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ؟ فجعل أبو عبد الله يتصبر وترك الأنين ؛ لأن كل شىء يكتب [كما قال تعالى] : ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ . من : زائدة لتوكيد العموم ، أى قول تقوله : يكتب لكن قد تجازى عليه بخير أو بشر ، هذا حسب القول الذى قيل .

---

(1) أخرجه أبو داود (٣٢١٢) ، والنسائى (٤/٧٨) ، وابن ماجه (١٥٤٨، ١٥٤٩) ، وأحمد (٤/٢٨٧) .

(2) أخرجه البخارى (٦٤٠٨) ، ومسلم (٢٦٨٩) .

....

ومنهم أيضًا ملائكة يتعاقبون على بنى آدم فى الليل والنهار، ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

ومنهم ملائكة رُكَّع وسجَّد لله فى السماء؛ قال النبى عليه الصلاة والسلام: «أطت السماء، وحق لها أن تئط». والأطيط: صرير الرحل؛ أى: إذا كان على البعير حمل ثقيل؛ تسمع له صرير من ثقل الحمل، فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «أطت السماء، وحق لها أن تئط ما من موضع أربع أصابع منها؛ إلا وفيه ملك قائم لله أو راكع أو ساجد»(1). وعلى سعة السماء فيها هؤلاء الملائكة.

ولهذا قال الرسول ﷺ فى البيت المعمور الذى مر به فى ليلة المعراج؛ قال: «يطوف به - أو قال: يدخله - سبعون ألف ملك كل يوم، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم»(2). والمعنى: كل يوم يأتى إليه سبعون ألف ملك غير الذين أتوه بالأمس، ولا يعودون له أبدًا، يأتى ملائكة آخرون غير من سبق، وهذا يدل على كثرة الملائكة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

ومنهم ملائكة موكَّلون بالجنة وموكلون بالنار؛ فخازن النار اسمه مالك؛ يقول أهل النار: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]؛ يعنى: ليهلكنا ويميتنا؛ فهم يدعون الله أن يميتهم؛ لأنهم فى عذاب لا يصبر عليه، فيقول: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]؛ ثم يقال لهم: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨].

المهم: أنه يجب علينا أن نؤمن بالملائكة.

وكيف الإيمان بالملائكة؟

نؤمن بأنهم عالم غيبى لا يشاهدون، وقد يشاهدون، إنما الأصل أنهم عالم غيبى مخلوقون من نور مكلفون بما كلفهم الله به من العبادات وهم خاضعون لله عز وجل أتم الخضوع، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

كذلك نؤمن بأسماء من علمنا بأسمائهم ونؤمن بوظائف من علمنا بوظائفهم ويجب علينا

---

(1) صحيح الجامع للألبانى (٢٤٤٩).

(2) أخرجه البخارى (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

....

أن نؤمن بذلك على ما علمنا .

وهم أجساد ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر : ١] ، ورأى النبي ﷺ جبريل على صورته التى خُلق عليها له ستمائة جناح قد سد الأفق(1) ؛ خلافًا لمن قال : إنهم أرواح .

إذا قال قائل : هل لهم عقول ؟ نقول : هل لك عقل ؟ ما يسأل عن هذا إلا رجل مجنون ؛ فقد قال الله تعالى : ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ؛ فهل يثنى عليهم هذا الثناء وليس لهم عقول ؟ ! ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] ؛ أنقول : هؤلاء ليس لهم عقول ؟ ! يأتمرون بأمر الله ، ويفعلون ما أمر الله به ويبلغون الوحى .

ونقول : ليس لهم عقول ؟ ! أحق من يوصف بعدم العقل من قال : إنه لا عقول لهم ! ! .

❋ قال الشيخ الفوزان :

٢ - الإيمان بالملائكة ؛ أى : التصديق بوجودهم ، وأنهم كما وصفهم الله فى كتابه ، كما فى الآية [بأنهم] ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ❋ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧] .

وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة وأوصافهم ، وأنهم موكلون بأعمال يؤدونها كما أمرهم الله ، فيجب الإيمان بذلك كله .

❋ قال الشيخ هراس :

(والملائكة) : جمع ملاك وأصله مألك من الألوكة ، وهى الرسالة ، وهم نوع من خلق الله عز وجل أسكنهم سماواته ووكلهم بشئون خلقه ووصفهم فى كتابه بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وأنهم يسبحون له بالليل والنهار لا يفترون . فيجب علينا الإيمان بما ورد فى حقهم من صفات وأعمال فى الكتاب والسنة ، والإمساك عما وراء ذلك ، فإن هذا من شئون الغيب التى لا نعلم منها إلا ما علمنا الله ورسوله .

---

(1) أخرجه البخارى (٣٢٣٥) .

وكُتُبِه(١) ورُسُلِه(٢)، ....

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

أي كتب الله التى أنزلها مع الرسل.

ولكل رسول كتاب؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]. وهذا يدل على أن كل رسول معه كتاب، لكن لا نعرف كل الكتب، بل نعرف منها: صحف إبراهيم وموسى، والتوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن؛ ستة؛ لأن صحف موسى بعضهم يقول: هى التوراة، وبعضهم يقول: غيرها، فإن كانت التوراة؛ فهى خمسة، وإن كانت غيرها؛ فهى ستة، ولكن مع ذلك نحن نؤمن بكل كتاب أنزله الله على الرسل، وإن لم نعلم به، نؤمن به إجمالا.

❁ **قال الشيخ الفوزان:**

٣ - **الإيمان بالكتب**؛ أى: التصديق بالكتب التى أنزلها الله على رسله، وأنها كلامه، وأنها حقٌّ ونور، وهدًى، فيجب الإيمان بما سمى الله منها، كالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن، والإيمان بما لم يسم الله منها.

❁ **قال الشيخ هراس:**

والكُتُب جمع كِتاب، وهو من الكَتْبِ بمعنى الجمع والضم. والمراد بها الكتب المنزلة من السماء على الرسل عليهم الصلاة والسلام. والمعلوم لنا منها «صحف إبراهيم، والتوراة» التى أنزلت على موسى فى الألواح و«الإنجيل» الذى أنزل على عيسى، و«الزبور» الذى أنزل على داود، و«القرآن الكريم» الذى هو آخرها نزولًا، وهو المصدق لها والمهيمن عليها، وما عداها يجب الإيمان به إجمالًا.

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

أى: رسل الله وهم الذين أوحى الله إليهم بالشرائع وأمرهم بتبليغها، وأولهم نوح وآخرهم محمد ﷺ.

الدليل على أن أولهم نوح: قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]؛ يعنى: وحيًا؛ كإيحائنا إلى نوح والنبيين من بعده، وهو وحى الرسالة. وقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]؛ ﴿فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾: أى ذرية نوح وإبراهيم، والذى قبل نوح لا يكون من ذريته. وكذلك قوله تعالى:

....

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦]؛ قد نقول: إن قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾: يدل على ما سبق.

إذن من القرآن ثلاثة أدلة تدل على أن نوحا أول الرسل، ومن السُّنة ما ثبت في حديث الشفاعة: «أن أهل الموقف يقولون لنوح: أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض»[1]، وهذا صريح.

أما آدم عليه الصلاة والسلام؛ فهو نبي، وليس برسول.

وأما إدريس؛ فذهب كثير من المؤرخين أو أكثرهم وبعض المفسرين أيضًا إلى أنه قبل نوح، وأنه من أجداده لكن هذا قول ضعيف جدًّا والقرآن والسنة ترده، والصواب ما ذكرنا.

وآخرهم محمد عليه الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ولم يقل: وخاتم المرسلين؛ لأنه إذا ختم النبوة؛ ختم الرسالة من باب أولى.

فإن قلت: عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل في آخر الزمان وهو رسول؛ فما الجواب؟.

نقول: هو لا ينزل بشريعة جديدة، وإنما يحكم بشريعة النبي ﷺ.

فإذا قال قائل: من المتفق عليه أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، وعيسى يحكم بشريعة النبي ﷺ، فيكون من أتباعه، فكيف يصح قولنا: إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر؟

فالجواب: أحد ثلاثة وجوه:

أولها: أن عيسى عليه الصلاة والسلام رسول مستقل من أولي العزم ولا يخطر بالبال المقارنة بينه وبين الواحد من هذه الأمة؛ فكيف بالمفاضلة؟! وعلى هذا يسقط هذا الإيراد من أصله؛ لأنه من التنطُّع، وقد «هلك المتنطعون»؛ كما قال النبي ﷺ[2].

الثاني: أن نقول: هو خير الأمة إلا عيسى.

الثالث: أن نقول: إن عيسى ليس من الأمة، ولا يصح أن نقول: إنه من أمته، وهو سابق عليه، لكنه من أتباعه إذا نزل؛ لأن شريعة النبي ﷺ باقية إلى يوم القيامة.

فإن قال قائل: كيف يكون تابعًا، وهو يقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ولا يقبل إلا الإسلام مع أن الإسلام يقر أهل الكتاب بالجزية؟!.

---

(1) أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

(2) أخرجه مسلم (٢٦٧٠).

....

قلنا : إخبار النبى ﷺ بذلك إقرار له ، فتكون من شرعه ويكون نسخًا لما سبق من حكم الإسلام الأول .

❋ قال الشيخ الفوزان :

٤ - الإيمان بالرسل الذين أرسلهم اللّه إلى خلقه ؛ أى : التصديق بهم جميعًا ، وأنهم صادقون فيما أخبروا به ، وأنهم بلغوا رسالات ربهم ، لا نفرق بين أحدٍ منهم ، بل نؤمن بهم جميعًا ، من سمى اللّه منهم فى كتابه ، ومن لم يسم منهم ، كما قال تعالى : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء : ١٦٤] .

وأفضلهم أولو العزم ، وهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، عليهم الصلاة والسلام ، ثم بقية الرسل ، ثم الأنبياء . وأفضل الجميع خاتم الرسل نبينا محمد ﷺ .

وأصح ما قيل فى الفرق بين النبى والرسول : أن النبى : من أوحى إليه بشرعٍ ، ولم يؤمر بتبليغه ، والرسول : من أوحى إليه بشرعٍ ، وأمر بتبليغه .

❋ قال الشيخ هراس :

والرسل جمع رسول - وقد تقدم أنه من أوحى اللّه إليه بشرع وأمره بتبليغه - وعلينا أن نؤمن تفصيلًا بمن سمى اللّه فى كتابه منهم وهم خمسة وعشرون ، ذكرهم الشاعر فى قوله :

فِى تِلكَ حُجَّتُنَا مِنهُم ثَمَانِيَةٌ مِن بَعدِ عَشرٍ وَيَبقَى سَبعَةٌ وَهُم
إدرِيسُ هُودٌ شُعَيبٌ صَالِحٌ وَكَذا ذُو الكِفلِ آدَمُ بِالمختارِ قَد خُتِمُوا

وأما من عدا هؤلاء من الرسل والأنبياء فنؤمن بهم إجمالًا على معنى الاعتقاد بنبوتهم ورسالتهم دون أن نكلف أنفسنا البحث عن عدتهم وأسمائهم ، فإن ذلك مما اختص اللّه بعلمه ، قال تعالى : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء : ١٦٤] .

ويجب الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمرهم اللّه عزَّ وجلَّ ، وبينوه بيانًا لا يسع أحدًا ممن أرسلوا إليه جهله ، وأنهم معصومون من الكذب والخيانة ، والكتمان والبلادة ، وأن أفضلهم أولو العزم ، والمشهور أنهم محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح ؛ لأنهم ذكروا معًا فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب : ٧] ، وقوله : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى : ١٣] .

والبعثِ بعدَ الموتِ (1)، ....

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

البعث بمعنى الإخراج ؛ يعنى : إخراج الناس من قبورهم بعد موتهم .

وهذا من معتقد أهل السنة والجماعة .

وهذا ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين ،بل إجماع اليهود والنصارى ؛ حيث يقرُّون بأن هناك يومًا يبعث الناس فيه ويجازون :

- أما القرآن ؛ فيقول الله عز وجل : ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ [التغابن : ٧] ، وقال عز وجل : ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون : ١٥، ١٦] .

- وأما فى السنة ؛ فجاءت الأحاديث المتواترة عن النبى ﷺ فى ذلك .

- وأجمع المسلمون على هذا إجماعًا قطعيًا ، وأن الناس سيبعثون يوم القيامة ويلاقون ربهم ويجازون بأعمالهم ؛ ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة : ٧، ٨] .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق : ٦] ؛ فتذكر هذا اللقاء حتى تعمل له ؛ خوفًا من أن تقف بين يدى الله عز وجل يوم القيامة وليس عندك شيء من العمل الصالح ، انظر ماذا عملت ليوم النقلة ؟ وماذا عملت ليوم اللقاء ؟ فإن أكثر الناس اليوم ينظرون ماذا عملوا للدنيا ؛ مع العلم بأن هذه الدنيا التى عملوا لها لا يدرون هل يدركونها أم لا ؟ قد يخطط الإنسان لعمل دنيوى يفعله غدًا أو بعد غد ، ولكنه لا يدرك غدًا ولا بعد غد ، لكن الشيء المتيقن أن أكثر النـاس فى غفلة من هذا ؛ قال الله تعالى : ﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ [المؤمنون : ٦٣] وأعمال الدنيا يقول : ﴿وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ [المؤمنون : ٦٣] ، فأتى بالجملة الاسمية المفيدة للثبوت والاستمرار : و﴿هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ ، وقال تعالى : ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ [ق : ٢٢] : يعنى : يوم القيامة وقال تعالى : ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ [ق : ٢٢] .

هذا البعث الذى اتفقت عليه الأديان السماوية وكل متدين بدين هو أحد أركان الإيمان الستة وهو من معتقدات أهل السنة والجماعة ولا ينكره أحد ممن ينتسب إلى ملة أبدًا .

والإيمانُ بالقدرِ[١]؛

* **قال الشيخ الفوزان :**

٥ - الإيمان بالبعث : وهو التصديق بإخراج الموتى من قبورهم أحياءً يوم القيامة ؛ لفصل القضاء بينهم ومجازاتهم بأعمالهم على الصفة التى بينها اللّٰه فى كتابه ، وبينها الرسول ﷺ فى سنته .

* **قال الشيخ هراس :**

والبعث فى الأصل الإثارة والتحريك ، والمراد به فى لسان الشرع : إخراج الموتى من قبورهم أحياء يوم القيامة لفصل القضاء بينهم ؛ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة : ٧، ٨] . ويجب الإيمان بالبعث على الصفة التى بينها اللّٰه فى كتابه ، وهو أنه جمع ما تحلل من أجزاء الأجساد التى كانت فى الدنيا وإنشاؤها خلقًا جديدًا وإعادة الحياة إليها ، ومنكر البعث الجثمانى كالفلاسفة والنصارى كفار ، وأما من أقرَّ به ولكنه زعم أن اللّٰه يبعث الأرواح فى أجسام غير الأجسام التى كانت فى الدنيا فهو مبتدع وفاسق .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هذا الركن السادس : الإيمان بالقدر خيره وشره .

القدر هو : « تقدير اللّٰه عز وجل للأشياء » .

وقد كتب اللّٰه مقادير كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة[1]؛ كما قال اللّٰه تعالى : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج : ٧٠] .

* **قال الشيخ الفوزان :**

٦ - الإيمان بالقدر خيره وشره : وهو التصديق بأن الله سبحانه علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل وجودها ، ثم كتبها فى اللوح المحفوظ ، ثم أوجدها بقدرته ومشيئته فى مواعيدها المقدرة .

فكل محدثٍ من خيرٍ أو شرٍّ فهو صادر عن علمه وتقديره ومشيئته وإرادته ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

هذا شرح مجمل لأصول الإيمان ، وسيأتى ، إن شاء اللّٰه ، شرحها مفصلًا .

* **قال الشيخ هراس :**

وأما القدر : فهو فى الأصل مصدر ، تقول : قدرت الشيء بفتح الدال وتخفيفها ، أقدره

---

(1) أخرجه مسلم (٢٦٥٣) .

خيرِه وشرِّه (١).

بكسرها قدرًا وقدرًا إذا أحطت بمقداره ، والمراد به في لسان الشرع أن اللَّه عزَّ وجلَّ علم مقادير الأشياء وأزمانها أزلًا ، ثم أوجدها بقدرته ومشيئته على وفق ما علمه منها ، وأنه كتبها في اللوح قبل إحداثها ، كما في الحديث : « أول ما خلق اللَّه القلم ، فقال له : اكتب . قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب كل ما هو كائن » . وقال تعالى : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد : ٢٢] .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

وقوله : « خيره وشره » : أما وصف القدر بالخير ؛ فالأمر فيه ظاهر . وأما وصف القدر بالشر ؛ فالمراد به شر المقدور لا شر القدر الذي هو فعل اللَّه ؛ فإن فعل اللَّه عز وجل ليس فيه شر ، كل أفعاله خير وحكمة ، ولكن الشر في مفعولاته ومقدوراته ؛ فالشر هنا باعتبار المقدور والمفعول ، أما باعتبار الفعل ؛ فلا ، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام : « والشر ليس إليك » (1).

فمثلا ؛ نحن نجد في المخلوقات المقدورات شرًّا ؛ ففيها الحيات والعقارب والسباع والأمراض والفقر والجدب وما أشبه ذلك ، وكل هذه بالنسبة للإنسان شر ؛ لأنها لا تلائمه ، وفيها أيضًا المعاصي والفجوز والكفر والفسوق والقتل وغير ذلك ، وكل هذه شر ، لكن باعتبار نسبته إلى اللَّه هي خير ؛ لأن اللَّه عز وجل لم يقدرها إلا لحكمة بالغة عظيمة ، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها .

وعلى هذا يجب أن تعرف أن الشر الذي وُصِفَ به القدر إنما هو باعتبار المقدورات والمفعولات ، لا باعتبار التقدير الذي هو تقدير اللَّه وفعله .

ثم اعلم أيضًا أن هذا المفعول الذي هو شر قد يكون شرًّا في نفسه ، لكنه خير من جهة أخرى ؛ قال اللَّه تعالى : ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم : ٤١] ، النتيجة طيبة ، وعلى هذا ؛ فيكون الشر في هذا المقدور شرًّا إضافيًا ؛ يعني : لا شرا حقيقيا ؛ لأن هذا ستكون نتيجته خيرًا .

ولنفرض حد الزاني مثلا إذا كان غير محصن أن يجلد مائة جلدة ويسفر عن البلد لمدة عام ، هذا لاشك أنه شر بالنسبة إليه ؛ لأنه لا يلائمه ، لكنه خير من وجه آخر لأنه يكون كفارة له ؛

---

(1) أخرجه مسلم (٧٧١) .

ومِن الإيمانِ باللَّهِ(١)؛ ....

فهذا خير ؛ لأن عقوبة الدنيا أهون من عقوبة الآخرة ؛ فهو خير له ، ومن خيره أنه ردع لغيره ونكال لغيره ؛ فإن غيره لو هم أن يزنى وهو يعلم أنه سيفعل به مثل ما فعل بهذا ؛ ارتدع ، بل قد يكون خيرًا له هو أيضًا ، باعتبار أنه لن يعود إلى مثل هذا العمل الذى سبب له هذا الشيء .

أما بالنسبة للأمور الكونية القدرية ؛ فهناك شيء يكون شرًّا باعتباره مقدورًا ؛ كالمرض مثلا ؛ فالإنسان إذا مرض ؛ فلا شك أن المرض شر بالنسبة له ؛ لكن فيه خير له فى الواقع ، وخيره تكفير الذنوب ، قد يكون الإنسان عليه ذنوب ما كفرها الاستغفار والتوبة ، لوجود مانع ؛ مثلا لعدم صدق نيته مع اللَّه عز وجل فتأتى هذه الأمراض والعقوبات ، فتكفر هذه الذنوب .

ومن خيره أن الإنسان لا يعرف قدر نعمة اللَّه عليه بالصحة ، إلا إذا مرض ، نحن الآن أصحاء ولا ندرى ما قدر الصحة لكن إذا حصل المرض ؛ عرفنا قدر الصحة فالصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يعرفها إلا المرضى .. هذا أيضًا خير ، وهو أنك تعرف قدر النعمة .

ومن خيره أنه قد يكون فى هذا المرض أشياء تقتل جراثيم فى البدن لا يقتلها إلا المرض ؛ يقول الأطباء : بعض الأمراض المعينة تقتل هذه الجراثيم التى فى الجسد وأنت لا تدرى .

فالحاصل أننا نقول :

أولا : الشر الذى وصف به القدر هو شر بالنسبة لمقدور اللَّه ، أما تقدير اللَّه ؛ فكله خير والدليل قول النبى ﷺ : « والشر ليس إليك » .

ثانيا : أن الشر الذى فى المقدور ليس شرًّا محضًا بل هذا الشر قد ينتج عنه أمور هى خير ، فتكون الشرية بالنسبة إليه أمرًا إضافيًّا .

هذا ؛ وسيتكلم المؤلف رحمه اللَّه على القدر بكلام موسع يبين درجاته عند أهل السنة .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

(من) : هنا للتبعيض ؛ لأننا ذكرنا أن الإيمان باللَّه يتضمن أربعة أمور : الإيمان بوجوده ، وانفراده بالربوبية ، وبالألوهية ، وبالأسماء والصفات ؛ يعنى : بعض الإيمان باللَّه : الإيمان بما وصف به نفسه .

❊ قال الشيخ الفوزان :

بعد ما ذكر المصنف رحمه اللَّه الأصول التى يجب الإيمان بها مجملةً ، شرع يذكرها على سبيل التفصيل ، وبدأ بالأصل الأول ، وهو الإيمان باللَّه تعالى ، فذكر أنه يدخل فيه الإيمان بصفاته

الإيمانُ بما وصَف به نفسَه(١) فى كتابِه(٢) ، وبما وصَفَه به رسولُه(٣) مِن غيرِ تحريفٍ(٤) ،

التى وصف نفسه بها فى كتابه ، أو وصفه بها رسوله فى سنته .

وذلك بأن نثبتها له كما جاءت فى الكتاب والسنة بألفاظها ومعانيها ، من غير تحريفٍ لألفاظها ، ولا تعطيلٍ لمعانيها ، ولا تشبيهٍ لها بصفات المخلوقين ، وأن نعتمد فى إثباتها على الكتاب والسنة فقط ، لا نتجاوز القرآن والحديث ؛ لأنها توقيفية .

❋ قال الشيخ هراس :

وقوله : (ومن الإيمان باللَّه . .. إلخ) هذا شروع فى التفصيل بعد الإجمال ، و« من » هنا للتبعيض ، والمعنى : ومن جملة إيمان أهل السنة والجماعة بالأصل الأول الذى هو أعظم الأصول وأساسها ، وهو الإيمان باللَّه أنهم يؤمنون بما وصف به نفسه إلخ .

(١ - ٤) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « بما وصف به نفسه » ينبغى أن يقال : وسمى به نفسه لكن المؤلف رحمه اللَّه ذكر الصفة فقط : إما لأنه ما من اسم إلا ويتضمن صفة ، أو لأن الخلاف فى الأسماء خلاف ضعيف ، لم ينكره إلا غلاة الجهمية والمعتزلة ؛ فالمعتزلة يثبتون الأسماء ، والأشاعرة والماتريدية يثبتون الأسماء ، لكن يخالفون أهل السنة فى أكثر الصفات .

فنحن الآن نقول : لماذا اقتصر المؤلف على « ما وصف اللَّه به نفسه » ؟

نقول : لأحد أمرين : إما لأن كل اسم يتضمن صفة ، وإما لأن الخلاف فى الأسماء قليل بالنسبة للمنتسبين للإسلام .

« فى كتابه » : (كتابه) يعنى القرآن ، وسماه اللَّه تعالى كتابًا ؛ لأنه مكتوب فى اللوح المحفوظ ، ومكتوب فى الصحف التى بأيدى السفرة الكرام البررة ، ومكتوب كذلك بين الناس يكتبونه فى المصاحف ؛ فهو كتاب بمعنى مكتوب ، وأضافه اللَّه إليه ؛ لأنه كلامه سبحانه وتعالى ؛ فهذا القرآن كلام اللَّه ، تكلم به حقيقة ؛ فكل حرف منه ؛ فإن اللَّه قد تكلم به . وفى هذه الجملة مباحث :

المبحث الأول : أن من الإيمان باللَّه الإيمان بما وصف به نفسه :

ووجه ذلك أن الإيمان باللَّه - كما سبق - يتضمن الإيمان بأسمائه وصفاته ؛ فإن ذات اللَّه تسمى بأسماء وتوصف بأوصاف ، ووجود ذات مجردة عن الأوصاف أمر مستحيل ؛ فلا يمكن أن توجد ذات مجردة عن الأوصاف أبدًا ، وقد يفرض الذهن أن هناك ذاتًا مجردة من الصفات

....

لكن الفرض ليس كالأمر الواقع ؛ أى أن المفروض ليس كالمشهود ؛ فلا يوجد فى الخارج - أى : فى الواقع المشاهد - ذات ليس لها صفات أبدًا .

فالذهن قد يفرض مثلا شيئًا له ألف عين ، فى كل ألف عين ألف سواد وألف بياض ، وله ألف رجل ، فى كل رجل ألف إصبع ، فى كل إصبع ألف ظفر ، وله ملايين الشعر ، فى كل شعرة ملايين الشعر .. وهكذا بفرضه وإن لم يكن له واقع ؛ لكن الشيء الواقع لا يمكن أن يوجد شيء بدون صفة .

لهذا ؛ كان الإيمان بصفات اللّٰه من الإيمان باللّٰه ، لو لم يكن من صفات اللّٰه إلا أنه موجود واجب الوجود ، وهذا باتفاق الناس ، وعلى هذا ؛ فلا بد أن يكون له صفة .

المبحث الثانى : أن صفات اللّٰه عز وجل من الأمور الغيبية ، والواجب على الإنسان نحو الأمور الغيبية : أن يؤمن بها على ما جاءت دون أن يرجع إلى شيء سوى النصوص .

قال الإمام أحمد : « لا يوصف اللّٰه إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ، لا يُتجاوز القرآن والحديث » .

يعنى أننا لا نصف اللّٰه إلا بما وصف به نفسه فى كتابه ، أو على لسان رسوله ﷺ .

ويدل لذلك القرآن والعقل :

ففى القرآن : يقول اللّٰه عز وجل : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٣] ؛ فإذا وصفت اللّٰه بصفة لم يصف اللّٰه بها نفسه ؛ فقد قلت عليه مالا تعلم وهذا محرم بنص القرآن .

ويقول اللّٰه عز وجل : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] ، ولو وصفنا اللّٰه بما لم يصف به نفسه ؛ لكنا قَفَوْنَا ما ليس لنا به علم ، فوقعنا فيما نهى اللّٰه عنه .

وأما الدليل العقلى ؛ فلأن صفات اللّٰه عز وجل من الأمور الغيبية ولا يمكن فى الأمور الغيبية أن يدركها العقل ، وحينئذ لا نصف اللّٰه بما لم يصف به نفسه ، ولا نكيف صفاته ؛ لأن ذلك غير ممكن .

نحن الآن لا ندرك ما وصف اللّٰه به نعيم الجنة من حيث الحقيقة مع أنه مخلوق ، فى الجنة

....

فاكهة ونخل ورمان وسرر وأكواب وحور ونحن لا ندرك حقيقة هذه الأشياء، ولو قيل: صفها لنا؛ لا نستطيع وصفها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، ولقوله تعالى فى الحديث القدسى: «أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[1].

فإذا كان هذا فى المخلوق الذى وصف بصفات معلومة المعنى ولا تُعلم حقيقتها؛ فكيف بالخالق؟!

مثال آخر: الإنسان فيه روح، لا يحيا إلا بها، لولا أن الروح فى بدنه ما حيى ولا يستطيع أن يصف الروح لو قيل له: ما هذه الروح التى بك؟ ما هى التى لو نزعت منك؛ صرت جثة، وإذا بقيت فأنت إنسان تعقل وتفهم وتدرك؟ لجلس ينظر ويفكر فلا يستطيع أن يصفها أبدًا مع أنها قريبة منه؛ فى نفسه وبين جنبيه، ويعجز عن إدراكها مع أنها حقيقة؛ يعنى: شىء يرى؛ كما أخبر النبى عليه الصلاة والسلام بـ: «أن الروح إذا قبض؛ تبعه البصر»[2]؛ فالإنسان يرى نفسه وهى مقبوضة، ولهذا تبقى العين مفتوحة عند الموت تشاهد الروح وهى قد خرجت، وتؤخذ هذه الروح وتجعل فى كفن ويُصعد بها إلى اللّٰه ومع ذلك ما يستطيع أن يصفها وهى بين جنبيه؛ فكيف يحاول أن يصف الرب بأمر لم يصف به نفسه! ولا بد إذن تحقق ثبوت الصفات للّٰه.

المبحث الثالث: أننا لا نصف اللّٰه تعالى بما لم يصف به نفسه.

ودليل ذلك أيضا من السمع والعقل:

ذكرنا من السمع آيتين.

وأما من العقل؛ إن هذا أمر غيبى، لا يمكن إدراكه بالعقل، وضربنا لذلك مثلين.

المبحث الرابع: وجوب إجراء النصوص الواردة فى الكتاب والسنة على ظاهرها، لا نتعداها.

مثال ذلك: لما وصف اللّٰه نفسه بأن له عينًا؛ هل نقول: المراد بالعين الرؤية لا حقيقة العين؟ لو قلنا ذلك؛ ما وصفنا اللّٰه بما وصف به نفسه.

(1) أخرجه مسلم (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

(2) أخرجه مسلم (٩٢٠).

....

ولما وصف اللَّه نفسه بأن له يدين : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة : ٦٤] ؛ لو قلنا : إن اللَّه تعالى ليس له يد حقيقة ، بل المراد باليد ما يسبغه من النعم على عباده ؛ فهل وصفنا اللَّه بما وصف به نفسه ؟ لا !

المبحث الخامس : عموم كلام المؤلف يشمل كل ما وصف اللَّه به نفسه من الصفات الذاتية المعنوية والخبرية والصفات الفعلية .

فالصفات الذاتية هي التي لم يزل ولا يزال متصفًا بها وهي نوعان : معنوية وخبرية :

فالمعنوية ؛ مثل : الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والحكمة .. وما أشبه ذلك ، وهذا على سبيل التمثيل لا الحصر .

والخبرية ؛ مثل : اليدين ، والوجه ، والعينين ... وما أشبه ذلك مما سماه ، نظيره أبعاض وأجزاء لنا .

فاللَّه تعالى لم يزل له يدان ووجه وعينان لم يحدث له شيء من ذلك بعد أن لم يكن ، ولن ينفك عن شيء منه ؛ كما أن اللَّه لم يزل حيًّا ولا يزال حيًّا ، ولم يزل عالمًا ولا يزال عالمًا ، ولم يزل قادرًا ولا يزال قادرًا .. وهكذا ؛ يعني ليس حياته تتجدد ، ولا قدرته تتجدد ، ولا سمعه يتجدد بل هو موصوف بهذا أزلا وأبدًا ، وتجدد المسموع لا يستلزم تجدد السمع ؛ فأنا مثلا عندما أسمع الأذان الآن فهذا ليس معناه أنه حدث لي سمع جديد عند سماع الأذان بل هو منذ خلقه اللَّه فيّ لكن المسموع يتجدد وهذا لا أثر له في الصفة .

واصطلح العلماء رحمهم اللَّه على أن يسموها الصفات الذاتية ؛ قالوا : لأنها ملازمة للذات ، لا تنفك عنها .

والصفات الفعلية هي الصفات المتعلقة بمشيئته ، وهي نوعان :

صفات لها سبب معلوم ؛ مثل : الرضا ؛ فاللَّه عز وجل إذا وجد سبب الرضا ؛ رضي ؛ كما قال تعالى : ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر : ٧] .

وصفات ليس لها سبب معلوم ؛ مثل : النزول إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر[1] .

(1) أخرجه البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) .

....

ومن الصفات ما هو صفة ذاتية وفعلية باعتبارين ؛ فالكلام صفة فعلية باعتبار آحاده لكن باعتبار أصله صفة ذاتية ؛ لأن اللّه لم يزل ولا يزال متكلما لكنه يتكلم بما شاء متى شاء ؛ كما سيأتي في بحث الكلام إن شاء اللّه تعالى .

اصطلح العلماء رحمهم اللّه أن يسموا هذه الصفات الصفات الفعلية ؛ لأنها من فعله سبحانه وتعالى .

ولها أدلة كثيرة من القرآن ؛ مثل : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة : ١١٩] ، ﴿وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة : ٤٦] ، ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ﴾ [المائدة : ٨٠] .

وليس في إثباتها للّه تعالى نقص بوجه من الوجوه بل هذا من كماله أن يكون فاعلا لما يريد .

وأولئك القوم المحرفون يقولون : إثباتها من النقص ! ولهذا ينكرون جميع الصفات الفعلية ؛ يقولون : لا يجيء ولا يرضى ، ولا يسخط ولا يكره ولا يحب .. ينكرون كل هذه ؛ بدعوى أن هذه حادثة والحادث لا يقوم إلا بحادث وهذا باطل ؛ لأنه في مقابلة النص ، وهو باطل بنفسه ؛ فإنه لا يلزم من حدوث الفعل حدوث الفاعل .

المبحث السادس : أن العقل لا مدخل له في باب الأسماء والصفات :

لأن مدار إثبات الأسماء والصفات أو نفيها على السمع ؛ فعقولنا لا تحكم على اللّه أبدًا ؛ فالمدار إذن على السمع ؛ خلافًا للأشعرية والمعتزلة والجهمية وغيرهم من أهل التعطيل ، الذين جعلوا المدار في إثبات الصفات أو نفيها على العقل ، فقالوا : ما اقتضى العقل إثباته ؛ أثبتناه ، سواء أثبته اللّه لنفسه أم لا ! وما اقتضى نفيه ؛ نفيناه ، وإن أثبته اللّه ! وما لا يقتضي العقل إثباته ولا نفيه ؛ فأكثرهم نفاه ، وقال : إن دلالة العقل إيجابية ؛ فإن أوجب الصفة ؛ أثبتناها ، وإن لم يوجبها ؛ نفيناها ! ومنهم من توقف فيه ، فلا يثبتها ؛ لأن العقل لا يثبتها لكن لا ينكرها ؛ لأن العقل لا ينفيها ، ويقول : نتوقف ! لأن دلالة العقل عند هذا سلبية ، إذا لم يوجب ؛ يتوقف ولم ينف !

فصار هؤلاء يحكمون العقل فيما يجب أو يمتنع على اللّه عز وجل .

فيتفرع على هذا : ما اقتضى العقل وصف اللّه به ، وُصف اللّه به وإن لم يكن في الكتاب

....

والسنة ، وما اقتضى العقل نفيه عن اللّه ؛ نفوه ، وإن كان فى الكتاب والسنة .

ولهذا يقولون : ليس للّه عين ، ولا وجه ، ولا له يد ، ولا استوى على العرش ، ولا ينزل إلى السماء الدنيا لكنهم يحرفون ويسمون تحريفهم تأويلا ولو أنكروا إنكار جحدٍ ؛ لكفروا ؛ لأنهم كذبوا لكنهم ينكرون إنكار ما يسمونه تأويلا وهو عندنا تحريف .

والحاصل أن العقل لا مجال له فى باب أسماء اللّه وصفاته فإن قلت : قولك هذا يناقض القرآن ، لأن اللّه يقول : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة : ٥٠] والتفضيل بين شىء وآخر مرجعه إلى العقل وقال عز وجل : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل : ٦٠] وقال : ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل : ١٧] وأشباه ذلك مما يحيل اللّه به على العقل فيما يثبته لنفسه وما ينفيه عن الآلهة المدعاة ؟

فالجواب أن نقول : إن العقل يدرك ما يجب للّه سبحانه وتعالى ويمتنع عليه على سبيل الإجمال لا على سبيل التفصيل ؛ فمثلا : العقل يدرك بأن الرب لا بد أن يكون كامل الصفات ، لكن هذا لا يعنى أن العقل يثبت كل صفة بعينها أو ينفيها لكن يثبت أو ينفى على سبيل العموم أن الرب لا بد أن يكون كامل الصفات سالمًا من النقص .

فمثلًا : يدرك بأنه لا بد أن يكون الرب سميعًا بصيرًا ؛ قال إبراهيم لأبيه : ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ [مريم : ٤٢] .

ولابد أن يكون خالقًا ؛ لأن اللّه قال : ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل : ١٧] ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل : ٢٠] . [فالعقل] يدرك هذا ، ويدرك بأن اللّه سبحانه وتعالى يمتنع أن يكون حادثًا بعد العدم ؛ لأنه نقص ، ولقوله تعالى محتجًا على هؤلاء الذين يعبدون الأصنام : ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل : ٢٠] ؛ إذن يمتنع أن يكون الخالق حادثًا بالعقل .

العقل أيضًا يدرك بأن كل صفة نقص فهى ممتنعة على اللّه ؛ لأن الرب لا بد أن يكون كاملا فيدرك بأن اللّه عز وجل مسلوب عنه العجز ؛ لأنه صفة نقص ، إذا كان الرب عاجزًا وعُصى وأراد أن يعاقب الذى عصاه وهو عاجز ؛ فلا يمكن !

إذن ؛ العقل يدرك بأن العجز لا يمكن أن يوصف اللّه به ، والعمى كذلك والصّمم كذلك والجهل كذلك . . . وهكذا على سبيل العموم ندرك ذلك ، لكن على سبيل التفصيل لا يمكن أن

....

ندركه فنتوقف فيه على السمع .

سؤال : هل كل ما هو كمال فينا يكون كمالا فى حق اللّه ، وهل كل ما هو نقص فينا يكون نقصًا فى حق اللّه ؟

الجواب : لا ؛ لأن المقياس فى الكمال والنقص ليس باعتبار ما يضاف للإنسان ؛ لظهور الفرق بين الخالق والمخلوق ، لكن باعتبار الصفة من حيث هى صفة ؛ فكل صفة كمال ؛ فهى ثابتة للّه سبحانه وتعالى .

فالأكل والشرب بالنسبة للخالق نقص ، لأن سببهما الحاجة ، واللّه تعالى غنى عما سواه ، لكن هما بالنسبة للمخلوق كمال ولهذا ؛ إذا كان الإنسان لا يأكل ؛ فلا بد أن يكون عليلا بمرض أو نحوه هذا نقص .

والنوم بالنسبة للخالق نقص ؛ وللمخلوق كمال ، فظهر الفرق .

والتكبر كمال للخالق ونقص للمخلوق ؛ لأنه لا يتم الجلال والعظمة إلا بالتكبر حتى تكون السيطرة كاملة ولا أحد ينازعه . .. ولهذا توعد اللّه تعالى من ينازعه الكبرياء والعظمة ؛ قال : « من نازعنى واحدًا منهما عذبته »[1] .

فالمهم أنه ليس كل كمال فى المخلوق يكون كمالا فى الخالق ولا كل نقص فى المخلوق يكون نقصًا فى الخالق إذا كان الكمال أو النقص اعتباريًّا .

هذه ستة مباحث تحت قوله : « ما وصف به نفسه » وكلها مباحث هامة ، وقدمناها بين يدى العقيدة ؛ لأنه سينبنى عليها ما يأتى إن شاء اللّه تعالى .

قوله : « وبما وصفه به رسوله » : ووصف رسول اللّه ﷺ لربه ينقسم إلى ثلاثة أقسام : إما بالقول ، أو بالفعل ، أو بالإقرار .

أ - أما القول ؛ مثل « ربنا اللّه الذى فى السماء تقدس اسمك ، أمرك فى السماء والأرض »[2] وقوله فى يمينه : « لا ومقلب القلوب »[3] .

ب - وأما الفعل ؛ فهو أقل من القول ؛ مثل إشارته إلى السماء يستشهد اللّه على إقرار أمّته

(1) أخرجه مسلم (٢٦٢٠) .
(2) ضعيف أبى داود للألبانى (٨٣٩) .
(3) أخرجه البخارى (٦٦١٧) .

....

بالبلاغ ، وهذا فى حجة الوداع فى عرفة ، خطب الناس ، وقال : « ألا هل بلغت ؟ » . قالوا : نعم ثلاث مرات . قال : « اللهم ! اشهد » يرفع إصبعه إلى السماء ، وينكتها إلى الناس[1] . فرفع إصبعه إلى السماء ؛ هذا وصف الله تعالى بالعلو عن طريق الفعل .

وجاءه رجل وهو يخطب الناس يوم الجمعة ؛ قال : يا رسول الله ! هلكت الأموال .. فرفع يديه[2] وهذا أيضًا وصف لله بالعلو عن طريق الفعل .

وغير ذلك من الأحاديث التى فيها فعل النبى عليه الصلاة والسلام إذا ذكر صفة من صفات الله .

وأحيانًا يذكر الرسول عليه الصلاة والسلام الصفة من صفات الله بالقول ويؤكدها بالفعل ، وذلك حينما تلا قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء : ٥٨] فوضع إبهامه على أذنه اليمنى ، والتى تليها على عينه وهذا إثبات للسمع والبصر بالقول والفعل[3] .

وحينئذٍ نقول : إن إثبات الرسول عليه الصلاة والسلام للصفات يكون بالقول ويكون بالفعل ؛ مجتمعين ومنفردين .

جـ - أما الإقرار ؛ فهو قليل بالنسبة لما قبله ؛ مثل : إقراره الجارية التى سألها : « أين الله ؟ » قالت : فى السماء . فأقرها وقال : « أعتقها »[4] .

وكإقراره الحَبْر من اليهود الذى جاء وقال للرسول عليه الصلاة والسلام : إننا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع والثَّرى على إصبع .. آخر الحديث ، فضحك النبى ﷺ تصديقًا لقوله[5] ، وهذا إقرار .

إذا قال قائل : ما وجه وجوب الإيمان بمَا وصف الرسول به ربه أو : ما دليله ؟

نقول : دليله قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء : ١٣٦] ، وكل آية فيها ذكر أن الرسول

---

(1) أخرجه مسلم (١٢١٨) .

(2) أخرجه البخارى (٩٣٣) ، ومسلم (٨٩٧) .

(3) أخرجه أبو داود (٤٧٢٨) .

(4) أخرجه مسلم (٥٣٧) .

(5) أخرجه البخارى (٤٨١١) ، ومسلم (٢٧٨٦) .

....

عليه الصلاة والسلام مبلغ ؛ فهي دال على وجوب قبول ما أخبر به من صفات الله ؛ لأنه أخبر بها وبلغها إلى الناس ، وكل ما أخبر به ؛ فهو تبليغ من الله ، ولأن الرسول عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بالله وأنصح الناس لعباد الله وأصدق الناس فيما قال ، وأفصح الناس فى التعبير ؛ فاجتمع فى حقه من صفات القبول أربع : العلم والنصح ، والصدق ، والبيان ؛ فيجب علينا أن نقبل كل ما أخبر به عن ربه ، وهو - والله - أفصح وأنصح وأعلم من أولئك القوم الذين تبعهم هؤلاء من المناطقة والفلاسفة ، ومع هذا يقول : « سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »[1] .

فى هذه الجملة بيان صفة إيمان أهل السنة بصفات الله تعالى ؛ فأهل السنة والجماعة يؤمنون بها إيمانًا خاليًا من هذه الأمور الأربعة : التحريف والتعطيل ، والتكييف ، والتمثيل .

فالتحريف : التغيير وهو إما لفظى وإما معنوى ، والغالب أن التحريف اللفظى لا يقع ، وإذا وقع ؛ فإنما يقع من جاهل ؛ فالتحريف اللفظى يعنى تغيير الشكل ؛ فمثلا : فلا تجد أحدًا يقول : « الحَمْدَ للَّهِ رَب العالمينَ » بفتح الدال ؛ إلا إذا كان جاهلًا .. هذا الغالب !

لكن التحريف المعنوى هو الذى وقع فيه كثير من الناس .

فأهل السنة والجماعة إيمانهم بما وصف الله به نفسه خال من التحريف ؛ يعنى : تغيير اللفظ أو المعنى .

وتغيير المعنى يسميه القائلون به تأويلا ويسمون أنفسهم بأهل التأويل ؛ لأجل أن يصبغوا هذا الكلام صبغة القبول ؛ لأن التأويل لا تنفر منه النفوس ولا تكرهه ، لكن ما ذهبوا إليه فى الحقيقة تحريف ؛ لأنه ليس عليه دليل صحيح ؛ إلا أنهم لا يستطيعون أن يقولوا : تحريفًا ! ولو قالوا : هذا تحريف ؛ لأعلنوا على أنفسهم برفض كلامهم .

ولهذا عبر المؤلف رحمه الله بالتحريف دون التأويل مع أن كثيرًا ممن يتكلمون فى هذا الباب يعبرون بنفى التأويل ؛ يقولون : من غير تأويل ، لكن ما عبر به المؤلف أولى لوجوه أربعة :

الوجه الأول : أنه اللفظ الذى جاء به القرآن ؛ فإن الله تعالى قال : ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء : ٤٦] ، والتعبير الذى عبر به القرآن أولى من غيره ؛ لأنه أدل على المعنى .

الوجه الثانى : أنه أدل على الحال ، وأقرب إلى العدل ؛ فالمؤول بغير دليل ليس من العدل أن

(1) أخرجه مسلم (٤٨٦) .

....

نسميه مؤولا ، بل العدل أن نصفه بما يستحق وهو أن يكون محرفا .

الوجه الثالث : أن التأويل بغير دليل باطل ، يجب البعد عنه والتنفير منه ، واستعمال التحريف فيه أبلغ تنفيرًا من التأويل ؛ لأن التحريف لا يقبله أحد ، لكن التأويل لين ، تقبله النفس ، وتستفصل عن معناه ، أما التحريف ؛ بمجرد ما نقول : هذا تحريف . ينفر الإنسان منه ، إذا كان كذلك ؛ فإن استعمال التحريف فيمن خالفوا طريق السلف أليق من استعمال التأويل .

الوجه الرابع : أن التأويل ليس مذمومًا كله ؛ قال النبي عليه الصلاة والسلام : « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل » . وقال اللَّه تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران : ٧] ؛ فامتدحهم بأنهم يعلمون التأويل .

والتأويل ليس كله مذمومًا ؛ لأن التأويل له معان متعددة ، يكون بمعنى التفسير ، ويكون بمعنى العاقبة والمآل ، ويكون بمعنى صرف اللفظ عن ظاهره .

أ- يكون بمعنى التفسير ؛ كثير من المفسرين عندما يفسرون الآية ؛ يقولون : تأويل قوله تعالى كذا وكذا . ثم يذكرون المعنى وسمى التفسير تأويلا ؛ لأننا أوَّلنا الكلام ؛ أى : جعلناه يؤول إلى معناه المراد به .

ب- تأويل بمعنى عاقبة الشيء ، وهذا إن ورد فى طلب ؛ فتأويله فعله إن كان أمرًا وتركه إن كان نهيًا ، وإن ورد فى خبر ؛ فتأويله وقوعه .

مثاله فى الخبر قوله تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف : ٥٣] ؛ فالمعنى : ما ينتظر هؤلاء إلا عاقبة ومآل ما أخبروا به ، يوم يأتى ذلك المخبر به ؛ يقول الذين نسوه من قبل : قد جاءت رسل ربنا بالحق .

ومنه قول يوسف لما خر له أبواه وإخوته سجدًا قال : ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف : ١٠٠] : هذا وقوع رؤياى ؛ لأنه قال ذلك بعد أن سجدوا له .

ومثاله فى الطلب قول عائشة رضى اللَّه عنها : كان النبى ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده بعد أن أنزل عليه قوله تعالى : ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر : ١] ؛ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي » ؛ يتأول القرآن[1] . أى : يعمل به .

---

(1) أخرجه البخارى (٨١٧) ، ومسلم (٤٨٤) .

....

جـ- المعنى الثالث للتأويل: صرف اللفظ عن ظاهره وهذا النوع ينقسم إلى محمود ومذموم؛ فإن دل عليه دليل؛ فهو محمود النوع ويكون من القسم الأول، وهو التفسير، وإن لم يدل عليه دليل؛ فهو مذموم، ويكون من باب التحريف، وليس من باب التأويل.

وهذا الثاني هو الذى درج عليه أهل التحريف فى صفات اللّٰه عز وجل.

مثاله قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]: ظاهر اللفظ أن اللّٰه تعالى استوى على العرش: استقر عليه، وعلا عليه؛ فإذا قال قائل: معنى ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: استولى على العرش؛ فنقول: هذا تأويل عندك لأنك صرفت اللفظ عن ظاهره، لكن هذا تحريف فى الحقيقة؛ لأنه ما دل عليه دليل، بل الدليل على خلافه؛ كما سيأتى إن شاء اللّٰه.

فأما قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]؛ فمعنى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾. أى سيأتى أمر اللّٰه؛ فهذا مخالف لظاهر اللفظ لكن عليه دليل وهو قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]؛ أى: إذا أردت أن تقرأ، وليس المعنى: إذا أكملت القراءة؛ قل: أعوذ باللّٰه من الشيطان الرجيم؛ لأننا علمنا من السنة أن النبى عليه الصلاة والسلام إذا أراد أن يقرأ؛ استعاذ باللّٰه من الشيطان الرجيم، لا إذا أكمل القراءة؛ فالتأويل صحيح.

وكذلك قول أنس بن مالك: كان النبى ﷺ إذا دخل الخلاء؛ قال: «أعوذ باللّٰه من الخبث والخبائث»[1]؛ فمعنى: «إذا دخل». إذا أراد أن يدخل؛ لأن ذكر اللّٰه لا يليق داخل هذا المكان؛ فلهذا حملنا قوله: «إذا دخل» على: إذا أراد أن يدخل. هذا التأويل الذى دل عليه الدليل صحيح، ولا يعدو أن يكون تفسيرًا.

ولذلك قلنا: إن التعبير بالتحريف عن التأويل الذى ليس عليه دليل صحيح أولى، لأنه الذى جاء به القرآن، ولأنه ألصق بطريق المحرف، ولأنه أشد تنفيرًا عن هذه الطريقة المخالفة لطريق السلف، ولأن التحريف كله مذموم؛ بخلاف التأويل؛ فإن منه ما يكون مذمومًا ومحمودًا؛ فيكون التعبير بالتحريف أولى من التعبير بالتأويل من أربعة أوجه.

❁ قال الشيخ الفوزان:

والتحريف: هو التغيير وإمالة الشيء عن وجهه. يقال: انحرف عن كذا. إذا مال، وهو نوعان:

(1) أخرجه البخارى (١٤٢)، ومسلم (٣٧٥).

ولا تعطيل[١]، ....

النوع الأول :

تحريف اللفظ ، وهو العدول به عن جهته إلى غيرها ، إما بزيادة كلمةٍ ، أو حرفٍ أو نقصانه ، أو تغيير حركةٍ ، كقول أهل الضلال فى قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ . أى : استولى . فزادوا فى الآية حرفًا .

وكقولهم فى قوله تعالى : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ . أى : أمر ربك . فزادوا كلمةً .

وكقولهم فى قوله تعالى : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ بنصب لفظ الجلالة ، فغيروا الحركة الإعرابية من الرفع إلى النصب .

النوع الثانى :

تحريف المعنى ، وهو العدول به عن وجهه وحقيقته ، وإعطاء اللفظ معنى لفظٍ آخر ؛ كقول المبتدعة : إن معنى الرحمة إرادة الإنعام ، وإن معنى الغضب إرادة الانتقام .

❊ قال الشيخ هراس :

وقوله : « من غير تحريف » متعلق بالإيمان قبله ؛ يعنى أنهم مؤمنون بالصفات الإلهية على هذا الوجه الخالى من كل هذه المعانى الباطلة إثباتًا بلا تمثيل ، وتنزيهًا بلا تعطيل .

والتحريف فى الأصل مأخوذ من قولهم : حرفت الشىء عن وجهه حرفًا ، من باب ضرب إذا أملته وغيرته ، والتشديد للمبالغة .

وتحريف الكلام إمالته عن المعنى المتبادر منه إلى معنى آخر لا يدل عليه اللفظ إلا باحتمال مرجوح ، فلا بد فيه من قرينة تبين أنه المراد .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

التعطيل بمعنى التخلية والترك ؛ كقوله تعالى : ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحج : ٤٥] ؛ أى : مخلاة متروكة .

والمراد بالتعطيل : إنكار ما أثبت اللّٰه لنفسه من الأسماء والصفات ؛ سواء كان كليًا أو جزئيًا ، وسواء كان ذلك بتحريف أو بجحود ، هذا كله يسمى تعطيلا .

فأهل السنة والجماعة لا يعطلون أى اسم من أسماء اللّٰه ، أو أى صفة من صفات اللّٰه ولا يجحدونها ، بل يقرون بها إقرارًا كاملا .

فإن قلت : ما الفرق بين التعطيل والتحريف ؟

....

قلنا : التحريف في الدليل والتعطيل في المدلول ؛ فمثلا :

إذا قال قائل : معنى قوله تعالى : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة : ٦٤] ؛ أي بل قوتاه هذا محرف للدليل ، ومعطل للمراد الصحيح ؛ لأن المراد اليد الحقيقية ؛ فقد عطل المعنى المراد ؛ وأثبت معنى غير المراد . وإذا قال : بل يداه مبسوطتان ؛ لا أدرى ! أفوض الأمر إلى الله ؛ لا أثبت اليد الحقيقية ، ولا اليد المحرف إليها اللفظ . نقول : هذا معطل ، وليس بمحرف ؛ لأنه لم يغير معنى اللفظ ولم يفسره بغير مراده ، لكن عطل معناه الذى يراد به ، وهو إثبات اليد لله عز وجل .

أهل السنة والجماعة يتبرءون من الطريقتين : الطريقة الأولى : التى هى تحريف اللفظ بتعطيل معناه الحقيقى المراد إلى معنى غير مراد . والطريقة الثانية : وهى طريقة أهل التفويض ؛ فهم لا يفوضون المعنى كما يقول المفوضة بل يقولون : نحن نقول : ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ ؛ أى : يداه الحقيقيتان ﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾ ، وهما غير القوة والنعمة .

فعقيدة أهل السنة والجماعة بريئة من التحريف ومن التعطيل .

وبهذا نعرف ضلال أو كذب من قالوا : إن طريقة السلف هى التفويض . هؤلاء ضلوا إن قالوا ذلك عن جهل بطريقة السلف ، وكذبوا إن قالوا عن عمد ، أو نقول : كذبوا على الوجهين على لغة الحجاز ؛ لأن الكذب عند الحجازيين بمعنى الخطأ .

وعلى كل حال ؛ لاشك أن الذين يقولون : إن مذهب أهل السنة هو التفويض ؛ أنهم أخطئوا ؛ لأن مذهب أهل السنة هو إثبات المعنى وتفويض الكيفية .

وليعلم أن القول بالتفويض - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - من شرّ أقوال أهل البدع والإلحاد !

عندما يسمع الإنسان التفويض ؛ يقول : هذا جيد ، أسلم من هؤلاء وهؤلاء ، لا أقول بمذهب السلف ، ولا أقول بمذهب أهل التأويل ، أسلك سبيلا وسطًا وأسلم من هذا كله ، وأقول : الله أعلم ولا ندرى ما معناها . لكن يقول شيخ الإسلام : هذا من شر أقوال أهل البدع والإلحاد !

وصدق رحمه الله . وإذا تأملته وجدته تكذيبًا للقرآن وتجهيلا للرسول ﷺ واستطالة للفلاسفة .

تكذيب للقرآن ؛ لأن الله يقول : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل : ٨٩] ،

....

وأى بيان فى كلمات لا يدرى ما معناها ؟ ! وهى من أكثر ما يرد فى القرآن ، وأكثر ما ورد فى القرآن أسماء اللَّه وصفاته ، إذا كنا لا ندرى ما معناها ؛ هل يكون القرآن تبيانًا لكل شىء ؟ ! أين البيان ؟ !

إن هؤلاء يقولون : إن الرسول ﷺ لا يدرى عن معانى القرآن فيما يتعلق بالأسماء والصفات ! وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام لا يدرى ؛ فغيره من باب أولى .

وأعجب من ذلك يقولون : الرسول ﷺ يتكلم فى صفات اللَّه ، ولا يدرى ما معناه ! يقول : « ربنا اللَّه الذى فى السماء » ، وإذا سئل عن هذا ؟ قال : لا أدرى ! وكذلك فى قوله : « ينزل ربنا إلى السماء الدنيا »[1] وإذا سئل ما معنى « ينزل ربنا » ؟ قال : لا أدرى .. وعلى هذا ؛ فقس .

وهل هناك قدح أعظم من هذا القدح بالرسول ﷺ بل هذا من أكبر القدح ! رسول من عند اللَّه ليبين للناس وهو لا يدرى ما معنى آيات الصفات وأحاديثها وهو يتكلم بالكلام ولا يدرى معنى ذلك كله !

فهذان وجهان : تكذيب القرآن وتجهيل الرسول .

وفيه فتح الباب للزنادقة الذين تطاولوا على أهل التفويض ، وقالوا : أنتم لا تعرفون شيئًا ، بل نحن الذين نعرف ، وأخذوا يفسرون القرآن بغير ما أراد اللَّه ، وقالوا : كوننا نثبت معانى للنصوص خير من كوننا أميين لا نعرف شيئًا . وذهبوا يتكلمون بما يريدون من معنى كلام اللَّه وصفاته ! ! ولا يستطيع أهل التفويض أن يردوا عليهم ؛ لأنهم يقولون : نحن لا نعلم ماذا أراد اللَّه ؛ فجائز أن يكون الذى يريد اللَّه هو ما قلتم ! ففتحوا باب شرور عظيمة ، ولهذا جاءت العبارة الكاذبة : « طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم » ! .

يقول شيخ الإسلام رحمه اللَّه : « هذه قالها بعض الأغبياء » . وهوصحيح ؛ أن القائل غبى .

هذه الكلمة من أكذب ما يكون نطقًا ومدلولا ، « طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم » . كيف تكون أعلم وأحكم وتلك أسلم ؟ ! لا يوجد سلامة بدون علم وحكمة أبدًا ! فالذى لا يدرى عن الطريق ؛ لا يسلم ؛ لأنه ليس معه علم ، لو كان معه علم وحكمة ؛ لسلم ؛

(1) أخرجه البخارى (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) .

:...

فلا سلامة إلا بعلم وحكمة .

إذا قلت : إن طريقة السلف أسلم ؛ لزم أن تقول : هى أعلم وأحكم . وإلا لكنت متناقضًا .

إذن ؛ فالعبارة الصحيحة : « طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم » ، وهذا معلوم .

وطريقة الخلف ما قاله القائل :

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفى بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعا كف حائر على ذقن أو قارعًا سن نادم

هذه الطريقة التى يقول عنها : إنه ما وجد إلا واضعًا كف حائر على ذقن . وهذا ليس عنده علم ، أو آخر : قارعًا سن نادم لأنه لم يسلك طريق السلامة أبدًا .

والرازى وهو من كبرائهم يقول :

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلال

وأرواحنا فى وحشة من جسومنا وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم يقول : « لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ؛ فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن ، أقرأ فى الإثبات : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر : ١٠] ، واقرأ فى النفى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه : ١١٠] ، ومن جرب مثل تجربتى ؛ عرف مثل معرفتي » أهؤلاء نقول : إن طريقتهم أعلم وأحكم ؟ !

الذى يقول : « إنى أتمنى أن أموت على عقيدة عجائز نيسابور » . والعجائز من عوام الناس ، يتمنى أنه يعود إلى الأميات ! هل يقال : إنه أعلم وأحكم ؟ !

أين العلم الذى عندهم ؟ !

فتبين أن طريقة التفويض طريق خاطئ ؛ لأنه يتضمن ثلاث مفاسد : تكذيب القرآن ، وتجهيل الرسول ، واستطالة الفلاسفة ! وأن الذين قالوا : إن طريقة السلف هى التفويض كذبوا على السلف ، بل هم يثبتون اللفظ والمعنى ويقررونه ، ويشرحونه بأوفى شرح .

أهل السنة والجماعة لا يحرفون ولا يعطلون ، ويقولون بمعنى النصوص كما أراد الله : ﴿ثُمَّ

....

﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ بمعنى: علا عليه وليس معناه: استولى. ﴿بِيَدِهِۦ﴾: يد حقيقية وليست القوة ولا نعمة؛ فلا تحريف عندهم ولا تعطيل.

❁ قال الشيخ الفوزان:

والتعطيل لغةً: الإخلاء، يقال: عطله؛ أي: أخلاه، والمراد به هنا نفى الصفات عن الله سبحانه وتعالى.

والفرق بين التحريف والتعطيل: أن التحريف هو نفى المعنى الصحيح الذى دلت عليه النصوص، واستبداله بمعنًى آخر غير صحيحٍ.

والتعطيل هو نفى المعنى الصحيح من غير استبدالٍ له بمعنًى آخر، كفعل المفوضة، فكل محرفٍ معطل، وليس كل معطلٍ محرفًا.

❁ قال الشيخ هراس:

وأما التعطيل فهو مأخوذ من العطل الذى هو الخلو والفراغ والترك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحج: ٤٥]. أى: أهملها أهلها وتركوا وردها. والمراد به هنا نفى الصفات الإلهية، وإنكار قيامها بذاته تعالى.

فالفرق بين التحريف والتعطيل أن التعطيل نفى للمعنى الحق الذى دل عليه الكتاب والسنة، وأما التحريف فهو تفسير النصوص بالمعانى الباطلة التى لا تدل عليها.

والنسبة بينهما العموم والخصوص المطلق، فإن التعطيل أعم مطلقًا من التحريف بمعنى أنه كلما وجد التحريف وجد التعطيل دون العكس، وبذلك يوجدان معًا فيمن أثبت المعنى الباطل ونفى المعنى الحق، ويوجد التعطيل بدون التحريف فيمن نفى الصفات الواردة فى الكتاب والسنة، وزعم أن ظاهرها غير مراد ولكنه لم يعين لها معنى آخر وهو ما يسمونه بالتفويض.

ومن الخطأ القول بأن هذا هو مذهب السلف كما نسب ذلك إليهم المتأخرون من الأشاعرة وغيرهم، فإن السلف لم يكونوا يفوضون فى علم المعنى ولا كانوا يقرءون كلامًا لا يفهمون معناه، بل كانوا يفهمون معانى النصوص من الكتاب والسنة، ويثبتونها للَّه عزَّ وجلَّ، ثم يفوضون فيما وراء ذلك من كنه الصفات أو كيفياتها كما قال مالك حين سُئل عن كيفية استوائه تعالى على العرش: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول».

ومِن غيرِ تَكْييفٍ(١)، ....

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

« تكييف » : لم ترد فى الكتاب والسنة ، لكن ورد ما يدل على النهى عنها .

التكييف : هو أن تذكر كيفية الصفة ، ولهذا تقول : كيَّف يكيِّفُ تكييفًا ، أى ذكر كيفية الصفة .

التكييف يسأل عنه بـ : (كيف) ؛ فإذا قلت مثلا : كيف جاء زيد ؟ تقول : راكبًا . إذن : كيفت مجيئه . كيف لون السيارة ؟ أبيض . فذكرت اللون .

أهل السنة والجماعة لا يكيفون صفات اللَّه ؛ مستندين فى ذلك إلى الدليل السمعى والدليل العقلى :

أما الدليل السمعى ؛ فمثل قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٣] ، والشاهد فى قوله ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

فإذا جاء رجل وقال : إن اللَّه استوى على العرش ، على هذه الكيفية ووصف كيفية معينة : نقول : هذا قد قال على اللَّه ما لا يعلم ! هل أخبرك اللَّه بأنه استوى على هذه الكيفية ؟ ! لا ؛ أخبرنا اللَّه بأنه استوى ولم يخبرنا كيف استوى . فنقول : هذا تكييف وقول على اللَّه بغير علم .

ولهذا قال بعض السلف : إذا قال لك الجهمى : إن اللَّه ينزل إلى السماء ؛ فكيف ينزل ؟ فقل : إن اللَّه أخبرنا أنه ينزل ، ولم يخبرنا كيف ينزل . وهذه قاعدة مفيدة .

دليل آخر من السمع : قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] : لا تتبع ما ليس لك به علم ؛ ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ .

وأما الدليل العقلى ؛ فكيفية الشيء الشيء لا تدرك إلا بواحد من أمور ثلاثة : مشاهدته ، أو مشاهدة نظيره ، أو خبر الصادق عنه أى : إما أن تكون شاهدته أنت وعرفت كيفيته . أو شاهدت نظيره ؛ كما لو قال واحد : إن فلانا اشترى سيارة داتسون موديل ثمان وثمانين رقم ألفين . فتعرف كيفيتها ؛ لأن عندك مثلها ، أو خبر صادق عنه ؛ أتاك رجل صادق وقال : إن سيارة فلان صفتها كذا وكذا .. ووصفها تماما ؛ فتدرك الكيفية الآن .

ولهذا أيضًا قال بعض العلماء جوابًا لطيفًا : إن معنى قولنا : « بدون تكييف » : ليس معناه ألا نعتقد لها كيفية ، بل نعتقد لها كيفية لكن المنفى علمنا بالكيفية ؛ لأن استواء اللَّه على العرش لا

....

شك أن له كيفية ، لكن لا تُعلم ؛ نزوله إلى السماء الدنيا له كيفية ، لكن لا تُعلم ؛ لأنه ما من موجود إلا وله كيفية ، لكنها قد تكون معلومة ، وقد تكون مجهولة .

سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] : كيف استوى ؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه العرق ، ثم رفع رأسه وقال : « الاستواء غير مجهول » ؛ أي : من حيث المعنى معلوم ؛ لأن اللغة العربية بين أيدينا ، كل المواضع التى وردت فيها ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ معداة بـ : « على » معناها العلو فقال : « الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول » ؛ لأن العقل لا يدرك الكيف ؛ فإذا انتفى الدليل السمعى والعقلى عن الكيفية ؛ وجب الكف عنها ، « والإيمان به واجب » ؛ لأن اللّه أخبر به عن نفسه ، فوجب تصديقه ، « والسؤال عنه بدعة »[1] : السؤال عن الكيفية بدعة ؛ لأن من هم أحرص منا على العلم ما سألوا عنها وهم الصحابة لما قال اللّه : ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف : ٥٤] ؛ عرفوا عظمة اللّه عز وجل ، ومعنى الاستواء على العرش ، وأنه لا يمكن أن تسأل : كيف استوى ؟ لأنك لن تدرك ذلك فنحن إذا سُئلنا ؛ فنقول : هذا السؤال بدعة .

وكلام مالك رحمه اللّه ميزان لجميع الصفات ؛ فإن قيل لك مثلا : إن اللّه ينزل إلى السماء الدنيا ؛ كيف ينزل ؟ فالنزول غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة والذين يسألون : كيف يمكن النزول وثلث الليل يتنقل ؟ ! فنقول : السؤال هذا بدعة كيف تسأل عن شيء ما سأل عنه الصحابة وهم أحرص منك على الخير وعلى العلم بما يجب للّه عز وجل ، ولسنا بأعلم من الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فهو لم يعلمهم . فسؤالك هذا بدعة ، ولولا أننا نحسن الظن بك ؛ لقلنا ما يليق بك بأنك رجل مبتدع .

والإمام مالك رحمه اللّه قال : « ما أراك إلا مبتدعًا » . ثم أمر به فأخرج ؛ لأن السلف يكرهون أهل البدع وكلامهم واعتراضاتهم وتقديراتهم ومجادلاتهم .

فأنت يا أخى عليك فى هذا الباب بالتسليم ؛ فمن تمام الإسلام للّه عز وجل ألا تبحث فى هذه الأمور ، ولهذا أحذركم دائمًا من البحث فيما يتعلق بأسماء اللّه وصفاته على سبيل التعنت والتنطع والشيء الذى ما سأل الصحابة عنه ؛ لأننا إذا فتحنا على أنفسنا هذه الأبواب ؛ انفتحت علينا الأبواب ، وتهدمت الأسوار ، وعجزنا عن ضبط أنفسنا ؛ فلذلك قل : سمعنا وأطعنا وآمنا

(1) أخرجه أبو نعيم فى « الحلية » (٦/٣٢٥) ، والبيهقى (٤٠٨) .

....

وصدقنا ؛ آمنا وصدقنا بالخبر وأطعنا الطلب وسمعنا القول ؛ حتى تسلم !

وأى إنسان يسأل فيما يتعلق بصفات اللَّه عن شىء ما سأل عنه الصحابة ؛ فقل كما قال الإمام مالك ؛ فإن لك سلفًا : السؤال عن هذا بدعة . وإذا قلت ذلك ؛ لن يلح عليك ، وإذا ألح ؛ فقل : يا مبتدع ! السؤال عنه بدعة ، اسأل عن الأحكام التى أنت مكلف بها ، أما أن تسأل عن شىء يتعلق بالرب عز وجل وبأسمائه وصفاته ، ولم يسأل عنه الصحابة ؛ فهذا لا نقبله منك أبدًا !

وهناك كلام للسلف يدل على أنهم يفهمون معانى ما أنزل اللَّه على رسوله من الصفات ؛ كما نقل عن الأوزاعى وغيره ؛ نقل عنهم أنهم قالوا فى آيات الصفات وأحاديثها : « أمروها كما جاءت بلا كيف » . وهذا يدل على أنهم يثبتون لها معنى من وجهين :

أولا : أنهم قالوا : « أمروها كما جاءت » . ومعلوم أنها ألفاظ جاءت لمعانى ولم تأت عبثًا ، فإذا أمررناها كما جاءت ؛ لزم من ذلك أن نثبت لها معنى .

ثانيًا : قولهم : « بلا كيف » لأن نفى الكيفية يدل على وجود أصل المعنى ؛ لأن نفى الكيفية عن شىء لا يوجد لغو وعبث .

إذن ؛ فهذا الكلام المشهور عند السلف يدل على أنهم يثبتون لهذه النصوص معنى .

❃ قال الشيخ الفوزان :

والتكييف : هو تعيين كيفية الصفة ، يقال : كيف الشىء . إذا جعل له كيفيةً معلومةً ، فتكيف صفات اللَّه هو تعيين كيفيتها والهيئة التى تكون عليها .

وهذا لا يمكن للبشر ؛ لأنه مما استأثر اللَّه تعالى بعلمه ، فلا سبيل إلى الوصول إليه ؛ لأن الصفة تابعة للذات .

فكما أن ذات اللَّه لا يمكن للبشر معرفة كيفيتها ، فكذلك صفته سبحانه لا تعلم كيفيتها ، ولهذا لما سئل الإمام مالك رحمه اللَّه ، فقيل له : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة[1] . وهذا يقال فى سائر الصفات .

❃ قال الشيخ هراس :

وأما قوله : (ومن غير تكييف ولا تمثيل) . فالفرق بينهما أن التكييف أن يعتقد أن صفاته تعالى على كيفية كذا ، أو يسأل عنها بكيف .

---

(1) رواه اللالكائى فى « شرح السنة » (٦٦٤) ، والبيهقى فى « الأسماء والصفات » (٨٦٧) .

ولا تمثيلٍ (١).

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

يعنى : ومن غير تمثيل ؛ فأهل السنة يتبرءون من تمثيل اللّٰه عز وجل بخلقه ؛ لا فى ذاته ولا فى صفاته . والتمثيل : ذكر مماثل للشيء ، وبينه وبين التكييف عموم وخصوص مطلق ، لأن كل ممثل مكيف ، وليس كل مكيف ممثلا ؛ لأن التكييف ذكر كيفية غير مقرونة بمماثل ؛ مثل أن تقول : لى قلم كيفيته كذا وكذا . فإن قرنت بمماثل ؛ صار تمثيلا ؛ مثل أن أقول : هذا القلم مثل هذا القلم ؛ لأنى ذكرت شيئًا مماثلا لشيء وعرفت هذا القلم بذكر مماثله .

وأهل السنة والجماعة يثبتون للّٰه عز وجل الصفات بدون مماثلة ؛ يقولون : إن اللّٰه عز وجل له حياة وليست مثل حياتنا ، له علم وليس مثل علمنا ، له بصر وليس مثل بصرنا ، له وجه وليس مثل وجوهنا ، له يد وليست مثل أيدينا ... وهكذا جميع الصفات ؛ يقولون : إن اللّٰه عز وجل لا يماثل خلقه فيما وصف به نفسه أبدًا ، ولهم على ذلك أدلة سمعية وأدلة عقلية :

أ - الأدلة السمعية :

تنقسم إلى قسمين : خبر ، وطلب .

- فمن الخبر قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ، فالآية فيها نفى صريح للتمثيل وقوله : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] ؛ فإن هذا وإن كان إنشاء ، لكنه بمعنى الخبر ؛ لأنه استفهام بمعنى النفى وقوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ٤] ؛ فهذه كلها تدل على نفى المماثلة ، وهى كلها خبرية .

- وأما الطلب ؛ فقال اللّٰه تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة : ٢٢] أى : نظراء مماثلين . وقال : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل : ٧٤] .

فمن مثَّل اللّٰه بخلقه ؛ فقد كذب الخبر وعصى الأمر ولهذا أطلق بعض السلف القول بالتكفير لمن مثل اللّٰه بخلقه ، فقال نعيم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى رحمه اللّٰه : « من شبه اللّٰه بخلقه ؛ فقد كفر » ؛ لأنه جمع بين التكذيب بالخبر وعصيان الطلب .

وأما الأدلة العقلية على انتفاء التماثل بين الخالق والمخلوق : فمن وجوه :

أولا : أن نقول : لا يمكن التماثل بين الخالق والمخلوق بأى حال من الأحوال لو لم يكن بينهما من التباين إلا أصل الوجود ؛ لكان كافيًا ، وذلك أن وجود الخالق واجب ؛ فهو أزلى أبدى ، ووجود المخلوق ممكن مسبوق بعدم ويلحقه فناء ؛ فما كانا كذلك لا يمكن أن يقال :

....

إنهما متماثلان .

ثانيًا : أنا نجد التباين العظيم بين الخالق والمخلوق فى صفاته وفى أفعاله ؛ فى صفاته يسمع عز وجل كل صوت مهما خفى ومهما بعد ، لو كان فى قعار البحار ؛ لسمعه عز وجل .

وأنزل اللَّه قوله تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة : ١] ؛ تقول عائشة : « الحمد للَّه الذى وسع سمعه الأصوات ، إنى لفى الحجرة ، وإنه ليخفى على بعض حديثها » ، واللَّه تعالى سمعها من على عرشه وبينه وبينها ما لا يعلم مداه إلا اللَّه عز وجل ؛ ولا يمكن أن يقول قائل : إن سمع اللَّه مثل سمعنا .

ثالثًا : نقول : نحن نعلم أن اللَّه تعالى مباين للخلق بذاته : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ [الزمر : ٦٧] ، ولا يمكن لأحد من الخلق أن يكون هكذا ؛ فإذا كان مباينًا للخلق فى ذاته ؛ فالصفات تابعة للذات ، فيكون أيضًا مباينًا للخلق فى صفاته عز وجل ، ولا يمكن التماثل بين الخالق والمخلوق .

رابعًا : نقول : إننا نشاهد فى المخلوقات أشياء تتفق فى الأسماء وتختلف فى المسميات ؛ يختلف الناس فى صفاتهم : هذا قوى البصر وهذا ضعيفه ، وهذا قوى السمع وهذا ضعيفه ، هذا قوى البدن وهذا ضعيفه وهذا ذكر وهذه أنثى . .. وهكذا التباين فى المخلوقات التى من جنس واحد ؛ فما بالك بالمخلوقات المختلفة الأجناس ؟ فالتباين بينها أظهر ولهذا ؛ لا يمكن لأحد أن يقول : إن لى يدًا كيد الجمل ، أو لى يدًا كيد الذرة ، أو لى يدًا كيد الهر . فعندنا الآن إنسان وجمل وذرة وهر ، كل واحد له يد مختلفة عن الثانى ، مع أنها متفقة فى الاسم فنقول : إذا جاز التفاوت بين المسميات فى المخلوقات مع اتفاق الاسم ؛ فجوازه بين الخالق والمخلوق من باب أولى .

بل نحن نقول : إن التفاوت بين الخالق والمخلوق ليس جائزًا فقط ، بل هو واجب ؛ فعندنا أربعة وجوه عقلية كلها تدل على أن الخالق لا يمكن أن يماثل المخلوق بأى حال من الأحوال .

ربما نقول أيضًا : هناك دليل فطرى ، وذلك لأن الإنسان بفطرته بدون أن يلقن يعرف الفرق بين الخالق والمخلوق ولولا هذه الفطرة ؛ ما ذهب يدعو الخالق .

فتبين الآن أن التمثيل منتف سمعًا وعقلا وفطرةً .

فإن قال قائل : إن النبى ﷺ حدثنا بأحاديث تشتبه علينا ؛ هل هى تمثيل أو غير تمثيل ؟

....

ونحن نضعها بين أيديكم :

- قال النبي ﷺ « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته »[1] ؛ فقال : « كما » والكاف للتشبيه ، وهذا رسول الله ﷺ ، ونحن من قاعدتنا أن نؤمن بما قال الرسول كما نؤمن بما قال الله ؛ فأجيبوا عن هذا الحديث ؟

نقول : نجيب عن هذا الحديث وعن غيره بجوابين : الجواب الأول مجمل والثاني مفصل .

فالأول المجمل : أنه لا يمكن أن يقع تعارض بين كلام الله وكلام رسوله الذي صح عنه أبدًا ؛ لأن الكل حق ، والحق لا يتعارض ، والكل من عند الله ، وما عند الله تعالى لا يتناقض ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء : ٨٢] ؛ فإن وقع ما يوهم التعارض في فهمك ؛ فاعلم أن هذا ليس بحسب النص ، ولكن باعتبار ما عندك ؛ فأنت إذا وقع التعارض عندك في نصوص الكتاب والسنة ؛ فإما لقلة العلم ، وإما لقصور الفهم ، وإما للتقصير في البحث والتدبر ، ولو بحثت وتدبرت ؛ لوجدت أن التعارض الذي توهمته لا أصل له ، وإما لسوء القصد والنية ؛ بحيث تستعرض ما ظاهره التعارض لطلب التعارض ، فتحرم التوفيق ؛ كأهل الزيغ الذين يتبعون المتشابه .

ويتفرع على هذا الجواب المجمل أنه يجب عليك عند الاشتباه أن ترد المشتبه إلى المحكم ؛ لأن هذه الطريق طريق الراسخين في العلم ؛ قال الله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران : ٧] ، ويحملون المتشابه على المحكم حتى يبقى النص كله محكمًا .

وأما الجواب المفصل ؛ فأن نجيب عن كل نص بعينه فنقول :

إن قول النبي ﷺ : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته » . ليس تشبيهًا للمرئي بالمرئي ، ولكنه تشبيه للرؤية بالرؤية ؛ « سترون .. كما ترون » ؛ فالكاف في : « كما ترون » : داخله على مصدر مؤول ؛ لأن (ما) مصدرية ، وتقدير الكلام : كرؤيتكم القمر ليلة البدر وحينئذ يكون التشبيه للرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي ، والمراد أنكم ترونه رؤية

---

(1) أخرجه البخاري (٥٥٤) ، ومسلم (٦٣٣) .

....

واضحة كما ترون القمر ليلة البدر ولهذا أعقبه بقوله : « لا تضامون فى رؤيته » أو : « لا تضارون فى رؤيته » . فزال الإشكال الآن .

– قال النبى ﷺ : « إن اللّه خلق آدم على صورته »[1] ، والصورة مماثلة للأخرى ، ولا يعقل صورة إلا مماثلة للأخرى ، ولهذا أكتب لك رسالة ، ثم تدخلها الآلة الفوتوغرافية ، وتخرج الرسالة ، فيقال : هذه صورة هذه ، ولا فرق بين الحروف والكلمات ؛ فالصورة مطابقة للصورة ، والقائل : « إن اللّه خلق آدم على صورته » : الرسول عليه الصلاة والسلام أعلم وأصدق وأنصح وأفصح الخلق .

والجواب المجمل أن نقول : لا يمكن أن يناقض هذا الحديث قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ، فإن يسر اللّه لك الجمع ؛ فاجمع ، وإن لم يتيسر ؛ فقل : ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران : ٧] ، وعقيدتنا أن اللّه لا مثيل له ؛ بهذا تسلم أمام اللّه عز وجل .

هذا كلام اللّه ، وهذا كلام رسوله ، والكل حق ، ولا يمكن أن يكذب بعضه بعضًا ؛ لأنه كله خبر وليس حكمًا كى ينسخ ؛ فأقول : هذا نفى للمماثلة ، وهذا إثبات للصورة ؛ فقل : إن اللّه ليس كمثله شىء ، وإن اللّه خلق آدم على صورته ؛ فهذا كلام اللّه ، وهذا كلام رسوله والكل حق نؤمن به ، ونقول : كل من عند ربنا ، ونسكت وهذا هو غاية ما نستطيع .

وأما الجواب المفصل ؛ فنقول : إن الذى قال : « إن اللّه خلق آدم على صورته » رسول الذى قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى : ١١] والرسول لا يمكن أن ينطق بما يكذب المرسل والذى قال : « خلق آدم على صورته » : هو الذى قال : « إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر »[2] ؛ فهل أنت تعتقد أن هؤلاء الذين يدخلون الجنة على صورة القمر من كل وجه أو تعتقد أنهم على صورة البشر لكن فى الوضاءة والحسن والجمال واستدارة الوجه وما أشبه ذلك على صورة القمر ، لا من كل وجه ؟ ! فإن قلت بالأول ؛ فمقتضاه أنهم دخلوا وليس لهم أعين وليس لهم آناف وليس لهم أفواه ! وإن شئنا قلنا : دخلوا وهم أحجار ! وإن قلت بالثانى ؛ زال الإشكال ، وتبين أنه لا يلزم من كون الشىء على صورة الشىء أن يكون مماثلا له من كل وجه .

فإن أبى فهمك ، وتقاصر عن هذا ، وقال : أنا لا أفهم إلا أنه مماثل .

---

(1) أخرجه البخارى (٦٢٢٧) ، ومسلم (٢٨٤١) .

(2) أخرجه البخارى (٣٢٤٥) ، ومسلم (٢٨٣٤) .

....

قلنا : هناك جواب آخر ، وهو أن الإضافة هنا من باب إضافة المخلوق إلى خالقه ؛ فقوله : « على صورته » ؛ مثل قوله عز وجل فى آدم : ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص : ٧٢] ، ولا يمكن أن الله عز وجل أعطى آدم جزءًا من روحه ، بل المراد الروح التى خلقها الله عز وجل ، لكن إضافتها إلى الله بخصوصها من باب التشريف ؛ كما نقول : عباد الله ؛ يشمل الكافر والمسلم والمؤمن والشهيد والصديق والنبى لكننا لو قلنا : محمد عبد الله ؛ هذه إضافة خاصة ليست كالعبودية السابقة .

فقوله : « خلق آدم على صورته » . يعنى : صورة من الصور التى خلقها الله وصورها ؛ كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [الأعراف : ١١] . والمصور آدم إذن ؛ فآدم على صورة الله ؛ يعنى : أن الله هو الذى صوره على هذه الصورة التى تعد أحسن صورة فى المخلوقات ، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤] ؛ فإضافة الله الصورة إليه من باب التشريف ، كأنه عز وجل اعتنى بهذه الصورة ومن أجل ذلك ؛ لا تضرب الوجه ؛ فتعيبه حسًا ، ولا تقبحه فتقول : قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك . فتعيبه معنًى ؛ فمن أجل أنه الصورة التى صورها الله وأضافها إلى نفسه تشريفًا وتكريمًا ؛ لا تقبحها بعيب حسى ولا بعيب معنوى .

ثم هل يعتبر هذا الجواب تحريفًا أم له نظير ؟

نقول : له نظير ، كما فى : بيت الله ، وناقة الله ، وعبد الله ؛ لأن هذه الصورة (أى : صورة آدم) منفصلة بائنة من الله وكل شىء أضافه الله إلى نفسه وهو منفصل بائن عنه ؛ فهو من المخلوقات ؛ فحينئذ يزول الإشكال .

ولكن إذا قال القائل : أيما أسلم : المعنى الأول أو الثانى ؟ قلنا : المعنى الأول أسلم ، ما دمنا نجد أن لظاهر اللفظ مساغًا فى اللغة العربية وإمكانًا فى العقل ؛ فالواجب حمل الكلام عليه ونحن وجدنا أن الصورة لا يلزم منها مماثلة الصورة الأخرى ، وحينئذ يكون الأسلم أن نحمله على ظاهره .

فإذا قلت : ما الصورة التى تكون لله ويكون آدم عليها ؟

قلنا : إن الله عز وجل له وجه وله عين وله يد وله رجل عز وجل ، لكن لا يلزم من أن تكون هذه الأشياء مماثلة للإنسان ؛ فهناك شىء من الشبه لكنه ليس على سبيل المماثلة ؛ كما أن الزمرة

....

الأولى من أهل الجنة فيها شبه من القمر لكن بدون مماثلة ، وبهذا يصدق ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة ؛ من أن جميع صفات اللّه سبحانه وتعالى ليست مماثلة لصفات المخلوقين ؛ من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل .

نسمع كثيرًا من الكتب التى نقرؤها يقولون : تشبيه ؛ يعبرون بالتشبيه وهم يقصدون التمثيل ؛ فأيما أولى : أنعبر بالتشبيه ، أو نعبر بالتمثيل ؟

نقول : بالتمثيل أولى .

أولا : لأن القرآن عبر به : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة : ٢٢] .. وما أشبه ذلك ، وكل ما عبر به القرآن ؛ فهو أولى من غيره ؛ لأننا لا نجد أفصح من القرآن ولا أدل على المعنى المراد من القرآن ، واللّه أعلم بما يريده من كلامه ، فتكون موافقة القرآن هى الصواب ، فنعبر بنفى التمثيل . وهكذا فى كل مكان ؛ فإن موافقة النص فى اللفظ أولى من ذكر لفظ مرادف أو مقارب .

ثانيًا : أن التشبيه عند بعض الناس يعنى إثبات الصفات ولهذا يسمون أهل السنة : مشبهة ؛ فإذا قلنا : من غير تشبيه . وهذا الرجل لا يفهم من التشبيه إلا إثبات الصفات ؛ صار كأننا نقول له : من غير إثبات صفات ! فصار معنى التشبيه يوهم معنًى فاسدًا فلهذا كان العدول عنه أولى .

ثالثًا : أن نفى التشبيه على الإطلاق غير صحيح ؛ لأن ما من شيئين من الأعيان أو من الصفات إلا وبينهما اشتراك من بعض الوجوه ، والاشتراك نوع تشابه ، فلو نفيت التشبيه مطلقًا ؛ لكنت نفيت كل ما يشترك فيه الخالق والمخلوق فى شىء ما .

مثلا : الوجود ؛ يشترك فى أصله الخالق والمخلوق ، هذا نوع اشتراك ونوع تشابه ، لكن فرق بين الوجودين ؛ وجود الخالق واجب ووجود المخلوق ممكن .

وكذلك السمع ؛ فيه اشتراك ؛ الإنسان له سمع ، والخالق له سمع ، لكن بينهما فرق ، لكن أصل وجود السمع مشترك .

فإذا قلنا : من غير تشبيه . ونفينا مطلق التشبيه ؛ صار فى هذا إشكال .

وبهذا عرفنا أن التعبير بالتمثيل أولى من ثلاثة أوجه .

فإن قلت : ما الفرق بين التكييف والتمثيل ؟

....

فالجواب : الفرق بينهما من وجهين :

الأول : أن التمثيل ذكر الصفة مقيدة بمماثل ؛ فتقول يد فلان مثل يد فلان ، والتكييف ذكر الصفة غير مقيدة بمماثل ؛ مثل أن تقول : كيفية يد فلان كذا وكذا .

وعلى هذا نقول : كل ممثِّل مكيِّف ، ولا عكس .

الثاني : أن الكيفية لا تكون إلا في الصفة والهيئة ، والتمثيل يكون في ذلك وفي العدد ؛ كما في قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق : ١٢] ؛ أي : في العدد .

❁ قال الشيخ الفوزان :

والتمثيل : هو التشبيه بأن يقال : إن صفات اللَّه مثل صفات المخلوقين . كأن يقال : يد اللَّه كأيدينا ، وسمعه كسمعنا ، تعالى اللَّه عن ذلك ، قال تعالى في الآية : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

فلا يقال في صفاته : إنها مثل صفاتنا ، أو شبه صفاتنا ، أو كصفاتنا . كما لا يقال : إن ذات اللَّه مِثل أو شِبه ذواتنا .

فالمؤمن الموحد يثبت الصفات كلها على الوجه اللائق بعظمة اللَّه وكبريائه ، والمعطل ينفيها ، أو ينفي بعضها ، والمشبه الممثل يثبتها على وجهٍ لا يليق باللَّه ، وإنما يليق بالمخلوق .

لما ذكر المصنف رحمه اللَّه أن الواجب هو الإيمان بصفات اللَّه الثابتة في الكتاب والسنة ، من غير تحريفٍ ، ولا تعطيلٍ ، ومن غير تكييفٍ ، ولا تمثيلٍ ، بين موقف أهل السنة والجماعة من ذلك ، وهو أنهم يؤمنون بتلك الصفات على هذا المنهج المستقيم ، فيثبتونها على حقيقتها ، نافين عنها التمثيل .

فلا يعطلون ، ولا يمثلون على وفق ما جاء في قوله تعالى في الآية : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

❁ قال الشيخ هراس :

وأما التمثيل فهو اعتقاد أنها مثل صفات المخلوقين ، وليس المراد من قوله : من غير تكييف . أنَّهم ينفون الكيف مطلقًا ، فإن كل شيء لابد أن يكون على كيفية ما ؛ ولكن المراد أنهم ينفون علمهم بالكيف ؛ إذ لا يعلم كيفية ذاته وصفاته إلا هو سبحانه .

بل يُؤْمِنون بأَنَّ اللَّهَ سبحانَه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(١) [الشورى: ١١] .

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

أى : يقر أهل السنة والجماعة بذلك إقرارًا وتصديقًا بأن اللَّه ليس كمثله شيء ؛ كما قال عن نفسه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ؛ فهنا نفى المماثلة ، ثم أثبت السمع والبصر فنفى العيب ، ثم أثبت الكمال ؛ لأن نفى العيب قبل إثبات الكمال أحسن ؛ ولهذا يقال : التخلية قبل التحلية . فنفى العيوب يبدأ به أولا ، ثم يذكر إثبات الكمال .

وكلمة ﴿شَيْءٌ﴾ نكرة فى سياق النفى ، فتعم كل شيء ، ليس شيء مثله أبدًا عز وجل أى مخلوق وإن عظم ؛ فليس مماثلا للَّه عز وجل ؛ لأن مماثلة الناقص نقص ، بل إن طلب المفاضلة بين الناقص والكامل تجعله ناقصا ؛ كما قيل :

ألم تَرَ أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

فهنا لو قلنا : إن للَّه مثيلا ؛ لزم من ذلك تنقص اللَّه عز وجل ؛ فلهذا نقول : نفى اللَّه عن نفسه مماثلة المخلوقين ؛ لأن مماثلة المخلوقين نقص وعيب ؛ لأن المخلوق ناقص ، وتمثيل الكامل بالناقص يجعله ناقصا ، بل ذكر المفاضلة بينهما يجعله ناقصًا ؛ إلا إذا كان فى مقام التحدى ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩] ، وقوله : ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤] .

وفى قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ : رد صريح على الممثّلة الذين يثبتون أن اللَّه سبحانه وتعالى له مثيل .

وحجة هؤلاء يقولون : إن القرآن عربى ، وإذا كان عربيًّا ؛ فقد خاطبنا اللَّه تعالى بما نفهم ، ولا يمكن أن يخاطبنا بما لا نفهم ، وقد خاطبنا اللَّه تعالى ، فقال : إن له وجهًا وإن له عينًا ، وإن له يدين .. وما أشبه ذلك ونحن لا نعقل بمقتضى اللغة العربية من هذه الأشياء إلا مثل ما نشاهد ، وعلى هذا ؛ فيجب أن يكون مدلول هذه الكلمات مماثلا لمدلولها بالنسبة للمخلوقات : يد ويد ، وعين وعين ، ووجه ووجه .. وهكذا ؛ فنحن إنما قلنا بذلك لأن لدينا دليلا .

ولا شك أن هذه الحجة واهية يوهيها ما سبق من بيان أن اللَّه ليس له مثيل ونقول : إن اللَّه خاطبنا بما خاطبنا به من صفاته ، لكننا نعلم علم اليقين أن الصفة بحسب الموصوف ودليل هذا فى الشاهد ؛ فإنه يقال : للجمل يد وللذرة يد . ولا أحد يفهم من اليد التى أضفناها إلى الجمل أنها

....

مثل اليد التي أضفناها إلى الذرة !

هذا وهو في المخلوقات ؛ فكيف إذا كان ذلك من أوصاف الخالق ؟ ! فإن التباين يكون أظهر وأجلى .

وعلى هذا ؛ فيكون قول هؤلاء الممثلة مردودًا بالعقل كما أنه مردود بالسمع .

قال اللَّه تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ . فأثبت لنفسه سبحانه وتعالى السمع والبصر ؛ لبيان كماله ، ونقص الأصنام التي تُعبد من دونه ؛ فالأصنام التي تُعبد من دون اللَّه تعالى لا يسمعون ، ولو سمعوا ؛ ما استجابوا ، ولا يبصرون ؛ كما قال اللَّه عز وجل : ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل : ٢٠، ٢١] ؛ فهم ليس لهم سمع ولا عقل ولا بصر ولو فرض أن لهم ذلك ؛ ما استجابوا : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف : ٥] .

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بانتفاء المماثلة عن اللَّه ؛ لأنها عيب ويثبتون له السمع والبصر ؛ لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

وإيمان الإنسان بذلك يثمر للعبد أن يعظمه غاية التعظيم ؛ لأنه ليس مثله أحد من المخلوقات ، فتعظم هذا الرب العظيم الذي لا يماثله أحد ، وإلا ؛ لم يكن هناك فائدة من إيمانك بأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ .

إذا آمنت بأنه سميع ؛ فإنك سوف تحترز عن كل قول يغضب اللَّه ؛ لأنك تعلم أنه يسمعك ، فتخشى عقابه ؛ فكل قول يكون فيه معصية اللَّه عز وجل ؛ فسوف تتحاشاه ؛ لأنك تؤمن بأنه سميع ، وإذا لم يحدث لك هذا الإيمان هذا الشيء ؛ فاعلم أن إيمانك بأن اللَّه سميع إيمان ناقص بلا شك .

إذا آمنت بأن اللَّه سميع ؛ فلن تتكلم إلا بما يرضيه ولا سيما إذا كنت تتكلم معبرًا عن شرعه ، وهو المفتي والمعلم ؛ فإن هذا أشد ، واللَّه سبحانه يقول : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنعام : ١٤٤] ؛ فإن هذا من أظلم الظلم ولهذا قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف : ١٠] وهذا من عقوبة من يفتي بلا علم ؛ أنه لا يُهدى ؛ لأنه ظالم .

....

فحذار يا أخي المسلم أن تقول قولا لا يرضى اللّه ؛ سواء قلته على اللّه ، أو على غير هذا الوجه .

وثمرة الإيمان بأن اللّه بصير ألّا تفعل شيئًا يغضب اللّه ؛ لأنك تعلم أنك لو تنظر نظرة محرمة لا يفهم الناس أنها نظرة محرمة ؛ فإن اللّه تعالى يرى هذه النظرة ، ويعلم ما في قلبك ، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر : ١٩] .

إذا آمنت بهذا ؛ لا يمكن أن تفعل فعلا لا يرضاه أبدًا .

استحيى من اللّه كما تستحيى من أقرب الناس إليك وأشدهم تعظيمًا منك .

إذن ؛ إذا آمنّا بأن اللّه بصير ؛ فسوف نتحاشى كل فعل يكون سببًا لغضب اللّه عز وجل ، وإلا ؛ فإن إيماننا بذلك ناقص . لو أن أحدًا أشار بإصبعه أو شفته أو بعينه أو برأسه لأمر محرم ؛ فالناس الذين حوله لا يعلمون عنه ، لكن اللّه تعالى يراه ؛ فليحذر هذا من يؤمن به ، ولو أننا نؤمن بما تقتضيه أسماء اللّه وصفاته ؛ لوجدت الاستقامة كاملة فينا فاللّه المستعان .

❁ قال الشيخ الفوزان :

فقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ . ردٌّ على الممثلة .

وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ . ردٌّ على المعطلة ؛ لأن فيه إثبات السمع والبصر ، فالآية الكريمة دستور واضح في باب الأسماء والصفات ؛ لأنها جمعت بين إثبات الصفات للّه ، ونفى التمثيل عنها ، وسيأتي تفسيرها إن شاء اللّه .

❁ قال الشيخ هراس :

قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ﴾ هذه الآية المحكمة من كتاب اللّه عزَّ وجلَّ هي دستور أهل السنة والجماعة في باب الصفات ، فإن اللّه عزَّ وجلَّ قد جمع فيها بين النفي والإثبات ، فنفى عن نفسه المثل وأثبت لنفسه سمعًا وبصرًا ؛ فدل هذا على أن المذهب الحق ليس هو نفي الصفات مطلقًا كما هو شأن المعطلة ولا إثباتها مطلقًا ، كما هو شأن الممثلة ، بل إثباتها بلا تمثيل . وقد اختلف في إعراب : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ على وجوه أصحها أن الكاف صلة زيدت للتأكيد كما في قول الشاعر :

ليس كمثل الفتى زهير   خلق يوازيه في الفضائل

فلا يَنْفُونَ عنه ما وصَف به نفسَه[١]، ....

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

أى : لا ينفى أهل السنة والجماعة عن اللّه ما وصف به نفسه ؛ لأنهم متبعون للنص نفيًا وإثباتًا ؛ فكل ما وصف اللّه به نفسه يثبتونه على حقيقته ؛ فلا ينفون عن اللّه ما وصف اللّه به نفسه ، سواء كان من الصفات الذاتية أو الفعلية (أو الخبرية) .

الصفات الذاتية ؛ كالحياة والقدرة ، والعلم .. وما أشبه ذلك ، وتنقسم إلى ذاتية معنوية ، وذاتية خبرية ، وهى التى مسماها أبعاض لنا وأجزاء ؛ كاليد والوجه ، والعين ؛ فهذه يسميها العلماء : ذاتية خبرية ، ذاتية : لأنها لا تنفصل ولم يزل اللّه ولا يزال متصفًا بها . خبرية : لأنها متلقاة بالخبر ؛ فالعقل لا يدل على ذلك ، لولا أن اللّه أخبرنا أن له يدًا ؛ ما علمنا بذلك لكنه أخبرنا بذلك ؛ بخلاف العلم والسمع والبصر ؛ فإن هذا ندركه بعقولنا مع دلالة السمع ، لهذا نقول فى مثل هذه الصفات اليد والوجه وما أشبهها : إنها ذاتية خبرية . ولا نقول : أجزاء وأبعاض . بل نتحاشى هذا اللفظ لكن مسماها لنا أجزاء وأبعاض ؛ لأن الجزء والبعض ما جاز انفصاله عن الكل ؛ فالرب عز وجل لا يُتصور أن شيئًا من هذه الصفات التى وصف بها نفسه - كاليد - أن تزول أبدًا ؛ لأنه موصوف بها أزلا وأبدًا ولهذا لا نقول ؛ إنها أبعاض وأجزاء .

والصفات الفعلية : هى المتعلقة بمشيئته إن شاء فعلها ، وإن شاء لم يفعلها ، وقد ذكرنا أن هذه الصفات الفعلية : منها ما يكون له سبب ، ومنها ما ليس له سبب ، ومنها ما يكون ذاتيًا فعليًا .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

وقوله : (فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه) ؛ أى : لا يحمل أهل السنة والجماعة إيمانهم بأن اللّه ليس كمثله شيء على أن ينفوا عنه ما وصف به نفسه ، كما يفعل ذلك الذين غلوا فى التنزيه ، حتى عطلوه من صفاته بحجة الفِرار من التمثيل بصفات المخلوقين .

فأهل السنة يقولون : للّه سبحانه صفات تخصه وتليق به ، وللمخلوقين صفات تخصهم وتليق بهم ، ولا تشابه بين صفات الخالق ، وصفات المخلوق ، فلا يلزم هذا المحذور الذى ذكرتم أيها المعطلة .

❁ **قال الشيخ هراس :**

وقوله : (فلا ينفون عنه إلخ) تفريع على ما قبله ، فإنهم إذا كانوا يؤمنون باللّه على هذا الوجه فلا ينفون ولا يحرفون ، ولا يكيفون ولا يمثلون .

ولا يُحَرِّفون الكَلِمَ عن مَواضعِه[١]، ولا يُلْحِدُونَ في أسماءِ اللَّهِ وآياتِه[٢]،

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

(الكلم) : اسم جمع، كلمة ويراد به كلام اللَّه وكلام رسوله .

لا يحرفونه عن مواضعه؛ أى : عن مدلولاته؛ فمثلا قوله تعالى : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة : ٦٤]؛ يقولون : هي يد حقيقية ثابتة للَّه من غير تكييف ولا تمثيل . والمحرفون يقولون : قوته، أو نعمته أما أهل السنة؛ فيقولون : القوة شيء واليد شيء آخر، والنعمة شيء واليد شيء آخر؛ فهم لا يحرفون الكلم عن مواضعه؛ فإن التحريف من دأب اليهود، ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء : ٤٦]؛ فكل من حَرَّفَ نصوص الكتاب والسنة؛ ففيه شبه من اليهود؛ فاحذر هذا، ولا تتشبه بالمغضوب عليهم الذين جعل اللَّه منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوت، لا تحرِّف، بل فسر الكلام على ما أراد اللَّه ورسوله .

ومن كلام الشافعي ما يذكر عنه : «آمنت باللَّه وبما جاء عن اللَّه على مراد اللَّه، وآمنت برسول اللَّه وبما جاء عن رسول اللَّه على مراد رسول اللَّه» .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

وقوله : (ولا يحرفون الكلم عن مواضعه) . تقدم بيان معنى التحريف؛ أى : لا يغيرون كلام اللَّه، فيبدلون ألفاظه، أو يغيرون معانيه، فيفسرونه بغير تفسيره، كما يفعل المعطلة الذين يقولون في (استوى) : استولى، وفي : (وجاء ربك) : جاء أمر ربك، ويفسرون رحمة اللَّه بإرادة الإنعام، ونحو ذلك .

❁ **قال الشيخ هراس :**

والمواضع جمع موضع، والمراد بها المعاني التي يجب تنزيل الكلام عليها لأنها هي المتبادرة منه عند الإطلاق فهم لا يعدلون به عنها .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قوله : «ولا يلحدون» أى : أهل السنة والجماعة .

والإلحاد في اللغة : الميل، ومنه سمي اللحد في القبر؛ لأنه مائل إلى جانب منه وليس متوسطًا والمتوسط يسمى شقًّا واللحد أفضل من الشق .

فهم لا يلحدون في أسماء اللَّه، ولا يلحدون أيضًا في آيات اللَّه، فأفادنا المؤلف رحمه اللَّه أن الإلحادَ يكون في موضعين : في الأسماءِ وفي الآياتِ .

....

هذا الذى يفيده كلام المؤلف قد دلَّ عليه القرآن ؛ قال اللَّه تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٠] . فأثبت اللَّه الإلحادَ فى الأسماء ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت : ٤٠] . فأثبت اللَّه الإلحاد فى الآيات .

- فالإلحادُ فى الأسماء هو الميل فيها عما يجب ، وهو أنواع :

النوع الأول : أن يُسمى اللَّه بما لم يسم به نفسه ؛ كما سماه الفلاسفة علة فاعلة وسماه النصارى : أبًا ، وعيسى : الابن ؛ فهذا إلحاد فى أسماء اللَّه ، وكذلك لو سمى اللَّه بأى اسم لم يسم به نفسه ؛ فهو ملحدٌ فى أسماء اللَّه .

ووجه ذلك أن أسماء اللَّه عز وجل توقيفية ؛ فلا يمكن أن نثبت له إلا ما ثبت بالنص ، فإذا سميت اللَّه بما لم يسم به نفسه ؛ فقد ألحدتَ ومِلتَ عن الواجب .

وتسمية اللَّه بما لم يسم به نفسه سوء أدبٍ مع اللَّه وظلم وعدوان فى حقه ؛ لأنه لو أن أحدًا دعاك بغير اسمك أو سماك بغير اسمك ؛ لاعتبرته قد اعتدى عليك وظلمك هذا فى المخلوق ؛ فكيف بالخالق ؟ !

إذن ؛ ليس لك حق أن تسمى اللَّه بما لم يسم به نفسه ، فإن فعلت ؛ فأنت ملحدٌ فى أسماء اللَّه .

النوع الثانى : أن ينكر شيئًا من أسمائه ؛ عكس الأول ؛ فالأول سمى اللَّه بما لم يسم به نفسه ، وهذا جرد اللَّه مما سمى به نفسه ، فينكر الاسم ؛ سواء أنكر كل الأسماء أو بعضها التى تثبت للَّه ؛ فإذا أنكرها ؛ فقد ألحدَ فيها .

ووجه الإلحادِ فيها : أنه لما أثبتها اللَّهُ لنفسه ؛ وجب علينا أن نثبتَها له ؛ فإذا نفيناها ؛ كان إلحادًا وميلا بها عما يجب فيها .

وهناك من الناس من أنكر الأسماء ؛ كغُلاةِ الجهمية ، فقالوا : ليس للَّه اسم أبدًا ! قالوا : لأنك لو أثبت له اسمًا ؛ شبهته بالموجودات ، وهذا معروف أنه باطلٌ مردودٌ .

النوع الثالث : أن ينكر ما دلت عليه من الصفات ؛ فهو يثبت الاسم ، لكن ينكر الصفة التى يتضمنها هذا الاسم ؛ مثل أن يقول : إن اللَّه سميع بلا سمعٍ ، وعليم بلا علمٍ ، وخالق بلا خلقٍ ، وقادر بلا قدرة . . . . وهذا معروف عن المعتزلة ، وهو غير معقول !

....

ثم هؤلاء يجعلون الأسماء أعلامًا محضةً متغايرة ، فيقولون : السميع غير العليم ، لكن كلها ليس لها معنى ! السميع لا يدل على السمع ! والعليم لا يدل على العلم ! لكن مجرد أعلام ! !

ومنهم آخرون يقولون : هذه الأسماء شيء واحد ؛ فهي عليم وسميع وبصير كلها واحد ، لا تختلف إلا بتركيب الحروف فقط ، فيجعل الأسماء شيئًا واحدًا ! !

وكل هذا غير معقول ، ولذلك نحن نقول : إنه لا يمكن الإيمان بالأسماء حتى تثبت ما تضمنته من الصفات .

ولعلنا من هنا نتكلم على دلالة الاسم ؛ فالاسم له أنواع ثلاثة في الدلالة : دلالة مطابقة ، ودلالة تضمن ، ودلالة التزام :

١ - فدلالة المطابقة : دلالة اللفظ على جميع مدلوله ، وعلى هذا ؛ فكل اسم دال على المسمى به ، وهو الله ، وعلى الصفة المشتق منها هذا الاسم .

٢ - ودلالة التضمن : دلالة اللفظ على بعض مدلوله ، وعلى هذا ؛ فدلالة الاسم على الذات وحدها أو على الصفة وحدها من دلالة التضمن .

٣ - ودلالة الالتزام : دلالته على شيء يُفهم لا من لفظ الاسم لكن من لازمه ولهذا سميناه : دلالة الالتزام .

مثل كلمة الخالق : اسم يدل على ذات الله ويدل على صفة الخلق .

إذن ؛ فباعتبار دلالته على الأمرين يسمى دلالة مطابقة ؛ لأن اللفظ دل على جميع مدلوله ، ولا شك أنك إذا قلت : الخالق ؛ فإنك تفهم خالقًا وخلقًا .

- وباعتبار دلالته على الخالق وحده أو على الخلق وحده يسمى دلالة تضمن ؛ لأنه دلّ على بعض معناه ، وباعتبار دلالته على العلم والقدرة يسمى دلالة التزام ؛ إذ لا يمكن خلق إلا بعلم وقدرة ؛ فدلالته على القدرة والعلم دلالة التزام .

وحينئذ ؛ يتبين أن الإنسان إذا أنكر واحدًا من هذه الدلالة ؛ فهو ملحدٌ في الأسماء .

ولو قال : أنا أؤمن بدلالة الخالق على الذات ، ولا أؤمن بدلالته على الصفة ؛ فهو ملحد في الاسم .

[و] لو قال : أنا أومن بأن (الخالق) تدل على ذات الله وعلى صفة الخلق ، لكن لا تدل على صفة العلم والقدرة . قلنا : هذا إلحاد أيضًا ؛ فلازم علينا أن نثبت كل ما دل عليه هذا الاسم ؛

....

فإنكار شيء مما دل عليه الاسم من الصفة إلحاد فى الاسم سواء كانت دلالته على هذه الصفة دلالة مطابقة أو تضمن أو التزام.

ولنضرب مثلا حسيًا تتبين فيه أنواع هذه الدلالات : لو قلت : لى بيت . فكلمة (بيت) فيها الدلالات الثلاث ؛ فتفهم من (بيت) أنها تدل على كل البيت دلالة مطابقة . وتدل على مجلس الرجال وحده ، وعلى الحمامات وحدها ، وعلى الصالة وحدها ؛ دلالة تضمن ؛ لأن هذه الأشياء جزء من البيت ودلالة اللفظ على جزء معناه دلالة تضمن . وتدل على أن هناك بانيًا بناه دلالة التزام؛ لأنه ما من بيت؛ إلا وله بان .

النوع الرابع من أنواع الإلحاد فى الأسماء : أن يثبت الأسماء لله والصفات ، لكن يجعلها دالة على التمثيل؛ أى دالة على بصر كبصرنا وعلم كعلمنا ، ومغفرة كمغفرتنا . .. وما أشبه ذلك؛ فهذا إلحاد؛ لأنه ميل بها عما يجب فيها؛ إذ الواجب إثباتها بلا تمثيل .

النوع الخامس : أن ينقلها إلى المعبودات ، أو يشتق أسماء منها للمعبودات ؛ مثل أن يسمى شيئًا معبودًا بالإله ، فهذا إلحاد ، أو يشتق منها أسماء للمعبودات مثل : اللات من الإله ، والعُزى من العزيز ، ومناة من المنان ؛ فنقول : هذا أيضًا إلحاد فى أسماء الله ؛ لأن الواجب عليك أن تجعل أسماء الله خاصة به ، ولا تتعدى وتتجاوز فتشتق للمعبودات منها أسماء . هذه أنواع الإلحاد فى أسماء الله .

فأهل السنة والجماعة لا يلحدون فى أسماء الله أبدًا بل يجرونها على ما أراد الله بها سبحانه وتعالى ويثبتون لها جميع أنواع الدلالات ؛ لأنهم يرون أن ما خالف ذلك؛ فهو إلحاد .

- وأما الإلحاد فى آيات الله تعالى؛ فالآيات جمع آية ، وهى العلامة المميزة للشيء عن غيره ، والله عز وجل بعث الرسل بالآيات لا بالمعجزات ، لهذا كان التعبير بالآيات أحسن من التعبير بالمعجزات .

أولا : لأن الآيات هى التى يُعبر بها فى الكتاب والسنة .

ثانيًا : أن المعجزات قد تقع من ساحر ومشعوذ وما أشبه ذلك تُعجز غيره .

ثالثًا : أن كلمة (آيات) أدل على المعنى المقصود من كلمة معجزات ؛ فآيات الله عز وجل هى العلامات الدالة على الله عز وجل ، وحينئذٍ تكون خاصة به ولولا أنها خاصة؛ ما صارت آية له .

....

وآيات الله عز وجل تنقسم إلى قسمين : آيات كونية ، وآيات شرعية :

فالآيات الكونية : ما يتعلق بالخلق والتكوين ، مثال ذلك قوله : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت : ٣٧] ، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم : ٢٠] ، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم : ٢٢- ٢٥] . فهذه الآيات كونية وإن شئت ؛ فقل : كونية قدرية ، وكانت آية لله ؛ لأنه لا يستطيع الخلق أن يفعلوها ؛ فمثلا : لا يستطيع أحد أن يخلق مثل الشمس والقمر ، ولا يستطيع أن يأتى بالليل إذا جاء النهار ، ولا بالنهار إذا جاء الليل ؛ فهذه الآيات كونية .

والإلحاد فيها أن ينسبها إلى غير الله استقلالا أو مشاركة أو إعانة ، فيقول : هذا من الولى الفلانى ، أو : من النبى الفلانى ، أو : شارك فيه النبى الفلانى أو الولى الفلانى ، أو : أعان الله فيه . قال الله تعالى : ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ : ٢٢] . فنفى كل شىء يتعلق به المشركون بكون معبوداتهم لا تملك شيئًا فى السماوات والأرض اسقلالا أو مشاركة ولا معينة لله عز وجل ، ثم جاء بالرابع : ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ : ٢٣] ؛ لما كان المشركون قد يقولون : نعم ؛ هذه الأصنام لا تملك ولا تشارك ولم تعاون ، لكنها شفعاء ؛ قال : ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ ؛ فقطع كل سبب يتعلق به المشركون .

القسم الثانى من الآيات : الآيات الشرعية ، وهى ما جاءت به الرسل من الوحى ؛ كالقرآن العظيم وهو آية ؛ لقوله تعالى : ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة : ٢٥٢] ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [العنكبوت : ٥٠، ٥١] ؛ فجعله آيات .

ويكون الإلحاد فيها إما بتكذيبها أو تحريفها أو مخالفتها ؛ فتكذيبها : أن يقول : ليست من

....

عند اللَّه . فيكذب بها أصلا ، أو يكذب بما جاء فيها من الخبر مع تصديقه بالأصل ، فيقول مثلا : قصة أصحاب الكهف ليست صحيحة ، وقصة أصحاب الفيل ليست صحيحة ، واللَّه لم يرسل عليهم طيرًا أبابيل .

وأما التحريف ؛ فهو تغيير لفظها ، أو صرف معناها عما أراد اللَّه بها ورسوله ؛ مثل أن يقول : استوى على العرش ؛ أى : استولى . أو : ينزل إلى السماء الدنيا ؛ أى : ينزل أمره .

وأما مخالفتها ؛ فبترك الأوامر أو فعل النواهي .

قال اللَّه تعالى فى المسجد الحرام : ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج : ٢٥] ؛ فكل المعاصى إلحاد فى الآيات الشرعية ؛ لأنه خروج بها عما يجب لها ؛ إذ الواجب علينا أن نمتثل الأوامر وأن نجتنب النواهى ، فإن لم نقم بذلك ؛ فهذا إلحاد .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

« ولا يلحدون فى أسماء اللَّه وآياته » . الإلحاد لغةً : الميل والعدول عن الشيء ، ومنه اللحد فى القبر ، سمى بذلك لميله وانحرافه عن سَمتِ الحفر إلى جهة القبلة .

والإلحاد فى أسماء اللَّه وآياته : هو العدول والميل بها عن حقائقها ومعانيها الصحيحة إلى الباطل ، والإلحاد فى أسماء اللَّه وصفاته أنواع :

النوع الأول : أن تسمى الأصنام بها ، كتسمية اللات من الإله ، والعزى من العزيز ، ومناة من المنان .

النوع الثانى : تسميته سبحانه وتعالى بما لا يليق به ، كتسمية النصارى له أبًا ، وتسمية الفلاسفة له موجِبًا ، أو علةً فاعلةً .

النوع الثالث : وصفه سبحانه وتعالى بما ينزه عنه من النقائص ، كقول اليهود الذين قالوا : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ . وقولهم : ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ، وأنه استراح يوم السبت ، تعالى اللَّه عما يقولون .

النوع الرابع : جحد معانيها وحقائقها ؛ كقول الجهمية : إنها ألفاظ مجردة ، لا تتضمن صفاتٍ ، ولا معانى ؛ فالسميع لا يدل على سمعٍ ، والبصير لا يدل على بصرٍ ، والحى لا يدل على حياةٍ . ونحو ذلك .

ولا يُكَيِّفُونَ(١) ، ....

النوع الخامس :

تشبيه صفاته بصفات خلقه ، كقول الممثل : يده كيدى . إلى غير ذلك ، تعالى الله .

وقد توعد الله الملحدين فى أسمائه وآياته بأشد الوعيد ، فقال سبحانه : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ، وقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ﴾ [فصلت : ٤٠] .

❁ قال الشيخ هراس :

وأما قوله : « ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته » . فقد قال العلّامة ابن القيم رحمه الله : والإلحاد فى أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها ، مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادة (ل ح د) ، فمنه اللحد وهو الشق فى جانب القبر الذى قد مال عن الوسط ، ومنه الملحد فى الدين : (المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه) . أهـ .

فالإلحاد فيها إما أن يكون بجحدها وإنكارها بالكلية ، وإما بجحد معانيها وتعطيلها ، وإما بتحريفها عن الصواب وإخراجها عن الحق بالتأويلات الفاسدة ، وإما بجعلها أسماء لبعض المبتدعات كإلحاد أهل الاتحاد .

قال نعيم بن حماد شيخ البخارى : « من شبه اللَّهَ بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف اللَّهُ به نفسه كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيه ولا تمثيل » .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

أى : أهل السنة والجماعة ، وسبق أن التكييف ذكر كيفية الصفة ، سواء ذكرتها بلسانك أو بقلبك ؛ فأهل السنة والجماعة لا يكيفون أبدًا ؛ يعنى : لا يقولون : كيفية يده كذا وكذا ، ولا كيفية وجهه كذا وكذا . فلا يكيفون هذا باللسان ولا بالقلب أيضًا ؛ يعنى : نفس الإنسان لا يتصور كيف استوى الله عز وجل ، أو كيف ينزل ، أو كيف وجهه ، أو كيف يده ، ولا يجوز أن يُحاول ذلك أيضًا ؛ لأن هذا يؤدى إلى أحد أمرين : إما التمثيل ، وإما التعطيل .

ولهذا لا يجوز للإنسان أن يحاول معرفة كيفية استواء الله على العرش ، أو يقوله بلسانه ، بل ولا يسأل عن الكيفية ؛ لأن الإمام مالكًا رحمه الله قال : « السؤال عنه بدعة » . لا تقل : كيف استوى ؟ كيف ينزل ؟ كيف يأتى ؟ كيف وجهه ؟ إن فعلت ذلك ؛ قلنا : إنك مبتدعٌ . وقد سبق ذكر الدليل على تحريم التكييف ، وذكرنا الدليل على ذلك من السمع والعقل .

ولا يَمَثِّلُونَ صفاتِه بصفاتِ خلقِه(١) . لأنه سبحانَه(٢) لا سَمِيَّ له(٣) ، ....

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

« ولا يمثلون » ؛ أى : أهل السنة والجماعة : « صفاته بصفات خلقه » ، وهذا معنى قوله فيما سبق : « من غير تمثيل » وسبق لنا امتناع التمثيل سمعًا وعقلا ، وأن السمع ورد خبرًا وطلبًا فى نفى التمثيل ؛ فهم لا يكيفون ولا يمثلون .

❊ **قال الشيخ الفوزان :**

قوله : (ولا يكيفون ولا يمثلون) إلخ ، تقدم بيان معنى التكييف والتمثيل .

❊ **قال الشيخ هراس :**

وخلاصة ما تقدم : أن السلف رضى اللَّه عنهم يؤمنون بكل ما أخبر اللَّه به عن نفسه فى كتابه وبكل ما أخبر به عنه رسوله ﷺ إيمانًا سالمًا من التحريف والتعطيل ، ومن التكييف والتمثيل ، ويجعلون الكلام فى ذات البارى وصفاته بابًا واحدًا ، فإن الكلام فى الصفات فرع الكلام فى الذات يحتذى فيه حذوه ، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات تكييف ، فكذلك إثبات الصفات ، وقد يعبرون عن ذلك بقوله : « تمر كما جاءت بلا تأويل » . ومن لم يفهم كلامهم ظن أن غرضهم بهذه العبارة هو قراءة اللفظ دون التعرض للمعنى وهو باطل ، فإن المراد بالتأويل المنفى هنا : هو حقيقة المعنى وكنهه وكيفيته .

قال الإمام أحمد رحمه اللَّه : « لا يوصف اللَّه إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، لا يتجاوز القرآن والحديث » .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

(سبحان) : اسم مصدر سبح والمصدر تسبيح ؛ ف : (سبحان) بمعنى تسبيح ، لكنها بغير اللفظ ، وكل ما دل على معنى المصدر وليس بلفظه ؛ فهو اسم مصدر ؛ كـ : سبحان من سبح ، وكلام من كلّم ، وسلام من سلم . وإعرابها مفعول مطلق منصوب على المفعولية المطلقة ، وعاملها محذوف دائما .

ومعنى (سبح) ؛ قال العلماء معناها : نزّه ، أصلها من السبح وهو البعد ، كأنك تبعد صفات النقص عن اللَّه عز وجل ؛ فهو سبحانه وتعالى منزه عن كل نقص .

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

دليل ذلك قوله تعالى : ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ

....

سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] : ﴿هَلْ﴾ استفهام ، لكنه بمعنى النفى ويأتى النفى بصيغة الاستفهام لفائدة عظيمة ، وهى التحدى ؛ لأن هناك فرقًا بين أن أقول : لا سمى له . و : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ . لأن ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ متضمن للنفى وللتحدى أيضًا ؛ فهو مُشرَب معنى التحدى ، وهذه قاعدة مهمة : كلما كان الاستفهام بمعنى النفى ؛ فهو مُشرَب معنى التحدى ؛ كأنى أقول : إن كنت صادقًا ؛ فأتنى بسَمِى له . وعلى هذا ؛ فـ : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ : أبلغ من : « سَمِىٌّ له » .

والسمى : هو المسامى ؛ أى : المماثل .

❁ قال الشيخ الفوزان :

و(سبحانه) سبحان مصدر مثل غفران ، من التسبيح ، وهو التنزيه .

[وقوله] : (لأنه سبحانه لا سمى له) هذا تعليل لما سبق من قوله عن أهل السنة : (ولا يكيفون ، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه) .

(لا سمى له) ؛ أى : لا نظير له يستحق مثل اسمه ، كقوله تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] . استفهام معناه النفى ؛ أى : لا أحد يساميه ، أو يماثله .

❁ قال الشيخ هراس :

قوله : (لأنه سبحانه لا سمى له . .. إلخ) : تعليل لقوله فيما تقدم إخبارًا عن أهل السنة والجماعة [بأنهم] لا يكيفون ولا يمثلون .

ومعنى : (لا سمى له) : أى : لا نظير له يستحق مثل اسمه ، أو : لا مسامى له يساميه . وقد دل على نفيه قوله تعالى فى سورة « مريم » : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] ، فإن الاستفهام هنا إنكارى معناه النفى .

وليس المراد من نفى السمى أن غيره لا يسمى بمثل أسمائه ، فإنه هناك أسماء مشتركة بينه وبين خلقه ، ولكن المقصود أن هذه الأسماء إذا سمى اللّه بها كان معناها مختصًا به لا يشركه فيه غيره ، فإن الاشتراك إنما هو فى مفهوم الاسم الكلى ، وهذا لا وجود له إلا فى الذهن ، وأما فى الخارج فلا يكون المعنى إلا جزئيًا مختصًا ، وذلك بحسب ما يضاف إليه ، فإن أضيف إلى الرب كان مختصًا به لا يشاركه فيه العبد ، وإن أضيف إلى العبد كان مختصًا به لا يشاركه فيه الرب .

ولا كُفْءَ له[١]، ولا نِدَّ له[٢].

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الدليل قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

✽ **قال الشيخ الفوزان:**

(ولا كفء له) الكفء هو المكافئ المماثل؛ أي: لا مثل له، كقوله تعالى في سورة «الإخلاص»: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

✽ **قال الشيخ هراس:**

وأما الكفء فهو المكافئ المساوى، وقد دل على نفيه قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الدليل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]؛ أى: تعلمون أنه لا ند له والنِّد بمعنى النظير.

وهذه الثلاثة - السَّمى والكُفء والنِّد - معناها متقارب جدًّا؛ لأن معنى الكفء: الذى يكافئه، ولا يكافئ الشيءُ الشيءَ إلا إذا كان مثله، فإن لم يكن مثله؛ لم يكن مكافئًا له، إذن: لا كفء له؛ أى: ليس له مثيل سبحانه وتعالى.

وهذا النفى المقصود منه كمال صفاته؛ لأنه لكمال صفاته لا أحد يماثله.

✽ **قال الشيخ الفوزان:**

(ولا ند له): الند هو الشبيه والنظير، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢].

✽ **قال الشيخ هراس:**

وأما النِّد: فمعناه المساوى المناوئ، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

ولا يُقاسُ بخلقِه سبحانَه وتعالى[1] ؛ ....

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

القياس ينقسم إلى ثلاثة أقسام : قياس شمول ، وقياس تمثيل ، وقياس أولوية ؛ فهو سبحانه وتعالى لا يقاس بخلقه قياس تمثيل ولا قياس شمول :

١ - قياس الشمول : هو ما يعرف بالعام الشامل لجميع أفراده ؛ بحيث يكون كل فرد منه داخلًا في مسمى ذلك اللفظ ومعناه ؛ فمثلًا : إذا قلنا : الحياة ؛ فإنه لا تقاس حياة اللَّه تعالى بحياة الخلق من أجل أن الكل يشمله اسم (حى) .

٢ - وقياس التمثيل : هو أن يلحق الشيء بمثيله فيجعل ما ثبت للخالق مثل ما ثبت للمخلوق .

٣ - وقياس الأولوية : هو أن يكون الفرع أولى بالحكم من الأصل ، ولهذا يقول العلماء : إنه مستعمل في حق اللَّه ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل : ٦٠] ؛ بمعنى كل صفة كمال ؛ فللَّه تعالى أعلاها ، والسمع والعلم والقدرة والحياة والحكمة وما أشبهها موجودة في المخلوقات ، لكن للَّه أعلاها وأكملها .

ولهذا أحيانًا نستدل بالدلالة العقلية من زاوية القياس بالأولى ؛ فمثلا : نقول : العلو صفة كمال في المخلوق ، فإذا كان صفة كمال في المخلوق ؛ فهو في الخالق من باب أولى وهذا دائمًا نجده في كلام العلماء .

فقول المؤلف رحمه اللَّه : « ولا يقاس بخلقه » . بعد قوله : « لا سمى له ولا كفء له ، ولا ند له » . يعني : القياس المقتضى للمساواة وهو قياس الشمول وقياس التمثيل .

إذن ؛ يمتنع القياس بين اللَّه وبين الخلق للتباين بينهما ، وإذا كنا في الأحكام لا نقيس الواجب على الجائز ، أو الجائز على الواجب ؛ ففي باب الصفات بين الخالق والمخلوق من باب أولى .

لو قال لك قائل : اللَّه موجود ، والإنسان موجود ، ووجود اللَّه كوجود الإنسان بالقياس .

فنقول : لا يصح ؛ لأن وجود الخالق واجب ، ووجود الإنسان ممكن .

فلو قال : أقيس سمع الخالق على سمع المخلوق .

نقول : لا يمكن ؛ سمع الخالق واجب له لا يعتريه نقص ، وهو شامل لكل شيء ، وسمع الإنسان ممكن ؛ إذ يجوز أن يولد الإنسان أصم ، والمولود سميعًا يلحقه نقص السمع ، وسمعه محدود .

فإنه أعْلَمُ بنفسِه وبغيرِه ، وأصْدَقُ قِيلًا ، وأحسنُ حديثًا مِن خلْقِه(١).

إذن ؛ لا يمكن أن يقاس اللّه بخلقه ؛ فكل صفات اللّه لا يمكن أن تقاس بصفات خلقه ؛ لظهور التباين العظيم بين الخالق وبين المخلوق .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(ولا يقاس بخلقه) : القياس في اللغة : التمثيل ؛ أي : لا يشبه ، ولا يمثل بهم ، قال سبحانه : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل : ٧٤] .

فلا يقاس سبحانه بخلقه ، لا في ذاته ، ولا في أسمائه وصفاته ، ولا في أفعاله ، وكيف يقاس الخالق الكامل بالمخلوق الناقص ؟ ! تعالى اللّه عن ذلك .

❁ قال الشيخ هراس :

وأما قوله : (ولا يقاس بخلقه) ، فالمقصود به أنه لا يجوز استعمال شيء من الأقيسة التي تقتضي المماثلة والمساواة بين المقيس والمقيس عليه في الشئون الإلهية .

وذلك مثل قياس التمثيل الذي يعرِّفه علماء الأصول : بأنه إلحاق فرع بأصل في حكم الجامع ، كإلحاق النبيذ بالخمر في الحرمة لاشتراكهما في علة الحكم وهي الإسكار .

فقياس التمثيل مبني على وجود مماثلة بين الفرع والأصل ، واللّه عزَّ وجلَّ لا يجوز أن يمثل بشيء من خلقه .

ومثل قياس الشمول المعروف عند المناطقة بأنه الاستدلال بكلي على جزئي بواسطة اندراج ذلك الجزئي مع غيره تحت هذا الكلي . فهذا القياس مبني على استواء الأفراد المندرجة تحت هذا الكلي ، ولذلك يحكم على كل منها بما حكم به عليه .

ومعلوم أنه لا مساواة بين اللّه عزَّ وجلَّ وبين شيء من خلقه ، وإنما يستعمل في حقه تعالى قياس الأَولَى ومضمونه أن كل كمال ثبت للمخلوق وأمكن أن يتصف به الخالق ، فالخالق أَولَى به من المخلوق ، وكل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق أحق بالتنزه عنه .

وكذلك قاعدة الكمال التي تقول : إنه إذا قدر اثنان أحدهما موصوف بصفة كمال ، والآخر يمتنع عليه أن يتصف بتلك الصفة كان الأول أكمل من الثاني ، فيجب إثبات مثل تلك الصفة للّه ما دام وجودها كمالًا وعدمها نقصًا .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

قال المؤلف هذا تمهيدًا وتوطئة لوجوب قَبول ما دل عليه كلام اللّه تعالى من صفاته وغيرها ،

....

وذلك أنه يجب قبول ما دل عليه الخبر إذا اجتمعت فيه أوصاف أربعة :

الأول : أن يكون صادرًا عن علم ، وإليه الإشارة بقوله : « فإنه أعلم بنفسه وبغيره » .

الثاني : الصدق ، وأشار إليه بقوله : « وأصدق قيلًا » .

الوصف الثالث : البيان والفصاحة ، وأشار إليه بقوله : « وأحسن حديثًا » .

الوصف الرابع : سلامة القصد والإرادة ؛ بأن يريد المخبر هداية من أخبرهم .

فدليل الأول - وهو العلم - : قوله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء : ٥٥] ؛ فهو أعلم بنفسه وبغيره من غيره ؛ فهو أعلم بك من نفسك ؛ لأنه يعلم ما سيكون لك فى المستقبل ، وأنت لا تعلم ماذا تكسب غدًا ؟

وكلمة ﴿أَعْلَمُ﴾ هنا اسم تفضيل ، ولقد تحاشاها بعض العلماء وفسر ﴿أَعْلَمُ﴾ بـ : (عالم) ، فقال : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل : ١٢٥] ؛ أى هو عالم بمن ضل عن سبيله وهو عالم بالمهتدين . قال : لأن ﴿أَعْلَمُ﴾ اسم تفضيل وهو يقتضى اشتراك المفضل والمفضل عليه ، وهذا لا يجوز بالنسبة للّٰه ، لكن (عالم) اسم فاعل وليس فيه مقارنة ولا تفضيل .

فنقول له : هذا غلط ؛ فاللّٰه يعبِّر عن نفسه ويقول : ﴿أَعْلَمُ﴾ . وأنت تقول : عالم ! وإذا فسرنا ﴿أَعْلَمُ﴾ بـ : (عالم) ؛ فقد حططنا من قدر علم اللّٰه ؛ لأن (عالم) يشترك فيها غير اللّٰه على سبيل المساواة ، لكن : ﴿أَعْلَمُ﴾ مقتضاه ألَّا يساويه أحد فى هذا العلم ؛ فهو أعلم من كل عالم ، وهذا أكمل فى الصفة بلا شك .

ونقول له : إن اللغة العربية بالنسبة لاسم الفاعل لا تمنع المساواة فى الوصف ، لكن بالنسبة لاسم التفضيل تمنع المشاركة فيما دلَّ عليه .

ونقول أيضًا : فى باب المقارنة لا بأس أن نقول : أعلم ؛ بمعنى : أن تأتى باسم التفضيل ، ولو فرض خلو المفضل عليه من ذلك المعنى ؛ كما قال اللّٰه تعالى : ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان : ٢٤] ؛ فجاء باسم التفضيل ، مع أن المفضل عليه ليس فيه شىء منه إطلاقًا .

وفى باب مجادلة الخصم ومحاجَّته يجوز أن نأتى باسم التفضيل ، وإن كان المفضل عليه ليس فيه شىء منه ؛ قال اللّٰه تعالى : ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل : ٥٩] . ومعلوم أن ما

....

يشركون ليس فيه خير، وقال يوسف: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، والأرباب ليس فيها خير.

فالحاصل أن نقول: إن ﴿أَعْلَمُ﴾ الواردة فى كتاب الله يراد بها معناها الحقيقى، ومن فسرها بـ: (عالم)؛ فقد أخطأ من حيث المعنى ومن حيث اللغة العربية.

ودليل الوصف الثانى - الصدق: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ أى: لا أحد أصدق منه، والصدق مطابقة الكلام للواقع، ولا شىء من الكلام يطابق الواقع كما يطابقه كلام الله سبحانه وتعالى؛ فكل ما أخبر الله به؛ فهو صدق، بل أصدق من كل قول.

ودليل الوصف الثالث - البيان والفصاحة: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ وحسن حديثه يتضمن الحسن اللفظى والمعنوى.

ودليل الوصف الرابع - سلامة القصد والإرادة: قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦].

فاجتمع فى كلام الله الأوصاف الأربعة التى توجب قبول الخبر.

وإذا كان كذلك؛ فإنه يجب أن نقبل كلامه على ما هو عليه، وألّا يلحقنا شك فى مدلوله؛ لأن الله لم يتكلم بهذا الكلام لأجل إضلال الخلق، بل ليبين لهم ويهديهم، وصدر كلام الله عن نفسه أو عن غيره من أعلم القائلين، ولا يمكن أن يعتريه خلاف الصدق، ولا يمكن أن يكون كلامًا عييًّا غير فصيحٍ، وكلام الله لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله؛ لما استطاعوا؛ فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة فى الكلام؛ وجب على المخاطب القبول بما دل عليه.

مثال ذلك: قوله تعالى مخاطبًا إبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]؛ قال قائل: فى هذه الآية إثبات يدين لله عز وجل يخلق بهما من شاء فنثبتهما؛ لأن كلام الله عز وجل صادر عن علم وصدق، وكلامه أحسن الكلام وأفصحه وأبينه، ولا يمكن ألّا يكون له يدان لكن أراد من الناس أن يعتقدوا ذلك فيه، ولو فرض هذا؛ لكان مقتضاه أن القرآن ضلال؛ حيث جاء بوصف الله بما ليس فيه، وهذا ممتنع؛ فإذا كان كذلك؛ وجب عليك أن تؤمن بأن لِلَّهِ تعالى يدين اثنتين خلق بهما آدم.

....

وإذا قلت : المراد بهما النعمة أو القدرة .

قلنا : لا يمكن أن يكون هذا هوالمراد ؛ إلا إذا اجترأت على ربك ووصفت كلامه بضد الأوصاف الأربعة التى قلنا ؛ فنقول : هل اللّه عز وجل حينما قال : ﴿بِيَدَىَّ﴾ : عالم بأن له يدين؟ فسيقول : هو عالم . فنقول : هل هو صادق ؟ فسيقول : هو صادق بلا شك . ولا يستطيع أن يقول : هو غير عالم ، أو : غير صادق ، ولا أن يقول : عبر بهما وهو يريد غيرهما عيًا وعجزًا ، ولا أن يقول : أراد من خلقه أن يؤمنوا بما ليس فيه من الصفات إضلالًا لهم ! فنقول له : إذن ؛ ما الذى يمنعك أن تثبت للّه اليدين ؟ ! فاستغفر ربك وتب إليه ، وقل : آمنت بما أخبر اللّه به عن نفسه ؛ لأنه أعلم بنفسه وبغيره ، وأصدق قيلًا ، وأحسن حديثًا من غيره وأتم إرادة من غيره أيضًا .

ولهذا أتى المؤلف رحمه اللّه بهذه الأصناف الثلاثة ونحن زدنا الوصف الرابع ، وهو : إرادة البيان للخلق وإرادة الهداية لهم ؛ لقوله تعالى : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء : ٢٦] .

هذا حكم ما أخبر اللّه به عن نفسه بكلامه الذى هو جامع للكمالات الأربع فى الكلام ، أما ما أخبرت به الرسل فقال المؤلف : « ثم رسله صادقون مصدقون . . . » .

❋ قال الشيخ الفوزان :

(فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره) : وهذا تعليل لما سبق من وجوب إثبات ما أثبته لنفسه من الصفات ، ومنع قياسه بخلقه ؛ فإنه إذا كان أعلم بنفسه وبغيره وجب أن يثبت له من الصفات ما أثبته لنفسه ، وأثبته له رسوله ﷺ .

والخلق لا يحيطون به علمًا فهو الموصوف بصفات الكمال التى لا تبلغها عقول المخلوقين ، فيجب علينا أن نرضى بما رضيه لنفسه ، فهو أعلم بما يليق به ، ونحن لا نعلم ذلك .

وهو سبحانه : (أصدق قيلًا وأحسن حديثًا من خلقه) فما أخبر به فهو صدق وحقٌّ يجب علينا أن نصدقه ، ولا نعارضه ، وألفاظه أحسن الألفاظ ، وأفصحها ، وأوضحها ، وقد بين ما يليق به من الأسماء والصفات أتم بيانٍ ، فيجب قبول ذلك والتسليم له .

❋ قال الشيخ هراس :

قوله : (فإنه أعلم بنفسه وبغيره – إلى قوله – : ثم رسله صادقون مصدقون) تعليل لصحة

ثم رُسُلُه صادقون[١] ....

مذهب السلف فى الإيمان بجميع الصفات الواردة فى الكتاب والسنة . فإنه إذا كان اللّٰه عزَّ وجلَّ أعلم بنفسه وبغيره ، وكان أصدق قولًا وأحسن حديثًا ، وكان رسله عليهم الصلاة والسلام صادقين فى كل ما يخبرون به عنه ، معصومين من الكذب عليه والإخبار عنه بما يخالف الواقع . وجب التعويل إذن فى باب الصفات نفيًا وإثباتًا على ما قاله اللّٰه وقاله رسوله الذى هو أعلم خلقه به ، وألَّا يترك ذلك إلى قول من يفترون على اللّٰه الكذب ويقولون عليه ما لا يعلمون .

وبيان ذلك أن الكلام إنما تقصر دلالته على المعانى المرادة منه لأحد ثلاثة أسباب ؛ إما الجهل المتكلم وعدم علمه بما يتكلم به ، وإما لعدم فصاحته وقدرته على البيان ، وإما لكذبه وغشه وتدليسه . ونصوص الكتاب والسنة بريئة من هذه الأمور الثلاثة من كل وجه ، فكلام اللّٰه وكلام رسوله فى غاية الوضوح والبيان ، كما أنه المثل الأعلى فى الصدق والمطابقة للواقع لصدوره عن كمال العلم بالنسب الخارجية وهو كذلك صادر عن تمام النصح والشفقة ، والحرص على هداية الخلق وإرشادهم .

فقد اجتمعت له الأمور الثلاثة التى هى عناصر الدلالة والإفهام على أكمل وجه .

فالرسول ﷺ أعلم الخلق بما يريد إخبارهم به ، وهو أقدرهم على بيان ذلك ، والإفصاح عنه . وهو أحرصهم على هداية الخلق وأشدهم إرادة لذلك ، فلا يمكن أن يقع فى كلامه شىء من النقص والقصور بخلاف كلام غيره فإنه لا يخلو من نقص فى أحد هذه الأمور أو جميعها ، فلا يصح أن يعدل بكلامه كلام غيره فضلًا عن أن يعدل عنه إلى كلام غيره ، فإن هذا هو غاية الضلال ومنتهى الخذلان .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الصادق : المخبر بما طابق الواقع ؛ فكل الرسل صادقون فيما أخبروا به ولكن : لابد أن يثبت السند إلى الرسل عليهم السلام ؛ فإذا قالت اليهود : قال موسى كذا وكذا . فلا نقبل ؛ حتى نعلم صحة سنده إلى موسى . وإذا قالت النصارى : قال عيسى كذا وكذا . فلا نقبل ، حتى نعلم صحة السند إلى عيسى . وإذا قال قائل : قال محمد رسول اللّٰه كذا وكذا . فلا نقبل ، حتى نعلم صحة السند إلى محمد .

فرسله صادقون فيما يقولون ؛ فكل ما يخبرون به عن اللّٰه وعن غيره من مخلوقاته ؛ فهم صادقون فيه ، لا يكذبون أبدًا .

ولهذا أجمع العلماء على أن الرسل عليهم الصلاة والسلام معصومون من الكذب .

مَصْدُوقون(١) ....

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

« مَصْدوقون » أو: « مُصَدَّقون »: نسختان: أما على نسخة « مصدوقون »؛ فالمعنى أن ما أوحى إليهم؛ فهو صدق، والمَصدُوق: الذى أخبر بالصدق والصادق: الذى جاء بالصدق، ومنه قول الرسول عليه الصلاة والسلام لأبى هريرة حين قال له الشيطان: إنك إذا قرأت آية الكرسى؛ لم يزل عليك من اللَّه حافظ، ولا يقربك شيطان. حتى قال له: « صدقك وهو كذوب »[1]؛ يعنى: أخبرك بالصدق. فالرسل مصدوقون، كل ما أوحى إليهم؛ فهو صدق، ما كذبهم الذى أرسلهم ولا كذبهم الذى أرسل إليهم، وهو جبريل عليه الصلاة والسلام، ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩- ٢١].

وأما على نسخة: « مُصَدَّقون »، فالمعنى أنه يجب على أممهم تصديقهم، وعلى هذا يكون معنى « مصدقون »؛ أى: شرعًا؛ يعنى: يجب أن يصدقوا شرعًا؛ فمن كذب بالرسل أو كذبهم؛ فهو كافر، ويجوز أن يكون « مصدقون » له وجه آخر؛ أى أن اللَّه تعالى صدقهم. ومعلوم أن اللَّه تعالى صدَّق الرسل؛ صدَّقهم بقوله وبفعله:

أما بقوله؛ فإن اللَّه قال لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٦]، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ [المنافقون: ١]؛ فهذا تصديق بالقول.

أما تصديقه بالفعل؛ فبالتمكين له، وإظهار الآيات؛ فهو يأتى للناس يدعوهم إلى الإسلام، فإن لم يقبلوا، فالجزية، فإن لم يقبلوا؛ استباح دماءهم ونساءهم وأموالهم، واللَّه تعالى يمكِّن له، ويفتح عليه الأرض أرضًا بعد أرض، وحتى بلغت رسالته مشارق الأرض ومغاربها؛ فهذا تصديق من اللَّه بالفعل، كذلك أيضًا ما يجريه اللَّه على يديه من الآيات هو تصديق له سواء كانت الآيات شرعية أم كونية؛ فالشرعية كان دائمًا يسأل عن الشىء وهو لا يعلمه، فيُنزل اللَّه الجواب: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]؛ إذن هذا تصديق بأنه رسول ولو كان غير رسول؛ ما أجاب اللَّه ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢١٧]. فالجواب: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ﴾ ... إلخ؛ فهذا تصديق من اللَّه عز وجل.

والآيات الكونية ظاهرة جدًّا وما أكثر الآيات الكونية التى أيد اللَّه بها رسوله؛ سواء جاءت

---

(1) أخرجه البخارى (٣٢٧٥).

بخلافِ الذين يَقُولون عليه ما لا يَعْلَمون[1].

لسبب أو لغير سبب ، وهذا معروف في السيرة .

ففهمنا من كلمة : « مصدقون » : أنهم مصدَّقون من قِبَل اللّه بالآيات الكونية والشرعية ، مصدقون من قبل الخلق ؛ أي : يجب أن يصدقوا وإنما حملنا ذلك على التصديق شرعًا ؛ لأن من الناس من صدق ومن الناس من لم يصدق ، لكن الواجب التصديق .

❊ **قال الشيخ الفوزان :**

(ثم رسله صادقون مصدوقون) : هذا عطف على قوله : (فإنه أعلم بنفسه . .. إلخ) . الصدق مطابقة الخبر للواقع ؛ أي : صادقون فيما أخبروا به عن اللّه تعالى : (مصدوقون) ؛ أي : فيما يأتيهم من الوحي بواسطة الملائكة ؛ لأنه من عند اللّه ، فهم لا ينطقون عن الهوى .

وهذا توثيق لسند الرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، فقد قيل لهم الحق ، وبلغوه للخلق ، فيجب قبول ما وصفوا اللّه به .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

فهؤلاء كاذبون أو ضالون ؛ لأنهم قالوا ما لا يعلمون .

وكأن المؤلف يشير إلى أهل التحريف ؛ لأن أهل التحريف قالوا على اللّه ما لا يعلمون من وجهين : قالوا : إنه لم يرد كذا وأراد كذا ! فقالوا في السلب والإيجاب بما لا يعلمون .

مثلًا : قالوا : لم يرد بالوجه الحقيقي !! فهنا قالوا على اللّه ما لا يعلمون بالسلب ، ثم قالوا : والمراد بالوجه الثواب ! فقالوا على اللّه ما لا يعلمون في الإيجاب .

وهؤلاء الذين يقولون على اللّه ما لا يعلمون لا يكونون صادقين ولا مصدوقين ولا مصدَّقين بل قامت الأدلة على أنهم كاذبون مكذوبون بما أوحى إليهم الشيطان .

❊ **قال الشيخ الفوزان :**

فهم (بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون) ؛ أي : بخلاف الذين يقولون على اللّه بلا علمٍ في شرعه ودينه ، وفي أسمائه وصفاته ، بل بمجرد ظنونهم وتخيلاتهم ، أو بما يتلقونه عن الشياطين ، كالمتنبئين الكذبة ، والمبتدعة ، والزنادقة ، والسحرة ، والكهان ، والمنجمين ، وعلماء السوء ، كما قال تعالى : ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ﴾ [الشعراء : ٢٢١ - ٢٢٣] .

ولهذا(١) قال سُبحانَه وتعالَى : ﴿سُبْحَٰنَ(٢) رَبِّكَ(٣) ....

وقال تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة : ٧٩] .

فإذا كان اللّٰه سبحانه وتعالى أعلم بنفسه وبغيره ، وكان أصدق قولًا ، وأحسن حديثًا من خلقه ، وكان رسله عليهم الصلاة والسلام صادقين فى كل ما يخبرون به عنه ، والواسطة بينهم وبين اللّٰه التى تأتيهم بالوحى من عنده واسطة صادقة من ملائكته الكرام ؛ وجب التعويل إذن على ما قاله اللّٰه ورسله لا سيما فى باب الأسماء والصفات نفيًا وإثباتًا ، ورفض ما قاله المبتدعة والضلال ممن يدعى المجاز فى الأسماء والصفات ، وينفيها بشتى وسائل النفى ، معرضين عما جاءت به الرسل ، معتمدين على أهوائهم ، أو مقلدين لمن لا يصلح للقدوة من الضلال .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

أى : لأجل كمال كلامه وكلام رسله .

❁ قال الشيخ الفوزان :

ولهذا : تعليل لما سبق من كون كلام اللّٰه وكلام رسله أصدق وأحسن .

❁ قال الشيخ هراس :

قوله : (ولهذا قال . . . إلخ) : تعليل لما تقدم من كون كلام اللّٰه وكلام رسوله أكمل صدقًا وأتم بيانًا ونصحًا ، وأبعد عن العيوب والآفات من كلام كل أحد .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

سبق معنى التسبيح وهو تنزيه اللّٰه عن كل ما لا يليق به .

❁ قال الشيخ الفوزان :

سبحان : اسم مصدرٍ من التسبيح ، وهو التنزيه .

❁ قال الشيخ هراس :

(وسبحان) : اسم مصدر من التسبيح ، الذى هو التنزيه والإبعاد عن السوء ، وأصله من السبح الذى هو السرعة والانطلاق والإبعاد ، ومنه : فرس سبوح إذا كانت شديدة العدو .

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

أضاف الربوبية إلى محمد ﷺ وهى ربوبية خاصة ، من باب إضافة الخالق إلى المخلوق .

رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ(١) عَمَّا يَصِفُونَ(٢) وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ(٣) وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

ربك : الرب هو المالك السيد المربى لخلقه بنعمه .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

من باب إضافة الموصوف إلى الصفة ، ومن المعروف أن كل مربوب مخلوق وهنا قال : ﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾ ، وعزة اللّٰه غير مخلوقة ؛ لأنها من صفاته ؛ فنقول : هذه من باب إضافة الموصوف إلى الصفة وعلى هذا ؛ فـ : ﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾ هنا معناها : صاحب العزة ؛ كما يقال : رب الدار . أى : صاحب الدار .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

العزة : القوة والغلبة والمنعة . وإضافة الرب إلى العزة من إضافة الموصوف إلى الصفة .

❁ **قال الشيخ هراس :**

إضافة الرب إلى العزة من إضافة الموصوف إلى صفته ، وهو بدل من الرب قبله ، فهو سبحانه ينزه نفسه عما ينسبه إليه المشركون من اتخاذ الصاحبة والولد وعن كل نقصٍ وعيبٍ .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

يعنى : عما يصفه المشركون ؛ كما سيذكره المؤلف .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

يصفون ؛ أى : يصفه به المخالفون للرسل ، مما لا يليق بجلاله .

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

أى : على الرسل .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

وسلام . قيل : هو من السلام بمعنى التحية . وقيل : من السلامة من المكاره .

على المرسلين : الذين أرسلهم اللّٰه إلى خلقه ، وبلغوا رسالات ربهم ، جمع مرسلٍ ، وتقدم تعريفه .

❁ **قال الشيخ هراس :**

ثم يسلم على رسله عليهم الصلاة والسلام بعد ذلك للإشارة إلى أنه كما يجب تنزيه اللّٰه عزَّ وجلَّ وإبعاده عن كل شائبة نقصٍ وعيب ، فيجب اعتقاد سلامة الرسل فى أقوالهم وأفعالهم من

ٱلْعَٰلَمِينَ [(1)] ﴾ [الصافات : ١٨٠- ١٨٢] .

فسبَّح نفسَه عمَّا وَصَفه به المُخالِفون للرُّسُلِ ، وسلَّم على المُرْسَلِين لسلامةِ ما قالوه مِن النقصِ والعيبِ [(2)].

كل عيب ، كذلك فلا يكذبون على اللّٰه ولا يشركون به ، ولا يغشون أممهم ولا يقولون على اللّٰه إلا الحق .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

حمد اللّٰه نفسه عز وجل بعد أن نزهها ؛ لأن فى الحمد كمال الصفات ، وفى التسبيح تنزيه عن العيوب ؛ فجمع فى الآية بين التنزيه عن العيوب بالتسبيح ، وإثبات الكمال بالحمد .

❊ قال الشيخ الفوزان :

العالمين :جمع عالم ، وهم كل من سوى اللّٰه .

المعنى الإجمالى :قد بينه الشيخ رحمه اللّٰه بقوله : فسبح نفسه . . . إلخ .

ما يستفاد من الآيات .

١ -تنزيه اللّٰه سبحانه عما يصفه به الضلال والجهال مما لا يليق بجلاله .

٢ -صدق الرسل ووجوب قبول ما جاءوا به ، وما أخبروا به عن اللّٰه .

٣ -مشروعية السلام على الرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، واحترامهم .

٤ -رد كل ما يخالف ما جاءت به الرسل ، لا سيما ما يتعلق بأسماء اللّٰه وصفاته .

٥ -مشروعية الثناء على اللّٰه ، وشكره على نعمه ، التى من أجلها نعمة التوحيد .

❊ قال الشيخ هراس :

قوله : (والحمد للّٰه رب العالمين) :ثناء منه سبحانه على نفسه بما له من نعوت الكمال وأوصاف الجلال وحميد الفعال ، وقد تقدم الكلام على معنى الحمد فأغنى عن إعادته .

لما بين فيما سبق أن أهل السنة والجماعة يصفون اللّٰه عزَّ وجلَّ بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ، ولم يكن ذلك كذلك إثباتًا ولا كله نفيًا نبه على ذلك بقوله : (وهو سبحانه قد جمع . . . إلخ) .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

معنى هذه الجملة واضح ، وبقى أن يقال : وحمد نفسه لكمال صفاته بالنسبة لنفسه

وهو سبحانَه قد جمَع فيما وصَف ، وسمَّى به نفسَه بينَ النفيِ والإثباتِ(١) ،

وبالنسبة لرسله ؛ فإنه سبحانه محمود على كمال صفاته وعلى إرسال الرسل ؛ لما فى ذلك من رحمة الخلق والإحسان إليهم .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

(وهو سبحانه قد جمع) إلخ هذا بيان للمنهج الذى رسمه اللَّه فى كتابه لإثبات أسمائه وصفاته ، وهو المنهج الذى يجب أن يسير عليه المؤمنون فى هذا الباب المهم .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

بين المؤلف رحمه اللَّه فى هذه الجملة أن اللَّه تعالى جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات ، وذلك لأن تمام الكمال لا يكون إلا بثبوت صفات الكمال وانتفاء ما يضادها من صفات النقص ؛ فأفادنا رحمه اللَّه أن الصفات قسمان :

١ - صفات مثبتة : وتتسمى عندهم : الصفات الثبوتية .

٢- وصفات منفية : ويسمونها : الصفات السلبية ، من السلب وهو النفى ، ولا حرج من أن نسميها سلبية ، وإن كان بعض الناس توقف وقال : لا نسميها سلبية ، بل نقول : منفية .

فنقول : ما دام السلب فى اللغة بمعنى النفى ؛ فالاختلاف فى اللفظ ولا يضر .

فصفات اللَّه عز وجل قسمان : ثبوتية وسلبية ، أو إن شئت ؛ فقل : مثبتة ومنفية ، والمعنى واحد .

فالمثبتة : كل ما أثبته اللَّه لنفسه ، وكلها صفات كمال ، ليس فيها نقص بوجه من الوجوه ، ومن كمالها ألا يمكن أن يكون ما أثبته دالًّا على التمثيل ؛ لأن المماثلة للمخلوق نقص .

وإذا فهمنا هذه القاعدة ؛ عرفنا ضلال أهل التحريف ، الذين زعموا أن الصفات المثبتة تستلزم التمثيل ؛ ثم أخذوا ينفونها فرارًا من التمثيل .

ومثاله : قالوا : لو أثبتنا للَّه وجهًا ؛ لزم أن يكون مماثلًا لأوجه المخلوقين ؛ وحينئذ يجب تأويل معناه إلى معنى آخر لا إلى الوجه الحقيقى .

فنقول لهم : كل ما أثبت اللَّه لنفسه من الصفات ؛ فهو صفة كمال ولا يمكن أبدًا أن يكون فيما أثبته اللَّه لنفسه من الصفات نقص .

ولكن ؛ إذا قال : هل الصفات توقيفية كالأسماء ، أو هى اجتهادية ؛ بمعنى أنه يصح لنا أن نصف اللَّه سبحانه وتعالى بشىء لم يصف به نفسه ؟

فالجواب أن نقول : إن الصفات توقيفية على المشهور عند أهل العلم ؛ كالأسماء ؛ فلا

....

تصف الله إلا بما وصف به نفسه .

وحينئذ نقول : الصفات تنقسم إلى ثلاثة أقسام : صفة كمال مطلق ، وصفة كمال بقيد ، وصفة نقص مطلق .

أما صفة الكمال على الإطلاق ؛ فهى ثابتة لله عز وجل ؛ كالمتكلم ، والفعال لما يريد ، والقادر .. ونحو ذلك .

وأما صفة الكمال بقيد ؛ فهذه لا يوصف الله بها على الإطلاق ، إلا مقيدًا ؛ مثل : المكر ، والخداع ، والاستهزاء .. وما أشبه ذلك ؛ فهذه الصفات كمال بقيد ، إذا كانت فى مقابلة من يفعلون ذلك ؛ فهى كمال ، وإن ذكرت مطلقة ؛ فلا تصح بالنسبة لله عز وجل ، ولهذا لا يصح إطلاق وصفه بالماكر أو المستهزئ أو الخادع ، بل تقيد فنقول : ماكر بالماكرين ، مستهزئ بالمنافقين ، خادع للمنافقين ، كائد للكافرين ؛ فتقيدها لأنها لم تأت إلا مقيدة .

وأما صفة النقص على الإطلاق ؛ فهذه لا يوصف الله بها بأى حال من الأحوال ؛ كالعاجز والخائن والأعمى والأصم ؛ لأنها نقص على الإطلاق ؛ فلا يوصف الله بها وانظر إلى الفرق بين خادع وخائن ؛ قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء : ١٤٢] ؛ فأثبت خداعه لمن خادعه لكن قال فى الخيانة : ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال : ٧١] ولم يقل : فخانهم ؛ لأن الخيانة خداع فى مقام الائتمان ، والخداع فى مقام الائتمان نقص ، وليس فيه مدح أبدًا .

فإذن ؛ صفات النقص منفية عن الله مطلقًا .

والصفات المأخوذة من الأسماء هى كمال بكل حال ويكون الله عز وجل قد اتصف بمدلولها ؛ فالسمع صفة كمال دل عليها اسمه السميع ؛ فكل صفة دلت عليها الأسماء ؛ فهى صفة كمال مثبتة لله على سبيل الإطلاق ، وهذه نجعلها قسمًا منفصلًا ؛ لأنه ليس فيها تفصيل ، وغيرها تنقسم إلى الأقسام الثلاثة التى سلف ذكرها ، ولهذا لم يسم الله نفسه بالمتكلم مع أنه يتكلم ؛ لأن الكلام قد يكون خيرًا ، وقد يكون شرًا ، وقد لا يكون خيرًا ولا شرًّا ؛ فالشر لا ينسب إلى الله ، واللغو كذلك لا ينسب إلى الله ؛ لأنه سفه ، والخير ينسب إليه ، ولهذا لم يسم نفسه بالمتكلم ؛ لأن الأسماء كما وصفها الله عز وجل : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ؛ ليس فيها أى شىء من النقص ولهذا جاءت باسم التفضيل المطلق .

....

إذا قال قائل : فهمنا الصفات وأقسامها ؛ فما الطريق لإثبات الصفة ما دمنا نقول : إن الصفات توقيفية ؟

فنقول : هناك عدة طرق لإثبات الصفة :

الطريق الأول : دلالة الأسماء عليها ؛ لأن كل اسم ؛ فهو متضمن لصفة ، ولهذا قلنا فيما سبق : إن كل اسم من أسماء الله دال على ذاته وعلى الصفة التي اشتق منها .

الطريق الثاني : أن ينص على الصفة ؛ مثل الوجه ، واليدين ، والعينين .. وما أشبه ذلك ؛ فهذه بنص من الله عز وجل ، ومثل الانتقام ، فقال عنه تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم : ٤٧] ، ليس من أسماء الله المنتقم ؛ خلافًا لما يوجد في بعض الكتب التي فيها عد أسماء الله ؛ لأن الانتقام ما جاء إلا على سبيل الوصف أو اسم الفاعل مقيدًا ؛ كقوله : ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة : ٢٢] .

الطريق الثالث : أن تؤخذ من الفعل ؛ مثل : المتكلم ؛ فنأخذها من ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء : ١٦٤] .

هذه هي الطرق التي تثبت بها الصفة وبناء على ذلك نقول : الصفات أعم من الأسماء ؛ لأن كل اسم متضمن لصفة ، وليس كل صفة متضمنة لاسم .

وأما الصفات المنفية عن الله عز وجل ؛ فكثيرة ولكن الإثبات أكثر ؛ لأن صفات الإثبات كلها صفات كمال ، وكلما تعددت وتنوعت ؛ ظهر من كمال الموصوف ما هو أكثر ، وصفات النفي قليلة ، ولهذا نجد أن صفات النفي تأتي كثيرًا عامة ، غير مخصصة بصفة معينة ، والمخصص بصفة لا يكون إلا لسبب ؛ مثل تكذيب المدعين بأن الله اتصف بهذه الصفة التي نفاها عن نفسه أو دفع توهم هذه الصفة التي نفاها .

فالقسم الأول العامة ؛ كقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ؛ قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ في علمه وقدرته وسمعه وبصره وعزته وحكمته ورحمته .. وغير ذلك من صفاته ؛ فلم يفصل ، بل قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ، وهذا النفي العام المجمل يدل على كمال مطلق ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ في كل كمالٍ .

أما إذا كان مفصلًا ؛ فلا تجده إلا لسبب ؛ كقوله : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون : ٩١] ؛ ردًا لقول من قال : إن لله ولدًا وقوله : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص : ٣] كذلك

....

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق : ٣٨] ؛ لأنه قد يفرض الذهن الذى لا يقدر اللّه حق قدره أن هذه السماوات العظيمة والأرض العظيمة إذا كان خلقها فى ستة أيام ؛ فسيلحقه التعب ؛ فقال : ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ ؛ أى : من تعب وإعياء .

فتبين بهذا أن النفى لا يرد فى صفات اللّه عز وجل إلا على سبيل العموم أو على سبيل الخصوص لسبب ؛ لأن صفات السلب لا تتضمن الكمال إلا إذا كانت متضمنة لإثبات ، ولهذا نقول : الصفات السلبية التى نفاها اللّه عن نفسه متضمنة لثبوت كمال ضدها ؛ فقوله : ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ . متضمن كمال القوة والقدرة وقوله : ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف : ٤٩] . متمضن لكمال العدل وقوله : ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة : ٨٥] . متضمن لكمال العلم والإحاطة .. وهلم جرا ؛ فلابد أن تكون الصفة المنفية متضمنة لثبوت ، وذلك الثبوت هو كمال ضد ذلك المنفى وإلا ؛ لم تكن مدحًا .

لا يوجد فى الصفات المنفية عن اللّه نفى مجرد ؛ لأن النفى المجرد عدم والعدم ليس بشىء ؛ فلا يتضمن مدحًا ولا ثناء ؛ ولأنه قد يكون للعجز عن تلك الصفة فيكون ذمًّا ، وقد يكون لعدم القابلية ؛ فلا يكون مدحًا ولا ذمًّا .

مثال الأول الذى للعجزقول الشاعر :

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

ومثال الثانى الذى لعدم القابلية :أن تقول : إن جدارنا لا يظلم أحدًا .

والواجب علينا نحو هذه الصفات التى أثبتها اللّه لنفسه والتى نفاها أن نقول : سمعنا وصدقنا وآمنا .

هذه هى الصفات فيها مثبت وفيها منفى ، أما الأسماء فكلها مثبتة .

لكن أسماء اللّه تعالى المثبتة منها ما يدل على معنى إيجابى ، ومنها ما يدل على معنى سلبى ، وهذا هو مورد التقسيم فى النفى والإثبات بالنسبة لأسماء اللّه .

فمثال التى مدلولها إيجابى كثير .

ومثال التى مدلولها سلبى :السلام . ومعنى السلام ؛ قال العلماء : معناه : السالم من كل عيب . إذن ؛ فمدلوله سلبى ؛ بمعنى : ليس فيه نقص ولا عيب ، وكذلك القدوس قريب من معنى

....

السلام ؛ لأن معناه المنزه عن كل نقص وعيب .

فصارت عبارة المؤلف سليمة وصحيحة وهو لا يريد بالنسبة للأسماء أن هناك أسماء منفية ؛ لأن الاسم المنفى ليس باسم لله ، لكن مراده أن مدلولات أسماء الله ثبوتية وسلبية .

✽ قال الشيخ الفوزان :

فإنه سبحانه : (قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه) ؛ أى : فى جميع أسمائه وصفاته .

(بين النفى والإثبات) ، وهو نفى ما يضاد الكمال من أنواع العيوب والنقائص ، كنفى الند والشريك ، والسنة ، والنوم ، والموت ، واللُّغوب .

وأما الإثبات فهو إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال لله ، كقوله تعالى : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر : ٢٣، ٢٤] ، وغير ذلك مما سيذكر له المؤلف نماذج فيما يأتى .

✽ قال الشيخ هراس :

واعلم أن كلًّا من النفى والإثبات فى الأسماء والصفات مجمل ومفصل :

أما الإجمال فى النفى : فهو أن ينفى عن الله عزَّ وجلَّ كل ما يضاد كماله من أنواع العيوب والنقائص مثل قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ ، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ .

وأما التفصيل فى النفى فهو أن ينزه الله عن كل واحد من هذه العيوب والنقائص بخصوصه ، فينزه عن الوالد والولد والشريك والصاحبة والنِّد والضد والجهل والعجز والضلال والنسيان والسِّنَة والنوم والعبث والباطل ... إلخ .

لكن ليس فى الكتاب ولا فى السُّنَّة نفى محض ، فإن النفى الصرف لا مدح فيه ، وإنما يراد بكل نفى فيهما إثبات ما يضاده من الكمال ، فنفى الشريك والنِّد لإثبات كمال عظمته وتفرده بصفات الكمال ، ونفى العجز لإثبات كمال قدرته ، ونفى الجهل لإثبات سعة علمه وإحاطته ، ونفى الظلم لإثبات كمال عدله ، ونفى العبث لإثبات كمال حكمته ، وفى السِّنَة والنوم والموت لإثبات كمال حياته وقيُّوميته وهكذا ، ولهذا كان النفى فى الكتاب والسنة إنما يأتى مجملًا فى

فلا عُدولَ لأهلِ السنةِ والجماعةِ(١) عمَّا جاء به المُرْسَلون(٢) ؛ ....

أكثر أحواله بخلاف الإثبات ، فإن التفصيل فيه أكثر من الإجمال لأنه مقصود لذاته .

وأما الإجمال فى الإثبات ، فمثل إثبات الكمال المطلق ، والحمد المطلق والمجد المطلق ونحو ذلك ، كما يشير إليه مثل قوله تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ .

وأما التفصيل فى الإثبات فهو متناول لكل اسم أو صفة وردت فى الكتاب والسنة ، وهو من الكثير بحيث لا يمكن لأحد أن يحصيه فإن منها ما اختص اللَّه عزَّ وجلَّ بعلمه كما قال عليه الصلاة والسلام : « سبحانك لا نحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » . وفى حديث دعاء الكرب : « أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدًا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك » .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

العدول : معناه الانصراف والانحراف ؛ فأهل السنة والجماعة لا يمكن أن يعدلوا عما جاءت به الرسل .

وإنما جاء المؤلف بهذا النفى ؛ ليبين أنهم لكمال اتباعهم رضى اللَّه عنهم لا يمكن أن يعدلوا عما جاءت به الرسل ؛ فهم مستمسكون تمامًا ، وغير منحرفين إطلاقًا ، عما جاءت به الرسل ، بل طريقتهم أنهم يقولون : سمعنا وأطعنا فى الأحكام وسمعنا وصدقنا فى الأخبار .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون) ؛ أى : لا ميل لهم ، ولا انحراف عن ذلك ، بل هم مقتفون آثارهم ، مستضيئون بأنوارهم .

ومن ذلك إثبات صفات الكمال للَّه ، وتنزيهه عما لا يليق به ؛ فإن الرسل قد قرَّروا ذلك الأصل العظيم ، وأما أعداء الرسل فإنهم قد عدلوا عن ذلك .

✽ قال الشيخ هراس :

قوله : (فلا عدول . . . إلخ) : هذا مترتب على ما تقدم من بيان أن ما جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام هو الحق الذى يجب اتباعه ولا يصح العدول عنه ، وقد علل ذلك بأنه الصراط المستقيم ، يعنى الطريق السوى القاصد الذى لا عوج فيه ولا انحراف .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام واضح أننا لا نعدل عنه ؛ لأنه خاتم النبيين ، وواجب

....

فعلى جميع العباد أن يتبعوه ، لكن ما جاء عن غيره ؛ هل لأهل السنة والجماعة عدول عنه ؟ لا عدول لهم عنه ؛ لأن ما جاء عن الرسل عليهم الصلاة والسلام فى باب الأخبار لا يختلف ؛ لأنهم صادقون ولا يمكن أن يُنسخ ؛ لأنه خبر ؛ فكل ما أخبرت به الرسل عن اللّه عز وجل ؛ فهو مقبول وصدق ويجب الإيمان به .

مثلًا : قال موسى لفرعون لما قال له : ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه : ٥١، ٥٢] ؛ فنفى عن اللّه الجهل والنِّسيان ؛ فنحن يجب علينا أن نصدق بذلك ؛ لأنه جاء به رسول من اللّه ، ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه : ٤٩، ٥٠] ؛ فلو سألنا سائل : من أين علمنا أن اللّه أعطى كل شىء خلقه ؟ فنقول : من كلام موسى ، فنؤمن بذلك ، ونقول : أعطى كل شىء خلقه اللائق به ؛ فالإنسان على هذا الوجه ، والبعير على هذا الوجه ، والبقرة على هذا الوجه ، والضأن على هذا الوجه ، ثم هدى كل مخلوق إلى مصالحه ومنافعه ؛ فكل شىء يعرف مصالحه ومنافعه ؛ فالنملة فى أيام الصيف تُدَّخر قُوتَها فى جحورها ، ولكن لا تدخر الحب كما هو ، بل تقطم رءوسه ؛ لئلا ينبت ؛ لأنه لو نبت ؛ لفسد عليها ، وإذا جاء المطر وابتل هذا الحب الذى وضعته فى الجحور ؛ فإنها لا تبقيه يأكله العفن والرائحة ، بل تنشره خارج جحرها حتى ييبس من الشمس والريح ، ثم تدخله !

لكن يجب التنبيه إلى أن ما نُسب للأنبياء السابقين يُحتاج فيه إلى صحة النقل ؛ لاحتمال أن يكون كذبًا ؛ كالذى نسب إلى رسول اللّه ﷺ وأولى ، وقوله رحمه اللّه : « عما جاء به المرسلون » . هل يشمل هذا الأحكام أو أن الكلام الآن فى باب الصفات ؛ فيختص بالأخبار ؟

إن نظرنا إلى عموم اللفظ ؛ قلنا : يشمل الأخبار والأحكام .

وإن نظرنا إلى السياق ؛ قلنا : القرينة تقتضى أن الكلام فى باب العقائد وهى من باب الأخبار .

ولكن نقول : إن كان كلام شيخ الإسلام رحمه اللّه خاصًا بالعقائد ؛ فهو خاص ، وليس لنا فيه كلام . وإن كان عامًا ؛ فهو يشمل الأحكام .

والأحكام التى للرسل السابقين اختلف فيها العلماء : هل هى أحكام لنا إذا لم يرد شرعنا بخلافها ، أو ليست أحكامًا لنا ؟

فإنه[١] الصراطُ المستقيمُ[٢] ؛ ....

والصحيح أنها أحكام لنا ، وأن ما ثبت عن الأنبياء السابقين من الأحكام ؛ فهو لنا ، إلا إذا ورد شرعنا بخلافه ، فإذا ورد شرعنا بخلافه ؛ فهو على خلافه ؛ فمثلًا : السجود عند التحية جائز فى شريعة يوسف ويعقوب وبنيه ، لكن فى شريعتنا محرم ، كذلك الإبل حرام على اليهود : ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [الأنعام : ١٤٦] ولكن هى فى شريعتنا حلال .

فإذن ؛ يمكن أن نحمل كلام شيخ الإسلام رحمه الله على أنه عام فى الأخبار والأحكام ، وأن نقول : ما كان فى شرع الأنبياء من الأحكام ؛ فهو لنا ؛ إلا بدليل .

ولكن يبقى النظر : كيف نعرف أن هذا من شريعة الأنبياء السابقين ؟

نقول : لنا فى ذلك طريقان : الطريق الأول : الكتاب ، والطريق الثانى : السنة . فما حكاه الله فى كتابه عن الأمم السابقين ؛ فهو ثابت وما حكاه النبى ﷺ فيما صح عنه ؛ فهو أيضًا ثابت .

والباقى لا نصدق ولا نكذب ؛ إلا إذا ورد شرعنا بتصديق ما نقل أهل الكتاب ؛ فإننا نصدقه ، لا لنقلهم ، ولكن لما جاء فى شريعتنا ، وإذا ورد شرعنا بتكذيب أهل الكتاب ؛ فإننا نكذبه ؛ لأن شرعنا كذبه ، فالنصارى يزعمون بأن المسيح ابن الله ؛ فنقول : هذا كذب ، واليهود يقولون : عزير ابن الله ؛ فنقول : هذا كذب .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

(فإنه) : الضمير يعود على ما جاءت به الرسل ويمكن أن يعود على طريق أهل السنة والجماعة وهو الاتباع وعدم العدول عنه ؛ فما جاءت به الرسل وما ذهب إليه أهل السنة والجماعة : هو الصراط المستقيم .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

(صراط) : على وزن فعال ؛ بمعنى : مصروط ؛ مثل : فراش ؛ بمعنى : مفروش ، وغراس ؛ بمعنى : مغروس ؛ فهو بمعنى اسم المفعول : والصراط إنما يقال للطريق الواسع المستقيم مأخوذ من الزرط وهو بلع اللقمة بسرعة ؛ لأن الطريق إذا كان واسعًا ؛ لا يكون فيه ضيق يتعثر الناس فيه ؛ فالصراط يقولون فى تعريفه : كل طريق واسع ليس فيه صعود ولا نزول ولا اعوجاج .

إذن ؛ الطريق الذى جاءت به الرسل هو الصراط المستقيم ، الذى ليس فيه عوج ولا أَمْتٌ ،

صراطُ الذين أنعَم اللّهُ عليهم(١) ....

طريق مستقيم ليس فيه انحراف يمينًا ولا شمالًا : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] .

وعليه ؛ فيكون المستقيم صفة كاشفة على تفسيرنا الصراط بأنه الطريق الواسع الذى لا اعوجاج فيه ، لأن هذا هو المستقيم ؛ أو يقال : إنها صفة مقيدة ؛ لأن بعض الصراط قد يكون غير مستقيم كما قال تعالى : ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات : ٢٣، ٢٤] ، وهذا الصراط غير مستقيم .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (فإنه الصراط المستقيم) . تعليل لقوله : (فلا عدول لأهل السنة) ؛ أى : لأن ما جاء به المرسلون هو الصراط المستقيم ، والصراط المستقيم هو الطريق المعتدل الذى لا تعدُّد فيه ، ولا انقسام ، وهو المذكور فى قوله تعالى ، من سورة « الفاتحة » : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وقوله : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] .

وهو الذى ندعو اللّه ، فى كل ركعةٍ من صلواتنا أن يهدينا إليه .

أى : أن الصراط المستقيم الذى جاء به المرسلون فى الاعتقاد وغيره ، وسلكه أهل السنة والجماعة .

✽ قال الشيخ هراس :

الصراط المستقيم لا يكون إلا واحدًا ، مَن زاغ عنه أو انحرف وقع فى طريق من طرق الضلال والجور ، كما قال تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ، والصراط المستقيم هو طريق الأمة الوسط الواقع بين طرفى الإفراط والتفريط .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

« صراط الذين أنعم اللّه عليهم » ؛ أى طريقهم وأضافه إليهم لأنهم سالكوه ؛ فهم الذين يمشون فيه ، كما أضافه اللّه إلى نفسه أحيانًا : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣] ؛ باعتبار أنه هو الذى شرعه ووضعه لعباده ، وأنه موصل إليه ؛ فهو صراط اللّه باعتبارين وصراط المؤمنين باعتبار واحد ؛

....

صراط اللَّه باعتبارين هما : أنه وضعه لعباده ، وأنه موصل إليه وصراط المؤمنين ؛ لأنهم هم الذين يسلكونه وحدهم .

وقوله :« الذين أنعم اللَّه عليهم » : النعمة : كل فضل وإحسان من اللَّه عز وجل على عباده ؛ فهو نعمة وكل ما بنا من نعمة ؛ فهو من اللَّه ، ونعم اللَّه قسمان :عامة وخاصة ، والخاصة أيضًا قسمان خاصة ، وخاصة أعم .

فالعامة :هي التي تكون للمؤمنين وغير المؤمنين ولهذا ؛ لو سألنا سائل : هل للَّه على الكافر نعمة ؟

قلنا :نعم ؛ لكنها نعمة عامة وهي نعمة ما تقوم به الأبدان لا ما تصلح به الأديان ؛ مثل الطعام والشراب والكسوة والمسكن وما أشبه ذلك ؛ فهذه يدخل فيها المؤمن والكافر .

والنعمة الخاصة : ما تصلح به الأديان من الإيمان والعلم والعمل الصالح ؛ فهذه خاصة بالمؤمنين ، وهي عامة للنبيين والصديقين ؛ كالشهداء والصالحين .

ولكن نعمة اللَّه على النبيين والرسل نعمة هي أخص النعم ، واستمع إلى قوله تعالى : ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] ؛ فهذه النعمة التي هي أخص لا يلحق المؤمنون فيها النبيين ، بل هم دونهم .

وقوله : « صراط الذين أنعم اللَّه عليهم » : هي كقوله تعالى : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] .

فمن هم الذين أنعم اللَّه عليهم ؟

فسرها تعالى بقوله : ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩] ؛ فهؤلاء أربعة أصناف .

❁ قال الشيخ الفوزان :

هو (صراط الذين أنعم اللَّه عليهم) ؛ أي : أنعم اللَّه عليهم الإنعام المطلق التام المتصل بسعادة الأبد ، وهم الذين أمرنا اللَّه أن ندعوه أن يهدينا طريقهم ، فهؤلاء الأصناف الأربعة هم أهل هذه النعمة المطلقة ، وهم :

❁ قال الشيخ هراس :

ولهذا أمرنا اللَّه عزَّ وجلَّ وعلمنا أن نسأله أن يهدينا هذا الصراط المستقيم في كل ركعة من

مِن النبيِّين(١) والصِّدِّيقينَ(٢) ....

الصلاة ، أى : يلهمنا ويوفقنا لسلوكه واتباعه فإنه صراط الذين أنعم اللَّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

النبيون : وهم كل من أوحى اللَّه إليهم ونبأهم فهو داخل فى هذه الآية ، فيشمل الرسل ، لأن كل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولًا ، وعلى هذا فيكون النبيون شاملًا للرسل أولى العزم وغيرهم وشاملًا أيضًا للنبيين الذين لم يرسلوا وهؤلاء أعلى أصناف الخلق .

❁ قال الشيخ الفوزان :

١ - النبيون : جمع نبيٍّ ، وهم الذين اختصهم اللَّه بنبوته ورسالته ، وتقدم تعريفهم .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

الصديقون : جمع صديق على وزن فعيل صيغة مبالغة .

فمن الصدِّيق ؟

أحسن ما يفسر به الصديق قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر : ٣٣] ؛ وقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد : ١٩] ؛ فمن حقق الإيمان - ولا يتم تحقيق الإيمان إلا بالصدق والتصديق - فهو صديق :

الصدق فى العقيدة : بالإخلاص ، وهذا أصعب ما يكون على المرء حتى قال بعض السلف : ما جاهدت نفسى على شىء مجاهدتها على الإخلاص ؛ فلابد من الصدق فى المقصد - وهو العقيدة - والإخلاص للَّه عز وجل .

الصدق فى المقال : لا يقول إلا ما طابق الواقع ؛ سواء على نفسه أو على غيره ؛ فهو قائم بالقسط على نفسه وعلى غيره ؛ أبيه وأمه وأخيه وأخته .. وغيرهم .

الصدق فى الفعال : وهى أن تكون أفعاله مطابقة لما جاء به النبى ﷺ ، ومن صدق الفعال أن تكون نابعة عن إخلاص ؛ فإن لم تكن نابعة عن إخلاص ؛ لم تكن صادقة لأن فعله يخالف قوله .

فالصديق إذن : من صدق فى معتقده وإخلاصه وإرادته وفى مقاله وفى فعاله .

وأفضل الصديقين على الإطلاق أبو بكر رضى اللَّه عنه ؛ لأن أفضل الأمم هذه الأمة ، وأفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر رضى اللَّه عنه .

والشُّهداءِ(١) والصالحين(٢) .

والصديقية مرتبة تكون للرجال والنساء ؛ قال الله تعالى فى عيسى ابن مريم : ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة : ٧٥] ، ويقال : الصديقة بنت الصديق عائشة رضى الله عنها ، والله تعالى يمن على من يشاء من عباده .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

٢ - الصديقون : جمع صديق ، وهو المبالغ فى الصدق والتصديق ؛ أى : المبالغ فى الانقياد للرسول ﷺ مع كمال الإخلاص لله .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الشهداء قيل : هم الذين قتلوا فى سبيل الله ؛ لقوله : ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران : ١٤٠] وقيل : العلماء ؛ لقوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ﴾ [آل عمران : ١٨] ؛ فجعل أهل العلم شاهدين بما شهد الله لنفسه ؛ ولأن العلماء يشهدون للرسل بالبلاغ وعلى الأمة بالتبليغ ولو قال قائل : الآية عامة لمن قتلوا فى سبيل الله تعالى وللعلماء ؛ لأن اللفظ صالح للوجهين ، ولا يتنافيان ؛ فيكون شاملًا للذين قتلوا فى سبيل الله وللعلماء الذين شهدوا لله بالوحدانية وشهدوا للنبى ﷺ بالبلاغ وشهدوا على الأمة بأنها بلغت .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

٣ - الشهداء : جمع شهيد ، وهو المقتول فى سبيل الله ، سمى بذلك ؛ لأنه مشهود له بالجنة ، ولأن ملائكة الرحمة تشهده .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

الصالحون يشمل كل الأنواع الثلاثة السابقة ومن دونهم فى المرتبة ؛ فالأنبياء صالحون ، والصديقون صالحون ، والشهداء صالحون ؛ فعطفها من باب عطف العام على الخاص .

والصالحون هم الذين قاموا بحق الله وحق عباده ، لكن لا على المرتبة السابقة - النبوة والصديقية والشهادة ؛ فهم دونهم فى المرتبة .

هذا الصراط الذى جاءت به الرسل هو صراط هؤلاء الأصناف الأربعة ؛ فغيرهم لا يمشون على ما جاءت به الرسل .

الاستدلالُ على إثباتِ أسماءِ اللَّهِ وصفاتِه من القرآنِ الكريمِ

١- الجمعُ بينَ النفيِ والإثبــاتِ فى وصفِه تعالى :

وقـد دخَل فى هذه الجملةِ[1] مـا وصَف اللـهُ بــه نفسَــه فــى

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

٤ - الصالحون : جمع صالحٍ ، وهو القائم بحقوق اللّٰه ، وحقوق عباده .

والصراط تارةً يضاف إلى اللّٰه تعالى ، كقوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام : ١٥٣] لأنه هو الذى شرعه ونصبه ، وتارةً يضاف إلى العباد ، كما فى قوله تعالى : ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ لكونهم سلكوه .

وفى قوله : ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ . تنبيه على الرفيق فى هذا الطريق ، وأنهم هم الذين أنعم اللّٰه عليهم من النبيين ، والصديقين والشهداء والصالحين ؛ ليزول عن سالك هذا الطريق وحشة التفرد عن أهل زمانه ، إذا استشعر أن رفقته على هذا الصراط الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون . ثم أورد الشيخ رحمه اللّٰه فيما يلى : نماذج من الكتاب والسنة تشتمل على إثبات أسماء اللّٰه وصفاته ، وفيما يلى إيراد ذلك .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قوله : « دخل فى هذه الجملة » . يحتمل أنه يريد بها قوله : « وهو قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات » ويحتمل أن يريد ما سبق من أن أهل السنة والجماعة يصفون اللّٰه تعالى بما وصف به نفسه وما وصفه به رسوله ، وأيًّا كان ؛ فإن هذه السورة وما بعدها داخلة فى ضمن ما سبق ؛ من أن اللّٰه تعالى جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات وأن أهل السنة يؤمنون بذلك .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

(وقد دخل فى هذه الجملة) ؛ أى : التى تقدمت ، وهى قوله : (وهو سبحانه قد جمع فيما وصف ، وسمى به نفسه بين النفى والإثبات) .

✽ **قال الشيخ هراس :**

قوله : (وقد دخل ... إلخ) شروع فى إيراد النصوص من الكتاب والسنة المتضمنة لما يجب الإيمان به من الأسماء والصفات فى النفى والإثبات .

سورةِ (١) الإخلاصِ (٢) التى تَعْدِلُ ثُلُثَ القرآنِ (٣).

(١ ، ٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

(السورة) : هى عبارة عن آيات من كتاب اللّٰه مسورة ؛ أى منفصلة عما قبلها وعما بعدها ؛ كالبناء الذى أحاط به السور .

إخلاص الشىء ؛ بمعنى : تنقيته ؛ يعنى : التى نقيت ولم يشبهها شىء . وسميت بذلك ؛ قيل : لأنها تتضمن الإخلاص للّٰه عز وجل ، وأن من آمن بها ؛ فهو مخلص فتكون بمعنى مُخْلِصة لقارئها ؛ أى أن الإنسان إذا قرأها مؤمنًا بها ؛ فقد أخلص للّٰه عز وجل وقيل : لأنها مخلَصة - بفتح اللام ؛ لأن اللّٰه تعالى أخلصها لنفسه ، فلم يذكر فيها شيئًا من الأحكام ولا شيئًا من الأخبار عن غيره، بل هى أخبار خاصة باللّٰه والوجهان صحيحان ، ولا منافاة بينهما .

✲ **قال الشيخ الفوزان :**

فأراد هنا أن يورد ما يدل على ذلك من الكتاب والسنة ، وبدأ بسورة « الإخلاص » لفضلها ، وسميت بذلك ؛ لأنها أخلصت فى صفات اللّٰه ، ولأنها تخلص قارئها من الشرك .

✲ **قال الشيخ هراس :**

وابتدأ بتلك السورة العظيمة لأنها اشتملت من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيرها . ولهذا سميت سورة « الإخلاص » لتجريدها التوحيد من شوائب الشرك والوثنية .

روى الإمام أحمد فى « مسنده » عن أُبى بن كعب رضى اللّٰه عنه فى سبب نزولها أن المشركين قالوا : يا محمد ، انسب لنا ربك ، فأنزل اللّٰه تبارك وتعالى : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص : ١، ٢] إلخ السورة .

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الدليل قول النبى عليه الصلاة والسلام لأصحابه : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟ » . فشق ذلك عليهم وقالوا : أيّنا يُطيقُ ذلك يا رسول اللّٰه ؟ فقال : « اللّٰه الواحد الصمد ثلث القرآن » (1).

فهذه السورة تعدل ثلث القرآن فى الجزاء لا فى الإجزاء ، وذلك كما ثبت عن النبى ﷺ أن : « من قال : لا إله إلا اللّٰه وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ؛

---

(1) أخرجه البخارى (٥٠١٥) ، ومسلم (٨١١) .

....

عشر مرات فكأنما أعتق أربع أنفس من بنى إسماعيل »[1] ؛ فهل يجزئ ذلك عن إعتاق أربع رقاب ممن وجب عليه ذلك وقال هذا الذِّكر عشر مرات ؟ فنقول : لا يجزئ . أما فى الجزاء ؛ فتعدل هذا ؛ كما قال النبى عليه الصلاة والسلام ؛ فلا يلزم من المعادلة فى الجزاء المعادلة فى الإجزاء . ولهذا ؛ لو قرأ سورة « الإخلاص » فى الصلاة ثلاث مرات ؛ لم تجزئه عن قراءة « الفاتحة » .

قال العلماء : ووجه كونها تعدل ثلث القرآن : أن مباحث القرآن خبر عن الله وخبر عن المخلوقات ، وأحكام ؛ فهذه ثلاثة :

١ - خبر عن الله : قالوا : إن سورة : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تتضمنه .

٢ - خبر عن المخلوقات ؛ كالإخبار عن الأمم السابقة ، والإخبار عن الحوادث الحاضرة ، وعن الحوادث المستقبلة .

٣ - والثالث : أحكام ؛ مثل : أقيموا ، آتوا ، لا تشركوا .. وما أشبه ذلك .

وهذا هو أحسن ما قيل فى كونها تعدل ثلث القرآن .

❁ قال الشيخ الفوزان :

قوله : (التى تعدل ثلث القرآن) ؛ أى : تساويه ؛ وذلك لأن معانى القرآن ثلاثة أنواعٍ : توحيد . وقصص . وأحكام ، وهذه السورة فيها صفة الرحمن ، فهى فى التوحيد وحده ، فصارت تعدل ثلث القرآن .

والدليل على أن هذه السورة تعدل ثلث القرآن ما رواه البخارى ، عن أبى سعيدٍ الخدرى رضى الله عنه ، أن رجلًا سمع رجلًا يقرأ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها .

فلما أصبح جاء إلى النبى ﷺ ، فذكر له ذلك ، وكأن الرجل يتقالها ، فقال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن »[2] .

قال الإمام ابن القيم : والأحاديث بكونها تعدل ثلث القرآن تكاد تبلغ مبلغ التواتر .

❁ قال الشيخ هراس :

وقد ثبت فى الصحيح أنها تعدل ثلث القرآن . وقد اختلف العلماء فى تأويل ذلك على أقوال ، أقربها : ما نقله شيخ الإسلام عن أبى العباس ، وحاصله أن القرآن الكريم اشتمل على ثلاثة

---

(1) أخرجه البخارى (٦٤٠٤) ، ومسلم (٢٦٩٣) .

(2) البخارى (٧٣٤٧) .

حيثُ يقولُ : ﴿قُلْ(١) هُوَ(٢) ....

مقاصد أساسية . أولها : الأوامر والنواهى المتضمنة للأحكام والشرائع العملية التى هى موضوع علم الفقه والأخلاق .

ثانيها : القصص والأخبار المتضمنة لأحوال الرسل عليهم الصلاة والسلام مع أممهم ، وأنواع الهلاك التى حاقت بالمكذبين لهم ، وأحوال الوعد والوعيد وتفاصيل الثواب والعقاب .

ثالثها : علم التوحيد وما يجب على العباد من معرفة الله بأسمائه وصفاته ، وهذا هو أشرف الثلاثة .

ولما كانت سورة « الإخلاص » قد تضمنت أصول هذا العلم ، واشتملت عليه إجمالًا ، صح أن يقال : إنها تعدل ثلث القرآن[1] .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

﴿قُلْ﴾ : الخطاب لكل من يصح خطابه .

وسبب نزول هذه السورة : أن المشركين قالوا للرسول عليه الصلاة والسلام صف لنا ربك ؟ فأنزل الله هذه السورة . وقيل : بل اليهود هم الذين زعموا أن الله خُلِقَ من كذا ومن كذا مما يقولون من المواد ؛ فأنزل الله هذه السورة . سواء صح السبب أم لم يصح ؛ فعلينا إذا سُئلنا أىَّ سؤال عن الله نقول : ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

(حيث يقول) الله جل شأنه : (قُل) ؛ أى : يا محمد ، فى هذا دليل على أن القرآن كلام الله ؛ إذ لو كان كلام محمدٍ أو غيره لم يقل (قُل) .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

﴿هُوَ﴾ : ضمير وأين مرجعه ؟ قيل : إن مرجعه المسئول عنه ؛ كأنه يقول : الذى سألتم عنه الله . وقيل : هو ضمير الشأن و﴿ٱللَّهُ﴾ : مبتدأ ثان و﴿أَحَدٌ﴾ : خبر المبتدأ الثانى ، وعلى الوجه

---

(1) نص عبارة شيخ الإسلام ابن تيمية التى ذكر المؤلف أن هذا حاصل ، قد قيل فيه – أى فى توجيه كون سورة « قل هو الله أحد » تعدل ثلث القرآن – وجوه أحسنها ، والله أعلم ، الجواب منقول عن الإمام أبى العباس بن سريج عن أبى الوليد القرشى أنه سأل أبا العباس بن سريج عن معنى قول النبى ﷺ : « قل هو الله أحد ، تعدل ثلث القرآن » ؟ فقال : معناه أنزل القرآن على ثلاثة أقسام ؛ ثلث منها الأحكام ، وثلث منها وعد ووعيد ، وثلث منها الأسماء والصفات ، وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات . أهـ . « إسماعيل الأنصاري » .

ٱللَّهُ (١) أَحَدٌ (٢) ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ (٣) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا

الأول تكون ﴿هُوَ﴾ : مبتدأ ، ﴿ٱللَّهُ﴾ خبر المبتدأ ، ﴿أَحَدٌ﴾ : خبر ثان .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

﴿ٱللَّهُ﴾ : هو العلم على ذات الله ، المختص بالله عز وجل ، لا يتسمى به غيره وكل ما يأتى بعده من أسماء الله فهو تابع له إلا نادرًا ؛ ومعنى ﴿ٱللَّهُ﴾ : الإله ، وإله بمعنى مألوه أى : معبود ، لكن حذفت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال ؛ كما فى (الناس) ، وأصلها : الأناس ، وكما فى : هذا خير من هذا ، وأصله : أخير من هذا لكن لكثرة الاستعمال حذفت الهمزة ؛ فالله عز وجل ﴿أَحَدٌ﴾ .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

﴿أَحَدٌ﴾ : لا تأتى إلا فى النفى غالبًا أو فى الإثبات فى أيام الأسبوع ؛ يقال : الأحد ، الاثنين .. لكن تأتى فى الإثبات موصوفًا بها الرب عز وجل لأنه سبحانه وتعالى أحد ؛ أى : متوحد فيما يختص به فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، ﴿أَحَدٌ﴾ ؛ لا ثانى له ولا نظير له ولا ند له .

❊ **قال الشيخ الفوزان :**

﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ؛ أى : واحد لا نظير له ، ولا وزير ، ولا مثيل ، ولا شريك له .

❊ **قال الشيخ هراس :**

وأما كيف اشتملت هذه السورة على علوم التوحيد كلها وتضمنت الأصول التى هى مجامع التوحيد العلمى الاعتقادى ؟ فنقول : إن قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ دلت على نفى الشريك من كل وجه فى الذات أو فى الصفات أو فى الأفعال ، كما دلت على تفرده سبحانه بالعظمة والكمال والمجد والجلال والكبرياء ، ولهذا لا يطلق لفظ أحد فى الإثبات إلا على الله عزَّ وجلَّ ، وهو أبلغ من واحد .

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ : هذه جملة مستأنفة بعد أن ذكر الأحدية ذكر الصمدية ، وأتى بها بجملة معرفة فى طرفها ؛ لإفادة الحصر ؛ أى : الله وحده الصمد .

فما معنى الصمد ؟

....

قيل : إن ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ : هو الكامل ؛ فى علمه ، فى قدرته ، فى حكمته ، فى عزته ، فى سؤدده ، فى كل صفاته . وقيل : ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ : الذى لا جوف له ؛ يعنى لا أمعاء ولا بطن ، ولهذا قيل : الملائكة صمد ؛ لأنهم ليس لهم أجواف ؛ لا يأكلون ولا يشربون . هذا المعنى روى عن ابن عباس رضى اللّٰه عنهما[1] ولا ينافى المعنى الأول ، لأنه يدل على غناه بنفسه عن جميع خلقه ، وقيل : ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ بمعنى المفعول ؛ أى : المصمود إليه ؛ أى الذى تصمد إليه الخلائق فى حوائجها ؛ بمعنى : تميل إليه وتنتهى إليه وترفع إليه حوائجها ؛ فهو بمعنى الذى يحتاج إليه كل أحد .

هذه الأقاويل لا ينافى بعضها بعضًا فيما يتعلق باللّٰه عز وجل ، ولهذا نقول : إن المعانى كلها ثابتة ؛ لعدم المنافاة فيما بينها .

ونفسره بتفسير جامع فنقول : ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ : هو الكامل فى صفاته الذى افتقرت إليه جميع مخلوقاته ؛ فهى صامدة إليه .

وحينئذ يتبين لك المعنى العظيم فى كلمة ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ : أنه مستغن عن كل ما سواه ، كامل فى كل ما يوصف به ، وأن جميع ما سواه مفتقر إليه .

فلو قال لك قائل : إن اللّٰه استوى على العرش ؛ هل استواؤه على العرش بمعنى أنه مفتقر إلى العرش بحيث لو أزيل لسقط ؟ فالجواب : لا ، كلا ، لأن اللّٰه صمد كامل غير محتاج إلى العرش ، بل العرش والسماوات والكرسى والمخلوقات كلها محتاجة إلى اللّٰه ، واللّٰه فى غنى عنها فنأخذه من كلمة ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ .

لو قال قائل : هل اللّٰه يأكل أو يشرب ؟ أقول : كلا ؛ لأن اللّٰه صمد .

وبهذا نعرف أن ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ كلمة جامعة لجميع صفات الكمال للّٰه وجامعة لجميع صفات النقص فى المخلوقات وأنها محتاجة إلى اللّٰه عز وجل .

❁ قال الشيخ الفوزان :

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ ؛ أى : السيد الذى كمل فى سؤدده ، وشرفه ، وعظمته ، وفيه جميع صفات الكمال ، والذى تصمد إليه الخلائق ، وتقصده فى جميع حاجاتها ومهماتها .

---

(1) أخرجه ابن أبى عاصم فى « السنة » (٦٦٥) بإسناد ضعيف .

﴿أَحَـدٌ﴾[1] [الإخلاص: ١- ٤].

* **قال الشيخ هراس:**

وقوله: (الله الصمد): قد فسرها ابن عباس رضى الله عنه بقوله: «السيد الذى كمل فى سؤدده، والشريف الذى كمل فى شرفه، والعظيم الذى قد كمل فى عظمته، والحليم الذى قد كمل فى حلمه، والغنى الذى قد كمل فى غناه، والجبار الذى قد كمل فى جبروته، والعليم الذى قد كمل فى علمه، والحكيم الذى قد كمل فى حكمه، وهو الذى قد كمل فى أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله عزَّ وجلَّ، هذه صفته لا تنبغى إلا له ليس له كفؤ وليس كمثله شىء»[1].

وقد فسر «الصمد» أيضًا بأنه الذى لا جوف له، وبأنه الذى تصمد إليه الخليقة كلها وتقصده فى جميع حاجاتها ومهماتها.

فإثبات الأحدية لله تتضمن نفى المشاركة والمماثلة، وإثبات الصمدية بكل معانيها المتقدمة تتضمن إثبات جميع تفاصيل الأسماء الحسنى والصفات العلى، وهذا هو توحيد الإثبات.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

هذا تأكيد للصمدية والوحدانية، وقلنا: توكيد؛ لأننا نفهم هذا مما سبق فيكون ذكره توكيدًا لمعنى ما سبق وتقريرًا له؛ فهو لأحديته وصمديته لم يلد؛ لأن الولد يكون على مثل الوالد فى الخلقة، فى الصفة وحتى الشبه.

لما جاء مجزز المدلجى إلى زيد بن حارثة وابنه أسامة، وهما ملتحفان برداء، قد بدت أقدامهما؛ نظر إلى القدمين. فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض[2]. فعرف ذلك بالشبه.

فلكمال أحديته وكمال صمديته ﴿لَمْ يَـلِدْ﴾ والوالد محتاج إلى الولد بالخدمة والنفقة ويعينه عند العجز ويبقى نسله.

﴿وَلَـمْ يُولَـدْ﴾؛ لأنه لو ولد؛ لكان مسبوقًا بوالد مع أنه جل وعلا هو الأول الذى ليس قبله شىء، وهو الخالق وما سواه مخلوق؛ فكيف يولد؟

(1) تمام قول ابن عباس عند ابن كثير: «سبحان الله الواحد القهار»، وليس فيما ذكره ابن كثير قوله: «الغنى الذى قد كمل فى غناه والجبار قد كمل فى جبروته»، وعند ابن كثير لفظ «قد» قبل لفظ «كمل» فى جميع المواضع التى ورد فيها لفظ «كمل» فى قول ابن عباس. «إسماعيل الأنصاري».

(2) أخرجه البخارى (٦٧٧٠)، ومسلم (١٤٥٩).

....

وإنكار أنه وُلِدَ أبلغ في العقول من إنكار أنه والد ولهذا لم يدع أحد أن اللَّه والدًا وادعى المفترون أن له ولدًا .

وقد نفى اللَّه هذا وهذا وبدأ بنفى الولد ؛ لأهمية الرد على مدعيه بل قال : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون : ٩١] ، حتى ولو بالتسمى ؛ فهو لم يلد ولم يتخذ ولدًا ، بنو آدم قد يتخذ الإنسان منهم ولدًا وهو لم يلده بالتبنى أو بالولاية أو بغير ذلك ، وإن كان التبنى غير مشروع ، أما اللَّه عز وجل ؛ فلم يلد ولم يولد ، ولما كان يرد على الذهن فرض أن يكون الشىء لا والدًا ولا مولودًا لكنه متولد ؛ نفى هذا الوهم الذى قد يرد ، فقال : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ . وإذا انتفى أن يكون له كفوًا أحد ؛ لزم ألَّا يكون متولدًا ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ، أى : لا يكافئه أحد فى جميع صفاته .

وفى هذه السورة : صفات ثبوتية وصفات سلبية :

الصفات الثبوتية : ﴿ٱللَّهُ﴾ التى تتضمن الألوهية ، ﴿أَحَدٌ﴾ تتضمن الأحدية ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ تتضمن الصمدية .

والصفات السلبية : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : ٣، ٤] .

ثلاث إثبات ، وثلاث نفى ، وهذا النفى يتضمن من إثبات كمال الأُحدية والصمدية .

✽ قال الشيخ الفوزان :

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ؛ أى : ليس له ولد ، ولا والد ، وفيه الرد على النصارى ومشركى العرب الذين نسبوا للَّه الولد .

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ؛ أى : ليس له مكافئٌ ، ولا مماثلٌ ، ولا نظير .

والشاهد من هذه السورة : أنها تضمنت وجمعت بين النفى والإثبات ، فقوله : ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ إثبات . وقوله : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ نفى .

✽ قال الشيخ هراس :

وأما النوع الثاني وهو توحيد التنزيه فيؤخذ من قوله تعالى : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : ٣، ٤] ، كما يؤخذ إجمالًا من قوله : ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ .

وما وصَف به نفسَه في أعظمِ آيةٍ في كتابِه(١)، حيثُ يقولُ : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا

أي : لم يتفرع عنه شيء ولم يتفرع هو عن شيء ، وليس له مكافئ ولا مماثل ولا نظير .

فانظر كيف تضمنت هذه السورة توحيد الاعتقاد والمعرفة وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذي لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه ، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم غناه وصمديته وأحديته ، ثم نفي الكفء المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والنظير ، فحق لسورة تضمنت هذه المعارف كلها أن تعدل ثلث القرآن .

روى مسلم في « صحيحه » عن أُبي بن كعب أن النبي ﷺ سأله : « أي آية في كتاب الله أعظم ؟ » قال : الله ورسوله أعلم . فرددها مرارًا ، ثم قال أُبي : آية الكرسي . فوضع النبي ﷺ يده على كتفه وقال : « ليهنك هذا العلم يا أبا المنذر » . وفي رواية عند أحمد : « والذي نفسي بيده ، إن لها لسانًا وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش » .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قوله : « وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتاب الله » وهذه الآية تسمى آية الكرسي ؛ لأن فيها ذكر الكرسي : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وهي أعظم آية في كتاب الله .

والدليل على ذلك : أن النبي ﷺ سأل أُبي بن كعب ؛ قال : « أي آية في كتاب الله أعظم ؟ » فقال له : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ فضرب على صدره ، وقال : « ليهنك العلم أبا المنذر »[1].

يعني : أن النبي ﷺ أقرّه بأن هذه أعظم آية في كتاب الله ، وأن هذا دليلٌ على علم أُبي في كتابِ الله عز وجل .

وفي هذا الحديث دليل على أن القرآن يتفاضل ؛ كما دل عليه أيضًا حديث سورة « الإخلاص » ، وهذا موضع يجب فيه التفصيل ؛ فإننا نقول : أما باعتبار المتكلم به ؛ فإنه لا يتفاضل ؛ لأن المتكلم به واحد وهو الله عز وجل ، وأما باعتبار مدلولاته وموضوعاته فإنه يتفاضل ؛ فسورة « الإخلاص » التي فيها الثناء على الله عز وجل بما تضمنته من الأسماء

(1) أخرجه مسلم (٨١٠) .

....

والصفات ليست كسورة « المسد » التي فيها بيان حال أبي لهب من حيث الموضوع كذلك ، يتفاضل من حيث التأثير والقوة في الأسلوب ؛ فإن من الآيات ما تجدها آية قصيرة لكن فيها رَدْعٌ قوي للقلب وموعظة ، وتجد آية أخرى أطول منها بكثير لكن لا تشتمل على ما تشتمل عليه الأولى ؛ فمثلًا قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .. إلخ ؛ هذه آية موضوعها سهل ، والبحث فيها في معاملات تجرى بين الناس وليس فيها ذاك التأثير الذي يؤثره مثل قوله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ؛ فهذه تحمل معاني عظيمة ، فيها زجر وموعظةٌ وترغيب وترهيب ، ليست كآية الدَّين مثلًا مع أن آية الدين أطول منها .

✵ قال الشيخ الفوزان :

(وما وصف به نفسه في أعظم آيةٍ من كتابه) ؛ أي : ودخل في الجملة السابقة ما وصف الله به نفسه الكريمةَ .

(في أعظم آيةٍ) والآية في اللغة العلامة ، والمراد بها هنا طائفة من كلمات القرآن ، متميزة عن غيرها بفاصلةٍ ، وتسمى هذه الآية التي أوردها هنا آية الكرسي ؛ لذكر الكرسي فيها .

والدليل على أنها أعظم آيةٍ في القرآن ما ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم ، عن أُبي بن كعبٍ رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ سأله : « أي آيةٍ في كتاب الله أعظم ؟ » قال : الله ورسوله أعلم . فرددها مرارًا ، ثم قال أُبيٌّ : آية الكرسي .

فقال النبي ﷺ : « ليهنك العلم أبا المنذر »(1) .

وسبب كونها أعظم آيةٍ لما اشتملت عليه من إثبات أسماء الله وصفاته ، وتنزيهه عما لا يليق به .

✵ قال الشيخ هراس :

ولا غرو ، فقد اشتملت هذه الآية العظيمة من أسماء الرب وصفاته على ما لم تشتمل عليه آية أخرى .

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ١٤١، ١٤٢) (٢١١٧٥)، ومسلم (١/ ٥٥٦) (٨١٠)، وأبو داود (١٤٦٠).

هُوَ(١) الْحَيُّ(٢) الْقَيُّومُ(٣) ....

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فى هذه الآية يخبر اللّه بأنه منفرد بالألوهية ، وذلك من قوله : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ؛ لأن هذه جملة تفيد الحصر وطريقة النفى والإثبات هذه من أقوى صيغ الحصر .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

فقوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ؛ أى : لا معبود بحقٍّ إلا هو ، وما سواه فعبادته من أبطل الباطل .

❁ **قال الشيخ هراس :**

فقد أخبر اللّه فيها عن نفسه بأنه المتوحد فى إِلَٰهِيَّتِهِ الذى لا تنبغى العبادة بجميع أنواعها وسائر صورها إلَّا له .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

أى : ذو الحياة الكاملة المتضمنة لجميع صفات الكمال لم تسبق بعدم ، ولا يلحقها زوال ، ولا يعتريها نقص بوجه من الوجوه .

و﴿ٱلْحَيُّ﴾ من أسماء اللّه ، وقد تطلق على غير اللّه ؛ قال تعالى : ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [الأنعام : ٩٥] ، ولكن ليس الحى كالحى ، ولا يلزم من الاشتراك فى الاسم التماثل فى المسمى .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

﴿ٱلْحَيُّ﴾ ؛ أى : الدائم الباقى ، الذى له كمال الحياة ، والذى لا سبيل للفناء عليه .

❁ **قال الشيخ هراس :**

ثم أردف قضية التوحيد بما يشهد لها من ذكر خصائصه وصفاته الكاملة ، فذكر أنه الحى الذى له كمال الحياء ؛ لأن حياته من لوازم ذاته فهى أزلية أبدية ، وكمال حياته يستلزم ثبوت جميع صفات الكمال الذاتية له من العزة والقدرة والعلم والحكمة والسمع والبصر والإرادة والمشيئة وغيرها ؛ إذ لا يتخلف شىء منها إلا لنقص فى الحياة . فالكمال فى الحياة يتبعه الكمال فى سائر الصفات اللازمة للحى .

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ على وزن فيعول ، وهذه من صيغ المبالغة ، وهى مأخوذة من القيام .

....

ومعنى ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ ؛ أى : أنه القائم بنفسه ؛ فقيامه بنفسه يستلزم استغناءه عن كل شىء ، لا يحتاج إلى أكل ولا شرب ولا غيرها ، وغيره لا يقوم بنفسه بل هو محتاج إلى الله عز وجل فى إيجاده وإعداده وإمداده .

ومن معنى ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ كذلك أنه قائم على غيره لقوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد : ٣٣] ، والمقابل محذوف تقديره : كمن ليس كذلك ، والقائم على كل نفس بما كسبت هو الله عز وجل ولهذا يقول العلماء : القيوم هو القائم على نفسه القائم على غيره . وإذا كان قائمًا على غيره ؛ لزم أن يكون غيره قائمًا به ؛ قال الله تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم : ٢٥] ؛ فهو إذن كامل الصفات وكامل الملك والأفعال .

وهذان الاسمان هما الاسم الأعظم الذى إذا دعى الله به أجاب ، ولهذا ينبغى للإنسان فى دعائه أن يتوسل به ؛ فيقول : يا حى ! يا قيوم ! وقد ذكرا فى الكتاب العزيز فى ثلاثة مواضع : هذا أحدها ، والثانى فى سورة « آل عمران » : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران : ٢] ، والثالث فى سورة « طه » : ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه : ١١١] .

هذان الاسمان فيهما الكمال الذاتى والكمال السلطانى ؛ فالذاتى فى قوله : ﴿ٱلْحَىُّ﴾ والسلطانى فى قوله : ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ ؛ لأنه يقوم على كل شىء ويقوم به كل شىء .

۞ قال الشيخ الفوزان :

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ ؛أى : القائم بنفسه ، المقيم لغيره ، فهو غنىٌّ عن خلقه ، وخلقه محتاجون إليه ، وقد ورد أن « الحى القيوم » هو الاسم الأعظم الذى إذا دعى الله به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ؛ لدلالة « الحى » على الصفات الذاتية ، ودلالة « القيوم » على الصفات الفعلية ، فالصفات كلها ترجع إلى هذين الاسمين الكريمين العظيمين .

ولكمال قيوميته .

۞ قال الشيخ هراس :

ثم قرن ذلك باسمه القيوم ومعناه : الذى قام بنفسه واستغنى عن جميع خلقه غنى مطلقًا لا تشوبه شائبة حاجة أصلًا لأنه غنًى ذاتى ، وبه قامت الموجودات كلها ، فهى فقيرة إليه فقرًا ذاتيًا بحيث لا تستغنى عنه لحظة ، فهو الذى ابتدأ إيجادها على هذا النحو من الإحكام والإتقان وهو

لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ(١) ....

الذى يدبر أمورها ويمدها بكل ما تحتاج إليه فى بقائها ، وفى بلوغ الكمال الذى قدره لها ، فهذا الاسم متضمن لجميع صفات الكمال الفعلية ، كما أن اسمه الحى متضمن لجميع صفات الكمال الذاتية ؛ ولهذا ورد أن « الحى القيوم » هما اسم الله الأعظم الذى إذا سُئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

السِّنة النعاس وهى مقدمة النوم ولم يقل : لا ينام . لأن النوم يكن باختيار ، والأخذ يكون بالقهر . والنوم من صفات النقص ؛ قال النبى عليه الصلاة والسلام :

« إن الله لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام »[1] .

وهذه صفة من صفات النفى وقد سبق أن صفات النفى لابد أن تتضمن ثبوتًا وهو كمال الضد ، والكمال فى قوله : ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة : ٢٥٥] كمال الحياة والقيومية ؛ لأنه من كمال حياته ألَّا يحتاج إلى النوم ومن كمال قيوميته ألَّا ينام ؛ لأن النوم إنما يحتاج إليه المخلوقات الحية ؛ لنقصها ؛ لأنها تحتاج إلى النوم من أجل الاستراحة من تعب سبق واستعادة القوة لعمل مستقبل ، ولما كان أهل الجنة كاملى الحياة ؛ كانوا لا ينامون ؛ كما صحت بذلك الآثار .

لكن لو قال قائل : النوم فى الإنسان كمال ، ولهذا ؛ إذا لم ينم الإنسان ؛ عُدَّ مريضًا . فنقول : كالأكل فى الإنسان كمال ولو لم يأكل ؛ عُدَّ مريضًا لكن هو كمال من وجه ونقص من وجه آخر ؛ كمال لدلالته على صحة البدن واستقامته ونقص لأن البدن محتاج إليه ، وهو فى الحقيقة نقص .

إذن ليس كل كمال نسبى بالنسبة للمخلوق يكون كمالًا للخالق ؛ كما أنه ليس كل كمال فى الخالق يكون كمالًا فى المخلوق ؛ فالتكبر كمال فى الخالق نقص فى المخلوق والأكل والشرب والنوم كمال فى المخلوق نقص فى الخالق ؛ ولهذا قال الله تعالى عن نفسه : ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام : ١٤] .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ السنة النعاس ، وهو نوم خفيفٌ ، ويكون فى العين فقط ، والنوم

---

(1) أخرجه مسلم (١٧٩) .

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ(١) ....

أقوى من السنة ، وهو أخو الموت ، ويكون فى القلب .

❁ **قال الشيخ هراس :**

ثم أعقب ذلك بما يدل على كمال حياته وقيُّوميتهِ ، فقال : ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ﴾ أى لا تغلبه ﴿سِنَةٌ﴾ أى نعاس ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ ، فإن ذلك ينافى القيُّومية ، إذ النوم أخو الموت ، ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قوله : ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ : ﴿لَّهُۥ﴾ : خبر مقدم . ﴿مَا﴾ : مبتدأ مؤخر ؛ ففى الجملة حصر ، طريقة تقديم ما حقه التأخير وهو الخبر . ﴿لَّهُۥ﴾ : اللام هذه للملك . ملك تام ، بدون معارض . ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ : من الملائكة والجنة وغير ذلك مما لا نعلمه ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ : من المخلوقات كلها الحيوان منها وغير الحيوان .

وقوله : ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ : تفيد أن السماوات عديدة ، وهو كذلك وقد نص القرآن على أنها سبع ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون : ٨٦] .

والأرضون أشار القرآن إلى أنها سبع بدون تصريح ، وصرحت ، بها السنة ؛ قال اللَّه تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق : ١٢] ؛ مثلهن فى العدد دون الصفة ، وفى السُّنة قال النبى عليه الصلاة والسلام : « من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا ؛ طوَّقه اللَّه به يوم القيامة من سبع أرضين »[1] .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملكًا ، وخلقًا ، وعبيدًا ، فهو يملك العالم العلوى والسفلى .

❁ **قال الشيخ هراس :**

ثم ذكر عموم ملكه لجميع العوالم العلوية والسُّفلية ، وأنها جميعها تحت قهره وسلطانه ، فقال : ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ .

---

(1) أخرجه البخارى (٢٤٥٢) ، ومسلم (١٦١٠) .

مَّن ذَا (١) الَّذِى يَشْفَعُ (٢) عِنْدَهُ (٣) إِلَّا بِـإِذْنِهِ (٤) ....

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

﴿مَّن ذَا﴾ اسم استفهام أو نقول : ﴿مَّن﴾ اسم استفهام ، و﴿ذَا﴾ : ملغاة ، ولا يصح أن تكون ﴿ذَا﴾ : اسمًا موصولاً فى مثل هذا التركيب ؛ لأنه يكون معنى الجملة : من الذى الذى ! وهذا لا يستقيم .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

الشفاعة فى اللغة : جعل الوتر شفعًا ؛ قال تعالى : ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ [الفجر : ٣] . وفى الاصطلاح : هى التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرّة ؛ فمثلًا : شفاعة النبى ﷺ لأهل الموقف أن يقضى بينهم : هذه شفاعة بدفع مضرة ، وشفاعته لأهل الجنة أن يدخلوها بجلب منفعة .

✵ قال الشيخ الفوزان :

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى﴾ ؛أى : لا أحد .

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين :

أى : عند الله .

✵ قال الشيخ الفوزان :

﴿يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ﴾الشفاعة مشتقة من الشفع ، وهو ضد الوتر ، فكأن الشافع ضم سؤاله إلى سؤال غيره ، فصيره شفعًا بعد أن كان وترًا .

والشفاعة سؤال الخير للغير ، بمعنى أن يسأل المؤمن ربه أن يغفر ذنوب وجرائم بعض المؤمنين ، لكنها ملك لله سبحانه ، فلا تكون :

(٤) قال الشيخ ابن عثيمين :

أى : إذنه له ، وهذه تفيد إثبات الشفاعة ، لكن بشرط أن يأذن : ووجه ذلك أنه لولا ثبوتها ؛ لكان الاستثناء فى قوله : ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ : لغوًا لا فائدة فيه .

وذكرها بعد قوله : ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يفيد أن هذا الملك الذى هو خاص بالله عز وجل ؛ أنه ملك تام السلطان ؛ بمعنى أنه لا أحد يستطيع أن يتصرف ، ولا بالشفاعة التى هى خير ؛ إلا بإذن الله ، وهذا من تمام ربوبيته وسلطانه عز وجل .

وتفيد هذه الجملة أن له إذنًا ، والإذن فى الأصل الإعلام ؛ قال الله تعالى : ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ (١) ....

﴿وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة : ٣] ؛ أى إعلام من الله ورسوله ؛ فمعنى ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ ؛ أى : إعلامه بأنه راضٍ بذلك .

وهناك شروط أخرى للشفاعة :منها : أن يكون راضيًا عن الشافع وعن المشفوع له ؛ قال الله تعالى : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] ، وقال : ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩] .

وهناك آية تنتظم الشروط الثلاثة : ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦] ؛ أى : يرضى عن الشافع والمشفوع له ؛ لأن حذف المعمول يدل على العموم .

إذا قال قائل :ما فائدة الشفاعة إذا كان الله تعالى قد علم أن هذا المشفوع له ينجو؟

فالجواب :أن الله سبحانه وتعالى يأذن بالشفاعة لمن يشفع من أجل أن يكرمه وينال المقام المحمود .

❁ قال الشيخ الفوزان :

﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ ؛أى : بأمره ، وذلك لكبريائه وعظمته سبحانه وتعالى ، لا يستطيع أحد أن يتقدم إليه بالشفاعة عنده لأحدٍ إلا بعد أن يأذن .

❁ قال الشيخ هراس :

ثم أردف ذلك بما يدل على تمام ملكه ، وهو أن الشفاعة كلها له فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه .

وقد تضمن هذا النفى والاستثناء أمرين ؛ أحدهما :إثبات الشفاعة الصحيحة ، وهى أنها تقع بإذنه سبحانه لمن يرضى قوله وعمله . والثانى :إبطال الشفاعة الشركية التى كان يعتقدها المشركين لأصنامهم وهى أنها تشفع لهم بغير إذن الله ورضاه .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

العلم هو إدراك الشىء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا ، والله عز وجل ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ المستقبل ، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الماضى ، وكلمة « مَا » من صيغ العموم تشمل كل ماض وكل مستقبل ، وتشمل أيضًا ما كان من فعله وما كان من أفعال الخلق .

وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ(١) مِنْ عِلْمِهِ(٢) إِلَّا بِمَا شَاءَ(٣) ....

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ؛ أى : علمه واطلاعه محيط بالأمور الماضية والمستقبلة ، فلا يخفى عليه منها شيء .

(١ ، ٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

الضمير فى ﴿يُحِيطُونَ﴾ يعود على الخلق الذى دل عليهم قوله : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ؛ يعنى لا يحيط من فى السماوات والأرض بشيء من علم اللّه إلا بما شاء .

يحتمل من علم ذاته وصفاته ؛ يعنى : أنا لا نعلم شيئًا عن اللّه وذاته وصفاته إلا بما شاء مما علمنا إياه ويحتمل أن (علم) هنا بمعنى معلوم ؛ يعنى : لا يحيطون بشيء من معلومه ؛ أى : ما يعلمه ؛ إلا بما شاء ، وكِلا المعنيين صحيحٌ وقد نقول : إن الثانى أعم ؛ لأن معلومه يدخل فيه علمه بذاته وبصفاته وبما سوى ذلك .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ ؛ أى : العباد لا يعلمون شيئًا من علم اللّه إلا ما علمهم اللّه إياه على ألسنة رسله ، وبطرقٍ وأسبابٍ متنوعةٍ .

✽ **قال الشيخ هراس :**

ثم ذكر سعة علمه وإحاطته وأنه لا يخفى عليه شيء من الأمور المستقبلة والماضية ، وأما الخلق فإنهم لا يحيطون بشيء من علمه ، قيل : يعنى من معلومه ، وقيل : من علم أسمائه وصفاته إلا بما شاء اللّه سبحانه أن يعلمهم إياه على السنة رسله أو بغير ذلك من طريق البحث والنظر والاستنتاج والتجربة .

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين :

يعنى إلا بما شاء مما علمهم إياه ، وقد علمنا اللّه تعالى أشياء كثيرة عن أسمائه وصفاته وعن أحكامه الكونية وأحكامه الشرعية ، ولكن هذا الكثير هو بالنسبة لمعلومه قليل ؛ كما قال اللّه تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٨٥] .

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ(١) السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ(٢) ....

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

بمعنى شمل ؛ يعنى : أن كرسيه محيط بالسماوات والأرض ، وأكبر منها ؛ لأنه لولا أنه أكبر ما وسعها .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

الكرسى ؛ قال ابن عباس رضى الله عنهما : « إنه موضع قدمى الله عز وجل »[1] ، وليس هو العرش ، بل العرش أكبر من الكرسى وقد ورد عن النبى عليه الصلاة والسلام : « أن السماوات السبع والأرضين السبع بالنسبة للكرسى كحلقة ألقيت فى فلاةٍ من الأرض ، وأن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاةِ على هذه الحلقة »[2] .

هذا يدل على عِظم هذه المخلوقات وعظم المخلوق يدل على عظم الخالق .

❊ قال الشيخ الفوزان :

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ كرسيه سبحانه ، قيل : إنه العرش ، وقيل : إنه غيره . فقد ورد أنه موضع القدمين[3] .

وهو كرسىٌ بلغ من عظمته وسعته أنه وسع السماوات والأرض .

❊ قال الشيخ هراس :

ثم ذكر ما يدل على عظيم ملكه وواسع سلطانه ، فأخبر أن كرسيه قد وسع السماوات والأرض جميعًا . والصحيح فى الكرسى أنه غير العرش وأنه موضع القدمين ، وأنه فى العرش كحلقة ملقاة فى فلاةٍ .

وأما ما أورده ابن كثير عن ابن عباس من تفسير الكرسى بالعلم فإنه لا يصح[4] ويفضى إلى التكرار فى الآية .

---

(1) صححه الألبانى فى مختصر العلو (٤٥) . (2) صححه الألبانى فى الصحيحة (١٠٩) .

(3) رواه عبد الله بن الإمام أحمد فى كتاب « السنة » (٥٨٦) ، وابن أبى شيبة فى كتاب « العرش » (٦١) ، والحاكم فى « المستدرك » (٢٨٢/٢) وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وقال الألبانى فى « مختصر العلو » (٤٥) : إسناده صحيح ؛ رجال كلهم ثقات .

(4) لأنه من رواية جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وقد قال ابن منده فى جعفر : هذا ليس بالقوى فى سعيد بن جبير ، وقال فى روايته لهذا الأثر : لم يتابع عليها ، أفاد ذلك الحافظ الذهبى من ترجمة جعفر المذكور من « الميزان » . أهـ . « إسماعيل الأنصاري » .

وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا (١) وَهُوَ الْعَلِيُّ (٢) الْعَظِيمُ (٣)﴾ [البقرة: ٢٥٥].

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

يعنى : لا يثقله ويكرثه حفظ السماوات والأرض .

وهذه من الصفات المنفية ، والصفة الثبوتية التى يدل عليها هذا النفى هى كمال القدرة والعلم والقوة والرحمة .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

﴿ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ ؛أى : لا يكرثه ، ولا يشق عليه ، ولا يثقله حفظ العالم العلوى والسفلى ؛ لكمال قدرته وقوته .

❁ **قال الشيخ هراس :**

ثم أخبر سبحانه بعد ذلك عن عظيم قدرته وكمال قوته بقوله : ﴿ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ أى : السماوات والأرض وما فيهما . وفسر الشيخ رحمه اللّه ﴿ يَئُودُهُ ﴾ : (يثقله) ويكرثه ، وهو من آده الأمر إذا ثقل عليه .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

﴿ٱلْعَلِىُّ﴾ على وزن فعيل ، وهى صفة مشبهة ؛ لأن علوه عز وجل لازم لذاته ، والفرق بين الصفة المشبهة واسم الفاعل أن اسم الفاعل طارئ حادث يمكن زواله ، والصفة المشبهة لازمة لا ينفك عنها الموصوف .

وعلو اللّه عز وجل قسمان :علو ذات ، وعلو صفات :

فأما علو الذات ؛ فإن معناه أنه فوق كل شيء بذاته ، ليس فوقه شيء ولا حذاءه شيء .

وأما علو الصفات ؛ فهى ما دل عليه قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] ؛ يعنى : أن صفاته كلها عليا ، ليس فيها نقص بوجه من الوجوه .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ ؛أى : له العلو المطلق ؛ علو الذات بكونه فوق جميع المخلوقات على العرش استوى .

وعلو القدر ، فله كل صفات الكمال ونعوت الجلال .

وعلو القهر فهو القادر على كل شيء ، المتصرف فى كل شيء ، لا يمتنع عليه شيء .

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ ؛ أيضًا صفة مشبهة ، ومعناها : ذو العظمة ، وهى القوة والكبرياء وما أشبه ذلك

....

مما هو معروف من مدلول هذه الكلمة .

وهذه الآية تتضمن من أسماء اللّٰه خمسة وهى : اللّٰه ، الحى ، القيوم ، العلى ، العظيم .

وتتضمن من صفات اللّٰه ستًّا وعشرين صفة منها خمس صفات تضمنتها هذه الأسماء .

السادسة :انفراده بالألوهية .

السابعة :انتفاء السنة والنوم فى حقه ؛ لكمال حياته وقيوميته .

الثامنة :عموم ملكه ؛ لقوله : ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ .

التاسعة :انفراد اللّٰه عز وجل بالملك ، ونأخذه من تقديم الخبر .

العاشرة :قوة السلطان وكماله ؛ لقوله : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ .

الحادية عشرة :إثبات العندية ، وهذا يدل على أنه ليس فى كل مكان ؛ ففيه الرد على الحلولية .

الثانية عشرة :إثبات الإذن من قوله : ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ .

الثالثة عشرة :عموم علم اللّٰه تعالى لقوله : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ .

الرابعة عشرة والخامسة عشرة :أنه سبحانه وتعالى لا ينسى ما مضى ؛ لقوله : ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ولا يجهل ما يستقبل ؛ لقوله ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ .

السادسة عشرة :كمال عظمة اللّٰه ؛ لعجز الخلق عن الإحاطة به .

السابعة عشرة :إثبات المشيئة ؛ لقوله : ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ .

الثامنة عشرة :إثبات الكرسى ، وهو موضع القدمين .

التاسعة عشرة والعشرون والحادية والعشرون :إثبات العظمة والقوة والقدرة ؛ لقوله : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ؛ لأن عظمة المخلوق تدل على عظمة الخالق .

الثانية والثالثة والرابعة والعشرون :كمال علمه ورحمته وحفظه ، من قوله : ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ .

الخامسة والعشرون :إثبات علو اللّٰه لقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ . ومذهب أهل السنة والجماعة أن اللّٰه سبحانه وتعالى عالٍ بذاته ، وأن علوه من الصفات الذاتية الأزلية الأبدية .

وخالف أهل السنة فى ذلك طائفتان :طائفة قالوا : إن اللّٰه بذاته فى كل مكان ! وطائفة قالوا : إن اللّٰه ليس فوق العالم ولا تحت العالم ولا فى العالم ولا يمين ولا شمال ولا منفصل عن

....

العالم ولا متصل .

والذين قالوا بأنه فى كل مكان استدلوا بقول الله تعالى : ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة : ٧] ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد : ٤] ، وعلى هذا ؛ فليس عاليًا بذاته ، بل العلو عندهم علو صفة .

أما الذين قالوا : إنه لا يوصف بجهة ؛ فقالوا : لأننا لو وصفناه بذلك ؛ لكان جسمًا ، والأجسام متماثلة ، وهذا يستلزم التمثيل وعلى هذا ؛ فننكر أن يكون فى أى جهة .

ولكننا نرد على هؤلاء وهؤلاء من وجهين :

الوجه الأول : إبطال احتجاجهم .

والثاني : إثبات نقيض قولهم بالأدلة القاطعة .

١ - أما الأول ؛ فنقول لمن زعموا أن الله بذاته فى كل مكان : دعواكم هذه دعوى باطلةٌ يردها السمع والعقل :

- أما السمع ؛ فإن الله تعالى أثبت لنفسه أنه العَلِيُّ والآية التى استدللتم بها لا تدل على ذلك ؛ لأن المعية لا تستلزم الحلول فى المكان ، ألا ترى إلى قول العرب : القمر معنا ؛ ومحله فى السماء؟ ويقول الرجل : زوجتى معى ؛ وهو فى المشرق وهى فى المغرب؟ ويقول الضابط للجنود : اذهبوا إلى المعركة وأنا معكم ؛ وهو فى غرفة القيادة وهم فى ساحة القتال ؟ فلا يلزم من المعية أن يكون الصاحب فى مكان المصاحب أبدًا ، والمعية يتحدد معناها بحسب ما تضاف إليه ؛ فنقول أحيانًا : هذا لبن معه ماء . وهذه المعية اقتضت الاختلاط . ويقول الرجل : متاعى معى . وهو فى بيته غير متصل به ، ويقول : إذا حمل متاعه معه : متاعى معى . وهو متصل به . فهذه كلمة واحدة لكن يختلف معناها بحسب الإضافة ؛ فبهذا نقول : معية الله عز وجل لخلقه تليق بجلاله سبحانه وتعالى ؛ كسائر صفاته ؛ فهى معية تامّة حقيقية ، لكن هو فى السماء .

- وأما الدليل العقلى على بطلان قولهم ؛ فنقول : إذا قلت : إن الله معك فى كل مكان ؛ فهذا يلزم عليه لوازم باطلة ؛ فيلزم عليه :

....

أولًا : إما التعدد أو التجزؤ ، وهذا لازم باطل بلا شك ، وبطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم .

ثانيًا : نقول : إذا قلت : إنه معك فى الأمكنة ؛ لزم أن يزداد بزيادة الناس ، وينقص بنقص الناس .

ثالثًا : يلزم على ذلك ألا تنزهه عن المواضع القذرة ؛ فإذا قلت : إن اللّٰه معك وأنت فى الخلاء ؛ فيكون هذا أعظم قدح فى اللّٰه عز وجل .

فتبين بهذا أن قولهم مناف للسمع ومناف للعقل ، وأن القرآن لا يدل عليه بأى وجه من الدلالات ؛ لا دلالة مطابقة ولا تضمن ولا التزام أبدًا .

٢ - أما الآخرون ؛ فنقول لهم :

أولًا : إن نفيكم للجهة يستلزم نفى الرب عز وجل ؛ إذ لا نعلم شيئًا لا يكون فوق العالم ولا تحته ولا يمين ولا شمال ، ولا متصل ولا منفصل ؛ إلا العدم ، ولهذا قال بعض العلماء : لو قيل لنا صفوا اللّٰه بالعدم ؛ ما وجدنا أصدق وصفًا للعدم من هذا الوصف .

ثانيًا : قولكم : إثبات الجهة يستلزم التجسيم ! نحن نناقشكم فى كلمة الجسم :

ما هذا الجسم الذى تنفِّرون الناس عن إثبات صفات اللّٰه من أجله ؟ !

أتريدون بالجسم الشىء المكون من أشياء مفتقر بعضها إلى بعض لا يمكن أن يقوم إلَّا باجتماع هذه الأجزاء ؟ ! فإن أردتم هذا ؛ فنحن لا نقره ، ونقول : إن اللّٰه ليس بجسم بهذا المعنى . ومن قال : إن إثبات علوه يستلزم هذا الجسم ؛ فقوله مجرد دعوى ويكفينا أن نقول : لا قبول .

أما إن أردتم بالجسم الذات القائمة بنفسها المتصفة بما يليق بها ؛ فنحن نثبت ذلك ، ونقول : إن للّٰه تعالى ذاتًا ، وهو قائم بنفسه ، متصف بصفات الكمال ، وهذا هو الذى يعلم به كل إنسان .

وبهذا يتبين بطلان قول هؤلاء الذين أثبتوا أن اللّٰه بذاته فى كل مكان ، أو أن اللّٰه تعالى ليس فوق العالم ولا تحته ولا متصل ولا منفصل ونقول : هو على عرشه استوى عز وجل .

أما أدلة العلو التى يثبت بها نقيض قول هؤلاء وهؤلاء ، والتى تثبت ما قاله أهل السنة والجماعة ؛ فهى أدلة كثيرة لا تحصر أفرادها ، وأما أنواعها ؛ فهى خمسة : الكتاب ، والسنة ،

....

والإجماع، والعقل، والفطرة.

- أما الكتاب فتنوعت أدلته على علو الله عز وجل منها التصريح بالعلو والفوقية وصعود الأشياء إليه ونزولها منه وما أشبه ذلك.

- أما السُّنة فكذلك؛ فتنوعت دلالتها، واتفقت السنة بأصنافها الثلاثة على علو الله بذاته؛ فقد ثبت علو الله بذاته فى السنة من قول الرسول ﷺ وفعله وإقراره.

- أما الإجماع فقد أجمع المسلمون قبل ظهور هذه الطوائف المبتدعة على أن الله تعالى مستوٍ على عرشه فوق خلقه.

قال شيخ الإسلام: «ليس فى كلام الله ولا رسوله ولا كلام الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ما يدل لا نصًا ولا ظاهرًا على أن الله تعالى ليس فوق العرش وليس فى السماء، بل كل كلامهم متفق على أن الله فوق كل شيء».

- وأما العقل فإننا نقول: كلٌّ يعلم أن العلو صفة كمال، وإذا كان صفة كمال؛ فإنه يجب أن يكون ثابتًا لله؛ لأن الله متصف بصفات الكمال، ولذلك نقول: إما أن يكون الله فى أعلى أو فى أسفل أو فى المحاذى؛ فالأسفل والمحاذى ممتنع؛ لأن الأسفل نقص فى معناه، والمحاذى نقص لمشابهة المخلوق ومماثلته، فلم يبق إلا العلو، وهذا وجه آخر فى الدليل العقلى.

- وأما الفطرة فإننا نقول: ما من إنسان يقول: يا رب! إلا وجد فى قلبه ضرورة بطلب العلوّ.

فتطابقت الأدلة الخمسة.

وأما علو الصفات فهو محل إجماع من كل من يدين أو يتسمى بالإسلام.

السادسة والعشرون: إثبات العظمة لله عز وجل؛ لقوله: ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾.

❁ قال الشيخ الفوزان:

﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ الذى له جميع صفات العظمة، وله التعظيم الكامل فى قلوب أنبيائه وملائكته وعباده المؤمنين.

فحقيق بآيةٍ تحتوى على هذه المعانى أن تكون أعظم آيةٍ فى القرآن، وأن تحفظ قارئها من الشُّرور والشياطين.

والشاهد منها أن الله جمع فيها فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات، فقد

....

تضمنت إثبات صفات الكمال، ونفى النقص عن الله.

ففى قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نفى الإلهية عما سواه، وإثباتها له.

وفى قوله: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ إثبات الحياة والقيومية له.

وفى قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ نفى السِّنة والنوم عنه.

وفى قوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إثبات ملكيته الكاملة للعالمين العلوى والسفلى.

وفى قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ نفى الشفاعة عنده بغير إذنه لكمال عظمته، وغناه عن خلقه.

وفى قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ إثبات كمال علمه بكل شىء، ماضيًا أو مستقبلًا.

وفى قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ بيان حاجة الخلق إليه، وإثبات غناه عنهم.

وفى قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إثبات كرسيه، وإثبات كمال عظمته، وجلالته، وصغر المخلوقات بالنسبة إليه.

وفى قوله: ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾ نفى العجز والتعب عنه سبحانه.

وفى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ إثبات العلو والعظمة له سبحانه.

✽ قال الشيخ هراس:

ثم وصف نفسه سبحانه فى ختام تلك الآية الكريمة، بهذين الوصفين الجليلين، وهما (العلى والعظيم).

فالعلى هو الذى له العلو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات: وكونه فوق جميع المخلوقات مستويًا على عرشه.

وعلو القدر: إذ كان له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أعلاها وغايتها.

وعلو القهر: إذ كان هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير، وأما العظيم: فمعناه الموصوف بالعظمة الذى لا شىء أعظم منه، ولا أجل ولا أكبر، وله سبحانه التعظيم الكامل فى قلوب أنبيائه وملائكته وأصفيائه.

ولهذا كان مَن قرَأ هذه الآيةَ في ليلةٍ لم يَزَلْ عليه من اللَّهِ حافظٌ ، ولا يَقْرَبُه شيطانٌ حتى يُصْبحَ(١).

٢- الجمعُ بينَ عُلُوِّه وقربِه وأَزَلِيَّتِه وأَبَدِيَّتِه :

وقولِه سبحانَه(٢): ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ(٣) ....

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هذا طرف من حديث رواه البخارى عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه فى قصة استحفاظ النبى ﷺ إياه على الصدقة ، وأخذ الشيطان منها ، وقوله لأبى هريرة : « إذا أويت إلى فراشك ؛ فاقرأ آية الكرسى : ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة : ٢٥٥] حتى تختم الآية ؛ فإنك لن يزال عليك من اللَّه حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح » فأخبر أبو هريرة النبى ﷺ بذلك ، فقال : « إنه صدقك ، وهو كذوب »[1].

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

وقول المصنف رحمه اللَّه : ولهذا كان من قرأ هذه الآية فى ليلةٍ لم يزل عليه من اللَّه حافظ ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح . يشير إلى ما رواه البخارى فى « صحيحه » ، عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه ، وفيه : « إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ حتى تختم الآية ؛ فإنك لن يزال عليك من اللَّه حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح »[2] الحديث .

والشيطان يطلق على كل متمردٍ عاتٍ ، من الجن والإنس ، من (شطن) إذا بعد ، سمى بذلك لبعده من رحمة اللَّه ، أو من شاط يشيط ، إذا اشتد .

(٢ ، ٣) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هذا معطوف على (سورة) فى قول المؤلف : « ما وصف به نفسه فى سورة الإخلاص » .

﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ : هذه أربعة أسماء كلها متقابلة فى الزمان والمكان ، تفيد إحاطة اللَّه سبحانه وتعالى بكل شىء أولًا وآخرًا وكذلك فى المكان ففيه الإحاطة الزمانية والإحاطة المكانية .

﴿الْأَوَّلُ﴾ : فسره النبى عليه الصلاة والسلام بقوله : « الذى ليس قبله شىء »[3].

---

(1) علقه البخارى (٣٢٧٥) .

(2) ذكره البخارى (٢٣١١، ٣٢٧٥، ٥٠١٠) معلقًا بصيغة الجزم .

(3) أخرجه مسلم (٢٧١٣) .

....

وهنا فسر الإثبات بالنفى فجعل هذه الصفة الثبوتية صفة سلبية ، وقد ذكرنا فيما سبق أن الصفات الثبوتية أكمل وأكثر ؛ فلماذا ؟

فنقول : فسرها النبى ﷺ بذلك ؛ لتوكيد الأولية ؛ يعنى أنها مطلقة ، أولية ليست أولية إضافية ، فيقال : هذا أول باعتبار ما بعده وفيه شيء آخر قبله ؛ فصار تفسيرها بأمر سلبى أدل على العموم باعتبار التقدم الزمنى .

﴿وَالْآخِرُ﴾ : فسره النبى عليه الصلاة والسلام بقوله : « الذى ليس بعده شيء » ، ولا يتوهم أن هذا يدل على غاية لآخريته ، لأن هناك أشياء أبدية وهى من المخلوقات ، كالجنة والنار ، وعليه فيكون معنى « الآخِرُ » أنه محيط بكل شيء ، فلا نهاية لآخريته .

﴿وَالظَّاهِرُ﴾ : من الظهور وهو العلو ؛ كما قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة : ٣٣] ؛ أى : ليعليه ، ومنه ظهر الدابة لأنه عال عليها ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف : ٩٧] ؛ أى يعلوا عليه ؛ وقال النبى عليه الصلاة والسلام فى تفسيرها : « الذى ليس فوقه شيء » ؛ فهو عال على كل شيء .

﴿وَالْبَاطِنُ﴾ : فسره النبى عليه الصلاة والسلام قال : « الذى ليس دونه شيء » . وهذا كناية عن إحاطته بكل شيء ، ولكن المعنى أنه مع علوه عز وجل ؛ فهو باطن ؛ فعلوه لا ينافى قربه عز وجل ؛ فالباطن قريب من معنى القريب .

تأمل هذه الأسماء الأربعة ؛ تجد أنها متقابلة ، وكلها خبر عن مبتدأ واحد لكن بواسطة حرف العطف والأخبار بواسطة حرف العطف أقوى من الأخبار بدون واسطة حرف العطف ؛ فمثلًا : ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج : ١٤- ١٦] : هى أخبار متعددة بدون حرف العطف لكن أحيانًا تأتى أسماء اللّٰه وصفاته مقترنة بواو العطف وفائدتها :

أولًا : توكيد السابق ؛ لأنك إذا عطفت عليه ؛ جعلته أصلًا ؛ والأصل ثابت .

ثانيًا : إفادة الجمع ولا يستلزم ذلك تعدد الموصوف ، أرأيت قوله تعالى : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى : ١- ٣] ، فالأعلى الذى خلق فسوى هو الذى قدر فهدى .

فإذا قلت : المعروف أن العطف يقتضى المغايرة .

....

فالجواب :نعم ؛ لكن المغايرة تارة تكون بالأعيان ، وتارة تكون بالأوصاف ، وهذا تغاير أوصاف ، على أن التغاير قد يكون لفظيًا غير معنوى مثل قول الشاعر :

* فَـألـفـى قَـوْلَـهـا كَـذبًـا ومـينا *

فَالمَيْن هو الكذب ومع ذلك عطفه عليه ؛ لتغاير اللفظ والمعنى واحد ؛ فالتغاير إما عينى أو معنوى أو لفظى ، فلو قلت : جاء زيد وعمرو وبكر وخالد . فالتغاير عينى ، ولو قلت : جاء زيد الكريم والشجاع والعالم . فالتغاير معنوى ، ولو قلت : هذا الحديث كذب ومين . فالتغاير لفظى .

واستفدنا من هذه الآية الكريمة :إثبات أربعة أسماء لله ، وهى الأول والآخر والظاهر والباطن .

واستفدنا منها خمس صفات :الأولية ، والآخرية ، والظاهرية ، والباطنية وعموم العلم .

واستفدنا من مجموع الأسماء :إحاطة الله تعالى بكل شىء زمنًا ومكانًا ؛ لأنه قد يحصل من اجتماع الأوصاف زيادة صفة .

فإذا قال قائل :هل هذه الأسماء متلازمة ؛ بمعنى أنك إذا قلت : الأول ؛ فلابد أن تقول : الآخر ، أو : يجوز فصل بعضها عن بعض ؟ !

فالظاهر أن المتقابل منها متلازم ؛ فإذا قلت : الأول ؛ فقل : الآخر ، وإذا قلت : الظاهر ؛ فقل : الباطن ؛ لئلا تفوّت صفة المقابلة الدالة على الإحاطة .

✿ قال الشيخ الفوزان :

قوله : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾الآية ، هذه الآية الكريمة قد فسرها النبى ﷺ فى الحديث الذى رواه مسلم ، أنه ﷺ قال : « اللهم أنت الأول ، فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر ، فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء » [1].

فقد فسر النبى ﷺ هذه الأسماء الأربعة بهذا التفسير المختصر الواضح ، وفى هذه الأسماء المباركة إحاطته سبحانه من كل وجهٍ .

ففى اسمه « الأول » ، و« الآخر » إحاطته الزمانية .

---

(1)رواه مسلم (٢٠٨٤/٤) (٢٧١٣) .

....

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

وفى اسمه « الظاهر » ، و« الباطن » إحاطته المكانية .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : فهذه الأسماء الأربعة متقابلة ؛ اسمان لأزليته وأبديته سبحانه ، واسمان لعلوه وقُرْبه .

فأوليته سبحانه سابقة على أولية كل ما سواه ، وآخريته سبحانه ثابتة بعد آخرية كل ما سواه ، فأوليته سَبْقُه لكل شيءٍ ، وآخريته بقاؤه بعد كل شيءٍ .

وظاهريته فوقيته وعلوه على كل شيءٍ ، ومعنى الظهور يقتضى العلو ، وظاهر الشىء ما علا منه .

وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيءٍ ، بحيث يكون أقرب إليه من نفسه ، وهذا قرب الإحاطة العامة . أهـ

✽ **قال الشيخ هراس :**

قوله : (هو الأول) الجملة هنا جاءت معرفة الطرفين ، فهى تفيد اختصاصه سبحانه بهذه الأسماء الأربعة ومعانيها على ما يليق بجلاله وعظمته ، فلا يثبت لغيره من ذلك شىء .

وقد اضطربت عبارات المتكلمين فى تفسير هذه الأسماء ، ولا داعى لهذه التفسيرات بعدما ورد تفسيرها عن المعصوم صلوات الله وسلامه عليه ، فقد روى مسلم فى « صحيحه » عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه كان يقول : إذا أوى إلى فراشه : « اللهم رب السماوات السبع ورب الأرض رب كل شىء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوارة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل ذى شر أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء ، اقض عنى الدين واغننى من الفقر » .

فهذا تفسير واضح جامع يدل على كمال عظمته سبحانه وأنه محيط بالأشياء من كل وجه ، (فالأول والآخر) بيان لإحاطته الزمانية .

(والظاهر والباطن) بيان لإحاطته المكانية ، كما أن اسمه الظاهر يدل على أنه العالى فوق جميع خلقه ، فلا شىء منها فوقه .

فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة ، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر ،

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن ، فاسمه الأول دال على قدمه وأزليته ، واسمه الآخر دال على بقائه وأبديته ، واسمه الظاهر دال على علوه وعظمته ، واسمه الباطن دال على قربه ومعيته ، ثم ختمت الآية بما يفيد إحاطة علمه بكل شيء من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة ، ومن العلوم العلوى والسفلى ، ومن الواجبات والجائزات والمستحيلات فلا يغيب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . فالآية كلها شأن إحاطة الرب سبحانه بجميع خلقه من كل وجه ، وأن العوالم كلها فى قبضة يده كخردلة فى يد العبد لا يفوته منها شيء ، وإنما أتى بين هذه الصفات بالواو مع أنها جارية على موصوف واحد لزيادة التقرير والتأكيد ؛ لأن الواو تقتضى تحقيق الوصف المتقدم وتقريره وحسن ذلك لمجيئها بين أوصاف متقابلة قد يسبق إلى الوهم استبعاد الاتصال بها جميعًا ، فإن الأولية تنافى الآخرية فى الظاهر ، وكذلك الظاهرية والباطنية ، فاندفع توهم الإنكار التأكيد .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هذا إكمال لما سبق من الصفات الأربع ؛ يعنى : ومع ذلك ؛ فهو بكل شيء عليم .

وهذه من صيغ العموم التى لم يدخلها تخصيص أبدًا ، وهذا العموم يشمل أفعاله وأفعال العباد الكليات والجزئيات ؛ يعلم ما يقع وما سيقع ويشمل الواجب والممكن والمستحيل ؛ فعلم الله تعالى واسع شاملٌ محيط لا يستثنى منه شيء ؛ فأما علمه بالواجب ؛ فكعلمه بنفسه وبما له من الصفات الكاملة ، وأما علمه بالمستحيل ؛ فمثل قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء : ٢٢] ، وقوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج : ٧٣] . وأما علمه بالممكن ؛ فكل ما أخبر الله به عن المخلوقات ؛ فهو من الممكن : ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل : ١٩] .

إذن ؛ فعلم الله تعالى محيط بكل شيء .

والثمرة التى ينتجها الإيمان بأن الله بكل شيء عليم : كمال مراقبة الله عز وجل وخشيته ؛ بحيث لا يفقده حيث أمره ، ولا يراه حيث نهاه .

✻ **قال الشيخ الفوزان :**

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ؛ أى : قد أحاط علمه بكل شيء من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة ، ومن العالم العلوى والسفلى ، ومن الظواهر والبواطن ، لا يعزب عن علمه

وقوله سبحانه : ﴿ وَتَوَكَّلْ[(١)] ....

مثقال ذرةٍ في الأرض، ولا في السماء.

والشاهد من الآية الكريمة : إثبات هذه الأسماء الكريمة لله المقتضية لإحاطته بكل شيء زمانًا، ومكانًا، واطلاعًا، وتقديرًا، وتدبيرًا، تعالى وتقدس علوًّا كبيرًا.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

التوكل : مأخوذ من وَكَلَ الشيء إلى غيره ؛ أي : فوضه إليه ؛ فالتوكل على الغير ؛ بمعنى : التفويض إليه.

وعرف بعض العلماء التوكل على الله بأنه : صدق الاعتماد على الله في جلبِ المنافع ودفع المضار، مع الثقة به سبحانه وتعالى، وفعل الأسباب الصحيحة.

وصدق الاعتماد : أن تعتمد على الله اعتمادًا صادقًا ؛ بحيث لا تسأل إلا الله، ولا تستعين إلا بالله، ولا ترجو إلا الله، ولا تخاف إلا الله ؛ تعتمد على الله عز وجل بجلب المنافع ودفع المضار، ولا يكفي هذا الاعتماد دون الثقة به وفعل السبب الذي أذن به ؛ بحيث إنك واثق بدون تردد مع فعل السبب الذي أذن فيه.

فمن لم يعتمد على الله واعتمد على قوته ؛ فإنه يخذل ؛ ودليل ذلك ما وقع للصحابة مع نبيهم محمد ﷺ في غزوة حنين ؛ حين قال الله عز وجل : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ ؛ حيث قالوا : لن نغلب اليوم من قلة ؛ ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة : ٢٥، ٢٦].

ومن توكل على الله، ولكن لم يفعل السبب الذي أذن الله فيه ؛ فهو غير صادق، بل إن عدم فعل الأسباب سَفَهٌ في العقل ونقص في الدين ؛ لأنه طعن واضح في حكمة الله.

والتوكل على الله هو شطر الدين ؛ كما قال تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة : ٥]، والاستعانة بالله تعالى هي ثمرة التوكل ؛ ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود : ١٢٣].

ولهذا ؛ فإن من توكل على غير الله لا يخلو من ثلاثة أقسام :

أولًا : أن يتوكل توكل اعتماد وتعبُّد ؛ فهذا شرك أكبر ؛ كأن يعتقد بأن هذا المتوكل عليه هو الذي يجلب له كل خير ويدفع عنه كل شر، فيفوض أمره إليه تفويضًا كاملًا في جلب المنافع

عَلَى الْحَىِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ﴾(١) [الفرقان : ٥٨] .

ودفع المضار ، مع اقتران ذلك بالخشية والرجاء ، ولا فرق بين أن يكون المتوكل عليه حيًّا أو ميتًا ؛ لأن هذا التفويض لا يصح إلا للَّه .

ثانيًا : أن يتوكل على غير اللَّه بشىء من الاعتماد لكن فيه إيمان بأنه سبب وأن الأمر إلى اللَّه ؛ كتوكل كثير من الناس على الملوك والأمراء فى تحصيل معاشهم ؛ فهذا نوع من الشرك الأصغر .

ثالثًا : أن يتوكل على شخص على أنه نائب عنه ، وأن هذا المتوكل فوقه ؛ كتوكل الإنسان على الوكيل فى بيع وشراء ونحوهما مما تدخله النيابة ؛ فهذا جائز ، ولا ينافى التوكل على اللَّه ، وقد وكل النبى ﷺ أصحابه فى البيع والشراء ونحوهما .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قوله : وقوله : ﴿عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ : يقولون : إن الحكم إذا علق بوصف ؛ دل على علية ذلك الوصف .

لو قال قائل : لماذا لم تكن الآية : وتوكل على القوى العزيز ؛ لأن القوة والعزم أنسب فيما يبدو ؟ !

فالجواب : أنه لما كانت الأصنام التى يعتمد عليها هؤلاء بمنزلة الأموات : كما قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل : ٢٠، ٢١] ؛ فقال توكل على من ليس صفته كصفة هذه الأصنام وهو الحى الذى لا يموت ، على أنه قال فى آية أخرى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء : ٢١٧] ؛ لأن العزة أنسب فى هذا السياق .

ووجه آخر : أن الحى اسم يتضمن جميع الصفات الكاملة فى الحياة ، ومن كمال حياته عز وجل أنه أهل لأن يعتمد عليه .

وقوله : ﴿لَا يَمُوتُ﴾ ؛ يعنى لكمال حياته لا يموت فيكون تعلقها بما قبلها ، المقصود به إفادة أن هذه الحياة كاملة لا يلحقها فناء .

فى هذه الآية من أسماء اللَّه : الحى ، وفيها من صفاته : الحياة ، وانتفاء الموت المتضمن لكمال الحياة ؛ ففيها صفتان واسم .

٣- إحاطةُ علمِه بجميعِ مخلوقاتِه :

وقولِه : ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ[(١)] ٱلْحَكِيمُ﴾[(٢)] ، ....

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

سبق تعريف العلم ، وسبق أن العلم صفة كمال وسبق أن علم اللَّه محيط بكل شيء .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ أبدًا ؛ أى : فوض أمورك إليه ، فالتوكل لغةً : التفويض ، يقال : وكلت أمرى إلى فلانٍ . أى : فوضته .

ومعناه شرعًا : اعتماد القلب على اللَّه فى جلب ما ينفع ، ودفع ما يضر .

والتوكل على اللَّه نوع من أنواع العبادة ، وهو واجب ، ولا ينافى الأخذ بالأسباب ، بل يتفق معه تمامًا .

وخص صفة الحياة إشارةً إلى أن الحى هو الذى يوثق به فى تحصيل المصالح ، ولا حياة على الدوام إلا للَّه سبحانه ، وأما الأحياء المنقطعة حياتهم فإنهم إذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم .

والشاهد من الآية الكريمة : أن فيها إثبات الحياة الكاملة للَّه سبحانه ، ونفى الموت عنه ، ففيها الجمع بين النفى والإثبات فى صفات اللَّه تعالى .

❁ **قال الشيخ هراس :**

قوله : (وتوكل ... إلخ) : هذه الجملة من الآيات ساقها المؤلف لإثبات بعض الأسماء والصفات ، فالآية الأولى فيها إثبات اسمه الحى ، كما تضمنت سلب الموت الذى هو ضد الحياة عنه ، وقد قدمنا أنه سبحانه حى بحياة هى صفة له لازمة لذاته فلا يعرض لها موت ولا زوال أصلًا ، وأن حياته أكمل حياة وأتمها فيستلزم ثبوتها له ثبوت كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة .

وأما الآيات الباقية ففيها إثبات صفة العلم وما اشتق منها ككونه عليمًا ويعلم وأحاط بكل شيء علمًا إلخ .

والعلم صفة للَّه عزَّ وجلَّ بها يدرك جميع المعلومات على ما هى به فلا يخفى عليه منها شيء كما قدمنا .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ : هذه المادة (ح ك م) : تدل على حكم وإحكام ؛ فعلى الأول يكون الحكيم بمعنى الحاكم ، وعلى الثانى يكون الحكيم بمعنى المحكم ؛ إذن : يدل هذا الاسم الكريم على أن

....

الحكم لله، ويدل على أن الله موصوف بالحكمة؛ لأن الإحكام هو الإتقان، والإتقان وضع الشيء في موضعه. ففي الآية إثبات حكم وإثبات حكمة:

فالله عز وجل وحده هو الحاكم، وحكم الله إما كوني وإما شرعي:

فحكم الله الشرعي: ما جاءت به رسله ونزلت به كتبه من شرائع الدين.

وحكم الله الكوني: ما قضاه على عباده من الخلق والرزق والحياة والموت ونحو ذلك من معاني ربوبيته ومقتضياتها.

دليل الحكم الشرعي: قوله تعالى في سورة «الممتحنة»: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠].

ودليل الحكم الكوني: قوله تعالى عن أحد إخوة يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠].

وأما قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨]؛ فشامل للكوني والشرعي، فالله عز وجل حكيم بالحكم الكوني وبالحكم الشرعي، وهو أيضًا محكم لهما، فكل من الحكمين موافق للحكمة.

لكن من الحكمة ما نعلمه، ومن الحكمة ما لا نعلمه؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ثم الحكمة نوعان:

الأولى: حكمة في كون الشيء على كيفيته وحاله التي هو عليها؛ كحال الصلاة؛ فهي عبادة كبيرة تسبق بطهارة من الحدث والخبث وتؤدى على هيئة معينة من قيام وقعود وركوع وسجود، وكالزكاة؛ فهي عبادة لله تعالى بأداء جزء من المال النامي غالبًا لمن هم في حاجة إليها؛ أو في المسلمين حاجة إليهم كبعض المؤلفة قلوبهم.

الثانية: حكمة في الغاية من الحكم؛ حيث إن جميع أحكام الله تعالى لها غايات حميدة وثمرات جليلة.

فانظر إلى حكمة الله في حكمه الكوني؛ حيث يصيبُ الناس بالمصائب العظيمة لغاياتٍ حميدة؛ كقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، ففيها ردٌّ لقول من يقول: إن أحكام الله تعالى ليست

وقوله : ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ(١) الخَبِيرُ(٢)﴾ [التحريم : ٣] .

لحكمة ، بل هى لمجرد مشيئته .

وفى هذه الآية من أسماء الله : العليم ، والحكيم . ومن صفاته : العلم والحكمة .

وفيها من الفوائد المسلكية : أن الإيمان بعلم الله وحكمته يستلزم الطمأنينة التامة لما حكم به من أحكام كونية وشرعية ؛ لصدور ذلك عن علم وحكمة ، فيزول عنه القلق النفسى وينشرح صدره .

* قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ له معنيان ؛ أحدهما : أنه الحاكم بين خلقه بأمره الكونى ، وأمره الشرعى فى الدنيا والآخرة .

والثانى : أنه المحكم المتقن للأشياء ، مأخوذ من الحكمة ، وهى وضع الأشياء فى مواضعها ، فهو سبحانه الحاكم بين عباده ، الذى له الحكمة فى خلقه وأمره ، لم يخلق شيئًا عبثًا ، ولم يشرع إلا ما هو عين المصلحة .

* قال الشيخ هراس :

وفيها إثبات اسمه « الحكيم » ، وهو مأخوذ من الحكمة ، ومعناه : الذى لا يقول ولا يفعل إلا الصواب ، فلا يقع منه عبث ولا باطل ، بل كل ما يخلقه أو يأمر به فهو تابع لحكمته .

وقيل : هو من فعيل بمعنى مفعل ، ومعناه المحكم للأشياء من الإحكام وهو الإتقان ، فلا يقع فى خلقه تفاوت ولا فطور ، ولا يقع فى تدبيره خلل أو اضطراب .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

العليم : سبق الكلام فيه .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

الخبير : هو العليم ببواطن الأمور فيكون هذا وصفًا أخص بعد وصف أعم ؛ فنقول : العليم بظواهر الأمور ، والخبير ببواطن الأمور ، فيكون العلم بالبواطن مذكورًا مرتين : مرة بطريق العموم ، ومرة بطريق الخصوص ؛ لئلا يظن أن علمه مختص بالظواهر .

وكما يكون هذا فى المعانى يكون فى الأعيان ؛ فمثلًا : ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر : ٤] : الروح جبريل ، وهو من الملائكة فنقول : الملائكة ومنهم جبريل ، وخص جبريل

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾(١) [سبأ : ٢]

بالذكر تشريفًا له ويكون النص عليه مرتين : مرة بالعموم ، ومرة بالخصوص .

وفى هذه الآية من أسماء الله تعالى : العليم ، والخبير ومن صفاته : العلم ، والخبرة .

وفيها من الفوائد المسلكية : أن الإيمان بذلك يزيد المرء خوفًا من الله وخشية ؛ سرًّا وعلنًا .

✽ قال الشيخ الفوزان :

﴿الْخَبِيرُ﴾ من الخبرة ، وهى الإحاطة ببواطن الأشياء وظواهرها ، يقال : خبرت الشىء . إذا عرفته على حقيقته ، فهو سبحانه الخبير ؛ أى : الذى أحاط ببواطن الأشياء وخفاياها ، كما أحاط بظواهرها .

والشاهد من الآية : أن فيها إثبات اسمين من أسمائه سبحانه : الحكيم ، الخبير ، وهما يتضمنان صفتين من صفاته ، وهما الحكمة والخبرة .

✽ قال الشيخ هراس :

وفيها كذلك إثبات اسمه الخبير ، وهو من الخبرة بمعنى كمال العلم ووثوقه والإحاطة بالأشياء على وجه التفصيل ووصول علمه إلى كل ما خفى ودق من الحسّيات والمعنويات .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :** هذه الآيات فى تفصيل صفة العلم :

الآية الأولى : قوله : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ : ٢] .

هذه تفصيل لما سبق من عموم علمه تعالى .

﴿مَا﴾ : اسم موصول يفيد العموم ؛ كل ما يلج فى الأرض مثل المطر والحب يبذر فى الأرض والدود والنمل وغيرها ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالماء والزروع .. وما أشبه ذلك ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ ؛ مثل المطر والوحى والملائكة وأمر الله عز وجل ، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ ؛ كالأعمال الصالحة والملائكة والأرواح والدعاء .

وهنا قال : (وما يخرج فيها) ؛ فعدّى الفعل بـ : (في) وفى سورة « المعارج » قال : ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج : ٤] ؛ فعداه بـ : (إلى) ، وهذا هو الأصل ؛ فما وجه كونه عدى بـ (في) فى قوله : ﴿يَعْرُجُ فِيهَا﴾ ؟ .

فالجواب : اختلف نحاة البصرة والكوفة فى مثل هذا ، فقال نحاة البصرة : إن الفعل يضمن

....

معنى يتلائم مع الحرف . وقال نحاة الكوفة : بل الحرف يضمن معنى يتلائم مع الفعل .

فعلى الرأى الأول : يكون قوله : ﴿يَعْرُجُ فِيهَا﴾ : مضمنًا معنى (يدخل) ، فيصير المعنى : وما يعرج فيدخل فيها ، وعليه يكون فى الآية دلالة على أمرين : على عروج ودخول .

أما على الرأى الثاني ؛ فنقول : (في) بمعنى (إلى) ويكون هذا من باب التناوب بين الحروف .

لكن على هذا القول لا تجد أن فى الآية معنىً جديدًا وليس فيها إلا اختلاف لفظ (إلى) لفظ (في) ولهذا كان القول الأول أصح وهو أن تضمن الفعل معنى يتناسب مع الحرف .

ولهذا نظير فى اللغة العربية ؛ قال اللّٰه تعالى : ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان : ٦] ، والعين يُشرب منها والذى يشرب به الإناء ، فعلى رأى أهل الكوفة نقول : ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ الباء بمعنى (من) ؛ أى : منها ، وعلى رأى أهل البصرة يُضمن الفعل ﴿يَشْرَبُ﴾ معنى يتلائم مع حرف الباء والذى يتلائم معها يُروى ، ومعلوم أنه لا رى إلا بعد شرب ، فيكون هذا الفعل ضمن معنى غايته وهو الرِّى .

وكذلك نقول فى ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ : لا دخول فى السماء إلا بعد العروج إليها ، فيكون الفعل ضمن معنى الغاية .

ففى الآية ذكر اللّٰه عز وجل عموم علمه فى كل شىء بنوع من التفصيل ، ثم فصل فى آية أخرى تفصيلًا آخر :

❁ قال الشيخ الفوزان :

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ؛ أى : ما يدخل فيها من القطر ، والبذور ، والكنوز ، والموتى وغير ذلك .

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ ؛ أى : من الأرض من النبات والمعادن وغير ذلك .

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ؛ أى : من المطر والملائكة وغير ذلك .

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ ؛ أى : يصعد فى السماء من ملائكةٍ ، وأعمالٍ ، وغير ذلك .

والشاهد من الآية الكريمة : أن فيها إثبات علم اللّٰه سبحانه المحيط بكل شىء .

❁ قال الشيخ هراس :

وقد ذكر سبحانه فى هذه الآيات بعض ما يتعلق به علمه للدلالة على شموله وإحاطته بما لا تبلغه علوم خلقه ، فذكر أنه يعلم ما يلج أى يدخل فى الأرض من حب وبذور ومياه وحشرات

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ[1] لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا

ومعادن، وما يخرج منها من زرع وأشجار وعيون جارية ومعادن نافعة، كذلك وما ينزل من السماء، من ثلوج وأمطار وصواعق وملائكة، وما يعرج، أي: يصعد فيها كذلك من ملائكة وأعمال وطير صواف إلى غير ذلك مما يعلمه جل شأنه.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

الآية الثانية: قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿عِندَهُۥ﴾: أي: عند الله وهو خبر مقدم ﴿مَفَاتِحُ﴾: مبتدأ مؤخر.

ويفيد هذا التركيب الحصر والاختصاص؛ عنده لا عند غيره مفاتح الغيب وأكد هذا الحصر بقوله: ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾؛ ففى الجملة حصر بأن علم هذه المفاتح عند الله بطريقتين: إحداهما: بطريقة التقديم والتأخير. والثانية: طريقة النفى والإثبات.

كلمة ﴿مَفَاتِحُ﴾؛ قيل: إنها جمع مفتح؛ بكسر الميم وفتح التاء: المفتاح؛ أو أنها جمع مفتاح لكن حذفت منها الياء وهو قليل، ونحن نعرف أن المفتاح ما يفتح به الباب. وقيل: جمع مفتح؛ بفتح الميم وكسر التاء وهو الخزائن؛ ف: ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ خزائنه، وقيل: ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾؛ أى: مبادئه؛ لأن مفتاح كل شيء يكون فى أوله، فيكون على هذا: ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾؛ أى: مبادئ الغيب؛ فإن هذه المذكورات مبادئ لما بعدها.

﴿ٱلْغَيْبِ﴾: مصدر غاب يغيب غيبًا، والمراد بالغيب: ما كان غائبًا والغيب أمر نسبى، لكن الغيب المطلق علمه خاص بالله.

هذه المفاتح سواء قلنا: إن المفاتح هى المبادئ، أو: هى الخزائن، أو: المفاتيح؛ لا يعلمها إلا الله عز وجل؛ فلا يعلمها ملك، ولا يعلمها رسول، حتى إن أشرف الرسل الملكى وهو جبريل - سأل أشرف الرسل البشرى - وهو محمد عليه الصلاة والسلام - قال: أخبرنى عن الساعة؟ قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»[1]. والمعنى: كما أنه لا علم لك بها؛ فلا علم لى بها أيضًا. فمن ادعى علم الساعة؛ فهو كاذب كافر، ومن صدقه؛ فهو أيضًا كافر؛ لأنه مكذب للقرآن.

---

(1) أخرجه مسلم (٨).

تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وهذه المفاتح ؟ فسرها أعلم الخلق بكلام الله محمد ﷺ حين قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾[1] [لقمان: ٣٤]؛ فهى خمسة أمور:

الأول: علم الساعة: فعلم الساعة مبدأ مفتاح لحياة الآخرة، وسميت الساعة بهذا؛ لأنها ساعة عظيمة، يهدد بها جميع الناس، وهى الحاقة والواقعة، والساعة علمها عند الله لا يدرى أحد متى تقوم إلا الله عز وجل.

الثانى: تنزيل الغيث: لقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾: ﴿ٱلۡغَيۡثَ﴾: مصدر ومعناه: إزالة الشدة والمراد به المطر؛ لأنه بالمطر تزول شدة القحط والجدب وإذا كان هو الذى ينزل الغيث؛ كان هو الذى يعلم وقت نزوله.

والمطر نزوله مفتاح لحياة الأرض بالنبات، وبحياة النبات يكون الخير فى المرعى وجميع ما يتعلق بمصالح العباد.

وهنا نقطة: قال: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾، ولم يقل: وينزل المطر؛ لأن المطر أحيانًا ينزل ولا يكون فيه نبات؛ فلا يكون غيثًا، ولا تحيا به الأرض، ولهذا ثبت فى «صحيح مسلم»: «ليست السَّنة ألا تمطَروا، إنما السَّنة أن تمطروا ولا تنبت الأرض شيئًا»[2]، والسَّنة القحط.

❊ قال الشيخ الفوزان:

وقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾؛ أى: عند الله وحده خزائن الغيب، أو ما يتوصل به إلى علمه.

﴿لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ فمن ادعى علم شىء منها فقد كفر، وقد ورد تفسير مفاتح الغيب فى الحديث الذى رواه ابن عمر، كما فى «الصحيحين» عنه، أن النبى ﷺ قال: «مفاتح الغيب خمس، لا يعلمهن إلا الله». ثم قرأ هذه الآية: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ

---

(1) أخرجه البخارى (٤٦٢٧).

(2) أخرجه مسلم (٢٩٠٤).

....

وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ »[1] .

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ﴾ ؛ أى : اليابس المعمور ، والقفار من السكان والنبات والدواب ، وغير ذلك .

﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ ؛ أى : يعلم ما فيه من الحيوانات والجواهر ونحو ذلك .

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ ؛ أى : من أشجار البر والبحر وغير ذلك .

﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ ؛ أى : يعلمها ، ويعلم زمان سقوطها ، ومكانه .

﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ ؛ أى : ولا تكون حبة فى الأمكنة المظلمة ، أو فى بطن الأرض .

﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ من جميع الموجودات ، عموم بعد خصوص .

﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ ؛ أى : لا يحصل شىء من ذلك ، إلا وهو مكتوب فى اللوح المحفوظ .

وجه الشاهد من الآية : أن فيها إثبات أنه لا يعلم الغيب إلا الله ، وأن علمه محيط بكل شىء ، وفيها إثبات القدر والكتابة فى اللوح المحفوظ .

✽ قال الشيخ هراس :

وذكر فيها أيضًا أن عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ومفاتح الغيب قيل : خزائنه . وقيل : طرقه وأسبابه التى يتوصل بها إليه ، جمع مِفْتَح بكسر الميم أو مِفْتَاح بحذف ياء مفاعيل .

وقد فسرها النبى ﷺ بقوله : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله » .

✽ قال الشيخ ابن عثيمين :

الثالث : علم ما فى الأرحام : لقوله : ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان : ٣٤] ؛ أى : أرحام الإناث ، فهو عز وجل يعلم ما فى الأرحام ؛ أى : ما فى بطون الأمهات من بنى آدم وغيرهم ، ومتعلق العلم عام بكل شىء ؛ فلا يعلم ما فى الأرحام إلا من خلقها عز وجل .

---

(1) أخرجه البخارى (٤٧٧٨) عن عمر رضى الله عنهما ، ومسلم (٣٩/١) (١٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

....

فإن قلت : يقال الآن : إنهم صاروا يعلمون الذكر من الأنثى فى الرحم ، فهل هذا صحيح ؟ .

نقول : إن هذا الأمر وقع ولا يمكن إنكاره ، لكنهم لا يعلمون ذلك إلا بعد تكوين الجنين وظهور ذكورته أو أنوثته ، وللجنين أحوال أخرى لا يعلمونها ؛ فلا يعلمون متى ينزل ، ولا يعلمون إذا نزل إلى متى يبقى حيًا ولا يعلمون هل يكون شقيًا أو سعيدًا ، ولا يعلمون هل يكون غنيًا أم فقيرًا .. إلى غير ذلك من أحواله المجهولة .

إذن أكثر متعلقات العلم فيما يتعلق بالأجنَّةِ مجهول للخلق ؛ فصدق العموم فى قوله : ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِى ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ .

الرابع : علم ما فى الغد : وهو ما بعد يومك : لقوله : ﴿وَمَا تَدۡرِى نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾ . وهذا مفتاح الكسب فى المستقبل ، وإذا كان الإنسان لا يعلم ما يكسب لنفسه ؛ فعدم علمه بما يكسبه غيره أولى .

لكن لو قال قائل : أنا أعلم ما فى الغد ، سأذهب إلى المكان الفلانى ، أو أقرأ ، أو أزور أقاربى . فنقول : قد يجزم بأنه سيعمل ولكن يحول بينه وبين العمل مانع .

الخامس : علم مكان الموت : لقوله : ﴿وَمَا تَدۡرِى نَفۡسُۢ بِأَىِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ . ما يدرى أى أحد هل يموت فى أرضه أو فى أرض أخرى ؟ فى أرض إسلامية أو أرض كافر أهلها ؟ ولا يدرى هل يموت فى البر أو فى البحر أو فى الجو ؟ وهذا شيء مشاهد .

ولا يدرى بأى ساعة يموت ؛ لأنه إذا كان لا يمكنه أن يدرى بأى أرض يموت وهو قد يتحكم فى المكان ؛ فكذلك لا يدرى بأى زمن وساعة يموت .

فهذه الخمسة هى مفاتح الغيب التى لا يعلمها إلا اللّٰه وسميت مفاتح الغيب ؛ لأن علم ما فى الأرحام مفتاح للحياة الدنيا ، ﴿مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾ مفتاح للعمل المستقبل ، ﴿وَمَا تَدۡرِى نَفۡسُۢ بِأَىِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ مفتاح لحياة الآخرة ؛ لأن الإنسان إذا مات ؛ دخل عالم الآخرة ، وسبق بيان علم الساعة وتنزيل الغيث ؛ فتبين أن هذه المفاتح كلها مبادئ لكل ما وراءها ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ .

ثم قال عز وجل : ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ [الأنعام : ٥٩] : هذا إجمال ؛ فمن يحصى أجناس ما فى البر ؟ كم فيها من عالم الحيوان والحشرات والجبال والأشجار والأنهار أمور لا

....

يعلمها إلا اللّه عز وجل والبحر كذلك فيه من العوالم ما لا يعلمه إلا خالقه عز وجل ؛ ويقولون : إن البحر يزيد على البر ثلاثة أضعاف من الأجناس ؛ لأن البحر أكثر من اليابس .

قال : ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩] :

هذا تفصيل ؛ فأى ورقة فى أى شجرة صغيرة أو كبيرة قريبة أو بعيدة تسقط ؛ فاللّه تعالى يعلمها ، ولهذا جاءت ﴿مَا تَسْقُطُ﴾ النافية و﴿مِن﴾ الزائدة ؛ ليكون ذلك نصًا فى العموم ،والورقة التى تخلق يعلمها من باب أولى ؛ لأن عالم ما يسقط عالم بما يخلق عز وجل .

انظر إلى سعة علم اللّه تعالى كل شىء يكون ؛ فهو عالم به ، حتى الذى لم يحصل وسيحصل ؛ فهو تعالى عالم به .

قال : ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٥٩] : حبة صغيرة لا يدركها الطرف فى ظلمات الأرض يعلمها عز وجل .

﴿ظُلُمَاتِ﴾ : مع ظلمة ولنفرض أن حبة صغيرة غائصة فى قاع البحر ، فى ليلة مظلمة مطيرة ؛ فالظلمات : أولًا : طين البحر . ثانيًا : ماء البحر . ثالثًا : المطر . رابعًا : السحاب . خامسًا : الليل ؛ فهذه خمس ظلمات من ظلمات الأرض ومع ذلك هذه الحبة يعلمها سبحانه وتعالى ويبصرها عز وجل .

قال : ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] : هذا عام ؛ فما من شىء إلا وهو إما رطب وإما يابس .

﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] : ﴿كِتَابٍ﴾ ؛ بمعنى مكتوب .

﴿مُّبِينٍ﴾ أى : مظهر وبين ؛ لأن (أبان) تستعمل متعديًا ولازمًا فيقال : أبان الفجر . بمعنى ظهر الفجر ويقال : أبان الحق . بمعنى أظهره والمراد بالكتاب هنا : اللوح المحفوظ .

كل هذه الأشياء معلومة عند اللّه سبحانه وتعالى ومكتوبة عنده فى اللوح المحفوظ ؛ لأن اللّه تعالى : « لما خلق القلم ؛ قال له : اكتب . قال القلم : ماذا أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة »[1] . فكتب فى تلك اللحظة ما هو كائن إلى يوم القيامة ثم جعل سبحانه فى أيدى الملائكة كتبًا تكتب ما يعمله الإنسان ؛ لأن الذى فى اللوح المحفوظ قد كتب فيه ما كان يريد

---

(1) صححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١٧) .

وقوله : ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾[(١)] .

وقولـه : ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾[(٢)] [الطلاق : ١٢] .

الإنسان أن يفعل ، والكتابة التى تكتبها الملائكة هى التى يجزى عليها الإنسان ولهذا يقول الله عز وجل : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد : ٣١] ، أما علمه بأن عبده فلانًا سيصبر أو لا يصبر ؛ فهذا سابق من قبل ، لكن لا يترتب عليه الثواب والعقاب .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية الثالثة : قوله : ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر : ١١] .

﴿مَا﴾ : نافية .

﴿أُنثَىٰ﴾ فاعل ﴿تَحْمِلُ﴾ لكنه معرب بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد .

وهنا إشكال : كيف تقول زائد وليس فى القرآن زائد ؟ .

فالجواب : أنه زائد من حيث الإعراب ، أما من حيث المعنى ؛ فهو مفيد وليس فى القرآن شىء زائد لا فائدة منه ؛ ولهذا نقول : هو زائد : زائد بمعنى أنه لا يُخلُّ بالإعراب إذا حذف ، زائد من حيث المعنى يزيد فيه . وقوله : ﴿مِنْ أُنثَىٰ﴾ : يشمل أى أنثى ؛ سواء آدمية أو حيوانية أخرى : الذى يحمل حيوانًا واضح أنه داخل فى الآية ، كبقرة ، وبعير ، وشاة . .. وما أشبه ذلك ، ويدخل فى ذلك الذى يحمل البيض ؛ كالطيور ؛ لأن البيض فى جوف الطائر حمل . ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ ؛ فابتداء الحمل بعلم الله ، وانتهاؤه وخروج الجنين بعلم الله عز وجل .

❊ **قال الشيخ الفوزان :**

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ ؛ أى : لا يكون حمل ، ولا وضع إلا والله عالم به ، فلا يخرج شىء عن علمه وتدبيره ، فيعلم سبحانه فى أى يومٍ تحمل الأنثى ، وفى أى يومٍ تضع ، ونوع حملها هل هو ذكر ، أو أنثى .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية الرابعة : قوله : ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق : ١٢] .

....

﴿لِتَعْلَمُوٓا﴾ : اللام للتعليل ؛ لأن الله قال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الطلاق : ١٢] ؛ فقد خلق هذه السماوات السبع والأرضين السبع ، وأعلمنا بذلك ؛ لنعلم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

القدرة وصف يتمكن به الفاعل من الفعل بدون عجز ؛ فهو على كل شيء قدير ، يقدر على إيجاد المعدوم وعلى إعدام الموجود ؛ فالسماوات والأرض كانت معدومة ، فخلقها الله عز وجل وأوجدها على هذا النظام البديع .

﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ : كل شيء ؛ الصغير والكبير ، والمتعلق بفعله أو بفعل عباده ، والماضي واللاحق والحاضر ؛ كل ذلك قد أحاط الله سبحانه به علمًا .

وذكر الله عز وجل العلم والقدرة بعد الخلق ؛ لأن الخلق لا يتم إلا بعلم وقدرة ، ودلالة الخلق على العلم والقدرة من باب دلالة التلازم وقد سبق أن دلالات الأسماء على الصفات ثلاثة أنواع .

تنبيه : ذكر في « تفسير الجلالين » - عفا الله عنا وعنه - في آخر سورة « المائدة » ما نصه « وخص العقل ذاته ؛ فليس عليها بقادر » ! .

ونحن نناقش هذا الكلام من وجهين :

الوجه الأول : أنه لا حكم للعقل فيما يتعلق بذات الله وصفاته ، بل لا حكم له في جميع الأمور الغيبية ، ووظيفة العقل فيها التسليم التام ، وأن نعلم أن ما ذكره الله من هذه الأمور ليس محالًا ، ولهذا يقال : إن النصوص لا تأتي بمحال ، وإنما تأتي بمحار ؛ أي : بما يحير العقول ؛ لأنها تسمع ما لا تدركه ولا تتصوره .

والوجه الثاني : قوله : « فليس عليها بقادر » : هذا خطأ عظيم ؛ كيف لا يقدر على نفسه وهو قادر على غيره ؛ فكلامه هذا يستلزم أنه لا يقدر أن يستوي ولا أن يتكلم ولا أن ينزل إلى السماء الدنيا ولا يفعل شيئًا أبدًا وهذا خطير جدًّا ! ! .

لكن لو قال قائل : لعله يريد : « خص العقل ذاته ؛ فليس عليها بقادر » ؛ يعني : لا يقدر على أن يلحق نفسه نقصًا . قلنا : إن هذا لم يدخل في العموم حتى يحتاج إلى إخراج وتخصيص ؛ لأن القدرة إنما تتعلق بالأشياء الممكنة ؛ لأن غير الممكن ليس بشيء ؛ لا في الخارج ولا في الذهن ؛ فالقدرة لا تتعلق بالمستحيل ؛ بخلاف العلم .

فينبغي للإنسان أن يتأدب فيما يتعلق بجانب الربوبية ؛ لأن المقام مقام عظيم ، والواجب على

....

المرء نحوه أن يستسلم ويسلم .

إذن ؛ نحن نطلق ما أطلقه الله ، ونقول : إن الله على كل شيء قدير . بدون استثناء .

في هذه الآيات من صفات الله تعالى : إثبات عموم علم الله على وجه التفصيل ، وإثبات عموم قدرة الله تعالى .

والفائدة المسلكية من الإيمان بالعلم والقدرة : قوة مراقبة الله والخوف منه .

❁ قال الشيخ الفوزان :

﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ اللام متعلقة بقوله تعالى : ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ؛ أي : فعل ذلك لتعلموا كمال قدرته .

❁ قال الشيخ هراس :

ثم تلا قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان : ٣٤] .

وقد دلت الآيتان الأخيرتان على أنه سبحانه عالم بعلم هو صفة له قائم بذاته خلافًا للمعتزلة الذين نفوا صفاته ، فمنهم من قال : إنه عالم بذاته وقادر بذاته إلخ . ومنهم من فسَّر أسماءه بمعانٍ سلبية ، فقال : عليم معناه لا يجهل ، وقادر معناه لا يعرج . إلخ .

❁ قال الشيخ الفوزان :

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ أي : ولتعلموا إحاطة علمه بالأشياء فلا يخرج عن علمه شيء منها كائنًا ما كان ، و﴿عِلْمًۢا﴾ منصوب على التمييز أو على المصدرية ؛ لأن « أحاط » بمعنى « علم » .

الشاهد من الآيتين أن فيهما إثبات علم الله المحيط بكل شيء ، وإثبات قدرته على كل شيء .

❁ قال الشيخ هراس :

وهذه الآيات حجة عليهم ، فقد أخبر فيها سبحانه عن إحاطة علمه بحمل كل أنثى ووضعها من حيث المَتَى والكيف كما أخبر عن عموم قدرته وتعلقها بكل ممكن وعن إحاطة علمه بجميع الأشياء ، وما أحسن ما قاله الإمام عبد العزيز المكي في كتابه « الحيدة » لبشر المريسي

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾(١) ....

المعتزلي وهو يناظره في مسألة العلم : « إن اللّه عزَّ وجلَّ لم يمدح كتابه ملكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلًا ولا مؤمنًا تقيًّا بنفي الجهل عنه ليدل على إثبات العلم له ، وإنما مدحهم بإثبات العلم ، فنفى بذلك الجهل عنهم ، فمن أثبت العلم نفى الجهل ، ومن نفى الجهل لم يثبت العلم » .

والدليل العقلي على علمه تعالى أنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل ؛ لأن إيجاده الأشياء بإرادته ، والإرادة تستلزم العلم المراد ، ولهذا قال سبحانه : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك : ١٤] .

ولأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان وعجيب الصنعة ودقيق الخلقة ما يشهد بعلم الفاعل لها لامتناع صدور ذلك عن غير علم ولأن من المخلوقات من هو عالم والعلم صفة كمال ، فلو لم يكن اللّه عالمًا لكان في المخلوقات من هو أكمل منه .

وكل علم في المخلوق إنما استفاده من خالقه ، وواهب الكمال أحق به ، وفاقد الشيء لا يعطيه . وأنكر الفلاسفة علمه تعالى بالجزئيات وقالوا : إنه يعلم الأشياء على وجه كل ثابت . وحقيقة قولهم : إنه لا يعلم شيئًا ، فإن كل ما في الخارج هو جزئي . كما أنكر الغلاة من القدرية علمه تعالى بأفعال العباد حتى يعملوها ، توهمًا منهم أن علمه بها يفضي إلى الجبر ، وقولهم معلوم البطلان بالضرورة في جميع الأديان .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

في هذه الآية إثبات صفة القوة للّه عز وجل .

جاءت هذه الآية بعد قوله : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦، ٥٧] . فالناس يحتاجون إلى رزق اللّه ، أما اللّه تعالى ؛ فإنه لا يريد منهم رزقًا ولا أن يطعموه .

﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ : صيغة مبالغة من الرزق ، وهو العطاء ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ [النساء : ٨] . أي : أعطوهم ، والإنسان يسأل اللّه تعالى في صلاته ، ويقول : اللهم ارزقني .

وينقسم الرزق إلى قسمين : عام وخاص .

فالعام :كل ما ينتفع به البدن ؛ سواء كان حلالًا أو حرامًا ، وسواء كان المرزوق مسلمًا أو

....

كافرًا ، ولهذا قال السفاريني :

والـرِّزقُ مَـا يَـنْـفَـعُ مِـنْ حَـلالِ أو ضِـدُّهُ فَـحُـلْ عَـنِ المُحَـالِ
لأنَّـهُ رازِقُ كُـلِّ الخَلْـقِ ولَـيْـسَ مَـخْـلـوقٌ بِـغَـيْـرِ رِزْقِ

لأنك لو قلت : إن الرزق هو العطاء الحلال . لكان كل الذين يأكلون الحرام ؛ لم يرزقوا ، مع أن اللّٰه أعطاهم ما تصلح به أبدانهم ، لكن الرزق نوعان : طيب وخبيث ، ولهذا قال اللّٰه تعالى : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف : ٣٢] ، ولم يقل : والرزق . أما الخبائث من الرزق ؛ فهي حرام .

أما الرزق الخاص ؛ فهو ما يقوم به الدين من العلم النافع والعمل الصالح والرزق الحلال المعين على طاعة اللّٰه ، ولهذا جاءت الآية الكريمة : ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ ولم يقل : الرازق . لكثرة رزقه وكثرة من يرزقه ؛ فالذي يرزقه اللّٰه عز وجل لا يُحصى باعتبار أجناسه ، فضلًا عن أنواعه ، فضلًا عن آحاده ؛ لأن اللّٰه تعالى يقول : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود : ٦] ، ويعطي اللّٰه الرزق بحسب الحال .

ولكن إذا قال قائل : إذا كان اللّٰه هو الرازق ؛ فهل أسعى بطلب الرزق ، أو أبقى في بيتي ويأتيني الرزق ؟

فالجواب نقول : اسع لطلب الرزق ؛ كما أن اللّٰه غفور ؛ فليس معنى هذا ألّا تعمل وتتسبب للمغفرة .

أما قول الشاعر :

جُنونٌ مِـنْـكَ أنْ تَـسْـعَـى لِـرِزْقٍ وَيُـرْزَقُ فِـي غِـشَـاوَتِـهِ الجَنِـينُ

فهذا القول باطل . وأما استشهاده بالجنين ؛ فالجواب : أن يقال الجنين لا يمكن أن يوجه إليه طلب الرزق ؛ لأنه غير قادر ؛ بخلاف القادر .

ولهذا قال اللّٰه تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك : ١٥] . فلابد من سعي ، وأن يكون هذا السعي على وفق الشرع .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ ؛ أي : لا رازق غيره ، الذي يرزق مخلوقاته ، ويقوم بما يصلحهم ، فهو كثير الرزق ، واسعه فلا تعبدوا غيره .

ذُو ٱلْقُوَّةِ (١) ....

✽ قال الشيخ هراس :

قوله : (إن الله . .. إلخ) : تضمنت إثبات اسمه الرزاق ، وهو مبالغة من الرزق ، ومعناه : الذى يرزق عباده رزقًا بعد رزق فى إكثار وسعة ، وكل ما وصل منه سبحانه من نفع إلى عباده فهو رزق ، مباحًا كان أو غير مباح ، على معنى أنه قد جعل لهم قوتًا ومعاشًا ، قال تعالى : ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ [ق : ٩، ١٠] ، وقال : ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات : ٢٢] ، إلا أن الشيء إذا كان مأذونًا فى تناوله فهو حلال حكمًا ، وإلا كان حرامًا ، وجميع ذلك رزق ، وتعريف الجملة الاسمية والإتيان فيها بضمير الفصل لإفادة اختصاصه سبحانه بإيصال الرزق إلى عباده .

وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : اقرأنى رسول الله ﷺ : « إنى أنا الرزاق ذو القوة المتين » .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

القوة : صفة يتمكن الفاعل بها من الفعل بدون ضعف ، والدليل قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم : ٥٤] ، وليست القوة هى القدرة ؛ لقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر : ٤٤] ؛ فالقدرة يقابلها العجز ، والقوة يقابلها الضعف ، والفرق بينهما : أن القدرة يوصف بها ذو الشعور ، والقوة يوصف بها ذو الشعور وغيره .

ثانيًا أن القوة أخص ؛ فكل قوى من ذى الشعور قادر ، وليس كل قادر قويًا . مثال ذلك : تقول : الريح قوية ، ولا تقول : قادرة ، وتقول : الحديد قوى ، ولا تقول : قادر ، لكن ذو الشعور تقول : إنه قوى ، وإنه قادر .

ولما قالت عاد : ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ . قال الله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت : ١٥] .

✽ قال الشيخ الفوزان :

﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ أى : صاحب القوة التامة ، الذى لا يعتريه ضعفٌ .

✽ قال الشيخ هراس :

وأما قوله : ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ أى : صاحب القوة ، فهو بمعنى اسمه القوى إلا أنه أبلغ فى المعنى ، فهو يدل على أن قوته سبحانه لا تتناقص فيهن أو يفتر .

﴿ٱلْمَتِينُ﴾ [1] [الذاريات : ٥٨] .

٤- إثباتُ السمعِ والبصرِ للَّهِ سبحانَه :

وقولِه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [2] [الشورى : ١١] .

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

المتين : قال ابن عباس رضى اللَّه عنهما : الشديد . أى الشديد فى قوته ، الشديد فى عزته ، الشديد فى جميع صفات الجبروت ، وهو من حيث المعنى توكيد للقوى .

ويجوز أن نخبر عن اللَّه بأنه شديد ، ولا نسمى اللَّه بالشديد ، بل نسميه بالمتين ؛ لأن اللَّه سمى نفسه بذلك .

فى هذه الآيات إثبات اسمين من أسماء اللَّه ؛ هما : الرزاق ، والمتين ، وإثبات ثلاث صفات ، وهى الرزق ، والقوة ، وما تضمنه اسم المتين .

والفائدة المسلكية فى الإيمان بصفة القوة والرزق ألَّا نطلب القوة والرزق إلا من اللَّه تعالى ، وأن نؤمن بأن كل قوة مهما عظمت ؛ فلن تقابل قوة اللَّه تعالى .

❁ قال الشيخ الفوزان :

﴿ٱلْمَتِينُ﴾ أى : البالغ فى القوة والقدرة نهايتهما ، فلا يلحقه فى أفعاله مشقَّة ، ولا كلفة ، ولا تعب .

والمتانة معناها بالشدة والقوة .

الشاهد من الآية الكريمة أن فيها إثبات اسمه « الرزاق » ، ووصفه بالقوة التامة التى لا يعتريها ضعف ولا تعب سبحانه وتعالى ، وفيها الاستدلال على وجوب عبادته وحده لا شريك له .

❁ قال الشيخ هراس :

وأما ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ فهو اسم له من المتانة ، وقد فسره ابن عباس بـ : « الشديد » .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

هذه الآية ساقها المؤلف لإثبات اسمين من أسماء اللَّه وما تضمناه من صفة ، وهما السميع والبصير ؛ ففيها رد على المعطلة .

قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ : هذا نفى ؛ فهو من الصفات السلبية ، والمقصود به إثبات به كماله ؛ يعنى لكماله لا يماثله شيء من مخلوقاته ، وفى هذه الجملة رد على أهل التمثيل .

قوله : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ : ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ له معنيان أحدهما بمعنى المجيب . والثانى :

....

بمعنى السامع للصوت .

أما السميع بمعنى المجيب ، فمثلوا له بقوله تعالى عن إبراهيم : ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم : ٣٩] ، أى : لمجيب الدعاء .

وأما السميع بمعنى إدراك الصوت ؛ فإنهم قسموه إلى عدة أقسام :

الأول : سمع يراد به بيان عموم إدراك سمع اللّه عز وجل ، وأنه ما من صوت إلا ويسمعه اللّه .

الثاني : سمع يراد به النصر والتأييد .

الثالث : سمع يراد به الوعيد والتهديد .

مثال الأول : قوله تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة : ١] ، فهذا فيه بيان إحاطة سمع اللّه تعالى بكل مسموع ، ولهذا قالت عائشة رضى اللّه عنها : « الحمد للّه الذى وسع سمعه الأصوات ، واللّه إنى لفى الحجرة ، وإن حديثها ليخفى علىَّ بعضه » .

ومثال الثاني : كما فى قوله تعالى لموسى وهارون : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] .

ومثال الثالث :الذى يراد به التهديد والوعيد : قوله تعالى : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف : ٨٠] ؛ فإن هذا يراد به تهديدهم ووعيدهم ؛ حيث كانوا يسرون ما لا يرضى من القول .

والسمع بمعنى إدراك المسموع من الصفات الذاتية ، وإن كان المسموع قد يكون حادثًا .

والسمع بمعنى النصر والتأييد من الصفات الفعلية ؛ لأنه مقرون بسبب .

والسمع : بمعنى الإجابة من الصفات العلية أيضًا .

وقوله : ﴿الْبَصِيرُ﴾ ؛ يعنى : المدرك لجميع المبصرات ، ويطلق البصير بمعنى العليم ؛ فاللّه سبحانه وتعالى بصير ، يرى كل شىء وإن خفى ، وهو سبحانه بصير بمعنى : عليم بأفعال عباده ؛ قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات : ١٨] ، والذى نعمل بعضه مرئى وبعضه غير مرئى ؛ فبصر اللّه إذن ينقسم إلى قسمين ، وكله داخل فى قوله : ﴿الْبَصِيرُ﴾ .

فى هذه الآيات إثبات اسمين من أسماء اللّه ؛ هما : السميع ، والبصير . وثلاث صفات ؛

....

هي : كمال صفاته من نفي المماثلة ، والسمع ، والبصر .

وفيها من الفوائد المسلكية : الكف عن محاولة تمثيل الله بخلقه ، واستشعار عظمته وكماله ، والحذر من أن يراك على معصيته أو يسمع منك ما لا يرضاه .

واعلم أن النحاة خاضوا خوضًا كثيرًا في قوله : ﴿ كَمِثْلِهِۦ﴾ . حيث قالوا : الكاف داخلة على (المثل) ، وظاهره أن لله مثلًا ليس له مثل ؛ لأنه لم يقل : ليس كهو ؛ بل قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ﴾ ؛ فهذا ظاهر الآية من حيث اللفظ لا من حيث المعنى ؛ لأننا لو قلنا : هذا ظاهرها من حيث المعنى ؛ لكان ظاهر القرآن كفرًا ، وهذا مستحيل ، ولهذا اختلفت عبارات النحويين في تخريج هذه الآية على أقوال :

القول الأول : الكاف زائدة ، وأن تقدير الكلام : ليس مثله شيء . وهذا القول مريح ، وزيادة الحروف في النفي كثيرة ؛ كما في قوله تعالى : ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ [فاطر : ١١] ؛ فيقولون : إن زيادة الحروف في اللغة العربية للتوكيد أمر مطرد .

والقول الثاني : قالوا العكس ؛ قالوا : إن الزائد (مثل) ، ويكون التقدير : ليس كهو شيء . لكن هذا ضعيف ، يضعفه أن الزيادة في الأسماء في اللغة العربية قليلة جدًّا أو نادرة ؛ بخلاف الحروف ؛ فإذا كنا لابد أن نقول بالزيادة ؛ فليكن الزائد الحرف ، وهي الكاف .

والقول الثالث : أن (مثل) بمعنى : صفة ، والمعنى : « ليس كصفته شيء » ، وقالوا : إن المِثْل والمَثَل والشِّبه والشَّبَه في اللغة العربية بمعنى واحد ؛ وقد قال الله تعالى : ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [محمد : ١٥] ؛ أي : صفة الجنة ، وهذا ليس ببعيد من الصواب .

القول الرابع : أنه ليس في الآية زيادة ، لكن إذا قلت : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ؛ لزم من ذلك نفي المثل ، وإذا كان ليس للمثل مثل ؛ صار الموجود واحدًا ، وعلى هذا ؛ فلا حاجة إلى أن نقدر شيئًا . قالوا : وهذا قد وجد في اللغة العربية ؛ مثل قوله : ليس كمثل الفتى زهير .

والحقيقة أن هذه البحوث لو لم تعرض لكم ؛ لكان معنى الآية واضحًا ، ومعناها أن الله ليس له مثيل ، لكن هذا وجد في الكتب ، والراجح : أن نقول : إن الكاف زائدة . لكن المعنى الأخير لمن تمكن من تصوره أجود .

❁ قال الشيخ الفوزان :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أول الآية قوله تعالى : ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ

....

أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ .

قال الإمام ابن كثيرٍ في تفسيره[1] :أي ليس كخالق الأزواج كلها شيء ؛ لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له . اهـ

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾الذي يسمع جميع الأصوات .

﴿ٱلْبَصِيرُ﴾الذي يرى كل شيءٍ ، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ، ولا في السماء .

قال الإمام الشوكاني في « تفسيره » : ومن فهم هذه الآية الكريمة حق فهمها ، وتدبرها حق تدبرها مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات على جادةٍ بيضاء واضحةٍ .

ويزداد بصيرةً إذا تأمل معنى قوله : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ . فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفي للمتماثل قد اشتمل على برد اليقين ، وشفاء الصدور ، وانثلاج القلوب .

فاقدر يا طالب الحق قدر هذه الحجة النيرة ، والبرهان القوى ، فإنك تحطم بها كثيرًا من البدع وتهشم بها رءوسًا من الضلالة ، وترغم بها أنوف طوائف من المتكلمين ، ولا سيما إذا ضممت إليه قول اللَّه تعالى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [2]. أهـ

❁ قال الشيخ هراس :

قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ . . . إلخ : دلَّ إثبات صفتي السمع والبصر له سبحانه بعد نفي المثل عنه على أنه ليس المراد من نفي المثل نفي الصفات كما يدعى ذلك المعطلة ويحتجون به باطلًا ، بل المراد إثبات الصفات مع نفي مماثلتها لصفات المخلوقين .

قال العلَّامة ابن القيم رحمه اللَّهُ : قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ إنما قصد به نفي أن يكون معه شريك أو معبود يستحق العبادة والتعظيم كما يفعله المشبهون والمشركون ، ولم يقصد به نفي صفات كماله وعلوه على خلقه وتكليمه بكتبه وتكلمه لرسله ورؤية المؤمنين له جهرة بأبصارهم كما ترى الشمس والقمر في الصحو . أهـ .

ومعنى « السميع » : المدرك لجميع الأصوات مهما خفتت ، فهو يسمع السر والنجوى بسمع هو صفة لا يماثل أسماع خلقه .

---

(1) تفسير ابن كثير (٤/١٠٩) .

(2) فتح القدير (٤/٥٢٨) .

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾(١) [النساء: ٥٨] .

ومعنى « البصير » : المدرك لجميع المرئيات من الأشخاص والألوان مهما لطفت أو بعدت ، فلا تؤثر على رؤيته الحواجز والأستار ، و(هو) من فعيل بمعنى مفعل ، وهو دال على ثبوت صفة البصر له سبحانه على الوجه الذى يليق به .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هذه الآية تكملة لقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٧] ؛ فأمر عز وجل بأن نؤدى الأمانات إلى أهلها ، ومنها الشهادة للإنسان له أو عليه ، وأن نحكم إذا حكمنا بين الناس بالعدل ، فبين الله سبحانه وتعالى أنه يأمرنا بالقيام بالواجب فى طريق الحكم وفى الحكم نفسه ، وطريق الحكم الذى هو الشهادة تدخل فى عموم قوله : ﴿أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ ، والحكم : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ . ثم قال سبحانه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ ؛ أصلها : نعم ما . ولكن أدغمت الميم بالميم من باب الإدغام الكبير ؛ لأن الإدغام لا يكون بين جنسين إلا إذا كان الأول ساكنًا ، وهنا صار الإدغام مع أن الأول مفتوح .

وقوله : ﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ : جعل الله سبحانه الأمر بهذين الشيئين - أداء الأمانة والحكم بالعدل - موعظة ؛ لأنه تصلح به القلوب ، وكل ما يصلح القلوب ؛ فهو موعظة ، والقيام بهذه الأوامر لا شك أنه يصلح القلب .

ثم قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ وقوله : ﴿كَانَ﴾ : هذه فعل ، لكنها مسلوبة الزمن ؛ فالمراد بها الدلالة على الوصف فقط ؛ أى : أن الله متصف بالسمع والبصر ، وإنما قلنا : إنها مسلوبة الزمن ؛ لأننا لو أبقيناها على دلالتها الزمانية ؛ لكان هذا الوصف قد انتهى ؛ كان فى الأول سميعًا بصيرًا ، أما الآن فليس كذلك ، ومعلوم أن هذا المعنى فاسد باطل ، وإنما المراد أنه متصف بهذين الوصفين السمع والبصر على الدوام ، و(كان) فى مثل هذا السياق يراد به التحقيق .

قوله : ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ : نقول فيها كما قلنا فى الآية التى قبلها : فيها إثبات السمع لله بقسميه ، وإثبات البصر بقسميه .

قرأ أبو هريرة هذه الآية ، وقال : إن الرسول ﷺ وضع إبهامه وسبابته على عينه وأذنه . والمراد بهذا الوضع تحقيق السمع والبصر ، لا إثبات العين والأذن ؛ فإن ثبوت العين جاءت فى أدلة

....

أخرى ، والأذن عند أهل السنة والجماعة لا تثبت للَّه ولا تنفى عنه لعدم ورود السمع بذلك .

فإن قلت : هل لى أن أفعل كما فعل الرسول ﷺ ؟ .

فالجواب : من العلماء من قال : نعم ؛ افعل كما فعل الرسول ، لست أهدى للخلق من رسول اللَّه ﷺ ، ولست أشد تحرزًا من أن يضاف إلى اللَّه ما لا يليق به من الرسول ﷺ .

ومنهم من قال : لا حاجة إلى أن تفعل ما دمنا نعلم أن المقصود هو التحقيق . فهذه الإشارة إذن غير مقصودة بنفسها ، إنما هى مقصودة لغيرها ، وحينئذ ؛ لا حاجة إلى أن تشير ، لا سيما إذا كان يُخشى من هذه الإشارة توهم الإنسان التمثيل ؛ كما لو كان أمامك عامة من الخلق لا يفهمون الشيء على ما ينبغى ؛ فهذا ينبغى التحرز منه ، ولكل مقام مقال .

وكذلك ما ورد فى حديث ابن عمر كيف يحكى رسول اللَّه ﷺ قال : « يأخذ اللَّه عز وجل سماواته وأرضيه بيديه ، فيقول : أنا اللَّه » ؛ ويقبض أصابعه ويبسطها[1]. فيقال فيه ما قيل فى حديث أبى هريرة .

والفائدة المسلكية من الإيمان بصفتى السمع والبصر : أن نحذر مخالفة اللَّه فى أقوالنا وأفعالنا .

وفى الآية من أسماء اللَّه إثبات اسمين هما : السميع ، والبصير . ومن الصفات : إثبات السمع ، والبصر ، والأمر ، والموعظة .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا﴾ قبله قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ﴾ .

(نعم) من ألفاظ المدح ، و(ما) قيل : نكرة موصوفة ، كأنه قيل : نعم شيئًا يعظكم به .

وقيل : إن (ما) موصولة ؛ أى : نعم الشيء الذى يعظكم به .

وقوله : ﴿يَعِظُكُم﴾ ؛ أى : يأمركم به من أداء الأمانات ، والحكم بين الناس بالعدل .

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ؛ أى : إنه سبحانه سميع لما تقولون ، بصير بما تفعلون .

الشاهد من الآيتين الكريمتين : أن فيهما إثبات السمع والبصر للَّه ، وفى الآية الأولى نفى

---

(1) أخرجه مسلم (٢٧٨٨) .

٥- إثباتُ المَشِيئةِ والإرادةِ للَّهِ سبحانَه :

وقولِه : ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[1] [الكهف : ٣٩] .

مماثلة المخلوقات ، ففى ذلك الجمع فيما وصف ، وسمى به نفسه بين النفى والإثبات .

❁ قال الشيخ هراس :

روى أبو داود فى « سننه » عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ فوضع إبهامه على أذنه والتى تليه على عينه .

ومعنى الحديث : أنه سبحانه يسمع بسمع ، ويرى بعين ، فهو حجة على بعض الأشاعرة الذين يجعلون سمعه علمه بالمسموعات ، وبصره علمه بالمبصرات ، وهو تفسير خاطئ ، فإن الأعمى يعلم بوجود السماء ولا يراها ، والأصم يعلم بوجود الأصوات ولا يسمعها .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

هذه آيات فى إثبات صفتى المشيئة والإرادة :

فالآية الأولى : قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف : ٣٩] .

﴿وَلَوْلَآ﴾ : بمعنى : هَلَّا ؛ فهى للتحضيض ، والمراد بها هنا التوبيخ ؛ بمعنى أنه يوبخه على ترك هذا القول .

﴿إِذْ دَخَلْتَ﴾ : حين دخلت .

﴿جَنَّتَكَ﴾ : الجنة ؛ بفتح الجيم : هى البستان الكثير الأشجار ، سميت بذلك لأن من فيها مستتر بأشجارها وغصونها ؛ فهو مستجن فيها ، وهذه المادة (الجيم والنون) تدل على الاستتار ، ومنه : الجُنَّة - بضم الجيم - التى يتترس بها الإنسان عند القتال ، ومنها الجِنة - بكسر الجيم - ؛ يعنى : الجن ؛ لأنهم مستترون .

وقوله : ﴿جَنَّتَكَ﴾ : هذه مفرد ، والمعلوم من الآيات أن لها جنتين ، فما هو الجواب حيث كانت هنا مفردة مع أنهما جنتان ؟ .

الجواب : أن يقال : إن المفرد إذا أضيف يعم فيشمل الجنتين . أو أن هذا القائل أراد أن يقلل من قيمة الجنتين ؛ لأن المقام مقام وعظ وعدم إعجاب بما رزقه اللَّه ؛ كأنه يقول : هاتان الجنتان جنة واحدة ؛ تقليلًا لشأنهما ، والوجه الأول أقرب إلى قواعد اللغة العربية ﴿قُلْتَ﴾ :

....

جواب ﴿لَوْلَا﴾ .

وقوله : ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ : ﴿مَا﴾ : يحتمل أن تكن موصولة ؛ ويحتمل أن تكون شرطية : فإن جعلتها موصولة ؛ فهى خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير : هذا ما شاء اللّه ؛ أى : ليس هذا بإرادتى وحولى وقوتى ، ولكنه بمشيئة اللّه ؛ أى : هذا الذى شاءه اللّه . وإن جعلتها شرطية ؛ ففعل الشرط ﴿شَآءَ﴾ ، وجوابه محذوف ، والتقدير : ما شاء اللّه كان ؛ كما نقول : ما شاء اللّه كان ، وما لم يشأ لم يكن . والمراد : كان ينبغى لك أن تقول حين دخلت جنتك : ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ؛ لتتبرأ من حولك وقوتك ولا تعجب بجنتك .

وقوله : ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ : ﴿لَا﴾ : نافية للجنس . و﴿قُوَّةَ﴾ : نكرة فى سياق النفى ، فتعم ، والقوة صفة يتمكن بها الفاعل من فعل ما يريد بدون ضعف .

فإن قيل : ما الجمع بين عموم نفى القوة إلا باللّه ، وبين قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم : ٥٤] ، وقال عن عاد : ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت : ١٥] ، ولم يقل : لا قوة فيهم ؛ فأثبت للإنسان قوة .

فالجواب : أن الجمع بأحد الوجهين :

الأول : أن القوة التى فى المخلوق كانت من اللّه عز وجل ؛ فلولا أن اللّه أعطاه القوة ؛ لم يكن قويًا ؛ فالقوة التى عند الإنسان مخلوقة للّه ؛ فلا قوة فى الحقيقة إلا باللّه .

الثانى : أن المراد بقوله : ﴿لَا قُوَّةَ﴾ ؛ أى : لا قوة كاملة إلا باللّه عز وجل .

وعلى كل حال ؛ فهذا الرجل الصالح أرشد صاحبه أن يتبرأ من حوله وقوته ، ويقول : هذا بمشيئة اللّه وبقوة اللّه .

فى هذه الآية : إثبات اسم من أسماء اللّه ، وهو : اللّه ، وإثبات ثلاث صفات : الألوهية ، والقوة ، والمشيئة .

ومشيئة اللّه : هى إرادته الكونية ، وهى نافذة فيما يحبه وما لا يحبه ، ونافذة على جميع العباد بدون تفصيل ، ولابد من وجود ما شاءه بكل حال ؛ فكل ما شاء اللّه وقع ولابد ، سواء كان فيما يُحبه ويرضاه أم لا .

وقوله : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾(١).

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

قوله : ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ ؛ أى : هلا إذ دخلت بستانك ﴿قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ ؛ أى : إن شاء أبقاها ، وإن شاء أفناها ؛ اعترافًا بالعجز ، وأن القدرة للَّه سبحانه ، قال بعض السلف : من أعجبه شىء فليقل : ما شاء اللَّه لا قوة إلا باللَّه .

❁ **قال الشيخ هراس :**

قوله : ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ﴾ إلخ : هذه الآيات دلت على إثبات صفتى الإرادة والمشيئة ، والنصوص فى ذلك لا تحصى كثرة .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية الثانية :قوله : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

﴿لَوْ﴾ : حرف امتناع لامتناع ، وإذا كان جوابها منفيًا بـ (ما) ؛ فإن الأفصح حذف اللام ، وإذا كان مثبتًا ؛ فالأكثر ثبوت اللام ؛ كما قال تعالى : ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة : ٦٥] . فنقول : الأكثر ، ولا نقول : الأفصح ؛ لأنه وَرَدَ إثبات اللام وحذفها فى القرآن الكريم : ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة : ٧٠] . وقولنا : إن الأفصح حذف اللام فى المنفى ؛ لأن اللام تفيد التوكيد ، والنفى ينافى التوكيد ، ولهذا كان قول الشاعر :

وَلَوْ نُعْطَى الخِيَارَ لِمَا افْتَرَقْنَا وَلَكِنْ لا خِيَارَ مَعَ اللّيَالِي

خلاف الأفصح ، والأفصح : لو نعطى الخيار ما افترقنا .

قوله :﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ﴾ : الضمير يعود على المؤمنين والكافرين ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

وفى هذا رد واضح على القدرية الذى ينكرون تعلق فعل العبد بمشيئة اللَّه ؛ لأن اللَّه قال : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ﴾ ؛ يعنى : ولكنه شاء أن يقتتلوا فاقتتلوا . ثم قال : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ . أى : يفعل الذى يريده ، والإرادة هنا إرادة كونية .

وقوله : ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ : الفعل باعتبار ما يفعله سبحانه وتعالى بنفسه فعل مباشر . وباعتبار ما يقدّره على العباد فعل غير مباشر ؛ لأنه من المعلوم أن الإنسان إذا صام وصلى وزكى وحج وجاهد ؛ فالفاعل الإنسان بلا شك ، ومعلوم أن فعله هذا بإرادة اللَّه .

ولا يصح أن يُنسب فعل العبد إلى اللَّه على سبيل المباشرة ؛ لأن المباشر للفعل الإنسان ،

....

ولكن يصح أن يُنسب إلى اللّٰه على سبيل التقدير والخلق .

أما ما يفعله اللّٰه بنفسه ؛ كاستوائه على عرشه ، وكلامه ، ونزوله إلى السماء الدنيا ، وضحكه .. وما أشبه ذلك ؛ فهذا يُنسب إلى اللّٰه تعالى فعلًا مباشرة .

في هذه الآية من الأسماء : اللّٰه . ومن الصفات : المشيئة ، والفعل ، والإرادة .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ؛ أى : لو شاء سبحانه عدم اقتتالهم لم يقتتلوا ؛ لأنه لا يجرى فى ملكه إلا ما يريد ، لا راد لحكمه ، ولا مبدل لقضائه .

❁ قال الشيخ هراس :

والأشاعرة يثبتون إرادة واحدة قديمة تعلقت فى الأزل بكل المرادات فيلزمهم تخلف المراد عن الإرادة ، وأما المعتزلة فعلى مذهبهم فى نفى الصفات لا يثبتون فى صفة الإرادة ، ويقولون : إنه يريد بإرادة حادثة لا فى محل ، فيلزمهم قيام الصفة بنفسها وهو من أبطل الباطل .

وأما أهل الحق فيقولون : إن الإرادة على نوعين :

١- إرادة كونية ترادفها المشيئة ، وهما تتعلقان بكل ما يشاء اللّٰه فعله وإحداثه ، فهو سبحانه إذا أراد شيئًا وشاءه كان عقب إرادته له كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس : ٨٢] .

وفى الحديث الصحيح : « ما شاء اللّٰه كان ، وما لم يشأ لم يكن » .

٢- إرادة شرعية تتعلق بما يأمر اللّٰه به عباده مما يحبه ويرضاه ، وهى المذكورة فى مثل قوله تعالى : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، ولا تلازم بين الإرادتين ، بل قد تتعلق كل منهما بما لا تتعلق به الأخرى ، فبينهما عموم وخصوص من وجه . فالإرادة الكونية أعم من جهة تعلقها بما لا يحبه اللّٰه ويرضاه من الكفر والمعاصى ، وأخص من جهة أنها لا تتعلق بمثل إيمان الكافر وطاعة الفاسق .

والإرادة الشرعية أعم من جهة تعلقها بكل مأمور به واقعًا كان أو غير واقع ، وأخص من جهة أن الواقع بالإرادة الكونية قد يكون غير مأمور به .

والحاصل : أن الإرادتين قد تجتمعان معًا فى مثل إيمان المؤمن وطاعة المطيع ، وتنفرد الكونية فى مثل كفر الكافر ومعصية العاصى ، وتنفرد الشرعية فى مثل إيمان الكافر وطاعة العاصى .

وقوله : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾(١) [المائدة : ١] .

وقوله تعالى : ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ الآية ، هذا من قول الله حكاية عن الرجل المؤمن لزميله الكافر صاحب الجنتين يعظه به أن يشكر نعمة الله عليه ويردها إلى مشيئة الله ويبرأ من حوله وقوته فإنه لا قوة إلا بالله .

وقوله : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ الآية ، إخبار عما وقع بين أتباع الرسل من بعدهم من التنازع والتعادى بغيًا بينهم وحسدًا ، وأن ذلك إنما كان بمشيئة الله عزَّ وجلَّ ، ولو شاء عدم حصوله ما حصل ولكنه شاءه فوقع .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية الثالثة :قوله : ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة : ١] .

﴿أُحِلَّتْ لَكُم﴾ : المحلُّ هو الله عز وجل ، وكذلك النبى عليه الصلاة والسلام يُحِلُّ ويحرم ، لكن بإذن من الله عز وجل ؛ قال النبى ﷺ : « أحلت لنا ميتتان ودمان »[1]. وكان عليه الصلاة والسلام يقول : « إن الله يحرم عليكم » . كذا يخبر أنه حُرِّمَ ، وربما يحرم تحريمًا يضيفه إلى نفسه ، لكنه بإذن الله .

﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ : هى الإبل والبقر والغنم ، والأنعام جمع نَعَم ؛ كأسباب جمع سبب .

وقوله : ﴿بَهِيمَةُ﴾ : سميت بذلك لأنها لا تتكلم .

﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ﴾ : إلا الذى يُتلى عليكم فى هذه السورة ، وهى المذكورة فى قوله تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة : ٣] . فالاستثناء هنا فيه منقطع وفيه متصل ؛ فبالنسبة للميتة من بهيمة الأنعام متصل ، وبالنسبة للحم الخنزير منقطع ؛ لأنه ليس من بهيمة الأنعام .

وقوله : ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ : « غير » : حال من الكاف فى « لكم » ؛ يعنى : حال كونكم لا تحلُّون الصيد وأنتم حُرم ، وهذا الاستثناء منقطع أيضًا ؛ لأن الصيد ليس من بهيمة الأنعام .

---

(1)صححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١٠) .

وقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾(1) [الأنعام: ١٢٥].

وقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾؛ يعنى: قاتليه فى الإحرام؛ لأن الذى يفعل الشىءَ يصير كالمحل له، و﴿الصَّيْدِ﴾: هو الحيوان البرى المتوحش المأكول، هذا هو الصيد الذى حرم فى الإحرام.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾: هذه الإرادة شرعية؛ لأن المقام مقام تشريع، ويجوز أن تكون إرادة شرعية كونية، ونحمل الحكم على الكونى والشرعى؛ فما أراده كونًا؛ حكم به وأوقعه، وما أراده شرعًا؛ حكم به وشرَعَهُ لعباده.

فى هذه الآية من الأسماء: اللّٰه. ومن الصفات: التحليل، والحكم، والإرادة.

❋ **قال الشيخ الفوزان:**

وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم﴾؛ أى: أبيحت، والخطاب للمؤمنين.

﴿بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾؛ أى: الإبل والبقر والغنم.

﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾استثناء من ﴿بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾، والمراد به المذكور فى قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] الآية التى بعدها بقليل.

وقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾. استثناء آخر من بهيمة الأنعام.

والمعنى: أحلت لكم بهيمة الأنعام كلها، إلا ما كان منها وحشيًا، فإنه صيد لا يحل لكم فى حال الإحرام.

فقوله: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾. فى محل نصبٍ على الحال، والمراد بالحرم من هو محرم بحجٍّ، أو عمرةٍ، أو بهما.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾من التحليل والتحريم، لا اعتراض عليه.

والشاهد من الآيات: أن فيها إثبات المشيئة والقوة والحكم والإرادة صفاتٍ للّٰه تعالى على ما يليق بجلاله.

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الآية الرابعة: قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾: المراد بالإرادة هنا الإرادة

....

الكونية ، والمراد بالهداية هداية التوفيق ؛ فتجده منشرح الصدر في شرائع الإسلام وشعائره ، يفعلها بفرح وسرور وانطلاق .

فإذا عرفت من نفسك هذا ؛ فاعلم أن اللَّه أراد بك خيرًا وأراد لك هداية ، أما من ضاق به ذرعًا ، والعياذ باللَّه ، فإن هذا علامة على أن اللَّه لم يرد له هداية ، وإلَّا لانشرح صدره .

ولهذا تجدون الصلاة التي هي أثقل ما يكون على المنافقين قُرّة عيون المخلصين ؛ قال النبي ﷺ : « حُبِّبَ إلي من دنياكم النساء والطيب ، وجُعلَت قرة عيني في الصلاة »[1] . ولا شك أن النبي ﷺ أكمل الناس إيمانًا ؛ فانشرح صدره بالصلاة وصارت قرة عينه .

فإذا قيل للشخص : إنه يجب عليك أن تصلي مع الجماعة في المسجد ؛ فانشرح صدره ، وقال : الحمد للَّه الذي شرع لي ذلك . ولولا أن اللَّه شرعه ؛ لكان بدعة ، وأقبل إليه ، ورضي به ؛ فهذا علامة على أن اللَّه أراد أن يهده وأراد به خيرًا .

قال : ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ : ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ﴾ : بمعنى يوسع ، ومنه قول موسى عليه الصلاة والسلام لما أرسله اللَّه إلى فرعون : ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ [طه : ٢٥] ؛ يعني : وسِّع لي صدري في مناجاة هذا الرجل ودعوته ؛ لأن فرعون كان جبارًا عنيدًا .

وقوله : ﴿لِلْإِسْلَٰمِ﴾ : هذا عام لأصل الإسلام وفروعه وواجباته ، وكلَّما كان الإنسان بالإسلام وشرائعه أشرح صدرًا ؛ كان أدل على إرادة اللَّه به الهداية .

وقوله : ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ : من يرد أن يضله ؛ يجعل صدره ضيقًا حرجًا ؛ أي : شديد الضيق ، ثم مثل ذلك بقوله : ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ؛ يعني : كأنه حين يعرض عليه الإسلام يتكلف الصعود إلى السماء ، ولهذا جاءت الآية : ﴿يَصَّعَّدُ﴾ ؛ بالتشديد ، ولم يقل : يَصْعَدُ ؛ كأنه يتكلف الصعود بمشقة شديدة ، وهذا الذي يتكلف الصعود لا شك أنه يتعب ويسأم .

ولنفرض أن هذا رجل طُلب منه أن يصعد جبلًا رفيعًا صعبًا ؛ فإذا قام يصعد هذا الجبل ؛ سوف يتكَلف ، وسوف يضيق نفسه ويرتفع وينتهب ؛ لأنه يجد من هذا ضيقًا .

وعلى ما وصل إليه المتأخرون الآن ؛ يقولون : إن الذي يصعد في السماء كلما ارتفع وازداد

---

(1) صححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤) .

....

ارتفاعه ؛ كُثر عليه الضغط ، وصار أشد حرجًا وضيقًا ، وسواء كان المعنى الأول أو المعنى الثانى ؛ فإن هذا الرجل الذى يعرض عليه الإسلام وقد أراد اللَّه أن يضله يجد الحرج والضيّق كأنما يصعّد فى السّماء .

ونأخذ من هذه الآية الكريمة إثبات إرادة اللَّه عز وجل .

والإرادة المذكورة هنا إرادة كونية لا غير ؛ لأنه قال : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ ، ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ ، وهذا التقسيم لا يكون إلا فى الأمور الكونيات ، أما الشرعية ؛ فاللَّه يريد من كل أحد أن يستسلم لشرع اللَّه .

وفيها من السلوك والعبادة أنه يجب على الإنسان أن يتقبل الإسلام كله ؛ أصله وفرعه ، وما يتعلق بحق اللَّه وما يتعلق بحق العباد ، وأنه يجب عليه أن يشرح صدره لذلك ، فإن لم يكن كذلك ؛ فإنه من القسم الثانى الذين أراد اللَّه إضلالهم .

قال النبى ﷺ : « من يرد اللَّه به خيرًا ؛ يفقهه فى الدين »[1] . والفقه فى الدين يقتضى قبول الدين ؛ لأن كل من فقه فى دين اللَّه وعرفه ؛ قبله وأحبه .

قال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء : ٦٥] ؛ فهذا إقسام مؤكد بـ : (لا) ، وإقسام بأخص ربوبية من اللَّه عز وجل لعباده – وهى ربوبية اللَّه للرسول – على نفى الإيمان عمن لم يقم بهذه الأمور :

الأول : تحكيم الرسول ﷺ لقوله : ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ . يعنى : الرسول ؛ فمن طلب التحاكم إلى غير اللَّه ورسوله ؛ فإنه ليس بمؤمن ؛ فإما كافر كفرًا مخرجًا عن الملة ، وإما كافرٌ كفرًا دون ذلك .

الثانى : انشراح الصدر بحكمه ؛ بحيث لا يجدون فى أنفسهم حرجًا مما قضى ؛ بل يجدون القبول والانشراح لما قضاه النبى ﷺ .

الثالث : أن يسلموا تسليمًا ، وأكد التسليم بمصدر ؛ يعنى : تسليمًا كاملًا .

فاحذر أيها المسلم أن ينتفى عنك الإيمان .

---

(1) أخرجه البخارى (٧١) ، ومسلم (١٠٣٧) .

....

ولنضرب لهذا مثلًا : تجادل رجلان فى حكم مسألة شرعية ، فاستدل أحدهما بالسُّنة ، فوجد الثانى فى ذلك حرجًا وضيقًا ؛ كيف يريد أن يخرج عن متبوعه إلى اتباع هذه السنة ؟ ! فهذا الرجل ناقص بلا شك فى إيمانه ؛ لأن المؤمن حقًّا هو الذى إذا ظفر بالنص من كتاب اللَّه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ؛ فكأنما ظفر غنيمة يفرح بها ، ويقول : الحمد للَّه الذى هدانى لهذا . وفلان الذى يتعصب لرأيه ويحاول أن يلوى أعناق النصوص حتى تتجه إلى ما يريده هو ، لا ما يريده اللَّه ورسوله ؛ فإن هذا على خطر عظيم .

أقسام الإرادة :

الإرادة تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول : إرادة كونية : وهذه الإرادة مرادفة تمامًا للمشيئة ، فـ : (أراد) فيها بمعنى (شاء) ، وهذه الإرادة :

أولًا : تتعلق فيما يحبه اللَّه وفيما لا يحبه .

وعلى هذا ؛ فإذا قال قائل : هل أراد اللَّه الكفر ؟ فقل : بالإرادة الكونية نعم أراده ، ولو لم يرده اللَّه عز وجل ؛ ما وقع .

ثانيًا : يلزم فيها وقوع المراد ؛ يعنى : أن ما أراده اللَّه فلابد أن يقع ، ولا يمكن أن يتخلف .

✽ قال الشيخ الفوزان :

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ﴾ ؛ أى : من شاء اللَّه سبحانه أن يوفقه ، ويجعل قلبه قابلًا للخير . و « مَن » : اسم جازم .

و﴿يُرِدِ﴾ مجزوم على أنه فعل الشرط .

﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ مجزوم بجواب الشرط ، والشرح الشق ، وأصله التوسعة ، وشرحت الأمر : بينته ووضحته .

والمعنى : يوسّع اللَّه صدره للحق ، الذى هو الإسلام ، حتى يقبله بصدرٍ منشرحٍ .

﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ ؛ أى : ومن شاء سبحانه أن يصرفه عن قبول الحق .

﴿يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ ؛ أى : لا يتسع لقبول الحق .

﴿حَرَجًا﴾ ؛ أى : شديد الضيق ، فلا يبقى فيه منفذ للخير ، وهو تأكيد لمعنى ﴿ضَيِّقًا﴾ .

....

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أصله يتصعد ؛ أى : كأنما تكلف ما لا يطيق مرةً بعد مرةٍ ، كما يتكلف من يريد الصعود إلى السماء ، شبه الكافر فى ثقل الإيمان عليه بمن يتكلف ما لا يطيقه ، كصعود السماء .

الشاهد من الآية الكريمة : أن فيها إثبات الإرادة للَّه سبحانه ، وأنها شاملة للهداية والإضلال ؛ أى : يريد الهداية ، ويريد الإضلال كونًا وقدرًا لحكمةٍ بالغةٍ .

✽ قال الشيخ هراس :

وقوله : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ إلخ : تدل على أن كلًّا من الهداية والضلال بخلق اللَّه عزَّ وجلَّ ، فمن يرد هدايته ، أى إلهامة وتوفيقه يشرح صدره للإسلام بأن يقذف فى قلبه نورًا فيتسع له وينبسط كما ورد فى الحديث - ومن يرد إضلاله وخِذلانه يجعل صدره فى غايةِ الضِّيق والحرج ، فلا ينفذ إليه نور الإيمان . وشبه ذلك بمن يَصَّعَّدُ فى السماء .

✽ قال الشيخ ابن عثيمين :

القسم الثانى : إرادة شرعية : وهى مرادفة للمحبة ؛ فـ : (أراد) فيها بمعنى (أحب) ؛ فهى :

أولًا : تختص بما يحبه اللَّه ؛ فلا يريد اللَّه الكفر بالإرادة الشرعية ولا الفسق .

ثانيًا : أنه لا يلزم فيها وقوع المراد ؛ بمعنى : أن اللَّه يريد شيئًا ولا يقع ؛ فهو سبحانه يريد من الخلق أن يعبدوه ، ولا يلزم وقوع هذا المراد ؛ قد يعبدونه وقد لا يعبدونه ؛ بخلاف الإرادة الكونية .

فصار الفرق بين الإرادتين من وجهين :

١ - الإرادة الكونية يلزم فيها وقوع المراد ، والشرعية لا يلزم .

٢ - الإرادة الشرعية تختص فيما يحبه اللَّه ، والكونية عامة فيما يحبه وما لا يحبه .

فإذا قال قائل : كيف يريد اللَّه تعالى كونًا ما لا يحبه ؟ بمعنى : كيف يريد الكفر أو الفسق أو العصيان وهو لا يحبه ؟ ! .

فالجواب : أن هذا محبوب إلى اللَّه من وجه مكروه إليه من وجه آخر ؛ فهو محبوب إليه لما يتضمنه من المصالح العظيمة ، مكروه إليه لأنه معصية .

ولا مانع من أن يكون الشىء محبوبًا مكروهًا باعتبارين ؛ فها هو الرجل يقدِّم طفله الذى هو

....

فلذة كبده وثمرة فؤاده ؛ يقدمه إلى الطبيب ليشق جلدَه ويخرج المادة المؤذية فيه ولو أتى أحد من الناس يريد أن يشقه بظفره وليس بالمشرط ، لقاتله ، لكن هو يذهب إلى الطبيب ليشقه ، وهو ينظر إليه ، وهو فرح مسرور ، يذهب به إلى الطبيب ليحمى الحديد على النار حتى تلتهب حمراء ، ثم يأخذها ويكوى بها ابنه ، وهو راضٍ بذلك ؛ لماذا يرضى بذلك وهو ألم للابن ؟ لأنه مراد لغيره ، للمصلحة العظيمة التى تترتب على ذلك .

ونستفيد بمعرفتنا للإرادة من الناحية المسلكية أمرين :

الأمر الأول : أن نعلق رجاءنا وخوفنا وجميع أحوالنا وأعمالنا بالله ؛ لأن كل شىء بإرادته وهذا يحقق لنا التوكل .

الأمر الثانى : أن نفعل ما يريده الله شرعًا ؛ فإذا علمت أنه مراد لله شرعًا ومحبوب إليه ؛ فإن ذلك يقوى عزمنا على فعله .

هذا من فوائد معرفتنا بالإرادة من الناحية المسلكية ؛ فالأول : باعتبار الإرادة الكونية ، والثانى : باعتبار الإرادة الشرعية .

✽ قال الشيخ الفوزان :

فالإرادة الربانية نوعان :

النوع الأول : إرادة كونية قدَرية ، وهذه مرادفة للمشيئة ، ومن أمثلتها : قوله تعالى : ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ [الرعد: ١١] . وقوله : ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ .

النوع الثانى : إرادة دينية شرعية ، ومن أمثلتها : قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧] ، وقوله : ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣] .

الفرق بين الإرادتين :

١- الإرادة الكونية قد يحبها الله ويرضاها ، وقد لا يحبها ولا يرضاها ، والإرادة الشرعية لابد أنه يحبها ويرضاها ، فالله أراد المعصية كونًا ، ولا يرضاها شرعًا .

٦- إثباتُ مَحَبَّةِ اللَّهِ ومَوَدَّتِه لأوليائِه على ما يليقُ بجلالِه :

وقولِه : ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١) [البقرة : ١٩٥] ، ....

٢- والإرادة الكونية مقصودة لغيرها ، كخلق إبليس وسائر الشُّرور ؛ لتحصل بسبب ذلك المجاهدة والتوبة والاستغفار ، وغير ذلك من المحاب ، والإرادة الشرعية مقصودة لذاتها ، فاللَّه أراد الطاعة كونًا وشرعًا ، وأحبها ، ورضيها .

٣- الإرادة الكونية لابد من وقوعها ، والإرادة الشرعية لا يلزم وقوعها ، فقد تقع ، وقد لا تقع .

تنبيه : تجتمع الإرادتان ؛ الكونية والشرعية فى حق المخلص المطيع ، وتنفرد الإرادة الكونية فى حق العاصى .

تنبيه آخر : من لم يثبت الإرادتين ، ويفرق بينهما فقد ضل كالجبرية والقدرية ، فالجبرية أثبتوا الإرادة الكونية فقط ، والقدرية أثبتوا الإرادة الشرعية فقط ، وأهل السنة أثبتوا الإرادتين ، وفرقوا بينهما .

لما ذكر الشيخ رحمه اللَّه الآيات التى تدل على إثبات المشيئة والإرادة ، ذكر الآيات التى تدل على إثبات المحبة للَّه سبحانه ، وفى ذلك الرد على من سوَّى بين المشيئة والمحبة ، وقال : إنهما متلازمان ، فكل ما شاء اللَّه فقد أحبه .

وقد قدمنا أن فى ذلك تفصيلًا ، فقد يشاء اللَّه ما لا يحبه ، ككفر الكافر وسائر المعاصى ، وقد يشاء ما يحب ، كالإيمان وسائر الطاعات .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

هذه آيات فى إثبات صفة المحبة :

الآية الأولى : ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

﴿وَأَحْسِنُوٓاْ﴾ فعل أمر .

والإحسان قد يكون واجبًا ، وقد يكون مستحبًا مندوبًا إليه ، فما كان يتوقف عليه أداء الواجب ؛ فهو واجب ، وما كان زائدًا على ذلك فهو مستحب .

وبناءً على ذلك ؛ نقول : ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ﴾ : فعل أمر مستعمل فى الواجب والمستحب .

والإحسان يكون فى عبادة اللَّه ، ويكون فى معاملة الخلق ؛ فالإحسان فى عبادة اللَّه فسره

....

النبى ﷺ حين سأله جبريل ، فقال : ما الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه »[1]. وهذا أكمل من الذى بعده ؛ لأن الذى يعبد الله كأنه يراه يعبده عبادة طلب ورغبة ؛ « فإن لم تكن تراه ؛ فإنه يراك » . أى : فإن لم تصل إلى هذه الحال ؛ فاعلم أنه يراك والذى يعبد الله على هذه المرتبة يعبده عِبادةَ خوف وهرب ؛ لأنه يخاف ممن يراه .

وأما الإحسان بالنسبة لمعاملة الخلق ؛ فقيل فى تفسيره : بذل النَّدى ، وكف الأذى ، وطلاقة الوجه .

بذل الندى : أى : المعروف ؛ سواءً كان ماليًا أو بدنيًا أم جاهيًا .

كف الأذى : ألَّا تؤذى الناس بقولك ولا بفعلك .

وطلاقة الوجه : ألَّا تكون عبوسًا عند الناس ، لكن أحيانًا الإنسان يغضب ويعبس ، فنقول : هذا لسبب ، وقد يكون من الإحسان إذا كان سببًا لصلاح الحال .

ولهذا ؛ إذا رجمنا الزانى أو جلدناه ؛ فهو إحسان إليه .

ويدخل فى ذلك إحسان المعاملة فى البيع ، والشراء ، والإجارة ، والنكاح . .. وغير ذلك ؛ لأنك إذا عاملتهم بالطيب فى هذه الأمور ؛ صبرت على المعسر ، وأوفيت الحق بسرعة ؛ هذا يعد بذل الندى ، فإن اعتديت بالغش والكذب والتزوير ؛ فأنت لم تكف الأذى ؛ لأن هذا أذيّة . أحسن فى عبادة الله وإلى عباد الله .

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ : هذا تعليل للأمر ؛ فهذا ثواب المحسن ؛ أن الله يحبه ، ومحبة الله مرتبة عالية عظيمة ، ووالله إن محبة الله لتشترى بالدنيا كلها ، وهى أعلى من أن تحب الله ؛ فكون الله يحبك أعلى من أن تحبه أنت ، ولهذا قال تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] ، ولم يقل : فاتبعونى ؛ تصدقوا فى محبتكم لله . مع أن الحال تقتضى هكذا ، ولكن قال : ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ .

ولهذا قال بعض العلماء : الشأن كل الشأن فى أن الله يحبك لا أنك تحب الله .

كل يدعى أنه يحب الله ، لكن الشأن فى الذى فى السماء عز وجل ؛ هل يحبك أم لا ؟ إذا أحبك الله عز وجل ؛ أحبتك الملائكة فى السماء ، ثم يوضع لك القبول فى الأرض ، فيحبك أهل

---

(1) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رضى الله عنه .

....

الأرض[1]، ويقبلونك، ويقبلون ما جاء منك وهذه من عاجل بشرى المؤمن.

وفي هذه الآية من الأسماء: الله. ومن الصفات الألوهية، والمحبة.

❋ قال الشيخ الفوزان:

وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾. هذا أمر من الله تعالى بالإحسان، وهو الإتيان بالعمل على أحسن أحواله وأكملها، والإحسان هو أعلى مقامات الطاعة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هذا تعليل للأمر بالإحسان، فهو أمر به؛ لأنه يحبه، ويحب أهله، فيكون ذلك حافزًا على امتثال الأمر به.

❋ قال الشيخ هراس:

تضمنت هذه الآيات إثبات أفعال له تعالى ناشئة عن صفة المحبة ومحبة الله عزَّ وجلَّ لبعض الأشخاص والأعمال والأخلاق صفة له قائمة به، هي من صفات الفعل الاختيارية التي تتعلق بمشيئته. فهو يحب بعض الأشياء دون بعض على ما تقتضيه الحكمة البالغة، وينفي الأشاعرة والمعتزلة صفة المحبة بدعوى أنها توهم نقصًا، إذ المحبة في المخلوق معناها ميله إلى ما يناسبه أو يستلذه، فأما الأشاعرة فيرجعونها إلى صفة الإرادة، فيقولون: إن محبة الله لعبده لا معنى لها إلا إرادته لإكرامه ومثوبته.

وكذلك يقولون في صفات الرضى والغضب والكراهية والسخط كلها عندهم بمعنى إرادة الثواب والعقاب.

وأما المعتزلة فلأنهم لا يثبتون إرادة قائمة به، فيفسرون المحبة بأنها نفس الثواب الواجب عندهم على الله لهؤلاء بناءً على مذهبهم في وجوب إثابة المطيع وعقاب العاصي.

وأما أهل الحق فيثبتون المحبة صفة حقيقية لله عزَّ وجلَّ على ما يليق به فلا تقتضي عندهم نقصًا ولا تشبيهًا.

كما يثبتون لازم تلك المحبة وهي إرادته سبحانه إكرام من يحبه وإثابته، وليت شعري، بماذا يجيب النافون للمحبة عن مثل قوله عليه السلام في حديث أبي هريرة: «إن الله عزَّ وجلَّ إذا أحب عبدًا قال لجبريل عليه السلام: إني أحب فلانًا فأحبه. قال: فيقول جبريل عليه السلام

---

(1) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧).

﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾(١) [الحجرات : ٩] ، ....

لأهل السماء : إن ربكم عزَّ وجلَّ يحب فلانًا فأحبوه . قال : فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول في الأرض ، وإذا أبغضه فمثل ذلك » . رواه الشيخان .

وقوله تعالى فى الآية الأولى : ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ﴾ أمر بالإحسان العام فى كل شىء ، لا سيما فى أمور الفقه المأمور بها قبل ذلك ، والإحسان فيها يكون بالبذل وعدم الإمساك ، أو بالتوسط بين التقتير والتبذير ، وهو القوام الذى أمر اللَّه به فى سورة « الفرقان » .

روى مسلم فى « صحيحه » عن شداد بن أوس أن رسول اللَّه ﷺ قال : « إن اللَّه كتب الإحسان على كل شىء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » . وأما قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فهو تعليل للأمر بالإحسان ؛ فإنهم إذا علموا أن الإحسان موجب لمحبته سارعوا إلى امتثال الأمر به .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية الثانية : قوله : ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات : ٩] .

[قوله تعالى] : ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾ : فعل أمر ، والإقساط ليس هو القسط ، بل هو من فعل رباعى ؛ فالهمزة فيه همزة النفى ، هذه الهمزة هى همزة النفى ، إذا دخلت على الفعل ؛ نفت معناه ؛ فالفعل (قسط) ؛ بمعنى : جار ؛ فإذا أدخلت عليه همزة (أقسط) ؛ صار بمعنى : عدل ؛ أى : أزال القسط ، وهو الجور ، فيسمون مثل هذه الهمزة همزة السلب ؛ مثل : خطئ وأخطأ ، خطئ ؛ بمعنى ارتكب الخطأ عن عمد ، وأخطأ : ارتكبه عن غير عمد .

فقوله : ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾ ؛ أى : اعدلوا ، وهذا واجب ؛ فالعدل واجب فى كل ما تجب فيه التسوية :

يدخل فى ذلك العدل فى معاملة اللَّه عز وجل ؛ ينعم اللَّه عليك بالنعم ؛ فمن العدل أن تقوم بشكره ، يبين اللَّه لك الحق ؛ فمن العدل أن تتبع هذا الحق .

ويدخل فى ذلك العدل فى معاملات الخلق : أن تُعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به ، ولهذا قال النبى عليه الصلاة والسلام : « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ؛ فلتأته منيته وهو يؤمن باللَّه واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه »(1) .

---

(1) أخرجه مسلم (١٨٤٤) .

....

عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به ؛ مثلا : إذا أردت أن تعامل شخصًا معاملة ؛ فاعرضها أولًا على نفسك : هل إذا عاملك إنسان بها ؛ هل ترضى أم لا ؟ إن كنت ترضى ؛ فعامله ، [و] إلا ؛ فلا تعامله .

ويدخل في ذلك العدل بين الأولاد في العطية ؛ قال النبي ﷺ : « اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم »(1) .

ويدخل في ذلك العدل بين الورثة في الميراث ؛ فيعطى كل واحد نصيبه ، ولا يوصى لأحد منهم بشيء .

ويدخل في ذلك العدل بين الزوجات ؛ بأن تقسم لكل واحدة مثل ما تقسم للأخرى .

ويدخل في ذلك العدل في نفسك ، فلا تكلفها ما لا تطيق من الأعمال ؛ إن لربك عليك حقًّا ، ولنفسك عليك حقًّا .

وعلى هذا فقس .

وهنا يجب أن ننبّه على أن من الناس من يستعمل بدل العدل : المساواة ! وهذا خطأ ، لا يقال : مساواة ؛ لأن المساواة قد تقتضي التسوية بين شيئين الحكمةُ تقتضي التفريق بينهما .

ومن أجل هذه الدعوة الجائرة إلى التسوية صاروا يقولون : أي فرق بين الذكر والأنثى ؟ ! سوُّوا بين الذكور والإناث ! حتى إن الشيوعية قالت : أي فرق بين الحاكم والمحكوم ، لا يمكن أن يكون لأحد سلطة على أحد ، حتى بين الوالد والولد ، ليس للوالد سلطة على الولد . .. وهلم جرًا .

لكن إذا قلنا بالعدل ، وهو إعطاء كل أحد ما يستحقه ؛ زال هذا المحظور ، وصارت العبارة سليمة .

ولهذا ؛ لم يأت في القرآن أبدًا : إن الله يأمر بالتسوية ! لكن جاء : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النحل : ٩٠] ، ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء : ٥٨] .

وأخطأ على الإسلام من قال : إن دين الإسلام دين المساواة ! بل دين الإسلام دين عدل ، وهو الجمع بين المتساويين ، والتفريق بين المفترقين ؛ إلا أن يريد بالمساواة : العدل ، فيكون أصاب

---

(1) أخرجه البخاري (٢٥٨٧) ، ومسلم في (١٦٢٣) .

﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(١) [التوبة : ٧] ، ....

فى المعنى وأخطأ فى اللفظ .

ولهذا كان أكثر ما جاء فى القرآن نفى المساواة : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر : ٩] ، ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد : ١٦] ، ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ [الحديد : ١٠] ، ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء : ٩٥] .

ولم يأت حرف واحد فى القرآن يأمر بالمساواة أبدًا ، إنما يأمر بالعدل .

وكلمة (العدل) أيضًا تجدونها مقبولة لدى النفوس .

وأحببت أن أنبه على هذا ؛ لئلا نكون فى كلامنا إمَّعة ؛ لأن بعض الناس يأخذ الكلام على عواهِنِه ؛ فلا يفكر فى مدلوله وفيمن وضعه وفى مغزاه عند من وضعه .

وفى الآية من الأسماء والصفات ما سبق فى التى قبلها .

* قال الشيخ الفوزان :

وقوله تعالى : ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ . أمر بالإقساط ، وهو العدل فى المعاملات والأحكام مع القريب والبعيد .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ تعليل للأمر بالإقساط ، فهو أمر به ؛ لأنه ﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ ؛ أى العادلين ، ومحبته سبحانه لهم تستلزم أن يجزيهم أحسن الجزاء .

* قال الشيخ هراس :

وأما قوله فى الآية الثانية : ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ فهو أمر بالإقساط ، وهو العدل فى الحكم بين الطائفتين المتنازعتين من المؤمنين ، وهو من قسط إذ جار ، فالهمزة فيه للسلب ، ومن أسمائه تعالى « المقسط » ، وفى الآية الحث على العدل وفضله ، وأنه سبب لمحبة الله عزَّ وجلَّ .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الآية الثالثة : قوله : ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : ٧] .

« مَا » : شرطية ، وفعل الشرط : ﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ ، وجوابه : ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟﴾ ؛ أى : مهما استقام لكم المعاهدون الذين عاهدتم عند المسجد الحرام بالوفاء بالعهد ؛ فاستقيموا لهم فى ذلك .

....

وهذه الجملة الشرطية تقتضى بمنطوقها ؛ أنهم إذا استقاموا لنا ؛ وجب أن نستقيم لهم ، وأن نُوفِّى بعهدهم . وتدل بمفهومها على أنهم إذا لم يستقيموا ؛ لا نستقيم لهم .

والمعاهدون ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

قسم استقاموا على عهدهم وأمنّاهم ؛ فيجب علينا أن نستقيم لهم ؛ لقوله تعالى : ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ .

وقسم خانوا ونقضوا العهد ؛ فهؤلاء لا عهد لهم ، لقوله تعالى : ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ﴾ [التوبة : ١٢] .

وقسم ثالث يظهرون الاستقامة لنا ، لكننا نخاف من خيانتهم ؛ بمعنى أنه توجد قرائن تدل على أنهم يريدون الخيانة ؛ فهؤلاء قال الله فيهم : ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال : ٥٨] ؛ أى : انبذ إليهم عهدهم ؛ فقل : لا عهد بيننا وبينكم .

فإذا قال قائل : كيف ينبذ العهد إليهم وهم معاهدون ؟ ! .

قلنا : لخوف الخيانة ؛ فهؤلاء لا نأمنهم ؛ لأنه يمكن فى يوم من الأيام أن يُصَبِّحونا ؛ فهؤلاء ننبذ إليهم على سواء ، ولا نخونهم ما دام العهد قائمًا ؛ لأنه لو قال المسلمون : نحن نخاف منهم الخيانة ؛ سنبادرهم بالقتال .قلنا : هذا حرام ، لا تقاتلوهم حتى تنبذوا إليهم العهد .

وقوله : ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ : المتقون : هم الذين اتخذوا وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه ، هذا من أحسن وأجمع ما يقال فى تعريف التقوى .

وفى الآية من الأسماء والصفات كالتى قبلها .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله تعالى : ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ ؛أى : ما استقام لكم المشركون على العهد ، فلم ينقضـوه ، فاستقيمـوا على الوفـاء لهم ؛ فلا تقاتلوهم .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ؛ تعليل للأمر بالاستقامة على العهد ، فهو أمر بها ؛ لأنها من أعمال المتقين الذين يحبهم الله . وفيه إشارة إلى أن الوفاء بالعهد والاستقامة عليه من أعمال المتقين ، والتقوى : هى التحرُّز بطاعة الله عن معصيته ؛ رجاء ثوابه ، وخوفًا من عقابه .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1] [البقرة: ٢٢٢].

❁ **قال الشيخ هراس :**

وأما قوله تعالى : ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ . فمعناه : إذا كان بينكم وبين أحد عهد كهؤلاء الذين عاهدتموهم عند المسجد الحرام فاستقيموا لهم على عهدهم مدةَ استقامتهم لكم . فـ « ما » هنا مصدرية ظرفية ، ثم علل ذلك الأمر بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ . أى : يحب الذين يتقون اللّٰه فى كل شيء ، ومنه عدم نقض العهود .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية الرابعة : قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

التواب : صيغة مبالغة من التوبة ، وهو كثير الرجوع إلى اللّٰه ، والتوبة هى الرجوع إلى اللّٰه من معصيته إلى طاعته . وشروطها خمسة :

الأول : الإخلاص للّٰه تعالى ؛ بأن يكون الحامل له على التوبة مخافة اللّٰه ورجاء ثوابه .

الثانى : الندم على ما فعل من الذنب ، وعلامة ذلك أن يتمنى أنه لم يقع منه .

الثالث : الإقلاع عن الذنب ؛ بتركه إن كان محرمًا ، أو تداركه إن كان واجبًا يمكن تداركه .

الرابع : العزم على ألَّا يعود إليه .

الخامس : أن تكون فى وقت تقبل فيه التوبة ، وهو ما كان قبل حضور الموت وطلوع الشمس من مغربها ، فإن كانت بعد حضور الموت أو بعد طلوع الشمس من مغربها ؛ لم تقبل .

فالتَّواب : كثير التوبة . ومعلوم أن كثرة التوبة تستلزم كثرة الذنب ، ومن هنا نفهم بأن الإنسان مهما كثر ذنبه ، إذا أحدث لكل ذنب توبة ؛ فإن اللّٰه تعالى يحبه ، والتائب مرة واحدة من ذنب واحد محبوب إلى اللّٰه عز وجل من باب أولى ؛ لأن من كثرت ذنوبه وكثرت توبته يحبه اللّٰه ، فمن قَلَّت ذنوبه ؛ كانت محبة اللّٰه له بالتوبة من باب أولى .

وقوله : ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ : الذين يتطهرون من الأحداث ومن الأنجاس فى أبدانهم وما يجب تطهيره .

وهنا جمع بين طهارة الظاهر وطهارة الباطن : طهارة الباطن بقوله : ﴿ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ ، والظاهر بقوله : ﴿ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ .

وفى الآية من الأسماء والصفات ما سبق فى التى قبلها .

وقوله : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(1) [آل عمران : ٣١] .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ . التوابين : جمع تواب ، صيغة مبالغةٍ من التوبة ، وهى لغةً : الرجوع .

وشرعًا : الرجوع عن الذنب . هذا تفسيرها فى حق العبد .

وأما فى حق اللَّه فالتواب من أسماء اللَّه تعالى ، قال ابن القيم : العبد تواب ، واللَّه تواب ، فتوبة العبد رجوعه إلى سيده ، وتوبة اللَّه نوعان : إذن وتوفيق ، وقبول واعتداد . أهـ

﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ المتطهرين : جمع متطهرٍ ، اسم فاعلٍ من الطهارة ، وهى النزاهة والنظافة عن الأقذار ؛ حسيةً كانت أو معنويةً .

وفى الآية الكريمة إخبار من اللَّه سبحانه عن محبته لهذين الصنفين من عباده ؛ التوابين والمتطهرين .

✽ قال الشيخ هراس :

وأما قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ إلخ : فهو إخبار من اللَّه سبحانه عن محبته لهذين الصِّنفين من عباده .

أما الأول : فهم التوابون : أى الذين يكثرون التوبة والرجوع إلى اللَّه عزَّ وجلَّ بالاستغفار مما ألموا به على ما تقتضيه صيغة المبالغة ، فهم بكثرة التوبة قد تطهروا من الأقذار والنجاسات المعنوية التى هى الذنوب والمعاصى .

وأما الثانى : فهم المتطهرون الذين يبالغون فى التطهر ، وهو التنظيف بالوضوء أو بالغسل من الأحداث والنجاسات الحسية .

وقيل : المراد بالمتطهرين هنا الذين يتنزهون عن إتيان النساء فى زمن الحيض أو فى أدبارهن ، والحمل على العموم أَوْلى .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الآية الخامسة : قوله : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] .

يُسمى علماء السلف هذه الآية : آية المحنة ؛ يعنى الامتحان ؛ لأن قومًا ادعوا أنهم يحبون اللَّه فأمر اللَّه نبيه أن يقول لهم : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ . وهذا تحدٍّ لكل من ادَّعى محبة اللَّه ؛ أن يقال له : إن كنت صادقًا فى محبة اللَّه ، فاتبع الرسول ؛ فمن أحْدَث فى دين

وقوله : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾[1] [المائدة : ٥٤] .

رسول الله ﷺ ما ليس منه ، وقال : إنني أحب الله ورسوله بما أحدثته . قلنا له : هذا كذب ! لو كانت محبتك صادقة ؛ لاتبعت الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم تتقدم بين يديه بإدخال شيء في شريعته ليس من دينه ؛ فكل من كان أتبع لرسول الله ﷺ ؛ كان لله أحب .

وإذا أحب الله وقام بعبادته ؛ فإن الله تعالى يحبه ، بل إن الله عز وجل يعطيه أكثر مما عمل ؛ يقول تعالى في الحديث القدسي : « من ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي » ، ونفس الله أعظم من نفوسنا . « ومن ذكرني في ملأ ؛ ذكرته في ملأ خير منه » . وفي الحديث أيضًا : « أن من تقرب إليه شبرًا تقرب الله إليه ذراعًا ، ومن تقرب إليه ذراعًا ، تقرب إليه باعًا ، ومن أتى إلى الله يمشي ، أتاه الله هرولة »[1] .

إذن فعطاء الله عز وجل وثوابه أكثر من عملك .

وفي الآية من الأسماء والصفات مما سبق في التي قبلها .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ . سبب نزول هذه الآية الكريمة - كما ذكره ابن كثير وغيره - : أن قومًا زعموا أنهم يحبون الله فابتلاهم الله ؛ أي : اختبرهم بهذه الآية ، فهي حاكمة على كل من ادعى محبة الله ، وليس هو على الطريقة المحمدية ، بأنه كاذب في دعواه .

وقوله : ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ ؛ أي : يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه ، وهو محبته إياكم ، وهو أعظم من الأول .

❁ **قال الشيخ هراس :**

وأما قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ . فقد رُوي عن الحسن في سبب نزولها ؛ أن قومًا ادعوا أنهم يحبون الله ، فأنزل الله هذه الآية محنة لهم ، وفي هذه الآية قد شرط الله لمحبته اتباع نبيه ﷺ ، فلا ينال تلك المحبة إلا من أحسن الاتباع ، والاستمساك بهديه عليه السلام .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية السادسة : قوله : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ [المائدة : ٥٤] .

(1) أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) .

....

الفاء واقعة فى جواب الشرط فى قوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ ؛ أى : إذا ارتددتم عن دين اللّه ؛ فإن ذلك لا يضر اللّه شيئًا ؛ ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ ، وهذا كقوله : ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد : ٣٨] .

فكل من ارتد عن دين اللّه ؛ فإن اللّه لا يعبأ به ، لأنه تعالى غنيٌّ عنه ؛ بل يزيله ويأتى بخير منه ؛ ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ بدل منهم ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ ، وإذا كانوا يحبون اللّه ويحبهم اللّه ؛ فسوف يقومون بطاعته .

وتمام الآية : ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ : أمام المؤمنين أذلة ؛ يخفضون أجنحتهم للمؤمنين ، ويلينون لهم ، ويتطامنون ، ومع الكفار أعزة أقوياء ، لا يظهرون الذل أمام الكفر أبدًا .

وقد علمنا الرسول عليه الصلاة والسلام : « وإذا لقيتموهم فى طريق ؛ فاضطروهم إلى أضيقه »[1] ؛ فإذا لاقاكم اليهود والنصارى ، ولو كانوا ألفًا وأنتم عشرة ؛ نشق هذا الجمع ، ولا نُفسح لهم الطريق ، بل نلجئهم إلى أضيقه ، فنريهم العز بديننا لا بأنفسنا ، لأننا نحن بشر وهم بشر ، حتى يتبين لهم أن دين الإسلام هو الظاهر ، وأن المتمسك به هو العزيز .

﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ : يجاهدون فى سبيل اللّه ، كل من قام ضد دين اللّه من كافر وفاسق وملحد ومارق يجاهدونه ، وكل إنسان يقابلونه من السلاح بما يليق به ؛ فمن قاتلهم بالحديد والنار ؛ قاتلوه بالحديد والنار ، ومن قاتلهم بالجدال والخصام الكلامى ؛ جادلوه بمثل ذلك ؛ فهم يجاهدون فى اللّه بكل نوع من أنواع الجهاد .

﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ لا يخافون نَقد الناس عليهم ؛ يقولون الحق ولو كان على أنفسهم .

لكنهم يستعملون الحكمة فى هذا الجهاد ويرومون الوصول إلى الغاية ؛ فإذا رأوا أن الدعوة تستوجب التأخر فى بعض الأمور ؛ تأخروا ، وإذا رأوا أن الدعوة تقتضى اللين فى بعض الأحوال ؛ استعملوه ؛ لأنهم يريدون الوصول إلى غاية معينة ، والوسيلة حسب ما تقتضيه الحال .

ثم قال اللّه تعالى : ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ .

وفى الآية من الأسماء والصفات ما سبق فى التى قبلها ، وزيادة أن اللّه تعالى يكون محبوبًا .

---

(1) أخرجه مسلم (٢١٦٧) .

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ﴾ (١) [الصف : ٤] .

✱ قال الشيخ الفوزان :

وقوله تعالى : ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ . هذا جواب الشرط فى قوله : ﴿مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ يقول تعالى مخبرًا عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته أنه يستبدل به من خير منه ، وهم قوم متصفون بصفاتٍ عظيمةٍ ، من أعظمها أن اللَّه يحبهم ، وهم يحبونه .

والمراد بهم أبو بكرٍ الصديق وجيشه من الصحابة والتابعين رضى اللَّه عنهم الذى قاتلوا أهل الرِّدة ، ثم كل من جاء بعدهم من المقاتلين للمرتدين إلى يوم القيامة .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الآية السابعة : قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ﴾ [الصف : ٤] .

هذه الآية فى سورة « الصف » ، وسورة الصف فى الحقيقة هى سورة الجهاد ؛ لأن اللَّه تعالى بدأها بالثناء على المقاتلين فى سبيله ، ثم دعا إلى الجهاد فى آخرها ، ثم ذكر بين ذلك أن اللَّه سيظهر دينه على كل الأديان ولو كره المشركون .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ : لا يتقدم أحد على أحد ولا يتأخر ، حتى فى الجهاد .

والصلاة جهاد مصغر ، فيها قائدٌ يجب اتباعه ؛ فإن لم تتبعه ؛ بطلت صلاتك ؛ قال النبى ﷺ : « أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحوّل اللَّه رأسه رأسَ حمارٍ ، أو يجعل صورته صورة حمار »[1]، والصف فى الصلاة نظير الصف فى الجهاد ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يصفهم فى الجهاد كما يصفهم فى الصلاة ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ﴾ والبنيان كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « يشد بعضه بعضا »[2]، يتماسك بعضه ببعض ، ولهذا قال : ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ﴾ ؛ فليس كالمفرق : فالمرصوص أشد تماسكًا .

---

(1) أخرجه البخارى (٦٩١) ، ومسلم (٤٢٧) .

(2) أخرجه البخارى (٤٨١) ، ومسلم (٢٥٨٥) .

وقولِه : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [1] [البروج : ١٤] .

فهؤلاء الذين علق الله المحبة لهم بأعمالهم لهم عدة صفات :

أولًا : يقاتلون ؛ فلا يركنون إلى الخلود والخمول والكسل والجمود الذى يُضعف الدين والدنيا .

ثانيًا : الإخلاص ؛ لقوله : ﴿فِي سَبِيلِهِۦ﴾ .

ثالثًا : يشد بعضهم بعضًا ؛ لقوله : ﴿صَفًّا﴾ .

رابعًا : أنهم كالبنيان ، والبنيان حصن منيع .

خامسًا : لا يتخللهم ما يمزقهم ؛ لقوله : ﴿مَّرْصُوصٌ﴾ .

هذه خمس صفات علق الله المحبة لهؤلاء عليها .

وفى الآية من الأسماء والصفات ما سبق فى التى قبلها .

✵ قال الشيخ الفوزان :

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ .إخبار منه مؤكد أنه سبحانه يحب من اتصف بهذه الصفة .

﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ ؛ أى : يجاهدون بأموالهم وأنفسهم لإعلاء كلمة الله .

﴿صَفًّا﴾ ؛ أى : يصفون أنفسهم عند القتال ، ولا يزولون عن أماكنهم .

﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ قد رص بعضه ببعضٍ ، وألزق بعضه ببعضٍ ، فليس فيه فُرجة ، ولا خلل .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية الثامنة : قوله : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج : ١٤] .

﴿ٱلْغَفُورُ﴾ : الساتر لذنوب عباده المتجاوز عنها .

﴿ٱلْوَدُودُ﴾ مأخوذ من الود ، وهو خالص المحبة ، وهى بمعنى : وادٌّ ، وبمعنى : مَوْدود ؛ لأنه عز وجل محب ومحبوب ؛ كما قال تعالى : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة : ٥٤] . فالله عز وجل وادٌّ ومَودود ، وادٌّ لأوليائه ، وأولياؤه يودُّونه [و]يحبُّونه ؛ يحبُّون الوصول إليه وإلى جنته ورضوانه .

وفى الآية اسمان من أسماء الله : الغفور ، والودود . وصفتان : المغفرة ، والود .

....

وأتمنى لو أن المؤلف أضاف آية تاسعة فى المحبة، وهى الخلة، لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، والخليل: من كان فى أعلى المحبة؛ فالخلة أعلى أنواع المحبة؛ لأن الخليل هو الذى وصل حبه إلى سويداء القلب وتخلل مجارى عروقه، وليس فوق الخلة شيء من أنواع المحبة أبدًا.

يقول الشاعر لمعشوقته:

قَد تَخَلَّلْتِ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي وَبِذَا سُمِّيَ الخَلِيلُ خَلِيلًا

فالنبى عليه الصلاة والسلام يحب أصحابه كلهم، لكن ما اتخذ واحدًا منهم خليلًا أبدًا؛ قال النبى عليه الصلاة والسلام وهو يخطب الناس: «لو كنت متخذًا خليلًا من أمتى لاتخذت أبا بكر». إذن، أبو بكر هو أحب الناس إليه، لكن لم يصل إلى درجة الخلة؛ لأن الرسول ﷺ لم يتخذ أحدًا خليلًا، لكن إخوة الإسلام ومودته، وأما الخلة؛ فهى بينه وبين ربه؛ قال النبى ﷺ: «إن اللّه اتخذنى خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا»[1].

والخلة لا نعلم أنها ثبتت لأحد من البشر؛ إلا لاثنين، هما إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام؛ لقول النبى ﷺ: «إن اللّه اتخذنى خليلًا».

وهذه الخلة صفة من صفات اللّه عز وجل؛ لأنها أعلى أنواع المحبة، وهى توقيفية؛ فلا يجوز أن نثبت لأحد من البشر أنه خليل إلا بدليل، حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ إلا هذين الرسولين الكريمين؛ فهما خليلان للّه عز وجل.

وهذه الآية: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ هى التى استشهد بها من قتل الجعد بن درهم رأس المعطلة الجهمية، أول ما أنكر قال: إن اللّه لم يتخذ إبراهيم خليلًا! ولم يكلم موسى تكليمًا!! فقتله خالد بن عبد اللّه القسرى رحمه اللّه، حيث خرج به موثقًا فى يوم عيد الأضحى، وخطب الناس، وقال: أيها الناس! ضحوا! تَقَبَّل اللّه ضحاياكم؛ فإنى مضحٍّ بالجعد ابن درهم؛ لأنه زعم أن اللّه لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلم موسى تكليمًا، ثم نزل فذبحه.

ويقول ابن القيم فى ذلك:

وَلأَجْلِ ذا ضَحَّى بجعْدٍ خالِدُ الـ ـقَسْرِيُّ يَوْمَ ذَبَائِحِ القُرْبانِ

---

(1) أخرجه مسلم (٥٣٢).

....

إذْ قالَ إبْراهِيمُ لَيْسَ خَليلَهُ ... كَلا وَلا مُوسى الكَليمُ الدَّانِي
شَكَرَ الضَّحِيَّةَ كُلُّ صاحِبِ سُنَّةٍ ... لِلَّهِ دَرُّكَ مِنْ أخِي قُرْبانِ

فلدينا الآن محبة وود وخلة ؛ فالمحبة والود مطلقة ، والخلة خاصة بإبراهيم ومحمد .

ويجب أن يكون اعتمادنا فى الأمور الغيبية على الأدلة السمعية ، لكن لا مانع من أن نستدل بأدلة عقلية ؛ لإلزام من أنكر أن تكون المحبة ثابتة بالأدلة العقلية ؛ مثل الأشاعرة ؛ يقولون : لا يمكن أن تثبت المحبة بين اللّه وبين العبد أبدًا ؛ لأن العقل لا يدل عليها ، وكل ما لا يدل عليه العقل ؛ فإنه يجب أن ننزه اللّه عنه .

فنحن نقول : نثبت المحبة بالأدلة العقلية ؛ كما هى ثابته عندنا بالأدلة السمعية ؛ احتجاجًا على من أنكر ثبوتها بالعقل ؛ فنقول وباللّه التوفيق :

إثابة الطائعين بالجنات والنصر والتأييد وغيره ؛ هذا يدل بلا شك على المحبة ، ونحن نشاهد بأعيننا ونسمع بآذاننا عمن سبق وعمن لحق أن اللّه عز وجل أيد من أيد من عباده المؤمنين ونصرهم وأثابهم ، وهل هذا إلا دليل على المحبة لمن أيدهم ونصرهم وأثابهم عز وجل ؟! .

وهنا سؤالان :

الأول : بماذا ينال الإنسان محبة اللّه عز وجل ؟ وهذه هى التى يطلبها كل إنسان ، والمحبة عبارة عن أمر فطرى يكون فى الإنسان ولا يملكه ، ولهذا يُروى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال فى العدل بين زوجاته : « هذا قسْمى فيما أملك ؛ فلا تَلُمْنى فيما لا أملك » [1].

فالجواب : أن المحبة لها أسباب كثيرة :

منها : أن ينظر الإنسان : مَن الذى خلقه ؟ ومن الذى أمده بالنعم منذ كان فى بطن أمه ؟ ومَن الذى أجرى إليك الدم فى عروقك قبل أن تنزل إلى الأرض إلا اللّه عز وجل ؟ من الذى دفع عنك النقم التى انعقدت أسبابها ، وكثيرًا ما تشاهد بعينك آفات ونقمًا تهلكك ، فيرفعها اللّه عنك ؟ .

وهذا لا شك أنه يجلب المحبة ، ولهذا ورد فى الأثر : « أحبوا اللّه لما يغذوكم به من النعم » [2].

---

(1) « ضعيف الجامع » للألبانى (٤٥٩٣) .

(2) « ضعيف الجامع » للألبانى (١٧٦) .

....

وأعتقد لو أن أحدًا أهدى إليك قلمًا ؛ لأحببته ؛ فإذا كان كذلك ؛ فأنت انظر [إلى إنعامِ] اللَّه عليك النعم العظيمة الكثيرة التى لا تحصيها ؛ تحب اللَّه .

ولهذا إذا جاءت النعمة وأنت فى حاجة شديدة إليها ؛ تجد قلبك ينشرح ، وتحب الذى أسداها إليك ؛ بخلاف النعم الدائمة ؛ فأنت تذكر هذه النعم التى أعطاك اللَّه ، وتذكر أيضًا أن اللَّه فضلك على كثير من عباده المؤمنين ، إن كان اللَّه مَنَّ عليك بالعلم ؛ فقد فضّلك بالعلم ، أو بالعبادة ؛ فقد فضلك بالعبادة ، أو بالمال ؛ فقد فضلك بالمال ، أو بالأهل ، فقد فضلك بالأهل ، أو بالقوت فقد فضلك بالقوت ؛ وما من نعمة إلا وتحتها ما هو دونها ؛ فأنت إذا رأيت هذه النعمة العظيمة ؛ شكرت اللَّه وأحببته .

ومنها : محبة ما يحبه اللَّه من الأعمال القولية والفعلية والقلبية ؛ تحب الذى يحبه اللَّه ؛ فهذا يجعلك تحب اللَّه ؛ لأن اللَّه يجازيك على هذا أن يضع محبته فى قلبك ، فتحب اللَّه إذا قمت بما يحب ، وكذلك تحب من يحب ، والفرق بينهما ظاهر ؛ الأخيرة من الأشخاص ، والأولى من الأعمال ؛ لأننا أتينا بـ : (ما) التى لغير العاقل من الأعمال والأماكن والأزمان ، وهذه (من) للعاقل من الأشخاص ؛ تحب النبى عليه الصلاة والسلام ، تُحب إبراهيم ، تُحب موسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء ، تحب الصدِّقين ؛ كأبى بكر ، والشهداء ، وغير ذلك ممن يحبهم اللَّه ؛ فهذا يجلب لك محبة اللَّه ، وهو أيضًا من أثار محبة اللَّه ؛ فهو سبب وأثر .

ومنها : كثرة ذكر اللَّه ؛ بحيث يكون دائمًا على بالك ، حتى تكون كلما شاهدت شيئًا ، استدللت به عليه عز وجل ، حتى يكون قلبك دائمًا مشغولًا باللَّه ، مُعْرِضًا عما سواه ؛ فهذا يجلب لك محبة اللَّه عز وجل .

وهذه الأسباب الثلاثة هى عندى من أقوى أسباب محبة اللَّه عز وجل .

السؤال الثانى : ما الآثار المسلكية التى يستلزمها ما ذكر ؟ .

والجواب :

أولًا : قوله : ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة : ١٩٥] : يقتضى أن نحسن ، وأن نحرص على الإحسان ؛ لأن اللَّه يحبه ، وكل شىء يحبه اللَّه ؛ فإننا نحرص عليه .

ثانيًا : قوله : ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات : ٩] : يقتضى أن نعدل ونحرص على العدل .

....

ثالثًا : قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : ٧] : يقتضى أن نتّقى اللّٰه عز وجل ، لا نتقى المخلوقين ؛ بحيث إذا كان عندنا من نستحى منه من الناس ؛ تركنا المعاصى ، وإذا لم يكن ؛ عصينا ؛ فالتقوى أن نتقى اللّٰه عز وجل ، ولا يهمك الناس . أصلح ما بينك وبين اللّٰه ؛ يصلح اللّٰه ما بينك وبين الناس . انظر يا أخى إلى الشيء الذى بينك وبين ربك ، ولا يهمك غير ذلك ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج : ٣٨] . افعل ما يقتضيه الشرع ، وستكون لك العاقبة .

رابعًا : يقول اللّٰه تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، وهذه تستوجب أن أُكْثر التوبة إلى اللّٰه عز وجل ، أُكْثر أن أرجع إلى اللّٰه بقلبى وقالبى ، ومجرد قول الإنسان : أتوب إلى اللّٰه . هذا قد لا ينفع ، لكن تستحضر وأنت تقول : أتوب إلى اللّٰه : أن بين يديك معاصى ، ترجع إلى اللّٰه منها وتتوب ، حتى تنال بذلك محبة اللّٰه .

﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٢] : إذا غَسَلت ثوبك من النجاسة ؛ تحس بأن اللّٰه أحبك ؛ لأن اللّٰه يحب المتطهرين . إذا توضأت ؛ تحس بأن اللّٰه أحبك ؛ لأنك تطهرت . إذا اغتسلت ؛ تُحس أن اللّٰه أحبك ؛ لأن اللّٰه يحب المتطهرين .

واللّٰهِ ؛ إننا لغافلون عن هذه المعانى ، أكثر ما نستعمل الطهارة من النجاسة أو من الأحداث ؛ لأنها شرط لصحة الصلاة ؛ خوفًا من أن تفسد صلاتنا ، لكن يغيب عنا كثيرًا أن نشعر بأن هذا قربة وسبب لمحبة اللّٰه لنا ، لو كنا نستحضر عندما يغسل الإنسان نقطة بول أصابت ثوبه أن ذلك يجلب محبة اللّٰه له ؛ لحصّلنا خيرًا كثيرًا ، لكننا فى غفلة .

✽ قال الشيخ ابن عثيمين :

خامسًا : قوله : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران : ٣١] : هذا أيضًا يستوجب أن نحرص غاية الحرص على اتباع النبى ﷺ ؛ بحيث نترسم طريقه ؛ لا نخرج منه ، ولا نقصر عنه ، ولا نزيد ، ولا ننقص .

وشعورنا هذا يحمينا من البدع ، ويحمينا من التقصير ، ويحمينا من الزيادة والغلو ، لو أننا نشعر بهذه الأمور ؛ فانظر كيف يكون سلوكنا وآدابنا وأخلاقنا وعباداتنا .

سادسًا : قوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة : ٥٤] ؛ نحذر به من الردة عن الإسلام ؛ التى منها ترك الصلاة مثلًا ؛ فإذا علمنا

....

أن الله يهددنا بأننا إن ارتددنا عن ديننا ؛ أهلكنا الله ، وأتى بقوم يحبهم ويحبونه ، ويقومون بواجبهم نحو ربهم ؛ فإننا نلازم طاعة الله والابتعاد عن كل ما يقرب للردة .

سابعًا : قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف : ٤] .

إذا آمنا بهذه المحبة ؛ فعلنا هذه الأسباب الخمسة التى تستلزمها وتوجبها : القتال ، وعدم التوانى ، والإخلاص ؛ بأن يكون فى سبيل الله ، [و]أن يشد بعضنا بعضًا كأننا بنيان [مرصوص ، و]أن نُحْكِمَ الرابطة بيننا إحكامًا قويًّا كالبنيان المرصوص ، [و]أن نصف ، وهذا يقتضى التساوى حسًّا ، حتى لا تختلف القلوب ، وهو مما يؤكد الألفة ، والإنسان إذا رأى واحدًا عن يمينه وواحدًا عن يساره ؛ يقوى على الإقدام ، لكن لو يحيطون به من جميع الجوانب ؛ فستشتد همته .

فصار فى هذه الآيات ثلاثة مباحث :

١ - إثبات المحبة بالأدلة السمعية .

٢ - أسبابها .

٣ - الآثار المسلكية فى الإيمان بها .

أما أهل البدع الذين أنكروها ؛ فليس عندهم إلا حجة واهية ؛ يقولون :

أولًا : إن العقل لا يدل عليها .

ثانيًا : إن المحبة إنما تكون بين اثنين متجانسين ، لا تكون بين رب ومخلوق أبدًا ، ولا بأس أن تكون بين المخلوقات . ونحن نرد عليهم فنقول :

نجيبكم عن الأول - وهو أن العقل لا يدل عليها - بجوابين : أحدهما : بالتسليم ، والثانى : بالمنع .

التسليم : نقول : سلمنا أن العقل لا يدل على المحبة ، فالسمع دل عليها ، وهو دليل قائم بنفسه ، والله عز وجل يقول فى القرآن : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل : ٨٩] ؛ فإذا كان تبيانًا ؛ فهو دليل قائم بنفسه ، « وانتفاء الدليل المعيَّن ؛ لا يلزم منه انتفاء المدلول » . لأن المدلول قد يكون له أدلة متعددة ؛ سواء الحسيات أو المعنويات :

فالحسيات : مثل بلد له عدة طرق توصل إليه ؛ فإذا انسد طريق ؛ ذهبنا [من] الطريق الثانى .

أما المعنويات ؛ فكم من حكم واحد يكون له عدة أدلة ! وجوب الطهارة للصلاة مثلًا

....

فيه أدلة متعددة .

فإذن ؛إذا قلتم : إن العقل لا يدل على إثبات المحبة بين الخالق والمخلوق ؛ فإن السمع دل عليه بأجلى دليل وأوضح بيان .

الجواب الثانى : المنع : أن نمنع دعوى أن العقل لا يدل عليها ، ونقول : بل العقل دل على إثبات المحبة بين الخالق والمخلوق ؛ كما سبق .

وأما قولكم :إن المحبة لا تكون إلا بين متجانسين ؛ فيكفى أن نقول : لا قبول لدعواكم ! لأن المنع كافٍ فى رد الحجة ؛ إذ إن الأصل عدم الثبوت ؛ فنقول : دعواكم أنَّها لا تكون إلا بين متجانسين ممنوعٌ ، بل هى تكون بين غير المتجانسين ، فالإنسان عنده ساعة قديمة ما أتعبته بالصيانة وما فسدت عليه قط فتجده يحبها ، وعنده ساعة تأخذ نصف وقته فى التصليح فتجده يبغضها . وأيضًا نجد أن البهائم تُحِب وتُحَب .

فنحن – ولله الحمد – نثبت لله المحبة بينه وبين عباده .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ ؛أى : كثير المغفرة ، والغفر : الستر ، فهو سبحانه يغفر لمن تاب إليه ؛ أى : يستر ذنوبه ، ويتجاوز عن خطاياه .

﴿ٱلْوَدُودُ﴾ من الود ، وهو خالص الحب ، فهو سبحانه ودود بمعنى أنه يحب أهل طاعته .

وفى ذكر هذين الاسمين الكريمين مقترنين سرٌّ لطيف ، وهو أنه يحب عبده بعد المغفرة ، فيغفر له ويحبه بعد ذلك .

الشاهد من هذه الآيات الكريمة :أن فيها إثبات المحبة والمودة لله سبحانه ، وأنه يحب ، ويود بعض الأشخاص والأعمال والأخلاق ، فهو يحب بعض الأشياء دون بعضٍ ، على ما تقتضيه حكمته البالغة ، فهو يحب المحسنين ، ويحب المقسطين ، ويحب المتقين ، ويحب المتبعين لرسوله ﷺ ، ويحب المجاهدين فى سبيله ، ويحب التوابين والمتطهرين .

وفيها إثبات المحبة من الجانبين ؛ جانب العبد وجانب الرب ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ .

❁ قال الشيخ الفوزان :

﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ ففى ذلك الرد على من نفى المحبة من الجانبين ، كالجهمية والمعتزلة ، فقالوا : لا يَحِب ، ولا يُحب ، وأوّلوا محبة العباد بمعنى محبتهم

٧- إثباتُ اتصافِه بالرحمةِ والمغفرةِ سبحانَه وتعالى :

وقولِه : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾(١) [الفاتحة : ١] ، ....

عبادته وطاعته ، ومحبته للعباد بمعنى إحسانه إليهم وإثابتهم ونحو ذلك .

وهذا تأويل باطل ؛ لأن مودته ومحبته سبحانه وتعالى لعباده على حقيقتهما ، كما يليق بجلاله ، كسائر صفاته ، ليستا كمودة ومحبة المخلوق .

❁ **قال الشيخ هراس :**

قوله : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ إلخ : تضمنت الآية إثبات اسمين من الأسماء الحسنى ، وهما « الغفور الودود » ، أما الأول فهو مبالغة الغفر ، ومعناه : الذى يكثر منه الستر على المذنبين من عباده والتجاوز عن مؤاخذتهم .

وأصل الغفر الستر ، ومنه يقال : الصبغ أغفر للوسخ . ومنه المغفر لسترة الرأس .

وأما الثانى فهو من الود الذى هو خالص الحب وألطفه ، وهو إما من فعول بمعنى فاعل ، فيكون معناه : الكثير الود لأهل طاعته والمتقرب إليهم بنصرته ومعونته .

وأما من فعول بمعنى مفعول فيكون معناه : المودود لكثرة إحسانه المستحق لأن يوده خلقه فيعبدوه ويحمدوه .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

صفة الرحمة :

هذه آيات فى إثبات صفة الرحمة :

الآية الأولى : قوله : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل : ٣٠] .

هذه آية أتى بها المؤلف ليثبت حكمًا ، وليست مقدمة لما بعدها ، وقد سبق لنا شرح البسملة ؛ فلا حاجة إلى إعادته .

وفيها من أسماء اللَّه ثلاثة : اللَّه ، الرحمن ، الرحيم . ومن صفاته : الألوهية والرحمة .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

وقوله : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تقدم تفسيرها فى أول الكتاب ، ومناسبة ذكرها هنا أن فيها إثبات الرحمة للَّه تعالى ، صفةً من صفاته ، كما فى الآيات المذكورة بعدها .

قال الإمام ابن القيم : الرحمن دالٌّ على الصفة القائمة به سبحانه ، والرحيم دالٌّ على تعلقها

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[1] [غافر: ٧] ، ....

بالمرحوم ، كما قال تعالى : ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ولم يجئ قط : رحمن بهم .

وكان الأول للوصف والثاني للفعل ، فالأول دالٌّ على أن الرحمة وصفه ، والثاني دالٌّ على أنه يرحم خلقه برحمته . أهـ

❁ قال الشيخ هراس :

وأما قوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وما بعدها من الآيات فقد تضمنت إثبات أسمائه الرحمن والرحيم وإثبات صفتي الرحمة والعلم .

وقد تقدم في تفسير ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ الكلام على هذين الاسمين وبيان الفرق بينهما ، وأن أولهما دال على صفة الذات ، والثاني دال على صفة الفعل ، وقد أنكر الأشاعرة والمعتزلة صفة الرحمة بدعوى أنها في المخلوق ضعف وخور وتألم للمرحوم ، وهذا من أقبح الجهل فإن الرحمة إنما تكون من الأقوياء للضعفاء ، فلا تستلزم ضعفًا ولا خورًا بل قد تكون مع غاية العزة والقدرة ، فالإنسان القوي يرحم ولده الصغير وأبويه الكبيرين ومن هو أضعف منه ، وأين الضعف والخور وهما من أذم الصفات من الرحمة التي وصف الله نفسه بها وأثنى على أوليائه المتصفين بها وأمرهم أن يتواصوا بها .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الآية الثانية : قوله : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] : هذا يقوله الملائكة : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧] .

ما أعظم الإيمان ! وأعظم فائدته ! .

الملائكة حول العرش يحملونه ؛ يدعون الله للمؤمن .

وقوله : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً﴾ : يدل على أن كل شيء وصله علم الله ، وهو واصل لكل شيء ؛ فإن رحمته وصلت إليه ؛ لأن الله قرن بينهما في الحكم ، [حيث قال] : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ .

وهذه هي الرحمة العامة التي تشمل جميع المخلوقات ، حتى الكفار ؛ لأن الله قرن الرحمة هذه مع العلم ؛ فكل ما بلغه علم الله ، وعلم الله بالغ لكل شيء ؛ فقد بلغته رحمته ؛ فكما يعلم

....

الكافر ؛ يرحم الكافر أيضًا .

لكن رحمته للكافر رحمة جسدية بدنية دنيوية قاصرة غاية القصور بالنسبة لرحمة المؤمن ؛ فالذى يرزق الكافر هو اللّٰه الذى يرزقه بالطعام والشراب واللباس والمسكن والمنكح وغير ذلك .

أما المؤمنون ؛ فرحمتهم رحمة أخص من هذه وأعظم ؛ لأنها رحمة إيمانية دينية دنيوية .

ولهذا تجد المؤمن أحسنَ حالًا من الكافر ، حتى فى أمور الدنيا ؛ لأن اللّٰه يقول : ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل : ٩٧] . الحياة الطيبة هذه مفقودة بالنسبة للكفار ، حياتهم كحياة البهائم ، إذا شبع ، روث ، وإذا لم يشبع ؛ جلس يصرخ هكذا هؤلاء الكفار إن شبعوا بطِروا وإلا جلسوا يصرخون ! ولا يستفيدون من دنياهم ، لكن المؤمن إن أصابته ضراء صبر واحتسب الأجر على اللّٰه عز وجل ، وإن أصابته سراء شكر ؛ فهو فى خير فى هذا وفى هذا ، وقلبه منشرح مطمئن متفق مع القضاء والقدر ؛ لا جزع عند البلاء ، ولا بطَر عند النعماء ، بل هو متوازن مستقيم معتدل .

فهذا فرق ما بين الرحمة هذه وهذه .

لكن مع الأسف الشديد أيها الإخوة : إن منا أناسًا آلافًا يريدون أن يلحقوا بركب الكفار فى الدنيا ، حتى جعلوا الدنيا هى همَّهم ، إن أعطوا رضوا ، وإن لم يعطوا إذا هم يسخطون ، هؤلاء مهما بلغوا فى الرفاهية الدنيوية ؛ فهم فى جحيم ؛ لم يذوقوا لذة الدنيا أبدًا ، إنما ذاقها من آمن باللّٰه وعمل صالحًا ؛ ولهذا قال بعض السلف : واللّٰه لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه ؛ لجالدونا عليه بالسيوف . لأنه حال بينهم وبين هذا النعيم ما هم عليه من الفسوق والعصيان والركون إلى الدنيا وأنها أكبر هممهم ومبلغ علمهم .

قوله : ﴿رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ : ﴿رَّحْمَةً﴾ : تمييز محول عن الفاعل ، وكذلك ﴿وَعِلْمًا﴾ ؛ لأن الأصل : ربنا وسعت رحمتك وعلمك كل شىء .

وفى الآية من صفات اللّٰه : الربوبية ، وعموم الرحمة ، والعلم .

❁ قال الشيخ الفوزان :

قوله : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ - هذا حكاية عن الملائكة الذين يحملون العرش ومن حوله أنهم يستغفرون للذين آمنوا ، فيقولون : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ . أى : وسعت رحمتك وعلمك كل شىء .

﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[1] [الأحزاب: ٤٣]، ....

فـ ﴿رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ منصوبان على التمييز المحول عن الفاعل، وفى ذلك دليل على سعة رحمة اللَّه وشمولها، فما من مسلمٍ ولا كافرٍ إلا وقد نالته رحمة اللَّه فى الدنيا، وأما فى الآخرة فتختص بالمؤمنين.

✽ قال الشيخ هراس:

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ﴾ إلخ: من كلام اللَّه عزَّ وجلَّ حكاية عن حملة العرش والذين حوله، يتوسلون إلى اللَّه عزَّ وجلَّ بربوبيته وسعة علمه ورحمته فى دعائهم للمؤمنين، وهو من أحسن التوسلات التى يرجى معها الإجابة.

وانْتَصَبَ قوله: ﴿رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ على التمييز المحول من الفاعل، والتقدير: وسعت رحمتك وعلمك كل شىء. فرحمته سبحانه وسعت فى الدنيا المؤمن والكافر والبر والفاجر، ولكنها يوم القيامة تكون خاصة بالمتقين كما قال تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الآية.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

الآية الثالثة: قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلق بـ (رحيم)، وتقديم المعمول يدل على الحصر، فيكون معنى الآية: وكان بالمؤمنين لا غيرهم رحيمًا.

ولكن كيف نجمع بين هذه الآية والتى قبلها: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] ؟!.

نقول: الرحمة التى هنا غير الرحمة التى هناك، هذه رحمة خاصة متصلة برحمة الآخرة لا ينالها الكفار؛ بخلاف الأولى. هذا هو الجمع بينهما، وإلا؛ فكلٌّ مرحوم، لكن فرق بين الرحمة الخاصة والرحمة العامة.

وفى الآية من الصفات: الرحمة. ومن الناحية المسلكية: الترغيب فى الإيمان.

✽ قال الشيخ الفوزان:

وقوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾. هذا إخبار من اللَّه سبحانه أنه رحيم بالمؤمنين، يرحمهم فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذى جهله غيرهم، وبصرهم

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(١) [الأعراف: ١٥٦]، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾(٢) [الأنعام: ٥٤]، ....

الطريق الذى ضل عنه غيرهم. أما رحمته بهم فى الآخرة فأمنهم من الفزع الأكبر، ويدخلهم الجنة.

(١، ٢) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الآية الرابعة: قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] يقول جل جلاله ممتدحًا مثنيًا على نفسه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾. فأثنى على نفسه عز وجل بأن رحمته وسعت كل شيء من أهل السماء ومن أهل الأرض.

ونقول فيها ما قلنا فى الآية الثانية؛ فليرجع إليه.

الآية الخامسة: قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

﴿كَتَبَ﴾: بمعنى: أوجب على نفسه الرحمة؛ فالله عز وجل لكرمه وفضله وجوده أوجب على نفسه الرحمة، وجعل رحمته سابقة لغضبه، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، لكن حلمه ورحمته أوجبت أن يبقى الخلق إلى أجل مسمى.

ومن رحمته ما ذكره بقوله: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]: هذه من رحمته.

﴿سُوءًا﴾: نكرة فى سياق الشرط؛ فتعم كل سوء، حتى الشرك.

﴿بِجَهَالَةٍ﴾: يعنى: بسفهٍ، وليس المراد بها عدم العلم، والسفه عدم الحكمة؛ لأن كل من عصى الله؛ فقد عصاه بجهالة وسفه وعدم حكمة.

﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. فيغفر ذنبه ويرحمه.

ولم يختم الآية بهذا؛ إلا سينال التائب المغفرة والرحمة، هذا من رحمته التى كتبها على نفسه، وإلا لكان مقتضى العدل أن يؤاخذه على ذنبه، ويجزيه على عمله الصالح.

فلو أن رجلًا أذنب خمسين يومًا، ثم تاب وأصلح خمسين يومًا؛ فالعدل أن نعذبه عن خمسين يومًا، ونجازيه بالثواب عن خمسين يومًا، لكن الله عز وجل كتب على نفسه الرحمة؛ فكل الخمسين يومًا التى ذهبت من السوء تُمحى وتزول بساعة، وزد على ذلك: ﴿فَأُوْلَٰئِكَ

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1] [الأحقاف : ٨] ، ....

يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍۗ﴾ [الفرقان : ٧٠] ؛ السيئات الماضية تكون حسنات ؛ لأن كل حسنة عنها توبة ، وكل توبة فيها أجر .

فظهر بهذا أثر قوله تعالى : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ﴾ .

وفى الآية من صفات اللّٰه : الربوبية ، والإيجاب ، والرحمة .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ﴾ ، أى : أوجبها على نفسه الكريمة ؛ تفضلًا منه وإحسانًا . وهذه الكتابة كونية قدرية ، لم يوجبها عليه أحد .

✽ قال الشيخ هراس :

وقوله تعالى : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ﴾ أى : أوجبها على نفسه تفضلًا وإحسانًا ولم يوجبها عليه أحد .

وفى حديث أبى هريرة فى « الصحيحين » : « إن اللّٰه لمَّا خلق الخلق ، كتب كتابًا فهو عنده فوق العرش ؛ إن رحمتى سبقت - أو تسبق - غضبي » .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية السادسة : قوله : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس : ١٠٧] .

اللّٰه عز وجل هو الغفور الرحيم ، جمع عز وجل بين هذين الاسمين ؛ لأن بالمغفرة سقوط عقوبة الذنوب ، وبالرحمة حصول المطلوب ، والإنسان مفتقر إلى هذا وهذا ؛ مفتقر إلى مغفرة ينجو بها من آثامه ، ومفتقر إلى رحمة يسعد بها بحصول مطلوبه .

فـ : ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ : صيغة مبالغة مأخوذة من الغفر ، وهو الستر مع الوقاية ؛ لأنه مأخوذ من المغفر ، والمغفر شيء يوضع على الرأس فى القتال يقى من السهام ، وهذا المغفر تحصل به فائدتان هما : ستر الرأس عنها .

ويدل على هذا ما ثبت فى الصحيح : « أن اللّٰه عز وجل يخلو يوم القيامة بعبده ، ويقرره بذنوبه ، يقول : عملت كذا ، وعملت كذا .. حتى يقر ، فيقول اللّٰه عز وجل له : قد سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم »[1] .

---

(1) أخرجه البخارى (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) .

﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[(١)] [يوسف : ٦٤] .

أما ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ : فهو ذو الرحمة الشاملة . وسبق الكلام فى ذلك .

وفى الآية من الأسماء : الغفور ، والرحيم . ومن الصفات : المغفرة ، والرحمة .

٭ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ . يخبر سبحانه عن نفسه أنه متصف بالمغفرة والرحمة لمن تاب إليه ، وتوكل عليه ، ولو من أى ذنبٍ كان كالشرك ، فإنه يتوب عليه ، ويغفر له ، ويرحمه .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الآية السابعة : قوله : ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف : ٦٤] ؛ قالها عن يعقوب حين أرسل مع أبنائه أخا يوسف الشقيق ؛ لأن يوسف عليه الصلاة والسلام قال : لا كيل لكم إذا رجعتم ، إلا إذا أتيتم بأخيكم ، فبلغوا والدهم هذه الرسالة ، ومن أجل الحاجة أرسله معهم ، وقال لهم عند وداعه : ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف : ٦٤] . يعنى : لن تحفظوه ، ولكن اللّٰه هو الذى يحفظه .

﴿خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾ : ﴿حَٰفِظٗاۖ﴾ : قال العلماء : إنها تمييز ؛ كقول العرب : للّٰهِ دره فارسًا . وقيل : إنها حال من فاعل ﴿خَيۡرٌ﴾ فى قوله : ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ﴾ ؛ أى : حال كونه حافظًا .

الشاهد من الآية هنا قوله : ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ؛ حيث أثبت اللّٰه عز وجل الرحمة ، بل بين أنه أرحم الراحمين ، لو جمعت رحمة الخلق كلهم ، بل رحمات الخلق كلهم ؛ لكانت رحمة اللّٰه أشد وأعظم .

أرحم ما يكون من الخلق بالخلق رحمة الأم ولدها ؛ فإن رحمة الأم ولدها لا يساويها شىء من رحمة الناس أبدًا ، حتى الأب لا يرحم أولاده مثل أمهم فى الغالب .

جاءت امرأة فى السبى تطلب ولدها وتبحث عنه ، فلما رأته ؛ أخذته بشفقة وضمته إلى صدرها أمام الناس وأمام الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقال النبى ﷺ : « أترون أن هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ » . قالوا : لا واللّٰه يا رسول اللّٰه . قال : « اللّٰه أرحم بعباده من هذه بولدها »[(1)].

---

(1) أخرجه البخارى (٥٩٩٩) ، ومسلم (٢٧٥٤) .

....

جل جلاله ، عز ملكه وسلطانه .

كل الراحمين ؛ إذا جمعت رحماتهم كلهم ؛ فليست بشيء عند رحمة اللّٰه .

ويدلك على هذا أن اللّٰه عز وجل خلق مائة رحمة ، وضع منها رحمة واحدة يتراحم بها الخلائق فى الدنيا [1].

كل الخلائق تتراحم ؛ البهائم والعقلاء ، ولهذا تجد البعير الجموح الرموح ترفع رجلها عن ولدها مخافة أن تصيبه عندما يرضع حتى يرضع بسهولة ويُسر ، وكذلك تجد السباع الشرسة تجدها تحن على ولدها وإذا جاءها أحد فى جحرها مع أولادها ؛ ترمى نفسها عليه ، فتدافع عنهم ، حتى ترده عن أولادها .

وقد دل على ثبوت رحمة اللّٰه تعالى : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والعقل :

فأما الكتاب ؛ فجاء به إثبات الرحمة على وجوه متنوعة : تارة بالاسم ؛ كقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس : ١٠٧] ، وتارة بالصفة ؛ كقوله : ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف : ٥٨] ، وتارة بالفعل ؛ كقوله : ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت : ٢١] ، وتارة باسم التفضيل ؛ كقوله : ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف : ٩٢] .

وبمثل هذه الوجوه . . . جاءت السنة .

وأما الأدلة العقلية على ثبوت الرحمة للّٰه تعالى ؛ فمنها ما نرى من الخيرات الكثيرة التى تحصل بأمر اللّٰه عز وجل ، ومنها ما نرى من النِّقم الكثيرة التى تندفع بأمر اللّٰه ؛ كله دال على إثبات الرحمة عقلًا .

فالناس فى جدب وفى قحط ؛ الأرض مجدبة ، والسماء قاحطة ؛ لا مطر ولا نبات ، فينزل اللّٰه المطر وتنبت الأرض ، وتشبع الأنعام ويسقى الناس . . . حتى العاميّ الذى لم يدرس ، لو سألته وقلت : هذا من أى شيء؟ فسيقول : هذا من رحمة اللّٰه ولا يشك أحد فى هذا أبدًا .

فرحمة اللّٰه عز وجل ثابتة بالدليل السمعى والدليل العقلى .

وأنكر الأشاعرة وغيرهم من أهل التعطيل أن يكون اللّٰه تعالى متصفًا بالرحمة ؛ قالوا : لأن العقل لم يدل عليها . وثانيًا : لأن الرحمة رقة وضعف وتطامن للمرحوم ، وهذا لا يليق باللّٰه

---

(1) أخرجه البخارى (٦٤٦٩) ، ومسلم (٢٧٥٢) .

....

عز وجل ؛ لأن اللَّه أعظم من أن يرحم بالمعنى الذى هو الرحمة ، ولا يمكن أن يكون للَّه رحمة ! !
وقالوا : المراد بالرحمة : إرادة الإحسان ، أو : الإحسان نفسه . أى : إما النعم ، أو إرادة النعم .

فتأمل الآن كيف سلبوا هذه الصفة العظيمة ، التى كل مؤمن يرجوها ويؤملها ، كل إنسان لو سألته : ماذا تريد ؟ قال : أريد رحمة اللَّه [قال تعالى] : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف : ٥٦] . أنكروا هذا ؛ قالوا : لا يمكن أن يوصف اللَّه بالرحمة ! ! .

ونحن نرد عليهم قولهم من وجهين : بالتسليم ، والمنع :

التسليم أن نقول : هب أن العقل لا يدل عليها ، ولكن السمع دل عليها ؛ فثبتت بدليل آخر ، والقاعدة العامة عند جميع العقلاء : أن انتفاء الدليل المعين لا يستلزم انتفاء المدلول ؛ لأنه قد يثبت بدليل آخر . فهب أن الرحمة لم تَثْبُتْ بالعقل ، لكن ثَبَتَتْ بالسمع ، وكم من أشياء ثبتت بأدلة كثيرة .

أما المنع ؛ فنقول : إن قولكم : إن العقل لا يدل على الرحمة . قولٌ باطلٌ ، بل العقل يدل على الرحمة ؛ فهذه النعم المشهودة والمسموعة ، وهذه النِّقم المدفوعة ؛ ما سببها ؟ إن سببها الرحمة بلا شك ، ولو كان اللَّه لا يرحم العباد ؛ ما أعطاهم النعمَ ، ولا دفع عنهم النِّقم ! .

وهذا أمر مشهود ؛ يشهد به الخاص والعام ، العامى فى دكانه أو سوقه يعرف أن هذه النعم من آثار الرحمة .

والعجيب أن هؤلاء القوم أثبتوا صفة الإرادة عن طريق التخصيص ؛ قالوا : الإرادة ثابتة للَّهِ تعالى بالسمع والعقل : بالسمع : واضح . وبالعقل : لأن التخصيص ؛ يدل على الإرادة ومعنى التخصيص يعنى تخصيص المخلوقات بما هى عليه يدل على الإرادة ، كون هذه السماء سماء ، وهذه الأرض أرضًا ، وهذه النجوم وهذه الشمس . . .. هذه مختلفة بسبب الإرادة ؛ أراد اللَّه أن تكون السماء سماء ؛ فكانت ، وأن تكون الأُرض أرضًا ؛ فكانت ، والنجم نجمًا ؛ فكان . . .. وهكذا .

قالوا : فالتخصيص يدل على الإرادة ؛ لأنه لولا الإرادة ؛ لكان الكل شيئًا واحدًا ! .

نقول لهم : يا سبحان اللَّه العظيم ! هذا الدليل على الإرادة بالنسبة لدلالة النعم على الرحمة أضعف وأخفى من دلالة النعم على الرحمة ؛ لأن دلالة النعم على الرحمة يستوى فى عملها العام والخاص ، ودلالة التخصيص على الإرادة لا يعرفها إلا الخاص من طلبةِ العلم ؛ فكيف تنكرون ما

....

هو أجلى وتثبتون ما هو أخفى ؟! وهل هذا إلا تناقضٌ منكم ؟! ..

ما نستفيده من الناحية المسلكية في هذه الآيات :

الأمر المسلكي : هو أن الإنسان ما دام يعرف أن الله تعالى رحيم ؛ فسوف يتعلق برحمة الله ، ويكون منتظرًا لها ، فيحمله هذا الاعتقاد على فعل كل سبب يُوصل إلى الرحمة ؛ مثل : الإحسان ؛ قال الله تعالى فيه : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف : ٥٦] ، والتقوى ؛ قال تعالى : ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، والإيمان ؛ فإنه من أسباب رحمة الله ؛ كما قال تعالى : ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب : ٤٣] ، وكلما كان الإيمان أقوى ؛ كانت الرحمة إلى صاحبه أقرب بإذن الله عز وجل .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله تعالى : ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ . هذا مما حكاه الله تعالى عن نبيه يعقوب عليه السلام ، حينما طلب منه بنوه أن يرسل معهم أخاهم ، وتعهدوا بحفظه ، فقال لهم : إن حفظ الله سبحانه له خير من حفظكم .

وهذا تفويض من يعقوب إلى الله ، في حفظ ابنه ، ومن أسمائه تعالى الحفيظ الذي يحفظ عباده المؤمنين بحفظه الخاص عما يفسد إيمانهم ، وعما يضرهم في دينهم ، ودنياهم .

الشاهد من الآيات الكريمة : أن فيها وصف الله سبحانه وتعالى بالرحمة والمغفرة على ما يليق بجلاله كسائر صفاته .

وفيها الرد على الجهمية والمعتزلة ونحوهم ممن ينفون عن الله اتصافه بالرحمة والمغفرة ؛ فرارًا من التشبيه بزعمهم ، قالوا : لأن المخلوق يوصف بالرحمة .

وتأولوا هذه الآيات على المجاز ، وهذا باطل ؛ لأن الله سبحانه أثبت لنفسه هذه الصفة ، ورحمته سبحانه ليست كرحمة المخلوق حتى يلزم التشبيه ، كما يزعمون ؛ فإن الله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ، والاتفاق في الاسم لا يقتضي الاتفاق في المسمى ، فللخالق صفات تليق به ، وتختص به ، وللمخلوق صفات تليق به ، وتختص به . والله أعلم .

٨- ذِكْرُ رِضَا اللَّهِ وغضبِه وسَخَطِه وكراهتِه فى القرآنِ الكريمِ ، وأنه مُتَّصِفٌ بذلك:

وقولِه : ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ (1) [البينة : ٨] ، ....

❁ قال الشيخ هراس :

وأما قوله : ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ . فالحافظ والحفيظ مأخوذ من الحفظ وهو الصيانة ، ومعناه الذى يحفظ عباده بالحفظ العام فييسر لهم أقواتهم ويقيهم أسباب الهلاك والعطب ، وكذلك يحفظ عليهم أعمالهم ويحصى أقوالهم ويحفظ أولياءه بالحفظ الخاص فيعصمهم عن مواقَعةِ الذنوب ويحرسهم من مكايد الشيطان وعن كل ما يضرهم فى دينهم ودنياهم ، وانتصب « حافظًا » تمييزًا « لخير » الذى هو أفعل تفضيل .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

صفة الرضا : هذه من آيات الرضا ؛ فاللَّه سبحانه وتعالى موصوف بالرضا ، وهو يرضى عن العمل ، ويرضى عن العامل .

يعنى : أن رضا اللَّه متعلق بالعمل وبالعامل .

أما بالعمل ؛ فمثل قوله تعالى : ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر : ٧] ؛ أى : يرضى الشكر لكم .

وكما فى قوله تعالى : ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] . وكما فى الحديث الصحيح : « إن اللَّه يرضى لكم ثلاثًا ، ويكره لكم ثلاثًا . . . » (1) .

فهذا الرضا متعلق بالعمل .

ويتعلق الرضى أيضًا بالعامل ؛ مثل هذه الآية التى ساقها المؤلف : ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة : ١١٩] .

فرضا اللَّه صفة ثابتة للَّه عز وجل ، وهى فى نفسه ، وليست شيئًا منفصلًا عنه ؛ كما يدعيه أهل التعطيل .

ولو قال لك قائل : فسر لى الرضا . لم تتمكن من تفسيره ؛ لأن الرضا صفة فى الإنسان غريزية ، والغرائز لا يمكن للإنسان أن يفسرها بأجلى وأوضح من لفظها .

---

(1) أخرجه مسلم (١٧١٥) .

....

فنقول : الرضا صفة فى الله عز وجل ، وهى صفة حقيقية ، متعلقة بمشيئته ؛ فهى من الصفات الفعلية ، يرضى عن المؤمنين وعن المتقين وعن المقسطين وعن الشاكرين ، ولا يرضى عن القوم الكافرين ، ولا يرضى عن القوم الفاسقين ، ولا يرضى عن المنافقين ؛ فهو سبحانه وتعالى يرضى عن أناس ولا يرضا عن أناس ، ويرضى أعمالاً ويكره أعمالاً .

ووصف الله تعالى بالرضى ثابت بالدليل السمعى ، كما سبق ، وبالدليل العقلى ، فإن كونه عز وجل يُثيب الطائعين ويجزيهم على أعمالهم وطاعاتهم يُدلُّ على الرضا .

فإن قلت : استدلالك بالمثوبة على رضا الله عز وجل قد يُنَازَعُ فيه ؛ لأن الله سبحانه قد يعطى الفاسق من النعم أكثر مما يعطى الشاكر . وهذا إيرادٌ قوى .

ولكن الجواب عنه أن يقال : إعطاؤه الفاسق المقيم على معصيته استدراج ، وليس عن رضًى :

كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف : ١٨٢، ١٨٣] .

وقال النبى ﷺ : « إن الله ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه ؛ لم يفلته » . وتلا قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1] [هود : ١٠٢] .

وقال تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام : ٤٤، ٤٥] .

أما إذا جاءت المثوبة والإنسان مقيم على طاعة الله ؛ فإننا نعرف أن ذلك صادر عن رضا الله عنه .

آيات صفات الغضب والسخط والكراهية والبغض :

ذكر المؤلف رحمه الله فى هذه الصفات خمس آيات :

✱ قال الشيخ الفوزان :

قوله : ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ؛ أى : رضى عنهم بما عملوه من الطاعات الخالصة له ،

---

(1) أخرجه البخارى (٤٦٨٦) ، ومسلم (٢٥٨٣) .

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾[1] [النساء: ٩٣].

ورضوا عنه بما جازاهم به من النعيم .

والرضا منه سبحانه هو أرفع درجات النعيم ، قال تعالى : ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة : ٧٢] ، ورضاهم عنه هو رضا كلٌّ منهم بمنزلته حتى يظن أنه لم يؤت أحد خيرًا مما أوتى .

❁ قال الشيخ هراس :

قوله : ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ إلخ : تضمنت هذه الآيات إثبات بعض صفات الفعل من الرضى لله الغضب ، واللعن والكره ، والسخط والمقت والأسف .

وهي عند أهل الحق صفات حقيقة لله عزَّ وجلَّ على ما يليق به ولا تشبه ما يتصف به المخلوق من ذلك ، ولا يلزم منها ما يلزم فى المخلوق ، فلا حجة للأشاعرة والمعتزلة على نفيها ولكنهم ظنوا أن اتصاف اللّه عزَّ وجلَّ بها يلزمه أن تكون هذه الصفات فيه على نحو ما هى فى المخلوق ، وهذا الظن الذى ظنوه فى ربهم أرداهم فأوقعهم فى حمأة النفى والتعطيل ، والأشاعرة يرجعون هذه الصفات كلها إلى الإرادة كما علمت سابقًا ، فالرضا عندهم إرادة الثواب والغضب والسخط إلخ إرادة العقاب .

وأما المعتزلة فيرجعونها إلى نفس الثواب والعقاب .

وقوله سبحانه : ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ . إخبار عما يكون بينه وبين أوليائه من تبادل الرضا والمحبة ، أما رضاه عنهم فهو أعظم وأجل من كل ما أعطوا من النعيم كما قال سبحانه : ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ، وأما رضاهم عنه فهو رضا كل منهم بمنزلته مهما كانت وسروره بها حتى يظن أنه لم يؤت أحد خيرًا مما أوتى ، وذلك فى الجنة .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الآية الأولى :قوله : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء: ٩٣] .

﴿وَمَن﴾ : شرطية . و(مَن) الشرطية تفيد العموم .

﴿مُؤْمِنًا﴾ : هو من آمن باللّه ورسوله ؛ فخرج به الكافر والمنافق .

لكن من قتل كافرًا له عهد أو ذمة أو أمان ؛ فهو آثم ، لكن لا يستحق الوعيد المذكور فى الآية .

....

وأما المنافق ؛ فهو معصوم الدم ظاهرًا ؛ ما لم يعلن بنفاقه .

وقوله : ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ : يدل على إخراج الصغير وغير العاقل ؛ لأن هؤلاء ليس لهم قصد معتبر ولا عمد ، وعلى إخراج المخطئ ، وقد سبق بيانه فى الآية التى قبلها . فالذى يقتل مؤمنًا متعمدًا جزاؤه هذا الجزاء العظيم .

﴿جَهَنَّمُ﴾ : اسم من أسماء النار .

﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ ؛ أى : ماكثًا فيها .

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ : الغضب صفة ثابتة للّٰه تعالى على الوجه اللائق به ، وهى من صفاته الفعلية .

﴿وَلَعَنَهُۥ﴾ : اللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة اللّٰه .

فهذه أربعة أنواع من العقوبة ، والخامس : قوله : ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ .

خمس عقوبات ، واحدة منها كافية فى الردع والزجر لمن كان له قلب .

ولكن يشكل على منهج أهل السنة ذكر الخلود فى النار ؛ حيث رُتِّبَ على القتل ، والقتل ليس بكفر ، ولا خلود فى النار عند أهل السنة إلا بالكفر .

وأجيب عن ذلك بعدة أوجه :

الوجه الأول : أن هذه فى الكافر إذا قتل المؤمن .

لكن هذا القول ليس بشىء ؛ لأن الكافر جزاؤه جهنم خالدًا فيها وإن لم يقتل المؤمن : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب : ٦٤، ٦٥] .

الوجه الثانى : أن هذا فيمن استحل القتل ؛ لأن الذى يستحل قتل المؤمن كافر .

وعجب الإمام أحمد من هذا الجواب ؛ قال : كيف هذا ؟ ! إذا استحل قتله ؛ فهو كافر وإن لم يقتله ، وهو مخلَّد فى النار وإن لم يقتله .

ولا يستقيم هذا الجواب أيضًا .

الوجه الثالث : أن هذه الجملة على تقدير شرط ؛ فجزاؤه جهنم خالدًا فيها إن جازاه .

وفى هذا نظرٌ ؛ أى فائدة فى قوله : ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ ؛ ما دام المعنى إن جازاه ؟ !

....

فنحن الآن نسأل : إذا جازاه ؛ فهل هذا جزاؤه ؟ فإذا قيل : نعم ؛ فمعناه أنه صار خالدًا فى النار ، فتعود المشكلة مرة أخرى ، ولا نتخلص .

فهذه ثلاثة أجوبة لا تسلم من الاعتراض .

الوجه الرابع : أن هذا سبب ، ولكن إذا وجد مانع ؛ لم ينفذ السبب ؛ كما نقول : القرابة سبب للإرث ؛ فإذا كان القريب رقيقًا ؛ لم يرث ؛ لوجود المانع وهو الرِّق .

ولكن يرد علينا الإشكال من وجه آخر ، وهو : ما الفائدة من هذا الوعيد ؟

فنقول : الفائدة أن الإنسان الذى يقتل مؤمنًا متعمدًا قد فعل السبب الذى يخلد به فى النار ، وحينئذ يكون وجود المانع محتملًا ؛ قد يوجد ، وقد لا يوجد ؛ فهو على خطر جدًّا ، ولهذا قال النبى ﷺ : « لن يزال المؤمن فى فسحة من دينه ما لم يَصِب دمًا حرامًا »[1] . فإذا أصاب دمًا حرامًا والعياذ بالله ؛ فإنه قد يضيق بدينه حتى يخرج منه .

وعلى هذا ؛ فيكون الوعيد هنا باعتبار المآل ؛ لأنه يخشى أن يكون هذا القتل سببًا لكفره ، وحينئذ يموت على الكفر ، فيخلد .

فيكون فى هذه الآية على هذا التقدير ذكر سبب السبب ؛ فالقتل عمدًا سببٌ لِأن يموتَ الإنسان على الكفر ، والكفر سبب للتخليد فى النار .

وأظن هذا إذا تأمله الإنسان ؛ يجد أنه ليس فيه إشكال .

الوجه الخامس : أن المراد بالخلود المكث الطويل ، وليْس المراد به المكث الدائم ؛ لأن اللغة العربية يطلق فيها الخلود على المكث الطويل كما يقال : فلان خالد فى الحبس . والحبس ليس بدائم . ويقولون : فلان خالد خلود الجبال . ومعلوم أن الجبال ينسفها ربى نسفًا فيذرها قاعًا صفصفًا .

وهذا أيضًا جواب سهل لا يحتاج إلى تعب ، فنقول : إن الله عز وجل لم يذكر التأييد ؛ لم يقل : خالدًا فيها أبدًا بل قال : ﴿خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ ، والمعنى : أنه ماكث مكثًا طويلًا .

الوجه السادس : أن يقال : إن هذا من باب الوعيد ، والوعيد يجوز إخلافه ؛ لأنه انتقال من العدل إلى الكرم ، والانتقال من العدل إلى الكرم كرم وثناء وأنشدوا عليه قول الشاعر :

---

(1) أخرجه البخارى (٦٨٦٢) .

....

وإنِّــي وَإنْ أوْعَــدْتُــهُ أوْ وَعَــدْتُــه لَمُخْلِـفُ إيْعادى وَمُنْـجِـزُ مَوْعِـدِي

أوعدته بالعقوبة ، ووعدته بالثواب ؛ لمخلف إيعادى ومنجز موعدى .

وأنت إذا قلت لابنك : والله ؛ إن ذهبت إلى السوق ؛ لأضربنك بهذه العصا . ثم ذهب إلى السوق ، فلما رجع ؛ ضربته بيدك ؛ فهذا العقاب أهون على ابنك ؛ فإذا توعد الله عز وجل القاتل بهذا الوعيد ، ثم عفا عنه ؛ فهذا كرم .

ولكن هذا فى الحقيقة فيه شيء من النظر ؛ لأننا نقول : إن نفذ الوعيد ؛ فالإشكال باقٍ ، وإن لم ينفذ ؛ فلا فائدة منه .

هذه ستة أوجه فى الجواب عن الآية ، وأقربها الخامس ؛ ثم الرابع .

مسألة : إذا تاب القاتل ؛ هل يستحق الوعيد ؟

الجواب : لا يستحق الوعيد بنص القرآن ؛ لقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان : ٦٨- ٧٠] ، وهذا واضح ؛ أن من تاب - حتى من القتل - ؛فإن الله تعالى يبدل سيئاته حسنات .

والحديث الصحيح فى قصة الرجل من بنى إسرائيل ، الذى قتل تسعة وتسعين نفسًا ، فألقى الله فى نفسه التوبة ، فجاء إلى عابد ، فقال له : إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا ؛ فهل له من توبة ؟ ! فالعابد استعظم الأمر ، وقال : ليس لك توبة ! فقتله ، فأتم به المائة . فدُلَّ على عالِمٍ ، فقال : إنه قتل مائة نفس ؛ فهل له من توبة ؟ قال : نعم ؛ ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ! ولكن هذه القرية ظالم أهلها ؛ فاذهب إلى القرية الفلانية ، فيها أهل خير وصلاح ، فسافر الرجل ، وهاجر من بلده إلى بلد الخير والصلاح ، فوافته المنية فى أثناء الطريق ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، حتى أنزل الله بينهم حكَمًا ، وقال : قيسوا ما بين القريتين ، فإلى أيتهما كان أقرب ؛ فهو من أهلها ؛ فكان أقرب إلى أهل القرية الصالحة فقبضته ملائكة الرحمة(1) .

فانظر كيف كان من بنى إسرائيل فقبلت توبته ، مع أن الله جعل عليهم آصارًا وأغلالًا ،

---

(1) أخرجه البخارى (٣٤٧٠) ، ومسلم (٢٧٦٦) .

....

وهذه الأمة رفع عنها الآصار والأغلال ؛ فالتوبة فى حقها أسهل ؛ فإذا كان هذا من بنى إسرائيل ؛ فكيف بهذه الأمة ؟ ! .

فإن قلت : ماذا تقول فيما صح عن ابن عباس رضى اللّٰه عنهما : أن القاتل ليس له توبة ؟ ! .

فالجواب من أحد الوجهين :

١ - إما أن ابن عباس رضى اللّٰه عنهما استبعد أن يكون للقاتل عمدًا توبة ، ورأى أنه لا يُوفَّق للتوبة ، وإذا لم يوفق للتوبة ؛ فإنه لا يسقط عنه الإثم ، بل يؤاخذ به .

٢ - وإما أن يقال : إن مراد ابن عباس رضى اللّٰه عنهما : أن لا توبة له فيما يتعلق بحق المقتول ؛ لأن القاتل عمدًا يتعلق به ثلاثة حقوق : حق اللّٰه ، وحق المقتول ، والثالث لأولياء المقتول .

أ - أما حق اللّٰه ؛ فلا شك أن التوبة ترفعه ؛ لقوله تعالى : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر : ٥٣] ، وهذه فى التائبين .

ب - وأما حق أولياء المقتول ؛ فيسقط إذا سلم الإنسان نفسه لهم ، أتى إليهم وقال : أنا قتلت صاحبكم ، واصنعوا ما شئتم فهم إما أن يقتصوا ، أو يأخذوا الدِّية ، أو يعفوا ، والحقُّ لهم .

جـ - وأما حق المقتول ؛ فلا سبيل إلى التخلُّص منه فى الدنيا .

وعلى هذا يحمل قول ابن عباس أنه لا توبة له ؛ أى : بالنسبة لحق المقتول .

على أن الذى يظهر لى أنه إذا تاب توبة نصوحًا ؛ فإنه حتى حق المقتول يسقط ، لا إهدارًا لحقِّه ، ولكن اللّٰه عز وجل بفضله يتحمل عن القاتل ويعطى المقتول رفعة درجات فى الجنة أو عفوًا عن السيئات ؛ لأن التوبة الخالصة لا تبقى شيئًا ، ويؤيد هذا عموم آية « الفرقان » : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ ، إلى قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ﴾ [الفرقان : ٦٨- ٧٠] .

وفى هذه الآية من صفات اللّٰه : الغضب ، واللعن وإعداد العذاب .

وفيها من الناحية المسلكية التحذير من قتل المؤمن عمدًا .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ احترز بقوله ﴿مُؤْمِنًا﴾ عن قتل الكافر ،

....

وبقوله: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ عن قتل الخطأ.

والمتعمد هو الذى يقصد من يعلمه آدميًا معصومًا، فيقتله بما يغلب على الظن موته به.

وقوله: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ﴾؛ أى عقابه فى الآخرة.

﴿جَهَنَّمُ﴾: طبقة من طبقات النار.

﴿خَـٰلِدًا فِيهَا﴾؛ أى مقيمًا فى جهنم، والخلود هو المكث الطويل.

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ معطوف على مقدرٍ، دل عليه السياق؛ أى جعل جزاءه جهنم، وغضب عليه.

﴿وَلَعَنَهُۥ﴾؛ أى: طرده عن رحمته، واللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

❊ قال الشيخ هراس:

وأما قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ الآية، فقد احترز بقوله مؤمنًا عن قتل الكافر، وبقوله معتمدًا، أى: قاصدًا لذلك (بأن يقصد من يعلمه آدميًا معصومًا فيقتله بما يغلب على الظن موته به) عن القتل الخطأ.

وقوله: ﴿خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ أى: مقيمًا على جهة التأييد، وقيل: الخلود المكث الطويل واللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، واللعين والملعون من حقت عليه اللعنة أو دعى عليه بها.

وقد استشكل العلماء هذه الآيات من حيث أنها تدل على أن القاتل عمدًا لا توبة له وأنه مخلد فى النار، وهذا معارض لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. وقد أجابوا عن ذلك بعدة أجوبة منها:

١- أن الجزاء لمن كان مستحلًا لقتل المؤمن عمدًا.

٢- أن هذا جزاؤه الذى يستحقه لو جوزى مع إمكان ألا يجازى بأن يتوب أو يعمل صالحًا يرجح بعمله السيئ.

٣- أن الآية واردة مورد التغليظ والزجر.

٤- أن المراد بالخلود المكث الطويل كما قدمنا.

وقد ذهب ابن عباس وجماعة إلى أن القاتل عمدًا لا توبة له حتى قال ابن عباس: إن هذه

وقوله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾(١) [محمد : ٢٨] .

الآية من آخر ما نزل ولم ينسخها شيء ، والصحيح أن على القاتل حقوقًا ثلاثة : حقًّا للّه وحقًّا للورثة وحقًّا للقتيل ، فحق اللّه يسقط بالتوبة ، وحق الورثة يسقط بالاستيفاء فى الدنيا أو العفو ، وأما حق القتيل فلا يسقط حتى يجتمع بقاتله يوم القيامة ، ويأتى ورأسه فى يده ويقول : يا رب ، سل هذا فيم قتلنى ؟

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية الثانية : قوله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [محمد : ٢٨] .

﴿ذَٰلِكَ﴾ : المشار إليه ما سبق ، والذى سبق هو قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧، ٢٨]. يعنى : فكيف تكون حالهم فى تلك اللحظات إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت ؟ ! .

﴿ذَٰلِكَ﴾ ؛ أى : ضرب الوجوه والأدبار .

﴿بِأَنَّهُمْ﴾ ؛ أى : بسبب ؛ فالباء للسببية .

﴿ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ . أى : الذى أسخط اللّه ، فصاروا يفعلون كل ما به سخط اللّه عز وجل من عقيدة أو قول أو فعل .

أما ما فيه رضا اللّه ؛ فحالهم فيه قوله : ﴿وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ . أى كرهوا ما فيه رضاه ، فصارت عاقبتهم تلك العاقبة الوخيمة ؛ أنهم عند الوفاة تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم .

وفى هذه الآية من صفات اللّه : إثبات السخط والرضى .

وسبق الكلام على صفة الرضى ، وأما السخط ؛ فمعناه قريب من معنى الغضب .

❋ **قال الشيخ الفوزان :**

وقوله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ ؛ أى : ما ذكر فى الآية قبلها من شدة توفى الملائكة للكفار من أجل أنهم ﴿ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ من الانهماك فى المعاصى والشهوات المحرمة .

﴿وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ ؛ أى : كرهوا ما يرضيه من الإيمان والأعمال الصالحة .

وقوله : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾(١) [الزخرف : ٥٥] .

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية الثالثة : قوله : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف : ٥٥] .

﴿ءَاسَفُونَا﴾ . يعنى : أغضبونا وأسخطونا .

﴿فَلَمَّآ﴾ : هنا شرطية ، فعل الشرط فيها : ﴿ءَاسَفُونَا﴾ ، وجوابه : ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ .

ففيها رد على من فسروا السخط والغضب بالانتقام ؛ لأن أهل التعطيل من الأشعرية وغيرهم يقولون : إن المراد بالسخط والغضب الانتقام ، أو إرادة الانتقام ، ولا يفسرون السخط والغضب بصفة من صفات الله يتصف بها هو نفسه ، فيقولون : غضبه ؛ أى انتقامه ، أو إرادة انتقامه ، فهم إما أن يفسروا الغضب بالمفعول المنفصل عن الله وهو الانتقام أو بالإرادة لأنهم يقرون بها ، ولا يفسرونه بأنه صفة ثابتة لله على وجه الحقيقة تليق به .

ونحن نقول له : بل السخط والغضب غير الانتقام ، والانتقام نتيجة الغضب والسخط ؛ كما نقول : إن الثواب نتيجة الرضا ؛ فالله سبحانه وتعالى يسخط على هؤلاء القوم ويغضب عليهم ثم ينتقم منهم .

وإذا قالوا : إن العقل يمنع ثبوت السخط والغضب لله عز وجل .

فإننا نجيبهم بما سبق فى صفة الرضا ؛ لأن الباب واحد .

ونقول : بل العقل يدل على السخط والغضب ؛ فإن الانتقام من المجرمين وتعذيب الكافرين دليل على السخط والغضب ، وليس دليلًا على الرضا ، ولا على انتفاء الغضب والسخط .

ونقول : هذه الآية : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف : ٥٥] . ترد عليكم ؛ لأنه جعل الانتقام غير الغضب ؛ لأن الشرط غير المشروط .

مسألة :

بقى أن يقال : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ . نحن نعرف أن الأسف : هو الحزن والندم على شىء مضى على النادم لا يستطيع رفعه ؛ فهل يوصف الله بالحزن والندم ؟ .

الجواب : لا ، ونجيب عن الآية بأن الأسف فى اللغة له معنيان :

المعنى الأول : الأسف بمعنى الحزن ؛ مثل قول الله تعالى عن يعقوب : ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ [يوسف : ٨٤] .

وقوله : ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾(١) [التوبة : ٤٦] .

الثاني : الأسف بمعنى الغضب ؛ فيقال : أسف عليه يأسف ؛ بمعنى : غضب عليه .

والمعنى الأول : ممتنع بالنسبة للّه عز وجل . والثاني : مثبت للّه ؛ لأن اللّه تعالى وصف به نفسه ، فقال : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ .

وفى الآية من صفات اللّه : الغضب ، والانتقام .

ومن الناحية المسلكية : التحذير مما يغضب اللّه تعالى .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ ؛ أى : (أغضبونا) .

﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ ؛ أى : عاقبناهم ، والانتقام هو أشد العقوبة .

❁ قال الشيخ هراس :

وأما قوله : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ إلخ : فالأسف يستعمل بمعنى شدة الحزن وبمعنى شدة الغضب والسخط وهو المراد فى الآية والانتقام والمجازاة بالعقوبة مأخوذًا من النقمة وهى شدة الكراهة والسخط .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية الرابعة : قوله : ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة : ٤٦] .

يعنى بذلك المنافقين الذين لم يخرجوا مع النبى ﷺ فى الغزوات ؛ لأن اللّه تعالى كره انبعاثهم ؛ لأن عملهم غير خالص له ، واللّه تعالى أغنى الشركاء عن الشرك ، ولأنهم إذا خرجوا ، كانوا كما قال اللّه تعالى : ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ [التوبة : ٤٧] ، وإذا كانوا غير مخلصين ، وكانوا مفسدين ؛ فإن اللّه سبحانه وتعالى يكره الفساد ويكره الشركَ فـ : ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ . يعنى : جعل هِمَمَهم فاترة عن الخروج للجهاد .

﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة : ٤٦] . قيل : يحتمل أن اللّه قال ذلك كونًا . ويحتمل أن بعضهم يقول لبعض : اقعد مع القاعدين ؛ ففلان لم يخرج ، وفلان لم يخرج . ممن عذرهم اللّه عز وجل ؛ كالمريض والأعمى والأعرج ، ويقولون : إذا قدم النبى ﷺ اعتذرنا إليه واستغفر لنا وكفانا .

وقوله : ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1] [الصف : ٣] .

ويمكن أن نجمع بين القولين ؛ لأنه إذا قيل لهم ذلك ، وقعدوا ؛ فهم ما قعدوا إلا بقول اللّه عز وجل .

وفى الآية هنا إثبات أن اللّه عز وجل يكره ، وهذا أيضًا ثابت فى الكتاب والسنة :

قال اللّه تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ . إلى قوله : ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء : ٢٣- ٣٨] .

وكما فى هذه الآية التى ذكرها المؤلف : ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ .

وقال النبى ﷺ : « إن اللّه كره لكم قيل وقال »[1] .

فالكراهة ثابتة بالكتاب والسنة ؛ أن اللّه تعالى يكره .

وكراهة اللّه سبحانه وتعالى للشيء تكون للعمل ؛ كما فى قوله : ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ . وكما فى قوله : ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء : ٣٨] .

وتكون أيضًا للعامل ؛ كما جاء فى الحديث : « إن اللّه تعالى إذا أبغض عبدًا ؛ نادى جبريل ؛ إنى أبغض فلانًا ؛ فأبغضه »[2] .

✡ **قال الشيخ الفوزان :**

وقوله : ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ ؛ أى : أبغض اللّه خروجهم معكم للغزو .

﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ ؛ أى : حبسهم عن الخروج معك ، وخذلهم قضاءً وقدرًا ، وإن كان قد أمرهم بالغزو شرعًا ، وأقدرهم عليه حسًا ، لكنه لم يعنهم عليه لحكمةٍ يعلمها ، وقد بينها فى الآية التى بعدها فى قوله : ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ الآية .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية الخامسة : قوله : ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف : ٣] .

﴿كَبُرَ﴾ ؛ بمعنى : عظم .

﴿مَقْتًا﴾ : تمييز محول عن الفاعل ، والمقت أشد البغض ، وفاعل ﴿كَبُرَ﴾ بعد أن حول الفاعل إلى تمييز : (أن) وما دخلت عليه فى قوله : ﴿أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ .

وهذه الآية تعليل للآية التى قبلها وبيان لعاقبتها : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا

---

(1) أخرجه البخارى (١٤٧٧) ، ومسلم (٥٩٣) .

(2) أخرجه البخارى (٣٢٠٩) ، ومسلم (٢٦٣٧) واللفظ له .

٩- ذِكْرُ مَجِيءِ اللَّهِ سبحانَه لفَصْلِ القضاءِ بينَ عبادِه على ما يليقُ بجلالِه :
وقولِه : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾(1) [البقرة : ٢١٠] .

تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف : ٢، ٣] ؛ فإن هذا من أكبر الأمور أن يقول الإنسان ما لا يفعل .

ووجه ذلك أن يقال : إذا كنت تقول الشيءَ ولا تفعله ؛ فأنت بين أمرين : إما كاذب فيما تقول ، ولكن تُخوِّف الناس ، فتقول لهم الشيء وليس بحقيقة . وإما أنك مستكبر عما تقول ؛ تأمر الناس به ولا تفعله ، وتنهى الناس عنه وتفعله .

وفي الآية من الصفات : المقت ، وأنه يتفاوت .

ومن الناحية المسلكية : التحذير من أن يقول الإنسان ما لا يفعل .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ ؛ أي : عظم ذلك في المقت ، وهو البغض ، و ﴿مَقْتًا﴾ منصوب على التمييز .

﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ؛ أي : أن تعِدوا أنفسكم خيرًا ، ثم لا تفوا بما وعدتم .

وقد ورد في سبب نزولها أن ناسًا من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : وددنا لو أن اللَّه أخبرنا بأحب الأعمال ، فنعمل به ، فأخبر اللَّه نبيه ﷺ أن أحب الأعمال إيمان باللَّه لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ، ولم يقروا به .

فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فقال اللَّه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ .

الشاهد من الآيات : أن فيها وصف اللَّه بالغضب والرضا واللعن والانتقام والكراهية والأسف والمقت ، وهذه كلها من صفات الأفعال التي يفعلها جل وعلا متى شاء ، إذا شاء ، كيف شاء ، وأهل السنة يثبتون ذلك للَّه ، كما أثبته لنفسه ، على ما يليق بجلاله .

آيات صفة المجيء والإتيان :

ذكر المؤلف رحمه اللَّه تعالى لإثبات صفة المجيء والإتيان آيات أربع .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الآية الأولى : قوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

....

﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾: ﴿هَلْ﴾: استفهام بمعنى النفى؛ يعنى: ما ينظرون، وكلما وجدت (إلا) بعد الاستفهام؛ فالاستفهام يكون للنفى. هذه قاعدة؛ قال النبى عليه الصلاة والسلام: «هل أنت إلا إصبع دميت»[1]؛ أى: ما أنت.

ومعنى: ﴿يَنظُرُونَ﴾ هنا: ينتظرون؛ لأنها لم تتعد بـ: (إلى)؛ فلو تعدت بـ: (إلى) لكان معناها النظر بالعين غالبًا، أما إذا تعدت بنفسها؛ فهى بمعنى: ينتظرون. أى: ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام، وذلك يوم القيامة.

﴿يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ﴾: و﴿فِى﴾: هنا بمعنى (مع)؛ فهى للمصاحبة، وليست للظرفية قطعًا؛ لأنها لو كانت للظرفية؛ لكانت محيطة بالله، [ومعلومٌ] أن الله تعالى واسع عليم، ولا يحيط به شىء من مخلوقاته.

فـ ﴿فِى ظُلَلٍ﴾؛ أى: مع الظلل؛ فإن الله عند نزوله جل وعلا للفصل بين عباده ﴿تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾: غمام أبيض؛ ظلل عظيمة؛ لمجىء الله تبارك وتعالى.

وقوله: ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾: الغمام؛ قال العلماء: إنه السحاب الأبيض؛ كما قال تعالى مُمتنًا على بنى إسرائيل: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ [البقرة: ٥٧]، والسحاب الأبيض يُبقى الجو مستنيرًا؛ بخلاف الأسود والأحمر؛ فإنه تحصل به الظلمة، وهو أجمل منظرًا.

وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: الملائكة بالرفع معطوف على لفظ الجلالة الله؛ يعنى: أو تأتيهم الملائكة، وسبق بيان اشتقاق هذه الكلمة، ومن هم الملائكة.

والملائكة تأتى يوم القيامة؛ لأنها تنزل فى الأرض، ينزل أهل السماء الدنيا، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة وهكذا . . . . . إلى السابعة؛ يحيطون بالناس.

وهذا تحذير من هذا اليوم الذى يأتى على هذا الوجه؛ فهو مشهد عظيم من مشاهد يوم القيامة، يحذر الله به هؤلاء المكذبين.

❁ **قال الشيخ الفوزان:**

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ هذا تهديد للكفار التاركين للدخول فى السلم؛ أى: الإسلام، المتبعين

---

(1) أخرجه البخارى (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٦).

وقوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾(١) [الأنعام : ١٥٨] ، ....

لخطوات الشيطان . ومعنى ﴿يَنظُرُونَ﴾ : ينتظرون : يقال : نظرته وانتظرته ، بمعنًى واحدٍ .

﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ذاته سبحانه لفصل القضاء بينهم يوم القيامة ، فيجازى كل عاملٍ بعمله .

﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ الظلل : جمع ظلةٍ ، وهى ما يظلك ، والغمام : السحاب الرقيق الأبيض ، سمى بذلك ؛ لأنه يغم ؛ أى : يستر .

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ؛ أى : والملائكة يجيئون فى ظللٍ من الغمام .

﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ ؛ أى : فرغ من الأمر الذى هو إهلاكهم .

❁ قال الشيخ هراس :

قوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ إلخ : فى هذه الآيات إثبات صفتين من صفات الفعل له سبحانه وهما صفتا الإتيان والمجىء ، والذى عليه أهل السنة والجماعة الإيمان بذلك على حقيقته والابتعاد عن التأويل الذى هو فى الحقيقة إلحاد وتعطيل .

ولعل من المناسب أن ننقل إلى القارئ هنا ما كتبه حامل لواء التجهم والتعطيل فى هذا العصر وهو المدعو بزاهد الكوثرى قال فى حاشيته على كتاب « الأسماء والصفات » للبيهقى ما نصه : (قال الزمخشرى ما معناه : إن اللَّه يأتى بعذاب فى الغمام الذى ينتظر منه الرحمة ، فيكون مجىء العذاب من حيث تنتظر الرحمة أفظع وأهول) . وقال إمام الحرمين فى معنى الباء كما سبق ، وقال الفخر الرازى : أن يأتيهم أمر اللَّه . أهـ .

فأنت ترى من نقل هذا الرجل عن أسلافه فى التعطيل مدى اضطرابهم فى التخريج والتأويل .

على أن الآيات صريحة فى بابها لا تقبل شيئًا من تلك التأويلات ، فالآية الأولى تتوعد هؤلاء المصرين على كفرهم وعنادهم واتباعهم الشيطان بأنهم ما ينتظرون إلا أن يأتيهم اللَّه عزَّ وجلَّ فى ظلل الغمام لفصل القضاء بينهم ، وذلك يوم القيامة ، ولهذا قال بعد ذلك : ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الآية الثانية : قوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] .

....

نقول فى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ . ما قلناه فى الآية السابقة ؛ أى : ما ينتظر هؤلاء إلا واحدة من هذه الأحوال :

أولًا : ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ . أى : لقبض أرواحهم ؛ قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال : ٥٠] .

ثانيا : ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ يوم القيامة للقضاء بينهم .

ثالثا : ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾ : وهذه طلوع الشمس من مغربها ، فسرها بذلك النبى ﷺ[1] .

وأما ذكر الله هذه الأحوال الثلاث ؛ لأن الملائكة إذا نزلت لقبض أرواحهم ؛ لا تقبل منهم التوبة ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء: ١٨] .

وكذلك أيضًا إذا طلعت الشمس من مغربها ؛ فإن التوبة لا تقبل ، وحينئذ لا يستطيعون خلاصًا مما هم عليه .

وذكر الحالة الثالثة بين الحالين ؛ لأنه وقت الجزاء وثمرة العمل ؛ فلا يستطيعون التخلص فى تلك الحال مما عملوه .

والغرض من هذه الآية والتى قبلها تحذير هؤلاء المكذبين من أن يفوتهم الأوانُ ثم لا يستطيعون الخلاص من أعمالهم .

✲ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾؛ أى : لقبض أرواحهم .

﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾؛ أى : بذاته سبحانه لفصل القضاء بين العباد .

﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾ وهو طلوع الشمس من مغربها ، وذلك أحد أشراط الساعة الكبار ، إذا وقع أغلق باب التوبة ، فلا تقبل .

✲ قال الشيخ هراس :

والآية الثانية أشد صراحة إذ لا يمكن تأويل الإتيان فيها بأنه إتيان الأمر أو العذاب ؛ لأنه ردد

(1) أخرجه البخارى فى التفسير (٤٦٣٥) ، ومسلم (١٥٧) .

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾(١) [الفجر: ٢١، ٢٢]،

فيها بين إتيان الملائكة وإتيان الرب وإتيان بعض آيات الرب سبحانه(1).

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الآية الثالثة: قوله: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢١، ٢٢].

﴿كَلَّآ﴾ هنا للتنبيه؛ مثلا (ألا).

وقوله: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾: هذا يوم القيامة.

وأكد هذا الدَّك لعظمته؛ لأنها تدك الجبال والشعاب وكل شيء يدك، حتى تكون الأرض كالأديم، والأديم هو الجلد؛ قال الله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦- ١٠٧]. ويحتمل أن يكون تكرار الدك تأسيسًا لا تأكيدًا، ويكون المعنى: دكًا بعد دكٍّ.

قال ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾؛ يعنى: يوم القيامة، بعد أن تدك الأرض وتُسَوَّى ويُحْشرُ الناس يأتى الله للقضاء بين عباده.

وقوله: ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾: (أل) هنا للعموم؛ يعنى: وكل ملك؛ يعنى: الملائكة ينزلون فى الأرض.

﴿صَفًّا صَفًّا﴾؛ أى صفًا من وراء صف؛ كما جاء فى الأثر: «تنزل ملائكة الدنيا فيصفون، ومن ورائهم ملائكة السماء الثانية، ومن ورائهم ملائكة السماء الثالثة» هكذا.

❋ **قال الشيخ الفوزان:**

وقوله: ﴿كَلَّآ﴾ حرف ردعٍ وزجرٍ عما ذكر قبلها؛ أى: ما هكذا ينبغى أن يكون عملكم من عدم إكرام اليتيم، وعدم الحض على طعام المسكين، وأكل التراث، وحب المال بكثرةٍ شديدةٍ.

﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أى: زلزلت، وحركت تحريكًا بعد تحريكٍ، حتى انهدم كل

---

(1) قال ابن القيم فى «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة»: فرق بين إتيان الملائكة وإتيان الرب وإتيان بعض آيات الرب، فقسم ونوع، ومع هذا التقسيم يمتنع أن القسمان واحدًا، فتأمله، قال: ولهذا منع عقلاء الفلاسفة حمل مثل هذا اللفظ على مجازه، وقالوا: هذا يأباه التقسيم والترديد والاطراد. أهـ. المراد من كلام ابن القيم. «إسماعيل الأنصاري».

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾(١) [الفرقان : ٢٥] .

ما عليها من بناءٍ ، وعاد هباءً منبثًا .

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ بذاته سبحانه لفصل القضاء بين عباده .

﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ ؛ أى : جنس الملائكة .

﴿صَفًّا صَفًّا﴾ منصوب على الحال ؛ أى : مصطفِّين صفًّا بعد صفٍّ ، قد أحدقوا بالجن والإنس ، كل أهل سماءٍ يكونون صفًّا واحدًا ، محيطين بالأرض ومن فيها ، فيكونون سبعة صفوفٍ .

✽ قال الشيخ هراس :

وقوله فى الآية التى بعدها : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، لا يمكن حملها على مجىء العذاب ؛ لأن المراد مجيئه سبحانه يوم القيامة لفصل القضاء ، والملائكة صفوف إجلالًا وتعظيمًا له ، وعند مجيئه تنشق السماء بالغمام كما أفادته الآية الأخيرة ، وهو سبحانه يجىء وينزل ويأتى ويدنو وهو فوق عرشه بائن من خلقه ، فهذه كلها أفعال له سبحانه على الحقيقة ، ودعوى المجاز تعطيل له عن فعله واعتقاد أن ذلك المجىء والإتيان من جنس مجىء المخلوقين وإتيانهم نزوع إلى التشبيه يفضى إلى الإنكار والتعطيل .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية الرابعة : قوله : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان : ٢٥] .

يعنى : اذكر يوم تشقق السماء بالغمام .

و﴿تَشَقَّقُ﴾ : أبلغ من تنشق ؛ لأن ظاهرها تشقق شيئًا فشيئًا ، ويخرج هذا الغمام ، فيثور ثوران الدخان ، وينبعث شيئًا فشيئًا .

تشقق السماء بالغمام ؛ مثل ما يقال : تشقق الأرض بالنبات ؛ يعنى : يخرج الغمام من السماء ويثور متتابعًا ، وذلك لمجىء الله عز وجل للفصل بين عباده ؛ فهو يوم رهيبٌ عظيم .

قوله : ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ : ينزلون من السماوات شيئًا فشيئًا ، تنزل ملائكة السماء الدنيا ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ... وهكذا .

وهذه الآية فى سياقها ليس فيها ذكر مجىء الله ، لكن فيها الإشارة إلى ذلك ؛ لأن تشقق السماء بالغمام إنما يكون لمجىء الله تعالى ؛ بدليل الآيات السابقة .

هذه أربع آيات ساقها المؤلف لإثبات صفة من صفات الله ، وهى : المجىء والإتيان .

....

وأهل السنة والجماعة يثبتون أن اللّٰه يأتى بنفسه هو ؛ لأن اللّٰه تعالى ذكر ذلك عن نفسه ، وهو سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلًا من غيره وأحسن حديثًا ؛ فكلامه مشتمل على أكمل العلم والصدق والبيان والإرادة ؛ فاللّٰه عز وجل يريد أن يبين لنا الحق وهو أعلم وأصدق وأحسن حديثًا .

لكن يبقى السؤال : هل نعلم كيفية هذا المجىء ؟

الجواب : لا نعلمه ؛ لأن اللّٰه سبحانه وتعالى أخبرنا أنه يجىء ، ولم يخبرنا كيف يجىء ، ولأن الكيفية لا تعلم إلا بالمشاهدة أو مشاهدة النظير أو الخبر الصادق عنها ، وكل هذا لا يوجد فى صفات اللّٰه تعالى ، ولأنه إذا جهلت الذات ، جهلت الصفات ؛ أى : كيفيتها ؛ فالذات موجودة وحقيقية ونعرفها ونعرف ما معنى الذات وما معنى النفس ، وكذلك نعرف ما معنى المجىء ، لكن كيفية الذات أو النفس وكيفية المجىء غير معلوم لنا .

فنؤمن بأن اللّٰه يأتى حقيقة وعلى كيفية تليق به مجهولة لنا .

مخالفوا أهل السنة والجماعة والرد عليهم :

وخالف أهل السنة والجماعة فى هذه الصفة أهل التحريف والتعطيل ، فقالوا : إن اللّٰه لا يأتى ؛ لأنك إذا أثبت أن اللّٰه يأتى ؛ ثبت أنه جسم ؛ والأجسام متماثلة ! .

فنقول : هذه دعوى وقياس باطل ؛ لأنه فى مقابلة النص ، وكل شىء يعود إلى النص بالإبطال فهو باطل ؛ لقوله تعالى : ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ : ٢٤] .

فإذا قلت : إن هذا الذى عاد إلى النص بالإبطال هو الحق ؛ صار النص باطلًا ولابد ، وبطلان النص مستحيل . وإن قلت : إن النص هو الحق ؛ صار هذا باطلًا ولابد ! .

ثم نقول : ما المانع من أن يأتى اللّٰه تعالى بنفسه على الكيفية التى يريدها ؟ يقولون : المانع أنك إذا أثبت ذلك ؛ فأنت ممثل .

نقول : هذا خطأ ؛ فإننا نعلم أن المجىء والإتيان يختلف حتى بالنسبة للمخلوق ؛ فالإنسان النشيط الذى يأتى كأنما ينحدر من مرتفع من نشاطه ، لكنه لا يمشى مرحًا وإن شئت فقل : إنه يمشى مرحًا : هل هذا كالإنسان الذى يمشى على عصًا ولا ينقل رجلًا من مكانها إلا بعد تعب .

....

والإتيان يختلف من وجه آخر ؛ فإتيان إنسان مثلًا من كبراء البلد أو من ولاة الأمور ليس كإتيان شخص لا يحتفى به .

ماذا يقول المعطل فى قوله تعالى : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ . ونحوها ؟

الجواب : يقول : المعنى : جاء أمر ربك ، وأتى أمر ربك ؟ لأن اللَّه تعالى قال : ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل : ١] ؛ فيجب أن نفسِّرَ كل إتيان أضافه اللَّه إلى نفسه بهذه الآية ، ونقول : المراد : أتى أمر اللَّه .

فيقال : إن هذا الدليل الذى استدللتَ به هو دليلٌ عليك وليس لكَ ! لو كان اللَّه تعالى يريد إتيان أمره فى الآيات الأخرى ؛ فما الذى يمنعه أن يقول : أمره ؟ ! فلما أراد الأمر ؛ عبَّر بالأمر ، ولما لم يرده ؛ لم يعبِّر به .

وهذا فى الواقع دليل عليك ؛ لأن الآيات الأخرى ليس فيها إجمال حتى نقول : إنها بينت بهذه الآية . فالآيات الأخرى واضحة ، وفى بعضها تقسيم يمنع إرداة مجىء الأمر : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ؛ هل يستقيم لشخص أن يقول : ﴿يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾ ؛ أى : أمره فى مثل هذا التقسيم ؟ !

فإذا قال قائل : ما تقولون فى قوله تعالى : ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ [المائدة : ٥٢] .

فالجواب : أن المراد بذلك إتيان الفتح أو الأمر ، لكن أضاف اللَّه الإتيان به إلى نفسه ؛ لأنه من عنده ؛ وهذا أسلوب معروف فى اللغة العربية ؛ فالإتيان إذا قُيد بحرف جر مثلًا ؛ فالمراد به ذلك المجرور ، وإذا أطلق وأضيف إلى اللَّه بدون قيد ؛ فالمراد به إتيان اللَّه حقيقة .

الآداب المسلكية المستفادة من الإيمان بصفة المجىء والإتيان للَّه تعالى :

الثمرة هى الخوف من هذا المقام وهذا المشهد العظيم الذى يأتى فيه الرب عز وجل للفصل بين عباده وتنزل الملائكة ، ولا يبقى أمامك إلا الرب عز وجل والمخلوقات كلها ؛ فإن عملت خيرًا ؛ جوزيت به ، وإن عملت سوى ذلك ؛ فإنك ستجزى به ؛ كما قال النبى عليه الصلاة

....

والسلام : « إن الإنسان يخلو به اللّٰه عز وجل ، فينظر أيمن منه ؛ فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر أشأم منه ؛ فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر تلقاء وجهه ؛ فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ؛ فاتقوا النار ، ولو بشق تمرة »[1] .

فالإيمان بمثل هذه الأشياء العظيمة لا شك أنه يولد للإنسان رهبةً وخوفًا من اللّٰه سبحانه وتعالى واستقامة على دينه .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ أى : يوم القيامة .

﴿تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ أى : تنفطر وتنفرج ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾ الذى هو ظلل النور العظيم الذى يبهر الأبصار .

﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ إلى الأرض فيحيطون بالخلائق فى مقام المحشر ، ثم يجىء الرب لفصل القضاء بين عباده .

الشاهد من الآيات : أنها أفادت إثبات المجىء والإتيان للّٰه يوم القيامة بذاته على ما يليق بجلاله ؛ لفصل القضاء بين عباده .

ومجيئه وإتيانه سبحانه من صفاته الفعلية ، يجب إثباتهما على حقيقتهما ، ولا يجوز تأويلهما بمجىء ، أو إتيان أمره ، كما يفعله نفاة الصفات ، فيقولون : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ ؛ أى : جاء أمره ، وهذا من تحريف آيات اللّٰه .

قال الإمام ابن القيم رحمه اللّٰه : والإتيان والمجىء المضاف إليه سبحانه نوعان : مطلق ومقيد ، فإذا كان المراد مجىء رحمته أو عذابه ونحو ذلك قيد بذلك ، كما فى الحديث : « حتى جاء اللّٰه بالرحمة والخير » . وقوله : ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ .

النوع الثانى : الإتيان والمجىء المطلق ، فهذا لا يكون إلا مجيئه سبحانه ، كقوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ ، وقوله : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ . أهـ

(1) أخرجه البخارى (٧٥١٢) .

١٠- إثباتُ الوجهِ للَّهِ سبحانَه :

وقولِه : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[1] [الرحمن: ٢٧]، ....

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

صفة الوجه لله سبحانه :

ذكر المؤلف رحمه الله لإثبات صفة الوجه لله تعالى آيتين :

الآية الأولى : قوله : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

وهذه معطوفة على قوله تعالى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، ولهذا قال بعض السلف : ينبغي إذا قرأت : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ . أن تصلها بقوله : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ؛ حتى يتبين نقص المخلوق وكمال الخالق، وذلك للتقابل، فهذا فناء وهذا بقاء، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ؛ أي : لا يفنى .

والوجه : معناه معلوم، لكن كيفيته مجهولة، لا نعلم كيف وجه الله عز وجل ؛ كسائر صفاته، لكننا نؤمن بأن له وجهًا موصوفًا بالجلال والإكرام، وموصوفًا بالبهاء والعظمة والنور العظيم، حتى قال النبي عليه الصلاة والسلام : « حجابه النور، لو كشفه ؛ لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[1] .

(سبحات وجهه) ؛ يعني : بهاؤه وعظمته وجلاله ونوره .

(ما انتهى إليه بصره من خلقه) : وبصره ينتهي إلى كل شيء، وعليه ؛ فلو كشف هذا الحجاب - حجاب النور عن وجهه ؛ لاحترق كل شيء .

لهذا نقول : هذا الوجه وجه عظيم، لا يمكن أبدًا أن يماثل أوجه المخلوقات .

وبناء على هذا نقول : من عقيدتنا أننا نثبت أن لله وجهًا حقيقة، ونأخذه من قوله : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ . ونقول بأن هذا الوجه لا يماثل أوجه المخلوقين ؛ لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] . ونجهل كيفية هذا الوجه لقوله تعالى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] .

فإن حاول أحد أن يتصور هذه الكيفية بقلبه أو أن يتحدث عنها بلسانه ؛ قلنا : إنك مبتدع

(1) أخرجه مسلم (١٧٩).

....

ضال قائلٌ على الله ما لا تعلم ، وقد حرّم الله علينا أن نقول عليه ما لا نعلم ؛ قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] . وقال تعالى : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] .

وهنا قال : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ . أضاف الربوبية إلى محمد ﷺ ، وهذه الربوبية أخص ما يكون من أنواع الربوبية ؛ لأن الربوبية عامة وخاصة ، والخاصة خاصة أخص ، وخاصة فوق ذلك ؛ كربوبية الله تعالى لرسله ؛ فالربوبية الأخص أفضل بلا شك .

وقوله : ﴿ذُو﴾ صفة لوجه ، والدليل الرفع ، ولو كانت صفة للرب ؛ لقال ذى الجلال كما قال فى نفس السورة : ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] . فلما قال : ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ . علمنا أنه وصف للوجه .

﴿ٱلْجَلَٰلِ﴾ : معناه العظمة والسلطان .

﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ : هى مصدر من أكرم ، صالحة للمكرم والمكرَم ، فالله سبحانه وتعالى مُكْرَم ، وإكرامه تعالى القيام بطاعته ، ومُكْرِم لمن يستحق الإكرام من خلقه بما أعد لهم من الثواب .

فهو لجلاله وكمال سلطانه وعظمته أهلٌ لأن يُكْرَمَ ويُثْنَى عليه سبحانه وتعالى وإكرام كل أحد بحسبه ؛ فإكرام الله عز وجل أن تقدره حق قدره ، وأن تعظمَه حق تعظيمه ، لا لاحتياجه إلى إكرامك ، ولكن ليمُن عليك بالجزاء .

✽ قال الشيخ الفوزان :

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ . يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون ، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم ؛ فإن الرب سبحانه لا يموت ، بل هو الحى الذى لا يموت أبدًا .

﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ ؛ أى : العظمة والكبرياء .

﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ ؛ أى : المكرم لأنبيائه وعباده الصالحين . وقيل : المستحق أن يكرم عن كل شىء لا يليق به .

✽ قال الشيخ هراس :

قوله : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ إلخ : تضمنت هاتان الآيتان إثبات صفة الوجه لله عزَّ وجلَّ .

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (١) [القصص: ٨٨].

والنصوص فى إثبات الوجه من الكتاب والسنة لا تحصى كثرة وكلها تنفى تأويل المعطلة الذين يفسرون الوجه بالجهة أو الثواب أو الذات ، والذى عليه أهل الحق أن الوجه صفة غير الذات ولا يقتضى إثبات كونها تعالى مركبًا من أعضاء كما يقوله المجسمة ، بل هو صفة لله على ما يليق به فلا يشبه وجهًا ولا يشبهه وجه .

واستدل المعطلة بهاتين الآيتين على أن المراد بالوجه الذات إذ لا خصوص للوجه فى البقاء وعدم الهلاك .

ونحن نعارض هذا الاستدلال بأنه لو لم يكن لله عزَّ وجلَّ وجه على الحقيقة لما جاز استعمال هذا اللفظ فى معنى الذات ، فإن اللفظ الموضوع لمعنى لا يمكن أن يستعمل فى معنى آخر إلا إذا كان المعنى الأصلى ثابتًا للموصوف حتى يمكن للذهن أن ينتقل من الملزوم إلى لازمه ، على أنه يمكن دفع مجازهم بطريق آخر فيقال : إنه أسند البقاء إلى الوجه . ويلزم منه بقاء الذات بدلًا من أن يقال : أطلق الوجه وأراد الذات . وقد ذكر البيهقى نقلًا عن الخطابى أنه تعالى لما أضاف الوجه إلى الذات أضاف النعت إلى الوجه ، فقال : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ، دل على أن ذكر الوجه ليس بصلة ، وأن قوله : ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ صفة للوجه والوجه صفة للذات .

وكيف يمكن تأويل الوجه بالذات أو بغيرها فى مثل قوله عليه السلام فى حديث الطائف : « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات » إلخ ؟ وقوله فيما رواه أبو موسى الأشعرى : « حجابة النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلفه » ؟

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الآية الثانية : قوله : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

قوله : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ . أى : فانٍ ؛ كقوله : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

وقوله : ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ : توازى قوله : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ .

فالمعنى : كل شىء فانٍ وزائل إلا وجه الله عز وجل ؛ فإنه باقٍ ، ولهذا قال : ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨] . فهو الحكَم الباقى الذى يرجع إليه الناس ليحكم بينهم .

وقيل فى معنى الآية : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ . أى : إلاَّ ما أريد به وجهه . قالوا : لأن سياق الآية يدل على ذلك : ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] ؛ كأنه يقول : لا تدع مع الله إلهًا آخر فتشرك به ؛ لأن عملك

....

وإشراكك هالك ؛ أى : ضائع سُدًى ؛ إلا ما أخلصته لوجه الله ؛ فإنه يبقى ؛ لأن العمل الصالح له ثواب باقٍ لا يفنى فى جنات النعيم .

ولكن المعنى الأول أسد وأقوى .

وعلى طريقة من يقول بجواز استعمال المشترك فى معنييه ؛ نقول :

يمكن أن نحمل الآية على المعنيين ؛ إذ لا منافاة بينهما ، فتحمل على هذا وهذا ، فيقال : كل شىء يفنى إلَّا وجه الله عز وجل ، وكل شىء من الأعمال يذهب هباءً ؛ إلاَّ ما أريد به وجه الله .

وعلى أى التقديرين ؛ ففى الآية دليل على ثبوت الوجه لله عز وجل .

وهو من الصفات الذاتية الخبرية التى مسماها بالنسبة إلينا أبعاض وأجزاء ، ولا نقول : من الصفات الذاتية المعنوية ، ولو قلنا بذلك ؛ لكنا نوافق من تأوّله تحريفًا ، ولا نقول : إنها بعض من الله . أو : جزء من الله . لأن ذلك يوهِم نقصًا لله سبحانه وتعالى .

هذا وقد فسر أهل التحريف وجه الله بثوابه ؛ فقالوا : المراد بالوجه فى الآية : الثواب ؛ كل شىء يفنى ؛ إلا ثواب الله !

ففسروا الوجه الذى هو صفة كمال ؛ فسروه بشىء مخلوق بائن عن الله قابل للعدم والوجود ؛ فالثواب حادث بعد أن لم يكن ، وجائز أن يرتفع ، لولا وعد الله ببقائه ؛ لكان من حيث العقل جائزًا أن يرتفع ؛ أعنى : الثواب !

فهل تقولون الآن : إن وجه الله الذى وصف الله به نفسه من باب الممكن أو من باب الواجب ؟

إذا فسروه بالثواب ؛ صار من باب الممكن الذى يجوز وجوده وعدمه .

وقولهم مردود بما يلى :

أولًا : أنه مخالف لظاهر اللفظ ؛ فإن ظاهر اللفظ أن هذا وجه خاص ، وليس هو الثواب .

ثانيًا : أنه مخالف لإجماع السلف ؛ فما من السلف أحد قال : إن المراد بالوجه الثواب ! وهذه كتبهم بين أيدينا مزبورة محفوظة ، أخرجوا لنا نصًا عن الصحابة أو عن أئمة التابعين ومن تبعهم بإحسان أنهم فسروا هذا التفسير ! لن تجدوا إلى ذلك سبيلًا أبدًا .

ثالثًا : هل يمكن أن يوصف الثواب بهذه الصفات العظيمة : ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن : ٢٧] ؟ ! لا يمكن . لو قلنا مثلًا جزاء المتقين ذو جلالٍ وإكرامٍ ! فهذا لا يجوز أبدًا ، والله تعالى وصف هذا الوجه بأنه ذو الجلال والإكرام .

....

رابعًا : نقول : ما تقولون فى قول الرسول ﷺ : « حجابه النور ، لو كشفه ؛ لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » . فهل الثواب له هذا النور الذى يحرق ما انتهى إليه بصر اللَّه من الخلق ؟ ! أبدًا ، ولا يمكن .

وبهذا عرفنا بطلان قولهم ، وأن الواجب علينا أن نفسِّر هذا الوجه بما أراده اللَّه به ، وهو وجه قائم به تبارك وتعالى موصوف بالجلال والإكرام .

فإن قلت : هل كل ما جاء من كلمة (الوجه) مضافًا إلى اللَّه يراد به وجه اللَّه الذى هو صفته ؟

فالجواب : هذا هو الأصل ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام : ٥٢] ، ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل : ١٩ - ٢١] . . .. وما أشبهها من الآيات .

فالأصل أن المراد بالوجه المضاف إلى اللَّه وجه اللَّه عز وجل الذى هو صفة من صفاته ، لكن هناك كلمة اختلف المفسِّرون فيها ، وهى قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة : ١١٥] .

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟﴾ . يعنى : إلى أى مكان تولوا وجوهكم عند الصلاة . ﴿فَثَمَّ﴾ ؛ أى : فهناك وجهُ اللَّهِ .

فمنهم من قال : إن الوجه بمعنى الجهة ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة : ١٤٨] . فالمراد بالوجه الجهة ؛ أى : فثَمَّ جهة اللَّه ؛ أى : فثم الجهة التى يقبل اللَّه صلاتكم إليها .

قالوا : لأنها نزلت فى حال السفر ، إذا صلى الإنسان النافلة ؛ فإنه يصلى حيث كان وجهه ، أو إذا اشتبهت القبلة ؛ فإنه يتحرى ويصلى حيث كان وجهه .

ولكن الصحيح أن المراد بالوجه هنا وجه اللَّه الحقيقى ؛ أى : إلى أى جهة تتوجهون ؛ فثم وجه اللَّه سبحانه وتعالى ؛ لأن اللَّه محيط بكل شىء ، ولأنه ثبت عن النبى ﷺ أن المصلى إذا قام يصلى ؛ فإن اللَّه قبل وجهه[1] ، ولهذا نهى أن يبصق أمام وجهه ؛ لأن اللَّه قِبل وجهه .

فإذا صليت فى مكان لا تدرى أين القبلة ، واجتهدت وتحريت وصليت ، وصارت القبلة فى

(1) أخرجه البخارى (٤٠٦) ، ومسلم (٥٤٧) .

....

الواقع خلفك ؛ فالله يكون قِبل وجهك ، حتى فى هذه الحال .

وهذا معنى صحيح موافق لظاهر الآية .

والمعنى الأول لا يخالفه فى الواقع .

إذا قلنا : فثم جهة الله ، وكان هناك دليل ، سواء كان هذا الدليل تفسير الآية الثانية فى الوجه الثانى ، أو كان الدليل ما جاءت به السنة ؛ فإنك إذا توجهت إلى الله فى صلاتك ؛ فهى جهة الله التى يقبل الله صلاتك إليها ؛ فثَم أيضًا وجه الله حقًّا . وحينئذ يكون المعنيان لا يتنافيان .

واعلم أن هذا الوجه العظيم الموصوف بالجلال والإكرام وجه لا يمكن الإحاطة به وصفًا ، ولا يمكن الإحاطة به تصورًا ، بل كل شىء تقدره ؛ فإن الله تعالى فوق ذلك وأعظم ؛ كما قال تعالى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه : ١١٠] .

فإن قيل : ما المراد بالوجه فى قوله : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص : ٨٨] ؟ إن قلت : المراد بالوجه الذات ؛ فيخشى أن تكون حرفت . وإن أردت بالوجه نفس الصفة أيضًا ؛ وقعت فى محظور – وهو ما ذهب إليه بعض من لا يقدرون الله حق قدره ؛ حيث قالوا : إن الله يفنى إلا وجهه – فماذا تصنع ؟ !

فالجواب : إن أردت بقولك : إلا ذاته . يعنى أن الله تعالى يبقى هو نفسه مع إثبات الوجه لله ؛ فهذا صحيح ، ويكون هنا عبَّر بالوجه عن الذات لمن له وجه .

وإن أردت بقولك : الذات : أن الوجه عبارة عن الذات بدون إثبات الوجه ؛ فهذا تحريف وغير مقبول .

وعليه فنقول : ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ . أى : إلا ذاته المتصفة بالوجه ، وهذا ليس فيه شىء ؛ لأن الفرق بين هذا وبين قول أهل التحريف أن هؤلاء يقولون : إن المراد بالوجه الذات ، ولا وجه له .
ونحن نقول : المراد بالوجه الذات ، لأن له وجهًا ، فعبر به عن الذات .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ ؛ أى : كل من فى السماء ، ومن فى الأرض سيذهبون ويموتون .

﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ منصوب على الاستثناء ، وهذا إخبار بأنه الدائم الباقى الذى تموت الخلائق ، ولا يموت .

١١- إثبات اليدْينِ للَّهِ تعالى في القرآنِ الكريم :

وقولِه : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[(١)] [ص : ٧٥] ، ....

الشاهد من الآيتين : أن فيهما إثبات الوجه للَّه سبحانه ، وهو من صفاته الذاتية ، فهو وجه على حقيقته ، يليق بجلاله .

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لا كما يزعم معطلة الصفات أن الوجه ليس على حقيقته ، وإنما المراد به الذات ، أو الثواب ، أو الجهة ، أو غير ذلك .

وهذه تأويلات باطلة من وجوهٍ :

منها أنه جاء عطف الوجه على الذات ، كما في الحديث : « أعوذ باللَّه العظيم وبوجهه الكريم »[(1)] . والعطف يقتضي المغايرة .

ومنها أنه أضاف الوجه إلى الذات ، فقال : ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ، ووصف الوجه بقوله : ﴿ذُو الْجَلَٰلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فلو كان الوجه هو الذات لكان لفظ الوجه صلةً ، ولقال : (ذى الجلال والإكرام) ، فلما قال : ﴿ذُو الْجَلَٰلِ﴾ تبين أنه وصف للوجه لا للذات ، وأن الوجه صفة للذات .

ومنها : أنه لا يعرف في لغة أمةٍ من الأمم أن وجه الشيء بمعنى ذاته أو الثواب ، والوجه في اللغة مستقبل كل شيءٍ ؛ لأنه أول ما يواجه منه ، وهو في كل شيءٍ بحسب ما يضاف إليه .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

إثبات اليدين للَّه تعالى :

ذكر المؤلف رحمه اللَّه لإثبات اليدين للَّه تعالى آيتين :

الآية الأولى : قوله : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص : ٧٥] .

﴿مَا مَنَعَكَ﴾ : الخطاب لإبليس .

و﴿مَا مَنَعَكَ﴾ : استفهام للتوبيخ ؛ يعني أى شيء منعك أن تسجدَ .

وقوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ : ولم يقل : لمن خلقت ؛ لأن المراد هنا آدم ؛ باعتبار وصفه الذى لم يشركه أحد فيه ، وهو خلق اللَّه إياه بيده ، لا باعتبار شخصه .

ولهذا لما أراد إبليس النيل من آدم وحط قدره ؛ قال : ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء : ٦١] .

ونحن قد قررنا أنه إذا عُبّر بـ : (ما) عما يعقل ؛ فإنه يلاحظ فيه معنى الصفة لا معنى العين

---

(1) أخرجه أبو داود (٤٤٦) ، وقال الألبانى فى « صحيح الجامع » (٤٧١٥) : صحيح .

....

والشخص ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء : ٣] ، لم يقل : (من) ؛ لأنه ليس المراد عين هذه المرأة ، ولكن المراد الصفة .

فهنا قال : ﴿لِمَا خَلَقْتُ﴾ . أى : هذا الموصوف العظيم الذى أكرمته بأننى خلقته بيدى ، ولم يقصد : لمن خلقت ؛ أى : لهذا الآدمى بعينه .

وقوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ . هى كقول القائل : بريت بالقلم . والقلم آلة البرى . وتقول : صنعت هذا بيدى . فاليد هنا آلة الصنع .

﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ . يعنى أن الله عز وجل خلق آدم بيده ، وهنا قال : ﴿بِيَدَىَّ﴾ . وهى صيغة تثنية ، وحذفت النون من التثنية من أجل الإضافة ؛ كما يحذف التنوين ، فنحن عندما نعرب المثنى وجمع المذكر السالم ؛ نقول : النون عوض عن التنوين فى الاسم المفرد . والعوض له حكم المُعَوَّض ؛ فكما أن التنوين يحذف عند الإضافة ؛ فنون التثنية والجمع تحذف عند الإضافة .

فى هذه الآية توبيخ إبليس فى تركه السجود لما خلقه الله بيده ، وهو آدم عليه الصلاة والسلام .

وفيها : إثبات صفة الخلق : ﴿لِمَا خَلَقْتُ﴾ .

وفيها : إثبات اليدين لله سبحانه وتعالى : اليدين اللتين بهما يفعل ؛ كالخلق هنا . اليدين اللتين بهما يقبض : ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر : ٦٧] ؛ وبهما يأخذ ، فإن الله تعالى يأخذ الصدقة فيربيها كما يربى الإنسان فُلوه [1].

وقوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ . فيها أيضًا تشريف لآدم عليه الصلاة والسلام ؛ حيث خلقه الله تعالى بيده .

قال أهل العلم : وكتب الله التوراة بيده ، وغرس جنة عدن بيده .

فهذه ثلاثة أشياء ؛ كلها كانت بيد الله تعالى .

ولعلنا بالمناسبة لا ننسى ما مر من قول النبى عليه الصلاة والسلام : « إن الله خلق آدم على صورته » [2]، وذكرنا أن أحد الوجهين الصحيحين فى تأويلها أن الله خلق آدم على الصورة التى اختارها واعتنى بها ، ولهذا أضافها الله إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم ؛ كإضافة الناقة والبيت

---

(1) أخرجه البخارى (١٤١٠) ، ومسلم (١٠١٤) .

(2) أخرجه البخارى (٦٢٢٧) ، ومسلم (٢٨٤١) .

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾(١) [المائدة: ٦٤].

إلى الله والمساجد إلى الله. والقول الثاني: أنه على صورته حقيقة ولا يلزم من ذلك التماثل.

✽ قال الشيخ الفوزان:

﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ الخطاب لإبليس لعنه الله، لَـمَّا امتنع من السجود لآدم عليه السلام؛ أي: أي شيءٍ صرفك وصدك عن السجود؟

﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾؛ أي: باشرت خلقه بيدى من غير واسطةٍ، وفى هذا تشريف وتكريم لآدم.

✽ قال الشيخ هراس:

قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ إلخ: تضمنت هاتان الآيتان إثبات اليدين صفة حقيقة له سبحانه على ما يليق به، فهو فى الآية الأولى يوبِّخ إبليس على امتناعه عن السجود لآدم الذى خلقه بيديه، ولا يمكن حمل اليدين هنا على القدرة، فإن الأشياء جميعًا حتى إبليس خلقها الله بقدرته فلا يبقى لآدم خصوصية يتميز بها.

وفى حديث عبد الله بن عمرو: «إن الله عزَّ وجلَّ خلق ثلاثة أشياء بيده: خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده، وغرس جنة عدن بيده» فتخصيص هذه الثلاثة بالذكر مع مشاركتها لبقية المخلوقات فى وقوعها بالقدرة دال على اختصاصها بأمر زائد.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

الآية الثانية: قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿ٱلْيَهُودُ﴾: هم أتباع موسى عليه الصلاة والسلام.

سموا يهودًا؛ قيل: لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وبناء على هذا يكون الاسم عربيًا؛ لأن هادَ يهودُ - إذا رجع - عربى.

وقيل: إن أصله يهوذا، اسم أحد أولاد يعقوب، واليهود من نسبوا إليه، لكن عند التعريب صارت الذال دالًا، فقيل: يهود.

وأيًا كان؛ فلا يهمنا أن أصله هذا أو هذا.

....

ولكننا نعلم أن اليهود هم طائفة من بنى إسرائيل، اتبعوا موسى عليه الصلاة والسلام.

وهؤلاء اليهود من أشد الناس عتوًّا ونفورًا؛ لأن عتو فرعون وتسلطه عليهم جعل ذلك ينطبق في نفوسهم، وصار فيهم العتو على الناس، بل وعلى الخالق عز وجل؛ فهم يصفون اللّٰه تعالى بأوصاف العيوب - قبحهم اللّٰه - وهم أهلها.

يقولون: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾؛ أى: محبوسة عن الإنفاق؛ كما قال اللّٰه تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]؛ أى: محبوسة عن الإنفاق.

وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١].

أما قولهم: إن يد اللّٰه مغلولة؛ فقالوا: لولا أنها مغلولة؛ لكان الناس كلهم أغنياء؛ فكونه يجود على زيد ولا يجود على عمرو: هذا هو الغل وعدم الإنفاق!!

وقالوا: إن اللّٰه فقير؛ لأن اللّٰه قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فقالوا للرسول عليه الصلاة والسلام: يا محمد! إن ربك افتقر؛ صار يستقرض منا. قاتلهم اللّٰه!!

وقالت اليهود أيضًا: إن اللّٰه عاجز؛ لأنه حين خلق السماوات والأرض؛ استراح يوم السبت، وجعل العطلة محل عيد؛ فصار عيدهم يوم السبت. قاتلهم اللّٰه!!

هنا يقول اللّٰه عز وجل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾: ﴿يَدُ﴾: أفردوها؛ لأن اليد الواحدة أقل عطاء من اليدين الثنتين، ولهذا جاء الجواب بالتثنية والبسط، فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾.

ولما وصفوا اللّٰه بهذا العيب؛ عاقبهم اللّٰه بما قالوا، فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أى: منعت عن الإنفاق، ولهذا كان اليهود أشد الناس جمعًا للمال ومنعًا للعطاء؛ فهم أبخل عباد اللّٰه، وأشدهم شحًّا فى طلب المال، ولا يمكن أن ينفقوا فلسًا؛ إلا وهم يظنون أنهم سيكسبون بدله درهمًا، ونرى نحن الآن لهم جمعيات كبيرة وعظيمة، لكن هم يريدون من وراء هذه الجمعيات والتبرعات أكثر وأكثر، يريدون أن يسيطروا على العالم.

فإذن؛ لا تقل أيها الإنسان: كيف نجمع بين قوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾، وبين الواقع اليوم بالنسبة لليهود؟! لأن هؤلاء القوم يبذلون ليربحوا أكثر.

﴿وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾؛ أى: طردوا وأبعدوا عن رحمة اللّٰه عز وجل؛ لأن البلاء موكَّل بالمنطق؛

....

فهم لما وصفوا الله بالإمساك ؛ طردوا وأبعدوا عن رحمته ؛ قيل لهم : إذا كان الله عز وجل كما قلتم لا ينفق ؛ فليمنعكم رحمته حتى لا يعطيكم من جوده ؛ فعوقبوا بأمرين :

١- بتحويل الوصف الذى عابوا به الله سبحانه إليهم بقوله : ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ .

٢- وبإلزامهم بمقتضى قولهم ؛ بإبعادهم عن رحمة الله ، حتى لا يجدوا جود الله وكرمه وفضله .

﴿بِمَا قَالُوا۟﴾ : الباء هنا للسببية ، وعلامة الباء التى للسببية : أن يصح أن يليها كلمة (سبب) .

و(ما) هنا يصح أن تكون مصدرية ، ويصح أن تكون موصولة ؛ فإن كانت موصولة ؛ فالعائد محذوف ، وتقديره : بالذى قالوه . وإن كانت مصدرية ؛ فالفعل يحول إلى مصدر ؛ أى : بقولهم .

ثم أبطل الله سبحانه وتعالى دعواهم ، فقال : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ .

﴿بَلْ﴾ : هنا للإضراب الإبطالى .

وانظر كيف اختلف التعبير : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ؛ لأن المقام مقام تمدح بالكرم ، والعطاء باليدين أكمل من العطاء باليد الواحدة .

و﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾ : ضد قولهم : ﴿مَغْلُولَةٌ﴾ ؛ فيدا الله تعالى مبسوطتان واسعتا العطاء : كما قال النبى ﷺ : « يد الله ملأى سحّاء (كثير العطاء) الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق مذ خلق السماوات والأرض ؛ فإنه لم يغض ما فى يمينه »[1] .

من يحصى ما أنفق الله منذ خلق السماوات والأرض ؟ ! لا يحصيه أحد ! ومع ذلك لم يغض ما فى يمينه .

وهذا كقوله تعالى فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنّكم ؛ قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ؛ ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا غمس فى البحر »[2] .

ولننظر إلى المخيط غمس فى البحر ؛ فإذا نزعته ؛ لا ينقص البحر شيئًا أبدًا ؛ ومثل هذه الصيغة

---

(1) أخرجه البخارى (٤٦٨٤) ، ومسلم (٩٩٣) .

(2) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) .

....

يؤتى بها للمبالغة فى عدم النقص ؛ لأن عدم نقص البحر فى مثل هذه الصورة أمر معلوم ، مستحيل أن البحر ينقص بهذا ؛ فمستحيل أيضًا أن اللَّه عز وجل ينقص ملكه إذا قام كل إنسان من الإنس والجن ، فقاموا فسألوا اللَّه تعالى ، فأعطى كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك من ملكه شيئًا .

لا تقل : « نعم ؛ لا ينقص من ملكه شيئًا ؛ لأنه انتقل من ملكه إلى ملكه » ؛ لأنه لا يمكن أن يكون هذا هو المراد ؛ لأنه لو كان هذا المراد ؛ لكان الكلام عبثًا ولغوًا :

لكن المعنى : لو فُرِض أن هذه العطايا العظيمة أعطيت على أنها خارجة عن ملك اللَّه ؛ لم ينقص ذلك من ملكة شيئًا .

ولو كان المعنى هو الأول ؛ لم يكن فيه فائدة ؛ فمعروف أنه لو كان عندك عشرة ريالات ، أخرجتها من الدّرج الأيمن إلى الدّرج الأيسر ، وقال إنسان : إن مالك لم ينقص ؛ لقيل : هذا لغوٌ من القول !

المهم أن المعنى : لو أن هذا الذى أعطاه السائلين خارج عن ملكه ؛ فإنه لا ينقصه سبحانه وتعالى .

وليس إنفاق اللَّه تعالى بما نحصل من الدراهم والمتاع ، بل كل ما بنا من نعمة فهو من اللَّه تعالى ، سواء كانت من نعم الدين أم الدنيا ؛ فذرّات المطر من إنفاق اللَّه علينا ، وحبات النبات من إنفاق اللَّه .

أفبعد هذا يقال كما قالت اليهود عليهم لعائن اللَّه : ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ؟ !

لا واللَّه ! بل يقال : إن يدى اللَّه عز وجل مبسوطتان بالعطاء والنعم التى لا تعد ولا تحصى .

لكن إذا قالوا : لماذا أعطى زيدًا ولم يعط عمرًا ؟

قلنا : لأن اللَّه تعالى له السلطان المطلق والحكمة البالغة ، ولهذا قال ردًّا على شبهتهم : ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ ؛ فمن الناس من يُعطيه كثيرًا ؛ ومنهم من يُعطيه قليلًا ، ومنهم من يُعطيه وسطًا ؛ تبعًا لما تقتضيه الحكمة ، على أن هذا الذى أعطى قليلًا ليس محرومًا من فضل اللَّه وعطائه من جهة أخرى ؛ فاللَّه أعطاه صحةً وسمعًا وبصرًا وعقلًا وغير ذلك من النعم التى لا تحصى ، ولكن لطغيان اليهود وعدوانهم وأنهم لم ينزهوا اللَّه عن صفات العيب ، قالوا : ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ .

....

فالآيتان السابقتان فيهما إثبات صفة اليدين لله عز وجل .

ولكن قد يقول قائل :إن لله أكثر من يدين ؛ لقوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس: ٧١] ؛ فأيدينا هنا جمع ؛ فلنأخذ بهذا الجمع ؛ لأننا إذا أخذنا بالجمع ؛ أخذنا بالمثنى وزيادة ؛ فما الجواب ؟

فالجواب أن يقال :جاءت اليد مفردة ومثناة وجمعًا .

أما اليد التى جاءت بالإفراد ؛ فإن المفرد المضاف يفيد العموم ، فيشمل كل ما ثبت لله من يد ، ودليل عموم المفرد المضاف قوله تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم : ٣٤] ؛ فـ ﴿نِعْمَتَ﴾ : مفرد مضاف ؛ فهى تشمل كثيرًا لقوله : ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ ؛ إذن : فما هى واحدة ولا ألف ولا مليون ولا ملايين .

﴿يَدُ اللَّهِ﴾ : نقول : هذا المفرد لا يمنع التعدد إذا ثبت ؛ لأن المفرد المضاف يفيد العموم .

أما المثنى والجمع ؛ فنقول : إن الله ليس له إلا يدان اثنتان ؛ كما ثبت ذلك فى الكتاب والسنة :

ففى الكتاب :فى سورة « ص » قال [تعالى] : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] ، والمقام مقام تشريف ، ولو كان الله خلقه بأكثر من يدين ؛ لذكره ؛ لأنه كلما ازدادت الصفة التى بها خلق الله هذا الشىء ؛ ازداد تعظيم هذا الشىء .

وأيضًا : فى سورة « المائدة » قال [تعالى] : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة : ٦٤] ؛ فى الرد على من قالوا : ﴿يَدُ اللَّهِ﴾ ؛ بالإفراد ، والمقام مقام يقتضى كثرة النعم ، وكلما كثرت وسيلة العطاء ؛ كثر العطاء ؛ فلو كان لله تعالى أكثر من اثنتين ؛ لذكرهما الله ؛ لأن العطاء باليد الواحدة عطاء ؛ فباليدين أكثر وأكمل من الواحدة ؛ وبالثلاث - لو قدر - كان أكثر ؛ فلو كان لله تعالى أكثر من اثنتين لذكرهما .

أما السنة فإن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « يطوى الله تعالى السماوات بيمينه والأرض بيده الأخرى »[1].

قال ﷺ : « كلتا يديه يمين »[2].

---

(1) أخرجه البخارى (٤٨١٢) ، ومسلم (٢٧٨٧) .

(2) أخرجه مسلم (١٨٢٧) .

....

ولم يذكر أكثر من اثنتين .

وأجمع السلف على أن لله يدين اثنتين فقط بدون زيادة .

فعندنا النص من القرآن والسنة والإجماع على أن لله تعالى يدين اثنتين ؛ فكيف نجمع بين هذا وبين الجمع : ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس : ٧١] ؟ !

فنقول :الجمع على أحد الوجهين :

فإما أن نقول بما ذهب إليه بعض العلماء ؛ من أن أقل الجمع اثنان ، وعليه ؛ ف : ﴿أَيْدِينَا﴾ لا تدل على أكثر من اثنتين ؛ يعني : لا يلزم أن تدل على أكثر من اثنين ، وحينئذ تطابق التثنية : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ، ولا إشكال فيه .

فإذا قلت :ما حجة هؤلاء على أن الجمع أقله اثنان ؟

فالجواب :احتجوا بقوله تعالى : ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم : ٤] ، وهما اثنتان ، والقلوب جمع ، والمراد به قلبان فقط ؛ لقوله تعالى : ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب : ٤] ، ولا لامرأة كذلك .

واحتجوا أيضًا بقول الله تعالى : ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء : ١١] ؛ ف : ﴿إِخْوَةٌ﴾ جمع ، والمراد به اثنان .

واحتجوا أيضًا بأن جماعة الصلاة تحصل باثنين .

ولكن جمهور أهل اللغة يقولون : إن أقل الجمع ثلاثة ، وإن خروج الجمع إلى الاثنين فى هذه النصوص لسبب ، وإلا فإن أقل الجمع فى الأصل ثلاثة .

وإما أن نقول : إن المراد بهذا الجمع التعظيم ؛ تعظيم هذه اليد وليس المراد أن لله تعالى أكثر من اثنتين .

ثم إن المراد باليد هنا نفس الذات التى لها يد ، وقد قال الله تعالى : ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم : ٤١] ؛ أى : بما كسبوا ؛ سواء كان من كسب اليد أو الرجل أو اللسان أو غيرها من أجزاء البدن ، لكن يعبر بمثل هذا التعبير عن الفاعل نفسه .

ولهذا نقول :إن الأنعام التى هى الإبل لم يخلقها الله تعالى بيده ، وفرق بين قوله : ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ ، وبين قوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ ؛ ف : ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ ؛ كأنه قال : مما عملنا ؛ لأن المراد باليد ذات الله التى لها يد ، والمراد ب : ﴿بِيَدَىَّ﴾ : اليدان دون الذات .

....

وبهذا يزول الإشكال فى صفة اليد التى وردت بالإفراد والتثنية والجمع .

فعُلِمَ الآن أن الجمع بين المفرد والتثنية سهل ؛ وذلك لأن هذا مفرد مضاف فيعم كل ما ثبت لله من يد .

وأما بين التثنية والجمع ؛ فمن وجهين :

أحدهما : أنه لا يراد بالجمع حقيقة معناه - وهو الثلاثة فأكثر - بل المراد به التعظيم ؛ كما قال الله تعالى : ﴿إِنَّا﴾ و﴿نَحْنُ﴾ و﴿قُلْنَا﴾ ... وما أشبه ذلك ، وهو واحد ، لكن يقول هذا للتعظيم .

أو يقال : إن أقل الجمع اثنان ؛ فلا يحصل هنا تعارض .

وأما قوله تعالى : ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات : ٤٧] ؛ فالأيد هنا بمعنى القوة ؛ فهى مصدر آد يئيد ؛ بمعنى : قوى ، وليس المراد بالأيد صفة لله ، ولهذا لم يُضِفْها الله إلى نفسه ، فلم يَقُلْ : بأيدينا ! بل قال : ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ ؛ أى : بقوة .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم : ٤٢] ؛ فإن لعلماء السلف فى قوله : ﴿عَن سَاقٍ﴾ : قولين :

القول الأول : أن المراد به الشدة .

والقول الثانى : أن المراد به ساق الله عز وجل .

فمن نظر إلى سياق الآية مع حديث أبى سعيد(1) ؛ قال : إن المراد بالساق هنا ساق الله .

ومن نظر إلى الآية بمفردها ؛ قال : المراد بالساق الشدة .

فإذا قال قائل : أنتم تثبتون أن لله تعالى يدًا حقيقية ، ونحن لا نعلم من الأيدى إلى أيادى المخلوقين ؛ فيلزم من كلامكم تشبيه الخالق بالمخلوق .

فالجواب أن نقول : لا يلزم من إثبات اليد لله أن نمثل الخالق بالمخلوقين ؛ لأن إثبات اليد جاء فى القرآن والسنة وإجماع السلف ، ونفى مماثلة الخالق للمخلوقين يدل عليه الشرع والعقل والحس :

(٥٤ب) قال الشيخ ابن عثيمين :

أما الشرع ؛ فقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

---

(1) أخرجه البخارى (٤٩١٩) .

....

- وأما العقل ؛ فلا يمكن أن يماثل الخالق المخلوق فى صفاته ؛ لأن هذا يعد عيبًا فى الخالق .

- وأما الحس ؛ فكل إنسان يشاهد أيدى المخلوقات متفاوتة ومتباينة من كبير وصغير وضخم ودقيق .. إلخ ؛ فيلزم من تباين أيدى المخلوقين وتفاوتهم مباينة يد الله تعالى لأيدى المخلوقين وعدم مماثلته لهم سبحانه وتعالى من باب أولى .

هذا ؛ وقد خالف أهل السنة والجماعة فى إثبات اليد لله تعالى أهلَ التعطيل من المعتزلة والجهمية والأشعرية ونحوهم ، وقالوا : لا يمكن أن نثبت لله يدًا حقيقية ، بل المراد باليد أمر معنوى ، وهو القوة ! ! أو المراد باليد النعمة لأن اليد تطلق فى اللغة العربية على القوة وعلى النعمة .

ففى الحديث الصحيح [أعنى] حديث النواس بن سمعان الطويل : « أن الله يوحى إلى عيسى أنى أخرجت عبادًا لى لا يَدَان لأحد بقتالهم »[1] ، والمعنى : لا قوة لأحد بقتالهم ، وهم يأجوج ومأجوج .

وأما اليد بمعنى النعمة ؛ فكثير ، ومنه قول رسول قريش لأبى بكر : « لولا يدٌ لك عندى لم أجزك بها ؛ لأجبتك »[2] ؛ يعنى : نعمة .

وقول المتنبى :

وَكَمْ لِظَلامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ ... تُحَـدِّثُ أنَّ المانَـويَّـة تَـكْـذِبُ

والمانوية : فرقة من المجوس الذين يقولون : إن الظلمة تخلق الشر ، والنور يخلق الخير . فالمتنبى يقول : إنك تعطى فى الليل العطايا الكثيرة التى تدل على أن المانوية تكذب ؛ لأن ليلك يأتى بخير .

فالمراد بيد الله : النعمة ، وليس المراد باليد اليد الحقيقية ؛ لأنك لو أثبت لله يدًا حقيقية ؛ لزم من ذلك التجسيم أن يكون الله تعالى جسمًا ، والأجسام متماثلة ، وحينئذ تقع فيما نهى الله عنه فى قوله : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل : ٧٤] .

ونحن أسعد بالدليل منك أيها المثبت للحقيقة ! ! نقول : سبحان من تنزه عن الأعراض والأبعاض والأغراض ! ! لا تجد مثل هذه السجعة لا فى الكتاب ولا فى السنة .

---

(1) أخرجه مسلم (٢٩٣٧) .

(2) أخرجه البخارى (٢٧٣٤) .

....

وجوابنا على هذا من عدة وجوه :

أولًا : أن تفسير اليد بالقوة أو النعمة مخالف لظاهر اللفظ ، وما كان مخالفًا لظاهر اللفظ ؛ فهو مردود ؛ إلا بدليل .

ثانيًا : إنه مخالف لإجماع السلف ؛ حيث إنهم كلهم مجمعون على أن المراد باليد اليد الحقيقية .

فإن قال لك قائل : أين إجماع السلف ؟ هات لى كلمة واحدة عن أبى بكر أو عمر أو عثمان أو على ؛ يقولون : إن المراد بيد الله اليد الحقيقية !

أقول له : ائت لى بكلمة واحدة عن أبى بكر أو عمر أو عثمان أو على أو غيرهم من الصحابة والأئمة من بعدهم يقولون : إن المراد باليد القوة أو النعمة .

فلا يستطيع أن يأتى بذلك .

إذن ؛ فلو كان عندهم معنًى يخالف ظاهر اللفظ ؛ لكانوا يقولون به ، ولنقل عنهم ، فلما لم يقولوا به ؛ عُلم أنهم أخذوا بظاهر اللفظ وأجمعوا عليه .

وهذه فائدة عظيمة ، وهى أنه إذا لم ينقل عن الصحابة ما يخالف ظاهر الكتاب والسنة ؛ فإنهم لا يقولون بسواه ؛ لأنهم الذين نزل القرآن بلغتهم ، وخاطبهم النبى ﷺ بلغتهم ؛ فلابد أن يفهموا الكتاب والسنة على ظاهرهما ؛ فإذا لم ينقل عنهم ما يخالفه ؛ كان ذلك قولهم .

ثالثًا : أنه يمتنع غاية الامتناع أن يراد باليد النعمة أو القوة فى مثل قوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص : ٧٥] ؛ لأنه يستلزم أن تكون النعمة نعمتين فقط ، ونعم الله لا تحصى ! ! ويستلزم أن القوة قوتان ، والقوة بمعنى واحد لا يتعدد فهذا التركيب يمنع غاية المنع أن يكون المراد باليد القوة أو النعمة .

هب أنه قد يمكن فى قوله : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة : ٦٤] : أن يراد بهما النعمة على تأويل ، لكن لا يمكن أن يراد بقوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ النعمة أبدًا .

أما القوة ؛ فيمتنع أن يكون المراد باليدين القوة فى الآيتين جميعًا ؛ فى قوله : ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ وفى قوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ؛ لأن القوة لا تتعدد .

رابعًا : أنه لو كان المراد باليد القوة ؛ ما كان لآدم فضل على إبليس ، بل ولا على الحمير والكلاب ؛ لأنهم كلهم خلقوا بقوة الله ، ولو كان المراد باليد القوة ؛ ما صح الاحتجاج على

....

إبليس ؛ إذ إن إبليس سيقول : وأنا يا رب خلقتني بقوتك ؛ فما فضله عليَّ ؟ !

خامسًا : أن يقال : إن هذه اليد التي أثبتها اللّٰه جاءت على وجوه متنوعة يمتنع أن يراد بها النعمة أو القوة ؛ فجاء فيها الأصابع والقبض والبسط والكف واليمين ، وكل هذا يمتنع أن يراد بها القوة ؛ لأن القوة لا توصف بهذه الأوصاف .

فتبين بهذا أن قول هؤلاء المحرِّفين الذين قالوا : المراد باليد القوة باطلٌ من عدة أوجه .

وقد سبق أن صفات اللّٰه عز وجل من الأمور الخبرية الغيبية التي ليس للعقل فيها مجال ، وما كان هذا سبيله ؛ فإن الواجب علينا إبقاؤه على ظاهره ؛ من غير أن نتعرض له .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

قوله : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ اليهود في الأصل من قولهم : ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ ، وكان اسم مدحٍ ، ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازمًا لهم ، وإن لم يكن فيه معنى المدح .

وقيل : سموا بذلك نسبةً إلى يهودا[1] بن يعقوب عليه السلام .

﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ يخبر تعالى عنهم بأنهم وصفوه بأنه بخيل ، كما وصفوه بأنه فقير ، وهم أغنياء ، لا أنهم يعنون أن يده موثقة .

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ هذا ردٌّ عليهم من اللّٰه تعالى بما قالوه ، ومقابلة لهم بما افتروه واختلقوه .

وهكذا وقع لهم فإن فيهم من البخل والحسد الشيء الكثير ، فلا ترى يهوديًا إلا وهو من أبخل خلق اللّٰه .

﴿وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ معطوف على ما قبله ، والباء سببية ؛ أي : أبعدوا من رحمة اللّٰه بسبب هذه المقالة .

ثم رد عليهم سبحانه بقوله : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ؛ أي : بل هو في غاية ما يكون من الجود والعطاء ، فيداه مبسوطتان بذلك .

﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ جملة مستأنفة مؤكدة لكمال جوده ، فإنفاقه على ما تقتضيه مشيئته ، فإن شاء وسع ، وإن شاء ضيق ، فهو الباسط القابض ، على ما تقتضيه حكمته .

الشاهد من الآيتين الكريمتين : أن فيهما إثبات اليدين للّٰه سبحانه وتعالى ، وأنهما يدان

---

(1) هكذا بالدال . « القاموس المحيط » (هـ و د) .

....

حقيقيتان لائقتان بجلاله وعظمته ؛ ليستا كيدى المخلوق .

* قال الشيخ هراس :

وأيضًا فلفظ اليدين بالتثنية لم يعرف استعماله إلا فى اليد الحقيقية ولم يرد قط بمعنى القدرة أو النعمة فإنه لا يسوغ أن يقال : خلقه الله بقدرتين أو بنعمتين . على أنه لا يجوز إطلاق اليدين بمعنى النعمة أو القدرة أو غيرهما إلا فى حق من اتصف باليدين على الحقيقة ، ولذلك لا يقال : للريح يد ولا للماء يد .

وأما احتجاج المعطلة بأن اليد قد أفردت فى بعض الآيات وجاءت بلفظ الجمع فى بعضها فلا دليل فيه ؛ فإن ما يصنع بالاثنين قد ينسب إلى الواحد ، تقول : رأيت بعينى وسمعت بأذنى . والمراد : عيناى وأذناى . وكذلك الجمع يأتى بمعنى المثنى أحيانًا كقوله تعالى : ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ . والمراد قلباكما .

وكيف يتأتى حمل اليد على القدرة أو النعمة مع ما ورد من إثبات الكف والأصابع واليمين والشمال والقبض والبسط وغير ذلك مما لا يكون إلا لليد الحقيقية ؟

* قال الشيخ الفوزان :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وفى ذلك الرد على من نفى اليدين الحقيقيتين عن الله ، وزعم أن المراد باليد القدرة أو النعمة ، وهذا تأويل باطل وتحريف للقرآن الكريم .

فالمراد يد الذات ، لا يد القدرة والنعمة ؛ إذ لو كان المراد باليد القدرة ، كما يقولون ، لبطل تخصيص آدم بخلقه بهما ؛ فإن جميع المخلوقات حتى إبليس خلقت بقدرته ، فأى مزيةٍ لآدم على إبليس فى قوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ .

فكان يمكن لإبليس أن يقول : وأنا خلقتنى بيديك . إذا كان المراد بها القدرة .

وأيضًا لو كان المراد باليد القدرة لوجب أن يكون لله قدرتان ، وقد أجمع المسلمون على بطلان ذلك .

وأيضًا لو كان المراد باليد النعمة لكان المعنى أنه خلق آدم بنعمتين ، وهذا باطل ؛ لأن نعم الله كثيرة لا تحصى ، وليست نعمتين فقط .

* قال الشيخ هراس :

وفى الآية الثانية يحكى الله سبحانه مقالة اليهود قبحهم الله فى ربهم ووصفهم إياه حاشاه

١٢- إثباتُ العينَيْنِ للَّهِ تعالى :

وقولِه : ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [الطور : ٤٨](١)، ....

بأن يده مغلولة أى ممسكة عن الإنفاق .

❁ قال الشيخ هراس :

ثم أثبت لنفسه سبحانه عكس ما قالوا ، وهو أن يديه مبسوطتان بالعطاء ينفق كيف يشاء ، كما جاء فى الحديث أن يمين اللَّه ملأى سَحَّاء الليل والنهار لا تغيضها نفقة ، تُرى لو لم يكن للَّه يدان على الحقيقة هل كان يحسن هذا التعبير ببسط اليدين ؟ !

ألا شاهت وجوه المتأولين .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

إثبات العينين للَّه تعالى :

ذكر المؤلف رحمه اللَّه تعالى لإثبات العينين للَّه تعالى ثلاث آيات :

الآية الأولى : ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [الطور : ٤٨] .

الخطاب هنا للنبى عليه الصلاة والسلام .

والصبر : بمعنى الحبس ، ومنه قولهم : قُتِلَ صبرًا ؛ أى : قتل وقد حُبِسَ للقتل .

فالصبر فى اللغة : بمعنى الحبس .

وفى الشرع : قالوا : هو الصبر لأحكام اللَّه ؛ يعنى : حبس النفس لأحكام اللَّه .

وأحكام اللَّه عز وجل شرعية وكونية : والشرعية : أوامر ونواه ؛ فالصبر على طاعة اللَّه صبر على الأوامر ، والصبر عن معصيته صبر عن النواهى . والكونية : أقدار اللَّه تعالى ، فُيصْبَرُ على أقداره وقضائه .

وهذا معنى قول بعضهم الصبر ثلاثة أقسام : صبر على طاعة اللَّه ، وصبر عن معصية اللَّه ، وصبر على أقدار اللَّه المؤلمة .

فقوله تعالى : ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ . يتناول الأقسام الثلاثة :

١- الصبر على طاعة اللَّه .

٢- وعن معصية اللَّه .

٣- وعلى أقدار اللَّه .

أى : اصبر لحكم ربك الكونى والشرعى .

....

وبهذا نعرف أن التقسيم الذى ذكره العلماء، وقالوا: إن الصبر ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله: داخل فى هذه الكلمة: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

ووجه الدخول: أن الحكم إما كونى وإما شرعى، والشرعى أوامر ونواهٍ، والنبى عليه الصلاة والسلام أمره الله عز وجل بأوامر، ونهاه عن نواهٍ، وقدر عليه مقدورات:

فالأوامر مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وهذه أوامر عظيمة؛ يعنى: لو قيل لإنسان: اعبد ربك؛ فإنه يتمكن من العبادة، لكن الدعوة والتبليغ أمر صعب؛ لأنه يتعب فى معاناة الآخرين وجهادهم، فيكون صعبًا.

وأما النواهى؛ فقد نهاه عن الشرك؛ قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] ... وما أشبه ذلك.

وأما الأحكام القدرية: فقد حصل عليه أذى من قومه؛ أذى قولى وأذى فعلى، لا يصبر عليه إلا أمثال الرسول عليه الصلاة والسلام.

آذوه بالقول: بالسخرية، والاستهزاء، والتهجين، وتنفير الناس عنه.

وآذوه بالفعل: كان ساجدًا تحت الكعبة فى آمن بقعة من الأرض، ساجدًا لربه، فذهبوا وأتوا بسلى الناقة، ووضعوه على ظهره وهو ساجد[1]!!

ليس هناك أبلغ من هذه الأذية مع العلم بأنه لو يدخل كافر مشرك إلى الحرم؛ لكان عندهم آمنًا، لا يؤذونه فيه، بل يكرمونه ويطعمونه النبيذ ويسقونه ماء زمزم!! ومحمد عليه الصلاة والسلام ساجدًا لله يؤذونه هذا الأذى!!

كانوا يأتون بالعَذرة والأنتان والأقذار يضعونه عند عتبة بابه!!

وخرج إلى أهل الطائف، وماذا صار؟! صار الإيذاء العظيم؛ صف سفهاؤهم وغلمانهم على جانبى الطريق، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه، فلم يفق إلا فى قرن الثعالب[2].

---

(1) أخرجه البخارى (٢٤٠)، ومسلم (١٧٩٤).

(2) أخرجه البخارى (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

....

فصبر على حكم اللّه ، ولكنه صبر مؤمن يؤمن بأن العاقبة له ؛ لأن اللّه قال له : ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ . . .. هذا الاعتناء والحفاوة . .. أكرم شيء يكون به الإنسان أن تقول له : أنت بعينى ، أنت بقلبى . .. وما أشبه ذلك .

أنت بعينى ؛ معناه : أنا ألاحظك بعينى . وهذا تعبير معروف عند الناس ، يكون تمام الحراسة والعناية والحفظ بمثل هذا التعبير : أنت بعينى .

إذن ؛ قوله : ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ؛ يعنى : فإنك محروس غاية الحراسة ، محفوظ غاية الحفظ .

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ : أعيننا معك ؛ نحفظك ، ونرعاك ، ونعتنى بك .

فى [هذه] الآية الكريمة إثبات العين للّه عز وجل ، لكنها جاءت بصيغة الجمع ؛ لما سنذكر إن شاء اللّه تعالى .

العين من الصفات الذاتية الخبرية : الذاتية : لأنه لم يزل ولا يزال متصفًا بها ، والخبرية : لأن مسماها بالنسبة إلينا أجزاء وأبعاض .

فالعين منا بعض من الوجه ، والوجه بعض من الجسم ، لكنها بالنسبة للّه لا يجوز أن نقول : إنها بعض من اللّه ، لأنه سبق أن هذا اللفظ لم يرد ، وأنه يقتضى التجزئة فى الخالق ، وأن البعض أو الجزء هو الذى يجوز بقاء الكل بفقده ، ويجوز أن يفقد ، وصفات اللّه لا يجوز أن تفقد أبدًا ، بل هى باقية .

وقد دلّ الحديث الصحيح عن رسول اللّه ﷺ أن للّه عينين اثنتين فقط ؛ حين وصف الدجال وقال : « إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور »[1]، وفى لفظ : « أعور العين اليمنى » .

وقد قال بعض الناس معنى (أعور) ؛ أى : مَعِيب ، وليس من عَورِ العين ! !

وهذا لا شك أنه تحريف وتجاهل للفظ الصحيح الذى فى « البخاري » وغيره : « أعور العين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافية » . وهذا واضح .

ولا يقال أيضًا : (أعور) باللغة العربية ؛ إلا لعور العين ، أما إذا قيل : (عور) أو (عوار) ؛ فربما يراد به مطلق العيب .

وهذا الحديث يدل على أن للّه تعالى عينين اثنتين فقط .

---

(1) أخرجه البخارى (٤٤٠٣) .

....

ووجه الدلالة أنه لو كان لله أكثر من اثنتين ؛ لكان البيان به أوضح من البيان بالعور ؛ لأنه لو كان لله أكثر من عينين ؛ لقال : إن ربكم له أعين . لأنه إذا كان له أعين أكثر من ثنتين ؛ صار وضوح أن الدجال ليس برب أبينَ .

وأيضًا : لو كان لله عز وجل أكثر من عينين ؛ لكان ذلك من كماله ، وكان تركُ ذكره تفويتًا للثناء على الله ؛ لأن الكثرة تدل على القوة والكمال والتمام ، فلو كان لله أكثر من عينين ؛ لبينها الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لئلا يفوتنا اعتقاد هذا الكمال ، وهو الزائد على العينين الثنتين .

وذكر ابن القيم رحمه الله فى كتابه « الصواعق المرسلة » حديثًا ، لكنه ضعيف لانقطاعه ، وهو : « إن العبد إذا قام فى الصلاة قام بين عينى الرحمن . . . »[1]: « عيني » : هذه تثنية ، لكن الحديث ضعيف ، واعتمادنا فى عقيدتنا هذه على الحديث الصحيح ؛ حديث الدجال ؛ لأنه واضح لمن تأمّله .

ولقد ذكر عثمان بن سعيد الدارمى رحمه الله فى « رده على بشر المريسي » ، وكذلك أيضًا ذكره ابن خزيمة فى كتاب « التوحيد » ، وذكر أيضًا إجماع السلف على ذلك أبو الحسن الأشعرى رحمه الله وأبو بكر الباقلانى ، والأمر فى هذا واضح .

فعقيدتنا التى ندين للهِ بها : أن لله تعالى عينين اثنتين ، لا زيادة .

فإن قيل : إن من السلف من فسّر قوله تعالى : ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ . بقوله : بمرأى منا . فسّره بذلك أئمة سلفيون معروفون ، وأنتم تقولون : إن التحريف محرم وممتنع؟ فما الجواب ؟

فالجواب : أنهم فسروها باللازم ، مع إثبات الأصل ، وهى العين ، وأهل التحريف يقولون : بمرأى منا ؛ بدون إثبات العين ، وأهل السنة والجماعة يقولون : ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ . بمرأى منا ، مع إثبات العين .

لكن ذكر العين هنا أشد توكيدًا وعناية من ذكر مجرد الرؤية ، ولهذا قال : ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ .

قالت المعطلة : أجلبتم علينا بالخيل والرَّجِل فى إنكاركم علينا التأويل ، وأنتم أولتم فأخرجتم الآية عن ظاهرها ؛ فالله يقول : ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ ؛ فخذوا بالظاهر ، وإذا أخذتم بالظاهر ؛ كفرتم ،

---

(1) « الضعيفة » للألبانى (١٠٢٤) .

....

وإذا لم تأخذوا بالظاهر ؛ تناقضتم ؛ فمرّة تقولون : يجوز التأويل . ومرة تقولون : لا يجوز التأويل ، وتسمُّونه تحريفًا ، وهل هذا إلا تحكم بدين اللّه ؟ !

قلنا : نأخذ بالظاهر ، وعلى العين والرأس ، وهو طريقتنا ، ولا نخالفه .

قالوا : الظاهر ، من الآية أن محمدًا ﷺ بعين اللّه ، وسط العين ؛ كما تقول : زيد بالبيت ، زيد بالمسجد ؛ فالباء للظرفية ، فيكون زيد داخل البيت ، وداخل المسجد ، فيكون قوله : ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ ؛ أى : داخل أعيننا ! وإذا قلتم بهذا كفرتم ؛ لأنكم جعلتم اللّه محلًّا للخلائق ؛ فأنتم حلولية ، وإن لم تقولوا به ؛ تناقضتم ؟ !

قلنا لهم : معاذ اللّه ! ثم معاذ اللّه ! ثم معاذ اللّه أن يكون ما ذكرتموه ظاهر القرآن ، وأنتم إن اعتقدتم أن هذا ظاهر القرآن ؛ كفرتم ؛ لأن من اعتقد أن ظاهر القرآن كفر وضلال ؛ فهو كافر ضال .

فأنتم توبوا إلى اللّه من قولكم : إن هذا هو ظاهر اللفظ ! واسألوا جميع أهل اللغة من الشعراء والخطباء : هل يقصدون بمثل هذه العبارة أن الإنسان المنظور إليه بالعين حالٌّ فى جفن العين ؟ ! اسألوا من شئتم من أهل اللغة أحياء وأمواتًا ! !

فأنت إذا رأيت أساليب اللغة العربية ؛ عرفت أن هذا المعنى الذى ذكروه وألزمونا به لا يرد فى اللغة العربية ؛ فضلًا عن أن يكون مضافًا إلى الرب عز وجل ؛ فإضافته إلى الرب كفر منكر ، وهو منكر لغةً وشرعًا وعقلًا .

فإن قيل : بماذا تفسرون الباء فى قوله : ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ ؟

قلنا : نفسرها بالمصاحبة ، إذا قلت : أنت بعينى . يعنى : أن عينى تصحبك وتنظر إليك ، لا تنفك عنك ؛ فالمعنى : أن اللّه عز وجل يقول لنبيه : اصبر لحكم اللّه ؛ فإنك محوطٌ بعنايتنا وبرؤيتنا لك بالعين التى لا ينالك أحد بسوء [ما دامت تحفظك وتحطوطك] .

ولا يمكن أن تكون الباء هنا للظرفية ؛ لأنه يقتضى أن يكون رسول اللّه ﷺ فى عين اللّه ، وهذا محال .

وأيضًا ؛ فإن رسول اللّه ﷺ خوطب بذلك وهو فى الأرض ؛ فإذا قلتم : إنه كان فى عين اللّه ! كانت دلالة القرآن كذبًا .

وهذا وجه آخر فى بطلان دعوى أن ظاهر القرآن أن الرسول ﷺ فى عين اللّه تعالى .

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾(1) [القمر: ١٣، ١٤]،

✽ **قال الشيخ الفوزان:**

﴿وَٱصْبِرْ﴾ الصبر لغةً الحبس والمنع، فهو حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكى والتسخط، وحبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب.

﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾؛ أى: لقضائه الكونى والشرعى.

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أى: بمرأى منا، تحت حفظنا، فلا تُبال بأذى الكفار؛ فإنهم لا يصلون إليك.

✽ **قال الشيخ هراس:**

قوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ إلخ: فى هذه الآيات الثلاث يثبت اللَّه سبحانه لنفسه عينًا يرى بها جميع المرئيات، وهى صفة حقيقية للَّه عزَّ وجلَّ على ما يليق به فلا يقتضى إثباتها كونها جارحة مركبة من شحم وعصب وغيرهما.

وتفسير المعطلة لها بالرؤية أو بالحفظ والرعاية نفى وتعطيل.

وأما إفرادها فى بعض النصوص وجمعها فى البعض الآخر فلا حجة لهم فيه على نفيها، فإن لغة العرب تتسع لذلك، فقد يعبر فيها عن الاثنين بلفظ الجمع، ويقوم فيها الواحد مقام الاثنين كما قدمنا فى اليدين.

على أنه لا يمكن استعمال لفظ العين فى شىء من هذه المعانى التى ذكروها إلا بالنسبة لمن له عين حقيقية فهل يريد هؤلاء المعطلة أن يقولوا: إن اللَّه يتمدح بما ليس فيه فيثبت لنفسه عينًا وهو عاطل عنها؟ وهل يريدون أن يقولوا: إن رؤيته للأشياء لا تقع بصفة خاصة بها بل هو يراها بذاته كلها، كما تقول المعتزلة: إنه قادر بذاته مريد بذاته إلخ؟ وفى الآية الأولى يأمر اللَّه نبيه ﷺ بالصبر لحكمه والاحتمال لما يلقاه من أذى قومه، ويعلل ذلك الأمر بأنه بمرأى منه وفى كلائته وحفظِه.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٣، ١٤].

﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾: الضمير يعود على نوح عليه الصلاة والسلام.

....

وقوله : ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ . أى : على سفينة ذات ألواح ودُسُر ، وهذه السفينة كان عليه الصلاة والسلام يصنعها ، وكان يمر به قومه ، فيسخرون منه ، فيقول : ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود : ٣٨] .

صنعها بأمر الله ورعاية الله وعنايته ، وقال الله له : ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود : ٣٧] . فالله تعالى ينظر إليه وهو يصنع الفلك ، ويلهمه كيف يصنعها .

ووصفها الله هنا فى قوله : ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ : ﴿ذَاتِ﴾ : بمعنى صاحبة . والألواح : الخشب . والدسر : ما يربط به الخشب كالمسامير والحبال وما أشبه ذلك ، وأكثر المفسرين على أن المراد بها المسامير التى تربط بها الأخشاب .

﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ : هذا الشاهد : ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ : أى ذات الألواح والدسر بأعين الله عز وجل . والمراد بالأعين هنا عينان فقط ؛ كما مرَّ . ومعنى تجرى بها ؛ أى : مصحوبة بنظرنا بأعيننا ؛ فالباء هنا للمصاحبة ، تجرى على الماء الذى نزل من السماء ونبع من الأرض ؛ لأن نوحًا عليه الصلاة والسلام دعا ربه ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر : ١٠] ؛ قال الله تعالى : ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر : ١١ ، ١٢] ؛ فكانت هذه السفينة تجرى بعين الله عز وجل .

قد يقول قائل : لماذا لم يقل : وحملناه على السفينة ، أو : حملناه على فلك ، بل قال : ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ ؟

والجواب على هذا أن نقول : عَدَلَ عن التعبير بالفلك والسفينة إلى التعبير بذات ألواح ودُسر ؛ لوجوه ثلاثة :

الوجه الأول : مرعاة للآيات وفواصلها ؛ فلو قال : حملناه على فلك ؛ لم تتناسب هذه الآية مع ما بعدها ولا ما قبلها . ولو قال : على سفينة ؛ كذلك ، لكن من أجل تناسب الآيات فى فواصلها وفى كلماتها قال : ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ ؟

الوجه الثانى : من أجل أن يتعلم الناس كيف يصنعون السفن ، وبيان أنها من الألواح والمسامير ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر : ١٥] ؛ فأبقى الله تعالى علمها آية للخلق يصنعون كما ألهم الله تعالى نوحًا .

الوجه الثالث : الإشارة إلى قوتها ، حيث كانت من ألواح ودسر ، والتنكير هنا للتعظيم .

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾[1] [طه: ٣٩].

وروعى التركيز على مادتها، ونظير ذلك فى ذكر الوصف دون الموصوف قوله تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [سبأ: ١١]. ولم يقل: دُرُوعًا، من أجل العناية بفائدة هذه الدروع، وهى أن تكون سابغة تامَّة؛ فهذه مثلها.

وقوله: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾؛ نقول فيها ما قلناه فى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

❊ قال الشيخ الفوزان:

قوله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾؛ أى: نوحًا عليه السلام.

﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾؛ أى: على سفينةٍ ذات أخشابٍ عريضةٍ، ومسامير شدت بها تلك الألواح، مفردها: دسار.

﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أى: بمنظرٍ، ومرأى منا، وحفظٍ لها.

﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾؛ أى: فعلنا بنوحٍ عليه السلام، وبقومه ما فعلنا من إنجائه وإغراقهم؛ ثوابًا لمن كفر به، وجحد أمره، وهو نوح عليه السلام.

❊ قال الشيخ هراس:

وفى الآية الثانية: يخبر الله عزَّ وجلَّ عن نبيه نوح عليه السلام أنه لما كذبه قومه وحقت عليهم كلمة العذاب وأخذهم الله بالطوفان حمله هو ومن معه من المؤمنين على سفينة ذات ألواح عظيمة من الخشب ودُسر، أى مسامير (جمع دِسار) تشد بها الألواح، وأنها كانت تجرى بعين الله وحراسته.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

الآية الثالثة: قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

الخطاب لموسى عليه الصلاة والسلام.

فقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾: اختلف المفسرون فى معناها.

فمنهم من قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾؛ يعنى: أنى أحببتك.

ومنهم من قال: ألقيت عليك محبة من الناس، والإلقاء من الله؛ أى أن: من رآك أحبك، وشاهد هذا أن امرأة فرعون لما رأته أحبته وقالت: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ

....

﴿نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩].

ولو قال قائل: أيمكنكم أن تحملوا الآية على المعنيين؟ لقلنا: نعم! بناءً على القاعدة، وهو أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين لا منافاة بينهما؛ فإنها تُحْمل عليهما جميعًا؛ فموسى عليه الصلاة والسلام محبوب من الله عز وجل، ومحبوب من الناس، إذا رآه الناس؛ أحبوه، والواقع أن المعنيين متلازمان؛ لأن الله تعالى إذا أحب عبدًا؛ ألقى فى قلوب العباد محبته.

ويروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: أحبه الله وحببه إلى خلقه.

ثم قال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾: الصنع: جعل الشىء على صفة معينة؛ كصنع صفائح الحديد قدورًا، وصنع الخشب أبوابًا، وصنع كل شىء بحسبه؛ فصناعة البيت: بناء البيت، وصناعة الحديد: جعلها أوانى مثلًا أو محركات، وصنع الآدمى: معناه التربية البدنية والعقلية، التربيته البدنية بالغذاء، والتربيته العقلية بالآداب والأخلاق وما أشبه ذلك.

وموسى عليه الصلاة والسلام حصل له ذلك؛ فإنه ربى على عين الله.

لما التقطه آل فرعون؛ حماه الله عز وجل من قتلهم، مع أنهم كانوا يقتلون أبناء بنى إسرائيل، فقضى الله تعالى أن هذا الذى تقتل الناس من أجله سيتربى فى أحضان آل فرعون؛ فالناس يقتلون من أجله، وهو يتربى آمنًا فى أحضانهم. وانظر إلى هذه القدرة العظيمة!!

ومن تربية الله له عرض على المراضع - النساء اللاتى يرضعنه؛ ولكنه [لم يرضع] من أى واحدة، [قال تعالى]: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢]؛ فما رضع من امرأة قط، وكانت أخته قد انتدبت من قبل أمه، فرأتهم، وقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢]. قالوا: نعم؛ نحن نود هذا. فقالت: اتبعونى. فتبعوها؛ قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ١٣]! ولم يرضع من امرأة قط، مع أنه رضيع! لكن هذا من كمال قدرة الله وصدق وعده؛ لأن الله عز وجل قال لها: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

الأم شفقتها على ابنها لا أحد يتصورها؛ قيل لها: اجعلى ابنك فى صندوق، وألقيه فى البحر، وسيأتى إليك.

....

لولا الإيمان الذى مع هذه المرأة ؛ ما فعلت هذا الشىء ! تُلقى ابنها فى البحر ! لو أن ابنها سقط فى تابوته فى البحر ؛ لجرّته فكيف وهى التى تلقيه ؟ ! لكن لثقتها بالرب عز وجل وبوعده ألقته فى اليَمّ .

وقوله : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ ؛ بالإفراد ؛ هل يُنافى ما سبق من ذكرها بالجمع ؟ !

الجواب : لا تنافى ، وذلك لأن المفرد المضاف يُعم فيشمل كل ما ثَبَت للّٰه من عين ، وحينئذ لا منافاة بين المفرد وبين الجمع أو التثنية .

إذن ؛ يبقى النظر بين التثنية والجمع ؛ فكيف نجمع بينهما ؟ !

الجواب أن نقول : إن كان أقل الجمع اثنين ؛ فلا منافاة ؛ لأننا نقول : هذا الجمع دال على اثنتين ؛ فلا ينافيه . وإن كان أقل الجمع ثلاثة ؛ فإن هذا الجمع لا يُراد به الثلاثة ، وإنما يراد به التعظيم والتناسب بين ضمير الجمع وبين المضاف إليه .

وقد فسّر أهل التحريف والتعطيل العين بالرؤية بدون عين ، وقالوا : ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ : برؤية منا ، ولكن لا عين ، والعين لا يمكن أن تثبت للّٰه عز وجل أبدًا ؛ لأن العين جزء من الجسم ؛ فإذا أثبتنا العين للّٰه ؛ أثبتنا تجزئةً وجسمًا ، وهذا شىء ممتنع ؛ فلا يجوز ، ولكنه ذكر العين من باب تأكيد الرؤية ؛ يعنى : كأنما نراك ولنا عين ، والأمر ليس كذلك ! !

فنقول لهم : هذا القول خطأ من عدّة أوجه :

الوجه الأول : أنه مخالف لظاهر اللفظ .

الثانى : أنه مخالف لإجماع السلف .

الثالث : أنه لا دليل عليه ؛ أى أن المراد بالعين مجرد الرؤية .

الرابع : أننا إذا قلنا بأنها الرؤية ، وأثبت اللّٰه لنفسه عينًا ؛ فلازم ذلك أنه يرى بتلك العين ، وحينئذ يكون فى الآية دليل على أنها عين حقيقية .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ الخطاب لموسى عليه السلام ؛ أى : وضعتها عليك فأحببتك وحببتك إلى خلقى .

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ ؛ أى : ولتربى وتغذى بمرأى منى ، أراك وأحفظك .

١٣- إثباتُ السمعِ والبصرِ للَّهِ تعالى :

وقوله : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾(١) [المجادلة : ١] ، ....

الشاهد من الآيات : أن فيها إثبات العينين للَّه تعالى حقيقةً ، على ما يليق به سبحانه ، فقد نطق القرآن بلفظ العين مضافةً إليه ؛ مفردةً ومجموعةً ، ونطقت السنة بإضافتها إليه مثناةً .

وقال النبي ﷺ : «إن ربكم ليس بأعور»[1] ، وذلك صريح بأنه ليس المراد إثبات عينٍ واحدةٍ ؛ فإن ذلك عور ظاهر ، تعالى اللَّه عنه .

ولغة العرب جاءت بإفراد المضاف وتثنيته وجمعه ، بحسب أحوال المضاف إليه ، فإن أضافوا الواحد المتصل إلى مفردٍ أفردوه .

وإن أضافوا إلى جمعٍ ، ظاهرًا أو مضمرًا فالأحسن جمعه ؛ مشاكلةً للفظ ، كقوله سبحانه : ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ ، وكقوله : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ .

وإن أضافوه إلى اسمٍ مثنًّى فالأفصح في لغتهم جمعه كقوله : ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ ، وإنما هما قلبان ، فلا يلتبس على السامع قول المتكلم : نراك بأعيننا ، ونأخذك بأيدينا ، ولا يفهم منه بشر على وجه الأرض عيونًا كثيرةً على وجهٍ واحدٍ ، واللَّه أعلم .

❁ **قال الشيخ هراس :**

وفي الآية الثالثة : خطاب من اللَّه لنبيه موسى عليه السلام بأنه ألقى عليه محبة منه ، يعني أحبه هو سبحانه وحببه إلى خلقه ، وأنه صنعه على عينه ورباه تربية استعد بها للقيام بما حمله من رسالة إلى فرعون وقومه .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

[إثبات] صفة السمع والبصر للَّه تعالى :

ذكر المؤلف رحمه اللَّه في إثبات صفتي السمع والبصر سَبْعَ آيات :

الآية الأولى : قوله تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ

---

(1) البخاري (٣٠٥٧، ٣٣٣٧، ٣٤٣٩، ٤٤٠٢، ٦١٧٥، ٧١٢٧، ٧٤٠٧)، ومسلم (١/١٥٤) (١٦٩).

....

يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة : ١] .

﴿قَدْ﴾ : للتحقيق .

والمُجَادِلَة : هى التى جاءت إلى النبى ﷺ تشتكى زوجها حين ظاهر منها .

والظِّهار : أن يقول الرجل لزوجته : أنت علَىَّ كظهر أمى . أو كلمة نحوها .

وكان الظهار فى الجاهلية طلاقًا بائنًا ، فجاءت تشتكى إلى رسول اللّه ﷺ ، وتبين له كيف يطلقها هذا الرجل ذلك الطلاق البائن وهى أم أولاده ، وكانت تحاور النبى ﷺ ، أى : تراجعه الكلام ، فأفتاها اللّه عز وجل بما أفتاها به فى الآيات المذكورة .

والشاهد من هذه الآيات قوله : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ﴾ . ففى هذا إثبات السمع للّه سبحانه وتعالى ، وأنه يسمع الأصوات مهما بعدت ومهما خفيت .

قالت عائشة رضى اللّه عنها : « تبارك - أو قالت : الحمد للّه - الذى وسِع سمعه الأصوات ، إنى لفى ناحية البيت ، وإنى ليخفى علىَّ بعض حديثها » . هذا معنى حديثها .

والسمع المضاف إلى اللّه عز وجل ينقسم إلى قسمين :

١- سمع يتعلق بالمسموعات ؛ فيكون معناه إدراك الصوت .

٢- وسمع بمعنى الاستجابة ؛ فيكون معناه أن اللّه يجيب من دعاه ؛ لأن الدعاء صوت ينطلق من الداعى ، وسَمِعَ اللّه دعاءه ؛ يعنى : استجاب دعاءه ، وليس المراد سمعه مجرد سماع فقط ؛ لأن هذا لا فائدة منه ، بل الفائدة أن يستجيب اللّه الدعاء .

فالسمع الذى بمعنى إدراك الصوت ثلاثة أقسام :

أحدها : ما يقصد به التأييد .

والثانى : ما يقصد به التهديد .

والثالث : ما يقصد به بيان إحاطة اللّه سبحانه وتعالى .

١- أما ما يقصد به التهديد ؛ فكقوله تعالى : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الزخرف : ٨٠] ، وقوله : ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران : ١٨١] .

٢- وأما ما يقصد به التأييد ؛ فكقوله تعالى لموسى وهارون : ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ

....

أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] ؛ أراد الله عز وجل أن يؤيد موسى وهارون بذكر كونه معهما يسمع ويرى ؛ أى : يسمع ما يقولان وما يقال لهما ويراهما ومن أرسلا إليه ، وما يفعلان ، وما يفعل بهما .

٣- وأما ما يقصد به بيان الإحاطة ، فمثل هذه الآية ، وهى : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة : ١] .

❁ قال الشيخ الفوزان :

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى﴾ وهى خولة بنت ثعلبة .

﴿تُجَٰدِلُكَ﴾ أيها النبى ؛ أى : تراجعك الكلام فى شأن ﴿زَوْجِهَا﴾ وهو أوس بن الصامت ، وذلك حين ظاهر منها .

﴿وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ معطوف على ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾ ، وذلك أنه كلما قال لها رسول الله ﷺ : « قد حرمت عليه » . قالت : والله ما ذكر طلاقًا . ثم تقول : أشكو إلى الله فاقتى ووحدتى ، وأن لى صبيةً صغارًا ، إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلى جاعوا . وجعلت ترفع رأسها إلى السماء ، وتقول : اللهم إنى أشكو إليك .

﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ ؛ أى : تراجعكما فى الكلام .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ يسمع كل الأصوات ، ويبصر ، ويرى كل المخلوقات ، ومن جملة ذلك ما جادلتك به هذه المرأة .

❁ قال الشيخ هراس :

قوله : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ إلخ : هذه الآيات ساقها المؤلف لإثبات صفات السمع والبصر والرؤية .

أما السمع : فقد عبرت عنه الآيات بكل صيغ الاشتقاق وهى سمع ويسمع وسميع ونسمع وأسمع ، فهو صفة حقيقية لله يدرك بها الأصوات كما قدمنا .

وأما البصر : فهو الصفة التى يدرك بها الأشخاص والألوان والرؤية لازمة له ، وقد جاء فى حديث أبى موسى : « يا أيها الناس ، أَربِعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا ، ولكن تدعون سميعًا بصيرًا ، إن الذى تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ (١)[آل عمران : ١٨١] ،

وكل من السمع والبصر صفة كمال ، وقد عاب الله على المشركين عبادتهم ما لا يسمع ولا يبصر ، وقد نزلت الآية الأولى فى شأن خولة بنت ثعلبة حين ظاهر منها زوجها فجاءت تشكو إلى رسول الله ﷺ وتحاوره وهو يقول لها : « ما أراكِ إلا قد حَرُمتِ عليه » .

أخرج البخارى فى « صحيحه » عن عروة ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : « الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ﷺ وأنا فى ناحية من البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة : ١] الآيات » .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الآية الثانية : قوله : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران : ١٨١] .

﴿لَقَدْ﴾ : جملة مؤكدة باللام ، و(قد) ، والقسم المقدر؛ تقديره : والله ؛ فهى مؤكدة بثلاث مؤكدات .

والذين قالوا : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ : هم اليهود قاتلهم الله ؛ فهم وصفوا الله بالعيب ؛ قالوا : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ .

وسبب قولهم هذا : أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، قالوا للرسول ﷺ : يا محمد ، إن ربك افتقر ، يسأل القرض منا .

* قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ هم قوم من اليهود قالوا هذه المقالة لما أنزل الله : ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، قالوا ذلك تمويهًا على ضعفائهم ، لا أنهم يعتقدون ذلك ؛ لأنهم أهل كتابٍ ، وإنما قالوا ذلك ليشككوا فى دين الإسلام .

* قال الشيخ هراس :

وأما الآية الثانية : فقد نزلت فى فِنحاص اليهودى الخبيث حين قال لأبى بكر رضى الله عنه لما دعاه إلى الإسلام : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر وأنه إلينا لفقير ولو كان غنيًا ما استقرضنا .

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾(1) [الزخرف : ٨٠] .

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الآية الثالثة : قوله : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف : ٨٠] .

﴿أَمْ﴾ فى مثل هذا التركيب ؛ يقولون : إنها متضمنة معنى (بل) ، والهمزة ؛ يعنى : بل أيحسبون ؛ ففيها إضراب وفيها استفهام ؛ أى : بل أيحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم .

والسر : ما يسره الإنسان إلى صاحبه .

والنجوى : ما يناجى به صاحبه ويخاطبه ؛ فهو أعلى من السر .

والنداء : ما يرفع به صوته لصاحبه .

فها هنا ثلاثة أشياء : سر ومناجاة ونداء .

فمثلًا ؛ إذا كان شخص إلى جانبك ، وساررته ؛ أى : كلمته بكلام لا يسمعه غيره ؛ نسمى هذا مُسارَّةً .

وإذا كان الحديث بين القوم يسمعونه كلهم ويتجاذبونه ، سُمِّى مناجاة .

وأما المناداة ؛ فتكون من بعيد لبعيد .

فهؤلاء يسرون ما يقولونه من المعاصى ، ويتناجون بها ؛ فيقول اللّٰه عز وجل مهددًا إياهم : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ﴾ .

و﴿بَلَىٰ﴾ : حرف إيجاب ؛ يعنى : بلى نسمع ، وزيادة على ذلك : ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ ؛ أى : عندهم يكتبون ما يسرون وما به يتناجون ، والمراد بالرسل هنا الملائكة الموكلون بكتابة أعمال بنى آدم ، ففى هذه الآيات إثبات أن اللّٰه تعالى يسمع سرهم ونجواهم .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ ما يسرون به فى أنفسهم ، أو ما يتحادثون به سرًّا فى مكانٍ خالٍ .

﴿وَنَجْوَاهُم﴾ ؛ أى : ما يتناجون به فيما بينهم ، والنجوى ما يتحدث به الإنسان مع رفيقه ، ويخفيه عن غيره .

﴿بَلَىٰ﴾ نسمع ذلك ، ونعلم به .

وقولـه : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾(١) [طه: ٤٦]، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾(٢) [العلق: ١٤]، ....

﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾؛ أي: الحفظة عندهم يكتبون جميع ما يصدر عنهم، من قولٍ، أو فعلٍ.

❋ قال الشيخ هراس:

وأما الآية الثالثة: فـ: ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل والهمزة؛ فهى أَم المنقطعة، والاستفهام إنكارى يتضمن معنى التوبيخ، والمعنى: بل أيظن هؤلاء فى تخفيهم واستتارهم أنا لا نسمع سرهم ونجواهم، بلى نسمع ذلك وحفظتنا لديهم يكتبون ما يقولون وما يفعلون.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

الآية الرابعة: قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

الخطاب لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام؛ يقول الله سبحانه وتعالى لهما: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾. أى: أسمع ما تقولولان، وأسمع ما يقال لكما؛ وأراكما، وأرى من أرسلتما إليه، وأرى ما تفعلان، وأرى ما يُفعل بكما.

لأنه إما أن يساء إليهما بالقول أو بالفعل؛ فإن كان بالقول؛ فهو مسموع عند الله، وإن كان بالفعل؛ فهو مرئى عند الله.

❋ قال الشيخ الفوزان:

وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ يقول تعالى لموسى وأخيه هارون عليهما السلام، لما أرسلهما إلى فرعون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾؛ أى: بحفظى وكلاءتى ونصرى لكما.

﴿أَسْمَعُ وَأَرَى﴾؛ أى: أسمع كلامكما وكلام عدوكما، وأرى مكانكما ومكانه، وما يجرى منكما ومنه، وهذا تعليل لقوله: ﴿لَا تَخَافَآ﴾.

❋ قال الشيخ هراس:

وأما الآية الرابعة: فهى خطاب من الله عزَّ وجلَّ لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام حين شكوا إلى الله خوفهما من بطش فرعون بهما، فقال لهما: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين:

الآية الخامسة: قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤].

﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1]

[الشعراء: ٢١٨- ٢٢٠]، ....

الضمير في ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾ يعود إلى من يسيء إلى النبي ﷺ لقوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ٩ - ١٤]، وقد ذكر المفسرون أن المراد به أبو جهل.

وفي هذه الآية: إثبات صفة الرؤية لله عز وجل.

والرؤية المضافة إلى الله لها معنيان.

المعنى الأول: العلم.

المعنى الثاني: رؤية المبصرات؛ يعني: إدراكها بالبصر.

فمن الأول: قوله تعالى عن القيامة: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧]؛ فالرؤية هنا رؤية العلم؛ لأن اليوم ليس جسمًا يرى، وأيضًا هو لم يكن بعد؛ فمعنى: ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾؛ أي: نعلمه قريبًا.

وأما قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾. فهي صالحة لأن تكون بمعنى العلم وبمعنى الرؤية البصرية، وإذا كانت صالحة لهما، ولا منافاة بينهما وجب أن تُحمل عليهما جميعًا، فيقال: إن الله يرى؛ أي: يعلم ما يفعله هذا الرجل وما يقوله، ويراه أيضًا.

✽ قال الشيخ الفوزان:

قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾ أبو جهلٍ حينما نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة.

﴿بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾؛ أي: أما علم أن الله يراه ويسمع كلامه، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء، والاستفهام للتقريع والتوبيخ.

✽ قال الشيخ هراس:

وأما الآية الخامسة: فقد نزلت في شأن أبي جهل - لعنه الله - حين نهى النبي ﷺ عن الصلاة عند البيت، فنزل قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ إلخ السورة [العلق: ١٤].

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

الآية السادسة: قوله: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٨ - ٢٢٠].

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1] [التوبة: ١٠٥].

قبل هذه الآية قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧].

والرؤية هنا رؤية البصر؛ لأن قوله: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ لا تصح أن تكون بمعنى العلم؛ لأن الله يعلم به حين يقوم وقبل أن يقوم، وأيضًا لقوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، وهو يؤيد أن المراد بالرؤية هنا رؤية البصر.

ومعنى الآية: أن الله تعالى يراه حين يقوم للصلاة وحده وحين يتقلب فى الصلاة مع الساجدين فى صلاة الجماعة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أى: الله الذى يراك حين تقوم: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وفى الآية هنا ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾؛ من فوائده الحصر؛ فهل الحصر هنا حقيقى؛ بمعنى: أنه حصر لا يوجد شىء من المحصور فى غير المحصور فيه، أو هو إضافى؟

الجواب: هو إضافى من وجه حقيقى من وجه؛ لأن المراد بـ: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ هنا: ذو السمع الكامل المدرك لكل مسموع، وهذا هو الخاص بالله عز وجل، والحصر بهذا الاعتبار حقيقى، أما مطلق السمع؛ فقد يكون من الإنسان؛ كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]؛ فجعل الله تعالى الإنسان سميعًا بصيرًا.
وكذلك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾؛ فإن الإنسان عليم؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، لكن العلم المطلق - أى: الكامل - خاص بالله سبحانه وتعالى؛ فالحصر بهذا الاعتبار حقيقى.

وفى هذه الآية الجمع بين السمع والرؤية.

❁ **قال الشيخ الفوزان:**

قوله: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ﴾؛ أى: يبصرك ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ للصلاة وحدك.

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛ أى: ويراك إن صليت فى الجماعة، راكعًا وساجدًا وقائمًا.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما تقوله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ به.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الآية السابعة: قوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

والذى قبل هذه الآية: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ

....

سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٣، ١٠٤].

في هذه الآية يقول: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

قال ابن كثير وغيره: قال مجاهد: هذا وعيد - يعني من الله تعالى - للمخالفين أوامره؛ بأن أعمالهم ستُعرض عليه وعلى الرسول والمؤمنين، وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، وقد يظهر ذلك للناس في الدنيا.

والرؤية هنا شاملة للعلمية والبصرية.

ففي الآية: إثبات الرؤية بمعنييها: الرؤية العلمية، والرؤية البصرية.

وخلاصة ما سبق من صفتي السمع والرؤية:

أن السمع ينقسم إلى قسمين:

١- سمع بمعنى الاستجابة.

٢- وسمع بمعنى إدراك الصوت.

وأن إدراك الصوت ثلاثة أقسام.

وكذلك الرؤية تنقسم إلى قسمين:

١- رؤية بمعنى العلم.

٢- ورؤية بمعنى إدراك المبصرات.

وكل ذلك ثابت لله عز وجل.

والرؤية التي بمعنى إدراك المبصرات ثلاثة أقسام:

١- قسم يقصد به النصر والتأييد؛ كقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦].

٢- وقسم يقصد به الإحاطة والعلم؛ مثل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

٣- وقسم يقصد به التهديد؛ مثل قوله: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٩٤].

ما نستفيده من الناحية المسلكية في الإيمان بصفتي السمع والرؤية:

- أما الرؤية؛ فنستفيد من الإيمان بها الخوف والرجاء: الخوف عند المعصية؛ لأن الله يرانا.

١٤- إثباتُ المكرِ والكيدِ للَّهِ تعالى على ما يليقُ به :
وقولِه : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾(١) [الرعد : ١٣] .

والرجاء عند الطاعة ؛ لأن اللَّه يرانا . ولا شك أنه سيثيبنا على هذا ؛ فتتقوى عزائمنا بطاعة اللَّه ، وتضعف إرادتنا لمعصيته .

- وأما السمع ؛ فالأمر فيه ظاهر ؛ لأن الإنسان إذا آمن بسمع اللَّه ؛ استلزم إيمانه كمال مراقبة اللَّه تعالى فيما يقول خوفًا ورجاءً : خوفًا ؛ فلا يقول ما يسمع اللَّه تعالى منه من السوء ؛ ورجاءً ؛ فيقول الكلام الذى يرضى اللَّه عز وجل .

❁ قال الشيخ الفوزان :

قوله : ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ﴾ ؛ أى : قل يا محمد لهؤلاء المنافقين : ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ ، واستمروا على باطلكم ، ولا تحسبوا أن ذلك سيخفى .

﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ؛ أى : ستظهر أعمالكم للناس ، وترى فى الدنيا .

﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ بعد الموت ﴿إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم على ذلك .

الشاهد من الآيات الكريمة : فى هذه الآيات وصف اللَّه سبحانه بالسمع والبصر ، وأنه تعالى يسمع ويبصر حقيقةً ، على ما يليق به ، منزه عن صفات المخلوقين ومماثلتهم .

فالآيات صريحة فى إثبات السمع والبصر ، حيث جاء فيها إثبات السمع للَّه بلفظ الماضى والمضارع واسم الفاعل ؛ سمع ، ويسمع ، وسميع .

ولا يصح فى كلام العرب أن يقال لشىءٍ : هو سميع بصير . إلَّا وذلك الشىء يسمعُ ويبصر ، هذا هو الأصل ، فلا يقال : جبل سميع بصير . لأن ذلك مستحيل ، إلا لمن يسمع ويبصر .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

[إثبات] صفة المكر والكيد والمحال للَّه تعالى :

ذكر المؤلف رحمه اللَّه ثلاث صفات متقاربة فى أربع آيات : المحال ، والمكر ، والكيد :

الآية الأولى : فى المحال ، وهى قوله : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد : ١٣] .

أى : شديد الأخذ بالعقوبة . وقيل : إن المحال بمعنى المكر ؛ أى : شديد المكر ، وكأنه على

....

هذا التفسير مأخوذ من الحيلة ، وهى أن يتحيل بخصمه حتى يوقع به . وهذا المعنى ظاهر صنيع المؤلف رحمه الله ؛ لأنه ذكرها فى سياق آيات المكر والكيد .

والمكر ؛ قال العلماء فى تفسيره : إنه التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالخصم ؛ يعنى : أن تفعل أسبابًا خفية فتوقع بخصمك وهو لا يحس ولا يدرى ، ولكنها بالنسبة لك معلومة مدبرة .

والمكر يكون فى موضع مدحًا ويكون فى موضع ذمًّا : فإن كان فى مقابلة من يمكر ؛ فهو مدح ؛ لأنه يقتضى أنك أنت أقوى منه . وإن كان فى غير ذلك ؛ فهو ذمٌّ ويسمى خيانة .

ولهذا لم يصف الله نفسه به إلا على سبيل المقابلة والتقييد ؛ كما قال الله تعالى : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل : ٥٠] ، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال : ٣٠] ، ولا يوصف الله سبحانه وتعالى به على الإطلاق ؛ فلا يقال : إن الله ماكر ! لا على سبيل الخبر ، ولا على سبيل التسمية ، ولا يقال : إنه كائد ! لا على سبيل الخبر ، ولا على سبيل التسمية ؛ ذلك لأن هذا المعنى يكون مدحًا فى حال ويكون ذمًّا فى حال ؛ فلا يمكن أن نصف الله به على سبيل الإطلاق .

فأما قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران : ٥٤] ؛ فهذا كمال ، ولهذا لم يقل : أمكر الماكرين بل قال : ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ . فلا يكون مكره إلا خيرًا ، ولهذا يصح أن نصفه بذلك ؛ فنقول : هو خير الماكرين . أو نصفه بصفة المكر فى سبيل المقابلة ؛ أى : مقابلة من يمكر به ، فنقول : إن الله تعالى ماكر بالماكرين ؛ لقوله تعالى : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

قوله : ﴿وَهُوَ﴾؛ أى : الله سبحانه ﴿شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ المحل فى اللغة : الشدة ؛ أى : شديد الكيد ، قال الزجاج : يقال : ماحلته محالًا إذا قاويته حتى يتبين أيكما أشد .

وقال ابن الأعرابى : المحال المكر ، فهو سبحانه شديد المكر ، شديد الكيد ، والمكر من الله إيصال المكروه إلى من يستحقه ، من حيث لا يشعر .

✽ **قال الشيخ هراس :**

وقوله : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ إلخ : تضمنت هذه الآيات إثبات صفتى المكر

وقوله : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(1) [آل عمران : ٥٤] .

والكيد[1] ، وهما من صفات الفعل الاختيارية ، ولكن لا ينبغى أن يشتق له من هاتين الصفتين اسم ، فيقال : ماكر وكائد . بل يوقف عند ما ورد به النص من أنه خير الماكرين ، وأنه يكيد لأعدائه الكافرين .

وأما قوله سبحانه : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ ، فمعناه : شديد الأخذ بالعقوبة كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج : ١٢] ، ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود : ١٠٢] .

وقال ابن عباس : معناه شديد الحول ، وقال مجاهد : شديد القوة ، والأقوال متقاربة .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الآية الثانية : فى المكر ، وهى قوله : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران : ٥٤] .

هذه نزلت فى عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، مكر به اليهود ليقتلوه ، ولكن كان اللّٰه تعالى أعظم منهم مكرًا ، رفعه اللّٰه [إليه] ، وألقى شبهه على أحدهم ، على الذى تولى كبره وأراد أن يقتله ، فلما دخل عليه هذا الذى يريد القتل [لعيسى عليه السلام] ، وإذا عيسى قد رفع ، فدخل الناس ، فقالوا : أنت عيسى ! قال : لست عيسى ! فقالوا : أنت هو ! لأن اللّٰه تعالى ألقى عليه شبهه ، فقتل هذا الرجل الذى كان يريد أن يقتل عيسى ابن مريم ؛ فكان مكره عائدًا عليه ، ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿وَمَكَرُوا﴾ ؛ أى : الذين أحس عيسى منهم الكفر ، وهم كفار بنى إسرائيل ، الذين أرادوا قتل عيسى وصلبه ، والمكر : فعل شيء يراد به ضده .

﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ ؛ أى : استدرجهم ، وجازاهم على مكرهم ، فألقى شبه عيسى على

---

(1) قرر ابن القيم فى « الصواعق » أن اللّٰه تعالى لم يصف نفسه بالمكر والكيد والاستهزاء والخداع مطلقًا بل على وجه الجزاء لمن فعل ذلك وهو حسن وإن أفعال هذه الألفاظ لا يجوز إطلاقها على اللّٰه تعالى ولا يشتق له منها أسماء لأنها تمدح فى موضع وتذم فى موضع أتى ابن القيم فى ذلك بما لا يستغنى عنه لولا « الإطالة ومن كلامه ذلك يتبين مراد شيخ الإسلام بإيراد قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ، وقوله : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ، وقوله : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ فى هذا الكتاب . « إسماعيل الأنصاري » .

وقوله : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(١)[النمل : ٥٠] ،

غيره ، ورفع عيسى إليه .

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أى : أقواهم وأقدرهم على إيصال الضرر بمن يستحقه ، من حيث لا يشعر ، ولا يحتسب .

✽ قال الشيخ هراس :

وأما قوله : ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران : ٥٤] فمعناه أنفذهم وأسرعهم مكرًا .

وقد فسر بعض السلف مكر الله بعباده بأنه استدرجهم بالنعم من حيث لا يعلمون ، فكلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة ، وفى الحديث : « إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيم على معصيته ، فاعلم أنما ذلك منه استدراج » .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية الثالثة : فى المكر أيضًا ، وهى قوله : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل : ٥٠] .

هذا فى قوم صالح ، كان فى المدينة التى كان يدعو الناس فيها إلى الله تسعة رهط - أى : أنفار - ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل : ٤٩] . يعنى : لنقتلنه بالليل ، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ . يعنى : أنهم قتلوه بالليل ؛ فما يشاهدونه . لكن مكروا ومكر الله ! قيل : إنهم لما خرجوا ليقتلوه ، فلجئوا إلى غار ينتظرون الليل ؛ انطبق عليهم الغار ، فهلكوا ، وصالح وأهله لم يمسهم سوء ، فيقول الله : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ .

و﴿مَكْرًا﴾ : فى الموضعين منكرة للتعظيم ؛ أى : مكروا مكرًا عظيمًا ، ومكرنا مكرًا أعظم .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿وَمَكَرُوا﴾ ؛ أى : الكفار الذين تحالفوا على قتل نبى الله صالح عليه السلام وأهله خفيةً ؛ خوفًا من أوليائه .

﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ جازيناهم بفعلهم هذا ، فأهلكناهم ، ونجينا نبينا .

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمكرنا .

وقولِه : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾[1] [الطارق : ١٥، ١٦] .

❁ قال الشيخ هراس :

وقد نزلت هذه الآية فى شأن عيسى عليه السلام حين أراد اليهود قتله فدخل بيتًا فيه كُوَّة ، وقد أيده اللَّه بجبريل عليه السلام ، فرفعه إلى السماء من الكوة ، فدخل عليه يهوذا ليدلهم عليه فيقتلوه ، فألقى اللَّه شبه عيسى على ذلك الخائن ، فلما دخل البيت فلم يجد فيه عيسى خرج إليهم وهو يقول : ما فى البيت أحد ، فقتلوه وهم يرون أنه عيسى ، فذلك قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الآية الرابعة : فى الكيد ، وهى قوله : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق : ١٥، ١٦] .

﴿إِنَّهُمْ﴾ ؛ أى : كفار مكة ، ﴿يَكِيدُونَ﴾ للرسول ﷺ ﴿كَيْدًا﴾ لا نظير له فى التنفير منه ومن دعوته ، ولكن اللَّه تعالى يكيد كيدًا أعظم وأشد .

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ ؛ يعنى : كيدًا أعظم من كيدهم .

ومن كيدهم ومكرهم ما ذكره اللَّه فى سورة « الأنفال » : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال : ٣٠] : ثلاثة آراء :

١- ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ . يعنى : يحبسوك . ٢- ﴿يَقْتُلُوكَ﴾ . يعنى : يعدموك .

٣- ﴿يُخْرِجُوكَ﴾ . يعنى : يطردوك .

وكان رأى القتل أفضل الآراء عندهم بمشورة من إبليس ؛ لأن إبليس جاءهم بصورة شيخ نجدى ، وقال لهم : انتخبوا عشرة شبان من عشر قبائل من قريش ، وأعطوا كل واحد سيفًا ، ثم يعمدون إلى محمد ﷺ ، فيقتلونه قتلة رجل واحد ، فيضيع دمه فى القبائل ؛ فلا تستطيع بنو هاشم أن تقتل واحدًا من هؤلاء الشبان وحينئذ يلجئون إلى الدية ، فتسلمون منه . فقالوا : هذا الرأى ! ! وأجمعوا على ذلك . ولكنهم مكروا مكرًا واللَّه تعالى يمكر خيرًا منه ؛ قال اللَّه تعالى : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال : ٣٠] ؛ فما حصل لهم الذى يريدون ! بل إن الرسول عليه الصلاة والسلام خرج من بيته ، يذر التراب على رءوس العشرة هؤلاء ، ويقرأ [قوله تعالى] : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس : ٩] ؛ فكانوا ينتظرون الرسول عليه الصلاة والسلام يخرج ، فخرج ، من بينهم ، ولم يشعروا به .

....

إذن ؛ صار مكر الله عز وجل أعظم من مكرهم ؛ لأنه أنجى رسوله منهم وهاجر .

قال هنا : ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق : ١٥، ١٦] ، والتنكير فيها للتعظيم ، وكان كيد الله عز وجل أعظم من كيدهم .

وهكذا يكيد الله عز وجل لكل من انتصر لدينه ؛ فإنه يكيد له ويؤيده ؛ قال الله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف : ٧٦] . يعنى : عملنا عملًا حصل به مقصوده دون أن يشعر به أحد .

وهذا من فضل الله عز وجل على المرء : أن يقيه شر خَصمه على وجه الكيد والمكر على هذا الخصم الذى أراد الإيقاع به .

فإن قلت : ما تعريف المكر والكيد والمِحَال ؟

فالجواب : تعريفها عند أهل العلم : التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالخصم ؛ يعنى : أن توقع بخصمك بأسباب خفية لا يدرى عنها .

وهى فى محلها صفة كمال يحمد عليها ، وفى غير محلها صفة نقص يذم عليها .

ويذكر أن على بن أبى طالب رضى الله عنه لما بارز عمرو بن وُدٍّ - والفائدة من المبارزة أنه إذا غلب أحدهما انكسرت قلوب خصومه ، فلما خرج عمرو ؛ صرخ على : ما خرجت لأبارز رجلين . فالتفت عمرو ، فلما التفت ؛ ضربه على رضى الله عنه على رقبته حتى أطاح برأسه !

هذا خداع ، لكنه جائز ، ويحمد عليه ؛ لأنه فى موضعه ؛ فإن هذا الرجل ما خرج ليكرم على بن أبى طالب ويهنئه ، ولكنه خرج ليقتله ؛ فكاد له علىٌّ بذلك .

والمكر والكيد والمحال من صفات الله الفعلية التى لا يوصف بها على سبيل الإطلاق ؛ لأنها تكون مدحًا فى حال ، وذمًّا فى حال ؛ فيوصف بها حين تكون مدحًا ، ولا يوصف بها إذا لم تكن مدحًا ؛ فيقال : الله خير الماكرين ، خير الكائدين ، أو يقال : الله ماكر بالماكرين ، خادع لمن يخادعه .

والاستهزاء من هذا الباب ؛ فلا يصح أن نخبر عن الله بأنه مستهزئ على الإطلاق ؛ لأن الاستهزاء نوع من اللعب ، وهو منفى عن الله ؛ قال الله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان : ٣٨] . لكن فى مقابلة من يستهزئ به يكون كمالًا ؛ كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ

....

﴿مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥].

فأهل السنة والجماعة يثبتون هذه المعانى لله عز وجل على سبيل الحقيقة.

لكن أهل التحريف يقولون: لا يمكن أن يوصف الله بها أبدًا، لكن ذكر مكر الله ومكرهم من باب المشاكلة اللفظية، والمعنى مختلف؛ مثل: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

ونحن نقول لهم: هذا خلاف ظاهر النص، وخلاف إجماع السلف.

وقد قلنا سابقًا: إذا قال قائل: ائت لنا بقول لأبى بكر أو عمر أو عثمان أو على يقولون فيه: إن المراد بالمكر والكيد والاستهزاء والخداع الحقيقة!

فنقول لهم: نعم؛ هم قرءوا القرآن وآمنوا به، وكونهم لم ينقلوا هذا المعنى المتبادر إلى معنى آخر؛ يدل على أنهم أقروا به، وأن هذا إجماع، ولهذا يكفينا أن نقول فى الإجماع: لم ينقل عن واحد منهم خلاف ظاهر الكلام، وأنه فسر الرضا بالثواب، أو الكيد بالعقوبة ... ونحو ذلك.

وهذه الشبهة ربما يوردها علينا أحد من الناس؛ فيقولون: أنتم تقولون: هذا إجماع السلف؛ أين إجماعهم؟

نقول: عدم نقل ما يخالف ظاهرها عنهم دليل الإجماع.

ما نستفيده من الناحية المسلكية فى إثبات صفة المكر والكيد والمحال:

المكر: يستفيد به الإنسان بالنسبة للأمر المسلكى مراقبة الله سبحانه وتعالى، وعدم التحيل على محارمه، وما أكثر المتحيلين على المحارم! فهؤلاء المتحيلون على المحارم، إذا علموا أن الله تعالى خير منهم مكرًا، وأسرع منهم مكرًا؛ فإن ذلك يستلزم أن ينتهوا عن المكر.

ربما يفعل الإنسان شيئًا فيما يبدو للناس أنه جائز لا بأس به، لكنه عند الله ليس بجائز، فيخاف، ويحذر.

وهذا له أمثلة كثيرة جدًا فى البيوع والأنكحة وغيرهما:

مثال ذلك فى البيوع: رجل جاء إلى آخر؛ قال: أقرضنى عشرة آلاف درهم. قال: لا أقرضك إلا باثنى عشر ألفًا! وهذا ربًا وحرام سيتجنبه لأنه يعرف أنه ربا صريح! لكن باع عليه سلعة باثنى عشر ألفًا مؤجلة إلى سنة بيعًا تامًا، وكتبت الوثيقة بينهما، ثم إن البائع أتى إلى المشترى، وقال: بعنيه بعشرة آلاف نقدًا. فقال: بعتك إياه. وكتبوا بينهما وثيقة بالبيع!

فظاهر هذا البيع الصحة، ولكن نقول: هذه حيلة؛ فإن هذا لما عرف أنه لا يجوز أن يعطيه

....

عشرة آلاف باثنى عشر ألفًا ؛ قال : أبيع السلعة عليه باثنى عشر ، وأشتريها نقدًا بعشرة .

ربما يستمر الإنسان فى هذه المعاملة لأنها أمام الناس معاملة ليس فيها شيء ، لكنها عند الله تحيل على محارمه ، وقد يملى الله تعالى لهذا الظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته ؛ يعنى : يتركه ينمو ماله ويزداد وينمو بهذا الربا ، لكن إذا أخذه لم يفلته ، وتكون هذه الأشياء خسارة عليه فيما بعد ، ومآله إلى الإفلاس ، ومن الكلمات المشهورة على ألسنة الناس : من عاش فى الحيلة مات فقيرًا .

مثال ذلك فى الأنكحة :امرأة طلقها زوجها ثلاثًا ؛ فلا تحل له إلا بعد زوج ، فجاء صديق له فتزوجها بشرط أنه متى حللها - يعنى : جامعها - طلقها ، ففعل ؛ [و]تزوج بعقد وشهود ومهر ، ودخل عليها ، وجامعها ، ثم طلقها ، ولما طلقها ؛ أتت بالعدة ، وتزوجها الأول ؛ فإنها ظاهرًا تحل للزوج الأول ، لكنها باطنًا لا تحل ؛ لأن هذه حيلة .

فمتى علمنا أن الله أسرع مكرًا ، وأن الله خير الماكرين ؛ أوجب لنا ذلك أن نبتعد غاية البعد عن الحيل على محارم الله .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أى : كفار قريش ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ؛ أى : يمكرون لإبطال ما جاء به محمد ﷺ من الدين الحق .

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾؛ أى : أستدرجهم ، وأجازيهم على كيدهم ، فآخذهم على غرةٍ ، وهم لا يشعرون .

الشاهد من الآيات : فى هذه الآيات وصف الله بالمكر والكيد ، ونسبة ذلك إليه سبحانه حقيقةً على بابه ؛ فإن المكر إيصال الشيء إلى الغير بطريقٍ خفيٍّ ، وكذلك الكيد والمخادعة والمكر .

والكيد نوعان : قبيح ، وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه .

وحسن : وهو إيصاله إلى من يستحقه ، عقوبةً له .

فالأول مذموم ، والثانى ممدوح ، والرب تعالى إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه ؛ عدلًا منه وحكمةً ، وهو تعالى يأخذ الظالم والفاجر من حيث لا يحتسب ، لا كما يفعل الظلمة بعباد الله . والله أعلم .

والله سبحانه لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير

١٥- وَصْفُ اللَّهِ بالعَفْوِ والمغفرةِ والرحمةِ والعِزَّةِ والقدرةِ :

وقولِه : ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾(1) [النساء: ١٤٩]، ....

حقٌّ ، وقد علم أن المجازاة حسنة من المخلوق ، فكيف بالخالق سبحانه وتعالى ؟ !

تنبيه : نسبة الكيد والمكر ونحوهما إليه سبحانه من إطلاق الفعل عليه تعالى ، والفعل أوسع من الاسم ، ولهذا أطلق اللّه على نفسه أفعالًا لم يتسم منها بأسماء الفاعل ؛ كأراد وشاء ، ولم يسم بالمريد والشائى .

وكذا مكر ويمكر ، وأكيد كيدًا ، ولا يقال : الماكر والكائد ؛ لأن مسمياتها تنقسم إلى ممدوحٍ ومذمومٍ .

✽ قال الشيخ هراس :

وأما قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا﴾ إلخ : فهى فى شأن الرهط التسعة من قوم صالح عليه السلام حين تقاسموا باللّه ليبيتنه وأهله ، أى : ليقتلنه بياتًا وأهله ثم ليقولن لوليه : ما شهدنا مهلِك أهله ، فكان عاقبة هذا المكر منهم أن مكر اللّه بهم فدمرهم وقومهم أجمعين .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

[إثبات] صفة العفو والمغفرة والرحمة والعزة [والقدرة] :

ذكر المؤلف رحمه اللّه أربع آيات فى صفة العفو والقدرة والمغفرة والرحمة والعزة :

الآية الأولى : فى العفو والقدرة : قوله :

﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩] .

يعنى : إن تفعلوا خيرًا ، فتبدوه ؛ أى : تظهروه للناس ، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ ؛ يعنى : عن الناس ؛ فإن اللّه تعالى يعلمه ، ولا يخفى عليه شىء .

وفى الآية الثانية : ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٤] ، وهذا أعم ؛ يشمل الخير والشر وما ليس بخيرٍ ولا شرٍّ .

ولكل آية مكانها ومناسبتها لمن تأمل .

وقوله : ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾ : العفو : هو التجاوز عن العقوبة ؛ فإذا أساء إليك إنسان ، فعفوت عنه ؛ فإن اللّه سبحانه وتعالى يعلم ذلك .

....

ولكن العفو يشترط للثناء على فاعله أن يكون مقرونًا بالإصلاح ؛ لقوله تعالى : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وذلك أن العفو قد يكون سببًا للزيادة فى الطغيان والعدوان ، وقد يكون سببًا للانتهاء عن ذلك ، وقد لا يزيد المعتدى ولا ينقصه .

١- فإذا كان سببًا للزيادة فى الطغيان ؛ كان العفو هنا مذمومًا ، وربما يكون ممنوعًا ؛ مثل أن نعفوا عن هذا المجرم ، ونعلم - أو يغلب على الظن - أنه يذهب فيجرم إجرامًا أكبر ، فهنا لا يمدح العافى عنه ، بل يذم .

٢- وقد يكون العفو سببًا للانتهاء عن العدوان ؛ بحيث يخجل ويقول : هذا الذى عفا عنى لا يمكن أن أعتدى عليه مرة أخرى ، ولا على أحد غيره . فيخجل أن يكون هو من المعتدين ، وهذا الرجل من العافين ؛ فالعفو هنا محمود ومطلوب ، وقد يكون واجبًا .

٣- وقد يكون العفو لا يؤثر لا ازديادًا ولا نقصًا ؛ فهو أفضل ؛ لقوله تعالى : ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وهنا يقول تعالى : ﴿أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ ؛ يعنى : إذا عفوتم عن السوء ؛ عفا اللّه عنكم ، ويؤخذ هذا الحكم من الجواب : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ ؛ يعنى : فيعفو عنكم مع قدرته على الانتقام منكم ، وجمع اللّه تعالى هنا بين العفو والقدير ؛ لأن كمال العفو أن يكون عن قدرة . أما العفو الذى يكون عن عجز ؛ فهذا لا يمدح فاعله ؛ لأنه عاجز عن الأخذ بالثأر . وأما العفو الذى لا يكون مع قدرة ؛ فقد يُمدح ، لكنه ليس عفوًا كاملًا ، بل العفو الكامل ما كان عن قدرة .

ولهذا جمع اللّه تعالى بين هذين الاسمين (العفو) و(القدير) :

فالعفو : هو المتجاوز عن سيئات عباده ، والغالب أن العفو يكون عن ترك الواجبات ، والمغفرة عن فعل المحرمات .

والقدير : ذو القدرة ، وهى صفة يتمكن بها الفاعل من الفعل بدون عجز .

وهذان الاسمان يتضمنان صفتين ، وهما العفو ، والقدرة .

❁ قال الشيخ الفوزان :

﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا﴾ ؛ أى : تظهروه .

﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ فتعملوه سرًا .

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(١)] [النور: ٢٢].

﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ﴾؛ أي: تتجاوزوا عمن أساء إليكم.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ عن عباده يتجاوز عنهم ﴿قَدِيرًا﴾ على الانتقام منهم بما كسبت أيديهم، فاقتدوا به سبحانه؛ فإنه يعفو مع القدرة.

❁ قال الشيخ هراس:

قوله: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا﴾. هذه الآيات تضمنت إثبات صفات العفو والقدرة والمغفرة والرحمة والعزة والتبارُك والجلال والإكرام.

فالعفو الذى هو اسمه تعالى معناه المتجاوز عن عقوبة عباده إذا هم تابوا إليه وأنابوا كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

ولما كان أكمل العفو ما كان عن قدرة تامة على الانتقام والمؤاخذة جاء هذان الاسمان الكريمان العفو والقدير، مقترنين فى هذه الآية وفى غيرها.

وأما القدرة فهى الصفة التى تتعلق بالممكنات إيجادًا وإعدامًا، فكل ما كان ووقع من الكائنات واقع بمشيئته وقدرته كما فى الحديث: «ما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن».

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

الآية الثانية: فى المغفرة والرحمة: قوله: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

هذه الآية نزلت فى أبى بكر رضى اللَّه عنه، وذلك أن مِسطح بن أُثاثة رضى اللَّه عنه كان ابن خالة أبى بكر، وكان ممن تكلموا فى الإفك.

وقصة الإفك[1]: أن قومًا من المنافقين تكلموا فى عرض عائشةَ رضى اللَّه عنها، وليس واللَّه قصدهم عائشة، لكن قصدهم رسول اللَّه ﷺ: أن يدنسوا فراشه، وأن يلحقوه العار والعياذ باللَّه! ولكن اللَّه - وللَّه الحمد - فضحهم، وقال: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١]. تكلموا فيها، وكان أكثر من تكلم فيها المنافقون، وتكلم فيها نفر من الصحابة رضى اللَّه عنهم معروفون بالصلاح، ومنهم مسطح بن أثاثة، فلما تكلم فيها، وكان هذا من أكبر القطيعة - قطيعة الرحم - أن يتكلم إنسان فى قريبه بما يخدش كرامته، لاسيما وأن ذلك فى

---

(1) أخرجه البخارى (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

....

أم المؤمنين زوجة رسول الله ﷺ ؛ أقسم أبو بكر ألا ينفق عليه ، وكان أبو بكر هو الذى ينفق عليه ، فقال الله تعالى : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ - وكل هذه الأوصاف ثابتة فى حق مسطح ؛ فهو قريب ومسكين ومهاجر - ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور : ٢٢] . فقال أبو بكر رضى الله عنه : بلى والله ؛ نحب أن يغفر الله لنا . فرد عليه النفقة .

هذا هو ما نزلت فيه الآية .

أما تفسيرها ؛ فقوله : ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ : اللام لام الأمر ، وسكنت لأنها أتت بعد الواو ، ولام الأمر تسكن إذا وقعت بعد الواو - كما هنا - أو بعد الفاء أو بعد (ثم) : قال الله تعالى : ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق : ٧] ، وقال تعالى : ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ [الحج : ٢٩] ؛ هذا إذا كانت لام أمر ، أما إذا كانت لام تعليل ؛ فإنها تبقى مكسورة ، لا تسكن ، وإن وليت هذه الحروف .

قوله : ﴿وَلْيَعْفُوا﴾ ؛ يعنى : يتجاوزوا عن الأخذ بالذنب .

﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾ ؛ يعنى : يعرضوا عن هذا الأمر ، ولا يتكلموا فيه ؛ مأخوذ من صفحة العنق ، وهى جانبه ؛ لأن الإنسان إذا أعرض ؛ فالذى يبدو منه صفحة العنق .

والفرق بين العفو والصفح : أن الإنسان قد يعفو ولا يصفح ، بل يذكر هذا العدوان وهذه الإساءة ، لكنه لا يأخذ بالندب ؛ فالصفح أبلغ من مجرد العفو .

وقوله : ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ : ﴿أَلَا﴾ : للعرض ، والجواب : بلى نحب ذلك ؛ فإذا كنا نحب أن يغفر الله لنا ؛ فلنتعرض لأسباب المغفرة .

ثم قال : ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ . ﴿غَفُورٌ﴾ : هذه إما أن تكون اسم فاعل للمبالغة ، وإما أن تكون صفة مشبهة ؛ فإذا كانت صفة مشبهة ؛ فهى دالة على الوصف اللازم الثابت ، هذا هو مقتضى الصفة المشبهة ، وإن كانت اسم فاعل محولًا إلى صيغة التكثير ؛ كانت دالة على وقوع المغفرة من الله بكثرة .

وبعد هذا نقول : إنها جامعة بين الأمرين ، فهى صفة مشبَّهة ؛ لأن المغفرة صفة دائمة لله عز وجل ، وهى أيضًا فعل يقع بكثرة ؛ فما أكثر مغفرة الله عز وجل وما أعظمها .

وقوله : ﴿رَّحِيمٌ﴾ : هذه أيضًا اسم فاعل محول إلى صيغة المبالغة ، وأصل اسم الفاعل من

وقوله : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١) [المنافقون : ٨] ، ....

رحم : راحم ، لكن حول إلى رحيم لكثرة رحمة الله عز وجل وكثرة من يرحمهم الله عز وجل .

والله سبحانه وتعالى يقرن بين هذين الاسمين ؛ لأنهما دالان على معنًى متشابه ؛ ففى المغفرة زوال المكروب وآثار الذنب ، وفى الرحمة حصول المطلوب ؛ كما قال الله تعالى للجنة : « أنت رحمتى أرحم بك من أشاء »[1].

❁ قال الشيخ الفوزان :

قوله : ﴿وَلْيَعْفُوا۟﴾ ؛ أى : ليستر ويتجاوز أولو الفضل والسعة المذكورون فى أول الآية .

﴿وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾ بالإعراض عن الجانى والإغماض عن جنايته .

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ بسبب عفوكم وصفحكم عن المسيئين إليكم .

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ كثير المغفرة .

﴿رَّحِيمٌ﴾ كثير الرحمة .

❁ قال الشيخ هراس :

وأما قوله تعالى : ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾ الآية ، فقد نزلت فى شأن أبى بكر رضى الله عنه حين حلف لا ينفق على مِسطح بن أثاثة ، وكان ممن خاضوا فى الإفك ، وكانت أم مسطح بنت خالة أبى بكر ، فلما نزلت هذه الآية قال أبو بكر : والله إنى لأحب أن يغفر اللهُ لى . ووصَل مِسطحًا .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الآية الثالثة : فى العزة ، وهى قوله : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون : ٨] .

هذه الآية نزلت فى مقابلة قول المنافقين : ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون : ٨] ؛ يريدون أنهم الأعز ، وأن رسول الله ﷺ والمؤمنين الأذلون ، فبين الله تعالى أنه لا عزة لهم ، فضلًا عن أن يكونوا هم الأعزون ، وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

ومقتضى قول المنافقين أن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم والمؤمنين هم الذين يخرجون المنافقين ؛ لأنهم أهل العزة ، والمنافقين أهل الذلة ، ولهذا كانوا يحسبون كل صيحة عليهم ، وذلك لذلهم وهلعهم ، وكانوا إذا لقوا الذين آمنوا ؛ قالوا : آمنا ؛ خوفًا وجبنًا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم ؛ قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون . وهذا غاية الذل !!

(1) أخرجه البخارى (٤٨٥٠) ، ومسلم (٢٨٤٦) .

....

أما المؤمنون ؛ فكانوا أعزاء بدينهم ؛ قال اللّه عنهم فى مجادلة أهل الكتاب : ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ٦٤] ، فيعلنونها صريحة ، لا يخافون فى اللّه لومة لائم .

وفى هذه الآية الكريمة إثبات العزة للّه سبحانه وتعالى .

وذكر أهل العلم أن العزة تنقسم إلى ثلاثة أقسام : عزة القدر ، وعزة القهر ، وعرة الامتناع :

١- فعزة القدر : معناه أن اللّه تعالى ذو قدر عزيز ؛ يعنى لا نظير له .

٢- وعزة القهر : هى عزة الغلبة ؛ يعنى : أنه غالب كل شىء ، قاهر كل شىء ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص : ٢٣] ؛ يعنى : غلبنى فى الخطاب . فاللّه سبحانه عزيز لا غالب له بل هو غالب كل شىء .

٣- وعزة الامتناع : وهى أن اللّه تعالى يمتنع أن يناله سوء أو نقص ؛ فهو مأخوذ من القوة والصلابة ، ومنه قولهم : أرض عزاز ؛ يعنى قوية شديدة .

هذه معانى العزة التى أثبتها اللّه تعالى لنفسه ، وهى تدل على كمال قهره وسلطانه ، وعلى كمال صفاته ، وعلى تمام تنزهه عن النقص .

تدل على كمال قهره وسلطانه فى عزة القهر .

وعلى تمام صفاته وكمالها وأنه لا مثيل لها فى عزة القدر .

وعلى تمام تنزهه عن العيب والنقص فى عزة الامتناع .

قوله : ﴿وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ؛ يعنى : أن الرسول ﷺ له عزة ، وللمؤمنين أيضًا عزة وغلبة .

ولكن يجب أن نعلم أن العزة التى أثبتها اللّه لرسوله وللمؤمنين ليست كعزة اللّه ؛ فإن عزة الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين قد يشوبها ذلة ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران : ١٢٣] ؛ وقد يغلبون أحيانًا لحكمة يريدها اللّه عز وجل ؛ ففى أُحُدٍ لم يحصل لهم تمام العزة ؛ لأنهم غلبوا فى النهاية لـحِكَم عظيمة ، وكذلك فى حُنين ولّوا مدبرين ، ولم يبق مع النبى ﷺ من اثنى عشر ألفًا إلا مائة رجل . هذا أيضًا فَقْدٌ للعزة ، لكنه مؤقت . أما عزة اللّه عز وجل ؛ فلا يمكن أبدًا أن تفقد .

وبهذا عرفنا أن العزة التى أثبتها اللّه لرسوله وللمؤمنين ليست كالعزة التى أثبتها لنفسه .

وقولِه عن إبليسَ : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [(١)] [ص: ٨٢] .

وهذا أيضًا يمكن أن يؤخذ من القاعدة العامة ، وهى أنه : لا يلزم من اتفاق الاسمين أن يتماثل المسميان ، ولا من اتفاق الصفتين أن يتماثل الموصوفان .

✽ قال الشيخ الفوزان :

قولـه : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾. هذا ردٌّ على المنافقين الذين زعموا أن العزة لهم على المؤمنين ، والعزة هى القوة والغلبة ، وهى للَّه وحده ، ولمن أفاضها عليه من رسله ، وصالحى عبيده ، لا لغيرهم .

✽ قال الشيخ هراس :

وأما قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون : ٨] ، فقد نزلت فى شأن عبد اللَّه بن أُبى ابن سلول رئيس المنافقين ، وكان فى بعض الغزوات قد أقسم ليخرجن رسول اللَّه ﷺ هو وأصحابه من المدينة ، فنزل قوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون : ٨] ، يقصد بالأعز - قبحه اللَّه - نفسه وأصحابه ، ويقصد بالأذل رسول اللَّه ومن معه من المؤمنين ، فرد اللَّه عزَّ وجلَّ عليه بقوله : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون : ٨] .

والعزة صفة أثبتها اللَّه عزَّ وجلَّ لنفسه ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ، وقال : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ ، وأقسم بها سبحانه كما فى حديث الشفاعة : « وعزتى وكبريائى وعظمتى لأخرجن منها من قال : لا إله إلا اللَّه » .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الآية الرابعة : فى العزة أيضًا ، وهى قوله عن إبليس :

﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] .

الباء هنا للقسم ، لكنه اختار القسم بالعزة دون غيرها من الصفات ؛ لأن المقام مقام مغالبة ، فكأنه قال : بعزتك التى تغلب بها مَن سواك لأغوين هؤلاء وأسيطر عليهم - يعنى : بنى آدم - حتى يخرجوا من الرشد إلى الغى .

ويُستثنى من هذا عباد اللَّه المخلصون ؛ فإن إبليس لا يستطيع أن يغويهم ؛ كما قال تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر : ٤٢] .

ففى هاتين الآيتين إثبات العزة للَّه .

....

وفى الآية [الرابعة] إثبات أن الشيطان يقر بصفات الله !

فكيف نجد من بنى آدم من ينكر صفات الله أو بعضها ، أيكون الشيطان أعلم بالله وأعقل مسلكًا من هؤلاء النفاة ؟ !

ما نستفيده من الناحية المسلكية :

– فى العفو والصفح : هو أننا إذا علمنا أن الله عَفُوٌّ ، وأنه قدير ؛ أوجب لنا ذلك أن نسأله العفو دائمًا ، وأن نرجو منه العفو عما حصل منا من التقصير فى الواجب .

– أما العزة أيضًا : نقول : إذا علمنا أن الله عزيز ، فإننا لا يمكن أن نفعل فعلًا نحارب الله فيه .

مثلًا : الإنسان المرابى معاملته مع الله المحاربة : ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة : ٢٧٩] . إذا علمنا أن الله ذو عزة لا يغلب ، فإنه لا يمكننا أن نقدم على محاربة الله عز وجل .

قطع الطريق محاربة : ﴿إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة : ٣٣] ؛ فإذا علمنا أن قطع الطريق محاربة لله ، وأن العزة لله ؛ امتنعنا عن هذا العمل ؛ لأن الله هو الغالب .

ويمكن أن نقول فيها فائدة من الناحية المسلكية أيضًا ، وهى أن الإنسان المؤمن ينبغى له أن يكون عزيزًا فى دينه ؛ بحيث لا يذل أمام أحد من الناس ، كائنًا من كان ؛ إلا على المؤمنين ، فيكون عزيزًا على الكافرين ، ذليلًا على المؤمنين .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : عن إبليس : ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ . أقسم بعزة الله تعالى .

﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لأضلن بنى آدم بتزيين الشهوات لهم ، وإدخال الشبهات عليهم ، حتى يصيروا غاوين جميعًا .

ثم لما علم أن كيده لا ينجح إلا فى أتباعه من أهل الكفر والمعاصى استثنى ، فقال : ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ .

الشاهد من الآيات : أن فيها وصف الله بالعفو والقدرة والمغفرة والرحمة والعزة ، وهى

١٦- إثباتُ الاسمِ للّهِ ، ونفيُ المثلِ عنه :

وقولِه : ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ (١) [الرحمن : ٧٨] .

صفاتِ كمالٍ تليق به .

❁ قال الشيخ هراس :

وأخبر عن إبليس أنه قال : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص : ٨٢، ٨٣] .

وفي « صحيح البخاري » وغيره عن أبي هريرة : « بينا أيوب عليه السلام يغتسل عريانًا خَرَّ عليه جرادًا من ذهب ، فجعل يحثي في ثوبه ، فناده ربه : يا أيوب ، ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى وعزتك ، ولكن لا غنى لي عن بركتك » .

وقد جاء في حديث الدعاء الذي علمه النبي ﷺ لما كان به وجع : « أعوذ بعزة اللّه وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » .

والعزة تأتي بمعنى الغَلَبَة والقهر من عَزَّ يَعُزُّ - بضم العين في المضارع - يقال : عزه إذا غلبه ، وتأتي بمعنى القوة والصلابة من عَزَّ يَعَزُّ بفتحها ، ومنه : أرض عزاز للصلبة الشديدة ، وتأتي بمعنى علو القدر والامتناع من الأعداء من عَزَّ يَعِزُّ بكسرها ، وهذه المعاني كلها ثابتة للّه عزَّ وجلَّ .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

إثبات الاسم للّه تعالى :

ذكر المؤلف رحمه اللّه آية في إثبات الاسم للّه تعالى ، وآيات أخرى كثيرة في تنزيه اللّه تعالى ونفي المثيل عنه .

آية إثبات الاسم : ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن : ٧٨] .

﴿تَبَٰرَكَ﴾ . قال العلماء : معناها : تعالى وتعاظم إن وصف بها اللّه ؛ كقوله : ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنين : ١٤] ؛ وإن وصف بها اسم اللّه ؛ كان معناها : أن البركة تكون باسم اللّه ؛ أي أن اسم اللّه إذا صاحب شيئًا ؛ صارت فيه البركة .

ولهذا جاء في الحديث : « كل أمرٍ ذي بال لا يبدأ فيه ببسم اللّه هو أبتر »[1]. أي ناقص البركة .

---

(1) ضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٤٢١٧) .

....

بل إن التسمية تفيد حل الشيء الذى يحرم بدونها ؛ فإنه إذا سمى الله على الذبيحة صارت حلالًا ، وإذا لم يسم صارت حرامًا وميتة ، وهناك فرق بين الحلال الطيب الطاهر ، والميتة النجسة الخبيثة .

وإذا سمَّى الإنسان على طهارة الحديث صحت ، وإذا لم يسم ؛ لم تصح على أحد القولين .

وإذا سمى الإنسان على طعامه ؛ لم يأكل معه الشيطان ، وإن لم يسم ؛ أكل معه .

وإذا سمى الإنسان على جِماعه ، وقال : « اللهم ! جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا »[1] ، ثم قدر بينهما ولد ؛ لم يضره الشيطان أبدًا ، وإن لم يفعل ؛ فالولد عرضة لضرر الشيطان .

وعليه ؛ فنقول : إن ﴿فَتَبَارَكَ﴾ هنا ليست بمعنى : تعالى وتعاظم ، بل يتعين أن يكون معناها : حلت البركة باسم الله ؛ أى أن اسمه سبب للبركة إذا صحب شيئًا ..

وقوله : ﴿ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ : ﴿ذِى﴾ : بمعنى صاحب ، وهى صفة لـ : (رب) ، لا لـ : (اسم) ، لو كانت صفة لـ : (اسم) ؛ لكانت : (ذو) .

و﴿ٱلْجَلَـٰلِ﴾ ؛ بمعنى : العظمة .

و﴿ الإِكْرَامِ ﴾ ؛ بمعنى : التكريم ، وهو صالح لأن يكون الإكرام من الله لمن أطاعه ، وممن أطاعه له .

فـ ﴿ٱلْجَلَـٰلِ﴾ : عظمته فى نفسه ، ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ : عظمته فى قلوب المؤمنين ، فيكرمونه ويكرمهم .

✵ قال الشيخ الفوزان :

﴿تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ البركة لغةً : النماء والزيادة ، والتبريك : الدعاء بالبركة ، ومعنى ﴿تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ تعاظم ، أو علا وارتفع شأنه ، وهذا اللفظ لا يطلق إلا على الله .

﴿ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ تقدم تفسيره فى آيات إثبات الوجه .

✵ قال الشيخ هراس :

وأما قوله : ﴿تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ فإنه من البركة بمعنى دوام الخير وكثرته ، وقوله : ﴿ذُو ٱلْجَلَـٰلِ﴾

(1) أخرجه البخارى (١٤١) ، ومسلم (١٤٣٤) .

وقوله : ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[1] [مريم : ٦٥] ، ....

أى صاحب الجلال والعظمة سبحانه الذى لا شىء أجل ولا أعظم منه ، ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ الذى يكرم عما لا يليق به ، وقيل : الذى يكرم عباده الصالحين بأنواع الكرامة فى الدنيا والآخرة .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

آيات الصفات المنفية فى تنزيه الله ونفى المثل عنه :

قوله : ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] .

شرع المؤلف رحمه الله بالصفات السلبية ؛ أى صفات النفى .

وقد مر علينا فيما سبق أن صفات الله عز وجل ثبوتية وسلبية - أى : منفية ؛ لأن الكمال لا يتحقق إلا بالإثبات والنفى ؛ إثبات الكمالات ، ونفى النقائص .

قوله : ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ﴾ : الفاء مفرعة على ما سبق ، وهو قوله : ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مريم : ٦٥] ؛ فذكر سبحانه وتعالى الربوبية ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ، وفرّع على ذلك وجوب عبادته ؛ لأن كل من أقر بالربوبية ؛ لزمه الإقرار بالعبودية والألوهية ، وإلا صار متناقضًا .

فقوله : ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ ؛ أى : تذلل له محبة وتعظيمًا ، والعبادة ؛ يراد بها المتعبَّد به ، ويراد بها التعبُّد الذى هو فعل العبد ، كما سبق فى المقدمة .

وقوله : ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ : اصطبر ؛ أصلها فى اللغة : اصتبر ، فأبدلت التاء طاء لعلة تصريفية . والصبر : حبس النفس . وكلمة (اصطبر) أبلغ من (اصبر) ؛ لأنها تدل على معاناة ؛ فالمعنى اصبر ، وإن شق عليك ذلك ، وَاثْبتُ ثبات القرين لقرينه فى القتال .

وقوله : ﴿لِعِبَـٰدَتِهِۦ﴾ ؛ قيل : إن اللام بمعنى (على) ؛ أى : اصطبر عليها ؛ كما قال تعالى : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه : ١٣٢] . وقيل : بل اللام على أصلها ؛ أى : اصطبر لها ؛ أى : كن مقابلًا لها بالصبر ؛ كما يقابل القرين قرينه فى ميدان القتال .

وقوله : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ الاستفهام للنفى ، وإذا كان الاستفهام بمعنى النفى ، كان مُشربًا معنى التحدى ؛ يعنى : إن كنت صادقًا ، فأخبرنا : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ ؟ (والسَّمى) : الشبيه والنظير . يعنى : هل تعلم له مساميًا أو نظيرًا يستحق مثل اسمه ؟

والجواب : لا .

فإذا كان كذلك ؛ فالواجب أن تعبده وحده .

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(1) [الإخلاص: ٤]، ....

وفيها من الصفات: قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، وهى من الصفات السلبية.

فما الذى تتضمنه من صفات الكمال - لأننا ذكرنا فيما سبق أن الصفات السلبية لابد أن تتضمن ثبوتًا - فما الثبوت الذى تضمنه النفى هنا؟

الجواب: الكمال المطلق، فيكون المعنى: هل تعلم له سميًا لثبوت كماله المطلق الذى لا يساميه أحد فيه؟

✽ قال الشيخ الفوزان:

قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ﴾؛ أى: أفرده بالعبادة، ولا تعبد معه غيره.

والعبادة لغةً: الذل والخضوع.

وشرعًا: اسم جامع لما يحبه اللّٰه ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾؛ أى: اثبت على عبادته، ولازمها واصبر على مشاقها.

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ الاستفهام للإنكار، والمعنى: أنه ليس له مثل ولا نظير حتى يشاركه فى العبادة.

✽ قال الشيخ هراس:

قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ إلخ: تضمنت هذه الآيات الكريمة جملة من صفات القلوب وهى نفى السمى والكفؤ والنَّديد والولد والشريك والولى من ذل وحاجة. كما تضمنت بعض صفات الإثبات من الملك والحمد والقدرة والكبرياء والتبارك.

وأما قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، فقد قال شيخ الإسلام رحِمه اللّٰهُ: «قال أهل اللغة: هل تعلم له سميًا. أى: نظيرًا استحق مثل اسمه، ويقال مساميًا يساميه، وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾: مثلًا، أو شبيهًا».

والاستفهام فى الآية إنكارى معناه النفى، أى: لا تعلم له سميًا.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الآية الثانية: قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

تقدم الكلام عليها؛ أى: ليس يكافئه أحدٌ، وهو نكرة فى سياق النفى فتعم.

و﴿كُفُوًا﴾: فيها ثلاث قراءات: كُفُوًا، وكُفْئًا، وكُفُؤًا؛ فهى بالهمزة ساكنة بالفاء

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[(١)] [البقرة: ٢٢]، ....

ومضمومتها، وبالواو مضمومة الفاء لا غير، وبهذا نعرف خطأ الذين يقرءون بتسكين الفاء مع الواو (كُفْوًا).

هذه الآية أيضًا فيها نفى الكفء لله عز وجل، وذلك لكمال صفاته؛ فلا أحد يكافئه؛ لا فى علمه، ولا سمعه، ولا بصره، ولا قدرته، ولا عزته، ولا حكمته، ولا غير ذلك من صفاته.

✽ قال الشيخ الفوزان:

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ الكفء فى لغة العرب: النظير؛ أى: ليس له نظير، ولا مثيل، ولا شريك من خلقه.

قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ النِّد فى اللغة: المثل والنظير والشبيه؛ أى: لا تتخذوا لله أمثالًا، ونظراء، تعبدونهم معه، وتساوونهم به فى الحبِّ والتعظيم.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه ربكم، وخالقكم، وخالق كل شىء، لا ند له يشاركه فى الخلق.

✽ قال الشيخ هراس:

وأما قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ فالمراد بالكفؤ: المكافئ المساوى؛ فهذه الآية تنفى عنه سبحانه النظير والشبيه من كل وجه؛ لأن «أحدًا» وقع نكرة فى سياق النفى فيعم، وقد تقدم الكلام على تفسير سورة «الإخلاص» كلها فليرجع إليها.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الآية الثالثة: قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

هذا مفرّع على قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]، وكل هذا من توحيد الربوبية، ثم قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾؛ يعنى: فى الألوهية؛ لأن أولئك القوم المخاطبين لم يجعلوا لله أندادًا فى الربوبية، إذن؛ فلا تجعلوا لله أندادًا فى الألوهية كما أنكم تقرون أنه ليس له أندادًا فى الربوبية.

وقوله: ﴿أَندَادًا﴾: جمع ند، وند الشىء ما كان منادًا (أى مكافئًا) له ومشابهًا، وما زال الناس يقولون: هذا ندٌّ لهذا. أى: مقابل له ومكافئ له.

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: الجملة هنا حالية، وصاحب الحال هى الواو فى قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا﴾، والمفعول محذوف؛ يعنى: وأنتم تعلمون أنه لا نِدَّ له.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(١) [البقرة: ١٦٥].

الجملة الحالية هنا صفة كاشفة، والصفة الكاشفة كالتعليل للحكم؛ فكأنه قال: لا تجعلوا لله أندادًا؛ لأنكم تعلمون أنه لا نِدَّ له، فإذا كنتم تعلمون ذلك؛ فكيف تجعلونه فتخالفون علمكم؟!

وهذه أيضًا سلبية، وذلك من قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ لأنه لا ندَّ له، لكمال صفاته.

✽ قال الشيخ هراس:

وأما قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ إلخ: فالأنداد جمع ند، ومعناه كما قيل: النظير المناوئ، ويقال: ليس للّهِ نِدّ ولا ضِدّ، والمراد نفى ما يكافئه ويناوئه، ونفى ما يضاده وينافيه.

وجملة: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وقعت حالًا من الواو فى ﴿تَجْعَلُوا۟﴾، المعنى: إذا كنتم تعلمون أن الله هو وحده الذى خلقكم ورزقكم وأن هذه الآلهة التى جعلتموها له نظراء وأمثال وساويتموها به فى استحقاق العبادة لا تخلق شيئًا بل هى مخلوقة ولا تملك لكم ضرًّا ولا نفعًا فاتركوا عبادتها وأفردوه سبحانه بالعبادة والتعظيم.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الآية الرابعة: قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

﴿وَمِنَ﴾: تبعيضية، والميزان لـ: (من) التبعيضية أن يحل محلها: بعض؛ يعنى: وبعض الناس.

﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾: يتخذهم أندادًا؛ يعنى: فى المحبة؛ كما فسره بقوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، ويجوز أن نقول: إن المراد بالأنداد ما هو أعم من المحبة؛ يعنى: أندادًا يعبدونهم كما يعبدون الله، وينذرون لهم كما ينذرون لله؛ لأنهم يحبونهم كحب الله؛ يحبون هذه الأنداد كحب الله عز وجل.

وهذا إشراك فى المحبة؛ بحيث تجعل غير الله مثل الله فى محبته.

وينطبق ذلك على من أحب رسول الله كحب الله؛ لأنه يجب أن تحب رسول الله ﷺ محبة ليست كمحبة الله؛ لأنك إنما تحب الرسول ﷺ تبعًا لمحبة الله عز وجل، لا على أنه مناد

....

لله ؛ فكيف بمن يحبون الرسول ﷺ أكثر مما يحبون الله ؟ !

وهنا يجب أن نعرف الفرق بين المحبة مع الله والمحبة لله :

المحبة مع الله : أن تجعل غير الله مثله في محبته أو أكثر . وهذا شرك .

والمحبة في الله أو لله : هي أن تحب الشيء تبعًا لمحبة الله عز وجل .

والذي نستفيده من الناحية المسلكية في هذه الآيات :

أولًا : في قوله : ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ : إذا علمنا أن الله تعالى موصوف بالجلال ؛ فإن ذلك يستوجب أن نعظمه ، وأن نجله ، وإذا علمنا أنه موصوف بالإكرام فإن ذلك يستوجب أن نرجو كرمه وفضله . وبذلك نعظمه بما يستحقه من التعظيم والتكريم .

ثانيًا : قوله : ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ ؛ فالفوائد المسلكية في ذلك هو أن يعبد العبد ربه ، ويصطبر للعبادة ، لا يمل ، ولا يتعب ، ولا يضجر ، بل يصبر عليها صبر القرين لقرينه في المبارزة في الجهاد .

ثالثًا : قوله : ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ ، ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ ، ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ ؛ ففيها تنزيه لله عز وجل ، وأن الإنسان يشعر في قلبه بأن الله تعالى منزه عن كل نقص ، وأنه لا مثيل له ، ولا ند له ، وبهذا يعظمه حق تعظيمه بقدر استطاعته .

رابعًا : قوله : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا﴾ ؛ فمن فوائدها من الناحية المسلكية : أنه لا يجوز للإنسان أن يتخذ أحدًا من الناس محبوبًا كمحبة الله ، وهذه تسمى المحبة مع الله .

❁ قال الشيخ الفوزان :

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا﴾ لما فرغ سبحانه من ذكر الدليل على وحدانيته في الآية التي قبلها أخبر أنه مع هذا الدليل الظاهر المفيد لعظيم سلطانه ، وجليل قدرته ، وتفرده بالخلق ، أخبر أنه مع ذلك قد وجد في الناس من يتخذ معه سبحانه ندًّا يعبده من الأصنام العاجزة .

﴿يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ ؛ أي : أن هؤلاء الكفار لم يقتصروا على مجرد عبادة تلك الأنداد ، بل أحبوها حبًّا عظيمًا ، وأفرطوا في حبها ، كما يحبون الله ، فقد سووهم بالله في المحبة ، لا في الخلق والرزق والتدبير .

١٧- نفيُ الشريكِ عن اللّهِ تعالى :

وقوله : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾(١) [الإسراء: ١١١] ، ....

الشاهد من الآيات : أن فيها إثبات اسم اللّه ، وتعظيمه وإجلاله ، وفيها نفى السمى ، والكفء ، والند عن اللّه سبحانه ، وهو نفى مجمل ، وهذه الطريقة الواردة فى الكتاب والسنة ، فيما ينفى عن اللّه تعالى ، وهى أن ينفى عن اللّه عز وجل كل ما يضاد كماله الواجب من أنواع العيوب والنقائص .

❁ قال الشيخ هراس :

وأما قوله : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ﴾ إلخ : فهو إخبار من اللّه عن المشركين بأنهم يحبون آلهتهم كحبهم للّه عزَّ وجلَّ ، يعنى يجعلونها مساوية له فى الحب ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] من حب المشركين لآلهتهم ؛ لأنهم أخلصوا له الحب وأفردوه به ، أما حب المشركين لآلهتهم فهو موزع بينها ، ولا شك أن الحب إذا كان لجهة واحدة كان أمكن وأقوى . وقيل : المعنى أنهم يحبون آلهتهم كحب المؤمنين للّه ، والذين آمنوا أشد حبًا للّه من الكفار لأندادهم .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الآية الخامسة : قوله : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١] .

﴿وَقُلِ﴾ : الخطاب فى مثل هذا : إما خاص بالرسول عليه الصلاة والسلام ، أو عام لكل من يصح توجيه الخطاب إليه .

فإن كان خاصًا بالرسول ﷺ فهو خاص به بالقصد الأول ، وأمته تبع له .

وإن كان عامًا ؛ فهو يشمل الرسول ﷺ وغيره بالقصد الأول .

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ : سبق تفسير هذه الجملة ، وأن الحمد هو وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم .

وقوله : ﴿لِلَّهِ﴾ : اللام هنا للاستحقاق والاختصاص :

للاستحقاق ؛ لأن اللّه تعالى يُحمد وهو أهل للحمد .

والاختصاص ؛ لأن الحمد الذى يُحمد اللّه به ليس كالحمد الذى يُحمد به غيرُه ، بل هو

....

أكمل وأعظم وأعم وأشمل .

وقوله : ﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ : هذا من الصفات السلبية : ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ ؛ لكمال صفاته وكمال غناه عن غيره ، ولأنه لا مثيل له ؛ فلو اتخذ ولدًا ؛ لكان الولد مثله ، [و]لو كان له ولد ؛ لكان محتاجًا إلى الولد يساعده ويعينه ، [و]لو كان له ولد ؛ لكان ناقصًا ؛ لأنه إذا شابهه أحد من خلقه ؛ فهو نقص .

وقوله : ﴿وَلَدًا﴾ . يشمل الذكر والأنثى ؛ ففيه رد على اليهود والنصارى والمشركين ؛

فاليهود قالوا : للّه ولد ، وهو عزير .

والنصارى قالوا : للّه ولد ، وهو المسيح .

والمشركون قالوا : للّه ولد ، وهم الملائكة .

وقوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ : هذا معطوف على قوله : ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ ؛ يعنى : والذى لم يكن له شريك فى الملك ، لا فى الخلق ، ولا فى الملك ، ولا فى التدبير .

كل ما سوى اللّه ؛ فهو مخلوق للّه ، مملوك له ، يدبره كما يشاء ، ولم يشاركه أحد فى ذلك ؛ كما قال تعالى : ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ . على سبيل التعيين ، ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ . على سبيل الشيوع ، ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ ؛ لم يعاونه أحد فى هذه السماوات والأرض ، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ : ٢٣] . وبهذا تقطعت جميع الأسباب التى يتعلق بها المشركون فى آلهتهم .

فالآلهة هذه لا تملك من السماوات والأرض شيئًا معينًا ، وليست شريكة للّه ، ولا معينة ، ولا شافعة ، إلا بإذنه ، يقول : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء : ١١١] .

وقوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ : لم يكن له ولى ، لكنه قيّد بقوله : ﴿مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ .

و﴿مِّنَ﴾ هنا للتعليل ؛ لأن اللّه تعالى له أولياء : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس : ٦٢، ٦٣] . وقال تعالى فى الحديث القدسى : « من عادى لى وليًا ؛ فقد آذنته بالحرب . . . »[1] ، ولكن الولى المنفى هو الولى من

---

(1) أخرجه البخارى (٦٥٠٢) .

....

الذل ؛ لأن الله تعالى له العزة جميعًا ؛ فلا يلحقه الذل بوجه من الوجوه ؛ لكمال عزته .

وقوله : ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ ؛ يعنى : كبر الله عز وجل تكبيرًا ؛ بلسانك وجنانك : اعتقد فى قلبك أن الله أكبر من كل شىء ، وأن له الكبرياء فى السماوات والأرض ، وكذلك بلسانك تكبره ؛ تقول : الله أكبر !

وكان من هدى النبى ﷺ وأصحابه أنهم يكبرون كلما عَلَوْا نشزًا[1] ؛ أى : مرتفعًا ، وهذا فى السَّفر ؛ لأن الإنسان إذا علا فى مكانه ؛ قد يشعر فى قلبه أنه مستعل على غيره ، فيقول : الله أكبر . من أجل أن يخفف تلك العلياء التى شعر بها حين علا وارتفع .

وكانوا إذا هبطوا ؛ قالوا : سبحان الله . لأن النزول سُفولٌ ، فيقول : سبحان الله ؛ أى : أنزهه عن السفول الذى أنا الآن فيه .

وقوله : ﴿تَكْبِيرًا﴾ : هذا مصدر مؤكد ، يراد به التعظيم ، أى : كبره تكبيرًا عظيمًا .

والذى نستفيده من الناحية المسلكية فى هذه الآية :

أن الإنسان يشعر بكمال غنى الله عز وجل عن كل أحد ، وانفراده بالملك ، وتمام عزته وسلطانه ، وحينئذ يعظم الله سبحانه وتعالى بما يستحق أن يعظم به بقدر استطاعته .

ونستفيد حمد الله تعالى على تنزهه عن العيوب ؛ كما يحمد على صفات الكمال .

❁ قال الشيخ الفوزان :

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحمد هو الثناء و « أل » فيه للاستغراق ؛ أى :الحمد كله لله .

﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ ؛ أى : له ولد ، كما تقوله اليهود ، والنصارى ، وبعض مشركى العرب .

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ ؛ أى : ليس له مشارك فى ملكه ، وربوبيته ، كما تقول الثنوية ونحوهم ممن يقول بتعدد الآلهة .

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ ؛ أى : ليس بذليل ، فيحتاج إلى أن يكون له ولىٌّ ، أو وزير ، أو مشير ، فلا يحالف أحدًا ، ولا يستنصر بأحدٍ .

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ ؛ أى : عظمه ، وأجله عما يقوله الظالمون .

---

(1) أخرجه البخارى (٢٩٩٢) ، ومسلم (٢٧٠٤) .

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١) [التغابن : ١] .

❁ **قال الشيخ هراس :**

وأما قوله تعالى : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآية ، فقد تقدم الكلام فى معنى الحمد ، وأنه الثناء باللسان على النعمة وغيرها ، وقلنا : إن إثبات الحمد له سبحانه متضمن لإثبات جميع الكمالات التى لا يستحق الحمد المطلق إلا من بلغ غايتها .

ثم نفى سبحانه عن نفسه ما ينافى كمال الحمد من الولد والشريك والولى من الذل ، أى : من فقر وحاجة ، فهو سبحانه لا يوالى أحدًا من خلقه من أجل ذلة وحاجة إليه ، ثم أمر عبده ورسوله أن يكبره تكبيرًا ، أى : يعظمه تعظيمًا وينزهه عن كل صفة نقص وصفه بها أعداؤه من المشركين .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية السادسة : قوله تعالى : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن : ١] .

﴿يُسَبِّحُ﴾ ؛ بمعنى : ينزه عن كل صفة نقص وعيب ، و(سبَّح) تتعدى بنفسها وتتعدى باللام .

- أما تعديها بنفسها فمثل قوله تعالى : ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح : ٩] .

- وأما تعديها باللام ؛ فهى كثيرة ؛ فكل السور المبدوءة بهذا متعدية باللام .

قال العلماء : وإذا أريد مجرد الفعل ؛ تعدت بنفسها : ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ ؛ أى : تقولوا : سبحان الله !

وإذا أريد بيان القصد والإخلاص ؛ تعدت باللام ، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ ؛ أى : سبحوا إخلاصًا لله واستحقاقًا .

فاللام هنا تبين كمال الإرادة من الفاعل ، وكمال الاستحقاق من المسبح ، وهو الله .

وقوله : ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ : عام يشمل كل شيء .

لكن التسبيح نوعان : تسبيح بلسان المقال ، وتسبيح بلسان الحال .

....

- أما التسبيح بلسان الحال ؛ فهو عام : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

- وأما التسبيح بلسان المقال ؛ فهو عام كذلك ، لكن يخرج منه الكافر ؛ فإن الكافر لم يسبح الله بلسانه ، ولهذا يقول تعالى : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣] ، [و] : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩] . فهم لم يسبحوا الله تعالى ؛ لأنهم أشركوا به ووصفوه بما لا يليق به .

فالتسبيح بلسان الحال يعني : أن حال كل شيء في السماوات والأرض تدل على تنزيه الله سبحانه وتعالى عن العبث وعن النقص ، حتى الكافر إذا تأملت حاله ؛ وجدتها تدل على تنزه الله تعالى عن النقص والعيب .

وأما التسبيح بلسان المقال ؛ فيعني : أن يقول : سبحان الله .

وقوله : ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

هذه الصفات الأخيرة صفات ثبوتية ، وسبق ذكر معناها ، لكن [قوله] : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ صفة سلبية ؛ لأن معناها ؛ تنزيهه عما لا يليق به .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

قوله : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ؛ أي : تنزهه جميع مخلوقاته التي في سماواته وأرضه ، عن كل نقصٍ وعيبٍ .

﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ يختصان به ، ليس لغيره منهما شيء ، وما كان لعباده من الملكية فهو من عطائه .

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء .

✽ **قال الشيخ هراس :**

وأما قوله : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ إلخ : فالتسبيح هو التنزيه والإبعاد عن السوء كما تقدم .

ولا شك أن جميع الأشياء في السماوات وفي الأرض تسبح بحمد ربها وتشهد له بكمال العلم والقدرة والعزة والحكمة والتدبير والرحمة ، قال تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

وقد اختلف في تسبيح الجمادات التي لا تنطق هل هو بلسان الحال أو بلسان المقال ، وعندي أن الثاني أرجح ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ؛ إذ لو كان المراد

وقوله : ﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَـدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ (١) [الفرقان : ١، ٢] ، ....

تسبيحها بلسان الحال لكان ذلك معلومًا فلا يصح الاستدراك ، وقد قال تعالى خبرًا عن داود عليه السلام : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص : ١٨] .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية السابعة والثامنة : وقوله : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَـدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان : ١، ٢] .

﴿تَبَارَكَ﴾ ؛ بمعنى : تعالى وتعاظم .

و﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ : هو اللّٰه عز وجل .

وقوله : ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ ؛ يعنى به : القرآن ؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل ، وبين المسلم والكافر ، وبين البر والفاجر ، وبين الضار والنافع ، وغير ذلك مما فيه الفرقان ؛ فكله فرقان .

﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ : محمد عليه الصلاة والسلام ، فوصفه بالعبودية فى مقام التحدث عن تنزيل القرآن عليه ، وهذا المقام من أشرف مقامات النبى ﷺ .

ولهذا وصفه اللّٰه تعالى بالعبودية فى مقام تنزيل القرآن عليه ؛ كما هنا ، وكما فى قوله : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف : ١] ، ووصفه بالعبودية فى مقام الدفاع عنه والتحدى [فقال] : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة : ٢٣] ، ووصفه بالعبودية فى مقام تكريمه بالمعراج ، فقال : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء : ١] ، وقال فى سورة « النجم » : ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم : ١٠] ؛ مما يدل على أن وصف الإنسان بالعبودية للّٰه يعد كمالًا ؛ لأن العبودية للّٰه هى حقيقة الحرية ؛ فمن لم يتعبد له ؛ كان عابدًا لغيره .

قال ابن القيم رحمه اللّٰه :

هَرَبوا مِنَ الرِّقِّ الذى خُلِقُوا لَهُ ... وَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ والشَّيطَانِ

والرق الذى خلقوا له : عبادة اللّٰه عز وجل .

....

وبلوا برق النفس والشيطان : حيث صاروا أرقاء لنفوسهم ، وأرقاء للشيطان ؛ فما من إنسان يفر من عبودية الله ؛ إلا وقع فى عبودية هواه وشيطانه ؛ قال الله تعالى : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

وقوله : ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ : اللام هنا للتعليل ، والضمير فى ﴿لِيَكُونَ﴾ : عائد على النبى عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه أقرب مذكور ، ولأن الله تعالى قال : ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ [الأعراف : ٢] ، وقال تعالى : ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام : ١٩] ؛ فالمنذر : الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقوله : ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ : يشمل الجن والإنس .

وقوله : ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ : تقدم معناها .

وقوله : ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ : سبق معناهما ، وهما صفة سلبية .

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ : الخلق : الإيجاد على وجه معين . والتقدير : بمعنى التسوية أو بمعنى القضاء فى الأزل ، والأول أصح ، ويدل لذلك قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى : ٢] ، وبه تكون الآية على الترتيب الذكرى والمعنوى ، وعلى الثانى تكون الآية على الترتيب الذكرى .

ونستفيد من هذه الآيات من الناحية المسلكية :

أنه يجب علينا أن نعرف عظمة الله عز وجل ، وننزهه عن كل نفص ، وإذا علمنا ذلك ؛ ازددنا محبة له وتعظيمًا .

ومن آيتى « الفرقان » نستفيديبان هذا القرآن العظيم ، وأنه مرجع العباد ، وأن الإنسان إذا أراد أن تتبين له الأمور ؛ فليرجع إلى القرآن ؛ لأن الله سماه فرقانًا : ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان : ١] .

ونستفيد أيضًا من الناحية المسلكية التربوية :أن تتأكد وتزداد محبتنا لرسول الله ﷺ ؛ حيث كان عبدًا لله ، قائمًا بإبلاغ الرسالة وإنذار الخلق .

ونستفيد أيضًا :أن النبى عليه الصلاة والسلام آخر الرسل ؛ فلا نصدق بأى دعوى للنبوة من بعده ؛ لقوله : ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ ، ولو كان بعده رسول ؛ [لانتهت] رسالته بهذا الرسول ، ولا كانت للعالمين كلهم .

....

* قال الشيخ الفوزان :

﴿تَبَارَكَ﴾ فعل ماضٍ ، مأخوذ من البركة ، وهي النماء والزيادة المستقرة الثابتة الدائمة ، وهذه اللفظة لا تستعمل إلا لله سبحانه ، ولا تستعمل إلا بلفظ الماضي .

﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ ؛ أي : القرآن ، سمي فرقانًا ؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل .

﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ ؛ يعني : محمدًا ﷺ ، وهذه صفة مدحٍ وثناءٍ ؛ لأنه أضافه إليه إضافة تشريفٍ وتكريمٍ في مقام إنزال القرآن عليه .

﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ﴾ الإنس والجن ، وهذا من خصوصياته ﷺ .

﴿نَذِيرًا﴾ ؛ أي : منذرًا ، مأخوذ من الإنذار ، وهو الإعلام بأسباب المخافة .

وقوله : ﴿لِيَكُونَ﴾ تعليل لإنزال الفرقان عليه ؛ أي : ليخصه بالرسالة العامة .

ثم وصف نفسه سبحانه بأربع صفاتٍ :

الأولى : قوله : ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ دون غيره ، فهو المتصرف فيهما وحده .

الصفة الثانية : ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما تزعم النصارى واليهود ، وذلك لكمال غناه ، وحاجة كل مخلوقٍ إليه .

الصفة الثالثة : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ فيه ردٌّ على طوائف المشركين من الوثنية والثنوية وغيرهم .

الصفة الرابعة : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من المخلوقات ، ويدخل في ذلك أفعال العباد ، فهي خلق الله وفعل العبد .

﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ ؛ أي : قدر كل شيءٍ مما خلق من الآجال والأرزاق والسعادة والشقاوة ، وهيأ كل شيءٍ لما يصلح له .

قال ابن كثير[1] : نزه نفسه عن الولد ، وعن الشريك ، ثم أخبر أنه خلق كل شيءٍ ، فقدره تقديرًا ؛ أي : كل شيءٍ مما سواه مخلوق مربوب ، وهو خالق كل شيءٍ ، وربه ومليكه ، وإلهه ، وكل شيءٍ تحت قهره ، وتدبيره ، وتسخيره ، وتقديره . أهـ .

---

(1) تفسير ابن كثير (٣/٣٠٩) .

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾(١) ....

❁ قال الشيخ هراس :

وأما قوله تعالى : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾ إلخ : فقد قلنا : إن معنى تبارك من البركة وهى دوام الخير وكثرته ، ولكن لا يلزم من تلك الزيادة سبق النقص ، فإن المراد تجدد الكمالات الاختيارية التابعة لمشيئته وقدرته ، فإنها تتجدد فى ذاته على وفق حكمته ، فالخلو عنها قبل اقتضاء الحكمة لها لا يعتبر نقصًا .

وقد فسّر بعضهم التبارك بالثبات وعدم التغير ، ومنه سميت البركة لثبوت مائها وهو بعيد ، والمراد بالفرقان القرآن ، سمى بذلك لقوة تفرقته بين الحق والباطل والهدى والضلال ، والتعبير « ينزل » بالتشديد لإفادة التدرج فى النزول ، وأنه لم ينزل جملة واحدة ، والمراد بعبده محمد ﷺ والتعبير عنه بلقب العبودية للتشريف كما سبق ، والعالمين جمع عالم ، وهو جمع لم يعقل ، واختلف فى المراد به ، فقيل : الإنس . وقيل : الإنس والجن . وهو الصحيح ، فقد ثبت أن النبى ﷺ مرسل إلى الجن أيضًا ، وأنه يجتمع بهم ويقرأ عليهم القرآن ، وأن منهم نفرًا أسلم حين سمع القرآن وذهب ينذر قومه به ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف : ٢٩] ، والنذير والمنذر : هو من يعلم بالشىء مع التخويف ، وضده البشير أو المبشر وهو من يخبرك بما يسرك .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الآية التاسعة والعاشرة : قوله : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون : ٩١، ٩٢] .

ينفى الله تعالى فى هذه الآية أن يكون اتخذ ولدًا ، أو أن يكون معه إله .

ويتأكد هذا النفى بدخول ﴿مِن﴾ فى قوله : ﴿مِن وَلَدٍ﴾ ، وقوله : ﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾ ؛ لأن زيادة حرف الجر فى سياق النفى ونحوه تفيد التوكيد .

فقوله : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ ؛ يعنى : ما اصطفى أحدًا يكون ولدًا له ؛ لا عزير ، ولا المسيح ، ولا الملائكة ولا غيرهم ؛ لأنه الغنى عما سواه .

وإذا انتفى اتخاذه الولد فانتفاء أن يكون والدًا من باب أولى .

وقوله : ﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾ : « إله » ؛ بمعنى : مألوه ؛ مثل : بناء ؛ بمعنى : مبنى ، وفراش ؛ بمعنى :

....

مفروش؛ فالإله بمعنى المألوه؛ أي: المعبود المتذلَّل له.

يعني: ما كان معه من إله حق، أما الآلهات الباطلة؛ فهي موجودة، لكن لكونها باطلة؛ كانت كالعدم؛ فصح أن يقال: ما كان مع الله من إلهٍ.

﴿إِذًا﴾؛ يعني: لو كان معه إله.

✽ قال الشيخ الفوزان:

قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾. في هذه الآية ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد، أو شريك في الملك والتصرف والعبادة.

﴿مِن﴾ في الموضعين لتأكيد النفي.

✽ قال الشيخ هراس:

وقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ إلخ: تضمنت هذه الآية الكريمة أيضًا جملة من صفات التنزيه التي يراد [بها] [1]نفي ما لا يليق بالله عزَّ وجلَّ عنه، فقد نزه سبحانه نفسه فيها عن اتخاذ الولد وعن وجود إله خالق معه وعما يصفه به المفترون الكذابون، كما نهى عن ضرب الأمثال له والإشراك به بلا حجة ولا برهان، والقول عليه سبحانه بلا علم ولا دليل.

فهذه الآية تضمنت إثبات توحيد الإلهية وإثبات توحيد الربوبية، فإن الله بعدما أخبر عن نفسه بعدم وجود إله معه أوضح ذلك بالبرهان القاطع والحجة الباهرة، فقال: (إِذًا) أي: إذ لو كان معه آلهة كما يقول هؤلاء المشركون ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

وتوضيح هذا الدليل أن يقال: إذا تعددت الآلهة فلابد أن يكون لكل منهم خلق وفعل ولا سبيل إلى التعاون فيما بينهم، فإن الاختلاف بينهم ضروري، كما أن التعاون بينهم في الخلق يقتضي عجز كل منهم عند الانفراد، والعاجز لا يصلح إلهًا، فلابد أن يستقل كل منهم بخلقه وفعله، وحينئذ فإما أن يكونوا متكافئين في القدرة لا يستطيع كل منهم أن يقهر الآخرين ويغلبهم فيذهب كل منهم بما خلق ويختص بملكه كما يفعل ملوك الدنيا من انفراد كل بمملكته إذا لم يجد سبيلًا لقهر الآخرين، وإما أن يكون أحدهم أقوى من الآخرين فيغلبهم ويقهرهم وينفرد دونهم بالخلق والتدبير، فلابد إذن مع تعدد الآلهة من أحد هذين الأمرين؛ إما ذهاب كل بما

(1) زيادة يقتضيها السياق. «إسماعيل الأنصاري».

إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١)

خلق ، أو علو بعضهم على بعض .

وذهاب كل بما خلق غير واقع ؛ لأنه يقتضى التنافر والانفصال بين أجزاء العالم مع أن المشاهدة تثبت أن العالم كله كجسم واحد مترابط الأجزاء متسق الأنحاء فلا يمكن أن يكون إلا أثرًا لإلهٍ واحد ، وعلو بعضهم على بعض يقتضى أن يكون الإله هو العالى وحده .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ : لو كان هناك إله آخر يساوى اللَّه عز وجل ؛ لكان له ملك خاص وللَّه ملك خاص ؛ يعنى : لانفرد كل واحد منهم بما خلق ؛ قال : هذا خلقى لى ، وكذلك الآخر .

وحينئذٍ ؛ يريد كل منهما أن يسيطر على الآخر كما جرت به العادة ؛ فملوك الدنيا كل واحد منهم يريد أن يسيطر على الآخر ، وتكون المملكة كلها له ، وحينئذ :

إما أن يتمانعا ، فيعجز كل واحد منهما على الآخر ، وإذا عجز كل واحد منهما عن الآخر ؛ ما صح أن يكون واحد منهما إلهًا ؛ لأن الإله لا يكون عاجزًا .

وإما أن يعلو أحدهما على الآخر ؛ فالعالى هو الإله .

فترجع المسألة إلى أنه لابد أن يكون للعالم إله واحد ، ولا يمكن أن يكون للعالم إلهان أبدًا ؛ لأن القضية لا تخرج من هذين الاحتمالين .

كما أننا أيضًا إذا شاهدنا الكون علويه وسفليه ؛ وجدنا أنه كون يصدر عن مدبر واحد ، وإلا ؛ لكان فيه تناقض ؛ فأحد الإلهين يقول مثلًا : أنا أريد الشمس تخرج من المغرب . والثانى يقول : أريدها تطلع من المشرق ! واتفاق الإرادتين بعيد جدًّا ، ولاسيما أن المقام مقام سلطة ؛ فكل واحد يريد أن يفرض رأيه !

ومعلوم أننا لا نشاهد الآن الشمس تطلع يومًا مع هذا ويومًا مع هذا ، أو يومًا تتأخر لأن الثانى منعها ويومًا تتقدم لأن الأول أمر الثانى بإخراجها ؛ فلا نجد هذا ؛ نجد الكون كله واحدًا متناسبًا متناسقًا ، مما يدل دلالة ظاهرة على أن المدبر له واحدٌ ، وهو اللَّه عز وجل .

فبين اللَّه سبحانه وتعالى بدليل عقلى أنه لا يمكن التعدد ؛ إذ لو أمكن التعدد ؛ لحصل هذا ؛ لانْفصَلَ كل واحد عن الثانى ، وذهب كل إله بما خلق ، وحينئذ إما أن يعجز أحدهما عن الآخر ،

عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(١) [المؤمنون: ٩١، ٩٢]، ....

وإما أن يعلو أحدهما الآخر؛ فإن كان الأول، لم يصلح أى واحد منهما للألوهية، وإن كان الثانى؛ فالعالى هو الإله، وحينئذ يكون الإله واحدًا.

فإن قيل: ألا يمكن أن يصطلحا وينفرد كل واحد بما خلق؟

فالجواب: أنه لو أمكن ووقع؛ لزم أن يختل نظام العالم.

ثم إن اصطلاحهما لا يكون إلا لخوف كل واحد منهما من الآخر، وحينئذ لا تصلح الربوبية لواحد منهما؛ لعجزه عن مقاومة الآخر.

ثم قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أى: تنزيهًا لله عز وجل عما يصفه به الملحدون المشركون الذين يقولون فى الله سبحانه ما لا يليق به.

✽ قال الشيخ الفوزان:

﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ هذا استدلال لما سبق فى أول الآية من نفى الولد، والشريك فى الألوهية؛ أى: لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كلٌّ منهم عن الآخر بما خلق، وحينئذ لا ينتظم الكون لوجود الانقسام.

والواقع المشاهد أن الكون منتظم أتم انتظامٍ، لم يحصل فيه تعدد، ولا انقسام.

﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾؛ أى: ولو كان معه إله آخر، لكان كلٌّ منهم يطلب قهر الآخر، ومخالفته، فيعلو بعضهم على بعضٍ، كحال ملوك الدنيا، وحينئذٍ فذلك المغلوب الضعيف لا يستحق أن يكون إلهًا.

وإذا تقرر بطلان المشارك تعين أن يكون الإله واحدًا، هو الله وحده، ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الشريك والولد.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: الغيب: ما غاب عن الناس، والشهادة: ما شهده الناس.

﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: ﴿فَتَعَٰلَىٰ﴾؛ يعنى: ترفع وتقدس وتنزه.

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: عن الأصنام التى جعلوها آلهة مع الله تعالى.

وفى هاتين الآيتين من صفات النفى: تنزه الله تعالى عن اتخاذ الولد الذى وصفه به الكافرون، وعن الشريك له فى الألوهية الذى أشرك به المشركون.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١) [النحل : ٧٤] .

وهذا النفى لكمال غناه وكمال ربوبيته وإلهيته .

ونستفيد منهما من الناحية المسلكية : أن الإيمان بذلك يحمل الإنسان على الإخلاص لله عز وجل .

❁ قال الشيخ الفوزان :

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ ؛ أى : هو المختص بعلم ما غاب عن العباد ، وعلم ما يشاهدونه ، وأما غيره فهو وإن علم شيئًا من المشاهد ، فإنه لا يعلم الغيب .

﴿فَتَعَالَى﴾ ؛ أى : تنزه الله وتقدس .

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به فهو سبحانه متعالٍ عن أن يكون له شريك فى الملك .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية الحادية عشرة : قوله : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل : ٧٤] .

يعنى : لا تجعلوا لله مثلًا ، فتقولون : مثل الله كمثل كذا وكذا ! أو تجعلوا له شريكًا فى العبادة .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ؛ بمعنى : أنه سبحانه وتعالى يعلم بأنه ليس له مثل ، وقد أخبركم بأنه لا مثل له ؛ فى قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ، وقوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ٤] ، وقوله : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] ... وما أشبه ذلك ؛ فالله يعلم وأنتم لا تعلمون .

وقد يقال : إن هذه الجملة تتضمن الدليل الواضح على أن الله ليس له مثل ، وأنها كضرب المثل فى امتناع المثل ؛ لأننا نحن لا نعلم والله يعلم ؛ فإذا انتفى العلم عنّا ، وثبت لله ؛ فأين المماثلة ؟ ! هل يماثل الجاهل من كان عالمًا ؟ !

ويدلك على نقص علمنا : أن الإنسان لا يعلم ما يفعله فى اليوم التالى [قال تعالى] : ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان : ٣٤] ، وأن الإنسان لا يعلم روحه التى بين جنبيه : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء : ٨٥] .

وما زال الفلاسفة والمتفلسفة وغيرهم يبحثون عن حقيقة هذه الروح ، ولم يصلوا إلى

....

حقيقتها ، مع أنها هى مادة الحياة ، وهذا يدل على نقصان العلم فى المخلوق ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] .

فإن قلت : كيف تجمع بين هذه الآية : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤] ، وبين قوله تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] ؟!

الجواب : أنه هناك يخاطب الذين يشركون به فى الألوهية فيقول : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ فى العبادة والألوهية ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه لا ندَّ له فى الربوبية ؛ بدليل قوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢] . أما هنا ؛ ففى باب الصفات : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ﴾ . فتقولوا : مثلًا : إن يد اللّه مثل يد كذا ! وجه اللّه مثل وجه كذا ! وذات اللّه مثل الذات الفلانية ... وما أشبه هذا ؛ لأن اللّه تعالى يعلم وأنتم لا تعلمون ، وقد أخبركم بأنه لا مثيل له .

أو يقال : إن إثبات العلم لهم خاص فى باب الربوبية ، ونفيه عنهم خاص فى باب الألوهية ؛ حيث أشركوا باللّه فيها ، فنزلوا منزلة الجاهل .

وهذه الآية تتضمن من الكمال كمال صفات اللّه عز وجل ؛ حيث إنه لا مثيلَ له .

أما الفائدة المسلكية التى تؤخذ من هذه الآية ؛ فهى : كمال تعظيمنا للرب عز وجل ؛ لأننا إذا علمنا أنه لا مثيل له ؛ تعلقنا به رجاءً وخوفًا ، وعظمناه ، وعلمنا أنه لا يمكن أن يماثله سلطان ولا ملك ولا وزير ولا رئيس ، مهما كانت عظمة ملكيتهم ورئاستهم ووزارتهم ؛ لأن اللّه سبحانه وتعالى ليس له مثل .

❁ قال الشيخ الفوزان :

قوله : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ﴾ ينهى سبحانه عن ضرب الأمثال له ، وضرب المثل هو تشبيه حالٍ بحالٍ ، وكان المشركون يقولون : إن اللّه أجل من أن يعبده الواحد منا ، فلا بد من اتخاذ واسطةٍ بيننا وبينه ، فكانوا يتوسلون إليه بالأصنام وغيرها ؛ تشبيهًا له بملوك الدنيا .

فنهى سبحانه عن ذلك ؛ لأنه سبحانه لا مثل له ، فلا يمثل بخلقه ، ولا يشبه بهم .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ أنه لا مثل له .

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١) [الأعراف : ٣٣] .

﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ففعلكم هذا صدر عن توهمٍ فاسدٍ وخاطرٍ باطلٍ ، ولا تعلمون أيضًا ما فى عبادة الأصنام من سوء العاقبة .

✽ قال الشيخ هراس :

وأما قوله تعالى : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ فهو نهى له أن يشبِّهوه بشىء من خلقه ، فإنه سبحانه له المثل الأعلى الذى لا يشركه فيه مخلوق .

وقد قدمنا أنه لا يجوز أن يستعمل فى حقه من الأقيسة ما يقتضى المماثلة أو المساواة بينه وبين غيره كقياس التمثيل وقياس الشمول ، وإنما يستعمل فى ذلك قياس الأَولى الذى مضمونه أن كل كمال وجودى غير مستلزم للعدم ولا للنقص بوجه من الوجوه اتصف [به][1] المخلوق ، فالخالق أَولَى أن يتصف به ؛ لأنه هو الذى وهب المخلوق ذلك الكمال ، ولأنه لو لم يتصف بذلك الكمال مع إمكان أن يتصف به لكان فى الممكنات من هو أكمل منه وهو محال ، وكذلك كل نقص يتنزه عنه المخلوق ، فالخالق أَولَى بالتنزه عنه .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الآية الثانية عشرة : قوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

﴿قُلْ﴾ : الخطاب للنبى ﷺ ؛ أى : قل معلنًا للناس .

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر ، وذلك لمقابلة تحريم من حرم ما أحل الله .

﴿حَرَّمَ﴾ ؛ بمعنى : منع ، وأصل هذه المادة (ح ر م) تدل على المنع ، ومنه : حريم البئر : للأرض التى تحميه حوله ؛ لأنه يمنع من التعدى عليه .

﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ : جمع فاحشة ، وهى الذنب الذى يستفحش ؛ مثل : الزنى واللواط .

[ففى] الزنى ؛ قال الله فيه : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء : ٣٢] .

وفى اللواط ؛ قال لوط لقومه : ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [الأعراف : ٨٠] .

---

(1) زيادة يقتضيها السياق . « إسماعيل الأنصاري » .

....

ومن الزنى أن يتزوج الإنسان امرأة لا تحل له لقرابة أو رضاع أو مصاهرة ؛ قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء : ٢٢] ، بل إن هذا أشد من الزنى ؛ لأنه وصفه بثلاثة أوصاف : فاحشة ، ومقت ، وساء سبيلا وفي الزنى وصفه الله بوصفين : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء : ٣٢] .

وقوله : ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ : قيل : إن المعنى ما ظهر فحشه وما خفي ، وقيل : المعنى ما ظهر للناس وما بطن عنهم ؛ باعتبار فعل الفاعل ، لا باعتبار العمل ؛ أي : ما أظهره الإنسان للناس وما أبطنه .

قوله : ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ ؛ يعني : حرم الإثم والبغي بغير الحق .

والإثم : المراد به ما يكون سببًا له من المعاصي .

والبغي : العدوان على الناس ؛ قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الشورى : ٤٢] .

وفي قوله : ﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ : إشارة إلى أن كل بغي فهو بغير حق ، وليس المراد أن البغي ينقسم إلى قسمين : بغي بحق ، وبغي بغير حق ؛ لأن البغي كله بغير حق .

وعلى هذا ؛ فيكون الوصف هنا من باب الوصف الكاشف ، ويسميها العلماء صفة كاشفة ؛ أي : مبينة ، وهي التي تكون كالتعليل لموصوفها .

قوله : ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ : هذه معطوفة على ما سبق ؛ يعني : وحرم ربي أن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا ؛ يعني : أن تجعلوا له شريكًا لم ينزل به سلطانًا ؛ أي حجة ، وسميت الحجة سلطانًا ؛ لأنها سلطة للمحتج بها .

وهذا القيد : ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ : نقول فيه كما قلنا في ﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ ؛ أي : أنه قيد كاشف ؛ لأن كل من أشرك بالله ؛ فليس له سلطان بشركه .

قوله : ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ؛ يعني : وحرم أن تقولوا على الله ما لا تعلمون ؛ فحرام علينا أن نقول على الله ما لا نعلم ، سواء كان في ذاته أو أسمائه أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه .

فهذه خمسة أشياء حرمها الله علينا .

....

وفيها رد على المشركين الذين حرموا ما لم يحرمه اللَّه .

إذا قال قائل : أين الصفة السلبية فى هذه الآية ؟

قلنا : هى ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ؛ فالاثنتان جميعًا من باب الصفات السلبية : ﴿وَأَن تُشْرِكُوا﴾ ؛ يعنى : لا تجعلوا للَّه شريكًا لكماله . ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كذلك ؛ لكماله ؛ فإنه من تمام سلطانه ألا يقول عليه أحد ما لا يعلم .

الفائدة المسلكية من هذه الآية هى : أن نتجنب هذه الأشياء الخمسة التى صرح اللَّه تعالى بتحريمها .

وقد قال أهل العلم : إن هذه المحرمات الخمسة مما أجمعت الشرائع على تحريمها .

ويدخل فى القول على اللَّه بغير علم تحريف نصوص الكتاب والسنة فى الصفات وغيرها ، فإن الإنسان إذا حرف نصوص الصفات ؛ مثل أن يقول : المراد باليدين النعمة فقد قال على اللَّه ما لا يعلم من وجهين :

الوجه الأول : أنه نفى الظاهر بلا علم .

والثانى : أثبت للَّه خلافه بغير دليل .

فهو يقول : لم يرد اللَّه كذا ، وأراد كذا ، فنقول : هات الدليل على أنه لم يرد ، وعلى أنه أراد كذا ! فإن لم تأت بالدليل فإنك قد قلت على اللَّه ما لا تعلم .

❊ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿قُلْ﴾ الخطاب للنبى ﷺ ، وفى ذلك دليل على أن القرآن كلام اللَّه ، وأن النبى ﷺ مبلغ عن اللَّه .

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر .

﴿حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ ؛ أى : جعلها حرامًا ، والفواحش جمع فاحشةٍ ، وهى ما تَنَاهَى قبحه من المعاصى .

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ؛ أى : أعلن منها ، وما أسر .

﴿وَالْإِثْمَ﴾ كل معصيةٍ يتسبب عنها الإثم ، وقيل : هو الخمر خاصةً .

....

﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ ؛ أى : الظلم المجاوز للحد ، والتعدى على الناس .

﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ ؛ أى : تجعلوا له شريكًا فى العبادة .

﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ ؛ أى : حجةً وبرهانًا ، وهذا موضع الشاهد من الآية .

﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولدًا ، ونحو ذلك مما لا علم لكم به ، ومثل ما كانوا ينسبون إليه من التحليلات والتحريمات التى لم يأذن بها .

الشاهد من هذه الآيات الكريمة : أن فيها نفى الشريك عن اللَّه تعالى ، وإثبات تفرده بالكمال ، ونفى الولد والمثل عنه سبحانه ، وأن جميع مخلوقاته تنزهه عن ذلك وتقدِّسه .

كما أن فيها إقامة الحجة على بطلان الشرك ، وأنه مبنىٌّ على جهلٍ وخيالٍ ، وأنه سبحانه لا مثل له ، ولا شبيه له . واللَّه أعلم .

❁ قال الشيخ هراس :

وأما قوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ إلخ : فإنما أداة قصر تفيد اختصاص الأشياء المذكورة بالحرمة فيفهم أن من عداها من الطيبات فهو مباح لا حرج فيه ، كما أفادته الآية التى قبلها .

والفواحش : جمع فاحشة وهى الفعلة المتناهية فى القبح ، وخصها بعضهم بما تضمن شهوة ولذة من المعاصى ؛ كالزنى واللواط ونحوهما من الفواحش الظاهرة ، وكالكبر والعجب وحب الرياسة من الفواحش الباطنة .

وأما الإثم فمنهم من فسره بمطلق المعصية ؛ فيكون المراد منه ما دون الفاحشة ، ومنهم من خصه بالخمر فإنها جماع الإثم ، وأما البغى بغير الحق فهو التسلط والاعتداء على الناس من غير أن يكون ذلك على جهة القصاص والمماثلة .

وقوله : ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَانًا﴾ . وحرم أن تعبدوا مع اللَّه غيره وتتقربوا إليه بأى نوع من أنواع العبادات والقربات ؛ كالدعاء والنذر والذبح والخوف والرجاء ونحو ذلك ، مما يجب أن يخلص فيه العبد قلبه ويسلم وجهه للَّه ، وحرم أن يتخذوا من دونه سبحانه أولياء يشرعون لهم من الدين ما لم يأذن به اللَّه فى عباداتهم ومعاملاتهم كما فعل أهل الكتاب مع الأحبار والرهبان حيث اتخذوهم أربابًا من دون اللَّه فى التشريع فأحلوا ما حرم اللَّه وحرموا ما أحل اللَّه فاتبعوهم فى ذلك ، وقوله : ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ . قيد لبيان الواقع ، فإن كل ما عبد أو اتبع أو أطيع من دون اللَّه قد فعل به ذلك من غير سلطان .

١٨- إثباتُ استواءِ اللَّهِ على عرشِه :

وقولِه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] ، ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ فى سبعةِ مواضعَ ، فى سورةِ «الأعراف» قولُه : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾(١) [الأعراف : ٥٤] .

وأما القول على اللّٰه بلا علم فهو باب واسع جدًّا يدخل فيه كل خبر من اللّٰه بلا دليل ولا حجة ، كنفى ما أثبته ، أو إثبات ما نفاه ، أو الإلحاد فى آياته بالتحريف والتأويل .

قال العلّامة ابن القيم فى كتابه «أعلام الموقعين» : «وقدم حرم اللّٰه القول عليه بغير علم فى الدنيا والقضاء وجعله من أعظم المحرمات بل جعله فى المرتبة العليا منها» . قال تعالى : ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الآية [الأعراف : ٣٣] ، فرتب المحرمات أربع مراتب وبدأ بأسهلها وهو الفواحش ، وثنى بما هو أشد تحريمًا منه وهو الإثم والظلم ، ثم ثَلَّثَ بما هو أعظم تحريمًا منهما وهو الشرك به سبحانه ، ثم رَبَّع بما هو أعظم تحريمًا من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم ، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم فى أسمائه وصفاته وأفعاله فى دينه وشرعه .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

استواء اللّٰه على عرشه :

ذكر المؤلف رحمه اللّٰه ثبوت استواء اللّٰه على عرشه وأنه فى سبعة مواضعَ من القرآن :

الموضع الأول : قوله فى سورة «الأعراف» : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

﴿ٱللَّهُ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ .

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ : أوجدهما من العدم على وجه الإحكام والإتقان .

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ : ومدة هذه الأيام كأيامنا التى نعرف ؛ لأن اللّٰه سبحانه وتعالى ذكرها منكَّرة ، فتحمل على ما كان معروفًا .

وأول هذه الأيام يوم الأحد ، وآخرها يوم الجمعة .

منها أربعة أيام للأرض ، ويومان للسماء ؛ كما فصَّل اللّٰه ذلك فى سورة «فصلت» :

﴿۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِى يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِىٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾

....

[فصلت: ٩، ١٠]؛ فصارت أربعة. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١١، ١٢].

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: ﴿ثُمَّ﴾: للترتيب.

﴿ٱسْتَوَىٰ﴾؛ بمعنى: علا.

و﴿ٱلْعَرْشِ﴾: هو ذلك السقف المحيط بالمخلوقات، ولا نعلم مادة هذا العرش؛ لأنه لم يرد [عن] النبى ﷺ حديث صحيح بين من أين خُلِقَ هذا العرش، لكننا نعلم أنه أكبر المخلوقات التى نعرفها.

وأصل العرش فى اللغة: السرير الذى يختص به الملك، ومعلوم أن السرير الذى يختص به الملك سيكون سريرًا عظيمًا فخمًا لا نظير له.

وفى هذه الآية من صفات الله تعالى عدة صفات، لكن المؤلف ساقها لإثبات صفة واحدة، وهى الاستواء على العرش.

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بأن الله تعالى مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله ولا يماثل استواء المخلوقين.

فإن سألت: ما معنى الاستواء عندهم؟ فمعناه العلو والاستقرار.

وقد ورد عن السلف فى تفسيره أربعة معانٍ: الأول: علا، والثانى: ارتفع، والثالث: صعد. والرابع: استقر.

لكن (علا) و(ارتفع) و(صعد) معناها واحد، وأما (استقر)؛ فهو يختلف عنها.

ودليلهم فى ذلك: أنها فى جميع مواردها فى اللغة العربية لم تأت إلا لهذا المعنى إذا كانت متعدية بـ(على).

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۞ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٢، ١٣].

وفسّره أهل التعطيل بأن المراد به الاستيلاء، وقالوا: معنى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]. يعنى: ثم استولى عليه.

....

واستدلوا لتحريفهم هذا بدليل موجب وبدليل سالب :

- أما الدليل الموجب ، فقالوا : إننا نستدل بقول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف أو دم مهراق

(بشر) : ابن مروان ، (استوى) ، يعني : استولى على العراق .

قالوا : وهذا بيت من رجل عربى ، ولا يمكن أن يكون المراد به استوى على العراق ، يعنى علا على العراق ! لاسيما أنه فى ذلك الوقت لا طائرات يمكن أن يعلو على العراق بها .

أما الدليل السلبى ؛ فقالوا لو أثبتنا أن اللّه عز وجل مستو على عرشه بالمعنى الذى تقولون ، وهو العلو والاستقرار ؛ لزم من ذلك أن يكون محتاجًا إلى العرش ، وهذا مستحيل ، واستحالة اللازم تدل على استحالة الملزوم .

ولزم من ذلك أن يكون جسمًا ؛ لأن استواء شىء على شىء بمعنى علوه عليه يعنى أنه جسم ، ولزم أن يكون محدودًا ؛ لأن المستوى على الشىء يكون محدودًا ، إذا استويت على البعير ، فأنت محدود فى منطقة معينة محصور بها وعلى محدود أيضًا .

هذه الأشياء الثلاثة التى زعموا أنها تلزم من إثبات أن الاستواء بمعنى العلو والارتفاع .

والرد عليهم من وجوه :

أولًا : تفسيركم هذا مخالف لتفسير السلف الذى أجمعوا عليه ، والدليل على إجماعهم أنه لم ينقل عنهم أنهم قالوا به وخالفوا الظاهر ، ولو كانوا يرون خلاف ظاهره ؛ لنقل إلينا ؛ فما منهم أحد قال : إن (استوى) بمعنى (استولى) أبدًا .

ثانيًا : أنه مخالف لظاهر اللفظ ؛ لأن مادة الاستواء إذا تعدت بـ : (على) ؛ فهى بمعنى العلو والاستقرار ، هذا ظاهر اللفظ ، وهذه مواردها فى القرآن وفى كلام العرب .

ثالثًا : أنه يلزم عليه لوازم باطلة :

١- يلزم أن يكون اللّه عز وجل حين خلق السماوات والأرض ليس مستوليًا على عرشه ؛ لأن اللّه يقول : ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، و﴿ثُمَّ﴾ تفيد الترتيب ، فيلزم أن يكون العرش قبل تمام خلق السماوات والأرض لغير اللّه .

٢- أن الغالب من كلمة (استولى) أنها لا تكون إلا بعد مغالبة ! ولا أحد يغالب اللّه .

أيـن المفـرُ والإلـهُ الطـالـبُ   والأشرمُ المغلوبُ ليسَ الغالبُ

....

٣- من اللوازم الباطلة أنه يصح أن نقول : إن اللّه استوى على الأرض والشجر والجبال ؛ لأنه مستول عليها .

وهذه لوازم باطلة ، وبطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم .

وأما استدلالهم بالبيت ؛ فنقول :

١- اثبتوا لنا سند هذا البيت وثقة رجاله ، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلًا .

٢- من هذا القائل ؟ أفلا يمكن أن يكون قاله بعد تغير اللسان ؟ لأن كل قول يستدل به على اللغة العربية بعد تغير اللغة العربية فإنه ليس بدليل ؛ لأن العربية بدأت تتغير حين اتسعت الفتوح ودخل العجم مع العرب فاختلف اللسان ، وهذا فيه احتمال أنه بعد تغير اللسان .

٣- أن تفسيركم « استوى بشر على العراق » بـ : (استولى) تفسير تعضده القرينة ، لأنه من التعذر أن بشرًا يصعد فوق العراق فيستوى عليه كما يستوى على السرير أو على ظهر الدابة فلهذا نلجأ إلى تفسيره بـ : (استولى) .

هذا نقوله من باب التنزل ، وإلا ، فعندنا فى هذا جواب آخر :

أن نقول : الاستواء فى البيت بمعنى العلو ؛ لأن العلو نوعان :

١- علو حسى ؛ كاستوائنا على السرير .

٢- وعلو معنوى ؛ بمعنى السيطرة والغلبة .

فيكون معنى : « استوى بشرٌ على العراق » يعنى : علا علو غلبة وقهر .

وأما قولكم : إنه يلزم من تفسير الاستواء بالعلو أن يكون اللّه جسمًا .

فجوابه : كل شىء يلزم من كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ ؛ فهو حق ، ويجب علينا أن نلتزم به ، ولكن الشأن كل الشأن أن يكون هذا من لازم كلام اللّه ورسوله ؛ لأنه قد يمنع أن يكون لازمًا ؛ فإذا ثبت أنه لازم ؛ فليكن ، ولا حرج علينا إذا قلنا به .

ثم نقول : ماذا تعنون بالجسم الممتنع ؟

إن أردتم به أنه ليس للّه ذات تتصف بالصفات اللازمة لها اللائقة بها ؛ فقولكم باطلٌ ؛ لأن للّه ذاتًا حقيقية متصفة بالصفات ، وأن له وجهًا ويدًا وعينًا وقدمًا ، وقولوا ما شئتم من اللوازم التى هى لازم حق .

....

وإن أردتم بالجسم الذى قلتم يمتنع أن يكون اللّٰه جسمًا :

الجسم المركب من العظام واللحم والدم وما أشبه ذلك ؛ فهذا ممتنع على اللّٰه ، وليس بلازم من القول بأن استواء اللّٰه على العرش علوه عليه .

وأما قولهم : إنه يلزم أن يكوم محدودًا .

فجوابه أن نقول بالتفصيل : ماذا تعنون بالحد ؟

إن أردتم أن يكون محدودًا ؛ أى : يكون مباينًا للخلق منفصلًا عنهم ؛ كما تكون أرض لزيد وأرض لعمر ؛ فهذه محدودة منفصلة عن هذه ؛ فهذا حق ليس فيه شيء من النقص .

وإن أردتم بكونه محدودًا : أن العرش محيط به ؛ فهذا باطل ، وليس بلازم ؛ فإن اللّٰه تعالى مستوٍ على العرش ، وإن كان عز وجل أكبر من العرش ومن غير العرش ، ولا يلزم أن يكون العرش محيطًا به بل لا يمكن أن يكون محيطًا به ؛ لأن اللّٰه سبحانه وتعالى أعظم من كل شيء وأكبر من كل شيء ، والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة ، والسماوات مطويات بيمينه .

وأما قولهم : يلزم أن يكون محتاجًا إلى العرش .

فنقول : لا يلزم ؛ لأن معنى كونه مستويًا على العرش : أنه فوق العرش ، لكنه علو خاصٌّ ، وليس معناه أن العرش يقله أبدًا ؛ فالعرش لا يقله ، والسماء لا تقله ، وهذا اللازم الذى ادعيتموه ممتنعٌ ؛ لأنه نقص بالنسبة إلى اللّٰه عز وجل ، وليس بلازم من الاستواء الحقيقى ؛ لأننا لسنا نقول : إن معنى : ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ . يعنى : أن العرش يقله ويحمله ؛ فالعرش محمول : ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة : ١٧] ؛ وتحمله الملائكة الآن ، لكنه ليس حاملًا للّٰه عز وجل ؛ لأن اللّٰه سبحانه وتعالى ليس محتاجًا إليه ، ولا مفتقرًا إليه ، وبهذا تبطل حججهم السلبية .

وخلاصة ردنا لكلامهم من عدة أوجه :

الأول : أن قولهم هذا مخالف لظاهر النص .

ثانيًا : مخالف لإجماع الصحابة وإجماع السلف قاطبة .

ثالثًا : أنه لم يرد فى اللغة العربية أن (استوى) بمعنى (استولى) ، والبيت الذى احتجوا به على ذلك لا يتم به الاستدلال .

....

رابعًا : أنه يلزم عليه لوازم باطلة منها :

١- أن يكون العرش قبل خلق السماوات والأرض ملكًا لغير اللَّه .

٢- أن كلمة (استولى) تعطى فى الغالب أن هناك مغالبة بين اللَّه وبين غيره ، فاستولى عليه وغلبه .

٣- أنه يصح أن نقول - على زعمكم : أن اللَّه استوى على الأرض والشجر والجبال والإنسان والبعير ؛ لأنه (استولى) على هذه الأشياء ؛ فإذا صح أن نطلق كلمة (استولى) على شيء ؛ صح أن نطلق (استوى) على ذلك الشيء ؛ لأنهما مترادفان على زعمكم .

فبهذه الأوجه يتبين أن تفسيرهم باطل .

ولما كان أبو المعالى الجوينى - عفا اللَّه عنه - يقرر مذهب الأشاعرة ، وينكر استواء اللَّه على العرش ، بل وينكر علو اللَّه بذاته ؛ قال :

« كان اللَّه تعالى ولم يكن شيء غيره ، وهو الآن على ما كان عليه » . وهو يريد أن ينكر استواء اللَّه على العرش ؛ يعنى : كان ولا عرش ، وهو الآن على ما كان عليه ؛ إذن : لم يستو على العرش . فقال له أبو العلاء الهمذانى :

يا أستاذ ! دعنا من ذكر العرش والاستواء على العرش - يعنى : لأن دليله سمعى ، ولولا أن اللَّه أخبرنا به ما علمناه - أخبرنا عن هذه الضرورة التى نجد فى نفوسنا : ما قال عارف قط : يا اللَّه ! إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو . فبهت أبو المعالى ، وجعل يضرب على رأسه : حيرنى الهمذانى ، حيرنى الهمذانى ! وذلك لأن هذا دليل فطرى لا أحد ينكره .

❊ قال الشيخ الفوزان :

أى : قد ورد إثبات استواء اللَّه على عرشه فى سبع آياتٍ من كتاب اللَّه ، كلها قد ورد فيها إثبات الاستواء بلفظٍ واحدٍ هو : ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فهو نصٌّ فى معناه الحقيقى ، لا يحتمل التأويل بمعنىً آخر .

والاستواء صفة فعلية ثابتة للَّه سبحانه على ما يليق بجلاله ، كسائر صفاته ، وله فى لغة العرب أربعة معانٍ ، هى : علا ، وارتفع ، وصعد ، واستقر ، وهذه المعانى الأربعة تدور عليها تفاسير السلف للاستواء الوارد فى هذه الآيات الكريمة .

وقال في سورةِ « يُونُسَ »، عليه السلامُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾(١) [يونس: ٣].

وقال في سورةِ الرَّعْدِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾(٢) [الرعد: ٢].

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

الموضع الثاني: في سورة « يونس »؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣].

نقول فيها ما قلنا في الآية الأولى.

*** قال الشيخ الفوزان:**

فقوله في الآية الأولى والثانية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: هو خالقكم ومربيكم بنعمه، والذي يجب عليكم أن تعبدوه وحده.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: هو خالق العالم؛ سماواته وأرضه، وما بين ذلك.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هي الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، ففي يوم الجمعة اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم عليه السلام.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: علا وارتفع على العرش، كما يليق بجلاله، وهذا محل الشاهد من الآية، والعرش في اللغة هو سرير الملك، والمراد به هنا - كما يدل عليه مجموع النصوص - سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم، وهو سقف المخلوقات.

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين:

الموضع الثالث: في سورة « الرعد » قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢].

﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾: هل يعني: لها عمد مطلقًا؟ أو لها عمد لكنها غير مرئية لنا؟

فيه خلاف بين المفسّرين؛ فمنهم من قال: إن جملة ﴿تَرَوْنَهَا﴾ صفة لـ﴿عَمَدٍ﴾؛ أي: بغير عمد مرئية لكم، ولها عمد غير مرئية. ومنهم من قال: إن جملة ﴿تَرَوْنَهَا﴾ جملة مستأنفة؛

....

معناها : ترونها كذلك بغير عمد . وهذا الأخير أقرب ؛ فإن السماوات ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية ، ولو كان لها عمد ؛ لكانت مرئية فى الغالب ، وإن كان اللّٰه تعالى قد يحجب عنا بعض المخلوقات الجسمية لحكمة يريدها .

وقوله : ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ . هذا الشاهد ، ويقال فى معناها ما سبق .

✲ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : فى الآية الثالثة : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ؛ أى : رفعها عن الأرض رفعًا بعيدًا ، لا ينال ولا يدرك مداه .

﴿بِغَيۡرِ عَمَدٍ تَرَوۡنَهَا﴾ العمد هى الأساطين ، جمع عمادٍ ؛ أى : قائمة بغير عمدٍ تعتمد عليها ، بل بقدرته سبحانه .

وقوله : ﴿تَرَوۡنَهَا﴾ . تأكيد لنفى العمد ، وقيل : لها عمد ، ولكن لا نراها ، والأول أصح .

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ هذا محل الشاهد من الآية الكريمة لإثبات الاستواء ، والكلام على بقية الآيات كالكلام على هذه الآية .

ويستفاد منها جميعًا : إثبات استواء اللّٰه على عرشه على ما يليق بجلاله ، وفيها الرد على من أول الاستواء بأنه الاستيلاء ، والقهر ، وفسر العرش بأنه الملك ، فقال : استوى على العرش ؛ معناه : استولى على الملك ، وقهر غيره .

وهذا باطلٌ من وجوهٍ كثيرةٍ ، منها :

أولًا : أن هذا تفسير محدث مخالف لتفسير السلف من الصحابة والتابعين وأتباعهم ، وأول من قال به الجهمية والمعتزلة ، فهو مردود .

ثانيًا : لو كان المراد بالاستواء على العرش الاستيلاء على الملك لم يكن هناك فرق بين العرش والأرض السابعة السفلى والدواب وجميع المخلوقات ؛ لأنه مستولٍ على الجميع ، فلا يكون لذكر العرش فائدة .

ثالثًا : أن هذا اللفظ ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ قد اطرد فى الكتاب والسنة ، ولم يأت فى لفظٍ واحدٍ : (استولى على العرش) حتى تفسر به بقية النصوص .

رابعًا : أنه أتى بـ : ﴿ثُمَّ﴾ التى تفيد الترتيب والمهلة ، فلو كان معنى الاستواء الاستيلاء

وقال فى سورةِ طه : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾(1) [طه : ٥] .

على العرش والقدرة عليه لم يتأخر ذلك إلى ما بعد خلق السماوات والأرض ؛ فإن العرش كان موجودًا قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنةٍ ، كما ثبت فى « الصحيحين » ، فكيف يجوز أن يكون غير قادرٍ ولا مستولٍ عليه إلى أن خلق السماوات والأرض ، هذا من أبطل الباطل ، والله أعلم .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الموضع الرابع : فى سورة « طه » قال : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] .

قدم ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وهو معمول لـ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ لإفادة الحصر والتخصيص وبيان أنه سبحانه وتعالى لم يستو على شىء سوى العرش .

وفى ذكر ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ إشارة إلى أنه من علوه وعظمته موصوف بالرحمة .

✵ **قال الشيخ هراس :**

وقوله : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ إلخ : هذه هى المواضع السبعة التى أخبر فيها سبحانه باستوائه على العرش ، وكلها قطعية الثبوت ؛ لأنها من كتاب الله ، فلا يملك الجهمى المعطل لها ردًّا ، ولا إنكارًا ، كما أنها صريحة فى بابها لا تحتمل تأويلًا ، فإن لفظ استوى فى اللغة إذا عدى بعلى لا يمكن أن يفهم منه إلا العلو والارتفاع ، ولهذا لم تخرج تفسيرات السلف لهذا اللفظ عن أربع عبارات ، ذكرها العلَّامة ابن القيم فى النونية ، حيث قال :

فَلَهُمْ عِبَارَاتٌ عَلَيهَا أَرْبَعٌ ... قَدْ حُصِّلَتْ لِلفَارِسِ الطَّعَّانِ
وَهِىَ اسْتَقَرَّ وَقَد عَلَا وَكَذَلِكَ ارْ ... تَفَعَ الَّذِى مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانِ
وَكَذَاكَ قَدْ صَعِدَ الَّذِى هُوَ رَابِعٌ ... وَأَبُو عُبَيْدَةُ صَاحِبُ الشَّيْبَانِي
يَختَارُ هَذَا القَوْلَ فِى تَفْسِيرِهِ ... أَدْرَى مِنَ الجَهْمِىِّ بِالقُرآنِ

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بما أخبر به سبحانه عن نفسه من أنه مستوٍ على عرشه ، بائن من خلقه بالكيفية التى يعلمها هو جل شأنه كما قال مالك وغيره : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول » . أما ما يشغب به أهل التعطيل من إيراد اللوازم الفاسدة على تقرير الاستواء فهى لا تلزمنا ؛ لأننا لا نقول بأن فوقيته على العرش كفوقية المخلوق على المخلوق .

وأما ما يحاولون به صرف هذه الآيات الصريحة عن ظواهرها بالتأويلات الفاسدة التى تدل

وقال فى سورةِ الفُرْقانِ : ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾(١) [الفرقان : ٥٩] .

على حيرتهم واضطرابهم كتفسيرهم استوى : باستولى ، أو حملهم (على) على معنى (إلى) ، و(استوى) بمعنى : قصد . إلى آخر ما نقله عنهم حامل لواء التجهم والتعطيل زاهد الكوثرى فكلها تشغيب بالباطل وتغيير فى وجه الحق لا يغنى عنهم فى قليل ولا كثير ، وليت شعرى ، ماذا يريد هؤلاء المعطلة أن يقولوا ؟ أيريدون أن يقولوا : ليس فى السماء رب يقصد ولا فوق العرش إله يُعبد ؟ فأين يكون إذن ؟ ولعلهم يضحكون منا حين نسأل عنه بأين ، ونسوا أن أكمل الخلق وأعلمهم بربهم صلوات اللّه عليه وسلامه قد سأل عنه بأين حين قال للجارية : « أين اللّه ؟ » . ورضى جوابها حين قالت : فى السماء .

وقد أجاب كذلك من سأله بـ : أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض ؟ بأنه كان فى عماء . الحديث ، ولم يرو عنه أنه زجر السائل ولا قال له : إنك غلطت فى السؤال .

إن قصارى ما يقوله المتحذلق منهم فى هذا الباب : إن اللّه تعالى كان ولا مكان ، ثم خلق المكان ، وهو الآن على ما كان قبل خلق المكان .

فماذا يعنى هذا المخرف بالمكان الذى كان اللّه ولم يكن ؟ هل يعنى به تلك الأمكنة الوجودية التى هى داخل محيط العالم ؟ فهذه أمكنة حادثة ونحن لا نقول بوجود اللّه فى شيء منها ؛ إذ لا يحصره ولا يحيط به شيء من مخلوقاته .

وأما إذا أراد بها المكان العدمى الذى هو خلاء محض لا وجود فيه ، فهذا لا يقال أنه لم يكن ثم خلق ، إذن لا يتعلق به الخلق فإنه أمر عدمى ، فإذا قيل : إن اللّه فى مكان بهذا المعنى كما دلت عليه الآيات والأحاديث فأى محذور فى هذا ؟

بل الحق أن يقال : كان اللّه ولم يكن شيء قبله ، ثم خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ، ثم استوى على العرش ، و(ثم) هنا للترتيب الزمانى لا لمجرد العطف .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الموضع الخامس : فى سورة « الفرقان » قوله : ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان : ٥٩] .

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ : فاعل ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ .

وقال فى سورةِ الم السَّجْدةَ : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾(1) [السجدة : ٤] .

وقال فى سورةِ الحديدِ : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾(2) [الحديد : ٤] .

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الموضع السادس : فى سورة « ألم السجدة » قال : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [السجدة : ٤] .

نقول فيها مثل ما قلنا فى آيتى « الأعراف » و« يونس » ، لكن هنا فيه زيادة :

﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ ؛ يعنى : بين السماء والأرض ، والذى بينهما مخلوقات عظيمة استحقت أن تكون معادلةً للسماوات والأرض ، وهذه المخلوقات العظيمة منها ما هو معلوم لنا كالشمس والقمر والنجوم والسحاب ، ومنها ما هو مجهول إلى الآن .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الموضع السابع : فى سورة « الحديد » قال : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد : ٤] .

فهذه سبعة مواضع ؛ كلها يذكر اللّٰه تعالى فيها الاستواء معدى بـ « عَلَى »

وبعد ؛ فقد قال العلماء : إن أصل هذه المادة (س و ي) تدل على الكمال ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى : ٢] . أى : أكمل ما خلقه ؛ فأصل السين والواو والياء تدل على الكمال .

ثم هى على أربعة أوجه فى اللغة العربية : معداة بـ : (إلى) ، ومعداة بـ : (على) ، ومقرونة بالواو ، ومجردة :

- فالمعدَّاة بـ : (على) مثل : ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد : ٤] ، ومعناها : علا واستقر .
- والمعدَّاة بـ : (إلى) : مثل قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ [البقرة : ٢٩] . فهل معناها كالأولى المعدَّاة بـ : (على) ؟

فيها خلاف بين المفسِّرين :

منهم من قال : إن معناها واحد ، وهذا ظاهر تفسير ابن جرير رحمه اللّٰه ؛ فمعنى ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ؛ أى : ارتفع إليها .

ومنهم من قال : بل الاستواء هنا بمعنى القصد الكامل ؛ فمعنى : استوى إليها ؛ أى : قصد

١٩- إثباتُ عُلُوِّ اللَّهِ على مخلوقاتِه :

وقولِه : ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[1] [آل عمران : ٥٥] ، ....

إليها قصدًا كاملًا ، وأيدوا تفسيرهم هذا بأنها عدِّيت بما يدل على هذا المعنى ، وهو (إلى) ، وإلى هذا ذهب ابن كثير رحمه اللَّه ؛ ففسر قوله : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ؛ أى : قصد إلى السماء ، والاستواء هاهنا مضمن معنى القصد والإقبال ؛ لأنه عدى بـ : (إلى) . اهـ . كلامه .

- والمقرونة بالواو ؛ كقولهم : استوى الماء والخشبة . بمعنى : تساوى الماء والخشبة .

- والمجردة ؛ كقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص : ١٤] ، ومعناها : كمل .

تنبيــه :

إذا قلنا : استوى على العرش ؛ بمعنى : علا ؛ فهاهنا سؤال ، وهو : إن اللَّه خلق السماوات ، ثم استوى على العرش ؛ فهل يستلزم أنه قبل ذلك ليس عاليًا ؟

فالجواب : لا يستلزم ذلك ؛ لأن الاستواء على العرش أخص من مطلق العلو ؛ لأن الاستواء على العرش علو خاص به ، والعلو شامل على جميع المخلوقات ؛ فعلوه عز وجل ثابت له أزلًا وأبدًا ، لم يزل عاليًا على كل شيء قبل أن يخلق العرش ، ولا يلزم من عدم استوائه على العرش عدم علوه ، بل هو عالٍ ، ثم بعد خلق السماوات والأرض علا علوًّا خاصًّا على العرش .

فإن قلت : نفهم من الآية الكريمة أنه حين خلق السماوات والأرض ليس مستويًا على العرش ، لكن قبل خلق السماوات والأرض ، هل هو مستوٍ على العرش أو لا ؟

فالجواب : اللَّه أعلم بذلك .

فإن قلت : هل استواء اللَّه تعالى على عرشه من الصفات الفعلية أو الذاتية ؟

فالجواب : أنه من الصفات الفعلية ؛ لأنه يتعلق بمشيئته ، وكل صفة تتعلق بمشيئته ؛ فهى من الصفات الفعلية .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

إثبات علو اللَّه على مخلوقاته :

ذكر المؤلف رحمه اللَّه فى إثبات علو اللَّه على خلقه ست آيات :

الآية الأولى : قوله : ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران : ٥٥] .

الخطاب لعيسى ابن مريم الذى خلقه اللَّه من أم بلا أب ، ولهذا ينسب إلى أمه ، فيقال :

....

عيسى ابن مريم .

يقول الله : ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ . ذكر العلماء فيها ثلاثة أقوال :

القول الأول : ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ . بمعنى : قابضك ، ومنه قولهم : توفى حقه ؛ أى : قبضه .

القول الثانى : ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ . منيمك ؛ لأن النوم وفاة ؛ كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام : ٦٠] .

القول الثالث : أنه وفاة موت : ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ : مميتك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر : ٤٢] .

والقول بأن ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ بمعنى مميتك بعيدٌ ؛ لأن عيسى عليه السلام لم يمت ، وسينزل فى آخر الزمان ؛ قال الله تعالى : ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء : ١٥٩] ؛ أى : قبل موت عيسى على أحد القولين ، وذلك إذا نزل فى آخر الزمان . وقيل : قبل موت الواحد ؛ يعنى : ما من أحد من أهل الكتاب إلا إذا حضرته الوفاة ؛ آمن بعيسى ، حتى وإن كان يهوديًا . وهذا القول ضعيف .

بقى النظر بين وفاة القبض ووفاة النوم ، فنقول : إنه يمكن أن يجمع بينهما ، فيكون قابضًا له حال نومه ؛ أى أن الله تعالى ألقى عليه النوم ؛ ثم رفعه ، ولا منافاة بين الأمرين .

قوله : ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ : الشاهد هنا ؛ فإن ﴿إِلَىَّ﴾ تفيد الغاية ، وقوله : ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ : يدل على أن المرفوع إليه كان عاليًا ، وهذا يدل على علو الله عز وجل .

فلو قال قائل : المراد : رافعك منزلة ؛ كما قال الله تعالى : ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران : ٤٥] .

قلنا : هذا لا يستقيم ؛ لأن الرفع هنا عُدِّى بحرف يختص بالرفع الذى هو الفوقية ؛ رفع الجسد ، وليس رفع المنزلة .

واعلم أن علو الله عز وجل ينقسم إلى قسمين : علو معنوى ، وعلو ذاتى :

١ - أما العلو المعنوى ؛ فهو ثابت لله بإجماع أهل القبلة ؛ أى : بالإجماع من أهل البدع وأهل السنة ؛ كلهم يؤمنون بأن الله تعالى عال علوًّا معنويًّا .

٢ - وأما العلو الذاتى ؛ فيثبته أهل السنة ، ولا يثبته أهل البدعة ؛ يقولون : إن الله تعالى ليس عاليًا علوًّا ذاتيًّا .

....

فنبدأ أولا بأدلة أهل السنة على علو اللّه سبحانه وتعالى الذاتى فنقول : إن أهل السنة استدلوا على علو اللّه تعالى علوًا ذاتيًا بالكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة :

أولا : فالكتاب تنوعت دلالته على علو اللّه ؛ فتارة بذكر العلو ، وتارة بذكر الفوقية ، وتارة بذكر نزول الأشياء من عنده ، وتارة بذكر صعودها إليه ، وتارة بكونه فى السماء . . .

١ - فالعلو مثل قوله : ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، [وقوله] : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى : ١] .

٢ - والفوقية : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام : ١٨] ، [وقوله] : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩﴾ [النحل : ٥٠] .

٣ - ونزول الأشياء منه ؛ مثل قوله : ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة : ٥] ، [وقوله] : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر : ٩] . وما أشبه ذلك .

٤ - وصعود الأشياء إليه ؛ مثل قوله : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر : ١٠] ، ومثل قوله : ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج : ٤] .

٥ - كونه فى السماء ؛ مثل قوله : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الملك : ١٦] .

ثانيًا : وأما السنة فقد تواترت عن النبى ﷺ من قوله وفعله وإقراره :

١ - فأما قول الرسول عليه الصلاة والسلام :

فجاء بذكر العلو والفوقية ، ومنه قوله ﷺ « سبحان ربى الأعلى »[1]، وقوله لما ذكر السماوات ؛ قال : « واللّه فوق العرش » .

وجاء بذكر أن اللّه فى السماء ؛ مثل قوله ﷺ : « ألا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء »[2].

٢ - وأما الفعل ؛ فمثل رفع إصبعه إلى السماء ، وهو يخطب الناس فى أكبر جمع ، وذلك فى يوم عرفة ، عام حجة الوداع ؛ فإن الصحابة لم يجتمعوا اجتماعًا أكبر من ذلك الجمع ؛ إذ إن الذى حج معه بلغ نحو مائة ألف ، والذين مات عنهم نحو مائة وأربعة وعشرين ألفًا : يعنى : عامة المسلمين حضروا ذلك الجمع ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ألا هل بلغت ؟ » . قالوا : نعم .

---

(1) أخرجه مسلم (٧٧٢) .

(2) أخرجه البخارى (٤٣٥١) ، ومسلم (١٠٦٤) .

....

« ألا هل بلغت ؟ » . قالوا : نعم . « ألا هل بلغت ؟ » . قالوا : نعم . وكان يقول : « اللهم ! اشهد » ؛ يشير إلى السماء بإصبعه ، وينكتها إلى الناس[1] .

ومن ذلك رفع يديه إلى السماء في الدعاء .

وهذا إثبات للعلو بالفعل .

٣ - وأما التقرير ؛ فإنه في حديث معاوية بن الحكم رضى الله عنه ؛ أنه أتى بجارية يريد أن يعتقها ، فقال لها النبي ﷺ : « أين الله ؟ » . قالت : في السماء . فقال : « من أنا ؟ » . قالت : رسول الله . قال : « اعتقها ؛ فإنها مؤمنة »[2] .

فهذه جارية لم تتعلم ، والغالب على الجوارى الجهل ، لا سيما وهى أمة غير حرة ، لا تملك نفسها ، تعلم أن ربَّها في السماء ، وضُلَّال بنى آدم ينكرون أن الله فى السماء ، ويقولون : إما أنه لا فوق العالم ولا تحته ولا يمين ولا شمال ! أو أنه فى كل مكان ! ! .

فهذه من أدلة الكتاب والسنة .

ثالثًا : وأما دلالة الإجماع ؛ فقد أجمع السلف على أن الله تعالى بذاته فى السماء ، من عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، إلى يومنا هذا .

إن قلت : كيف أجمعوا ؟ .

نقول : إمرارهم هذه الآيات والأحاديث مع تكرار العلو فيها والفوقية ونزول الأشياء منه وصعودها إليه دون أن يأتوا بما يخالفها إجماع منهم على مدلولها .

ولهذا لما قال شيخ الإسلام : « إن السلف مجمعون على ذلك » . قال : « ولم يقل أحدٌ منهم : إن الله ليس فى السماء ، أو : إن الله فى الأرض ، أو : إن الله لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصل ولا منفصل ، أو : إنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه » .

رابعًا : وأما دلالة العقل ؛ فنقول : لا شك أن الله عز وجل إما أن يكون فى العلو أو فى السفل ، وكونه فى السفل مستحيل ؛ لأنه نقص يستلزم أن يكون فوقه شيء من مخلوقاته فلا يكون له العلو التام والسيطرة التامة والسلطان التام ؛ فإذا كان السفل مستحيلا ؛ كان

---

(1) أخرجه مسلم (١٢١٨) .

(2) أخرجه مسلم (٥٣٧) .

....

العلو واجبًا .

وهناك تقرير عقلى آخر ، وهو أن نقول : إن العلو صفة كمال باتفاق العقلاء ، وإذا كان صفة كمال ؛ وجب أن يكون ثابتًا للّه ؛ لأن كل صفة كمال مطلقة ؛ فهى ثابتة للّه .

وقولنا : « مطلقة » : احترازًا من الكمال النسبى ، الذى يكون كمالًا فى حال دون حال ؛ فالنوم مثلًا نقص ، ولكن لمن يحتاج إليه ويستعيد قوته به كمال .

خامسًا :وأما دلالة الفطرة : فأمر لا يمكن المنازعة فيها ولا المكابرة ؛ فكل إنسان مفطور على أن اللّه فى السماء ، ولهذا عندما يفجؤك الشىء الذى لا تستطيع دفعه ، وإنما تتوجه إلى اللّه تعالى بدفعه ؛ فإن قلبك ينصرف إلى السماء حتى الذين ينكرون علو الذات لا يقدرون أن ينزلوا أيديهم إلى الأرض .

وهذه الفطرة لا يمكن إنكارها .

حتى إنهم يقولون :إن بعض المخلوقات العجماء تعرف أن اللّه فى السماء ؛ كما فى الحديث الذى يروى أن سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام وعلى أبيه خرج يستسقى ذات يوم بالناس ، فلما خرج ؛ رأى نملة مستلقية على ظهرها ، رافعة قوائمها نحو السماء ، تقول : « اللهم ! إنا خلق من خلقك ، ليس بنا غنى عن سقياك » . فقال : « ارجعوا ؛ فقد سقيتم بدعوة غيركم » . وهذا إلهام فطرى .

فالحاصل أن كون اللّه فى السماء أمر معلوم بالفطرة .

واللّه ؛ لولا فساد فطرة هؤلاء المنكرين لذلك ؛ لعلموا أن اللّه فى السماء بدون أن يطالعوا أى كتاب ؛ لأن الأمر الذى تدل عليه الفطرة لا يحتاج إلى مراجعة الكتب .

والذين أنكروا علو اللّه عز وجل بذاته يقولون : لو كان فى العلو بذاته ؛ كان فى جهة ، وإذا كان فى جهة ؛ كان محدودًا وجسمًا ، وهذا ممتنع !

والجواب عن قولهم : « إنه يلزم أن يكون محدودًا وجسمًا » ؛ نقول :

أولًا : لا يجوز إبطال دلالة النصوص بمثل هذه التعليلات ، ولو جاز هذا ؛ لأمكن كل شخص لا يريد ما يقتضيه النص أن يعلله بمثل هذه العلل العليلة .

فإذا كان اللّه أثبت لنفسه العلو ، ورسوله ﷺ أثبت له العلو ، والسلف الصالح أثبتوا له العلو ؛ فلا يقبل أن يأتى شخص ويقول : لا يمكن أن يكون علو ذات ؛ لأنه لو كان علو ذات ؛

....

لكان كذا وكذا .

ثانيًا : نقول : إن كان ما ذكرتم لازمًا لإثبات العلو لزومًا صحيحًا ؛ فلنقل به ؛ لأن لازم كلام الله ورسوله حق ؛ إذ إن الله تعالى يعلم ما يلزم من كلامه . فلو كانت نصوص العلو تستلزم معنى فاسدًا ؛ لبينه ، ولكنها لا تستلزم معنى فاسدًا .

ثالثًا : ثم نقول : ما الحد والجسم الذى أجلبتم علينا بخيلكم ورجلكم فيها ؟

أتريدون بالحد أن شيئًا من المخلوقات يحيط بالله ؟ ! فهذا باطلٌ ومنتفٍ عن الله ، وليس بلازم من إثبات العلو لله أو تريدون بالحد أن الله بائن من خلقه غير حال فيهم ؟ فهذا حق من حيث المعنى ، ولكن لا نطلق لفظه نفيًا ولا إثباتًا ؛ لعدم ورود ذلك .

وأما الجسم ؛ فنقول : ماذا تريدون بالجسم ؟ أتريدون أنه جسم مركب من عظم ولحم وجلد ونحو ذلك ؟ فهذا باطلٌ ومنتف عن الله ؛ لأن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ . أم تريدون بالجسم ما هو قائم بنفسه متصف بما يليق به ؟ فهذا حق من حيث المعنى ؛ لكن لا نطلق لفظه نفيًا ولا إثباتًا ؛ لما سبق .

وكذلك نقول فى الجهة ؛ هل تريدون أن الله تعالى له جهة تحيط به ؟ فهذا باطلٌ ، وليس بلازم من إثبات علوه . أم تريدون جهة علو لا تحيط بالله ؟ فهذا حق لا يصح نفيه عن الله تعالى .

❁ قال الشيخ الفوزان :

﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾ خطاب من الله تبارك وتعالى لعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ الذى عليه الأكثر أن المراد بالوفاة هنا النوم ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام : ٦٠] ، وقال تعالى : ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَاۖ﴾ [الزمر : ٤٢] .

﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ ؛ أى : رفعه الله إليه فى السماء ، وهو حيٌّ ، وهذا محل الشاهد من الآية ، وهو إثبات العلو لله ؛ لأن الرفع يكون إلى أعلى .

❁ قال الشيخ هراس :

وقوله : ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾ إلخ : هذه الآيات جاءت مؤيدة لما دلت عليه الآيات السابقة من علوه تعالى وارتفاعه فوق العرش مباينًا للخلق ، وناعية على المعطلة جحودهم وإنكارهم لذلك ، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا . ففى الآية الأولى ينادى الله رسوله وكلمته عيسى ابن مريم عليه

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾(١) [النساء: ١٥٨]، ....

الصلاة والسلام بأنه متوفيه ورافعه إليه حين دبر اليهود قتله ، والضمير فى قوله : « إلى » هو ضمير الرب جل شأنه لا يحتمل غير ذلك ، فتأويله بأن المراد : إلى محل رحمتى أو مكان ملائكتى . إلخ لا معنى له ، ومثل ذلك يقال أيضًا فى قوله سبحانه ردًّا على ما ادعاه اليهود من قتل عيسى وصلبه ، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ .

وقد اختلف فى المراد بالتوفى المذكور فى الآية ، فحمله بعضهم على الموت ، والأكثرون على أن المراد به النوم ، ولفظ التوفى يستعمل فيه ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] .

ومنهم من زعم أن فى الكلام تقديمًا وتأخيرًا ، وأن التقدير : إنى رافعك ومتوفيك ، أى مميتك بعد ذلك . والحق أنه عليه السلام رُفع حيًّا ، وأنه سينزل قرب قيام الساعة لصحة الحديث بذلك .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الآية الثانية : قوله : ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ [النساء: ١٥٨] .

﴿بَل﴾ : للإضراب الإبطالى ؛ لإبطال قولهم : ﴿إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ۞ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨] .

فكذبهم اللَّه بقوله : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ۞ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ .

والشاهد قوله : ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ . فإنه صريح بأن اللَّه تعالى عال بذاته ؛ إذ الرفع إلى الشىء يستلزم علوه .

❊ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ . هذا ردٌّ على اليهود الذين يدعون أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم ، فقال تعالى : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ [النساء: ١٥٧] .

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ ؛ أى : رفع اللَّه سبحانه وتعالى المسيح عليه السلام إليه ، وهو حىٌّ ، لم يقتل ، وهذا محل الشاهد ؛ لأن فيه إثبات علو اللَّه على خلقه ؛ لأن الرفع يكون إلى أعلى .

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[1] [فاطر: ١٠]، ....

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية الثالثة : قوله : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

﴿إِلَيْهِ﴾ : إلى الله عز وجل .

﴿يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ : و﴿ٱلْكَلِمُ﴾ هنا اسم جمع، مفرده كلمة، وجمع كلمة كلمات، والكلم الطيب يشمل كل كلمة يتقرب بها إلى الله ؛ كقراءة القرآن والذكر والعلم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ فكل كلمة تقرب إلى الله عز وجل ؛ فهى كلمة طيبة ، تصعد إلى الله عز وجل، وتصل إليه ، والعمل الصالح يرفعه الله إليه أيضًا .

فالكلمات تصعد إلى الله ، والعمل الصالح يرفعه الله ، وهذا يدل على أن الله عال بذاته ؛ لأن الأشياء تصعد إليه وترفع .

✵ **قال الشيخ الفوزان :**

وقوله : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾ ؛ أى : إلى الله سبحانه ، لا إلى غيره يرتفع .

﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ؛ أى : الذكر والتلاوة والدعاء .

﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ ؛ أى : العمل الصالح يرفع الكلم الطيب ؛ فإن الكلم الطيب لا يقبل إلا مع العمل الصالح ، فمن ذكر الله تعالى ، ولم يؤد فرائضه رد كلامه .

قال إياس بن معاية : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام .

وقال الحسن وقتادة : لا يقبل قول إلا بعملٍ .

والشاهد من الآية : أن فيها إثبات علو الله على خلقه ؛ لأن الصعود والرفع يكونان إلى أعلى .

✵ **قال الشيخ هراس :**

وأما قوله سبحانه : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ، فهو صريح أيضًا فى صعود أقوال العباد وأعمالهم إلى الله عزَّ وجلَّ يصعد بها الكرام الكاتبون كل يوم عقب صلاة العصر ، وعقب صلاة الفجر ، كما جاء فى الحديث : « فيعرج الذين يأتوا فيكم فيسألهم ربهم - وهو أعلم - : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : يا ربنا ، أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون » .

﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾(1) [غافر: ٣٦، ٣٧] . ...

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الآية الرابعة : قوله : ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] .

هامان وزير فرعون ، والأمر بالبناء فرعون .

﴿صَرۡحٗا﴾ ؛ أى : بناء عاليًا .

﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ؛ يعنى : لعلى أبلغ الطرق التى توصل إلى السماء .

﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ ؛ يعنى أنظر إليه ، وأصل إليه مباشرة ؛ لأن موسى قال له : إن اللَّه فى السماء . فموه فرعون على قومه بطلب بناء هذا الصرح العالى ليرقى عليه ثم يقول : لم أجد أحدًا ، ويحتمل أنه قاله على سبيل التهكم ؛ يقول : إن موسى قال : إن إلهه فى السماء ، اجعلونا نرقى لنراه ! ! تهكمًا .

وأيا كان ؛ فقد قال : ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ ؛ للتمويه على قومه ، وإلا ؛ فهو يعلم أنه صادق ، وقد قال له موسى : ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] ؛ فلم يقل : ما علمت ! بل أقره على هذا الخبر المؤكد باللام و(قد) والقسم . واللَّه عز وجل يقول فى آية أخرى : ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل: ١٤] .

الشاهد من هذا : أن أمر فرعون ببناء صرح يطلع به على إله موسى يدل على أن موسى عليه السلام قال لفرعون وآله : إن اللَّه فى السماء . فيكون علو اللَّه تعالى ذاتيًا قد جاءت به الشرائع السابقة .

* قال الشيخ الفوزان :

وقوله تعالى : ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾ . هذا من مقولة فرعون لوزيره هامان ، يأمره أن يبنى له قصرًا منيفًا عاليًا .

﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ؛ أى : طرق السماوات ، أو أبوابها .

﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ بنصب ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بـ : «أن» مضمرة بعد فاء السببية ، ومعنى مقالته هذه تكذيب موسى عليه السلام فى أن اللَّه أرسله ، أو أن له إلهًا فى السماء ، ولذلك قال :

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾(1) [الملك: ١٦، ١٧].

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾؛ أي: فيما يدعيه من الرسالة، أو فيما يدعيه بأن له إلهًا في السماء.

والشاهد من الآية: أن فيها إثبات علو الله على خلقه؛ حيث إن موسى عليه السلام أخبر بذلك، وحاول فرعون في تكذيبه.

❋ قال الشيخ هراس:

وأما قوله سبحانه حكاية عن فرعون: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ...﴾ إلخ: فهو دليل على أن موسى عليه السلام أخبر فرعون الطاغية بأن إلهه في السماء، فأراد أن يتلمس الأسباب للوصول إليه تمويهًا على قومه، فأمر وزيره هامان أن يبنى له الصرح، ثم عقب على ذلك بقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾ - أي موسى - كاذبًا فيما أخبر به من كون إلهه في السماء.

فمن إذن أشبه بفرعون وأقرب إليه نسبًا؟ نحن أم هؤلاء المعطلة؟ إن فرعون كذب موسى في كون إلهه في السماء، وهو نفس ما يقوله هؤلاء.

(1) قال الشيخ ابن عثيمين:

الآية الخامسة والسادسة: قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

والذى في السماء هو الله عز وجل، لكنه كنى عن نفسه بهذا؛ لأن المقام مقام إظهار عظمته، وأنه فوقكم، قادر عليكم، مسيطر عليكم، مهيمن عليكم؛ لأن العالى له سلطة على من تحته.

﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾؛ أي: تضطرب.

والجواب: لا نأمن والله! بل نخاف على أنفسنا إذا كثرت معاصينا أن تخسف بنا الأرض.

والانهيارات التى يسمونها الآن: انهيارًا أرضيًا، وانهيارًا جبليًا .... وما أشبه ذلك هى نفسها التى هدد الله بها هنا، لكن يأتون بمثل هذه العبارات ليهونوا الأمر على البسطاء من الناس.

﴿أَمْ أَمِنتُم﴾. يعنى: بل أأمنتم، و(أم) هنا بمعنى (بل) والهمزة.

﴿أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾. الحاصب: عذاب من فوق يحصبون به؛ كما فعل بالذين من قبلهم؛ كقوم لوط وأصحاب الفيل، والخسف من تحت.

....

فالله عز وجل هددنا من فوق ومن تحت ؛ قال الله تعالى : ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت : ٤٠] ؛ أربعة أنواع من العذاب .

وهنا ذكر الله نوعين منها : الحاصب والخسف .

والشاهد من هذه الآية هو قوله : ﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ .

والذى فى السماء هو الله عز وجل ، وهو دليل على علو الله بذاته .

لكن هاهنا إشكال ، وهو أن (في) للظرفية ؛ فإذا كان الله فى السماء ، و(في) للظرفية ؛ فإن الظرف محيط بالمظروف ! أرأيت لو قلت : الماء فى الكأس . فالكأس محيط بالماء وأوسع من الماء ! فإذا كان الله يقول : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ؛ فهذا ظاهره أن السماء محيطة بالله ، وهذا الظاهر باطل ، وإذا كان الظاهر باطلًا ؛ فإننا نعلم علم اليقين أنه غير مراد الله ؛ لأنه لا يمكن أن يكون ظاهر الكتاب والسنة باطلًا .

فما الجواب على هذا الإشكال ؟ .

قال العلماء : الجواب أن نسلك أحد طريقين :

١ - فإما أن نجعل السماء بمعنى العلو ، والسماء بمعنى العلو وارد فى اللغة ، بل فى القرآن ؛ قال تعالى : ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد : ١٧] ، والمراد بالسماء العلو ؛ لأن الماء ينزل من السحاب لا من السماء التى هى السقف المحفوظ ، والسحاب فى العلو بين السماء والأرض ، كما قال الله تعالى : ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

فيكون معنى ﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ؛ أى : من فى العلو .

ولا يوجد إشكال بعد هذا ؛ فهو فى العلو . ليس يحاذيه شيء ، ولا يكون فوقه شيء .

٢ - أو نجعل (في) بمعنى (على) ، ونجعل السماء هى السقف المحفوظ المرفوع ؛ يعنى : الأجرام السماوية ، وتأتى (في) بمعنى (على) فى اللغة العربية ، بل فى القرآن الكريم ، قال فرعون لقومه السحرة الذين آمنوا : ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه : ٧١] ؛ أى : على جذوع النخل .

فيكون معنى ﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ؛ أى : من على السماء .

....

ولا إشكال بعد هذا .

فإن قلت : كيف تجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف : ٨٤] ، وقوله : ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام : ٣] ؟! .

فالجواب : أن نقول :

أما الآية الأولى ؛ فإن اللَّه يقول : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ . فالظرف هنا لألوهيته ؛ يعنى : أن ألوهيته ثابتة فى السماء وفى الأرض ؛ كما تقول : فلان أمير فى المدينة ومكة ؛ فهو نفسه فى واحدة منهما ، وفيهما جميعًا بإمارته وسلطته ؛ فاللَّه تعالى ألوهيته فى السماء وفى الأرض ، وأما هو عز وجل ففى السماء .

أما الآية الثانية : ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ ؛ فنقول فيها كما قلنا فى التى قبلها : ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ ؛ أى : وهو الإله الذى ألوهيته فى السماوات وفى الأرض ، أما هو نفسه ؛ ففى السماء . فيكون المعنى : هو المألوه فى السماوات المألوه فى الأرض ؛ فألوهيته فى السماوات وفى الأرض . فتخريج هذه الآية كتخريج التى قبلها .

وقيل المعنى : ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ، ثم تقف ، ثم تقرأ : ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ ؛ أى أنه نفسه فى السماوات ، ويعلم سركم وجهركم فى الأرض ؛ فليس كونه فى السماء مع علوه بمانع من علمه بسركم وجهركم فى الأرض .

وهذا المعنى فيه شيء من الضعف ؛ لأنه يقتضى تفكيك الآية وعدم ارتباط بعضها ببعض ، والصواب الأول : أن نقول : ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ ؛ يعنى أن ألوهيته ثابتة فى السماوات وفى الأرض ، فتطابق الآية الأخرى .

من الفوائد المسلكية فى هذه الآيات :

أن الإنسان إذا علم بأن اللَّه تعالى فوق كل شيء ؛ فإنه يعرف مقدار سلطانه وسيطرته على خلقه ، وحينئذ يخافه ويعظمه ، وإذا خاف الإنسان ربه وعظمه ؛ فإنه يتقيه ويقوم بالواجب ويدع المحرم .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله تعالى : ﴿ءَأَمِنتُم﴾ . الأمن ضد الخوف .

....

﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ؛ أى : عقوبة من فى السماء ، وهو اللّٰه سبحانه .

ومعنى ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ؛ أى : على السماء ، كقوله تعالى : ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ ، وهذا إن أريد بالسماء السماء المبنية .

وإن أريد بالسماء مطلق العلو « ففى » للظرفية ؛ أى : فى العلو .

﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ ؛ أى : يقلعها بكم ، كما فعل بقارون .

﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ ؛ أى : تضطرب وتتحرك .

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ ؛ أى : حجارةً من السماء ، كما أرسلها على قوم لوطٍ ، وأصحاب الفيل .

وقيل : سحاب فيها حجارة . وقيل : ريح فيها حجارة .

﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ ؛ أى : إنذارى إذا عاينتم العذاب ، ولا ينفعكم حينذاك هذا العلم .

والشاهد من الآيتين : أن فيهما إثبات علو اللّٰه على خلقه حيث صرحتا أنه سبحانه فى السماء ، فقد دلت هذه الآيات التى ذكرها المؤلف رحمة اللّٰه عليه على إثبات العلو ، كما دلت هذه الآيات التى قبلها على إثبات استواء اللّٰه على العرش .

والفرق بين الاستواء والعلو :

١- أن العلو من صفات الذات ، والاستواء من صفات الأفعال ، فعلو اللّٰه على خلقه وصف لازم لذاته ، والاستواء فعل من أفعاله سبحانه يفعله سبحانه وتعالى بمشيئته وقدرته إذا شاء ، ولذا قال فيه : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ . وكان ذلك بعد خلق السماوات والأرض .

٢- أن العلو من الصفات الثابتة بالعقل والنقل ، والاستواء ثابت بالنقل ، لا بالعقل .

❁ قال الشيخ هراس :

﴿ءَأَمِنتُم﴾ إلخ : هاتان الآيتان فيهما التصريح بأن اللّٰه عزَّ وجلَّ فى السماء ، ولا يجوز حمل ذلك على أن المراد به العذاب أو الأمر أو الملك كما يفعل المعطلة ؛ لأنه قال : (من) وهى للعاقل[1] ، وحملها على الملك إخراج اللفظ عن ظاهره بلا قرينة توجب ذلك .

---

(1) لو عبر المؤلف هنا بلفظ « للعالم » بدل قوله : « للعاقل » لأصاب . « إسماعيل الأنصاري » .

٢٠- إثباتُ مَعِيَّةِ اللَّهِ تعالى لخَلْقِه :

وقوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(١) [الحديد : ٤] ، ....

ولا يجوز أن يفهم من قوله : « فى السماء » . أن السماء ظرف له سبحانه ، بل إن أريد بالسماء هذه المعروفة ، فـ : « فى » بمعنى « على » ، كما فى قوله تعالى : ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ ، وإن أريد بها جهة العلو ، فـ : « فى » على حقيقتها فإنه سبحانه فى أعلى العلو .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

إثبات معية اللَّه لخلقه :

شرع المؤلف بسوق أدلة المعية ؛ أى : أدلة معية اللَّه تعالى لخلقه ، وناسب أن يذكرها بعد العلو ؛ لأنه قد يبدو للإنسان أن هناك تناقضًا بين كونه فوق كل شىء وكونه مع العباد ، فكان من المناسب جدًّا أن يذكر الآيات التى تثبت معية اللَّه للخلق بعد ذكر آيات العلو .

وفى معية اللَّه تعالى لخلقه مباحث :

المبحث الأول فى أقسامها :

معية اللَّه عز وجل تنقسم إلى قسمين : عامة ، وخاصة .

والخاصة تنقسم إلى قسمين : مقيدة بشخص ، ومقيدة بوصف .

أما العامة ؛ فهى التى تشمل كل أحد من مؤمن وكافر وبَرٍّ وفاجر . ودليلها قوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد : ٤] .

أما الخاصة المقيدة بوصف ؛ فمثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل : ١٢٨] .

وأما الخاصة المقيدة بشخص معين ؛ فمثل قوله تعالى عن نبيه : ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة : ٤٠] ، وقال لموسى وهارون : ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] . وهذه أخص من المقيدة بوصف .

فالمعية درجات : عامة مطلقة ، وخاصة مقيدة بوصف ، وخاصة مقيدة بشخص .

فأخص أنواع المعية ما قيد بشخص ، ثم ما قيد بوصف ، ثم ما كان عامًّا .

....

فالمعية العامة تستلزم الإحاطة بالخلق علمًا وقدرة وسمعًا وبصرًا وسلطانًا وغير ذلك من معانى ربوبيته ، والمعية الخاصة بنوعيها تستلزم مع ذلك النصر والتأييد .

المبحث الثانى : هل المعية حقيقية أو هى كناية عن علم اللَّه عز وجل وسمعه وبصره وقدرته وسلطانه وغير ذلك من معانى ربوبيته ؟

أكثر عبارات السلف رحمهم اللَّه يقولون : إنها كناية عن العلم وعن السمع والبصر والقدرة وما أشبه ذلك ، فيجعلون معنى قوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ ؛ أى : وهو عالم بكم ، سميع لأقوالكم ، بصير بأعمالكم ، قادر عليكم حاكم بينكم . . . وهكذا ، فيفسرونها بلازمها .

واختار شيخ الإسلام رحمه اللَّه فى هذا الكتاب وغيره أنها على حقيقتها ، وأن كونه معنا حق على حقيقته ، لكن ليست معيته كمعية الإنسان للإنسان التى يمكن أن يكون الإنسان مع الإنسان فى مكانه ؛ لأن معية اللَّه عز وجل ثابتة له وهو فى علوه ؛ فهو معنا وهو عالٍ على عرشه فوق كل شىء ، ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن يكون معنا فى الأمكنة التى نحن فيها .

وعلى هذا ؛ فإنه يحتاج إلى الجمع بينها وبين العلو .

والمؤلف عقد لها فصلًا خاصًا سيأتى بيانه إن شاء اللَّه تعالى ، وأنه لا منافاة بين العلو والمعية ؛ لأن اللَّه تعالى ليس كمثله شىء فى جميع صفاته ؛ فهو علىّ فى دنوه ، قريب فى علوه .

وضرب شيخ الإسلام رحمه اللَّه لذلك مثلًا بالقمر ؛ قال : إنه يقال : مازلنا نسيرُ والقمرُ معنا ، وهو موضوع فى السماء ، وهو من أصغر المخلوقات ؛ فكيف لا يكون الخالق عز وجل مع الخلق ، الذى الخلق بالنسبة إليه ليسوا بشىء ، وهو فوق سماواته ؟ ! .

وما قاله رحمه اللَّه فيه دفع حجة بعض أهل التعطيل حيث احتجوا على أهل السُّنة ، فقالوا : أنتم تمنعون التأويل ، وأنتم تؤولون فى المعية ؛ تقولون : المعية بمعنى العلم والسمع والبصر والقدرة والسلطان وما أشبه ذلك .

فنقول : إن المعية حق على حقيقتها ، لكنها ليست فى المفهوم الذى فهمه الجهمية ونحوهم ؛ بأنه مع الناس فى كل مكان وتفسير بعض السلف لها بالعلم ونحوه تفسير باللازم .

المبحث الثالث : هل المعية من الصفات الذاتية أو من الصفات الفعلية ؟

فيه تفصيل :

أما المعية العامة ؛ فهى ذاتية ؛ لأن اللَّه لم يزل ولا يزال محيطًا بالخلق علمًا وقدرةً وسلطانًا

....

وغير ذلك من معاني ربوبيته .

وأما المعية الخاصة ؛فهي صفة فعلية ؛ لأنها تابعة لمشيئة الله ، وكل صفة مقرونة بسبب هي من الصفات الفعلية ؛ فقد سبق لنا أن الرضى من الصفات الفعلية ؛ لأنه مقرون بسبب ، إذا وجد السبب الذى به يرضى الله ؛ وجد الرضى ، وكذلك المعية الخاصة إذا وجدت التقوى أو غيرها من أسبابها فى شخص ؛ كان الله معه .

المبحث الرابع فى المعية : هل هى حقيقية أو لا ؟

ذكرنا ذلك ، وأن من السلف من فسرها باللازم ، وهو الذى لا يكاد يرى الإنسان سواه . ومنهم من قال : هى على حقيقتها ، لكنها معية تليق بالله ، خاصة به .

وهذا صريح كلام المؤلف هنا فى هذا الكتاب وغيره ، لكن تُصان عن الظنون الكاذبة ؛ مثل أن يظن أن الله معنا فى الأرض ونحو ذلك ؛ فإن هذا باطل مستحيل ! .

المبحث الخامس فى المعية : هل بينها وبين العلو تناقض ؟

الجواب :لا تناقض بينهما ؛ لوجوه ثلاثة :

الوجه الأول :أن الله جمع بينهما فيما وصف به نفسه ، ولو كانا يتناقضان ما صح أن يصف الله بهما نفسه .

الوجه الثاني :أن نقول : ليس بين العلو والمعية تعارض ؛ أصلًا ، إذ من الممكن أن يكون الشيء عاليًا وهو معك ، ومنه ما يقوله العرب : القمر معنا ونحن نسير ، والشمس معنا ونحن نسير ، والقطب معنا ونحن نسير . مع أن القمر والشمس والقطب كلها فى السماء ؛ فإذا أمكن اجتماع العلو والمعية فى المخلوق ؛ فاجتماعهما فى الخالق من باب أولى .

أرأيت لو أن إنسانًا على جبل عالٍ ، وقال للجنود : اذهبوا إلى مكان بعيد فى المعركة ، وأنا معكم . وهو واضع المنظار على عينيه ، ينظر إليهم من بعيد ، فصار معهم ؛ لأنه الآن يبصرهم كأنهم بين يديه ، وهو بعيد عنهم ؛ فالأمر ممكن فى حق المخلوق ؛ فكيف لا يمكن فى حق الخالق ؟! .

الوجه الثالث :أنه لو تعذر اجتماعهما فى حق المخلوق ؛ لم يكن متعذرًا فى حق الخالق ؛ لأن الله أعظم وأجل ، ولا يمكن أن تقاس صفات الخالق بصفات المخلوقين ؛ لظهور التباين بين الخالق والمخلوق .

....

والرسول ﷺ يقول في سفره: «اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل»[1]؛ فجمع بين كونه صاحبًا له وخليفة له في أهله، مع أنه بالنسبة للمخلوق غير ممكن، لا يمكن أن يكون شخص ما صاحبًا لك في السفر وخليفة لك في أهلك.

وثبت في الحديث الصحيح[2]: أن الله عز وجل يقول إذا قال المصلي: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: «حمدني عبدي». كم من مصل يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟ لا يحصون، وكم من مُصَلِّيَيْنِ؛ أحدهما يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والثاني يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وكل واحد منهما له ردٌّ؛ الذي يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: يقول الله له: «حمدني عبدي». والذي يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: يقول الله له: «هذا بيني وبين عبدي نصفين».

إذن؛ يمكن أن يكون الله معنا حقًّا وهو على عرشه في السماء حقًّا، ولا يفهم أحد أنهما يتعارضان؛ إلا من أراد أن يمثل الله بخلقه، ويجعل معية الخالق كمعية المخلوق.

ونحن بيَّنَّا إمكان الجمع بين نصوص العلو ونصوص المعية، فإن تبين ذلك، وإلا؛ فالواجب أن يقول العبد: آمنت بالله ورسوله، وصدّقت بما قال الله عن نفسه ورسوله، ولا يقول: كيف يمكن؟! منكرًا ذلك!.

إذا قال: كيف يمكن؟! قلنا: سؤالك هذا بدعة، لم يسأل عنه الصحابة، وهم خير منك، ومسئولهم أعلم من مسئولك وأصدق وأفصح وأنصح، عليك أن تصدق، لا تقل: كيف؟ ولا لِـمَ؟ ولكن سلم تسليمًا.

تنبيـه:

تأمل في الآية؛ تجد كل الضمائر تعود على الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فكذلك ضمير ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾؛ فيجب علينا أن نؤمن بظاهر الآية الكريمة، ونعلم علم اليقين أن هذه المعية لا تقتضي أن يكون الله

---

(1) أخرجه مسلم (١٣٤٢).

(2) أخرجه مسلم (٣٩٥).

....

معنا فى الأرض ، بل هو معنا مع استوائه على العرش . هذه المعية ؛ إذا آمنا بها ؛ تُوجب لنا خشية اللّه عز وجل وتقواه ؛ ولهذا جاء فى الحديث : « أفضل الإيمان أن تعلم أن اللّه معك حيثما كنت »[1].

أما أهل الحلول ؛ فقالوا : إن اللّه معنا بذاته فى أمكنتنا ، إن كنت فى المسجد ؛ فاللّه معك فى المسجد والذين فى السوق اللّه معهم فى السوق ! ! والذين فى الحمامات اللّه معهم فى الحمامات ! ! .

ما نزّهوه عن الأقذار والأنتان وأماكن اللهو والرفث ! ! [تعالى اللّه عن ذلك علوًا كبيرًا] .

المبحث السادس : فى شبهة القائلين بأن اللّه معنا فى أمكنتنا والرد عليهم .

شبهتهم : يقولون : هذا ظاهر اللفظ : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ ؛ لأن كل الضمائر تعود على اللّه : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ ، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ ، ﴿يَعْلَمُ﴾ ، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ ، وإذا كان معنا ؛ فنحن لا نفهم من المعية إلا المخالطة أو المصاحبة فى المكان ! ! .

والرد عليهم من وجوه .

أولًا : أن ظاهرها ليس كما ذكرتم ؛ إذ لو كان الظاهر كما ذكرتم ؛ لكان فى الآية تناقض : أن يكون مستويًا على العرش ، وهو مع كل إنسان فى أى مكان ! والتناقض فى كلام اللّه تعالى مستحيل .

ثانيًا : قولكم : « إن المعية لا تعقل إلا مع المخالطة أو المصاحبة فى المكان » . هذا ممنوع ؛ فالمعية فى اللغة العربية اسم لمطلق المصاحبة ، وهى أوسع مدلولًا مما زعمتم ؛ فقد تقتضى الاختلاط ، وقد تقتضى المصاحبة فى المكان ، وقد تقتضى مطلق المصاحبة وإن اختلف المكان ؛ هذه ثلاثة أشياء :

١ - مثال المعية التى تقتضى المخالطة : أن يقال : اسقونى لبنًا مع ماء ؛ أى : مخلوطًا بماء .

٢ - ومثال المعية التى تقتضى المصاحبة فى المكان : قولك : وجدت فلانًا مع فلان يمشيان جميعًا وينزلان جميعًا .

٣ - ومثال المعية التى لا تقتضى الاختلاط ولا المشاركة فى المكان : أن يقال : فلان مع

---

(1) ضعفه الألبانى فى « ضعيف الجامع » (١٠٠٢) .

....

جنوده . وإن كان هو فى غرفة القيادة ، لكن يوجههم . فهذا ليس فيه اختلاط ولا مشاركة فى مكان .

ويقال : زوجة فلان معه . وإن كانت هى فى المشرق وهو فى المغرب .

فالمعية إذن كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وكما هو ظاهر من شواهد اللغة : مدلولها مطلق المصاحبة ، ثم هى بحسب ما تضاف إليه .

فإذا قيل : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ [النحل : ١٢٨] ؛ فلا يقتضى ذلك لا اختلاطًا ولا مشاركة فى المكان ، بل هى معية لائقة بالله ، ومقتضاها النصر والتأييد .

ثالثًا : نقول : وصفكم الله بهذا ! من أبطل الباطل وأشد التنقص لله عز وجل ، والله عز وجل ذكر هاهنا عن نفسه متمدحًا ؛ أنه مع علوه على عرشه ؛ فهو مع الخلق ، وإن كانوا أسفل منه ، فإذا جعلتم الله فى الأرض ؛ فهذا نقص .

إذا جعلتم الله نفسه معكم فى كل مكان ، وأنتم تدخلون الكنيفَ ؛ هذا أعظم النقص ، ولا تستطيع أن تقوله ولا لملك من ملوك الدنيا : إنك أنت فى الكنيف ! لكن كيف تقوله لله عز وجل ؟ ! وهل هذا إلا أعظم النقص والعياذ بالله ؟ ! .

رابعًا : يلزم على قولكم هذا أحد أمرين لا ثالث لهما ، وكلاهما ممتنع : إما أن يكون الله متجزِّئًا ، كل جزء منه فى مكان .

وإما أن يكون متعددًا ؛ يعنى : كل إله فى جهة ضرورة تعدد الأمكنة .

خامسًا : أن نقول : قولكم هذا أيضًا يستلزم أن يكون الله حالًّا فى الخلق ؛ فكل مكان فى الخلق ؛ فالله تعالى فيه ، وصار هذا مسلمًا لقول أهل وحدة الوجود .

فأنت ترى أن هذا القول باطلٌ ، ومقتضى هذا القول الكفر .

ولهذا نرى أن من قال : إن الله معنا فى الأرض ؛ فهو كافر ؛ يستتاب ، ويبين له الحق ، فإن رجع ، وإلَّا ؛ وجب قتله .

وهذه آيات المعية :

الآية الأولى : قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد : ٤] .

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾(1) [المجادلة: ٧].

والشاهد فيها قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾. وهذه من المعية العامة؛ لأنها تقتضى الإحاطة بالخلق علمًا وقدرة وسلطانًا وسمعًا وبصرًا وغير ذلك من معانى الربوبية.

✻ قال الشيخ الفوزان:

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ - إلى قوله -: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ تقدم تفسيره.

وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾؛ أى: هو معكم بعلمه، رقيب عليكم، شهيد على أعمالكم حيث كنتم، وأين كنتم، فى برٍّ أو بحرٍ، فى ليلٍ أو نهارٍ، فى البيوت أو القفار، الجميع فى علمه على السواء.

وتحت سمعه وبصره، يسمع كلامكم، ويرى مكانكم.

وهذا محل الشاهد من الآية الكريمة، ففيه إثبات المعية العامة.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شىء من أعمالكم.

✻ قال الشيخ هراس:

قوله [تعالى]: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلخ: تضمنت هذه الآية الكريمة إثبات صفة المعية له عزَّ وجلَّ وهى على نوعين:

١- معية عامة: شاملة لجميع المخلوقات، فهو سبحانه مع كل شىء بعلمه وقدرته وقهره وإحاطته، لا يغيب عنه شىء ولا يعجزه، وهذه هى المعية المذكورة فى الآية.

ففى الآية يخبر عن نفسه سبحانه بأنه هو وحده الذى خلق السماوات والأرض؛ يعنى: أوجدها على تقديرها وترتيب سابق فى مدة ستة أيام، ثم علا بعد ذلك وارتفع على عرشه لتدبير أمور خلقه، وهو مع كونه فوق عرشه لا يغيب عنه شىء من العالَمين العلوى والسفلى، فهو يعلم ما يلج، أى: يدخل فى الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج، أى يصعد، ولا شكَّ أن من كان علمه وقدرته محيطين بجميع الأشياء فهو مع كل شىء، ولذلك قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:].

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

الآية الثانية: قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ

....

سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

﴿مَا يَكُونُ﴾: ﴿يَكُونُ﴾؛ تامة يعني: ما يوجد.

وقوله: ﴿مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾: قيل: إنها من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، وأصلها: من ثلاثة نجوى، ومعنى ﴿نَّجْوَىٰ﴾؛ أي: متناجين.

وقوله: ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، ولم يقل: هو ثالثهم؛ لأنه من غير الجنس، وإذا كان من غير الجنس؛ فإنه يؤتى بالعدد التالى، أما إذا كان من الجنس؛ فإنه يؤتى بنفس العدد، انظر قوله تعالى عن النصارى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، ولم يقولوا: ثالث اثنين؛ لأنه من الجنس على زعمهم! فعندهم كل الثلاثة آلهة، فلما كان من الجنس على زعمهم؛ قالوا فيه: ثالث ثلاثة.

قوله: ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ ذكر العدد الفردى ثلاثة وخمسة، وسكت عن العدد الزوجى، لكنه داخل فى قوله: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾: الأدنى من ثلاثة اثنان، ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ من خمسة، ستة فما فوق..

ما من اثنين فأكثر يتناجيان بأى مكان من الأرض؛ إلا والله عز وجل معهم.

وهذه المعية عامة؛ لأنها تشمل كل أحدٍ: المؤمن، والكافر، والبر، والفاجر، ومقتضاها الإحاطة بهم علمًا وقدرة وسمعًا وبصرًا وسلطانًا وتدبيرًا وغير ذلك.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ يعنى: أن هذه المعية تقتضى إحصاء ما عملوه؛ فإذا كان يوم القيامة؛ نبأهم بما عملوا؛ يعنى: أخبرهم به وحاسبهم عليه؛ لأن المراد بالإنباء لازمه، وهو المحاسبة، لكن إن كانوا مؤمنين؛ فإن الله تعالى يحصى أعمالهم، ثم يقول: «سترتها عليك فى الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»[1].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾: كل شيء موجود أو معدوم، جائز أو واجب أو ممتنع، كل شيء؛ فالله عليم به.

وقد سبق لنا الكلام على صفة العلم، وأن علم الله يتعلق بكل شيء، حتى بالواجب

(1) أخرجه البخارى (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

....

والمستحيل، والصغير والكبير، والظاهر والخفى.

❁ قال الشيخ الفوزان:

وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ النجوى: السر، والمعنى: ما يوجد من تناجى ثلاثةٍ ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾؛ أى: جاعلهم أربعةً، وجاعلهم ستةً من حيث إنه سبحانه يشاركهم فى الاطلاع على تلك النجوى.

وتخصيص هذين العددين بالذكر؛ لأن أغلب عادات المتناجين أن يكونوا ثلاثةً أو خمسةً، أو أن سبب النزول تناجى ثلاثةٍ فى واقعةٍ، وخمسةٍ فى واقعةٍ أخرى، وإلا فهو سبحانه مع كل عددٍ، قل أو كثر.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾. أى: ولا أقل من العدد المذكور كالواحد والاثنين، ولا أكثر منه كالستة والسبعة.

﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ بعلمه يعلم ما يتناجون به، ولا يخفى عليه شىء منه.

قال المفسرون: إن المنافقين واليهود كانوا يتناجون فيما بينهم، ويوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوؤهم، فيحزنون لذلك، فلما طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله ﷺ فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك، وعادوا إلى مناجاتهم، فأنزل الله هذه الآيات.

وقوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾. معناه إحاطة علمه سبحانه بكل تناجٍ يقع منهم فى أى مكانٍ.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾؛ أى: يخبرهم سبحانه ﴿بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ويجازيهم على ذلك، وفى هذا تهديد لهم وتوبيخ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شىء.

والشاهد من الآية: أن فيها إثبات معية الله لخلقه، وهى معية عامة، مقتضاها الإحاطة والعلم بجميع أعمالهم، ولهذا يقول الإمام أحمد رحمه الله: افتتح الآية بالعلم، واختتمها بالعلم.

❁ قال الشيخ هراس:

قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ﴾ إلخ: يثبت سبحانه شمول علمه وإحاطته بجميع

وقوله :﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [1][التوبة : ٤٠] ، ....

الأشياء ، وأنه لا يخفى عليه نجوى المتناجين ، وأنه شهيد على الأشياء كلها مطلع عليها .

وإضافة : « نجوى » إلى ثلاثة من إضافة الصفة إلى الموصوف والتقدير : ما يكون من ثلاثة نجوى ، أى متناجين .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية الثالثة :﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة : ٤٠] .

الخطاب لأبى بكر من النبى ﷺ ؛ قال الله تعالى : ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ .

أولًا :نصره حين الإخراج ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ .

ثانيًا :وعند المكث فى الغار ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ .

ثالثًا : عند الشدة حينما وقف المشركون على فم الغار : ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْـزَنْ﴾ .

فهذه ثلاثة مواقع بيَّن الله تعالى فيها نصره لنبيه ﷺ .

وهذا الثالث حين وقف المشركون عليهم ؛ يقول أبو بكر : « يا رسول الله ، لو نظر أحدهم إلى قدمه ؛ لأبصرنا »[1]. يعنى : إننا على خطر ؛ كقول أصحاب موسى لما وصلوا إلى البحر : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء : ٦١] ، فقال : ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء : ٦٢] ، وهنا قال النبى ﷺ لأبى بكر رضى الله عنه : ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ . فطمأنه وأدخل الأمن فى نفسه ، وعلل ذلك بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ .

وقوله : ﴿لَا تَحْـزَنْ﴾ : نهى يشمل الهم مما وقع وما سيقع ؛ فهو صالح للماضى والمستقبل .

والحزن : تألم النفس وشدة همها .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ : وهذه المعية خاصة ، مقيدة بالنبى ﷺ وأبى بكر ، وتقتضى مع الإحاطة التى هى المعية العامة النصر والتأييد .

---

(1)أخرجه البخارى (٣٦٥٣) ، ومسلم (٢٣٨١) .

....

ولهذا وقفت قريش على الغار، ولم يبصروهما ! أعمى الله أبصارهم .

وأما قول من قال : فجاءت العنكبوت فنسجت على باب الغار، والحمامة [وضعت البيض] على باب الغار، فلما جاء المشركون، وإذا على الغار حمامة وعشّ عنكبوت، فقالوا : ليس فيه أحد ؛ فانصرفوا . فهذا باطلٌ ! ! .

الحماية الإلهية والآية البالغة أن يكون الغار مفتوحًا صافيًا ؛ ليس فيه مانع حسى، ومع ذلك لا يرون من فيه، هذه هى الآية ! ! .

أما أن تأتى حمامة تعشش وعنكبوت [ينسج خيوطه] ؛ فهذا بعيد، وخلاف قوله : « لو نظر أحدهم إلى قدمِه، لأبصرنا » .

المهم أن بعض المؤرخين - عفا الله عنهم - يأتون بأشياء غريبة شاذة منكرة لا يقبلها العقل ولا يصح بها النقل .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله تعالى : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾. هذا خطاب من النبى ﷺ لصاحبه أبى بكرٍ رضى الله عنه، حينما كانا فى الغار، وقت الهجرة، وقد لحق بهما المشركون، فحزن أبو بكرٍ رضى الله عنه ؛ خوفًا على النبى ﷺ من أذى الكفار، فقال له النبى ﷺ : ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ ؛ أى : دعِ الحزن[1].

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بنصره وعونه وتأييده، ومن كان الله معه فلن يغلب، ومن لا يغلب، لا يحق له أن يحزن .

والشاهد من الآية : أن فيها إثبات المعية الخاصة بالمؤمنين التى مقتضاها النصر والتأييد .

❁ قال الشيخ هراس :

وأما الآيات الباقية فهى فى إثبات المعية الخاصة التى هى معيته لرسله تعالى وأوليائه بالنصر والتأييد والمحبة والتوفيق والإلهام .

فقوله تعالى : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ حكاية عما قاله عليه الصلاة والسلام لأبى بكر الصديق وهما فى الغار، فقد أحاط المشركون بفم الغار عندما خرجوا فى طلبه عليه السلام،

---

(1) البخارى (٣٦٥٢)، ومسلم (٢٣٠٩) (٢٠٠٩) .

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ (1) [طه: ٤٦]، ....

فلما رأى أبو بكر ذلك انزعج وقال: « والله يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدمه لأبصرنا ».
فقال له الرسول ﷺ ما حكاه الله عزَّ وجلَّ هنا: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.
فالمراد بالمعية هنا معية النصر والعصمة من الأعداء.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

الآية الرابعة: قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

هذا الخطاب موجه لموسى وهارون، لما أمرهما الله عز وجل أن يذهبا إلى فرعون؛ قال: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٣- ٤٦].

فقوله: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾: جملة استئنافية لبيان مقتضى هذه المعية الخاصة، وهو السمع والرؤية، وهذا سمع ورؤية خاصان تقتضيان النصر والتأييد والحماية من فرعون الذى قالا عنه: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾.

※ قال الشيخ الفوزان:

وقوله تعالى لموسى وهارون، عليهما السلام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾؛ أى: لا تخافا من فرعون.

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ تعليل للنهى؛ أى: معكما بالنصر لكما، والمعونة على فرعون ﴿أَسْمَعُ﴾ كلامكما وكلامه ﴿وَأَرَىٰ﴾ مكانكما ومكانه، لا يخفى على من أمركم شيء.

والشاهد من الآية: أن فيها إثبات المعية الخاصة فى حق الله تعالى لأوليائه بالنصر والتأييد، كما أن فيها إثبات السمع والبصر له سبحانه وتعالى.

※ قال الشيخ هراس:

وأما قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فقد تقدم الكلام [عليه] (1)، وأنها خطاب لموسى وهارون عليهما السلام ألَّا يخافا بطش فرعون بهما؛ لأن الله عزَّ وجلَّ معهما بنصره وتأييده.

---

(1) زيادة يقتضيها السياق. « إسماعيل الأنصاري ».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾(١) [النحل: ١٢٨]، ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(٢) [الأنفال: ٤٦]، ....

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الآية الخامسة: قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

هذه جاءت بعد قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٦، ١٢٧].

عقوبة الجانى بمثل ما عوقب به من باب التقوى، وبأكثر ظلم وعدوان، والعفو إحسان، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

والمعية هنا خاصة مقيدة بصفة: كل من كان من المتقين المحسنين؛ فالله معه.

وهذا يثمر لنا بالنسبة للحالة المسلكية: الحرص على الإحسان والتقوى؛ فإن كل إنسان يحب أن يكون الله معه.

❁ **قال الشيخ الفوزان:**

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾؛ أى: تركوا المحرمات والمعاصى على اختلاف أنواعها.

﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ بتأدية الطاعات، والقيام بما أمروا به، فهو سبحانه مع هؤلاء بتأييده، ونصره، ومعونته، وهذه معية خاصة، وهى محل الشاهد من الآية الكريمة.

❁ **قال الشيخ هراس:**

وكذلك بقية الآيات يخبر الله فيها عن معيته للمتقين الذين يراقبون الله عزَّ وجلَّ فى أمره ونهيه ويحفظون حدوده، وللمحسنين الذين يتلزمون الإحسان فى كل شىء، والإحسان فى كل شىء بحسبه؛ فهو فى العبادة مثلًا: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». كما جاء فى حديث جبريل عليه السلام.

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الآية السادسة: قوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

سبق لنا أن الصبر حبس النفس على طاعة الله، وحبسها عن معصية الله، وحبسها عن

....

التسخط على أقدار اللّٰه ؛ سواء باللسان أو بالقلب أو بالجوارح .

وأفضل أنواع الصبر : الصبر على طاعة اللّٰه ، ثم عن معصية اللّٰه لأن فيهما اختيارًا : إن شاء الإنسان فعل المأمور ، وإن شاء لم يفعل ، وإن شاء ترك المحرم وإن شاء ما تركه ، ثم على أقدار اللّٰه ؛ لأن أقدار اللّٰه واقعة شئت أم أبيت ؛ فإما أن تصبر صبر الكرام وإما أن تسلو سلو البهائم .

والصبر درجة عالية لا تنال إلا بشيء يصبر عليه ، أما من فرشت له الأرض ورودًا ، وصار الناس ينظرون إلى ما يريد ؛ فإنه لا بد أن يناله شيء من التعب النفسي أو البدني الداخلي أو الخارجي .

ولهذا جمع اللّٰه لنبيه عليه الصلاة والسلام بين الشكر والصبر .

فالشكر ؛ كان يقوم حتى تتورم قدماه ، فيقول : « أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟ »[1] .

والصبر : صبر على ما أوذى ، فقد أوذى من قومه ومن غيرهم من اليهود والمنافقين ، ومع ذلك ؛ فهو صابر .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾ . هذا أمر بالصبر ، وهو حبس النفس ، والمراد به هنا الصبر على شدائد الحرب التى بين المسلمين ، وبين الكفار ، ثم علل هذا الأمر بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ . فهو سبحانه مع الصابرين فى كل أمرٍ ، ينبغى الصبر فيه .

والشاهد من الآية الكريمة : أن فيها إثبات معية اللّٰه للصابرين على طاعته ، والمجاهدين فى سبيله .

قال الإمام الشوكانى : ويا حبذا هذه المعية التى لا يغلب من رزقها غالب ، ولا يؤتى صاحبها من جهةٍ من الجهات ، وإن كانت كثيرةً[2] . اهـ

❁ قال الشيخ هراس :

وكذلك يخبر عن معيته للصابرين الذين يحبسون أنفسهم على ما تكره ويتحملون المشاق والأذى فى سبيل اللّٰه وابتغاء وجهه صبرًا على طاعة اللّٰه وصبرًا عن معصيته وصبرًا على قضائه .

---

(1) أخرجه البخارى (٤٨٣٦) ، ومسلم (٢٨١٩) .

(2) « فتح القدير » (٢/٣١٥) .

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1] [البقرة: ٢٤٩].

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الآية السابعة : قوله : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

﴿كَم﴾ : خبرية ، تفيد التكثير ؛ يعنى : فئة قليلة غلبت فئة كثيرة عدة مرات ، أو فئات قليلة متعددة غلبت فئات كثيرة متعددة ، لكن لا بحولهم ولا بقوتهم ، بل بإذن اللّٰه ، أى : بإرادته وقدرته .

ومن ذلك : أصحاب طالوت غلبوا عدوهم وكانوا كثيرين .

ومن ذلك : أصحاب بدر غلبوا قريشًا وهم كثيرون .

أصحاب بدر خرجوا لغير قتال ، بل لأخذ عير أبى سفيان ، وأبو سفيان لما علم بهم ؛ أرسل صارخًا إلى أهل مكة يقول : أنقذوا عيركم ، محمد وأصحابه خرجوا إلينا يريدون أخذ العير . والعير فيها أرزاق كثيرة لقريش ، فخرجت قريش بأشرافها وأعيانها وخيلائها وبطرها ، يظهرون القوة والفخر والعزة ، حتى قال أبو جهل : واللّٰه ؛ لا نرجع حتى نقدم بدرًا ، فنقيم فيها ثلاثًا ؛ ننحر الجزور ، ونسقى الخمور ، وتعزف علينا القِيان ، وتسمع بنا العرب ؛ فلا يزالون يهابوننا أبدًا .

فالحمد للّٰه ، غَنَّوا على قتله هو ومن معه ! .

كان هؤلاء القوم ما بين تسعمائة وألف ، كل يوم ينحرون من الإبل تسعًا إلى عشر ، والنبى عليه الصلاة والسلام هو وأصحابه ثلاثمائة وأربعة عشر رجلًا ، معهم سبعون بعيرًا وفرسان فقط يتعاقبونها ، ومع ذلك قتلوا الصناديد العظماء لقريش حتى جيفوا وانتفخوا من الشمس وسُحبوا إلى قليب من قلب بدر خبيثة .

ف : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ . لأن الفئة القليلة صبرت ، ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ؛ صبرت كل أنواع الصبر ؛ على طاعة اللّٰه ، وعن معصية اللّٰه ، وعلى ما أصابها من الجهد والتعب والمشقة فى تحمل أعباء الجهاد ، ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ .

انتهت آيات المعية ، وسيأتى للمؤلف رحمه اللّٰه فصل كامل فى تقريرها .

....

فما الثمرات التى نستفيدها بأن الله معنا ؟

أولًا : الإيمان بإحاطة الله عز وجل بكل شىء ، وأنه مع علوه فهو مع خلقه ، لا يغيب عنه شىء من أحوالهم أبدًا .

ثانيًا : أننا إذا علمنا ذلك وآمنا به ؛ فإن ذلك يوجب لنا كمال مراقبته بالقيام بطاعته وترك معصيته ؛ بحيث لا يفقدنا حيث أمرنا ، ولا يجدنا حيث نهانا ، وهذه ثمرة عظيمة لمن آمن بهذه المعية .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله تعالى : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ . الفئة : الجماعة والقطعة منهم ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ؛ أى : بإرادته وقضائه ومشيئته .

﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ هذا محل الشاهد من الآية الكريمة ، وهو إثبات معية الله سبحانه للصابرين على الجهاد فى سبيله ، وهى معية خاصة ، مقتضاها النصر والتأييد .

ما يستفاد من مجموع الآيات السابقة : أفادت إثبات المعية ، وأنها نوعان :

النوع الأول : معية عامة ، كما فى الآيتين الأوليين ، ومقتضى هذه المعية إحاطته سبحانه بخلقه ، وعلمه بأعمالهم ؛ خيرها وشرها ، ومجازاتهم عليها .

النوع الثانى : معية خاصة بعباده المؤمنين ، ومقتضاها النصر والتأييد والحفظ ، وهذا النوع تدل عليه الآيات الخمس الباقية التى أوردها المؤلف رحمه الله .

ومعيته سبحانه لا تنافى علوه على خلقه ، واستواءه على عرشه ؛ فإن قربه سبحانه ومعيته ليست كقرب المخلوق ومعية المخلوق للمخلوق ؛ فإنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

ولأن المعية مطلق المقارنة ؛ لا تقتضى مماسةً ، ولا محاذاةً ، تقول العرب : ما زلنا نمشى ، والقمر معنا . مع أنه فوقهم ، والمسافة بينهم وبينه بعيدة ، فعلو الله جل جلاله ، ومعيته لخلقه لا تنافى بينهما ، وسيأتى لهذا مزيد بيانٍ ، إن شاء الله .

٢١- إثباتُ الكلامِ للهِ تعالى :

وقوله : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [(١)] [النساء: ١٢٢] .

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

إثبات الكلام لله تعالى وأن القرآن من كلامه تعالى :

ذكر المؤلف رحمه الله الآيات الدالة على كلام الله تعالى وأن القرآن من كلامه تعالى .

الآية الأولى والثانية : قوله : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] .

﴿وَمَنْ﴾ : اسم استفهام بمعنى النفى ، وإتيان النفى بصيغة الاستفهام أبلغ من إتيان النفى مجردًا ؛ لأنه يكون بالاستفهام مشربًا معنى التحدى ؛ كأنه يقول : لا أحد أصدق من الله حديثًا ، وإذا كنت تزعم خلاف ذلك ؛ فمن أصدق من الله ؟ .

وقوله : ﴿حَدِيثًا﴾ و﴿قِيلًا﴾ : تمييز لـ﴿أَصْدَقُ﴾ .

وإثبات الكلام فى هاتين الآيتين يؤخذ من : قوله : ﴿أَصْدَقُ﴾ ؛ لأن الصدق يوصف به الكلام ، وقوله : ﴿حَدِيثًا﴾ . لأن الحديث هو الكلام ، ومن قوله فى الآية الثانية : ﴿قِيلًا﴾ ؛ يعنى : قولًا ، والقول لا يكون إلا باللفظ .

ففيهما إثبات الكلام لله عز وجل ، وأن كلامه حق وصدق ، ليس فيه كذب بوجه من الوجوه .

✲ **قال الشيخ الفوزان :**

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ؛ أى : لا أحد أصدق منه سبحانه ، فهو استفهام إنكارىٌّ .

﴿حَدِيثًا﴾ ؛ أى : فى حديثه وخبره وأمره ووعده ووعيده .

وقوله : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ . القيل مصدر «قال» ، كالقول ؛ أى : لا أحد أصدق قولًا من الله عز وجل .

والشاهد من الآيتين الكريمتين : أن فيهما إثبات الحديث والقيل لله سبحانه ، ففيهما إثبات الكلام له سبحانه .

....

❁ قال الشيخ هراس :

تضمنت هذه الآيات إثبات صفة الكلام للَّه عزَّ وجلَّ .

وقد تنازع الناس حول هذه المسألة نزاعًا كبيرًا ؛ فمنهم من جعل كلامه سبحانه مخلوقًا منفصلًا منه ، وقال : (إن) معنى متكلم : خالق للكلام . وهم المعتزلة .

ومنهم من جعله لازمًا لذاته أزلًا وأبدًا لا يتعلق بمشيئته وقدرته ، ونفى عنه الحرف والصوت ، وقال : إنه معنى واحد فى الأزل . وهم الكلابية والأشعرية .

ومنهم من زعم أنه حروف وأصوات قديمة لازمة للذات ، وقال : إنها مقترنة فى الأزل ، فهو سبحانه لايتكلم بها شيئًا بعد شيء . وهم بعض الغلاة .

ومنهم من جعله حادثًا قائمًا بذاته تعالى ومتعلقًا بمشيئته وقدرته ، ولكن زعم أن له ابتداء فى ذاته ، وأن اللَّه لم يكن متكلمًا فى الأزل . وهم الكرامية .

ويطول بنا القول لو اشتغلنا بمناقشة هذه الأقوال وإفسادها على أن فسادها بيّن لكل ذى فهم سليم ونظر مستقيم .

وخلاصة مذهب أهل السنة والجماعة فى هذه المسألة :أن اللَّه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء ، وأن الكلام صفة له قائمة بذاته يتكلم بها بمشيئته وقدرته ، فهو لم يزل ولا يزال متكلمًا إذا شاء ، وما تكلم اللَّه به فهو قائم به ليس مخلوقًا منفصلًا عنه كما تقول المعتزلة ، ولا لازمًا لذاته لزوم الحياة لها كما تقول الأشاعرة ، بل هو تابع لمشيئته وقدرته .

واللَّه سبحانه نادى موسى بصوت ، ونادى آدم وحواء بصوت ، وينادى عباده يوم القيامة بصوت ، ويتكلم بالوحى بصوت ، ولكن الحروف والأصوات التى تكلم اللَّه بها صفة له غير مخلوقة ولا تشبه أصوات المخلوقين وحروفهم ، كما أن علم اللَّه القائم بذاته ليس مثل علم عباده ، فإن اللَّه لا يماثل المخلوقين فى شيء من صفاته .

والآيتان الأوليان هنا وهما من سورة « النساء » تنفيان أن يكون أحد أصدق حديثًا وقولًا من اللَّه عزَّ وجلَّ ، بل هو سبحانه أصدق من كل أحد فى كل ما يخبر به ، وذلك لأن علمه بالحقائق المخبر عنها أشمل وأضبط ، فهو يعلمها على ما هى به من كل وجه ، وعلم غيره ليس كذلك .

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾[1] [المائدة: ١١٦]، ....

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الآية الثالثة: قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦].

قوله: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾: مقول القول، وهى جملة من حروف: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾.

ففى هذا إثبات أن اللّٰه يقول: وأن قوله مسموع، فيكون بصوت، وأن قوله كلمات وجمل، فيكون بحرف. ولهذا كانت عقيدة أهل السنة والجماعة: أن اللّٰه يتكلم بكلام حقيقى متى شاء، كيف شاء، بما شاء، بحرفٍ وصوتٍ، لا يماثل أصوات المخلوقين.

«متى شاء»: باعتبار الزمن.

«بما شاء» باعتبار الكلام؛ يعنى: موضوع الكلام من أمرٍ أو نهيٍ أو غير ذلك.

«كيف شاء»: يعنى على الكيفية والصفة التى يريدها سبحانه وتعالى.

قلنا: إنه بحرفٍ وصوتٍ لا يشبه أصوات المخلوقين.

الدليل على هذا من الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾. هذا حروف.

وبصوت؛ لأن عيسى يسمع ما قال.

لا يماثل أصوات المخلوقين؛ لأن اللّٰه قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

❁ **قال الشيخ الفوزان:**

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾؛ أى: اذكر ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ جمهور المفسرين ذهب إلى أن هذا القول منه سبحانه يكون يوم القيامة، وهو توبيخ للذين عبدوا المسيح وأمه من النصارى، وهى كالآيتين السابقتين فيها إثبات القول للّٰه تعالى، وأنه يقول إذا شاء.

❁ **قال الشيخ هراس:**

وأما قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى﴾ إلخ: فهو حكاية لما سيكون يوم القيامة من سؤال اللّٰه لرسوله وكلمته عيسى عما نسبه إليه الذين ألَّهوه وأمه من النصارى من أنه هو الذى أمرهم بأن يتخذوه وأمه إلهين من دون اللّٰه. وهذا السؤال لإظهار براءة عيسى عليه السلام وتسجيل الكذب والبهتان على هؤلاء الضالين الأغبياء.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾(١) [الأنعام: ١١٥]، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾(٢) [النساء: ١٦٤]، ....

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

الآية الرابعة: قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿كَلِمَتُ﴾؛ بالإفراد، وفى قراءة (كلمات)؛ بالجمع، ومعناهما واحد؛ لأن ﴿كَلِمَتُ﴾ مفرد مضاف فيعم.

تمت كلمات اللّٰه عز وجل على هذين الوصفين: الصدق والعدل، والذى يوصف بالصدق الخبر، والذى يوصف بالعدل الحكم، ولهذا قال المفسرون: صدقًا فى الأخبار، وعدلًا فى الأحكام.

فكلمات اللّٰه عز وجل فى الأخبار صدق لا يعتريها الكذب بوجه من الوجوه، وفى الأحكام عدل لا جور فيها بوجه من الوجوه.

هنا وصفت الكلمات بالصدق والعدل. إذن فهى أقوال؛ لأن القول هو الذى يقال فيه: كاذب أو صادق.

* قال الشيخ الفوزان:

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾. المراد بالكلمة كلامه سبحانه.

وقوله: ﴿صِدْقًا﴾؛ أى: فى أخباره سبحانه.

﴿وَعَدْلًا﴾؛ أى: فى أحكامه و﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ منصوبان على التميز.

وفى الآية إثبات الكلام للّٰه تعالى.

* قال الشيخ هراس:

وأما قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، فالمراد: صدقًا فى إخباره وعدلًا فى أحكامه؛ لأن كلامه تعالى إما إخبار وهى كلها فى غاية الصدق، وإما أمر ونهى وكلها فى غاية العدل الذى لا جور فيه لابتنائها على الحكمة والرحمة، والمراد بالكلمة هنا: الكلمات؛ لأنها أضيفت إلى معرفة فتفيد معنى الجمع كما فى قولنا: رحمة اللّٰه، ونعمة اللّٰه.

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين:

الآية الخامسة: قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل؛ فالكلام واقع منه.

﴿مِنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾[1] [البقرة : ٢٥٣] ، ....

﴿تَكْلِيمًا﴾ : مصدر مؤكِّد ، والمصدر المؤكِّد - بكسر الكاف ؛ قال العلماء : إنه ينفي احتمال المجاز . فدل على أنه كلام حقيقي ؛ لأن المصدر المؤكد ينفي احتمال المجاز .

أرأيت لو قلت : جاء زيد . فيفهم أنه جاء هو نفسه ، ويحتمل أن يكون المعنى جاء خبر زيد ، وإن كان خلاف الظاهر ، لكن إذا أكدت فقلت : جاء زيد نفسه . أو : جاء زَيْدٌ زيدٌ . انتفى احتمال المجاز . فكلام اللَّه عز وجل لموسى كلام حقيقي بحرف ، وصوت سمعه ، ولهذا جرت بينهما محاورة ؛ كما في سورة « طه » وغيرها .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ . هذا تشريف لموسى عليه السلام بأن اللَّه كلمه ؛ أي : أسمعه كلامه ، ولهذا يقال له : الكليم .

و ﴿تَكْلِيمًا﴾ مصدر مؤكد لدفع كون التكليم مجازًا ، ففي الآية إثبات الكلام ، وأنه كلم موسى عليه السلام .

✽ قال الشيخ هراس :

وأما قوله : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ ، وما بعدها من الآيات التي تدل على أن اللَّه قد نادى موسى وكلمه تكليمًا ، وناجاه حقيقة من وراء حجاب وبلا واسطة ملك ، فهي ترد على الأشاعرة الذين يجعلون الكلام معنى قائمًا بالنفس بلا حرفٍ ولا صوت ، فيقال لهم : كيف سمع موسى هذا الكلام النفسي ؟ فإن قالوا : ألقى اللَّه في قلبه علمًا ضروريًا بالمعاني التي يريد أن يكلمه بها ؛ لم يكن هناك خصوصية لموسى في ذلك ، وإن قالوا : إن اللَّه خلق كلامًا في الشجرة أو في الهواء ونحو ذلك لزم أن تكون الشجرة هي التي قالت لموسى : ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية السادسة : قوله : ﴿مِنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

﴿مِنْهُم﴾ . أي : من الرسل .

﴿مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ : الاسم الكريم ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل كلّم ، ومفعولها محذوف يعود على ﴿مَّن﴾ ، والتقدير : كلمه اللَّه .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ ؛ أي : من الرسل عليهم الصلاة والسلام .

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾(١) [الأعراف: ١٤٣]، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾(٢) [مريم: ٥٢]، ....

﴿مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾؛ أى: أسمعه كلامه بلا واسطةٍ؛ يعنى: موسى ومحمدًا عليهما الصلاة والسلام، وكذا آدم، كما ورد به الحديث فى «صحيح ابن حبان»، ففى الآية إثبات الكلام لله تعالى، وأنه كلم بعض الرسل.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

الآية السابعة: قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

أفادت هذه الآية أن الكلام يتعلق بمشيئته، وذلك لأن الكلام صار حين المجىء، لا سابقًا عليه، فدل هذا على أن كلامه يتعلق بمشيئته.

فيبطل به قول من قال: إن كلامه هو المعنى القائم بالنفس، وإنه لا يتعلق بمشيئته؛ كما تقوله الأشاعرة.

وفى هذه الآية إبطال زَعْم من زعَم أن موسى فقط هو الذى كلم اللّه، وحرَّف قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾. إلى نصب الاسم الكريم؛ لأنه فى هذه الآية لا يمكنه زعم ذلك ولا تحريفها.

✵ قال الشيخ الفوزان:

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾؛ أى: حصل مجيئه فى الوقت الذى واعده اللّه فيه.

﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾؛ أى: أسمعه كلامه، من غير واسطةٍ، فالآيات فيها إثبات الكلام للّه، وأنه يتكلم متى شاء سبحانه، وأنه كلم موسى عليه السلام بلا واسطةٍ.

✵ قال الشيخ هراس:

وكذلك ترد عليهم هذه الآيات فى جعلهم الكلام معنى واحدًا فى الأزل لا يحدث منه فى ذاته شيء، فإن اللّه يقول: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾. فهى تفيد حدوث الكلام عند مجيء موسى للميقات.

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين:

الآية الثامنة: قوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾: ضمير الفاعل يعود إلى اللّه، وضمير المفعول يعود إلى موسى؛ أى: نادى اللّه موسى.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١) [الشعراء: ١٠]، ....

﴿نَجِيًّا﴾ : حال ، وهو فعيل بمعنى مفعول ؛ أى : مناجى .

والفرق بين المناداة والمناجاة: أن المناداة تكون للبعيد ، والمناجاة تكون للقريب وكلاهما كلام .

وكون الله عز وجل يتكلم مناداة ومناجاة داخل فى قول السلف : « كيف شاء » .

فهذه الآية مما يدل على أن الله يتكلم كيف شاء مناداة كان الكلام أو مناجاة .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله تعالى : ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ ؛ أى : نادى الله تعالى موسى عليه السلام ، والنداء هو الصوت المرتفع ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ الطور : جبل بين مصر ومدين .

﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ ؛ أى : الجانب الأيمن من موسى حين ذهب يبتغى من النار التى رآها جذوةً ، وليس المراد أيمن الجبل نفسه ؛ فإن الجبال لا يمين لها ، ولا شمال .

﴿ وَقَرَّبْنَاهُ ﴾ ؛ أى : أدنيناه حتى كلمناه .

﴿نَجِيًّا﴾ : أى : مناجيًا ، والمناجاة ضد المناداة .

وفى الآية الكريمة إثبات الكلام لله تعالى ، وأنه ينادى ويناجى ، وهما نوعان من الكلام ، فالمناداة بصوتٍ مرتفعٍ ، والمناجاة بصوتٍ غير مرتفعٍ .

✽ قال الشيخ هراس :

ويقول : ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ . فهذا يدل على حدوث النداء عند جانب الطور الأيمن ، والنداء لا يكون إلا صوتًا مسموعًا .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الآية التاسعة : قوله : ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠] .

﴿وَإِذْ نَادَىٰ﴾ . يعنى : واذكر إذ نادى .

والشاهد قوله : ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ : فسر النداء بقوله : ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

فالنداء يدل على أنه بصوتٍ ، و:﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ؛ يدل على أنه بحرف .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ ؛ أى : واتل ، أو : اذكر ذلك .

﴿ إِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى ﴾ النداء هو الدعاء .

﴿أَنِ ٱئْتِ﴾ : ﴿أَنِ﴾ يجوز أن تكون مفسرةً ، وأن تكون مصدريةً ؛ أى : اذهب إلى ﴿ٱلْقَوْمَ

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾[١] [الأعراف: ٢٢]، ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[٢] [القصص: ٦٥]، ....

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وصفهم بالظلم؛ لأنهم جمعوا بين الكفر الذى ظلموا به أنفسهم، وبين المعاصى التى ظلموا بها غيرهم، كاستبعادهم بنى إسرائيل، وذبح أبنائهم.

وفى الآية الكريمة: إثبات الكلام لله تعالى، وأنه ينادى من شاء من عباده، ويسمعه كلامه.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الآية العاشرة: قوله: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

﴿وَنَادَىٰهُمَا﴾: ضمير المفعول به يعود على آدم وحواء.

﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾: يقرر أنه نهاهما عن تلكما الشجرة، وهذا يدل على أن الله كلمهما من قبل، وأن كلام الله بصوت وحرف، ويدل على أنه يتعلق بمشيئته؛ لقوله: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا﴾؛ فإن هذا القول بعد النهى، فيكون متعلقًا بالمشيئة.

✵ **قال الشيخ الفوزان:**

وقوله: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾؛ أى: نادى الله تعالى آدم وحواء عليهما السلام قائلًا لهما: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾؛ أى: عن الأكل منها، وهذا عتاب من الله لهما، وتوبيخ، حيث لم يحذرا ما حذرهما منه.

وفى الآية الكريمة: إثبات الكلام لله تعالى، والنداء منه لآدم وزوجه.

✵ **قال الشيخ هراس:**

وكذلك قوله تعالى فى شأن آدم وحواء: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ الآية. فإن هذا النداء لم يكن إلا بعد الوقوع فى الخطيئة فهو حادث قطعًا.

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الآية الحادية عشرة: قوله: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

يعنى: واذكر يوم يناديهم، وذلك يوم القيامة، والمنادى هو الله عز وجل: ﴿فَيَقُولُ﴾.

وفى هذه الآية إثبات الكلام من وجهين: النداء والقول.

وهذه الآيات تدل بمجموعها على أن الله يتكلم بكلام حقيقى، متى شاء، بما شاء، كيف شاء، بحرف وصوت مسموع، لا يماثل أصوات المخلوقين.

وهذه هى العقيدة السّلفية، عقيدة أهل السنة والجماعة.

....

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ؛ أى : ينادى الله سبحانه هؤلاء المشركين يوم القيامة .

﴿فَيَقُولُ﴾ لهم : ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ؛ أى : ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين لما بلغوكم رسالاتى . والشاهد من الآية : إثبات الكلام لله ، وأنه ينادى يوم القيامة .

✽ قال الشيخ هراس :

وكذلك قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ إلخ . فإن هذا النداء والقول سيكون يوم القيامة ، وفى الحديث : « ما من عبد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه ترجمان » .

✽ قال الشيخ ابن عثيمين :

إثبات أن القرآن كلام الله تعالى :

ذكر المؤلف رحمه الله الآيات الدالة على أن القرآن كلام الله .

وهذه المسألة وقع فيها النزاع الكثير بين المعتزلة وأهل السنة ، وحصل بها شرٌّ كثير على أهل السنة ، وممن أوذى فى الله فى ذلك الأمام أحمد بن حنبل رحمه الله إمام أهل السنة ، الذى قال فيه بعض العلماء : « إن الله سبحانه وتعالى حفظ الإسلام - أو قال : نصره - بأبى بكر يوم الردة ، وبالإمام أحمد يوم المحنة » .

والمحنة : هو أن المأمون عفا الله عنا وعنه أجبر الناس على أن يقولوا بخلق القرآن ، حتى إنه صار يمتحن العلماء ويقتلهم إذا لم يجيبوا ، وأكثر العلماء رأوا أنهم فى فسحة من الأمر ، وصاروا يتأوّلون :

- إما بأن الحال حال إكراه ، والمكره إذا قال الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان ؛ فإنه معفو عنه .

- إما بتنزيل اللفظ على غير ظاهره ؛ يتأولون ، فيقولون مثلًا : القرآن والتوراة والإنجيل والزبور ؛ هذه مخلوقة . وهو يتأوّل أصابعه .

أما الإمام أحمد ومحمد بن نوح رحمهما الله ؛ فأبيا ذلك ، وقالا : القرآن كلام الله منزَّلٌ غير مخلوق . ورأيا أن الإكراه فى هذا المقام لا يسوغ لهما أن يقولا خلاف الحق ؛ لأن المقام مقام جهاد ، والإكراه يقتضى العفو إذا كانت المسألة شخصية ؛ بمعنى أن تكون على الشخص نفسه ، أما إذا كانت المسألة لحفظ شريعةِ الله ؛ فالواجب أن يتبرع الإنسان برقبته لحفظ شريعة الله عز وجل .

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾(١) [التوبة : ٦]،

لو قال الإمام أحمد فى ذلك الوقت : إن القرآن مخلوق ، ولو بتأويل أو لدفع الإكراه ؛ لقال الناس كلهم : القرآن مخلوق ! وحينئذ يتغير المجتمع الإسلامى من أجل دفع الإكراه ، لكنه صممٌ ، فصارت العاقبة له . ولله الحمد .

المهم أن القول فى القرآن جزء من القول فى كلام الله على العموم ، لكن لما وقعت فيه المحنة ، وصار محكُّ النزاع بين المعتزلة وأهل السنة ؛ صار الناس يفردون القول فى القرآن بكلام خاصٍّ ، والمؤلف رحمه الله من الآن ساق الآيات الدالة على أن القرآن كلام الله فى آيات متعددة .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية الأولى : قوله : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة : ٦] .

﴿أَحَدٌ﴾ : هذه اسم ، و« إن » : أداة الشرط ، والاسم إذا ولى أداة الشرط ؛ فقد ولى أداة لا يليها إلا الفعل ، فاختلف النحويون فى هذا :

فقال بعضهم : إنه فاعل لفعل محذوف يفسره ما بعده ، وعليه يكون ﴿أَحَدٌ﴾ فاعل لفعل محذوف ، والتقدير : وإن استجارك أحد من المشركين ؛ فأجره ، ومثلها : ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق : ١] ؛ فـ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ : فاعل لفعل محذوف ، والتقدير : إذا انشقت السماء انشقت .

القول الثانى : وهو قول الكوفيين وهم فى الغالب أسهل من البصريين : أن ﴿أَحَدٌ﴾ : فاعل مقدم ، والفعل ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ : مؤخر ، ولا حاجة للتقدير .

القول الثالث : أن ورود الأسماء بعد أدوات الشرط فى القرآن كثيرًا يدل على عدم امتناعه ، وعلى هذا القول يكون الاسم الواقع بعد أداة الشرط مبتدأ إذا كان مرفوعًا ، فيكون ﴿أَحَدٌ﴾ : مبتدأ ، و﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ : خبر المبتدأ .

والقاعدة عندى أن ما كان أسهل من أقوال النحويين ؛ فهو المتبع ، حيث لا مانع شرعًا من ذلك .

قوله : ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ ؛ أى : طلب جوارك ، والجوار : بمعنى العصمة والحماية .

﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ﴾ : ﴿حَتَّىٰ﴾ : للغاية ؛ والمعنى : إن أحد استجارك ليسمع كلام الله ؛ فأجره حتى يسمع كلام الله ؛ أى : القرآن ، وهذا بالاتفاق .

وإنما قال : ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ ؛ لأن سماع كلام الله عز وجل مؤثر ولا بد كما

....

قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق : ٣٧] ، وكم من إنسان سمع كلام الله فآمن ، لكن بشرط أن يفهمه تمامًا .

وقوله : ﴿كَلَامَ اللَّهِ﴾ : أضاف الكلام إلى نفسه ، فقال : ﴿كَلَامَ اللَّهِ﴾ ، فدل هذا على أن القرآن كلام الله ، وهو كذلك .

وعقيدة أهل السنة والجماعة فى القرآن ؛ يقولون : إن القرآن كلام الله ، منزَّل ، غير مخلوق ، منه بدأ ، وإليه يعود ..

– قولهم : « كلام الله » : دليله : قوله تعالى هنا : ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة : ٦] وبما يأتى من الآيات .

– وقولهم : « منزل » : دليله : قوله تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، وقوله : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر : ١] ، وقوله : ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء : ١٠٦] .

– وقولهم : « غير مخلوق » : دليله : قوله تعالى : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف : ٥٤] ؛ فجعل الخلق شيئًا والأمر شيئًا آخر ؛ لأن العطف يقتضى المغايرة ، والقرآن من الأمر ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى : ٥٢] ؛ فإذا كان القرآن أمرًا ، وهو قسيم للخلق ؛ صار غير مخلوق ؛ لأنه لو كان مخلوقًا ؛ ما صح التقسيم ، وهذا دليل سمعى .

أما الدليل العقلى ؛ فنقول : القرآن كلام الله ، والكلام ليس عينًا قائمة بنفسها حتى يكون بائنًا من الله ، ولو كان عينًا قائمة بنفسها بائنة من الله ؛ لقلنا : إنه مخلوق ، لكن الكلام صفة للمتكلم به ، فإذا كان صفة للمتكلم به ، وكان من الله ؛ كان غير مخلوق ؛ لأن صفات الله عز وجل كلها غير مخلوقة .

وأيضًا ؛ لو كان مخلوقًا ؛ لبطل مدلول الأمر والنهى والخبر والاستخبار ؛ لأن هذه الصيغ لو كانت مخلوقة ؛ لكانت مجرد أشكال خلقت على هذه الصورة لا دلالة لها على معناها ؛ كما يكون شكل النجوم والشمس والقمر ونحوها .

– وقولهم « منه بدأ » . أى : هو الذى ابتدأ به ، وتكلم به أولًا .

والقرآن أضيف إلى الله وإلى جبريل وإلى محمد ﷺ .

....

مثال الأول : قول الله عز وجل : ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة : ٦] ، فيكون منه بدأ ؛ أى : من الله جل جلاله ، ومنه : حرف جر وضمير قدّم على عامله لفائدة الحصر والاختصاص .

ومثال الثانى – إضافته إلى جبريل – قوله تعالى : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير : ١٩، ٢٠] .

ومثال الثالث – إضافته إلى محمد عليه الصلاة والسلام : قوله : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة : ٤٠، ٤١] ، لكن أضيف إليهما لأنهما يبلغانه ، لا لأنهما ابتدآه .

– وقولهم : « وإليه يعود » : فى معناه وجهان :

الأول : أنه كما جاء فى بعض الآثار : يسرى عليه فى ليلة ، فيصبح الناس ليس بين أيديهم قرآن ؛ لا فى صدورهم ، ولا فى مصاحفهم ، يرفعه الله عز وجل[1] .

وهذا – والله أعلم – حينما يعرض عنه الناس إعراضًا كليًا ؛ لا يتلونه لفظًا ولا عقيدة ولا عملًا ؛ فإنه يرفع ؛ لأن القرآن أشرف من أن يبقى بين يدى أناس هجروه وأعرضوا عنه فلا يقدرونه قدره ، وهذا – والله أعلم – نظير هدم الكعبة فى آخر الزمان ؛ حيث يأتى رجل من الحبشة قصير أفحج أسود ، يأتى بجنوده من البحر إلى المسجد الحرام ، وينقض الكعبة حجرًا حجرًا ، كلما نقض حجرًا ؛ مده للذى يليه . . . . وهكذا يتمادون الأحجار إلى أن يرموها فى البحر ، والله عز وجل يمكنهم من ذلك ، مع أن أبرهة جاء بخيله ورجله وفيله فقصمه الله قبل أن يصل إلى المسجد ؛ لأن الله علم أنه سيبعث هذا النبى ، وتعاد إلى المسجد هيبته وعظمته ، ولكن فى آخر الزمان لن يبعث نبى بعد محمد عليه الصلاة والسلام ، وإذا أعرض الناس عن تعظيم هذا البيت نهائيًا ؛ فإنه يسلط عليه هذا الرجل من الحبشة ؛ فهذا نظير رفع القرآن . والله أعلم .

الوجه الثانى : فى معنى قولهم : « وإليه يعود » : أنه يعود إلى الله وصفًا ؛ أى أنه لا يوصف به أحد سوى الله فيكون المتكلم بالقرآن هو الله عز وجل ، وهو الموصوف به .

ولا مانع من أن نقول : إن المعنيين كلاهما صحيح .

هذا كلام أهل السنة والجماعة فى القرآن الكريم .

---

(1) أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٩) ، وصححه الألبانى فى « الصحيحة » .

....

ويرى المعتزلة أن القرآن مخلوق ، وليس كلام الله ! .

ويستدلون لذلك بقول الله تعالى : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر : ٦٢] ، والقرآن شيء ، فيدخل في عموم قوله : ﴿كُلِّ شَيْءٍۖ﴾ ، ولأنه ما ثَمَّ إلا خالق ومخلوق ، والله خالق ، وما سواه مخلوق .

والجواب من وجهين :

الأول : أن القرآن كلام الله تعالى ، وهو صفة من صفات الله ، وصفات الخالق غير مخلوقة .

الثاني : أن مثل هذا التعبير ﴿كُلِّ شَيْءٍۖ﴾ عام قد يراد به الخاص ؛ مثل قوله تعالى عن ملكة سبأ : ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل : ٢٣] ، وقد خرج شيء كثير لم يدخل في ملكها منه شيء ؛ مثل ملك سليمان .

فإن قال قائل : هل هناك فرق كبير بين قولنا : إنه منزل ، وقولنا : إنه مخلوق ؟ .

فالجواب : نعم ؛ بينهما فرق كبير ، جرت بسببه المحنة الكبرى في عصر الإمام أحمد .

فإذا قلنا : إنه مُنَزَّل . فهذا ما جاء به القرآن ؛ قال الله تعالى : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان : ١] .

وإذا قلنا : إنه مخلوق . لزم من ذلك :

أولًا : تكذيب للقرآن ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ [الشورى : ٥٢] ، فجعله الله تعالى موحًى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولو كان مخلوقًا ؛ ما صح أن يكون موحًى ؛ فإذا كان وحيًا ؛ لزم ألا يكون مخلوقًا ؛ لأن الله هو الذي تكلم به .

ثانيًا : إذا قلنا : إنه مخلوق ؛ فإنه يلزم على ذلك إبطال مدلول الأمر والنهي والخبر والاستخبار ؛ لأن هذه الصيغ لو كانت مخلوقة ؛ لكانت مجرد شكل خلق على هذه الصورة ؛ كما خلقت الشمس على صورتها ، والقمر على صورته ، والنجم على صورته ... وهكذا ، ولم تكن أمرًا ولا نهيًا ولا خبرًا ولا استخبارًا ؛ فمثلًا : كلمة (قل) (لا تقل) (قال فلان) (هل قال فلان) كلها نقوش على هذه الصورة ، فتبطل دلالتها على الأمر والنهي والخبر والاستخبار ، وتبقى كأنها صور ونقوش لا تفيد شيئًا .

ولهذا قال ابن القيم في « النونية » : « إن هذا القول يبطل به الأمر والنهي ؛ لأن الأمر كأنه

....

شيء خلق على هذه الصورة دون أن يعتبر مدلوله ، والنهى خلق على هذه الصورة دون أن يقصد مدلوله ، وكذلك الخبر والاستخبار » .

ثالثا : إذ قلنا : إن القرآن مخلوق ، وقد أضافه إلى نفسه إضافة خلق ؛ صح أن نطلق على كل كلام من البشر وغيرهم أنه كلام الله ؛ لأن كل كلام الخلق مخلوق ، وبهذا التزم أهل الحلول والاتحاد ؛ حيث يقول قائلهم :

وَكُلُّ كَلامٍ فِى الوُجودِ كَلامُه سَـوَاءٌ عَـلَـيْنَا نَـثْـرُهُ وَنِـظَـامُـهُ

وهذا اللازم باطل ، وإذا بطل اللازم بطل الملزوم .

فهذه ثلاثة أوجه تبطل القول بأنه مخلوق .

والوجه الرابع : أن نقول : إذا جوَّزتم أن يكون الكلام - وهو معنى لا يقوم إلا بمتكلم - مخلوقًا ؛ لزمكم أن تجوِّزوا أن تكون جميع صفات الله مخلوقة ؛ إذ لا فرق ؛ فقولوا إذن : سمعه مخلوق ، وبصره مخلوق . . . وهكذا .

فإن أبيتم إلا أن تقولوا : إن السمع معنًى قائم بالسامع لا يسمع منه ولا يرى ، بخلاف الكلام ؛ فإنه جائز أن الله يخلق أصواتًا فى الهواء فتسمع ! ! .

قلنا لكم : لو خلق أصواتًا فى الهواء ، فسمعت ؛ لكان المسموع وصفًا للهواء ، وهذا أنتم بأنفسكم لا تقولوه ؛ فكيف تعيدون الصفة إلى غير موصوفها ؟ ! .

هذه وجوه أربعة كلها تدل على أن القول بخلق القرآن باطلٌ ، ولو لم يكن منه إلا إبطال الأمر والنهى والخبر والاستخبار ؛ لكان ذلك كافيًا .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ . الذين أمرت بقتالهم .

﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ يا محمد ؛ أى : طلب جوارك وحمايتك وأمانك .

﴿فَأَجِرْهُ﴾ ؛ أى : كن له جارًا ومؤمنًا .

﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ منك ، ويتدبره ، ويقف على حقيقة ما تدعو إليه .

والشاهد من الآية : أن فيها إثبات الكلام لله تعالى ، وأن الذى يُتلى هو كلام الله .

✽ قال الشيخ هراس :

قوله : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ إلخ : هذه الآيات الكريمة تفيد أن القرآن المتلو المسموع

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(1) [البقرة : ٧٥] ، ....

المكتوب بين دفتي المصحف هو كلام اللَّه على الحقيقة وليس فقط عبارة أو حكاية عن كلام اللَّه كما يقوله الأشعرية ، وإضافته إلى اللَّه عزَّ وجلَّ تدل على أنه صفة له قائمة به وليست كإضافة البيت أو الناقة ؛ فإنها إضافة معنى إلى الذات تدل على ثبوت المعنى لتلك الذات بخلاف إضافة البيت أو الناقة فإنها إضافة أعيان ، وهذا يرد على المعتزلة في قولهم : إنه مخلوق منفصل عن اللَّه .
ودلت هذه الآيات أيضًا على أن القرآن منزَّل من عند اللَّه بمعنى أن اللَّه تكلم به بصوت سمعه جبريل عليه السلام ، فنزل به وأدَّاه إلى رسول اللَّه ﷺ كما سمعه من الرب جل شأنه .

وخلاصة القول فى ذلك : أن القرآن العربى كلام اللَّه منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، واللَّه تكلم به على الحقيقة ، فهو كلامه حقيقة لا كلام غيره ، وإذا قرأ الناس القرآن أو كتبوه فى المصاحف لم يخرج ذلك عن أن يكون كلام اللَّه ، فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئًا لا إلى من بلغه مؤديًا ، واللَّه تكلم بحروفه ومعانيه بلفظ نفسه ليس شيء منه كلامًا لغيره لا لجبريل ولا لمحمد ولا لغيرهما ، واللَّه تكلم به أيضًا بصوت نفسه ، فإذا قرأه العباد قرءوه بصوت أنفسهم ، فإذا قال القارئ مثلًا : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ . كان هذا الكلام المسموع منه كلام اللَّه لا كلام نفسه ، وكان هو قرأه بصوت نفسه لا بصوتِ اللَّه ، وكما أن القرآن كلام ، فكذلك هو كتابه ؛ لأنه كتبه فى اللوح المحفوظ ولأنه مكتوب فى المصاحف ، قال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة : ٧٨، ٧٩] ، وقال : ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج : ٢١، ٢٢] ، وقال : ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس : ١٣ - ١٦] .

والقرآن فى الأصل مصدر كالقراءة ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ .

ويراد به هنا أن يكون علمًا على هذا المنزل من عند اللَّه المكتوب بين دفتى المصحف المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الآية الثانية : قوله : ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ (١) [الفتح: ١٥]، ....

عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

هذا في سياق قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾؛ يعني: لا تطمعوا أن يؤمنوا لكم؛ أي: اليهود.

﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾: طائفة منهم، وهم علماؤهم.

﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾: يحتمل أن يراد به القرآن، وهو ظاهر صنيع المؤلف، فيكون دليلًا على أن القرآن كلام الله. ويحتمل أن يراد به كلام الله تعالى لموسى حين اختار موسى سبعين رجلًا لميقات الله تعالى، فكلمه الله وهم يسمعون، فحرفوا كلام الله تعالى من بعد ما عقلوه وهم يعلمون. ولم أر الاحتمال الأول لأحدٍ من المفسِّرين.

أيًّا كان؛ ففيه إثبات أن كلام الله بصوت مسموع، والكلام صفة المتكلم، وليس شيئًا بائنًا منه؛ فوجب أن يكون القرآن كلام الله لا كلام غيره.

﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: ﴿يُحَرِّفُونَهُ﴾ أي: يغيرون معناه.

وقوله: ﴿مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: هذا أشد في قبح عملهم وجرأتهم على الله سبحانه وتعالى: أن يحرفوا الشيء من بعد ما عقلوه ووصل إلى عقولهم وهم يعلمون أنهم محرِّفون له؛ لأن الذي يحرف المعنى عن جهل أهون من الذي يحرفه بعد العقل والعلم.

✽ قال الشيخ الفوزان:

وقوله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: اليهود، والفريق اسم جمعٍ، لا واحد له من لفظه.

﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾؛ أي: التوراة.

﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾؛ أي: يتأولونه على غير تأويله.

﴿مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾؛ أي: فهموه، ومع هذا يخالفونه على بصيرةٍ.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله.

والشاهد من الآية الكريمة: أن فيها إثبات الكلام لله تعالى، وأن التوراة من كلامه تعالى، وأن اليهود حرفوها، وغيروا فيها، وبدلوا.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الآية الثالثة: قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾(١) [الكهف: ٢٧]، ....

قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥].

في هذه الآية إثبات أن القرآن كلام الله؛ لقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾.

والضمير يعود على الأعراب الذين قال الله فيهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ [الفتح: ١٥]؛ فهؤلاء أرادوا أن يبدلوا كلام الله، فيخرجوا مع الرسول عليه الصلاة والسلام، ولكن الله تعالى إنما كتب المغانم لقوم معينين، للذين غزوا في الحديبية، وأما من تبعوه لأخذ الغنائم فقط؛ فلا حق لهم فيها.

وفي الآية أيضًا إثبات القول لله تعالى؛ لقوله: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾.

✽ **قال الشيخ الفوزان:**

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾

﴿يُرِيدُونَ﴾؛ أي: المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ حين خرج عام الحديبية[1].

﴿أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يغيروا كلام الله الذي وعد الله به أهل الحديبية خاصةً بغنيمة خيبر.

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ هذا نفي في معنى النهي؛ أي: لا تتبعونا.

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: وعد الله أهل الحديبية أن غنيمة خيبر لهم خاصةً.

والشاهد من الآية الكريمة: أن فيها إثبات الكلام لله، وإثبات القول له، وأن الله سبحانه يتكلم ويقول متى شاء، إذا شاء، وأنه لا يجوز تبديل كلامه سبحانه، بل يجب العمل به، واتباعه.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الآية الرابعة: قوله: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف: ٢٧].

(1) «السيرة» لابن هشام (٢/١٩٩).

....

قوله : ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ ؛ يعنى : القرآن ، والوحى لا يكون إلا قولًا ؛ فهو إذن غير مخلوق .

وقوله : ﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ : أضافه إليه سبحانه وتعالى ؛ لأنه هو الذى تكلم به ، أنزله على محمد ﷺ بواسطة جبريل الأمين .

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ؛ يعنى : لا أحد يبدل كلمات الله ، أما الله عز وجل ؛ فيبدل آية مكان آية ؛ كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١] .

وقوله : ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ : يشمل الكلمات الكونية والشرعية :

- أما الكونية : فلا يستثنى منها شيء ، لا يمكن لأحدٍ أن يبدل كلمات الله الكونية :

إذا قضى الله على شخصٍ بالموت ؛ ما استطاع أحد أن يبدل ذلك .

إذا قضى الله تعالى بالفقر ؛ ما استطاع أحد أن يبدل ذلك .

إذا قضى الله تعالى بالجدب ؛ ما استطاع أحد أن يبدل ذلك .

وكل هذه الأمور التى تحدث فى الكون ؛ فإنها بقوله ؛ لقوله تعالى : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] .

- أما الكلمات الشرعية ؛ فإنها قد تبدل من قبل أهل الكفر والنفاق ، فيبدلون الكلمات : إما بالمعنى ، وإما باللفظ إن استطاعوا ، أو بهما .

وفى قوله : ﴿لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ دليل على أن القرآن كلام الله تعالى .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ . أمر الله نبيه أن يواظب على تلاوة الكتاب الموحى إليه ، والوحى هو الإعلام بسرعةٍ وخفاءٍ ، وله كيفيات مذكورة فى كتب أصول التفسير .

﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ بيان للذى أوحى إليه .

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أى : لا مغير لها ، ولا محرف ، ولا مزيل .

والشاهد من الآية : إثبات الكلمات لله تعالى .

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(١) [النمل: ٧٦] .

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية الخامسة : قوله : ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦] .

الشاهد قوله : ﴿يَقُصُّ﴾ ، والقصص لا يكون إلا قولًا ؛ فإذا كان القرآن هو الذى يَقُص ؛ فهو كلام الله ؛ لأن الله تعالى هو الذى قص هذه القصص ؛ قال الله سبحانه وتعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف : ٣] ، وحينئذ يكون القرآن كلام الله عز وجل .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

قوله : ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ . وهم حملة التوراة والإنجيل .

﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كاختلافهم فى عيسى ، فاليهود افتروا فى حقه ، والنصارى غلوا فيه ، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق أنه عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه .

والشاهد من الآية الكريمة : أن فيها إثبات أن القرآن كلام الله تعالى لما تضمنه من الإحاطة بالكتب السابقة ، والحكم فى الخلاف بين طوائف أهل الكتاب بالقسط ، وهذا لا يكون إلا من عند الله .

ويستفاد من مجموع الآيات التى ساقها المؤلف : إثبات الكلام لله ، ومذهب أهل السنة والجماعة إثبات ما دل عليه الكتاب والسنة من أن الله موصوف بالكلام ، وكلامه سبحانه من صفاته الذاتية ؛ لقيامه به واتصافه به .

ومن صفاته الفعلية الواقعة بمشيئته وقدرته ، فيتكلم إذا شاء ، كيف شاء ، بما يشاء ، ولم يزل متكلمًا ، ولا يزال متكلمًا ؛ لأنه لم يزل ولا يزال كاملًا ، والكلام من صفات الكمال .

ولأن الله وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله ، وسيأتى ذكر مذهب المخالفين فى هذه المسألة مع الرد عليهم ، إن شاء الله .

لما أورد المؤلف رحمه الله الآيات الدالة على إثبات الكلام لله تعالى ، وأن القرآن العظيم من كلامه سبحانه شرع فى سياق الآيات الدالة على أن القرآن منزل من عند الله .

٢٢- إثباتُ تنزيلِ القرآنِ مِن اللَّهِ تعالى :

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾(١) [الأنعام: ١٥٥]، ....

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

إثبات أن القرآن منزل من اللَّه تعالى :

ذكر المؤلف رحمه اللَّه الآيات التى فيها أن القرآن منزل من اللَّه تعالى :

الآية الأولى : قوله : ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ : المشار إليه القرآن .

﴿كِتَٰبٌ﴾ ؛ أى : مكتوب ؛ لأنه مكتوب فى اللوح المحفوظ ، ومكتوب فى الصحف التى بأيدى السفرة ، ومكتوب فى المصاحف التى بأيدينا .

وقوله : ﴿مُبَارَكٌ﴾ ؛ أى : ذو بركة .

فهو مبارك ؛ لأنه شفاء لما فى الصدور ، إذا قرأه الإنسان بتدبر وتفكر ؛ فإنه يشفى القلب من المرض ، وقد قال اللَّه تعالى : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

مبارك فى اتباعه ؛ إذ به صلاحُ الأعمال الظاهرة والباطنة .

مبارك فى آثاره العظيمة ؛ فقد جاهد المسلمون به بلاد الكفر ؛ لأن اللَّه يقول : ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، والمسلمون فتحوا مشارق الأرض ومغاربها بهذا القرآن حتى ملكوها ، ولو رجعنا إليه ؛ لملكنا مشارق الأرض ومغاربها ؛ كما ملكها أسلافنا ، ونسأل اللَّه ذلك .

مباركٌ فى أن من قرأة ؛ فله بكل حرف عشر حسنات ؛ فكلمة (قال) مثلًا فيها ثلاثون حسنة ، وهذا من بركة القرآن ؛ فنحن نحصل خيرات كثيرة لا تحصى بقراءة آيات وجيزة من كلام اللَّه عز وجل .

والحاصل : أن القرآن كتاب مباركٌ ؛ فكل أنواع البركة حاصلة بهذا القرآن العظيم .

والشاهد فى قوله : ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ .

وثبوت نزوله من اللَّه دليل على أنه كلامه .

* **قال الشيخ الفوزان:**

فقوله تعالى : ﴿وَهَٰذَا﴾ . الإشارة إلى القرآن الكريم ، واسم الإشارة مبتدأ ، خبره ﴿كِتَٰبٌ﴾ ، و ﴿أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ صفتان لـ « كتاب » ، وقدم صفة الإنزال ؛ لأن الكفار ينكرونها .

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾(1) [الحشر: ٢١] ، ....

والمبارك كثير البركة ؛ لما هو مشتمل عليه من المنافع الدينية والدنيوية .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية الثانية : قوله : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] .

الجبل من أقسى ما يكون ، والحجارة التى منها تتكون الجبال هى مضرب المثل فى القساوة ؛ قال اللّٰه تعالى : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] ، ولو نُزِّلَ هذا القرآن على جبل ؛ لرأيت هذا الجبل خاشعًا متصدعًا من خشية اللّٰه .

﴿خَٰشِعًا﴾ . أى : ذليلًا .

ومن شدة خشيته للّٰه يكون ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾ يتفلّق ويتفتّق .

وهو ينزل على قلوبنا ، وقلوبنا - إلا أن يشاء اللّٰه - تضمر وتقسو لا تتفتح ولا تتقبل .

فالذين آمنوا إذا نزلت عليهم الآيات ؛ زادتهم إيمانًا ، والذين فى قلوبهم مرض ؛ تزيدهم رجسًا إلى رجسهم ؛ والعياذ باللّٰه ! .

ومعنى ذلك : أن قلوبهم تتصلب وتقسو أكثر وتزداد رجسًا إلى رجسها ، نعوذ باللّٰه من ذلك ! .

وهذا القرآن لو أنزل على جبل ؛ لتصدع الجبل وخشع ؛ لعظمة ما أنزل عليه من كلام اللّٰه .

وفى هذا دليل على أن للجبل إحساسًا ؛ لأنه يخشع ويتصدع ، والأمر كذلك ، قال النبى ﷺ فى أحد : « هذا أحد جبل يحبنا ونحبه »(1) .

وبهذا الحديث نعرف الرد على المثبتين للمجاز فى القرآن ، والذين يرفعون دائمًا عَلَمَهُم مستدلين بهذه الآية : ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] ؛ يقول كيف يريد الجدار ؟ ! .

فنقول : يا سبحان اللّٰه ! العليم الخبير يقول : ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ ، وأنت تقول : لا يريد ! أهذا معقول ؟

---

(1) أخرجه البخارى (١٤٨٢) ، ومسلم (١٣٩٢) .

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾(1) [النحل: ١٠١- ١٠٣].

فليس من حقِّك بعد هذا أن تقول: كيف يريد؟!.

وهذا يجعلنا نسأل أنفسنا: هل نحن أوتينا علم كل شيء؟

فنجيب بالقول بأننا ما أوتينا من العلم إلا قليلًا.

فقول من يعلم الغيب والشهادة: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾: لا يسوغ لنا أن نعترض عليه، فنقول: لا إرادة للجدار! ولا يريد أن ينقض!.

وهذا من مفاسد المجاز؛ لأنه يلزم منه نفي ما أثبته القرآن.

أليس الله تعالى يقول: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]؛ هل تسبح بلا إرادة؟!.

يقول: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ﴾: اللام للتخصيص؛ إذن؛ هي مخلصة، وهل يتصور إخلاص بلا إرادة؟! إذن؛ هي تريد، وكل شيء يريد؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ﴾، وأظنه لا يخفى علينا جميعًا أن هذا من صيغ العموم؛ فـ: (إن): نافية بمعنى (ما)، و﴿مِّن شَىْءٍ﴾: نكرة فى سياق النفى، ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾. فيعم كل شيء.

فيا أخى المسلم؛ إذا رأيت قلبك لا يتأثر بالقرآن؛ فاتهم نفسك؛ لأن الله أخبر أن هذا القرآن لو نزل على جبل لتصدع، وقلبك يتلى عليه القرآن، ولا يتأثر. أسأل الله أن يعيننى وإياكم.

✽ قال الشيخ الفوزان:

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.
هذا إخبار عن عظمة القرآن، وأنه حقيق بأن تخشع له القلوب؛ فإنه لو أنزل على جبل - مع كونه فى غاية القسوة وشدة الصلابة - لو فهم هذا القرآن لخشع وتصدع من خوف الله، حذرًا من عقابه، فكيف يليق بكم أيها البشر ألَّا تلين قلوبكم، وتخشع، وقد فهمتم عن الله، وتدبرتم كتابه!!

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الآية الثالثة والرابعة والخامسة: قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ

....

بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠١- ١٠٣].

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾: قوله: ﴿بَدَّلْنَا﴾؛ أي: جعلنا آية مكان آية، وهذا إشارة إلى النسخ المذكور في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، فالله سبحانه إذا نسخ آية؛ جعل بدلها آية، سواء نسخها لفظًا، أو نسخها حكمًا.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾: هذه جملة اعتراضية، وهي من أحسن ما يكون في هذا الموضع، والمعنى أن تبديلنا للآية بدل الآية ليس سفهًا وعبثًا، بل هو صادر عن علم بما يصلح الخلق، فنبدل آية مكان آية؛ لعلمنا أن ذلك أصلح للخلق وأنفع لهم.

وفيها أيضًا فائدة أخرى، وهي أن هذا التبديل ليس من عمل الرسول عليه الصلاة والسلام، بل هو من الله، أنزله بعلمه، وأبدل آية مكان آية بعلمه، وليس منك أيها الرسول.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥]. فماذا كان الجواب؟ كان الجواب بأن أجاب عن شيء من كلامهم وترك شيئًا فقال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ [يونس: ١٥]، ولم يقل: ولا آتي بقرآن غيره. لماذا؟ لأنه قد يأتي بتبديل من عنده، وإذا كان لا يمكنه تبديله؛ فالإتيان بغيره أولى بالامتناع.

فالمهم: أن الذي يبدل آية مكان آية، سواء لفظها أو حكمها، هو الله سبحانه.

قوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾: الجملة جواب ﴿وَإِذَا﴾.

❁ قال الشيخ الفوزان:

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾. هذا شروع منه سبحانه في ذكر شبهةٍ كفريةٍ حول القرآن الكريم مع الرد عليها.

وقوله: ﴿بَدَّلْنَا﴾. معنى التبديل: رفع الشيء، مع وضع غيره مكانه، وتبديل الآية رفعها بأخرى غيرها، وهو نسخها بآيةٍ سواها.

﴿قَالُوا﴾؛ أي: كفار قريشٍ، الجاهلون للحكمة في النسخ.

....

﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا محمد .

✽ **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قوله : ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ : الخطاب هنا لمحمد ﷺ .

قوله : ﴿مُفۡتَرِۢ﴾ ؛ أى : كذاب ، بالأمس تقول لنا كذا ، واليوم تقول لنا كذا ، هذا كذب ، إنما أنت مفتر ! ! .

لكن هذا القول الذى يقولونه إزاء إتيانه بآية مكان آية هو قول سفه ، ولو أمعنوا النظر ؛ لعلموا علم اليقين أن الذى يأتى بآية مكان آية هو الله سبحانه ، وذلك يدل على صدقه ﷺ ؛ لأن الكذاب يحذر غاية الحذر أن يأتى بكلام غير كلامه الأول ؛ لأنه يخشى أن يطلع على كذبه ، فلو كان كاذبًا كما يدعون أن ذلك من علامة الكذب ؛ ما أتى بشىء يخالف الأول ؛ لأنه إذا أتى بشىء يخالف الأول – على زعمهم – تبين كذبه بل إتيانه بما يخالف الأول دليل على صدقه بلا شك .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

﴿مُفۡتَرِۢ﴾ ، أى : كاذب مختلق متقول على الله ، حيث تزعم أنه أمرك بشىء ؛ ثم تزعم أنه أمرك بخلافه .

✽ **قال الشيخ ابن عثيمين :**

ولهذا قال هنا : ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ، وهذا إضراب إبطالى ؛ معناه : بل لست مفتريًا ، ولكن أكثرهم لا يعلمون ، ولو أنهم كانوا من ذوى العلم لعلموا أنه إذا بدلت آية مكان آية فإنما ذلك دليل على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام .

قوله تعالى : ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ . ﴿رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ : هو جبريل ، ووصفه بذلك لطهارته من الخيانة عليه الصلاة والسلام ، ولهذا قال فى آية أخرى : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ [التكوير : ١٩- ٢١] .

قوله : ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ : قال : ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ . ولم يقل : من رب العالمين . إشارة إلى الربوبية الخاصة ؛ ربوبية الله للنبى عليه الصلاة والسلام ، وهى ربوبية أخص الخاصة .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

فرد الله عليهم بما يفيد جهلهم ، فقال : ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ شيئًا من العلم أصلًا ،

....

أو لا يعلمون الحكمة فى النسخ ؛ فإنه مبنىٌّ على المصالح التى يعلمها اللّٰه سبحانه .

فقد يكون فى شرع هذا الشىء مصلحة مؤقتة بوقتٍ ، ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت فى شرع غيره ، ولو انكشف الغطاء لهؤلاء الكفرة لعلموا أن ذلك وجه الصواب ، ومنهج العدل ، والرفق ، واللطف .

ثم رد عليهم فى زعمهم أن هذا التبديل من عند محمدٍ ، وأنه بذلك مفترٍ على اللّٰه ، فقال سبحانه : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ﴾ ؛ أى : القرآن ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ ؛ أى : جبريل ، والقدس الطهر .

والمعنى : نزله الروح المطهر ، فهو من إضافة الموصوف إلى صفته .

✽ قال الشيخ هراس :

وقوله : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ . يدل على أن ابتداء نزوله من عند اللّٰه عزَّ وجلَّ ، وأن روح القدوس جبريل عليه السلام تلقاه عن اللّٰه سبحانه بالكيفية التى يعلمها .

✽ قال الشيخ الفوزان :

﴿مِن رَّبِّكَ﴾ ؛ أى : ابتداء تنزيله من عند اللّٰه سبحانه .

✽ قال الشيخ ابن عثيمين :

وقوله : ﴿بِالْحَقِّ﴾ : إما أن يكون وصفًا للنازل أو للمنزول به .

فإن كان وصفًا للنازل ؛ فمعناه : أن نزوله حق ، وليس بكذب .

وإن كان وصفًا للمنزول به ؛ فمعناه : أن ما جاء به فهو حق .

وكلاهما مراد ؛ فهو حق من عند اللّٰه ، ونازل بالحق .

قال اللّٰه تعالى : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] .

فالقرآن حق ، وما نزل به حق .

✽ قال الشيخ الفوزان :

﴿بِالْحَقِّ﴾ فى محل نصبٍ على الحال ؛ أى : متصفًا بكونه حقًّا .

✽ قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ : هذا تعليل وثمرة عظيمة ، يثبت الذين آمنوا به ، ويمكنهم من الحق ، ويقويهم عليه .

....

✽ قال الشيخ الفوزان :

﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ على الإيمان ، فيقولون : كلٌّ من الناسخ والمنسوخ من عند ربنا ، ولأنهم إذا عرفوا ما فى النسخ من المصالح ثبتوا على الإيمان .

✽ قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ؛ أى : هدى يهتدون به ، ومنارًا يستنيرون به ، وبشارة لهم يستبشرون به .

بشارة ؛ لأن من عمل به ، واستسلم له كان ذلك دليلًا على أنه من أهل السعادة ، قال الله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل : ٥- ٧] .

ولهذا ينبغى للإنسان أن يفرح إذا رأى من نفسه الخير والثبات عليه والإقبال عليه ، يفرح ؛ لأن هذه بشارة له ؛ فإن الرسول ﷺ لما حدَّث أصحابه ؛ قال « ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعده من الجنة ومقعده من النار » . قالوا أفلا ندع العمل ونتكل؟ قال : « لا ؛ اعملوا ؛ فكل ميسَّرٌ لما خلق له » . ثم قرأ : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾[1] [الليل : ٥- ١٠] .

فإذا رأيت من نفسك أن الله عز وجل قد من عليك بالهداية ، والتوفيق والعمل الصالح ومحبة الخير وأهل الخير ؛ فأبشر ؛ فإن فى هذا دليلًا على أنك من أهل اليسرى ، الذين كتبت لهم السعادة .

ولهذا قال هنا : ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ .

قوله : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ . قال : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ ، ولم يقل : لقد علمنا ؛ لأن قولهم هذا يتجدد ، فكان التعبير بالمضارع أولى من التعبير بالماضى ؛ لأنه لو قال : لقد علمنا ؛ لتبادر إلى ذهن بعض الناس أن المعنى : علمنا أنهم قالوا ذلك سابقًا ، لا أنهم يستمرون عليه .

وسبب نزول هذه الآية . أن قريشًا قالت : إن هذا القرآن الذى يأتى به محمد ليس من عند ربِّه ، وإنما هو من شخصٍ يُعلمه ويقص عليه من قصص الأولين ، ويأتى ليقول لنا : هذا من

---

(1) أخرجه البخارى (٤٩٤٩) ، ومسلم (٢٦٤٧) .

....

عند الله . نعوذ بالله [مما يقولون] ! ! .

ادَّعوا أنه كلام البشر ! والعجيب أنهم يدَّعون أنه كلام البشر ، ويقال لهم : ائتوا بمثله ، ولا يستطيعون ! ! .

وقد أبطل الله افتراءهم هذا بقوله تعالى : ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ ، ومعنى ﴿يُلْحِدُونَ﴾ ؛ أى : يميلون ؛ لأن قولهم هذا ميل عن الصواب بعيد عن الحق .

والأعجمى : هو الذى لا يفصح بالكلام ، وإن كان عربيًا ، والعجمى بدون همزة هو : المنسوب إلى العجم ، وإن كان يتكلم العربية .

فلسان هذا الذى يلحدون إليه أعجمى لا يفصح بالكلام العربى .

✲ **قال الشيخ الفوزان :**

﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ معطوفان على محل « ليثبت » ؛ أى : تثبيتًا لهم ، وهدايةً وبشرى .

ثم ذكر سبحانه شبهةً أخرى من شبههم ، فقال : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ ؛ أى : ولقد نعلم أن هؤلاء الكفار يقولون : إنما يعلم محمدًا القرآن بشر من بنى آدم ، وليس ملكًا من الملائكة .

وهذا البشر الذى يعلمه كان قد درس التوراة والإنجيل والكتب الأعجمية ؛ لأن محمدًا رجل أمىٌّ ، لا يمكن أن يأتى بما ذكر فى القرآن من أخبار القرون الأولى .

فرد الله عليهم بقوله : ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ ؛ أى : لسان الذى يميلون إليه ، ويزعمون أنه يعلمك يا محمد أعجمىٌّ ؛ أى : غير عربىٍّ ، فهو لا يتكلم العربية .

✲ **قال الشيخ ابن عثيمين :**

وأما القرآن ؛ فإن الله قال فيه : ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ . بيِّنٌ فى نفسه ، مبينٌ لغيره .

فالقرآن كلام عربى ، وهو أفصح الكلام ، كيف يأتى من هذا الرجل الأعجمى ، الذى لسانه لا يفصح بالكلام ؟ ! .

والشاهد هو قوله : ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ ، وقوله : ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ ، وقوله : ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ .

....

وكل هذه تدل على أن القرآن كلام الله تعالى منزل من عنده .

والمؤلف ترك الآية التي بعدها ؛ لأنه ليس فيها شاهد ، ولكنها مفيدة ؛ فنذكرها : قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٤، ١٠٥] .

ومعنى هذه الآية : أن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولا ينتفعون بآياته ، والعياذ بالله ؛ فالهداية مسدودة عليهم .

وهذه الحقيقة فيها فائدة كبيرة ، وهى : أن من لم يؤمن بآيات الله لا يهديه الله .

ومفهوم المخالفة فيها : أن من آمن بآيات الله ؛ هداه الله .

مثال ذلك : أننا نجد من لم يؤمن بالآيات ؛ لم يهتد لبيان وجهها ؛ مثل قول بعضهم : كيف ينزل الله إلى السماء الدنيا وهو فى العلو ؟ ! .

فنقول : آمن تهتد ! فإذا آمنت بأنه ينزل حقيقة علمت أن هذا ليس بمستحيل : لأنه فى جانب الله عز وجل ، ولا يماثله شىء .

ونجد من يقول فى قوله تعالى :

﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ [الكهف: ٧٧] : كيف يريد الجدار ؟

فنقول : آمن بأن الجدار يريد يتبين لك أن هذا ليس بغريب .

وهذه قاعدة ينبغى أن تكون أساسية عندك ، وهى : آمن تهتد ! .

والذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ، ويبقى القرآن عليهم عمى - والعياذ بالله - ولا يستطيعون الاهتداء به ، نسأل الله لنا ولكم الهداية .

ما نستفيده من الناحية المسلكية من هذه الآيات :

نستفيد أننا إذا علمنا أن هذا القرآن تكلم به رب العالمين ؛ أوجب لنا ذلك تعظيم هذا القرآن ، واحترامه ، وامتثال ما جاء فيه من الأوامر ، وترك ما فيه من المنهيات والمحظورات ، وتصديق ما جاء فيه من الأخبار عن الله تعالى وعن مخلوقاته السابقة واللاحقة .

❁ قال الشيخ الفوزان :

﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ ؛ أى : وهذا القرآن ذو بلاغةٍ عربيةٍ ، وبيانٍ واضحٍ ،

٢٣- إثباتُ رؤيةِ المؤمنينَ لربِّهم يومَ القيامةِ :

وقولِه : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(1) [القيامة : ٢٢، ٢٣] ، ....

فكيف تزعمون أن بشرًا يعلمه النبى ﷺ من العجم ، وقد عجزتم أنتم عن معارضته ، أو معارضة سورةٍ ، أو سورٍ منه ، وأنتم أهل اللسان العربى ، ورجال الفصاحة ، وقادة البلاغة .

ما يستفاد من الآيات : يستفاد من هذه الآيات الكريمة إثبات أن القرآن منزل من عند الله تعالى ، وأنه كلامه جل وعلا ، لا كلام غيره من الملائكة ، أو البشر ،

والرد على من زعم أنه كلام مخلوق .

وفى الآيات أيضًا إثبات العلو لله سبحانه ؛ لأن الإنزال لا يكون إلا من أعلى . والله أعلم .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة :

ذكر المؤلف رحمه الله آيات إثبات رؤية الله تعالى .

الآية الأولى : قوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة : ٢٢، ٢٣] .

قوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ ؛ يعنى بذلك اليوم الآخر .

قوله : ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ ؛ أى : حسنة ، من النضارة ؛ بالضاد ، وهى : الحسن ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان : ١١] ؛ أى : حسنًا فى وجوههم ، وسرورًا فى قلوبهم .

قوله : ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ : ﴿نَاظِرَةٌ﴾ ؛ بالظاء ، من النظر ، وهنا عُدِّى النظر بـ : (إلى) الدالة على الغاية ، وهو نظر صادر من الوجوه ، والنظر الصادر من الوجوه يكون بالعين ؛ بخلاف النظر الصادر من القلوب ؛ فإنه يكون بالبصيرة والتدبر والتفكر ؛ فهنا صدر النظر من الوجوه إلى الرب عز وجل ؛ لقوله : ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ .

فتفيد الآية الكريمة : أن هذه الوجوه الناضرة الحسنة تنظر إلى ربها عز وجل ، فتزداد حسنًا إلى حسنها .

وانظر كيف جعل هذه الوجوه مستعدةً متهيئة للنظر إلى وجه الله عز وجل ؛ لكونها نضرة حسنة متهيئة للنظر إلى وجه الله .

ففى هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يُرى بالأبصار وهذا هو قول أهل السنة والجماعة .

واستدلوا لذلك بالآيات التى ساقها المؤلف ، واستدلوا أيضًا بالأحاديث المتواترة عن

....

النبى ﷺ والتى نقلها عنه صحابة كثيرون ونقلها عن هؤلاء الصحابة تابعون كثيرون ، ونقلها عن التابعين من تابع التابعين كثيرون . وهكذا .

والنصوص فيها قطعية الثبوت والدلالة ؛ لأنها فى كتاب اللّه تعالى وفى سنةِ رسوله ﷺ المتواترة .

وأنشدوا فى هذا المعنى :

مما تواتر حديثُ منْ كذبْ ومنْ بنَى للّه بيتًا واحتسبْ
ورؤيةٌ شفاعةٌ والحوضُ ومسحُ خُفينِ وهذى بعضُ

فالمراد بقوله : « ورؤية » : رؤية المؤمنين لربهم .

وأهل السنة والجماعة يقولون : إن النظر هنا بالبصر حقيقة .

ولا يلزم منه الإدراك ؛ لأن اللّه تعالى يقول : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام : ١٠٣] ؛ كما أن العلم بالقلب أيضًا لا يلزم منه الإدراك ؛ قال اللّه تعالى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه : ١١٠] .

ونحن نعلم ربنا بقلوبنا ، لكن لا ندرك كيفيته وحقيقته ، وفى يوم القيامة نرى ربنا بأبصارنا ، ولكن لا تدركه أبصارنا .

✽ قال الشيخ الفوزان :

قوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ﴾ ؛ أى : وجوه المؤمنين .

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ؛ أى : يوم القيامة .

﴿نَّاضِرَةٌ﴾ بالضاد من النضارة ، وهى البهاء والحسن ؛ أى : ناعمة ، غضة ، حسنة ، مضيئة ، مشرقة .

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ ؛ أى : خالقها .

﴿نَاظِرَةٌ﴾ ؛ أى : تنظر إليه بأبصارها ، كما تواترت به الأحاديث الصحيحة ، وأجمع عليه الصحابة والتابعون وسلف الأمة ، واتفق عليه أئمة الإسلام .

فالشاهد من الآية الكريمة : إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة .

✽ قال الشيخ هراس :

قوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ إلخ : هذه الآيات تثبت رؤية المؤمنين للّه عزَّ وجلَّ يوم

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾(١) [المطففين: ٣٥]، ....

القيامة فى الجنة.

وقد نفاها المعتزلة بناءً على نفيهم الجهة عن الله؛ لأن المرئى يجب أن يكون فى جهة الرائى، وما دامت الجهة مستحيلة وهى شرط فى الرؤية، فالرؤية كذلك مستحيلة، واحتجوا من النقل بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾. وقوله لموسى عليه السلام حين سأله الرؤية: ﴿لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وأما الأشاعرة فهم مع نفيهم الجهة كالمعتزلة يثبتون الرؤية، ولذلك حاروا فى تفسير تلك الرؤية؛ فمنهم من قال: يرونه من جميع الجهات. ومنهم من جعلها رؤية بالبصيرة لا بالبصر، وقال: المقصود زيادة الانكشاف والتجلى حتى كأنها رؤية عين.

وهذه الآيات التى أوردها المؤلف حجة على المعتزلة فى نفيهم الرؤية، فإن الآية الأولى عدَّى النظر فيها بـ: (إلى) فيكون بمعنى الإبصار، يقال: نظرت إليه، وأبصرته. بمعنًى، ومتعلق النظر هو الرب جل شأنه.

✽ قال الشيخ هراس:

وأما ما يتكلفه المعتزلة من جعلهم ﴿نَاظِرَةٌ﴾ بمعنى منتظرة، و﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى النعمة، والتقدير: (ثواب ربها منتظرة)، فهو تأويل مضحك.

وأما الآية الثانية فتفيد أن أهل الجنة وهم على أرائكهم، يعنى أسرتهم - جمع أريكة - ينظرون إلى ربهم.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الآية الثانية: قوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣].

﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾: جمع أريكة، وهى السرير الجميل المغطى بما يشبه الناموسية.

﴿يَنظُرُونَ﴾: لم يذكر المنظور إليه، فيكون عامًّا لكل ما يتنعمون بالنظر إليه.

وأعظمه وأنعمه النظر إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]؛ فسياق الآية يشبه قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾؛ فهم ينظرون إلى كل ما يتنعمون بالنظر إليه.

ومنه النظر إلى قرناء السوء يعذَّبون فى الجحيم؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ

....

لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ قَالَ﴾ ؛ أى : لأصحابه : ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ : ﴿هَلْ﴾ : للتشويق ، يطلعون على ماذا ؟ ! على هذا القرين ، ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ! ! أعوذ بالله ! رآه فى سوائها ؛ أى : فى أصلها ، وقعرها ، سبحان الله ! هذا فى أعلى عليين ، وهذا فى أسفل سافلين ، وينظر إليه مع بعد المسافة العظيمة ! .

لكن نظر أهل الجنة ليس كنظر أهل الدنيا ، هناك ينظر الإنسانُ فى ملكه فى الجنة مسيرة ألفى عام ، ينظر أقصاه كما ينظر أدناه ، من كمال النعيم ؛ لأن الإنسان لو كان نظره كنظره فى الدنيا ؛ ما استمتع بنعيم الجنة ؛ لأنه ينظر إلى مدى قريب ، فيخفى عليه شىء كثير منه .

اطلع من أعلى عليين إلى أسفل سافلين ، فرآه فى سواء الجحيم ، قال يخاطبه : ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ ، وهذا يدل على أنه كان دائمًا يحاول أن يضله ، ولهذا قال : ﴿إِن كِدتَّ﴾ . يعنى : إنك قاربت ، و« إنْ » هذه المخففة لا الثقيلة ، ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ إلى آخر الآيات [الصافات : ٥٤- ٥٨] .

أقول : إن الناس سابقًا يمارون فى مثل هذا ؛ كيف يكون أعلى مكان ويخاطب من ينظر إليه ويكلمه فى أسفل مكان ؟ ! .

ولكن ظهرت الآن أشياء من صنع البشر ؛ كالأقمار الصناعية ، والهواتف التليفزيونية . . . وغير ذلك ؛ يرى الإنسان من خلالها من يكلمه وينظر إليه وهو بعيد .

مع أنه لا يمكن أن نقيس ما فى الآخرة على ما فى الدنيا .

إذن ؛ ﴿يَنظُرُونَ﴾ : عامة : ينظرون إلى الله ، وينظرون ما لهم من النعيم ، وينظرون ما يحصل لأهل النار من العذاب .

إذا قال قائل : هذا فيه إشكال ! ! كيف ينظرون إلى أهل النار ينكتون عليهم ويوبخونهم ؟ ! .

فنقول : والله ؛ ما أكثر ما أذاق أهل النار الجنة فى الدنيا من العذاب والبلاء والمضايقة ، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ : يضحكون ؛ سواء فى مجالسهم ، أو معهم ، ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ ؛ أى : انقلبوا متنعمين بأقوالهم ، ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ ! قال الله تعالى : ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين : ٢٩- ٣٥] ؛ ينظرون إليهم وهم - والعياذ بالله - فى سواء الجحيم .

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾(١) [يونس: ٢٦] .

إذن ؛ يكون هذا من تمام عدل الله عز وجل ؛ بأن جعل هؤلاء الذين كانوا يضايقون فى دار الدنيا ، جعلهم الآن يفرحون بنعمة الله عليهم ، ويوبِّخون هؤلاء الذين فى سواء الجحيم .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ . جمع أريكةٍ ، وهى السرر .

﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى الله عز وجل .

وأما الكفار فقد تقدم فى الآيات التى قبل هذه الآية أنهم ﴿عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ .

والشاهد من الآية : إثبات رؤية المؤمنين لربهم عز وجل .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الآية الثالثة : قوله : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] .

قوله : ﴿لِلَّذِينَ﴾ : خبر مقدم .

و﴿الْحُسْنَىٰ﴾ : مبتدأ مؤخر ، وهى الجنة .

﴿وَزِيَادَةٌ﴾ : هى النظر إلى وجه الله .

هكذا فسره النبى ﷺ ؛ كما ثبت ذلك فى « صحيح مسلم »[1] وغيره .

ففى هذه الآية دليل على ثبوت رؤية الله من تفسير الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو أعلم الناس بمعانى القرآن بلا شكٍّ ، وقد فسرها بالنظر إلى وجه الله ، وهى زيادة على نعيم الجنة .

إذن ؛ فهى نعيم ليس من جنس النعيم فى الجنة ؛ لأن جنس النعيم فى الجنة نعيمُ بدن ؛ أنهار ، وثمار ، وفواكه ، وأزواج مطهرة . . .. وسرور القلب فيها تبع ، لكن النظر إلى وجه الله نعيم قلب ، لا يرى أهل الجنة نعيمًا أفضل منه ، نسأل الله أن يجعلنا ممن يراه .

وهذا نعيم ما له من نظير أبدًا ؛ لا فواكه ، ولا أنهار ، ولا غيرها أبدًا ، ولهذا قال : ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ ؛ أى : زيادة على الحسنى .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ . بالقيام بما أوجبه الله عليهم من الأعمال ، والكف عما نهاهم عنه من المعاصى .

---

(١) أخرجه مسلم (١٨١) .

....

﴿الْحُسْنَىٰ﴾ ؛ أى : المثوبة الحسنى . وقيل : الجنة .

﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هى النظر إلى وجه الله الكريم ، كما ثبت تفسيرها بذلك عن رسول الله ﷺ فى صحيح مسلم وغيره ، وكما فسرها بذلك سلف الأمة .

وعلى ذلك يكون الشاهد من الآية الكريمة : إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة .

✽ قال الشيخ هراس :

وأما الآيتان الأخيرتان فقد صح عن النبى ﷺ تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله عزَّ وجلَّ ، ويشهد لذلك أيضًا قوله تعالى فى حق الكفار : ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين : ١٥] ، فدل حجب هؤلاء على أن أولياءه يرونه ، وأحاديث الرؤية متواترة فى المعنى عند أهل العلم بالحديث لا ينكرها إلا ملحد زنديق .

وأما ما احتج به المعتزلة من قوله تعالى : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ . فلا حجة لهم فيه ؛ لأن نفى الإدراك لا يستلزم نفى الرؤية ، فالمراد أن الأبصار تراه ولكن لا تحيط به رؤية كما أن العقول تعلمه ولكن لا تحيط به علمًا ؛ لأن الإدراك هو الرؤية على جهة الإحاطة فهو رؤية خاصة ونفى الخاص لا يستلزم نفى مطلق الرؤية ، وكذلك استدلالهم على نفى الرؤية بقوله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ . لا يصلح دليلًا ، بل الآية تدل على الرؤية من وجوه كثيرة منها :

١- وقوع السؤال من موسى وهو رسول الله وكليمه ، وهو أعلم بما يستحيل فى [حال] الله ، من هؤلاء المعتزلة ، فلو كانت الرؤية ممتنعة لما طلبها .

٢- أن الله عزَّ وجلَّ علق الرؤية على استقرار الجبل حال التجلى ، وهو ممكن ، والمعلق على الممكن ممكن .

٣- أن الله تجلى للجبل بالفعل وهو جماد ، فلا يمتنع إذن أن يتجلى لأهل محبته وأصفيائه .

وأما قولهم : إن (لن) لتأبيد النفى وإنها تدل على عدم وقوع الرؤية أصلًا . فهو كذب على اللغة ، فقد قال تعالى حكاية عن الكفار : ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ . ثم قال : ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ . فأخبر عن عدم تمنيهم للموت بـ «لن» ، ثم أخبر عن تمنيهم له وهم فى النار .

وإذن فمعنى قوله : ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ . لن تستطيع رؤيتى فى الدنيا لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته سبحانه ، ولو كانت الرؤية ممتنعة لذاتها لقال : إنى لا أرى أو لا يجوز رؤيتى أو لست بمرئى ونحو ذلك . والله أعلم .

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[1] [ق: ٣٥].

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

الآية الرابعة: قوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

قوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾؛ أى: فى الجنة كل ما يشاءون.

وقد ورد فى الحديث الصحيح أن رجلًا قال للنبى ﷺ: يا رسول الله! أفى الجنة خيل؟ فإنى أحب الخيل. فقال: «إن يدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تركب فرسًا، من ياقوتة حمراء، تطير بك فى الجنة شئت إلا فعلت». وقال الأعرابى: يا رسول الله! أفى الجنة إبل؟ فإنى أحب الإبل. قال: «يا أعرابى! إن يدخلك الله الجنة؛ أصبت فيها ما اشتهت نفسك ولذّت عينك»[1].

فإذا اشتهى أى شىء؛ فإنه يكون ويتحقق، حتى إن بعض العلماء يقول: لو اشتهى الولد لكان له ولد؛ فكل شىء يشتهونه فهو لهم.

قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

وقوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾؛ أى: مزيد على ما يشاءون.

يعنى: أن الإنسان إذا شاء شيئًا؛ يعطى إياه، ويعطى زيادة؛ كما جاء فى الحديث الصحيح فى آخر أهل الجنة دخولًا، يعطيه الله عز وجل نعيمًا، ونعيمًا... ويقول: رضيت. يقول له: «لك مثله وعشرة أمثاله»[2]. فهو أكثر مما يشاء.

وفسر المزيدَ كثيرٌ من العلماء بما فسر به النبى ﷺ الزيادة وهى: النظر إلى وجه الله الكريم.

فتكون الآيات التى ساقها المؤلف لإثبات رؤية الله تعالى أربعًا.

وهناك آية خامسة استدل بها الشافعى رحمه الله، وهى قوله تعالى فى الفجار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

ووجه الدلالة أنه ما حجب هؤلاء فى الغضب؛ إلا رآه أولئك فى الرضَى؛ فإذا كان أهل الغضب محجوبين عن الله؛ فأهل الرضَى يرون الله عز وجل.

---

(1) ضعفه الألبانى فى «ضعيف الجامع» (١٣٠٢).

(2) أخرجه البخارى (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٦).

....

وهذا استدلال قوى جدًّا ؛ لأنه لو كان الكل محجوبين ؛ لم يكن مزية لذكر هؤلاء .

وعلى هذا ؛ فنقول : الآيات خمس ، ويمكن أن نلحق بها قول اللّه تعالى : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الأنعام : ١٠٣] ؛ على ما سنقرره فى الرد على النفاة إن شاء اللّه .

فهذا قول أهل السنة فى رؤية اللّه تعالى وأدلتهم ، وهى ظاهرة جلية ، لا ينكرها إلا جاهل أو مكابر .

وخالفهم فى ذلك طوائف من أهل التعطيل من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم ، واستدلوا بأدلة سمعية متشابهة ، وأدلة عقلية متداعية :

أما الأدلة السمعية :

فالأول : قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

ووجه الدلالة أن (لن) للنفى المؤبد ، والنفى خبر ، وخبر اللّه تعالى صدق ، لا يدخله النسخ .

والرد عليهم من وجوه :

- الأول : منع كون (لن) للنفى المؤبد ؛ لأنه مجرد دعوى :

قال ابن مالك فى « الكافية » :

وَمَنْ رَأى النَّفْىَ بِلَنْ مُؤَبَّدَا فَقَوْلَهُ ارْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا

- الثانى : أن موسى عليه الصلاة والسلام لم يطلب من اللّه الرؤية فى الآخرة ؛ وإنما طلب رؤية حاضرة ؛ لقوله : ﴿أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ ؛ أى : الآن . فقال اللّه تعالى له : ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ ؛ يعنى : لن تستطيع أن ترانى الآن ، ثم ضرب اللّه تعالى له مثلًا بالجبل حيث تجلى اللّه تعالى له فجعله دكًا ، فقال : ﴿وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ ، فلما رأى موسى ما حصل للجبل ؛ علم أنه هو لا طاقة له برؤية اللّه ، وخر صعقًا لهول ما رأى .

ونحن نقول : إن رؤية اللّه تعالى فى الدنيا مستحيلة ؛ لأن الحال البشرية لا تستطيع تحمل رؤية اللّه عز وجل ؛ كيف وقد قال النبى ﷺ عن ربه عز وجل : « حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ، ما انتهى إليه بصره من خلقه »[1].

---

(1) أخرجه مسلم (١٧٩) .

....

أما رؤية الله تعالى فى الآخرة فممكنة ؛ لأن الناس فى ذلك اليوم يكونون فى عالم آخر تختلف فيه أحوالهم عن حالهم فى الدنيا ؛ كما يعلم ذلك من نصوص الكتاب والسنة فيما يجرى للناس فى عرصات القيامة وفى مقرهم فى دار النعيم أو الجحيم.

- الوجه الثالث : أن يقال : استحالة رؤية الله فى الآخرة عند المنكرين لها مبنية على أن إثباتها يتضمن نقصًا فى حق الله تعالى ! كما يعللون نفيهم بذلك، وحينئذ يكون سؤال موسى لربه الرؤية دائرًا بين الجهل بما يجب لله ويستحيل فى حقه، أو الاعتداء فى دعائه حين طلب من الله ما لا يليق به إن كان عالمًا بأن ذلك مستحيل فى حق الله، وحينئذ يكون هؤلاء النافون أعلم من موسى فيما يجب لله تعالى ويستحيل فى حقه ! ! وهذا غاية الضلال !

وبهذا الوجه يتبين أن فى الآية دليلًا عليهم لا دليلًا لهم.

وهكذا ؛ كل دليل من الكتاب والسنة الصحيحة يستدل به على باطل أو نفى حق فسيكون دليلًا على من أورده، لا دليلًا له.

الدليل الثاني لنفاة رؤية الله تعالى : قوله تعالى : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام : ١٠٣].

والرد عليهم : أن الآية فيها نفى الإدراك، والرؤية لا تستلزم الإدراك ؛ ألا ترى أن الرجل يرى الشمس ولا يحيط بها إدراكًا ؟ !

فإذا أثبتنا أن الله تعالى يُرى ؛ لم يلزم أن يكون يدرك بهذه الرؤية ؛ لأن الإدراك أخص من مطلق الرؤية.

ولهذا نقول : إن نفى الإدراك يدل على وجود أصل الرؤية ؛ لأن نفى الأخص يدل على وجود الأعم، ولو كان الأعم منتفيًا، لوجب نفيه. وقيل : لا تراه الأبصار ؛ لأن نفيه يقتضى نفى الأخص، ولا عكس، ولأنه ؛ لو كان الأعم منتفيًا ؛ لكان نفى الأخص إيهامًا وتلبيسًا ينزَّه عنه كلام الله عز وجل.

وعلى هذا ؛ يكون فى الآية دليل عليهم لا دليل لهم.

وأما أدلة نفاة الرؤية العقلية ؛ فقالوا : لو كان الله يُرى ؛ لزم أن يكون جسمًا، والجسم ممتنع على الله تعالى ؛ لأنه يستلزم التشبيه والتمثيل.

والرد عليهم : أنه إن كان يلزم من رؤية الله تعالى أن يكون جسمًا ؛ فليكن ذلك، لكننا نعلم

....

علم اليقين أنه لا يماثل أجسام مخلوقين ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

على أن القول بالجسم نفيًا أو إثباتًا مما أحدثه المتكلمون ، وليس فى الكتاب والسنة إثباته ولا نفيه .

وقد أجاب النفاة عن أدلة أهل الإثبات بأجوبة باردة ، فحرفوها تحريفًا لا يخفى على أحد ، وليس هذا موضع ذكرها ، وهذه مذكورة فى الكتب المطولة .

ما نستفيده من الناحية المسلكية من هذه الآيات :

أما فى مسألة الرؤية ؛ فما أعظم أثرها على الاتجاه المسلكى ؛ لأن الإنسان إذا وجد أن غاية ما يصل إليه من الثواب هو النظر إلى وجه الله كانت الدنيا كلها رخيصة عنده ؛ وكل شيء يرخص عنده فى جانب الوصول إلى رؤية الله عز وجل ؛ لأنها غاية كل طالب ، ومنتهى المطالب .

فإذا علمت أنك سوف ترى ربك عيانًا بالبصر ؛ فوالله لا تساوى الدنيا عندك شيئًا .

فكل الدنيا ليست بشيء ؛ لأن النظر إلى وجه الله هو الثمرة التى يتسابق فيها المتسابقون ، ويسعى إليها الساعون ، وهى غاية المرام من كل شيء .

فإذا علمت هذا ؛ فهل تسعى إلى الوصول إلى ذلك أم لا ؟!

والجواب : نعم ؛ أسعى إلى الوصول إلى ذلك بدون تردد .

وإنكار الرؤية فى الحقيقة حرمان عظيم ، لكن الإيمان بها يسوق الإنسان سوقًا عظيمًا إلى الوصول إلى هذه الغاية ؛ فهو يسير ولله الحمد ؛ فالدين كله يسر ، حتى إذا وجد الحرج تيسر الدين ؛ فأصله ميسر ، وإذا وجد الحرج تيسر ثانيةً ، وإذا لم يمكن القيام به أبدًا سقط ؛ فلا واجب مع العجز ، ولا حرام مع الضرورة .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله تعالى : ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ ؛ أى : للمؤمنين فى الجنة ما تشتهى أنفسهم ، وتلذ أعينهم من فنون النعيم وأنواع الخير .

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ ؛ أى : زيادة على ذلك ، وهو النظر إلى وجه الله الكريم ، وهذا هو الشاهد من الآية الكريمة ، وهو إثبات النظر إلى وجه الله الكريم فى الجنة .

ما يستفاد من الآيات الكريمة : يستفاد منها إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة ، وأنها

....

أعظم النعيم الذى ينالونه .

وهذا هو قول الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، خلافًا للرافضة والجهمية والمعتزلة ، الذين ينفون الرؤية ، ويخالفون بذلك الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها ، ويعتمدون على شبهٍ واهيةٍ وتعليلاتٍ باطلةٍ ، منها .

١- قولهم : إن إثبات الرؤية يلزم منه إثبات أن اللّه فى جهةٍ ، ولو كان فى جهةٍ لكان جسمًا ، واللّه منزه عن ذلك .

والجواب عن هذه الشبهة أن نقول : لفظ الجهة فيه إجمال ، فإن أريد بالجهة أنه حالٌّ فى شىءٍ من مخلوقاته فهذا باطل ، والأدلة ترده ، وهذا لا يلزم من إثبات الرؤية .

وإن أريد بالجهة أنه سبحانه فوق مخلوقاته فهذا ثابت للّه سبحانه ، ونفيه باطل ، وهو لا يتنافى مع رؤيته سبحانه .

٢- استدلوا بقوله تعالى لموسى : ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ والجواب عن هذا الاستدلال أن الآية الكريمة واردة فى نفى الرؤية فى الدنيا ، ولا تنفى ثبوتها فى الآخرة ، كما ثبت فى الأدلة الأخرى ، وحالة الناس فى الآخرة تختلف عن حالتهم فى الدنيا .

٣- استدلوا بقوله تعالى : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ . والجواب عن هذا الاستدلال أن الآية إنما فيها نفى الإدراك ، وليس فيها نفى الرؤية ، والإدراك معناه الإحاطة ، فاللّه سبحانه تعالى يراه المؤمنون ، ولا يحيطون به ، بل نفى الإدراك يلزم منه وجود الرؤية ، فالآية من أدلة إثبات الرؤية . واللّه تعالى أعلم .

✽ قال الشيخ هراس :

مباحث عامة حول آيات الصفات :

إن الناظر في آيات الصفات التي ساقها المؤلف رحمه اللّه يستطيع أن يستنبط منها قواعد وأصولًا هامة يجب الرجوع إليها في هذا الباب .

الأصل الأول : اتفق السلف على أنه يجب الإيمان بجميع الأسماء الحسنى وما دلت عليه من الصفات وما ينشأ عنها من الأفعال ، مثال ذلك (القدرة) مثلًا يجب الإيمان بأنه سبحانه على كل شيء قدير ، والإيمان بكمال قدرته ، والإيمان بأن قدرته نشأت عنها جميع الكائنات ، وهكذا بقية الأسماء الحسنى على هذا النمط . وعلى هذا فما ورد في هذه الآيات التي ساقها المصنف من

....

الأسماء الحسنى فإنها داخلة في الإيمان بالاسم وما فيها من ذكر الصفات مثل عزة الله وقدرته وعلمه وحكمته وإرادته ومشيئته، فإنها داخلة في الإيمان بالصفات وما فيها من ذكر الأفعال المطلقة والمقيدة، مثل يعلم كذا، ويحكم ما يريد، ويرى ويسمع، وينادي ويناجي، وكلم ويكلم، فإنها داخلة في الإيمان بالأفعال.

الأصل الثاني: دلَّت هذه النصوص القرآنية على أن صفات الباري قسمان:

١- صفات ذاتية لا تنفك عنها الذات، بل هي لازمة لها أزلًا وأبدًا ولا تتعلق بها؛ مشيئته تعالى وقدرته، وذلك كصفات الحياة والعلم والقدرة والقوة والعزة والملك والعظمة والكبرياء والمجد والجلال إلخ.

٢- صفات فعلية تتعلق بها مشيئته وقدرته كل وقت وآنٍ وتحدث بمشيئته وقدرته، آحاد تلك الصفات من الأفعال وإن كان هو لم يزل موصوفًا بها بمعنى أن نوعها قديم وأفرادها حادثة، فهو سبحانه لم يزل فعّالًا لما يريد، ولم يزل ولا يزال يقول ويتكلم ويخلق ويدبر الأمور، وأفعاله تقع شيئًا فشيئًا تبعًا لحكمته وإرادته، فعلى المؤمن الإيمان بكل ما نسبه الله لنفسه من الأفعال المتعلقة بذاته كالاستواء على العرش، والمجيء والإتيان، والنزول إلى السماء الدنيا، والضحك والرضا والغضب، والكراهية والمحبة المتعلقة بخلقه كالخلق والرزق والإحياء والإماتة وأنواع التدبير المختلفة.

الأصل الثالث: إثبات تفرد الرب جل شأنه بكل صفة كمال وأنه ليس له شريك أو مثيل في شيء منها.

وما ورد في الآيات السابقة من إثبات المثل الأعلى له وحده ونفي الند والمثل والكفء والسَّمِي والشريك عنه يدل على ذلك كما يدل على أنه منزه عن كل نقص وعيب وآفة.

الأصل الرابع: إثبات جميع ما ورد به الكتاب والسنة من الصفات، لا فرق بين الذاتية منها كالعلم والقدرة والإرادة والحياء والسمع والبصر ونحوها، والفعلية كالرضا والمحبة والغضب والكراهة، وكذلك لا فرق بين إثبات الوجه واليدين ونحوهما، وبين الاستواء على العرش والنزول، فكلها مما اتفق السلف على إثباته بلا تأويل ولا تعطيل، وبلا تشبيه وتمثيل.

والمخالف في هذا الأصل فريقان:

١- الجهمية: ينفون الأسماء والصفات جميعًا.

وهذا البابُ فى كتابِ اللَّهِ كثيرٌ ، مَن تدَبَّر القرآنَ طالبًا للْهُدَى منه تبيَّن له طريقُ الحقِّ (١).

٢- المعتزلة : فإنهم ينفون جميع الصفات ويثبتون الأسماء والأحكام ، فيقولون : عليم بلا علم ، وقدير بلا قدرة ، وحي بلا حياة إلخ . وهذا القول في غاية الفساد ، فإن إثبات موصوف بلا صفة وإثبات ما للصفة للذات المجردة محال في العقل كما هو باطل في الشرع .

أما الأشعرية ومن تبعهم فإنهم يوافقون أهل السنة في إثبات سبع صفات يسمونها صفات المعاني ويدعون ثبوتها بالعقل ؛ وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام ، ولكنهم وافقوا المعتزلة في نفي ما عدا هذه السبع من الصفات الخبرية التي صح بها الخبر .

والكل محجوجون بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة والقرون المفضلة على الإثبات العام .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

١- قوله : « وهذا الباب » : الإشارة هنا إلى باب الأسماء والصفات .

٢- قوله : « في كتاب اللَّه كثير » : ولذلك ؛ ما من آية من كتاب اللَّه ؛ إلا وتجد فيها غالبًا اسمًا من أسماء اللَّه ، أو فعلًا من أفعاله ، أو حكمًا من أحكامه ، بل لو شئت لقلت : كل آية في كتاب اللَّه فهي صفة من صفات اللَّه ؛ لأن القرآن الكريم كلام اللَّه عز وجل ؛ فكل آية منه ؛ فهي صفة من صفات اللَّه عز وجل .

٣- تدبر الشيء ؛ معناه : التفكر فيه ، كأن الإنسان يستدبره مرة ويستقبله أخرى ؛ فهو يكرر اللفظ ليفهم المعنى .

فالذي يتدبر القرآن بهذا الفعل ، وأما النية ؛ فهي أن يكون « طالبًا للهدى منه » ؛ فليس قصده بتدبر القرآن أن ينتصر لقوله ، أو أن يتخذ منه مجادلة بالباطل ، ولكن قصد طلب الحق ؛ فإنه سوف تكون النتيجة قول المؤلف « تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيق الحَق » .

وما أعظمها من نتيجة ! !

لكنها مسبوقة بأمرين : التدبر ، وحسن النية ؛ بأن يكون الإنسان طالبًا للهدى من القرآن ؛ فحينئذٍ يتبين له طريق الحق .

والدليل على ذلك عدة آيات ؛ منها :

قول اللَّه تبارك وتعالى : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل : ٤٤] .

وقال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص : ٢٩] .

....

وقال تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون : ٦٨] .

وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر : ٣٢] .

والآيات في هذا كثيرة ، تدل على أن من تدبر القرآن – لكن بهذه النية ، وهي طلب الهدى منه – لابد أن يصل إلى النتيجة ، وهي تبين طريق الحق .

أما من تدبر القرآن ليضرب بعضه ببعض ، وليجادل بالباطل ، ولينصر قوله ؛ كما يوجد عند أهل البدع وأهل الزيغ فإنه يعمى عن الحق ، والعياذ بالله .

لأن الله تعالى يقول : ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران : ٧] ؛ على تقدير (أما) ؛ أي : وأما الراسخون في العلم ؛ فـ : ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران : ٧] . وإذا قالوا هذا القول ؛ فسيهتدون إلى بيان هذا المتشابه ، ثم قال : ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران : ٧] .

وقال تعالى : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٤] .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقول المؤلف رحمه الله : (وهذا الباب فى كتاب الله كثير) ؛ أى : باب إثبات أسماء الله وصفاته فى القرآن كثير ، وإنما ذكر المؤلف بعضه ، فقد ورد فى آياتٍ كثيرةٍ من كتاب الله إثبات أسماء الله وصفاته ، على ما يليق به .

(ومن تدبر القرآن) ؛ أى : تفكر فيه ، وتأمل ما يدل عليه من الهدى .

(تبين له طريق الحق) ؛ أى : اتضح له سبيل الصواب ، وتدبر القرآن هو المطلوب من تلاوته . قال تعالى : ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد : ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون : ٢٨] .

❁ ❁ ❁

الاستدلالُ على إثباتِ أسماءِ اللَّهِ وصفاتِه من السنةِ
« فصلٌ » فى سنةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ(١)

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

السنة فى اللغة : الطريقة ، ومنه قال ﷺ : « لتركبن سنن من كان قبلكم »[1] ؛ يعنى : طريقتهم .

وفى الاصطلاح هى : قول النبى ﷺ وفعله وإقراره .

فتشمل الواجب والمستحب .

والسنة هى المصدر الثانى فى التشريع .

ومعنى قولنا : « المصدر الثاني » : يعنى : فى العدد ، وليس فى الترتيب ؛ فإن منزلتها إذا صحت عن النبى ﷺ كمنزلة القرآن .

لكن الناظر فى القرآن يحتاج إلى شىء واحد ، وهو صحة الدلالة على الحكم ، والناظر فى السُّنة يحتاج إلى شيئين ؛ الأول : صحة نسبتها إلى الرسول ﷺ . والثانى : صحة دلالتها على الحكم . فكان المستدل بالسنة يعانى من الجهد أكثر مما يعانيه المستدل بالقرآن ؛ لأن القرآن قد كفينا سنده ؛ فسنده متواتر ، ليس فيه ما يوجب الشك ؛ بخلاف ما يُنسب إلى الرسول ﷺ . فإذا صحت السنة عن رسول اللَّه ﷺ ؛ كانت بمنزلة القرآن تمامًا فى تصديق الخبر والعمل بالحكم ، كما قال تعالى : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء : ١١٣] .

وقال النبى ﷺ : « لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته ؛ يأتيه الأمر من أمرى ؛ يقول : لا ندرى ! ما وجدنا فى كتاب اللَّه ؛ اتبعناه ، ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه »[2] .

ولهذا كان القول الصحيح أن القرآن يُنسخ بالسنة إذا صحت عن النبى ﷺ ، وأن ذلك جائز عقلًا وشرعًا ، ولكن ليس له مثالٌ مستقيم .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

قوله : (ثم فى سنة رسول اللَّه ﷺ) . هذا عطف على قوله فيما سبق : (وقد دخل فى هذه الجملة ما وصف اللَّه به نفسه فى سورة الإخلاص ... إلخ) ؛ أى : ودخل فيها ما وصف به

---

(1) أخرجه البخارى (٣٤٥٦) ، ومسلم (٢٦٦٩) .

(2) صححه الألبانى فى « صحيح الجامع » (٧١٧٢) .

فالسنةُ تُفَسِّرُ القرآنَ [(١)]، ....

الرسول ﷺ ربه ، فيما وردت به السنة الصحيحة ؛ لأن السنة هى الأصل الثانى الذى يجب الرجوع إليه بعد كتاب الله عز وجل .

قال الله تعالى : ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء : ٥٩] ، والرد إلى الله هو الرجوع إلى كتابه ، والرد إلى رسول الله ﷺ بعد وفاته هو الرجوع إلى سنته .

والسنة لغةً : الطريقة .

واصطلاحًا : هى ما ورد عن رسول الله ﷺ من قولٍ ، أو فعلٍ ، أو تقريرٍ .

❁ قال الشيخ هراس :

قوله : (ثم فى سنة رسول الله) : عطف على قوله فيما تقدم ، وقد دخل فى هذه الجملة ما وصف الله به نفسه فى سورة « الإخلاص » إلخ . يعنى ودخل فيها ما وصف به الرسول ﷺ ربه فيما وردت به السنة الصحيحة .

والسنةهى الأصل الثانى الذى يجب الرجوع إليه ، والتعويل عليه بعد كتاب الله عزَّ وجلَّ ، قال تعالى : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ ، والمراد بالحكمة : السنة ، وقال : ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ . وقال آمرًا لنساء نبيه : ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾ [الأحزاب : ٣٤] . وقال سبحانه : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر : ٧] . وقال صلوات الله وسلامه عليه وآله : « ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه » . وحكم السنة حكم القرآن فى ثبوت العلم واليقين والاعتقاد والعمل .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

تفسر القرآن يعنى : توضح المعنى المراد منه : كما فى تفسير قوله تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس : ٢٦] ؛ حيث فسّرها النبى ﷺ بأنها النظر إلى وجه الله عز وجل [(1)].

وكما فسر النبى ﷺ قوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال : ٦٠] . فقال : « ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمي » [(2)].

❁ قال الشيخ الفوزان :

مكانة السنة :

قال : (فالسنة تفسر القرآن) ؛أى : تبين معانيه ومقاصده ؛ فإن النبى ﷺ يبين للناس ما

(1) أخرجه مسلم (١٨١) . (2) أخرجه مسلم (١٩١٧) .

وتُبَيِّنُـه(١)، ....

أنزل إليه ، قال اللَّه تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل : ٤٤] .

✽ قال الشيخ هراس :

فإن السنة توضيح للقرآن وبيان للمراد منه ؛ تفصل مجمله ، وتقيد مطلقه ، وتخصص عمومه ، كما قال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل :] .

وأهل البدع والأهواء بإزاء السنة الصحيحة فريقان :

١ـ فريق لا يتورع عن ردها وإنكارها إذا وردت بما يخالف مذهبه بدعوى أنها أحاديث آحاد لا تفيد إلا الظن ، والواجب فى باب الاعتقاد هو اليقين ، وهؤلاء هم المعتزلة والفلاسفة .

٢ـ وفريق يثبتها ويعتقد بصحة النقل ولكنه يشتغل بتأويلها كما يشتغل بتأويل آيات الكتاب حتى يخرجها عن معانيها الظاهرة إلى ما يريده من معان بالإلحاد والتحريف ، وهؤلاء هم متأخرو الأشعرية وأكثرهم توسعًا فى هذا الباب الغزالى والرازى .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

يعنى : تبين المجمل منه ؛ حيث إن فى القرآن آيات مجملة ، لكن السنة بينتها ووضحتها ؛ مثل : قوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة : ٤٣] . أمر اللَّه بإقامتها ، وبينت السنة كيفيتها .

وقوله سبحانه : ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء : ٧٨] .

﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ . يعنى : من دلوك الشمس إلى غسق الليل ؛ أى : غاية ظلمته ، وهو نصفه ؛ لأن أشد ما يكون فى ظلمة الليل نصفه .

فظاهر الآية أن هذا وقت واحد ، ولكن السنة فصلت هذا المجمل : فللظهر : من دلوك الشمس إلى أن يصير ظل كل شىء مثله .

وللعصر : من ذلك إلى اصفرار الشمس فى الاختيار ، ثم إلى غروبها فى الضرورة .

وللمغرب : من غروب الشمس إلى مغيب الشفق الأحمر .

وللعشاء : من مغيب الشفق الأحمر إلى نصف الليل ، وليس هناك وقت ضرورة للعشاء ، ولهذا لو طهرت الحائض فى منتصف الليل الأخير ؛ لم يجب عليها صلاة العشاء ولا صلاة المغرب ؛ لأن صلاة العشاء تنتهى بانتصاف الليل ، ولم يأتِ فى السنة دليل على أن وقت صلاة العشاء يمتد إلى طلوع الفجر .

وللفجر : من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

وتَدُلُّ عليه(١) ، وتُعَبِّرُ عنه(٢) .

ولهذا قال فى نفس الآية : ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ ، ثم فصل وقت الفجر ، فقال : ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء : ٧٨] ؛ لأن وقت الفجر بينه وبين الأوقات الأخرى فاصل من قبله ومن بعده ؛ فنصف الليل الثانى قبله ، ونصف النهار الأول بعده . هذا من بيان السنة حيث بينت الأوقات .

كذلك : ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ؛ بينت السنة الأنصبة والأموال الزكوية .

❁ قال الشيخ الفوزان :

والسنة أيضًا (تبين القرآن) ؛ أى : توضح مجمله ، كالصلاة والصوم والحج والزكاة وغالب الأحكام التى تأتى مجملةً فى القرآن ، وتبيِّنها السنة النبوية .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

هذه كلمة تعم التفسير والتبين والتعبير ؛ فالسنة تفسر القرآن وتبين القرآن .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

يعنى : تأتى بمعانٍ جديدة أو بأحكام جديدة ليست فى القرآن ، وهذا كثير ؛ فإن كثيرًا من الأحكام الشرعية استقلت بها السنة ، ولم يأت بها القرآن .

لكن دل على أن لها حكم ما جاء فى القرآن مثل قوله تعالى : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء : ٨٠] ، وقوله : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر : ٧] ، وقوله : ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

أما الحكم المعين ؛ فالسنة استقلت بأحكام كثيرة عن القرآن ، ومن ذلك ما سيأتينا فى أول حديث ذكره المؤلف فى الفصل : «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر . . .»(1) ؛ فإن هذا ليس فى القرآن .

إذن ؛ السنة مقامها مع القرآن على هذه الأنواع الأربعة : تفسير مشكل ، وتبيين مجمل ، ودلالة عليه ، وتعبير عنه .

❁ قال الشيخ الفوزان :

والسنة أيضًا : (تدل على القرآن ، وتعبر عنه) ؛ أى : تدل على ما دل عليه القرآن ، وتعبر

---

(1) أخرجه البخارى (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) .

وما وصَف الرسولُ ﷺ به ربَّه عزَّ وجلَّ مِن الأحاديثِ الصِّحاحِ، التي تَلَقَّاها أهلُ المعرفةِ بالقَبولِ وجَب الإيمانُ بها(١) ....

عما عبر عنه القرآن، فتكون موافقةً للقرآن، فيكون الحكم مما دل عليه الكتاب والسنة، كأسماء الله وصفاته.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

هذه قاعدة مهمة ساقها المؤلف رحمه الله:

قوله: «وما» هذه شرطية. وفعل الشرط: «وصف». «وجب الإيمان بها»: هذا جواب الشرط.

فما وصف الرسول به ربه، وكذلك ما سمى به ربه؛ لأن هناك أسماء مما سمى به الرسول ربه لم تكن موجودة فى القرآن؛ مثل (الشافي)؛ قال النبى ﷺ: «واشف أنت الشافى، لا شفاء إلا شفاؤك»[1].

«الرب»: لم يأت فى القرآن بدون إضافة لكن فى السنة قال الرسول ﷺ: «أما الركوع فعظموا فيه الرب»[2].

وقال فى السواك: «مَطْهرةٌ للفم مرضاةٌ للرب»[3].

وظاهر كلام المؤلف أنه يشترط لقبولها شرطان:

الأول: أن تكون الأحاديث صحيحة.

الثانى: أن يكون أهل المعرفة - يعنى بالأحاديث - تلقوها بالقبول، ولكن ليس هذا هو المراد، بل مراد الشيخ - رحمه الله - أن الأحاديث الصحاح تلقاها أهل المعرفة بالقبول فتكون الصفة هذه صفة كاشفة لا صفة مقيدة.

فقوله: «التى تلقاها». هذا بيان لحال الأحاديث الصحيحة أى أن أهل المعرفة تلقوها بالقبول؛ لأنه من المستحيل أن تكون الأحاديث صحيحة، ثم يرفضها أهل المعرفة، بل سيقبلونها.

---

(1) أخرجه البخارى (٥٧٥٠)، ومسلم (٢١٩١).

(2) أخرجه مسلم (٤٧٩).

(3) صححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٣٦٩٥).

....

صحيح أن هناك أحاديث ظاهرة الصحة ، ولكن قد تكون معلولة بعلة ؛ كانقلاب على الراوى ونحوه ، وهذه لا تعد من الأحاديث الصحيحة .

قال : « وجب الإيمان بها » : لقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء : ١٣٦] ، وقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء : ٥٩] ، وقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [القصص : ٦٥، ٦٦] . .. والنصوص فى هذا كثير معلومة .

واعلم أن موقف أهل الأهواء والبدع تجاه الأحاديث المخالفة لأهوائهم يدور على أمرين : إما التكذيب ، وإما التحريف .

فإن كان يمكنهم تكذيبه ؛ كذبوه ؛ كقولهم فى القاعدة الباطلة : أخبار الآحاد لا تقبل فى العقيدة ! !

وقد رد ابن القيم رحمه الله هذه القاعدة وأبطلها بأدلة كثيرة فى آخر « مختصر الصواعق » .

وإن كان لا يمكنهم تكذيبه ؛ حرفوه ؛ كما حرفوا نصوص القرآن .

أما أهل السنة ؛ فقبلوا كل ما صح عن النبى ﷺ فى الأمور العلمية والأمور العملية ؛ لقيام الدليل على وجوب قبول ذلك .

✽ قال الشيخ الفوزان :

قوله : (وما وصف إلخ) مبتدأ خبره قوله : (وجب الإيمان بها كذلك) ؛ أى : كما يجب الإيمان بما وصف الله به نفسه في القرآن الكريم ؛ لأن النبى ﷺ كما وصفه ربه عز وجل بقوله : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم : ٣، ٤] .

فالسنة التى نطق بها الرسول ﷺ وحى من الله ، كما قال تعالى : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء : ١١٣] .

فالكتاب هو القرآن ، والحكمة هى السنة .

فيجب الإيمان بما ورد فى السنة ، لا سيما فى باب الاعتقاد ، قال تعالى : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر : ٧] .

لكن لا بد فى قبول الحديث والإيمان به من ثبوته عن النبى ﷺ ، ولهذا قال الشيخ رحمه الله : (من الأحاديث الصحاح) ، والصحاح جمع صحيح ، والحديث الصحيح هو ما نقله راوٍ

كذلك [١].

١- ثبوتُ النزولِ الإلهيِّ إلى سماءِ الدنيا، على ما يليقُ بجَلالِ اللَّهِ :

مثلُ قولِه ﷺ : « يَنْزِلُ ربُّنا إلى السماءِ الدنيا كلَّ ليلةٍ ، حينَ يَبْقَى ثُلُثُ الليلِ الآخِرُ ، فيقولُ : مَن يَدْعُونى فأسْتَجِيبَ له ؟ مَن يَسْأَلُنى فأُعْطِيَه ؟ مَن يَسْتَغْفِرُنى فأَغْفِرَ له ؟ » [٢] متفقٌ عليه.

عدل تام الضبط عن مثله ، من غير شذوذٍ ولا علةٍ . فهو ما اجتمع فيه خمسة شروطٍ :

١- عدالة الرواة . ٢- ضبطهم . ٣- اتصال السند .

٤- سلامته من العلة . ٥- سلامته من الشذوذ .

وقوله : (تلقاها أهل المعرفة) ؛أى : قبلها وأخذ بها أهل العلم بالحديث ، فلا عبرة بغيرهم ، ثم ذكر الشيخ أمثلةً مما ورد فى السنة من صفات اللَّه عز وجل ، فقال :

❁ قال الشيخ هراس :

قوله : (وما وصف الرسول به) إلخ : يعنى أنه كما وجب الإيمان بكل ما وصف اللَّه به نفسه فى كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، كذلك يجب الإيمان بكل ما وصفه به أعلم الخلق بربه ومما يجب له وهو رسوله الصادق المصدوق صلوات اللَّه وسلامه عليه وآله .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

وقوله : « كذلك » يعنى كما يجب الإيمان بما فى القرآن ؛ من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ولا تكييف ، ولا تمثيل .

❁ قال الشيخ هراس :

قوله : (كذلك) : أى إيمانًا مثل ذلك الإيمان خاليًا من التحريف والتعطيل ومن التكييف والتمثيل بل إثبات لها على الوجه اللائق بعظمة الرب جل شأنه .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

فصل : فى أحاديث الصفات :

هذا الحديث فى إثبات نزول اللَّه [سبحانه وتعالى] إلى السماء الدنيا .

وهذا الحديث قال بعض أهل العلم : إنه من الأحاديث المتواترة ، واتفقوا على أنه من

....

الأحاديث المشهورة المستفيضة عند أهل العلم بالسنة .

قوله : « ينزل ربنا إلى السماء الدنيا »[1] : نزوله تعالى حقيقى ؛ لأنه كما مر علينا من قبل : أن كل شيء كان الضمير يعود فيه إلى الله ؛ فهو ينسب إليه حقيقة .

فعلينا أن نؤمن به ونصدق ونقول : ينزل ربنا إلى السماء الدنيا ، وهى أقرب السماوات إلى الأرض ، والسماوات سبع ، وإنما ينزل عز وجل فى هذا الوقت من الليل للقرب من عباده جلَّ وعلا ؛ كما يقرب منهم عشية عرفة ؛ حيث يباهى بالواقفين الملائكة[2] .

وقوله : « كل ليلة » . يشمل جميع ليالى العام .

« حين يبقى ثلث الليل الآخر » والليل يبتدىء من غروب الشمس اتفاقًا لكن حصل الخلاف فى انتهائه هل يكون بطلوع الفجر أو بطلوع الشمس ؟ والظاهر أن الليل الشرعى ينتهى بطلوع الفجر والليل الفلكى ينتهى بطلوع الشمس .

وقوله : « فيقول : من يدعوني » : « من » : استفهام للتشويق ؛ كقوله تعالى : ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف : ١٠] .

و« يدعوني » أى : يقول : يا رب !

وقوله : « فأستجيب له » : بالنصب ؛ لأنها جواب الطلب .

« من يسألني » : يقول : أسألك الجنة ، أو نحو ذلك .

« من يستغفرني » : فيقول : اللهم اغفر لى ، أو : أستغفرك اللهم !

« فأغفر له » : والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه .

بهذا يتبين لكل إنسان قرأ هذا الحديث أن المراد بالنزول هنا نزول الله نفسه ، ولا نحتاج أن نقول : بذاته ؛ ما دام الفعل أضيف إليه ؛ فهو له ، لكن بعض العلماء قالوا : ينزل بذاته ؛ لأنهم لجئوا إلى ذلك ، واضطروا إليه ؛ لأن هناك من حرَّفوا الحديث وقالوا : الذى ينزل أمر الله . وقال آخرون : بل الذى ينزل رحمة الله . وقال آخرون : بل الذى ينزل مَلَكٌ من ملائكة الله .

وهذا باطلٌ ؛ فإن نزول أمر الله دائمًا وأبدًا ، ولا يختص نزوله فى الثلث الأخير من الليل ؛

---

(1) أخرجه البخارى (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) .

(2) أخرجه مسلم (١٣٤٨) .

....

قال الله تعالى : ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة : ٥]، وقال : ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود : ١٢٣] .

وأما قولهم : تنزل رحمة الله إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر . فسبحان الله ! الرحمة لا تنزل إلا فى هذا الوقت ! قال الله تعالى : ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل : ٥٣] . كل النعم من الله ، وهى من آثار رحمته ، وهى تترى كل وقت ! !

ثم نقول : أى فائدة لنا بنزول الرحمة إلى السماء الدنيا ؟ !

ثم نقول لمن قال : إنه مَلك من ملائكته : هل من المعقول أن الملك من ملائكة الله يقول : مَن يدعونى فأستجيب له . . . إلخ ؟ !

فتبين بهذا أن هذه الأقوال تحريف باطلٌ يبطله الحديث .

والله ؛ ليسوا أعلم بالله من رسول الله ﷺ ، وليسوا أنصح لعباد الله من رسول الله ﷺ ، وليسوا أفصح فى قولهم من رسول الله ﷺ .

يقولون : كيف تقولون : إن الله ينزل ؟ ! إذا نزل ؛ أين العلو ؟ ! وإذا نزل ؛ أين الاستواء على العرش ؟ ! وإذا نزل ؛ فالنزول حركة وانتقال ! ! وإذا نزل ؛ فالنزول حادث ، والحوادث لا تقوم إلا بحادث .

فنقول : هذا جدال بالباطل ، وليس بمانع من القول بحقيقة النزول .

هل أنتم أعلم بما يستحقه الله عز وجل من أصحاب الرسول ﷺ ؟ !

فأصحاب الرسول ﷺ ما قالوا هذه الاحتمالات أبدًا ؛ قالوا : سمعنا وآمنا وقبلنا وصدقنا .

وأنتم أيها الخالفون المخالفون تأتون الآن وتجادلون بالباطل وتقولون : كيف ؟ ! وكيف ؟ !

نحن نقول : ينزل ، ولا نتكلم عن استوائه على العرش ؛ هل يخلو منه العرش أو لا يخلو ؟ !

أما العلو ؛ فنقول : ينزل ، لكنه عال عز وجل على خلقه ؛ لأنه ليس معنى النزول أن السماء تقله ، وأن السماوات الأخرى تظله ؛ إذ إنه لا يحيط به شىء من مخلوقاته .

فنقول : هو ينزل حقيقة مع علوه حقيقة ، وليس كمثله شىء .

أما الاستواء على العرش فهو فعل ، ليس من صفات الذات ، وليس لنا حق - فيما أرى - أن نتكلم هل يخلو منه العرش أو لا يخلو ، بل نسكت كما سكت عن ذلك الصحابة رضى الله عنهم .

....

وإذا كان علماء أهل السنة لهم فى هذا ثلاثة أقوال : قول بأنه يخلو ، وقول بأنه لا يخلو ، وقول بالتوقف .

وشيخ الإسلام رحمه الله فى « الرسالة العرشية » يقول : إنه لا يخلو منه العرش ؛ لأنَّ أدلة استوائه على العرش محكمة ، والحديث هذا محكم ، والله عز وجل لا تقاس صفاته بصفات الخلق ؛ فيجب علينا أن نبقى نصوص الاستواء على إحكامها ، ونص النزول على إحكامه ، ونقول : هو مستوٍ على عرشه ، نازل إلى السماء الدنيا ، والله أعلم بكيفية ذلك ، وعقولنا أقصر وأدنى وأحقر من أن تحيط بالله عز وجل .

القول الثاني : التوقف ؛ يقولون : لا نقول : يخلو ، ولا : لا يخلو .

والثالث : أنه يخلو منه العرش .

وأورد المتأخرون الذين عرفوا أن الأرض كروية وأن الشمس تدور على الأرض إشكالًا ؛ قالوا : كيف ينزل فى ثلث الليل ؟ ! وثلث الليل إذا انتقل عن المملكة العربية السعودية ؛ ذهب إلى أوربا وما قاربها ؟ ! أفيكون نازلًا دائمًا ؟ !

فنقول : آمن أولًا بأن الله ينزل فى هذا الوقت المعين ، وإذا آمنت ؛ ليس عليك شيء وراء ذلك ، لا تقل : كيف ؟ ! وكيف ؟ ! بل قل : إذا كان ثلث الليل فى السعودية ؛ فالله نازل ، وإذا كان فى أمريكا ثلث الليل ؛ يكون نزول الله أيضًا ، وإذا طلع الفجر ؛ انتهى وقت النزول فى كل مكان بحسبه .

إذن ؛ موقفنا أن نقول : إنا نؤمن بما وصل إلينا عن طريق محمد رسول الله ﷺ ؛ بأن الله ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الآخر من الليل ، ويقول : « من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفرنى فأغفر له ؟ ! » .

من فوائد هذا الحديث :

أولًا : إثبات العلو لله من قوله : « ينزل » .

ثانيًا : إثبات الأفعال الاختيارية التى هى الصفات الفعلية من قوله : « ينزل حين يبقى ثلث الليل الآخر » .

ثالثًا : إثبات القول لله من قوله : « يقول » .

رابعًا : إثبات الكرم لله عز وجل من قوله : « من يدعونى.. من يسألنى .. من يستغفرنى.. » .

....

وفيه من الناحية المسلكية :

أنه ينبغى للإنسان أن يغتنم هذا الجزء من الليل ، فيسأل اللّه عز وجل ويدعوه ويستغفره ، ما دام الرب سبحانه يقول : « من يدعونى . .. من يستغفرنى . . .» و(من) : للتشويق ؛ فينبغى لنا أن نستغل هذه الفرصة ؛ لأنه ليس لك من العمر إلا ما أمضيته فى طاعة اللّه ، وستمر بك الأيام ؛ فإذا نزل بك الموت ؛ فكأنك ولدت تلك الساعة ، وكل ما مضى ليس بشىء .

❁ قال الشيخ الفوزان :

قوله : (ينزل ربنا) ؛أى : نزولًا يليق بجلاله ، نؤمن به ، ولا نشبهه بنزول المخلوق ؛ لأنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾

(إلى سماء الدنيا) ؛أى : السماء الدنيا من إضافة الموصوف إلى صفته .

(حين يبقى ثلث الليل الآخر)برفع الآخر صفةً لـ « ثلث » ، وفى هذا تعيين لوقت النزول الإلهى .

قوله : (فأستجيب له) .بالنصب على جواب الاستفهام ، وكذا قوله : (فأعطيه) ، و(أغفر له) .

وقوله : (فأستجيب له) ؛أى : أجيب دعوته .

والشاهد من الحديث :أن فيه ثبوت النزول الإلهى ، وهو من صفات الأفعال ، وفى الحديث أيضًا إثبات العلو للّه تعالى ؛ فإن النزول يكون من العلو .

وفيه الرد على من أول الحديث بأن معناه نزول رحمته أو أمره ؛ لأن الأصل الحقيقة وعدم الحذف ، ولأنه قال : (من يدعونى فأستجيب له) فهل يعقل أن تقول رحمته أو أمره هذا المقال ؟ !

وفى الحديث إثبات الكلام للّه تعالى حيث جاء فيه : (فيقول - إلخ) ، وفيه إثبات الإعطاء والإجابة والمغفرة للّه سبحانه ، وهى صفات أفعالٍ .

وقوله : (متفق عليه) ؛أى : بين البخارى ومسلمٍ .

❁ قال الشيخ هراس :

قوله : (فمن ذلك مثل قوله ﷺ) إلخ الكلام على هذا الحديث من جهتين ؛ الأولى : صحته من جهة النقل ، وقد ذكر المؤلف رحمه اللّه أنه متفق عليه . ويقول الذهبى فى كتابه

٢- إثباتُ أن اللَّهَ يَفْرَحُ ويَضْحَكُ :

وقولِه ﷺ: « لَلَّهُ أشَدُّ فرحًا بتوبةِ عبدِه المؤمنِ التائبِ مِن أحدِكم براحلتِه »(١). الحديثَ ، متفقٌ عليه.

« العلو للعلى الغفار » : إن أحاديث النزول متواترة تفيدُ القطعَ ، وعلى هذا فلا مجال لإنكار أو جحود .

الثانية : ما يفيده هذا الحديث وهو إخباره ﷺ بنزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلخ . ومعنى هذا أن النزول صفة للَّه عزَّ وجلَّ على ما يليق بجلاله وعظمته ، فهو لا يماثل نزول الخلق كما أن استواءه لا يماثل استواء الخلق .

يقول شيخ الإسلام رحمه اللَّه فى تفسير سورة « الإخلاص » : « فالرب سبحانه إذا وصفه رسوله بأنه ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة ، وأنه يدنو عشية عرفة إلى الحجاج ، وأنه كلم موسى فى الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، وأنه استوى إلى السماء وهى دُخَان فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا لم يلزم من ذلك أن تكون هذه الأفعال من جنس ما نشاهده من نزول هذه الأعيان المشهودة حتى يقال : ذلك يستلزم تفريغ مكان وشغل آخر » .

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بالنزول صفة حقيقية للَّه عزَّ وجلَّ على الكيفية التى يشاء ، فيثبتون النزول كما يثبتون جميع الصفات التى ثبتت فى الكتاب والسنة ، ويقفون عند ذلك فلا يكيفون ولا يمثلون ولا ينفون ولا يعطلون ، ويقولون : إن الرسول أخبرنا أنه ينزل ولكنه لم يخبرنا كيف ينزل ، وقد علمنا أنه فعال لما يريد ، وأنه على كل شىء قدير .

ولهذا ترى خواص المؤمنين يتعرضون فى هذا الوقت الجليل لألطاف ربهم ومواهبه ، فيقومون لعبوديته خاضعين خاشعين داعين متضرعين يرجون منه حصول مطالبهم التى وعدهم بها على لسان رسوله ﷺ .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هذا الحديث فى إثبات الفرح « للَّه أشدُّ فرحًا بتوبة عبده . . . »(1).

« للَّه » : اللام هذه لام الابتداء . « اللَّه » مبتدأ .

« أشد » : خبر المبتدأ .

---

(1) أخرجه البخارى (٦٣٠٨) ، ومسلم (٢٧٤٤) .

....

« فرحًا » : تمييز .

قال المؤلف : « الحديث » ؛ أى : أكمل الحديث .

والحديث أن هذا الرجل كان معه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فضلَّت عنه ، فذهب يطلبها ، فلم يجدها ، فأيس من الحياة ثم اضطجع تحت شجرة ينتظر الموت ؛ فإذا بخِطام ناقته متعلقًا بالشجرة ، ولا أحد يستطيع أن يقدر هذا الفرح ؛ إلا من وقع فيه ، فأمسك بخطام الناقة ، وقال : اللهم أنت عبدى ، وأنا ربك ؛ أخطأ من شدة الفرح ؛ لم يملك كيف يتصرف فى الكلام ! !

فاللّه عز وجل أفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه من هذا الرجل براحلته ، وليس اللّه عز وجل بمحتاج إلى توبتنا ، بل نحن مفتقرون إليه فى كل أحوالنا ، لكن لكرمه جل وعلا ومحبته للإحسان والفضل والجود يفرح هذا الفرح الذى لا نظير له بتوبة الإنسان إذا تاب إليه .

فى هذا الحديث :إثبات الفرح للّه عز وجل ؛ فنقول فى هذا الفرح : إنه فرح حقيقى ، وأشد فرح ، ولكنه ليس كفرح المخلوقين .

الفرح بالنسبة للإنسان هو نشوة وخِفَّة يجدها الإنسان من نفسه عند حصول ما يسره ، ولهذا تشعر بأنك إذا فرحت بالشىء كأنك تمشى على الهواء ، لكن بالنسبة للّه عز وجل لا نفسر الفرح بمثل ما نعرفه من أنفسنا ؛ نقول : هو فرح يليق به عز وجل ؛ مثل بقية الصفات ؛ كما أننا نقول : للّه ذات ، ولكن لا تماثل ذواتنا ؛ فله صفات لا تماثل صفاتنا ؛ لأن الكلام عن الصفات فرع عن الكلام فى الذات .

فنؤمن بأن اللّه تعالى له فرح كما أثبت ذلك أعلم الخلق به ، محمد ﷺ ، وأنصح الخلق للخلق ، وأفصح الخلق فيما ينطق به عليه الصلاة والسلام .

ونحن على خطر إذا قلنا : المراد بالفرح الثواب ؛ لأن أهل التحريف يقولون : إن اللّه لا يفرح ، والمراد بفرحه : إثابته التائب ، أو : إرادة الثواب ؛ لأنهم هم يثبتون أن للّه تعالى مخلوقًا بائنًا منه هو الثواب ، ويثبتون الإرادة ؛ فيقولون فى الفرح : إنه الثواب المخلوق ، أو : إرادة الثواب .

ونحن نقول : المراد بالفرح : الفرح حقيقة ؛ مثلما أن المراد باللّه عز وجل : نفسه حقيقة ، ولكننا لا نمثل صفاتنا بصفات اللّه أبدًا .

ويستفاد من هذا الحديث : مع إثبات الفرح للّه عز وجل : كمال رحمته جل وعلا ورأفته

....

بعباده ؛ حيث يحب رجوع العاصى إليه هذه المحبة العظيمة ، هارب من الله ثم وقف ورجع إلى الله ، يفرح الله به هذا الفرح العظيم .

ومن الناحية المسلكية : يفيدنا أن نحرص على التوبة غاية الحرص ، كلما فعلنا ذنبًا ؛ تبنا إلى الله .

قال الله تعالى فى وصف المتقين : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ ؛ أى فاحشة ؛ مثل : الزنى ، واللواط ، ونكاح ذوات المحارم ... قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء : ٢٢] ، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء : ٣٢] ، وقال لوط لقومه : ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [الأعراف : ٨٠] .

إذن ؛ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ؛ ذكروا الله تعالى فى نفوسهم ؛ ذكروا عظمته ، وذكروا عقابه ، وذكروا ثوابه للتائبين ؛ ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ ؛ فعلوا ما فعلوا ؛ لكنهم ذكروا الله تعالى فى نفوسهم ، واستغفروا لذنوبهم ، فغفر لهم ، والدليل : ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ١٣٥] .

فأنت إذا علمت أن الله يفرح بتوبتك هذا الفرح الذى لا نظير له ؛ لا شك أنك سوف تحرص غاية الحرص على التوبة .

وللتوبة شروط خمسة :

الأول : الإخلاص لله عز وجل ؛ بألّا يحملك على التوبة مراءاة الناس ، أو نيل الجاه عندهم ، أو ما أشبه ذلك من مقاصد الدنيا .

الثانى : الندم على المعصية .

الثالث : الإقلاع عنها ، ومن الإقلاع إذا كانت التوبة فى حق من حقوق الآدميين : أن ترد الحق إلى صاحبه .

الرابع : العزم على ألّا تعود فى المستقبل .

الخامس : أن تكون التوبة فى وقت القبول ، وينقطع قبول التوبة بالنسبة لعموم الناس بطلوع الشمس من مغربها ، وبالنسبة لكل واحد بحضور أجله .

قال الله تعالى : ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ

....

﴿ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء: ١٨].

وصح عن النبي ﷺ أن زمن التوبة ينقطع إذا طلعت الشمس من مغربها[1]، والناس يؤمنون حينئذٍ، ولكـن؛ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

هذه خمسة شروط؛ إذا تمت صحت التوبة.

ولكن؛ هل يشترط لصحة التوبة أن يتوب من جميع الذنوب؟!

فيه خلاف، ولكن الصحيح أنه ليس بشرط، وأنها تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره، لكن هذا التائب لا يصدق عليه وصف التائبين المطلق؛ فيقال: تاب توبة مقيدة، لا مطلقة.

فلو كان أحد يشرب الخمر ويأكل الربا، فتاب من شرب الخمر؛ صحت توبته من الخمر، وبقى إثمه فى أكل الربا، ولا ينال منزلة التائبين على الإطلاق؛ لأنه مُصِرٌّ على بعض المعاصى.

رجل تمت الشروط فى حقه، وعاد إلى الذنب مرة أخرى؛ فلا تنتقض توبته الأولى؛ لأنه عزم على ألَّا يعود، ولكن سولت له نفسه، فعاد؛ إنما يجب عليه أن يتوب مرة ثانية، وهكذا؛ كلما أذنب؛ يتوب؛ وفضل الله واسع.

✽ قال الشيخ الفوزان:

(لَلَّهُ) اللام لام الابتداء.

(أشد فرحًا) منصوب على التمييز، والفرح فى اللغة: السرور ولذة القلب.

(بتوبة عبده) التوبةُ هى الإقلاعُ عن الذنب، والرجوع إلى الطاعة.

(براحلته) الراحلة الناقة التى تصلح أن ترحل.

(الحديث) منصوب بفعلٍ مقدرٍ؛ أى: أكمل الحديث؛ لأن المصنف اقتصر على الشاهد منه، وهو إثبات الفرح لله سبحانه على ما يليق بجلاله، وهو صفة كمالٍ، لا يشبهه فرح أحدٍ من خلقه، بل هو كسائر صفاته.

وهو فرح إحسانٍ وبرٍّ ولطفٍ، لا فرح محتاجٍ إلى توبة عبده، ينتفع بها؛ فإنه سبحانه لا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصى.

---

(1) أخرجه البخارى (٤٦٣٥)، ومسلم (١٥٧).

وقولِه ﷺ : « يَضْحَكُ اللَّهُ إلى رجلَيْنِ ، يَقْتُلُ أحدُهما الآخرَ ، كلاهما يَدْخُلُ الجنةَ » . متفقٌ عليه[١] .

✽ قال الشيخ هراس :

قوله : (للَّه أشد فرحًا) إلخ : تتمة هذا الحديث كما فى البخارى وغيره : « للَّه أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل بأرض فلاة دوية مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فنزل عنها فنام وراحلته عند رأسه فاستيقظ وقد ذهبت ، فذهب فى طلبها فلم يقدر عليها حتى أدركه الموت من العطش ، فقال : واللَّه لأرجعن فلأموتن حيث كان رحلى ، فرجع فنام فاستيقظ ، فإذا راحلته عند رأسه ، فقال : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » .

وفى هذا الحديث إثبات صفة الفرح للَّه عز وجل والكلام فيه كالكلام فى غيره من الصفات أنه صفة حقيقية للَّه عزَّ وجلَّ على ما يليق به ، وهو من صفات الفعل التابعة لمشيئته تعالى وقدرته ، فيحدث له هذا المعنى المعبر عنه بالفرح عندما يحدث عبده التوبة والإنابة إليه وهو مستلزم لرضاه عن عبده التائب وقبوله توبته . وإذا كان الفرح فى المخلوق على أنواع فقد يكون فرح خفة وسرور وطرب ، وقد يكون فرح أشر وبطر ، فاللَّه عزَّ وجلَّ منزه عن ذلك كله ، ففرحه لا يشبه فرح أحد من خلقه لا فى ذاته ولا فى أسبابه ولا فى غاياته ، فسببه كمال رحمته وإحسانه التى يجب من عباده أن يتعرضوا لها ، وغايته إتمام نعمته على التائبين المنيبين .

وأما تفسير الفرح بلازمه وهو الرضا وتفسير الرضا بإرادة الثواب ، فكل ذلك نفى وتعطيل لفرحه ورضاه سبحانه ، أوجبه سوء ظن هؤلاء المعطلة بربهم حيث توهموا أن هذه المعانى تكون فيه كما هى فى المخلوق - تعالى اللَّه عن تشبيههم وتعطيلهم .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

هذا الحديث فى إثبات الضَّحك ، وهو قوله ﷺ : « يضحك اللَّه إلى رجلين ؛ يقتل أحدهما الآخر ؛ كلاهما يدخل الجنة »[1] .

وفى بعض النسخ : « يدخلان » ، وهى صحيحة ؛ لأن (كلا) يجوز فى خبرها - سواء كان فعلًا أو اسمًا - مراعاة اللفظ ومراعاة المعنى ، وقد اجتمعا فى قول الشاعر يصف فرسين :

كلاهما حين جد الجرى بينهما قد أقلعا وكلا أنفيهما رابي

---

(1) أخرجه البخارى (٢٨٢٦) ، ومسلم (١٨٩٠) .

....

الحديث يخبر فيه النبى عليه الصلاة والسلام أن اللَّهَ يضحكُ إلى رجلين ؛ عند ملاقاتهما يقتل أحدهما الآخر ؛ كلاهما يدخلان الجنة ، وأحدهما لم يقتل الآخر إلا لشدة العداوة بينهما ، ثم يدخلان الجنة بعد ذلك ، فتزول تلك العداوة ؛ لأن أحدهما كان مسلمًا ، والآخر كان كافرًا ، فقتله الكافر ، فيكون هذا المسلم شهيدًا ، فيدخل الجنة ، ثم مَنَّ اللَّه على هذا الكافر ، فأسلم ، ثم قتل شهيدًا ، أو مات بدون قتل ؛ فإنه يدخل الجنة ، فيكون هذا القاتل والمقتول كلاهما يدخل الجنة ، فيضحك اللَّه إليهما .

ففى هذا إثبات الضحك للَّه عز وجل ، وهو ضحك حقيقى ، لكنه لا يماثل ضحك المخلوقين ؛ ضحك يليق بجلاله وعظمته ، ولا يمكن أن نمثله ؛ لأننا لا يجوز أن نقول : إن للَّه فمًا أو أسنانًا أو ما أشبه ذلك ، لكن نثبت الضحك للَّه على وجه يليق به سبحانه وتعالى .

فإذا قال قائل : يلزم من إثبات الضحك أن يكون اللَّه مماثلًا للمخلوق .

فالجواب : لا يلزم أن يكون مماثلًا للمخلوق ؛ لأن الذى قال : « يضحك » . هو الذى أنزل عليه قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

ومن جهة أخرى ؛ فالنبى عليه الصلاة والسلام لا يتكلم فى مثل هذا إلا عن وحى ؛ لأنه من أمور الغيب ، ليس من الأمور الاجتهادية التى قد يجتهد فيها الرسول عليه الصلاة والسلام ، ثم يقره اللَّه على ذلك أو لا يقرُّه ، ولكنه من الأمور الغيبية التى يتلقاها الرسول عليه الصلاة والسلام عن طريق الوحى .

لو قال قائل : المراد بالضحك الرضا ؛ لأن الإنسان إذا رضى عن الشىء ؛ سر به وضحك . والمراد بالرضا الثواب أو إرادة الثواب ؛ كما قال ذلك أهل التعطيل .

فالجواب أن نقول : هذا تحريف للكلم عن مواضعه ؛ فما الذى أدراكم أن المراد بالرضا الثواب ؟ !

فأنتم الآن قلتم على اللَّه ما لا تعلمون من وجهين :

الوجه الأول : صرفتم النص عن ظاهره بلا علم .

الوجه الثانى : أثبتم له معنى خلاف الظاهر بلا علم .

ثم نقول لهم : الإرادة ؛ إذا قلتم : إنها ثابتة للَّه عز وجل ؛ فإنه تنتقض قاعدتكم ؛ لأن للإنسان إرادة ؛ كما قال تعالى : ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ

....

﴿ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران : ١٢٥] ؛ فللإنسان إرادة ، بل للجدار إرادة ؛ كما قال تعالى : ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف : ٧٧] ؛ فأنتم إما أن تنفوا الإرادة عن اللَّه عز وجل كما نفيتم ما نفيتم من الصفات ، وإما أن تثبتوا للَّه عز وجل ما أثبته لنفسه ، وإن كان للمخلوق نظيره فى الاسم لا فى الحقيقة .

والفائدة المسلكية من هذا الحديث :

هو أننا إذا علمنا أن اللَّه عز وجل يضحك ؛ فإننا نرجو منه كل خير .

ولهذا قال رجل للنبى ﷺ : يا رسول اللَّه ، أَوَ يضحك ربنا ؟ قال : « نعم » . قال : لن نعدم من رب يضحك خيرًا[1] .

إذا علمنا ذلك ؛ انفتح لنا الأمل فى كل خير ؛ لأن هناك فرقًا بين إنسان عبوس لا يكاد يُرى ضاحكًا ، وبين إنسان يضحك .

وقد كان النبى ﷺ دائم البِشرِ كثير التبسم عليه الصلاة والسلام .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله ﷺ : (يضحك اللَّه إلى رجلين – إلخ) . قد بين النبى ﷺ فى آخر الحديث سبب ذلك فى قوله : « يقاتل هذا فى سبيل اللَّه عز وجل ، فيستشهد ، ثم يتوب اللَّه على القاتل ، فيسلم ، فيقاتل فى سبيل اللَّه عز وجل فيستشهد » .

وهذا من كمال إحسان اللَّه سبحانه ، وسعة رحمته ؛ فإن المسلم يقاتل فى سبيل اللَّه ، فيقتله الكافر ، فيكرم اللَّه المسلم بالشهادة ، ثم يمن اللَّه على ذلك الكافر القاتل فيهديه للإسلام ، فيدخلان الجنة جميعًا ، فهذا أمر عجيب ، والضحك يكون من الأمور المعجبة التى تخرج عن نظائرها .

والشاهد من الحديث : إثبات الضحك له سبحانه ، وهو صفة من صفاته الفعلية ، التى نثبتها له على ما يليق بجلاله وعظمته ، ليس كضحك المخلوق .

❁ قال الشيخ هراس :

قوله : (يضحك اللَّه إلى رجلين) إلخ : يثبت أهل السنة والجماعة الضحك للَّه عزَّ وجلَّ

---

(1) ضعفه الألبانى فى « ضعيف الجامع » (٣٥٨٥) .

٣- إثباتُ أنَّ اللّهَ يَعْجَبُ ويَضْحَكُ :

وقولِه ﷺ: « عَجِبَ ربُّنا مِن قُنُوطِ عبادِه ، وقُرْبِ غيره ، يَنْظُرُ إليكم أَزِلِينَ ، قَنِطِينَ ، فيَظَلُّ يَضْحَكُ ، يَعْلَمُ أن فرجَكم قريبٌ »[1]. حديثٌ حسنٌ.

كما أفاده هذا الحديث وغيره على المعنى الذى يليق به سبحانه والذى لا يشبهه ضحك المخلوقين عندما يستخفهم الفرح أو يستفزهم الطرب ، بل هو معنى يحدث فى ذاته عند وجود مقتضيه ، وإنما يحدث بمشيئته وحكمته ، فإن الضحك إنما ينشأ فى المخلوق عند إدراكه لأمر عجيب يخرج عن نظائره ، وهذه الحالة المذكورة فى هذا الحديث ، كذلك فإن تسليط الكافر على قتل المسلم مدعاة فى بادئ الرأى لسخط اللّه على هذا الكافر وخذلانه ومعاقبته فى الدنيا والآخرة ، فإذا مَنَّ اللّه على هذا الكافر بعد ذلك بالتوبة وهداه للدخول فى الإسلام وقاتل فى سبيل اللّه حتى يستشهد فيدخل الجنة كان ذلك من الأمور العجيبة حقًّا .

وهذا من كمال رحمته وإحسانه وسعة فضله على عباده سبحانه ، فإن المسلم يقاتل فى سبيل اللّه ويقتله الكافر ، فيكرم اللّه المسلم بالشهادة ، ثم يمن على ذلك القاتل فيهديه للإسلام والاستشهاد فى سبيله فيدخلان الجنة جميعًا .

وأما تأويل ضحكِه سبحانه بالرضا أو القبول أو أن الشىء حل عنده بمحل ما يضحك منه ، وليس هناك فى الحقيقة ضحك فهو نفى لما أثبته رسول اللّه ﷺ لربه فلا يلتفت إليه .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

هذا الحديث : فى إثبات العجب وصفات أخرى .

العجب : هو استغراب الشىء ، ويكون ذلك لسببين :

السبب الأول : خفاء الأسباب على هذا المستغرب للشىء المتعجب منه ؛ بحيث يأتيه بغتة بدون توقع ، وهذا مستحيل على اللّه تعالى ؛ لأن اللّه بكل شىء عليم ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

والثانى : أن يكون السبب فيه خروج هذا الشىء عن نظائره وعما ينبغى أن يكون عليه ؛ بدون قصور من المتعجب ؛ بحيث يعمل عملًا مستغربًا لا ينبغى أن يقع من مثله .

وهذا ثابت للّه عز وجل ؛ لأنه ليس عن نقص من المتعجب ، ولكنه عجب بالنظر إلى حال المتعجب منه .

....

قوله : « عجب ربنا من قنوط عباده » : القنوط : أشد اليأس . يعجب الرب عز وجل من دخول اليأس الشديد على قلوب العباد .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(عجب ربنا) قال في المصباح : التعجب يستعمل على وجهين :

أحدهما : ما يحمده الفاعل ، ومعناه الاستحسان والإخبار عن رضاه به .

والثاني : ما يكرهه ، ومعناه الإنكار والذم له .

(من قنوط عباده) القنوط شدة اليأس من الشيء ، والمراد هنا اليأس من نزول المطر وزوال القحط .

❁ قال الشيخ هراس :

قوله : (عجب ربنا) إلخ : هذا الحديث يثبت للَّه عزَّ وجلَّ صفة العجب ، وفي معناه قوله عليه الصلاة والسلام : « عجب ربك من شاب ليس له صبوة » . وقرأ ابن مسعود رضي اللَّه عنه : (بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ) بضم التاء على أنها ضمير الرب جل شأنه .

وليس عجبه سبحانه ناشئًا عن خفاء في الأسباب أو جهل بحقائق الأمور كما هو الحال في عجب المخلوقين ، بل هو معنى يحدث له سبحانه على مقتضى مشيئته وحكمته وعند وجود مقتضيه ، وهو الشيء الذي يستحق أن يتعجب منه .

وهذا العجب الذي وصفه به الرسول ربه هنا من آثار رحمته وهو من كماله تعالى ، فإذا تأخر الغيث عن العباد مع فقرهم وشدة حاجتهم واستولى عليهم اليأس والقنوط وصار نظرهم قاصرًا على الأسباب الظاهرة ، وحسبوا ألَّا يكون وراءها فرج من القريب المجيب فيعجب اللَّه منهم .

وهذا محل عجيب حقًا ؛ إذ كيف يقنطون ورحمته وسعت كل شيء والأسباب لحصولها قد توفرت ، فإن حاجة العباد وضرورتهم من أسباب رحمته ، وكذا الدعاء بحصول الغيث والرجاء في اللَّه من أسبابها ، وقد جرت عادته سبحانه في خلقه أن الفرج مع الكرب ، وأن اليسر مع العسر ، وأن الشدة لا تدوم ، فإذا انضم إلى ذلك قوة التجاء وطمع في فضل اللَّه ، وتضرع إليه ودعاء ؛ فتح اللَّه عليهم من خزائن رحمته ما لا يخطر على البال .

والقنواط مصدر قنط يقنط وهو اليأس من رحمة اللَّه ، قال تعالى : ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ

....

رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

✽ قال الشيخ ابن عثيمين:

« وقرب غِيرِه »: الواو بمعنى (مع)؛ يعنى: مع قرب غيره.

و(الغير): اسم جمع غِيَرَة؛ كطير: اسم جمع طيرة، وهى اسم بمعنى التغيير، وعلى هذا؛ فيكون المعنى: وقرب تغييره.

فيعجب الرب عز وجل؛ كيف نقنط وهو سبحانه وتعالى قريب التغيير، يغير الحال إلى حال أخرى بكلمة واحدة، وهى: كن. فيكون.

✽ قال الشيخ الفوزان:

(وقرب غيره)؛ « غيره » - بكسر الغين، وفتح الياء -؛ أى: تغييره الحال من شدةٍ إلى رخاءٍ.

✽ قال الشيخ هراس:

قوله: (وقرب خيره) أى فضله ورحمته، وقد روى (غيره)[1]، والغير من قولك: غير الشىء فتغير، وفى حديث الاستسقاء: « من يكفر بالله يلق الغير ». أى: تغير الحال وانتقالها من الصلاح إلى الفساد.

✽ قال الشيخ ابن عثيمين:

وقوله: « ينظر إليكم أزلين »؛ أى: ينظر الله إلينا بعينه.

« أزلين قَنِطين »: الأزل: الواقع فى الشدة. و« قنطين »: جمع قانط، والقانط: اليائس من الفرج وزوال الشدة.

فذكر النبى ﷺ حال الإنسان وحال قلبه؛ حاله أنه واقع فى شدة، وقلبه قانط يائس مستبعد للفرج.

✽ قال الفوزان:

(ينظر إليكم أزلين) الأزل - بسكون الزاى -: الضيق: وقد أزل الرجل يأزل أزلًا، صار فى ضيقٍ وجدبٍ.

---

(1) ليس فيما تتبعته من المراجع سوى هذا اللفظ « غيره » بالغين. « إسماعيل الأنصاري ».

....

✽ **قال الشيخ هراس :**

قوله : (أزلين قنطين) . حالان من الضمير المجرور فى إليكم ، وأزلين : جميع أَزل اسم فاعل من الأَزْل بمعنى الشدة والضيق ، يقال : أَزِلَ الرجل يَأْزَلُ أَزَلًا من باب فَرِحَ أى : صار فى ضيق وجدب .

✽ **قال الشيخ ابن عثيمين :**

« فيظل يضحك » . يظل يضحك من هذه الحال العجيبة الغريبة ؛ كيف تقنط من رحمة أرحم الراحمين الذى يقول للشيء : كن . فيكون ؟ !

« يعلم أن فرجكم قريب » . أى : زوال شدتكم قريب .

فى هذا الحديث عدة صفات :

أولًا : العجب ؛ لقوله : « عجب ربنا من قنوط عباده » .

وقد دل على هذه الصفة القرآن الكريم ؛ قال اللّه تعالى : (بَلْ عَجِبتُ ويسخرون)[1] ؛ على قراءة ضم التاء .

ثانيًا : وفيه أيضًا بيان قدرة اللّه عز وجل ؛ لقوله : « وقرب غيره » ، وأنه عز وجل تام القدرة ، إذا أراد غير الحال من حال إلى ضدها فى وقت قريب .

ثالثًا : وفيه أيضًا من إثبات النظر ؛ لقوله : « ينظر إليكم » .

رابعًا : وفيه إثبات الضحك ؛ لقوله : « فيظل يضحك » .

خامسًا : وكذلك العلم ؛ « يعلم أن فرجكم قريب » .

سادسًا : والرحمة ؛ لأن الفرج من اللّه دليل على رحمة اللّه بعباده .

وكل هذه الصفات التى دل عليها الحديث يجب علينا أن نثبتها للّه عز وجل حقًا على حقيقتها ، ولا نتأول فيها ..

والفائدة المسلكية فى هذا : أن الإنسان إذا علم ذلك من اللّه سبحانه وتعالى ؛ حذر من هذا الأمر ، وهو القنوط من رحمة اللّه ، ولهذا كان القنوط من رحمة اللّه من الكبائر .

قال اللّه تعالى : ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر : ٥٦] .

---

(1) الآية ١٢ من سورة الصافات ، قرأ بها ابن مسعود رضي الله عنه .

٤- إثباتُ الرِّجْلِ والقدمِ للَّهِ سبحانَه :

وقولِه ﷺ : « لا تَزالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فيها ، وهي تَقولُ : هل مِن مَزِيدٍ ؟ حتى يَضَعَ ربُّ العِزَّةِ فيها رِجْلَه - وفي روايةٍ : عليها قدمَه - فيَنْزَوِي بعضُها إلى بعضٍ ، فتَقُولُ : قَطْ قَطْ »(١) . متفقٌ عليه.

وقال تعالى : ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف : ٨٧] .

فالقنوط من رحمة اللَّه ، واستبعاد الرحمة : من كبائر الذنوب ، والواجب على الإنسان أن يحسن الظن بربه ؛ إن دعاه أحسن الظن به بأنه سيجيبه ، وإن تعبَّد له بمقتضى شرعه ؛ فليحسن الظن بأن اللَّه سوف يقبل منه ، وإن وقعت به شدة ؛ فليحسن الظن بأن اللَّه سوف يزيلها ؛ لقول النبي ﷺ : « واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرًا » .

بل قد قال اللَّه تعالى : ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا إِلَّا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح : ٥، ٦] . ولن يغلب عسرٌ يُسْرَيْنِ . كما يروى عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(فيظل يضحك) هذا من صفاته الفعلية ، التي لا يشبهه فيها شيء من مخلوقاته ، ففي الحديث إثبات صفتين من صفات اللَّه الفعلية ، هما العجب والضحك .

وهما صفتان تليقان بجلاله ، ليستا كعجب المخلوق وضحك المخلوق .

وفي الحديث أيضًا : إثبات النظر للَّه سبحانه ، وهو من صفاته الفعلية أيضًا ؛ فإنه ينظر إلى عباده ، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ، ولا في السماء .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

هذا الحديث(1) . في إثبات الرجل أو القدم :

قوله : « لا تزال جهنم يلقى فيها » . هذا يوم القيامة ؛ يعني : يلقى فيها الناس والحجارة ؛ لأن اللَّه تعالى يقول : ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُۖ﴾ [البقرة : ٢٤] . وقد يقال : يلقى فيها الناس فقط ، وأن الحجارة لم تزل موجودة فيها ، والعلم عند اللَّه .

« يلقى فيها » : في هذا دليل على أن أهلها - والعياذ باللَّه - يلقون فيها إلقاءً لا يدخلون

---

(1) أخرجه البخاري (٧٣٨٤) ، ومسلم (٢٨٤٨) .

....

مكرمين، بل يدعون إلى نار جهنم دعًا؛ ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ [الملك: ٨].

❋ قال الشيخ الفوزان:

قوله: (لا تزال جهنم). جهنم اسم من أسماء النار، قيل: سميت بذلك لبعد قعرها. وقيل: لظلمتها من الجهمة، وهى الظلمة.

(يلقى فيها)؛ أى: يطرح فيها أهلها.

❋ قال الشيخ هراس:

قوله: (لا تزال جهنم) إلخ: فى هذا الحديث إثبات الرِّجل والقَدم للَّه عزَّ وجلَّ، وهذه الصفة تجرى مجرى بقية الصفات فنثبت للَّه على الوجه اللائق بعظمته سبحانه، والحكمة فى وضع رِجله سبحانه فى النار أنه قد وعد أن يملأها كما فى قوله تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

ولما كان مقتضى رحمته وعدله ألَّا يعذب أحدًا بغير ذنب، وكانت النار فى غاية العمق والسعة، حقق وعده تعالى فوضع فيها قدمه، فحينئذ يتلاقى طرفاها ولا يبقى فيها فضل عن أهلها.

وأما الجنة فإنه يبقى فيها فضل عن أهلها مع كثرة ما أعطاهم وأوسَعَ لهم؛ فينشئ اللَّه لها خلقًا آخرين كما ثبت بذلك الحديث.

❋ قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله: «وهى تقول: هل من مزيد؟». (هل): للطلب؛ يعنى: زيدوا. وأبعد النُّجعة من قال: إن الاستفهام هنا للنفى. والمعنى على زعمه: لا مزيد على ما فىَّ، والدليل على بطلان هذا التأويل:

❋ قال الشيخ الفوزان:

(وهى تقول: هل من مزيد)؛ أى: تطلب الزيادة لسعتها، وقد وعدها اللَّه أن يملأها.

❋ قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله: «حتى يضع رب العزة فيها رجله». وفى رواية: «عليها قدمه»: لأن هذا يدل على أنها تطلب زيادة، وإلا لما وضع اللَّه عليها رجله حتى ينزوى بعضها إلى بعض؛ فكأنها تطلب

....

بشوق إلى من يلقى فيها زيادة على ما فيها .

قوله : « حتى يضع رب العزة » : عَبَّرَ برب العزة ؛ لأن المقام مقام عزة وغلبة وقهر .

وهنا (رب) ؛ بمعنى : صاحب ، وليست بمعنى خالق ؛ لأن العزة صفة من صفات الله ، وصفات الله تعالى غير مخلوقة .

وقوله : « فيها رجله » ، وفى رواية : « عليها قدمه » : (في) و(على) : معناهما واحد هنا ، والظاهر أن (في) بمعنى (على) ؛ كقوله : ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ﴾ [طه: ٧١] ؛ أى : عليها .

أما الرجل والقدم ؛ فمعناهما واحد ، وسميت رجل الإنسان قدمًا ؛ لأنها تتقدم فى المشى ؛ فإن الإنسان لا يستطيع أن يمشى برجله إلا إذا قدمها .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(حتى يضع رب العزة فيها رجله) لما كانت النار فى غاية الكبر والسعة ، وقد وعدها الله ملئها ، وكان مقتضى رحمته سبحانه أن لا يعذب أحدًا بغير جرمٍ ، حقق وعده ، ووضع عليها رجله .

✽قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « فينزوى بعضها إلى بعض » ؛ يعنى : ينضم بعضها إلى بعض من عظمة قدم البارى عز وجل .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(فينزوى بعضها إلى بعضٍ) ؛ أى : ينضم بعضها إلى بعضٍ ، ويتلاقى طرفاها ، ولا يبقى فيها فضل عن أهلها .

✽ قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « وتقول : قط قط » ؛ بمعنى : حسبى حسبى ؛ يعنى : لا أريد أحدًا .

فى هذا الحديث من الصفات :

أولًا : إثبات القول من الجماد ؛ لقوله : « وهى تقول » ، وكذلك : « فتقول : قط قط » ، وهو دليل على قدرة الله الذى أنطق كل شىء .

ثانيًا : التحذير من النار ؛ لقوله : « لا تزال جهنم يلقى فيها ، وهى تقول : هل من مزيد ؟ » .

ثالثًا : إثبات فضل الله عز وجل ؛ فإن الله تعالى تكفل للنار بأن يملأها كما قال : ﴿لَأَمْلَأَنَّ

....

جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]؛ فإذا دخلها أهلها، وبقى فيها فضل، وقالت: هل من مزيد؟ وضع الله عليها رِجله، فانزَوى بعضها إلى بعض، وامتلأت بهذا الانزواء.

وهذا من فضل الله عز وجل؛ وإلا فإن الله قادر على أن يخلق أقوامًا ويكمل ملأها بهم، ولكنه عز وجل لا يعذب أحدًا بغير ذنب؛ بخلاف الجنة، فيبقى فيها فضل عمن دخلها من أهل الدنيا، فيخلق الله أقوامًا يوم القيامة ويدخلهم الجنة بفضله ورحمته.

رابعًا: أن لله تعالى رِجلًا وقدمًا حقيقية، لا تماثل أرجل المخلوقين، ويسمى أهل السنة هذه الصفة: الصفة الذاتية الخبرية؛ لأنها لم تعلم إلا بالخبر، ولأن مسماها أبعاض لنا وأجزاء، لكن لا نقول بالنسبة لله: إنها أبعاض وأجزاء؛ لأن هذا ممتنع على الله عز وجل.

وخالف الأشاعرة وأهل التحريف فى ذلك، فقالوا: «يضع عليها رجله». يعنى: طائفة من عباده مستحقين للدخول، والرجل تأتى بمعنى الطائفة؛ كما فى حديث أيوب عليه الصلاة والسلام -: «أرسل الله إليه رِجلَ جراد من ذهب»[1]؛ يعنى: طائفة من جراد.

وهذا تحريف باطل؛ لأن قوله: «عليها»: يمنع ذلك.

وأيضًا؛ لا يمكن أن يضيف الله عز وجل أهل النار إلى نفسه؛ لأن إضافة الشىء إلى الله تكريم وتشريف.

وقالوا فى القدم: قدم؛ بمعنى: مقدم؛ أى: يضع الله تعالى عليها مقدمه؛ أى: من يقدمهم إلى النار.

وهذا باطلٌ أيضًا؛ فإن أهل النار لا يقدمهم البارى عز وجل، ولكنهم ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]، ويلقون فيها إلقاءً؛ فهؤلاء المحرفون فروا من شىء ووقعوا فى شرٍّ منه؛ فروا من تنزيه الله عن القدم والرجل، لكنهم وقعوا فى السفه ومجانبة الحكمة من أفعال الله عز وجل.

والحاصل أنه يجب علينا أن نؤمن بأن لله تعالى قدمًا، وإن شئنا؛ قلنا: رِجلًا؛ على سبيل الحقيقة؛ مع عدم المماثلة، ولا نكيف الرجل؛ لأن النبى ﷺ أخبرنا بأن للهِ تعالى رجلًا أو قدمًا، ولم يخبرنا كيف هذه الرِّجل أو القدم، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ

---

(1) أخرجه البخارى (٣٣٩١).

٥- إثبات النداءِ والصوتِ والكلامِ للَّهِ تعالى :

وقولِه ﷺ : « يقولُ اللَّهُ تعالى : يا آدمُ . فيقولُ : لبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ . فيُنادِى بصوتٍ : إنَّ اللَّهَ يَأمُرُكَ أن تُخْرِجَ مِن ذريتِك بَعْثًا إلى النارِ »(١) . متفق عليه.

مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

والفائدة المسلكية من هذا الحديث : هو الحذر الشديد من عمل أهل النار ؛ خشية أن يلقى الإنسان فيها كما يلقى غيره .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

(فتقول : قط قط) ؛ أى : حسبى ، ويكفينى .

والشاهد من الحديث : أن فيه إثبات الرجل والقدم للَّه تعالى على الوجه اللائق به سبحانه ، وهو من صفات الذات ، كالوجه واليد ، واللَّه تعالى أعلم .

وقد غلط فى تفسير هذا الحديث المعطلة حيث قالوا : (قدمه) نوع من الخلق ، وقالوا : (رجله) جماعة من الناس ، كما يقال : رجل جرادٍ .

والرد على هذا أن يقال : إن النبى ﷺ قال : « حتى (يضع) » ، ولم يقل : حتى يلقى ، كما قال فى أول الحديث : « يلقى فيها » .

وأيضًا القدم لا يصح تفسيره بالقوم ، لا حقيقةً ولا مجازًا .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هذا الحديث(1) : فى إثبات الكلام والصوت :

يخبر النبى عليه الصلاة والسلام عن ربه أنه يقول : « يا آدمُ » ! . وهذا يوم القيامة ، فيجيب آدم : « لبيك وسعديك » .

« لبيك » ؛ بمعنى : إجابة مع إجابة ، وهو مثنى لفظًا ، ومعناه : الجمع ، ولهذا يعرب على أنه ملحق بالمثنى .

و« سعديك » ؛ يعنى : إسعادًا بعد إسعاد ؛ فأنا ألبى قولك وأسألك أن تسعدنى وتعيننى .

قال : « فينادي » ؛ أى : اللَّه ؛ فالفاعل هو اللَّه عز وجل .

---

(1) أخرجه البخارى (٣٣٤٨) ، ومسلم (٢٢٢) .

....

وقوله : « بصوت » : هذا من باب التأكيد ؛ لأن النداء لا يكون إلا بصوت مرتفع ؛ فهو كقوله تعالى : ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ [الأنعام : ٣٨] ؛ فالطائر الذى يطير ؛ إنما يطير بجناحيه ، وهذا من باب التأكيد .

وقوله : « إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار » : ولم يقل : إنى آمرك ! وهذا من باب الكبرياء والعظمة ؛ حيث كنى عن نفسه تعالى بكنية الغائب ، فقال : « إن الله يأمرك » ؛ كما يقول الملك لجنوده : إن الملك يأمركم بكذا وكذا ؛ تفاخرًا وتعاظمًا ، والله سبحانه هو المتكبر وهو العظيم .

وجاء فى القرآن مثل هذا : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء : ٥٨] ، ولم يقل : إنى آمركم .

وقوله : « أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار » . أى مبعوثًا .

والحديث الآخر ؛ قال : « يا رب ! وما بعث النار؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون » .

✱ قال الشيخ الفوزان :

قوله : (لبيك وسعديك) لبيك ؛ أى : أنا مقيم على طاعتك ، من ألب بالمكان ، إذا أقام ، وهو منصوب على المصدر ، وثنى للتأكيد .

وسعديك : من المساعدة ، وهى المطاوعة ؛ أى : مساعدةً فى طاعتك بعد مساعدةٍ .

قوله : (فينادى) . بكسر الدال ، والمنادى هو الله تعالى .

(بصوتٍ) تأكيد لقوله : (ينادى) ؛ لأن النداء لا يكون إلا بصوتٍ ، وهذا كقوله تعالى : (وكلم الله موسى تكليمًا) .

قوله : (بعثًا إلى النار) . البعث هنا بمعنى المبعوث الموجه إليها ، ومعنى ذلك : ميز أهل النار من غيرهم .

والشاهد من الحديث : أن فيه إثبات القول من الله والنداء بصوتٍ يسمع ، وأن ذلك سيحصل يوم القيامة ، ففيه أن الله يقول وينادى متى شاء ، وكما يشاء .

✱ قال الشيخ هراس :

قوله : (يقول تعالى : يا آدم) إلخ : فى هذين الحديثين إثبات القول والنداء والتكلم لله

وقولِه ﷺ : « ما مِنكم مِن أحدٍ إلا سيُكَلِّمُه ربُّه ، ليس بينَه وبينَه تُرْجُمانٌ »[(١)].

عزَّ وجلَّ ، وقد سبق أن بيّنا مذهب أهل السنة والجماعة فى ذلك وأنهم يؤمنون بأن هذه صفات أفعال له سبحانه تابعة لمشيئته وحكمته ، فهو قال ويقول ، ونادى وينادى ، وكلم ويتكلم ، وأن قوله ونداءه وتكليمه إنما يكون بحروف وأصوات يسمعها من يناديه ويكلمه ، وفى هذا رد على الأشاعرة فى قولهم : أن كلامه قديم وأنه بلا حرف ولا صوت .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

هذا الحديث[(1)] فى إثبات الكلام أيضًا :

قوله : « ما » : نافية .

قوله : « من أحد » : مبتدأ ؛ دخلت عليه (من) الزائدة للتوكيد ؛ يعنى : ما منكم من أحد .

قوله : « إلا سيكلمه ربه » ؛ يعنى : هذه حاله ؛ سيكلمه الله عز وجل ؛ « ليس بينه وبينه ترجمان » ، وذلك يوم القيامة .

والترجمان : هو الذى يكون واسطة بين متكلمين مختلفين فى اللغة ، ينقل إلى أحدهما كلام الآخر باللغة التى يفهمها .

ويشترط فى المترجم أربعة شروط : الأمانة ، وأن يكون عالمًا باللغة التى يترجم منها ، وباللغة التى يترجم إليها ، وبالموضوع الذى يترجمه .

وفى هذا الحديث من صفات الله : الكلام ، وأنه بصوت مسموع مفهوم .

الفوائد المسلكية فى الحديث الأول : « يقول الله : يا آدم ! » : فيه بيان أن الإنسان إذا علم بذلك ؛ فإنه يحذر ويخاف أن يكون من التسعمائة والتسعة والتسعين .

وفى الحديث الثانى : يخاف الإنسان مع ذلك الكلام الذى يجرى بينه وبين ربه عز وجل أن يفتضح بين يدى الله إذا كلمه تعالى بذنوبه ، فيقلع عن الذنوب ، ويخاف من الله عز وجل .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (ما منكم من أحدٍ) . الخطاب للصحابة ، وهو عامٌّ لجميع المؤمنين .

(إلا سيكلمه ربه) ؛ أى : بلا واسطةٍ .

(ليس بينه وبينه ترجمان) الترجمان من يعبر بلغةٍ عن لغةٍ ؛ أى : ينقل الكلام من لغةٍ

---

(1) أخرجه البخارى (٦٥٣٩) ، ومسلم (١٠١٦) .

٦- إثباتُ عُلُوِّ اللَّهِ على خَلْقِه ، واستوائِه على عرشِه :

وقولِه ﷺ في رُقْيةِ المريضِ : « ربَّنا اللَّهَ الذى فى السماءِ ، تقَدَّس اسمُكَ ، أمْرُكَ فى السماءِ والأرضِ ، كما رَحْمَتُكَ فى السماءِ ، اجْعَل رحمتَكَ فى الأرضِ ، اغْفِرْ لنا حُوبَنا وخَطايانا ، أنت ربُّ الطَّيِّبِينَ ، أَنْزِلْ رحمةً مِن رحمتِك ، وشِفاءً مِن شفائِك على هذا الوجَعِ فيَبْرَأ »(1). حديثٌ حسنٌ ، رواه أبو داودَ وغيرُه.

إلى لغةٍ أخرى .

والشاهد من الحديث : أن فيه إثبات تكليم اللَّه سبحانه لعباده ، وأنه سبحانه يتكلم إذا شاء ، فكلامه من صفاته الفعلية ، وأنه يكلم كل مؤمنٍ يوم القيامة .

✽ قال الشيخ هراس :

وقد دل الحديث الثانى على أنه سبحانه سيكلم جميع عباده بلا واسطة ، وهذا تكليم عام ؛ لأنه تكليم محاسبة فهو يشمل المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، ولا ينافيه قوله تعالى : ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ لأن المنفى هنا هو التكليم بما يسر المكلم ، وهو تكليم خاص ويقابله تكليمه سبحانه لأهل الجنة تكليم محبة ورضوان وإحسان .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

هذا الحديث(1) : فى إثبات العلو للَّه وصفات أخرى :

قوله : « فى رقية المريض » : من باب إضافة المصدر إلى المفعول ؛ يعنى : فى الرقية إذا قرأ على المريض .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(فى رقية المريض) ؛ أى : القراءة على المريض ؛ طلبًا لشفائه ، وهى مشروعة إذا كانت بالقرآن والأدعية المباحة ، وممنوعة إذا كانت بألفاظٍ شركيةٍ ، أو أعمالٍ شركيةٍ .

✽ قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « ربنا اللَّه الذى فى السماء » : تقدم الكلام على قوله : « فى السماء » فى الآيات .

وقوله : « تقدس اسمك » ؛ أى : طهر ، والاسم هنا مفرد ، لكنه مضاف ، فيشكل كل الأسماء ؛ أى : تقدست أسماؤك من كل نقص .

---

(1) ضعفه الألبانى فى « ضعيف أبى داود » (٨٣٩) .

....

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

(ربنا الله الذى فى السماء) ؛أى : على السماء ، « ففى » هنا بمعنى « على » ، كقوله تعالى : ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [التوبة : ٢] ؛ أى : على الأرض ، ويجوز أن تكون « فى » للظرفية على بابها ، ويكون المراد بالسماء مطلق العلو .

(تقدس اسمك) ؛أى : تقدست أسماؤك عن كل نقصٍ ، فهو مفرد مضاف ، فيعم جميع أسماء الله .

❁ **قال الشيخ هراس :**

قوله : (ربنا الذى فى السماء) إلخ : الحديث الأول صريح فى علوه تعالى وفوقيته فهو كقوله تعالى : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ، وقد سبق أن قلنا : إن هذه النصوص ليس المراد منها أن السماء ظرف حاوٍ له سبحانه ، بل (فى) ، إما أن تكون بمعنى « على » كما قاله كثير من أهل العلم واللغة . و(فى) تكون بمعنى « على » فى مواضع كثيرة مثل قوله تعالى : ﴿ لأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه : ١٢٤] ، وإما أن يكون المراد من السماء جهة العلو ، وعلى الوجهين فهى نص فى علوه تعالى على خلقه .

وفى حديث الرقية المذكور توسل إلى الله عزَّ وجلَّ بالثناء عليه بربيوته وإلاهيته وتقديس اسمه وعلوه على خلقه وعموم أمره الشرعى وأمره القدرى ، ثم توسل إليه برحمته التى شملت أهل سماواته جميعًا أن يجعل لأهل الأرض نصيبًا منها ، ثم توسل إليه بسؤال مغفرة الحوْبِ وهو الذنب العظيم ، ثم الخطايا التى هى دونه ، ثم توسل إليه بربوبيته الخاصة للطيبين من عباده وهم الأنبياء وأتباعهم التى كان من آثارها أن غمرهم بنعم الدين والدنيا الظاهرة والباطنة .

فهذه الوسائل المتنوعة إلى الله لا يكاد يرد دعاء من توسل بها ، ولهذا دعا الله بعدها بالشفاء الذى هو شفاء الله الذى لا يدع مرضًا إلا أزاله ، ولا تعلق فيه لغير الله .

فهل يفقه هذا عباد القبور من المتوسلين بالذوات والأشخاص والحق والجاه والحزمة ونحو ذلك ؟

❁ **قال الشيخ ابن عثيمين :**

« أمرك فى السماء والأرض » ؛ أمر الله نافذ فى السماء والأرض ؛ كما قال تعالى : ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة : ٥] ، وقال : ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

....

❁ قال الشيخ الفوزان :

(أمرك فى السماء والأرض) ؛ أى : أمرك الكونى القدرى الذى ينشأ عنه جميع المخلوقات والحوادث ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس : ٨٢] .

وأمرك الشرعى المتضمن للشرائع التى شرعها لعباده .

❁ قال الشيخ ابن عثيمين :

وقوله : « كما رحمتك فى السماء اجعل رحمتك فى الأرض » : الكاف هنا للتعليل ، والمراد بها التوسل ؛ توسل إلى الله تعالى بجعل رحمته فى السماء أن يجعلها فى الأرض .

فإن قلت : أليس رحمة الله فى الأرض أيضًا ؟ !

قلنا : هو يقرأ على المريض ، والمريض يحتاج إلى رحمة خاصة يزول بها مرضه .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(كما رحمتك فى السماء اجعل رحمتك فى الأرض) هذا توسل إليه برحمته ، التى شملت أهل السماوات كلهم أن يجعل لأهل الأرض منها نصيبًا .

❁ قال الشيخ ابن عثيمين :

وقوله : « اغفر لنا حوبنا وخطايانا » الغفر : ستر الذنب والتجاوز عنه . والحوب : كبائر الإثم . والخطايا : صغائره . هذا إذا جمع بينهما ، أما إذا افترقا ؛ فهما بمعنًى واحد ؛ يعنى : اغفر لنا كبائر الإثم وصغائره ؛ لأن فى المغفرة زوال المكروب وحصول المطلوب ، ولأن الذنوب قد تحول بين الإنسان وبين توفيقه ؛ فلا يوفق ولا يجاب دعاؤه .

قوله : « أنت رب الطيبين » : هذه ربوبية خاصة ، وأما الربوبية العامة ؛ فهو رب كل شىء ، والربوبية قد تكون خاصة وعامة .

واستمع إلى قول السحرة الذين آمنوا : ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف : ١٢١، ١٢٢] ؛ حيث عمواثم خصوا .

واستمع إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل : ٩١] ؛ فـ : ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ : خاص ، ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ : عام .

....

والطيبون : هم المؤمنون ؛ فكل مؤمن ؛ فهو طيب ، وهذا من باب التوسل بهذه الربوبية الخاصة ، إلى أن يستجيب اللّٰه الدعاء ويشفى المريض .

✵ **قال الشيخ الفوزان :**

(اغفر لنا حوبنا وخطايانا) هذا طلب للمغفرة ، وهى الستر ووقاية الإثم ، ومنه المغفر الذى يلبس على الرأس لستره ووقايته من الضرب ، والحوب الإثم ، والخطايا هى الذنوب .

[قوله] : (أنت رب الطيبين) هذا توسل آخر ، والطيبين جمع طيب ، وهم النبيون وأتباعهم ، وإضافة ربوبيته لهؤلاء إضافة تشريفٍ وتكريمٍ ، وإلا فهو سبحانه رب كل شيء ومليكه .

✵ **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قوله : « أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع » : هذا الدعاء وما سبقه من باب التوسل .

« أنزل رحمة من رحمتك » : الرحمة نوعان :

- رحمة هى صفة اللّٰه ؛ فهذه غير مخلوقة وغير بائنة من اللّٰه عز وجل ؛ مثل قوله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف : ٥٨] . ولا يطلب نزولها .

- ورحمة مخلوقة ، لكنها أثر من آثار رحمة اللّٰه ؛ فأطلق عليها الرحمة ؛ مثل قوله تعالى فى الحديث القدسى عن الجنة : « أنت رحمتى أرحم بك من أشاء »[1] .

كذلك الشفاء ؛ فاللّٰه شاف ، ومنه الشفاء ؛ فوصفه الشفاء ، وهو فعل من أفعاله ، وهو بهذا المعنى صفة من صفاته ، وأما باعتبار تعديه إلى المريض ؛ فهو مخلوق من مخلوقاته ؛ فإن الشفاء زوال المرض .

قوله : « فيبرأ » : بفتح الهمزة منصوبًا ؛ لأنه جواب الدعاء : أنزل رحمة ؛ فيبرأ . أما إذا قرئ بالضم مرفوعًا ؛ فإنه مستأنف ، ولا يتبع الحديث ، بل يوقف عند قوله : « الوجع » ، وتكون « فيبرأ » : جملة خبرية تفيد أن الإنسان إذا قرأ بهذه الرقية ؛ فإن المريض يبرأ ، ولكن الوجه الأول أحسن بالنصب .

---

(1) أخرجه البخارى (٤٨٥٠) ، ومسلم (٢٨٤٦) .

وقولِه : « ألا تَأْمَنُونى وأنا أمينُ مَن فى السماءِ »[1]. حديثٌ صحيحٌ.

* **قال الشيخ الفوزان :**

(أنزل رحمةً من رحمتك) ؛ أى : الرحمة المخلوقة ؛ فإن رحمة اللّٰه نوعان :

النوع الأول : رحمته التى هى صفة من صفاته ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف : ١٥٦] .

النوع الثانى : رحمة تضاف إليه سبحانه من إضافة المخلوق إلى خالقه ، كالمذكورة فى هذا الحديث ، وكما فى حديث : « خلق اللّٰه مائة رحمةٍ » الحديث[1] .

فطلب ﷺ من ربه إنزال هذه الرحمة على المريض لحاجته إليها ليشفيه بها .

والشاهد من الحديث : أن فيه إثبات العلو للّٰه تعالى ، وأنه فى السماء ، والعلو صفة ذاتية ، كما سبق .

كما أن فى الحديث التوسل إلى اللّٰه تعالى بالثناء عليه بربوبيته وإلهيته وقدسيته ، وعلوه ، وعموم أمره ، وبرحمته .

ثم فى الحديث طلب المغفرة من اللّٰه ، وشفاء المرض .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هذا الحديث[2] : فى إثبات العلو أيضًا :

قوله : « ألا تأمنوني » : فيها إشكال لغوى ، وهو حذف نون الفعل بدون ناصب ولا جازم ! !

والجواب عن هذا : أنه إذا اتصلت نون الوقاية بفعل من الأفعال الخمسة ؛ جاز حذف نون الرفع .

« ألا تأمنوني » أى : ألا تعتبرونى أمينًا .

« وأنا أمين مَن فى السماء » : والذى فى السماء هو اللّٰه عز وجل ، وهو أمينه عليه الصلاة والسلام على وحيه ، وهو سيد الأمناء عليه الصلاة والسلام ، والرسول والذى ينزل عليه جبريل هو أيضًا أمين : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ .

---

(1) البخارى (٦٤٦٩) ، ومسلم (٢١٠٨/٤) (٢٧٥٢) .

(2) أخرجه البخارى (٤٣٥١) ، ومسلم (١٠٦٤) .

وقولِه ﷺ : « والعرشُ فوقَ الماءِ ، واللَّهُ فوقَ العرشِ ، وهو يَعْلَمُ ما أنتم عليه »(١) . حديثٌ حسنٌ ، رواه أبو داودَ ، وغيرُه.

وهذا الحديث له سبب ، وهو أن النبى ﷺ قسم ذهيبة بعث بها علىٌّ من اليمن بين أربعة نفرٍ، فقال له رجل : نحن أحق بهذا من هؤلاء . فقال النبى ﷺ : « ألا تأمنونى وأنا أمين مَن فى السماء » .

« ألا » : للعرض ؛ كأنه يقول : ائمنونى ؛ فإنى أمين من فى السماء . ويحتمل أن تكون الهمزة لاستفهام الإنكار ، و(لا) نافية .

والشاهد قوله : « من فى السماء » . ونقول فيها ما قلناه فيما سبق فى الآيات .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله ﷺ : (ألا تأمنونى) هذا خطاب منه ﷺ لمن اعترض عليه فى بعض قسمته المال .

ألا : أداة استفتاحٍ وتنبيهٍ .

و« تأمنونى » من الأمانة ، وهى عدم المحاباة والخيانة ؛ أى : ألا تأمنونى فى قسمة المال .

(وأنا أمين من فى السماء) وهو اللَّه سبحانه قد ائتمننى على وحيه ورسالته وتبليغ شرعه ، وكفى بذلك شهادةً على أمانته وصدقه ﷺ .

والشاهد من الحديث : أن فيه إثبات العلو للَّه سبحانه ، حيث قال : (من فى السماء) وسبق شرح الجملة قريبًا .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

هذا الحديث فى إثبات العلو أيضًا :

لما ذكر النبى عليه الصلاة والسلام المسافات التى بين السماوات ؛ قال : « والعرش فوق الماء » .

ويشهد لهذا قوله تعالى : ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود : ٧] .

قال : « واللَّه فوق العرش ، وهو يعلم ما أنتم عليه » . هو فوق العرش ، ومع ذلك لا يخفى عليه شىء من أحوالنا وأعمالنا ، بل قد قال اللَّه تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق : ١٦] ، يعنى : الشىء الذى فى ضميرك يعلمه اللَّه ؛ مع أنه ما بان لأحدٍ .

وقوله : « وهو يعلم ما أنتم عليه » . يفيد إحاطة علم اللَّه بكل ما نحن عليه .

وقولِه ﷺ للجاريةِ : « أين اللّهُ ؟ »(١) قالت : فى السماءِ . قال : « مَن أنا ؟ »

الفائدة المسلكية من هذا الحديث :

إذا آمنا بهذا الحديث ؛ فإننا نستفيد منه فائدة مسلكية ، وهى تعظيم اللّه عز وجل ، وأنه فى العلو ، وأنه يعلم ما نحن عليه ، فنقول بطاعته ؛ بحيث لا يفقدنا حيث أمرنا ، ولا يجدنا حيث نهانا .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (والعرش فوق ذلك) . تقدم تفسير العرش .

وقوله : (فوق ذلك) ؛ أى : فوق المخلوقات التى بينها الرسول ﷺ لأصحابه فى الحديث الذى ذكر فيه بعد ما بين السماء والأرض ، وما بين كل سماءٍ وسماءٍ ، وكثافة كل سماءٍ ، والبحر الذى فوق السماء السابعة ، وما بين أسفله وأعلاه ، وما فوق ذلك البحر من الأوعال الثمانية العظيمة ، ثم فوق ذلك العرش .

(واللّه فوق العرش) ؛ أى : مستوٍ عليه استواءً يليقُ بجلاله .

(وهو يعلم ما أنتم عليه) بعلمه المحيط ، الذى لا يخفى عليه شىء .

والشاهد من الحديث : إثبات علو اللّه على عرشه ، وأن عرشه فوق المخلوقات كلها ، وأن علم اللّه سبحانه محيط بأعمال العباد ، لا يخفى عليه منها شىء .

✽ قال الشيخ هراس :

وأما قوله : (والعرش فوق الماء) إلخ : ففيه الجمع بين الإيمان بعلوه تعالى على عرشه وبإحاطة[1] علمه بالموجودات كلها ، فسبحان من هو عال فى دنوه ، قريب فى علوه .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

هذا الحديث[2] : فى إثبات العلو أيضًا :

قوله : « أين اللّه ؟ » : (أين) : يستفهم بها عن المكان .

قالت : فى السماء . يعنى : على السماء ، أو : فى العلو ؛ على حسب الاحتمالين السابقين .

« قال : من أنا ؟ » . قالت : أنت رسول اللّه . قال : « أعتقها فإنها مؤمنة » .

---

(1) كذا فى الأصل ، والصواب : « وبين الإيمان بإحاطة » . « إسماعيل الأنصاري » .

(2) أخرجه مسلم (٥٣٧) .

قالت : أنت رسولُ اللَّهِ . قال : « أَعْتِقْها ؛ فإنها مؤمنةٌ » . رواه مسلمٌ.

وعند أهل التعطيل هي بقولها : « في السماء » : إذا أرادت أنه في العلو ؛ هي كافرة ! ! لأنهم يرون أن من أثبت أن اللَّه في جهة ؛ فهو كافر ؛ إذ يقولون : إن الجهات خالية منه .

واستفهام النبي ﷺ بـ : (أين) يدل على أن للَّه مكانًا .

ولكن يجب أن نعلم أن اللَّه تعالى لا تحيط به الأمكنة ؛ لأنه أكبر من كل شيء ؛ وأن ما فوق الكون عدم ، ما ثَمَّ إلا اللَّه ؛ فهو فوق كل شيء .

وفي قوله : « أعتقها ؛ فإنها مؤمنة » : دليل على أن عتق الكافر ليس بمشروع ، ولهذا لا يجزئ عتقه في الكفارات ؛ لأن بقاء الكافر عندك رقيقًا ؛ فيه نوع حماية وسلطة وإمرة وتقريب من الإسلام ؛ فإذا أعتقته ؛ تحرر ؛ وإذا تحرر ؛ فيخشى منه أن يرجع إلى بلاد الكفر ؛ لأن أصل الرق هو الكفر ، ويبقى معينًا للكافرين على المؤمنين .

✵ قال الشيخ الفوزان :

(وقوله : للجارية) ؛ أي : أمة معاوية بن الحكم ، حينما غضب عليها سيدها معاوية ، فلطمها ، ثم ندم ، وأخبر رسول اللَّه ﷺ ، وقال : أفلا أعتقها : فقال النبي ﷺ : « بلى ، جئني بها » . فأتى بها رسول اللَّه ﷺ ، فقال لها : « أين اللَّه ؟ » . فيه دليل على جواز السؤال عن اللَّه بـ : « أين » .

(قالت : في السماء) ؛ أي : اللَّه سبحانه في السماء ، وتقدم تفسير هذه الكلمة .

(قال) لها النبي ﷺ أيضًا : « من أنا ؟ » سألها عن اعتقادها فيه (قالت : أنت رسول اللَّه) . فأقرت له بالرسالة .

(قال) ﷺ لسيدها : « أعتقها ؛ فإنها مؤمنة » . فيه دليل على أن من شهد هذه الشهادة أنه مؤمن ، وأن العتق يشترط له الإيمان .

والشاهد من الحديث : أن فيه دليلًا على علو اللَّه على خلقه فوق سماواته ، وأنه يشار إليه في جهة العلو إشارةً حسيةً .

✵ قال الشيخ هراس :

وأما الحديث الثاني[1] فقد تضمن شهادة الرسول ﷺ بالإيمان للجارية التي التي

(1) الحديث الثاني حسب ترتيب المتن هو قوله : « والعرش فوق الماء » إلخ ، وأما حديث الجارية فهو الثالث ، فليتنبه لذلك . « إسماعيل الأنصاري » .

٧- إثباتُ مَعِيَّةِ اللَّهِ تعالى لخَلْقِه ، وأنَّها لا تُنافِي عُلُوَّه فوقَ عرشه :

وقولِه ﷺ : « أفضلُ الإيمانِ أن تَعْلَمَ أنَّ اللَّهَ معَك حيثُما كنتَ »(١) . حديثٌ حسنٌ.

اعترفت بعلوه تعالى على خلقه ، فدل ذلك على أن وصف العلو من أعظم أوصاف البارئ جل شأنه حيث خصه بالسؤال عنه دون بقية الأوصاف ، ودل أيضًا على أن الإيمان بعلوه المطلق من كل وجه هو من أعظم أصول الإيمان ، فمن أنكره فقد حرم الإيمان الصحيح .

والعجب من هؤلاء الحمقى من المعطلة النفاة زعمهم أنهم أعلم بالله من رسوله ، فينفون عنه « الأين » بعدما وقع هذا اللفظ بعينه من الرسول مرة سائلًا غيره ، كما في هذا الحديث ؛ ومرة مجيبًا لمن سأله بقوله : « أين كان ربنا » .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هذا الحديث[1]: في إثبات المعية :

أفاد الحديث معية الله عز وجل ، وقد سبق في الآيات أن معية الله لا تستلزم أن يكون في الأرض ، بل يمتنع غاية الامتناع أن يكون في الأرض ؛ لأن العلو من صفاته الذاتية التي لا ينفك عنها أبدًا ، بل هي لازمة له سبحانه وتعالى .

وسبق أيضًا أنها قسمان .

وقول الرسول ﷺ : « أفضل الإيمان أن تعلم » : يدل على أن الإيمان يتفاضل ؛ لأنك إذا علمت أن الله معك حيثما كنت ؛ خفت منه عز وجل وعظَّمته .

لو كنت في حجرة مظلمة ليس فيها أحد ؛ فاعلم أن الله معك ، لا في الحجرة ؛ لكنه سبحانه وتعالى معك ؛ لإحاطته بك علمًا وقدرة وسلطانًا وغير ذلك من معاني ربوبيته .

❁ قال الشيخ الفوزان :

قوله : (أفضل الإيمان) ؛ أي : من أفضل خصاله ، وفي هذا دليل على أن الإيمان يتفاضل .

(أن تعلم أن الله معك) ؛ أي : بعلمه واطلاعه .

---

(1) ضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (١٠٠٢) .

وقولِه : « إذا قام أحدُكم إلى الصلاةِ فلا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وجهِه ، ولا عن يَمينِه ؛ فإنَّ اللَّهَ قِبَلَ وجهِه ، ولكن عن يسارِه ، أو تحتَ قدمِه »(١). متفقٌ عليه.

(حيثما كنت) ؛أي : فى أى مكانٍ وجدت ، فمن علم ذلك استوت علانيته وسريرته ، فهابه فى كل مكانٍ .

(أخرجه الطبرانى)أبو القاسم سليمان اللخمى ، أحد الحفاظ المكثرين ، وقد روى هذا الحديث فى المعجم الكبير .

وفى الحديث دليل على إثبات معية اللَّه لخلقه بعلمه ، وإحاطته بأعمالهم ، وأنه يجب على العبد أن يتذكر ذلك دائمًا ، فيحسن عمله .

✲ قال الشيخ هراس :

قوله : « أفضل الإيمان أن تعلم » إلخ : [فيه][1] دلالة على أن أفضل الإيمان هو مقام الإحسان والمراقبة ، وهو أن يعبد العبد ربه كأنه يراه ويشاهده ، ويعلم أن اللَّه معه حيث كان ، فلا يتكلم ولا يفعل ولا يخوض فى أمر ما إلا واللَّه رقيب مطلع عليه ، قال تعالى : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس : ٦١] .

ولا شك أن هذه المعية إذا استحضرها العبد فى كل أحواله فإنه يستحى من اللَّه عزَّ وجلَّ أن يراه حيث نهاه أو يفتقده حيث أمره فتكون عونًا له على اجتناب ما حرم اللَّه والمسارعة إلى فعل ما أمر به من الطاعات على وجه الكمال ظاهرًا وباطنًا ، ولا سيما إذا دخل فى الصلاة التى هى أعظم صلة ومناجاة بين العبد وربه ، فيخشع قلبه ويستحضر عظمة اللَّه وجلاله ، فتقل حركاته ولا يسىء الأدبَ مع ربِّه بالبصق أمامه أو عن يمينه .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

هذا الحديث[2] : فى إثبات كون اللَّه قبل وجه المصلى :

« قبل وجهه » . يعنى : أمامه .

قال اللَّه تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة : ١١٥] .

---

(1) زيادة يقتضيها السياق . « إسماعيل الأنصاري » .

(2) أخرجه البخارى (٤٠٦- ٤٠٩) ، ومسلم (٥٤٧، ٥٤٨) .

....

« يمينه » : ورد فيه حديث : « فإن عن يمينه ملكًا »[1] ، ولأن اليمين أفضل من الشمال ، فيكون اليسار أولى بالبصاق ونحوه ، ولهذا قال : « ولكن عن يساره أو تحت قدمه » .

فإن كان فى المسجد ؛ قال العلماء : فإنه يجعل البصاق فى خِرقة أو منديل أو ثوبه ، ويحك بعضه ببعض ، حتى تزول صورة البصق ، وإذا كان الإنسان فى المسجد عند الجدار ، والجدار قصير عن يساره ؛ فإنه يمكن أن يصق عن يساره إذا لم يؤذ أحدًا من المارّة .

يستفاد من هذا الحديث : أن اللَّه تبارك وتعالى أمام وجه المصلى ، ولكن يجب أن نعلم أن الذى قال : إنه أمام وجه المصلى ؛ هو الذى قال : إنه فى السماء ، ولا تناقض فى كلامه هذا وهذا ؛ إذ يمكن الجمع من ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : أن الشرع جمع بينهما ، ولا يجمع بين متناقضين .

الوجه الثانى : أنه يمكن أن يكون الشىء عاليًا ، وهو قِبل وجهك ؛ فها هو الرجل يستقبل الشمس أول النهار ، فتكون أمامه ، وهى فى السماء ، ويستقبلها فى آخر النهار ، تكون أمامه ، وهى فى السماء ؛ فإذا كان هذا ممكنًا فى المخلوق ؛ ففى الخالق من باب أولى بلا شك .

الوجه الثالث : هب أن هذا ممتنع فى المخلوق ؛ فإنه لا يمتنع فى الخالق ؛ لأن اللَّه تعالى ليس كمثله شىء فى جميع صفاته .

يستفاد من هذا الحديث من الناحية المسلكية : وجوب الأدب مع اللَّه عز وجل ، ويستفاد أنه متى آمن المصلى بذلك فإنه يحدث له خشوعًا وهيبة من اللَّه عز وجل .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (إذا قام أحدكم إلى الصلاة) ؛ أى : إذا شرع فيها .

(فلا يصق) ؛ أى : لا يتفل .

(قبل وجهه) ؛ أى : أمامه (قبل) بكسر القاف وفتح الباء .

(فإن اللَّه قبل وجهه) هذا تعليل للنهى عن البصاق فى قبلة المصلى بأن اللَّه سبحانه (قبل وجهه) ؛ أى : مواجهه ، وهذه المواجهة كما يليق باللَّه سبحانه ، لا يلزم منها أنه سبحانه مختلطٌ بخلقه ، بل هو فوق سماواته ، مستوٍ على عرشه ، وهو قريب من خلقه ، محيط بهم .

---

(1) أخرجه البخارى (٤١٦) .

وقولِه ﷺ : « اللَّهمَّ ربَّ السماواتِ السبعِ والأرضِ ، وربَّ العرشِ العظيمِ ، ربَّنا وربَّ كلِّ شيءٍ ، فالقَ الحَبِّ والنَّوَى ، مُنْزِلَ التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ ، أَعُوذُ بكَ مِن شرِّ نفسى ، ومِن شرِّ كلِّ دابةٍ ، أنت آخِذٌ بناصيتِها ، أنت الأولُ فليس قبلَكَ شىءٌ ، وأنت الآخرُ فليس بعدَكَ شىءٌ ، وأنت الظاهرُ فليس فوقَكَ شىءٌ ، وأنت الباطنُ فليس دونَكَ شىءٌ ، اقْضِ عنِّىَ الدَّيْنَ ، وأَغْنِنِى مِن الفقرِ »(١) . رواه مسلمٌ.

(ولا عن يمينه) ؛ أى : ولا يبصق المصلى عن يمينه ، تشريفًا لليمين ، ولأن الملكين عن يمينه ، كما فى روايةٍ للبخارى .

(ولكن عن يساره أو تحت قدمه) ؛ أى : ولكن ليبصق المصلى فى جهة يساره ، أو يبصق تحت قدمه .

والشاهد من الحديث : أن فيه إثبات قرب اللّٰه سبحانه من عبده المصلى ، وإقباله عليه ، وهو سبحانه فوقه .

✽ قال الشيخ هراس :

قوله : (إذا قام أحدكم إلى الصلاة) إلخ : دلَّ على أن اللّٰه عزَّ وجلَّ يكون قبل وجه المصلى .

قال شيخ الإسلام فى « العقيدة الحموية » : إن الحديث حق على ظاهره وهو سبحانه فوق العرش ، وهو قِبل وجه المصلى ، بل هو الوصف يثبت للمخلوق ، فإن الإنسان لو أنه يناجى السماء أو يناجى الشمس والقمر لكانت السماء والشمس والقمر فوقه ، وكانت أيضًا قِبل وجهه .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

هذا الحديث[1] : فى إثبات العلو وصفات أخرى :

وهو حديث عظيم ، توسل النبى ﷺ إلى اللّٰه تعالى بربوبيته فى قوله : « اللهم رب السماوات السبع والأرض ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شىء » . وهذا من باب التعميم بعد التخصيص فى قوله : « ورب كل شىء » ، وهذا التعميم بعد التخصيص ؛ لئلا يتوهم واهم اختصاص الحكم بما خصص به . وانظر إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ

---

(1) أخرجه مسلم (٢٧١٣) .

....

ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٩١]؛ حيث قال: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾؛ حتى لا يظن ظان أنه ليس ربًّا إلا لهذه البلدة.

❁ **قال الشيخ الفوزان:**

وقوله ﷺ: (اللهم رب السماوات السبع) اللهم أصله: يا الله، فالميم عوض عن ياء النداء.

«رب السماوات السبع»؛ أى: خالقها ومالكها.

(ورب العرش العظيم)؛ أى: الكبير الذى لا يقدر قدره إلا الله، فهو أعظم المخلوقات، وتقدم تفسير العرش.

(ربنا ورب كل شىء)؛ أى: خالقنا، ورازقنا، وخالق كل شىء، ومالكه، ففيه إثبات ربوبيته لكل شىء.

❁ **قال الشيخ هراس:**

قوله: (اللهم رب السماوات) إلخ: تضمن الحديث إثبات أسمائه تعالى الأول والآخر والظاهر والباطن، وهى من الأسماء الحسنى، وقد فسرها النبى ﷺ بما لا يدع مجالًا لقائل، فهو أعلم الخلق جميعًا بأسماء ربه وبالمعانى التى تدل عليها، فلا يصح أن يلتفت إلى قول غيره أيًّا كان.

وفى الحديث أيضًا يعلمنا نبينا صلوات الله وسلامه عليه وآله وسلم كيف تُثنى على ربنا عزَّ وجلَّ قبل السؤال، فهو يثنى عليه بربوبيته العامة التى انتظمت كل شىء، ثم بربوبيته الخاصة الممثلة فى إنزاله هذه الكتب الثلاثة تحمل الهدى والنور إلى عباده، ثم يعوذ ويعتصم به سبحانه من شر نفسه ومن شر كل ذى شر من خلقه، ثم يسأله فى آخر الحديث أن يقضى عنه دينه وأن يغنيه من فقر.

❁ **قال الشيخ ابن عثيمين:**

«فالق الحب والنوى». حب الزرع. و«النوى». نوى الغرس؛ فالأشجار التى تخرج: إما زروع أصلها الحب، وإما أشجار أصلها النوى؛ فما للأشجار يسمى نوى، وما للزروع يسمى حبًّا؛ ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥].

هذا الحب والنوى اليابس الذى لا ينمو ولا يزيد، يفلقه الرب عز وجل؛ أى: يفتحه حتى

....

تخرج منه الأشجار والزروع ، ولا يستطيع أحد أن يفعل ذلك ؛ مهما بلغ الناس في القدرة ؛ ما استطاعوا أن يفلقوا حبة واحدة أبدًا ، والنوى كذلك الذى كالحجر ؛ لا ينمو ، ولا يزيد ؛ يفلقه الله عز وجل ، وينفرج ، ثم تكون منه الغريسة التي تنمو ، ولا أحد يستطيع ذلك ؛ إلا الذى فلقها سبحانه وتعالى .

ولما ذكر الآية الكونية العظيمة ؛ ذكر الآيات الشرعية ، وهي :

قوله : « مُنزل التوراة والإنجيل والقرآن » . وهذه أعظم كتب أنزلها الله عز وجل ، وبدأها على الترتيب الزمني : التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ، والفرقان على محمد ﷺ .

وفي هذا نص صريح على أن التوراة منزلة كما جاء في القرآن : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة : ٤٤] ، وقال في أول سورة « آل عمران » : ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران : ٣، ٤] .

قوله : « أعوذ بك من شر نفسي » : أعتصم بالله من شر نفسي .

إذن ؛ في نفسك شر ؛ ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف : ٥٣] .

لكن النفس نفسان :

١- نفس مطمئنة تأمر بالخير .

٢- نفس شريرة أمارة بالسوء .

والنفس اللوامة ؛ هل هي ثالثة ، أو وصف للثنتين السابقتين ؟ !

فيه خلاف : بعضهم يقول : إنها نفس ثالثة . وبعضهم يقول : هي وصف للثنتين السابقتين ؛ فالمطمئنة تلومك ، والأمارة بالسوء تلومك ؛ فيكون قوله تعالى : ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة : ٢] ؛ يشمل النفسين جميعًا .

فالمطمئنة تلومك على التقصير في الواجب ؛ إذا أهملت واجبًا لامتك ، وإذا فعلت محرمًا لامتك .

والأمَّارة [أي بالسوء] بالعكس ؛ إذا فعلت الخير لامتك ، وتلومك إذا فوَّتَّ ما تأمرك به من السوء .

إذن ؛ صارت اللوَّامة على القول الراجح وصفًا للنفسين معًا .

وقوله هنا : « أعوذ بك من شر نفسي » : المراد بها النفس الأمارة بالسوء .

....

✽ قال الشيخ الفوزان :

(فالق الحب والنوى) ؛ أي : شاق حب الطعام ونوى التمر للإنبات .

(منزل التوراة) على موسى ، (والإنجيل) على عيسى ، (والقرآن) على محمدٍ ، عليهم أفضل الصلاة والسلام ، وفي ذلك دليل على فضل هذه الكتب ، وأنها منزلة من الله تعالى .

✽ قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها » : الدابة : كل ما يدب على الأرض ، حتى الذى يمشى على بطنه داخل فى هذا الحديث ؛ كقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ [النور: ٤٥] ، وقوله : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] .

وإن كانت الدابة تطلق فى العُرف على ذوات الأربع ، وفى عرف أخص تطلق على الحمار فقط ، لكنها فى مثل هذا الحديث يراد بها كل ما يدب على الأرض ، وما يدب على الأرض فيه شرور ، أما بعضه فشر محض بالنسبة لذاته ، وأما بعضه ففيه خير وفيه شر ، وحتى الذى فيه خير ؛ لا يسلم من الشر .

قوله : « أنت آخذ بناصيتها » : مقدم الرأس ، وإنما نص على الناصية ؛ لأنه هو المقدم ، وهو الذى يمسك به لقيادة البعير وشبهه . وقيل : خص ذلك ؛ لأن المخ الذى فيه التصور والتلقى يكون فى مقدمة الرأس . والعلم عند الله .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(أعوذ) ؛ أى : ألتجئ وأعتصم (بك) يا اللهُ (من شر كل دابةٍ) ؛ أى : كل ما دب على وجه الأرض .

[وقوله] : (أنت آخذ بناصيتها) الناصية مقدم الرأس ؛ أى : هى تحت قهرك وسلطانك ، تصرفها كيف تشاء ، لتصرف شرها عنى .

✽ قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « أنت الأول : فليس قبلك شىء » : هذا تفسير من النبى ﷺ لقوله : « الأول » ، والأول من أسماء الله .

....

وقد ذكرنا عند تفسير الآية أن أهل الفلسفة يسمون الله : القديم ، وذكرنا أن القديم ليس من أسماء الله الحسنى ، وأنه لا يجوز أن يسمى به ، لكن يجوز أن يخبر به عنه ، وباب الخبر أوسع من باب التسمية ؛ لأن القديم ليس من الأسماء الحسنى ، والقديم فيه نقص ؛ لأن القدم قد يكون قدمًا نسبيًّا ؛ ألم تر إلى قوله تعالى : ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس : ٣٩] ؛ والعرجون القديم حادث ، لكنه قديم بالنسبة لما بعده .

قوله : « وأنت الظاهر ، فليس فوقك شيء » : الظاهر من الظهور ، وهو العلو ؛ كما قال تعالى : ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف : ٩٧] ؛ ﴿يَظْهَرُوهُ﴾ ؛ أي : يعلو عليه .

وأما من قال : الظاهر بآياته ؛ فهذا خطأ ؛ لأنه لا أحد أعلم بتفسير كلام الله من رسول الله ﷺ ، وقد قال : « الظاهر ؛ فليس فوقك شيء » ؛ بل هو فوق كل شيء سبحانه .

قوله : « وأنت الباطن ؛ فليس دونك شيء » : المعنى : ليس دون الله شيء ، لا أحد يدبر دون الله ، ولا أحد ينفرد بشيء دون الله ، ولا أحد يخفى على الله ؛ كل شيء فالله محيط به ، ولهذا قال : « ليس دونك شيء » ؛ يعني : لا يحول دونك شيء ، ولا يمنع دونك شيء ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد . . . وهكذا .

قوله : « اقضِ عنى الدين » : الدين : ما يستحق على الإنسان من مال أو حق ؛ اشتريت منك حاجة ، ولم أنقدك الثمن ؛ فهذا يسمى دينًا ، وإن كان غير مؤجل .

قوله : « وأغننى من الفقر » : الفقر : خلو ذات اليد ، ولا شك أن الفقر فيه إيلامٌ للنفس ، والدين فيه ذل ؛ المدين ذليل فالدائن ، والفقير معوز ربما يجره الفقر إلى أمر محرم .

ألم يأتكم نبأ الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار ، فتوسل كل واحد منهم بصالح عمله ، وكان لأحدهم ابنة عم أعجبته ، وكان يراودها عن نفسه ، ولكنها كانت تأبى ذلك ، فألمت بها سَنَةٌ من السنين ، واحتاجَتْ ، وجاءت إليه تطلب منه أن يعينها ، فأبى عليها إلَّا أن تمكنه من نفسها ، ومن أجل ضرورتها ؛ وافقت على هذا ، فلما جلس منها مجلس الرجل من امرأته ؛ قالت له : يا هذا ! اتق الله ! ولا تفض الخاتم إلا بحقِّه . وأثرت هذه الكلمة فى الرجل عندما كانت نابعة من القلب ، فقام عنها . قال : فقمت عنها وهى أحب الناس لى . لكن

....

ذكرته هذه الموعظة الكريمة؛ فأقلع[1].

فانظر إلى الفقر؛ فإن هذه المرأة أرادت أن تبيعَ عِرضها بسبب الفقر.

إذن؛ قال الرسول ﷺ: «أغننى من الفقر». سأل النبى ﷺ ربه أن يغنيه من الفقر؛ لأن الفقر له آفات عظيمة.

وفى هذا الحديث أسماء وصفات:

- فمن الأسماء: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن.

- ومن الصفات: الأولية والآخرية، وفيهما الإحاطة الزمانية. والظاهرية والباطنية، وفيهما الإحاطة المكانية. ومنها: العلو، وعموم ربوبيته، وتمام قدرته. ومنها: كمال رحمته وحكمته بإنزال الكتب؛ لتحكم بين الناس وتهديهم صراط الله.

ومن غير الأسماء والصفات: التوسل إلى الله بصفات الله، والتحذير من شر النفوس، وسؤال النبى ﷺ أن يقضى الله دَينه ويغنيه من الفقر، وبيان ضعف الحديث الذى فيه سؤال النبى ﷺ أن يحييه ربه مسكينًا.

وفيه من الفوائد المسلكية: التحذير من شر النفس، وتعظيم شأن الدين، وأن يحرص على تلافى الدَّين بقدر الإمكان، ويقتصد فى ماله طلبًا وتصرفًا؛ لأنه إذا اقتصد فى ذلك؛ سلم غالبًا من الفقر والدَّين.

✽ قال الشيخ الفوزان:

(أنت الأول فليس قبلك شىء، وأنت الآخر فليس بعدك شىء، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء، وأنت الباطن فليس دونك شىء) هذه الأسماء الأربعة؛ اسمان لأزليته وأبديته، وهما (الأول والآخر)، واسمان لعلوه وقربه، وهما (الظاهر والباطن).

وهما محل الشاهد من الحديث؛ لأن فيهما إثبات علو الله وقربه، وأنهما لا يتنافيان، ولا يتناقضان، فهو قريب فى علوه، علىٌّ فى دنوه.

(اقض عنى الدين)؛ أى: أدِّ عنى حقوق الله وحقوق الخلق، وفى هذا التبرى من الحول والقوة.

---

(1) أخرجه البخارى (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٣٤).

وقولِه ﷺ **لمَّا رفَع الصحابةُ أصواتَهم بالذكرِ : « أيُّها الناسُ ، أرْبِعُوا على أنفسِكم ، فإنَّكم لا تَدْعُونَ أصمَّ ، ولا غائبًا ، إنما تَدْعُونَ سميعًا بصيرًا قريبًا ، إنَّ الذى تَدْعُونه أقربُ إلى أحدِكم مِن عُنُقِ راحلتِه »(١) . متفقٌ عليه.**

(وأغننى من الفقر) الفقر الحاجة ، والفقير هو من لا يجد شيئًا ، أو يجد بعض الكفاية ، وفى الحديث أيضًا مشروعية التوسل إلى اللّه سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته فى قضاء الحاجة وإجابة الدعاء .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هذا الحديث[1] : فى إثبات قرب اللّه تعالى :

كان الصحابة رضى اللّه عنهم مع النبى ﷺ ؛ إذا علوا نشزًا ؛ كبّروا ، وإذا نزلوا واديًا ؛ سبحوا ؛ لأن الإنسان إذا ارتفع ؛ قد يتعاظم فى نفسه ، ويرى أنه مرتفع عظيم ؛ فناسب أن يقول : اللّه أكبر . تذكيرًا لنفسه بكبرياء اللّه عز وجل ، وأما إذا نزل ؛ فهذا سفول ونزول ، فيقول : سبحان اللّه . تذكيرًا لنفسه بتنزه اللّه عن السفل . فكان الصحابة رضى اللّه عنهم يرفعون أصواتهم بالذكر جدًّا ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام : « أيها الناس أَرْبِعُوا على أنفسِكم » . يعنى : هَوِّنوا عليها .

« فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا » ؛ لا تدعون أصم لا يسمع ، ولا غائبًا لا يرى .

« إنما تدعون سميعًا » ؛ يسمع ذكركم ، « بصيرًا » ؛ يرى أفعالكم .

✲ **قال الشيخ الفوزان :**

(وقوله ﷺ لما رفع الصحابة أصواتهم بالذكر) ، وذلك فى غزوة خيبر ، كما جاء فى بعض طرق الحديث[2] ، وأن الذكر الذى رفعوا به أصواتهم هو التكبير : اللّه أكبر ، لا إله إلا اللّه .

وقوله : (أربعوا) ؛ أى : ارفقوا .

(فإنكم) تعليل للأمر بالرفق .

(لا تدعون أصم ولا غائبًا) لا يسمع دعاءكم ، ولا يراكم ، فنفى الآفة المانعة من السمع ، والآفة المانعة من النظر ، وأثبت ضدهما ، فقال : (إنما تدعون سميعًا بصيرًا قريبًا) ، فلا داعى

---

(1) أخرجه البخارى (٢٩٩٢) ، ومسلم (٢٧٠٤) .

(2) البخارى (٤٢٠٥) .

....

لرفع الصوت .

✽ **قال الشيخ ابن عثيمين :**

« إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » . عنق الراحلة للراكب قريب جدًّا ؛ فاللَّه تعالى أقرب من هذا إلى الإنسان ، ومع هذا ؛ فهو فوق سماواته على عرشه .

ولا منافاة بين القرب والعلو ؛ لأن الشىء قد يكون بعيدًا قريبًا ؛ هذا بالنسبة للمخلوق ؛ فكيف بالخالق ؟ ! فالرب عز وجل قريب من علوه ، أقرب إلى أحدنا من عنق راحلته .

هذا الحديث فيه فوائد :

- فيه شىء من الصفات السلبية : نفى كونه أصم أو غائبًا ؛ لكمال سمعه ولكمال بصره وعلمه وقربه .

- وفيه أيضًا أنه ينبغى للإنسان ألا يشق على نفسه فى العبادة ؛ لأن الإنسان إذا شق على نفسه ؛ تعبت النفس وملت ، وربما يتأثر البدن ، ولهذا قال النبى ﷺ : « اكلفوا من العمل ما تطيقون ؛ فإن اللَّه لا يَمل حتى تَملوا »[1] .

فلا ينبغى للإنسان أن يشق على نفسه ، بل ينبغى أن يسوس نفسه : إذا وجد منها نشاطًا فى العبادة ؛ عمل واستغل النشاط ، وإذا رأى فتورًا فى غير الواجبات ، أو أنها تميل إلى شىء آخر من العبادات ؛ وجهها إليه .

حتى إن الرسول ﷺ أمر من نَعَس فى صلاته أن ينام ويدعَ الصلاة ؛ قال : « فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدرى لعله يستغفر فيسب نفسه »[2] .

ولهذا كان النبى ﷺ يصوم حتى يقول القائل : لا يفطر ، ويفطر حتى يقول القائل : لا يصوم ، وكذلك فى القيام والنوم .

- وفيه أيضًا : أن اللَّه قريب ، وقد دل عليه قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

---

(1) أخرجه البخارى (٤٣) ، ومسلم (٧٨٢) .

(2) أخرجه البخارى (٢١٢) ، ومسلم (٧٨٦) .

....

ونستفيد من هذا الحديث من الناحية المسلكية :

- أنه لا ينبغى لنا أن نشق على أنفسنا بالعبادات ، وأن يكون سيرنا إلى الله وسطًا ؛ لا تفريط ولا إفراط .

- وفيه أيضًا : الحذر من الله ؛ لأنه سميع وقريب وبصير ، فنبتعد عن مخالفته .

- وفيه أيضًا من الناحية الحكمية : جواز تشبيه الغائب بالحاضر للإيضاح ؛ حيث قال : « إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

- وفيه أيضًا أنه ينبغى أن يراعى الإنسان فى المعانى ما كان أقرب إلى الفَهم ؛ لأن هؤلاء مسافرون ، وكل منهم على راحلته ، وإذا ضرب المثل بما هو قريب ؛ فلا أحسن من هذا المثل الذى ذكره النبى عليه الصلاة والسلام .

✲ قال الشيخ الفوزان :

(إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته) فهو قريب ممن دعاه وذكره ، فلا حاجة لرفع الأصوات ، وهو قريب يسمعها إذا خفضت ، كما يسمعها إذا رفعت .

والشاهد من الحديث : أن فيه إثبات قرب الله سبحانه من داعيه ، يسمع الأصوات الخفية ، كما يسمع الأصوات الجهرية ، فأفادت هذه الأحاديث جميعًا إثبات معية الله لخلقه ، وقُربه منهم ، وسماعه لأصواتهم ، ورؤيته لحركاتهم .

وذلك لا ينافى علوه واستواءه على عرشه ، وقد تقدم الكلام على المعية وأنواعها ، وشواهدها من القرآن الكريم ، مع تفسير تلك الشواهد ، والله أعلم .

✲ قال الشيخ هراس :

قوله : « أيها الناس أَرْبعوا على أنفسكم . . . » إلخ : أفاد هذا الحديث قربه سبحانه من عباده ، وأنه ليس بحاجة إلى أن يرفعوا إليه أصواتهم فإنه يعلم السر والنجوى ، وهذا القرب المذكور فى الحديث قرب إحاطة وعلم وسمع ورؤية فلا ينافى علوه على خلقه .

هذا الحديث الصحيح المتواتر يشهد لما دلت عليه الآيات السابقة من رؤية المؤمنين لله عزَّ وجلَّ فى الجنة وتمتعهم بالنظر إلى وجهه الكريم ، وهذه النصوص من الآيات والأحاديث تدل على أمرين ؛ أولهما : علوه تعالى عن خلقه لأنها صريحة فى أنهم يرونه من فوقهم . ثانيهما : أن أعظم أنواع النعيم هو النظر إلى وجه الله الكريم .

٨- إثباتُ رؤيةِ المؤمنين لربِّهم يومَ القيامةِ :

وقولِه ﷺ : « إنكم ستَرَوْنَ ربَّكم كما تَرَوْنَ القمرَ ليلةَ البدرِ ، لا تُضامُّونَ فى رؤيتِه ، فإن اسْتَطَعْتُم أن لا تُغْلَبُوا على صلاةٍ قبلَ طلوعِ الشمسِ ، وصلاةٍ قبلَ غروبِها فافْعَلُوا »(١) . متفقٌ عليه .

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هذا الحديث[1] : فى إثبات رؤية المؤمنين لربهم :

قوله : « إنكم سترون ربكم » : السين للتحقيق ، وتخلص الفعل المضارع إلى الاستقبال بعد أن كان صالحًا للحال والاستقبال ؛ كما أن (لم) تخلصه للماضى ، والخطاب للمؤمنين .

قوله : « كما ترون القمر » : هذه رؤية بصرية ؛ لأن رؤيتنا للقمر بصرية ، وهنا شبه الرؤية بالرؤية ؛ فتكون رؤية بصرية .

قوله : « كما ترون » : (ما) هذه مصدرية ، فيحول الفعل بعدها إلى مصدر ، ويكون التقدير : كرؤيتكم القمر ؛ فالتشبيه حينئذ للرؤية بالرؤية ، وليس للمرئى بالمرئى ، لأن اللَّه تعالى ليس كمثله شىء .

والنبى عليه الصلاة والسلام يقرب المعانى أحيانًا بذكر الأمثلة الحسية الواقعية ؛ كما سأله أبو رزين العقيلى لَقِيطُ بن عامر ؛ قال : يا رسول اللَّه ، أَكُلُّنا يرى ربه يوم القيامة ، وما آية ذلك فى خلقه ؟ فقال النبى ﷺ : « كلكم ينظر إلى القمر مخليًا به » . قال : بلى . قال النبى ﷺ : « فاللَّه أعظم »[2] .

وقوله : « مخليًا به » . يعنى : خاليًا به .

وكما ثبت به الحديث فى « صحيح مسلم » من حديث أبى هريرة رضى اللَّه عنه : « إن اللَّه يقول : قسمت الصلاة بينتى وبين عبدى نصفين ؛ فإذا قال : الحمد للَّه رب العالمين . قال : حمدنى عبدى . . . . » إلخ .

وهذا يشمل كل مصلٍّ ، ومن المعلوم أنه قد يتفق المصلون فى هذه الآية جميعًا ، فيقول اللَّه لكل واحد : « حمدنى عبدي » ؛ فى آنٍ واحدٍ .

---

(1) أخرجه البخارى (٥٤٤) ، ومسلم (٦٣٣) .

(2) ضعفه الألبانى فى « ضعيف الجامع » (٦٣٧٤) .

....

❁ قال الشيخ الفوزان :

قوله : (إنكم سترون ربَّكم) . الخطاب للمؤمنين ، والسين للتنفيس ، ويراد بها التأكيد .

وقوله : (ترون ربكم) ؛ أى : تعاينونه بأبصاركم ، والأحاديث الواردة بإثبات رؤية المؤمنين لربهم متواترة .

❁ قال الشيخ ابن عثيمين :

قال : « كما ترون القمرَ ليلة البدر » : أى : ليلة إبداره ، وهى الليلة الرابعة عشرة والخامسة عشرة والثالثة عشرة أحيانًا ، والوسط الرابعة عشرة ؛ كما قال ابن القيم : كالبدرِ ليل الست بعد ثمانِ .

❁ قال الشيخ الفوزان :

قوله : (كما ترون القمر ليلة البدر) ؛أى : ليلة كماله ، وهى الليلة الرابعة عشرة من الشهر ؛ فإنه فى تلك الليلة يكون قد امتلأ نورًا .

والمراد من هذا التشبيه تحقيق الرؤية وتأكيدها ونفى المجاز عنها ، وهو تشبيه للرؤية بالرؤية ، لا تشبيه للمرئى بالمرئى ؛ لأنه سبحانه : (ليس كمثله شىء) .

❁ قال الشيخ هراس :

وقوله : (كما ترون القمر ليلة البدر) : المراد تشبيه الرؤية بالرؤية لا تشبيه المرئى بالمرئى ، يعنى أن رؤيتهم لربهم تكون من الظهور والوضوح كرؤية القمر فى أكمل حالاته ، وهى كونه بدرًا ولا يحجبه سحاب ، ولهذا قال بعد ذلك : « لا تضامون فى رؤيته » . رُوى بتشديد الميم من التضام بمعنى التزاحم والتلاصق ، والتاء يجوز فيها الضم والفتح ، على أن الأصل تتضامون فحذفت إحدى التاءين تخفيفًا ، وروى بتخفيف الميم من الضيم بمعنى الظلم ، يعنى : لا يلحقكم فى رؤيته ضيم ولا غبنٌ .

وفى حَثِّه ﷺ فى هذا الحديث على صلاة العصر وصلاة الفجر خاصة إشارة إلى أن من حافظ عليهما فى جماعة نال هذا النعيم الكامل الذى يضمحل بإزائه كل نعيم ، وهو يدل على تأكد هاتين الصلاتين كما دل على ذلك الحديث الآخر : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر » . متفق عليه .

....

✽ قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « لا تضامُّون في رؤيته »، وفي لفظ : « لا تضامون »، وفي لفظ : « لا تضارون ».

- « لا تضامون » : بضم التاء وتخفيف الميم ؛ أي : لا يلحقكم ضيم، والضيم الظلم، والمعنى : لا يحجب بعضكم بعضًا عن الرؤية فيظلمه . بمنعه إياه . لأن كل واحد يراه - « لا تضامون » : بتشديد الميم وفتح التاء وضمها : يعني : لا ينضم بعضكم إلى بعض في رؤيته ؛ لأن الشيء إذا كان خفيًا ؛ ينضم الواحد إلى صاحبه ليريه إياه .

- أما « لا تضارون » أو « لا تضارُّون ». فالمعنى : لا يلحقكم ضرر ؛ لأن كل إنسان يراه سبحانه وتعالى وهو في غاية ما يكون من الطمئنينة والراحة .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (لا تضامون في رؤيته) بضم التاء وتخفيف الميم ؛ أي : لا يلحقكم ضيم ؛ أي : ظلم، بحيث يراه بعضكم دون بعضٍ .

وروي بفتح التاء وتشديد الميم، من التضام ؛ أي : لا ينضم بعضكم إلى بعضٍ لأجل رؤيته .

والمعنى على هذه الرواية : لا تجتمعون في مكانٍ واحدٍ لرؤيته، فيحصل بينكم الزحام .

والمعنى على الروايتين : أنكم ترونه رؤيةً محققةً، كلٌّ منكم يراه، وهو في مكانه .

✽ قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « فإن استطعتم ألَّا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها ؛ فافعلوا ». الصلاة قبل طلوع الشمس هي الفجر، وقبل غروبها هي العصر .

والعصر أفضل من الفجر ؛ لأنها الصلاة الوسطى التي خصَّها اللَّه بالأمر بالمحافظة عليها بعد التعميم، والفجر أفضل من العصر من وجه ؛ لأنها الصلاة المشهودة ؛ كما قال تعالى : ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء : ٧٨]. وجاء في الحديث الصحيح : « من صلى البَرْدَين ؛ دخل الجنةَ »[1]، وهما : الفجر والعصر .

في هذا الحديث من صفات اللَّه : إثبات أن اللَّه يرى، وقد سبق شرح هذه الصفة عند ذكر الآيات الدالة عليها، وهي أربع آيات، والأحاديث في هذا متواترة عن النبي ﷺ فثبوتها قطعي،

(1) أخرجه البخاري (٥٧٤)، ومسلم (٦٣٥).

مَوْقِفُ أهلِ السُّنَّةِ مِن هذه الأحاديثِ
التى فيها إثباتُ الصفاتِ الرَّبَّانِيَّةِ

إلى أمثالِ هذه الأحاديثِ التى يُخْبِرُ فيها رسولُ اللَّهِ ﷺ عن ربِّه(١) بما يُخْبِرُ به ؛

ودلالتها قطعية .

ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أن من أنكر رؤية اللّه تعالى ؛ فهو كافرٌ مرتد ، وأن الواجب على كل مؤمن أن يُقر بذلك . قال : وإنما كَفَّرناه ؛ لأن الأدلة قطعية الثبوت وقطعية الدلالة ، ولا يمكن لأحدٍ أن يقول : إن قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « إنكم سترون ربكم » . إنه ليس قطعى الدلالة ؛ إذ ليس هناك شيء أشد قطعًا من مثل هذا التركيب .

لو كان الحديث : « إنكم ترون ربكم » : لربما تحتمل التأويل ، وأنه عبَّر عن العلم اليقينى بالرؤية البصرية ، ولكنه صرح بأنا نراه كما نرى القمر ، وهو حسى .

وسبق لنا أن أهل التعطيل يؤوِّلون هذه الأحاديث ويفسرون الرؤية برؤية العلم ، وسبق بطلان قولهم .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

وقوله : (فإن استطعتم أن لا تغلبوا) ؛ أى : لا تصيروا مغلوبين .

(على صلاةٍ قبل طلوع الشمس) ، وهى صلاة الفجر .

(وصلاةٍ قبل غروبها) وهى صلاة العصر .

(فافعلوا) ؛ أى : حافظوا على هاتين الصلاتين فى الجماعة ، فى أوقاتهما ، وخص هاتين الصلاتين لاجتماع الملائكة فيهما ، فهما أفضل الصلوات ، فناسب أن يجازى من حافظ عليهما بأفضل العطايا ، وهو النظر إلى وجه اللّه تعالى .

والشاهد من الحديث : أن فيه إثبات رؤية المؤمنين لربهم عيانًا يوم القيامة ، وقد تقدم ذكر من خالف فى ذلك ، مع الرد عليه ، عند الكلام على تفسير الآيات التى فيها إثبات الرؤية . واللّه أعلم .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قوله : « إلى أمثالِ هذه الأحاديث . . . » إلخ . يعنى : انظر إلى أمثال هذه الأحاديث التى يخبر بها النبى ﷺ عن ربه ؛ فما كان مثلها ثبوتًا ودلالة ؛ فحكمه حكمها .

فإنَّ الفرقةَ (١) الناجيةَ (٢)؛ أهلَ السنةِ والجماعةِ (٣) يُؤْمِنون بذلك (٤)، كما يؤمنون بما أخْبَرَ اللَّهُ به فى كتابِه العزيز (٥)، من غيرِ تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، ومن غيرِ تكييفٍ، ولا تمثيلٍ (٦).

✽ قال الشيخ الفوزان :

هذا بيان لموقف أهل السنة والجماعة من أحاديث الصفات الواردة عن الرسول ﷺ، أنه كموقفهم من آيات الصفات فى القرآن سواءً، وهو الإيمان بها، واعتقاد ما دلت عليه على حقيقته.

لا يصرفونها عن ظاهرها بأنواع التأويل الباطل، ولا ينفون ما دلت عليه فيعطلونها، ولا يشبهون الصفات المذكورة فيها بصفات المخلوقين؛ لأن اللَّه (ليس كمثله شيء).

وهم بذلك يخالفون طريقة المبتدعة، من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، الذين كان موقفهم من هذه النصوص موقف المنكر لها، أو المؤول لما دلت عليه.

وبخلاف المشبهة الذين غلوا فى الإثبات حتى شبَّهوا اللَّه بخلقه، تعالى اللَّه عما يقولون علوًّا كبيرًا.

لما بين الشيخ رحمه اللَّه موقف أهل السنة والجماعة من النصوص الواردة فى الكتاب والسنة فى صفات اللَّه تعالى أراد أن يبين مكانتهم بين فرق الأمة حتى يعرف قدرهم وفضلهم بمقارنتهم بغيرهم؛ فإن الضد يظهر حسنه الضد، وبضدها تتبين الأشياء.

(١ - ٦) قال الشيخ ابن عثيمين :

« الفرقة »؛ أى : الطائفة.

« الناجية »: التى نجت فى الدنيا من البدع، وفى الآخرة من النار.

أى : الذين أخذوا بالسنة واجتمعوا عليها.

أى : بما أخبر به الرسول ﷺ.

لأن ما أخبر به الرسول عليه الصلاة والسلام يجب علينا أن نؤمن به كما يجب علينا أن نؤمن بما أخبر اللَّه به فى كتابه؛ إلا أنه يختلف عن القرآن فى الثبوت؛ فإن لنا نظرين بالنسبة لما جاءت به السنة :

النظر الأول : فى ثبوته.

مكانةُ أهلِ السنةِ والجماعةِ بينَ فِرَقِ الأمةِ

بل هم الوسَطُ فى فرقِ الأُمَّةِ ، كما أن الأمةَ هى الوسطُ فى الأُممِ(١) .

والنظر الثانى : فى دلالته .

أما ما فى القرآن ؛ فلنا نظر واحد ، وهو النظر فى الدلالة .

وقد سبق لنا بيان الأدلة الدالة على وجوب قبول ما أخبر به النبى ﷺ .

سبق شرح هذا .

✽ قال الشيخ هراس :

قوله : (إلى أمثال هذه الأحاديث) إلخ : لما كان ما ذكره المؤلف من الأحاديث ليس هو كل ما ورد فى باب الصفات من الأخبار ، نبه على أن أمثال هذه الأحاديث التى ذكرها مما يخبر فيه الرسول ﷺ عن ربه بما يخبر به ، فإن حكمه كذلك ، وهو وجوب الإيمان بما يتضمنه من أسماء اللّٰه وصفاته ، ثم عاد فأكد معتقد أهل السنة والجماعة ، وهو أنهم يؤمنون بما وردت به السنة الصحيحة من صفات كإيمانهم بما أخبر اللّٰه فى كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

فصل : مكانة أهل السنة والجماعة بين فرق الأمة واتصافهم بالوسطية :

يعنى : الأمم السابقة ، وذلك من عدة أوجه :

- ففى حق اللّٰه تعالى : كانت اليهود تصف اللّٰه تعالى بالنقائص ، فتلحقه بالمخلوق . وكانت النصارى تلحق المخلوق الناقص بالرب الكامل . أما هذه الأمة ؛ فلم تصف الرب بالنقائص ولم تلحق المخلوق به .

- وفى حق الأنبياء ؛ كذبت اليهود عيسى ابن مريم ، وكفرت به . وغلت النصارى فيه ، حتى جعلته إلهًا . أما هذه الأمة ؛ فآمنت به بدون غلو ، وقالت : هو عبد اللّٰه ورسوله .

- وفى العبادات ؛ النصارى يدينون للّٰه عز وجل بعدم الطهارة ؛ بمعنى أنهم لا يتطهرون من الخبث ؛ يبول الواحد منهم ، ويصيب البول ثيابه ، ويقوم ، ويصلى فى الكنيسة ! ! واليهود بالعكس ؛ إذا أصابتهم النجاسة ؛ فإنهم يقرضونها من الثوب ؛ فلا يطهرها الماء عندهم ؛ حتى إنهم يبتعدون عن الحائض لا يؤاكلونها ولا يجتمعون بها . أما هذه الأمة ؛ فهم وسط ؛ فيقولون :

....

لا هذا ولا هذا؛ لا يُشَق الثوب، ولا يُصلى بالنجاسة، بل يغسل غسلًا حتى تزول النجاسة منه، ويصلى به، ولا يتعدون عن الحائض؛ بل يؤاكلونها ويباشرها زوجها فى غير الجماع.

- وكذلك أيضًا فى باب المحرمات من المآكل والمشارب؛ النصارى استحلوا الخبائث وجميع المحرمات، واليهود حرّم عليهم كل ذى ظفر؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، أما هذه الأمة؛ فهم وسط؛ أحلت لهم الطيبات؛ وحرمت عليهم الخبائث.

- وفى القصاص؛ القصاص فرض على اليهود، والتسامح عن القصاص فرض على النصارى، أما هذه الأمة؛ فهى مخيرة بين القصاص والدية والعفو مجانًا.

فكانت الأمة الإسلامية وسطًا بين الأمم بين الغلو والتقصير.

فأهل السنة والجماعة بين فرق الأمة كالأمة بين الديانات الأخرى؛ يعنى: أنهم وسط.

ثم ذكر المؤلف - رحمه الله - أصولًا خمسة كان أهل السنة والجماعة فيها وسطًا بين فرق الأمة:

الأصل الأول: باب الأسماء والصفات.

✽ قال الشيخ الفوزان:

قال رحمه الله: (بل هم الوسط فى فرق الأمة). قال فى المصباح المنير: الوسط بالتحريك: المعتدل، والمراد بالوسط هنا العدل الخيار، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]

فأهل السنة وسط، بمعنى أنهم عدول خيار، وبمعنى أنهم متوسطون بين فريقى الإفراط والتفريط، فهم وسط بين الفرق المنتسبة للإسلام، كما أن الأمة الإسلامية وسط بين الأمم.

فهذه الأمة وسط بين الأمم التى تميل إلى الغلو والإفراط، والأمم التى تميل إلى التفريط والتساهل، وأهل السنة والجماعة من هذه الأمة وسط بين فرق الأمة المبتدعة التى انحرفت عن الصراط المستقيم، فغلا بعضها وتطرف، وتساهل بعضها وانحرف.

ثم بين الشيخ رحمه الله تفصيل ذلك فقال: (فهم)؛ أى: أهل السنة والجماعة:

فهم وَسَطٌ فى بابِ صفاتِ اللَّهِ سبحانَه وتعالى بينَ أهلِ التعطيلِ ؛ الجَهْمِيةِ ، وأهلِ التمثيلِ ؛ المُشَبِّهةِ(١) .

❁ **قال الشيخ هراس :**

ثم أخبر عن أهل السنة والجماعة بأنهم وسط بين الأمم السابقة ، قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ، ومعنى وسطًا عدولًا خيارًا كما ورد الحديث بذلك .

فهذه الأمة وسط بين الأمم التى تجنح إلى الغلو الضار ، والأمم التى تميل إلى التفريط المهلك ، فإن من الأمم من غلا فى المخلوقين وجعل لهم من صفات الخالق وحقوقه ما جعل ؛ كالنصارى الذين غلوا فى المسيح والرهبان ، ومنهم من جفا الأنبياء وأتباعهم حتى قتلهم ورد دعوتهم كاليهود الذين قتلوا زكريا ويحيى وحاولوا قتل المسيح ورموه بالبهتان ، وأما هذه الأمة فقد آمنت بكل رسول أرسله اللَّه واعتقدت رسالتهم وعرفت لهم مقاماتهم الرفيعة التى فضلهم اللَّه بها .

ومن الأمم أيضًا من استحلت كل خبيث وطيب ، ومنها من حرم الطيبات غلوًا ومجاوزة ، وأما هذه الأمة فقد أحل اللَّه لهم الطيبات وحرم عليها الخبائث ، إلى غير ذلك من الأمور التى مَنَّ اللَّه على هذه الأمة الكاملة بالتوسط فيها .

فكذلك أهل السنة والجماعة متوسطون بين فِرَق الأمة المبتدعة التى انحرفت عن الصراط المستقيم .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هذان طرفان متطرفان : أهل التعطيل الجهمية ، وأهل التمثيل المشبهة .

- فالجهمية : ينكرون صفات اللَّه عز وجل ، بل غلاتهم ينكرون الأسماء ويقولون : لا يجوز أن نثبت للَّه اسمًا ولا صفةً ؛ لأنك إذا أثبت له اسمًا ؛ شبهته بالمسميات ، أو صفة ؛ شبهته بالموصوفات ! ! إذن ؛ لا نثبت اسمًا ولا صفة ! ! وما أضاف اللَّه إلى نفسه من الأسماء ؛ فهو من باب المجاز ، وليس من باب التسمى بهذه الأسماء ! !

- والمعتزلة ينكرون الصفات ويثبتون الأسماء .

- والأشعرية يثبتون الأسماء وسبعًا من الصفات .

كل هؤلاء يشملهم اسم التعطيل ، لكن بعضهم معطل تعطيلًا كاملًا ؛ كالجهمية ، وبعضهم تعطيلًا نسبيًا ؛ مثل المعتزلة والأشاعرة .

....

وأما أهل التمثيل المشبهة ؛ فيثبتون للَّه الصفات ، ويقولون : يجب أن نثبت للَّهِ الصفات ؛ لأنه أثبتها لنفسه ، لكن يقولون : إنها مثل صفات المخلوقين .

فهؤلاء غلوا فى الإثبات ، وأهل التعطيل غلوا فى التنزيه .

فهؤلاء قالوا : يجب عليك أن تثبت للَّه وجهًا ، وهذا الوجه مثل وجه أحسن واحد من بنى آدم . قالوا : لأن اللَّه خاطبنا بما نعقل ونفهم ؛ قال : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] . ولا نعقل ونفهم من الوجه إلا ما نشاهد ، وأحسن ما نشاهد الإنسان .

فهو على زعمهم - والعياذ باللَّه - على أحسن واحد من الشباب الإنسانى ، ويدَّعون أن هذا هو المعقول معقول ! !

وأما أهل السنة والجماعة ؛ فقالوا : نحن نأخذ بالحق الذى مع الجانبين ؛ فنأخذ بالحق فى باب التنزيه ؛ فلا نمثل ، ونأخذ بالحق فى جانب الإثبات ؛ فلا نعطل ؛ بل إثبات بلا تمثيل ، وتنزيه بلا تعطيل ؛ نحن نثبت ولكن بدون تمثيل ، فنأخذ بالأدلة من هنا ومن هنا .

والخلاصة : هم وسط فى باب الصفات بين طائفتين متطرفتين : طائفة غلت فى التنزيه والنفى ، وهم أهل التعطيل من الجهمية وغيرهم ، وطائفة غلت فى الإثبات ، وهم الممثلة .

وأهل السنة والجماعة يقولون : لا نغلوا فى الإثبات ولا فى النفى ، ونثبت بدون تمثيل ؛ لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] .

الأصل الثانى : أفعال العباد .

❁ قال الشيخ الفوزان :

أولًا : (وسط فى باب صفات اللَّه سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة) فالجهمية نسبةً إلى الجهم بن صفوان الترمذى .

هؤلاء غلوا وأفرطوا فى التنزيه حتى نفوا أسماء اللَّه وصفاته ؛ حذرًا من التشبيه بزعمهم ، وبذلك سموا معطلةً ؛ لأنهم عطلوا اللَّه من أسمائه وصفاته .

(وأهل التمثيل المشبهة) سموا بذلك ؛ لأنهم غلوا وأفرطوا فى إثبات الصفات حتى شبهوا اللَّه بخلقه ، ومثلوا صفاته بصفاتهم ، تعالى اللَّه عما يقولون .

وأهل السنة توسطوا بين الطرفين ، فأثبتوا صفات اللَّه على الوجه اللائق بجلاله ، من غير تشبيهٍ ، ولا تمثيلٍ ، فلم يغلوا فى التنزيه ، ولم يغلوا فى الإثبات ، بل نزهوا اللَّه بلا تعطيلٍ ، وأثبتوا له الأسماء والصفات بلا تمثيلٍ .

وهم وَسَطٌ فى بابِ أفعالِ اللَّهِ بينَ القَدَريةِ والجَبْرِيةِ(١).

❁ قال الشيخ هراس :

قوله : (فهم وسطًا فى باب صفات اللَّه) إلخ : يعنى أن أهل السنة والجماعة وسط فى باب الصفات بين من ينفيها ويعطل الذات العلية عنها ويحرف ما ورد فيها من الآيات والأحاديث عن معانيها الصحيحة إلى ما يعتقده هو من معان بلا دليل صحيح ولا عقل صريح ، كقولهم : رحمة اللَّه ، إرادته الإحسان ، ويده قدرته ، وعينه حفظه ورعايته ، واستواؤه على العرش استيلاؤه ، إلى أمثال ذلك من أنواع النفى والتعطيل التى أوقعهم فيها سوء ظنهم بربهم وتوهمهم أن قيام هذه الصفات به لا يعقل إلا على النحو الموجود فى قيامها بالمخلوق .

ولقد أحسن القائل حيث يقول :

وَقُصَارَى أَمرِ مَنْ أَوَّلَ أَن ظَنُّوا الظُّنُونَا
فَيَقُولُونَ عَلَى الرَّحْمَنِ مَا لَا يَعلَمُونَا

وإنما سمى أهل التعطيل جهمية نسبة إلى الجهم بن صفوان الترمذى رأس الفتنة والضلال ، وقد توسع فى هذا اللفظ حتى أصبح يطلق على كل من نفى شيئًا من الأسماء والصفات ، فهو شامل لجميع فرق النفاة من فلاسفة ومعتزلة وأشعرية وقرامطة باطنية .

فأهل السنة والجماعة وسط بين هؤلاء الجهمية النفاة وبين أهل التمثيل المشبهة الذين شبهوا اللَّه بخلقه ومثلوه بعباده ، وقد رد اللَّه على الطائفتين بقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ . فهذا يرد على المشبهة ، وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، يرد على المعطلة .

وأما أهل الحق فهم الذين يثبتون الصفات للَّه تعالى إثباتًا بلا تمثيل ، وينزهونه عن مشابهة المخلوقات تنزيهًا بلا تعطيل ، فجمعوا أحسن ما عند الفريقين ، أعنى التنزيه والإثبات ، وتركوا ما أخطئوا وأساءوا فيه من التعطيل والتشبيه .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

فى باب القدر انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : آمنوا بقدر اللَّه عز وجل وغلوا فى إثباته ، حتى سلبوا الإنسان قدرته واختياره ، وقالوا : إن اللَّه فاعل كل شىء ، وليس للعبد اختيار ولا قدرة ، وإنما يفعل الفعل مجبرًا عليه ، بل إن بعضهم ادَّعى أن فعل العبد هو فعل اللَّه ، ولهذا دخل من بابهم أهل الاتحاد والحلول ، وهؤلاء هم الجبرية .

....

القسم الثانى قالوا : إن العبد مستقل بفعله ، وليس للّٰه فيه مشيئة ولا تقدير ، حتى غلا بعضهم ، فقال : إن اللّٰه لا يعلم فعل العبد إلا إذا فعله ، أما قبل ؛ فلا يعلم عنه شيئًا ، وهؤلاء هم القدرية ، مجوس هذه الأمة .

فالأولون غلوا فى إثبات أفعال اللّٰه وقدره وقالوا : إن اللّٰه عز وجل يجبر الإنسان على فعله ، وليس للإنسان اختيار .

والآخرون غلوا فى إثبات قدرة العبد ، وقالوا : إن القدرة الإلهية والمشيئة الإلهية لا علاقة لها فى فعل العبد ؛ فهو الفاعل المطلق الاختيار .

القسم الثالث : أهل السنة والجماعة ؛ قالوا : نحن نأخذ بالحق الذى مع الجانبين ؛ فنقول : إن فعل العبد واقع بمشيئة اللّٰه وخلق اللّٰه ، ولا يمكن أن يكون فى ملك اللّٰه ما لا يشاؤه أبدًا ، والإنسان له اختيار وإرادة ، ويفرق بين الفعل الذى يضطر إليه والفعل الذى يختاره ؛ فأفعال العباد باختيارهم وإرادتهم ، ومع ذلك ؛ فهى واقعة بمشيئة اللّٰه وخلقه .

لكن سيبقى عندنا إشكال : كيف تكون خلقًا للّٰه وهى فعل الإنسان ؟ !

والجواب : أن أفعال العبد صدرت بإرادة وقدرة ، والذى خلق فيه الإرادة والقدرة هو اللّٰه عز وجل ، لو شاء اللّٰه تعالى لسلبك القدرة ؛ فلم تستطع ، ولو أن أحدًا قادرًا لم يُرد فعلًا ؛ لم يقعِ الفعل منه .

كل إنسان قادر يفعل الفعل ؛ فإنه بإرادته ، اللهمَّ إلا من أكره .

فنحن نفعل باختيارنا وقدرتنا ، والذى خلق فينا الاختيار والقدرة هو اللّٰه .

الأصل الثالث : الوعيد .

✽ قال الشيخ الفوزان :

ثانيًا : وأهل السنة والجماعة وسط فى باب أفعال اللّٰه بين الجبرية والقدرية ، فالجبرية نسبةً إلى الجبر ؛ لأنهم يقولون : إن العبد مجبور على فعله .

فهم غلوا فى إثبات أفعال اللّٰه حتى نفوا أفعال العباد ، وزعموا أنهم لا يفعلون شيئًا ، وإنما اللّٰه هو الفاعل ، والعبد مجبور على فعله .

فحركاته وأفعاله كلها اضطرارية كحركات المرتعش ، وإضافة الفعل إلى العبد مجاز .

....

والقدرية نسبةً إلى القدر ، غلوا فى إثبات أفعال العباد ، فقالوا : العبد يخلق فعل نفسه بدون مشيئة اللَّه وإرادته ، فأفعال العباد لا تدخل تحت مشيئة اللَّه وإرادته ، فاللَّه لم يقدرها ، ولم يردها ، وإنما فعلوها هم استقلالًا .

وأهل السنة توسطوا ، وقالوا : للعبد اختيار ومشيئة وفعل يصدر منه ، ولكنه لا يفعل شيئًا بدون إرادة اللَّه ومشيئته وتقديره ، قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات : ٩٦] .

فأثبت للعباد عملًا هو من خلق اللَّه تعالى وتقديره .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٩] .

فأثبت للعباد مشيئةً تأتى بعد مشيئة اللَّه تعالى ، وسيأتى لهذا مزيد إيضاحٍ إن شاء اللَّه تعالى فى مبحث القدر .

✽ قال الشيخ هراس :

قوله : (وهم وسط) إلخ . قال الشيخ العلامة محمد بن عبد العزيز بن مانع فى تعليقه على هذه العبارة ما نصه :

اعلم أن الناس اختلفوا فى أفعال العباد : هل هى مقدورة للرب أم لا ؟ فقال جهم وأتباعه وهم الجبرية : إن ذلك الفعل مقدور للرب لا للعبد . وكذلك قال الأشعرى وأتباعه : إن المؤثر فى المقدور قدرة الرب دون قدرة العبد . وقال جمهور المعتزلة وهم القدرية ، أى نفاة القدر : إن الرب لا يقدر على عين مقدور العبد . واختلفوا هل يقدر على مثل مقدوره ، فأثبته البصريون كأبى على وأبى هاشم ، ونفاه الكعبى وأتباعه البغداديون .

وقال أهل الحق : أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة وهى مخلوقة للَّه تعالى ، والحق سبحانه منفرد بخلق المخلوقات لا خالق لها سواه ، فالجبرية غلوا فى إثبات القدر فنفوا فعل العبد أصلًا ، والمعتزلة نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع اللَّه ، ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة ، وهدى اللَّه المؤمنين أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ، فقالوا : العباد فاعلون واللَّه خالقهم وخالق أفعالهم كما قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات : ٩٦] . وإنما نقلنا هذه العبارة بنصها ؛ لأنها تلخيص جيد لمذاهب المتكلمين فى القدر وأفعال العباد .

وفي بابِ وَعيدِ اللَّهِ بينَ المُرْجئةِ والوعيديةِ مِن القدريةِ وغيرِهم(١) .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

المرجئة : اسم فاعل من أرجأ ؛ بمعنى : أخَّر ، ومنه قوله تعالى : ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف : ١١١] ، وفي قراءة : (أرجئه) ؛ أي : أخره وأخر أمره ، وسمُّو مرجئة : إما من الرجاء ؛ لتغليبهم أدلة الرجاء على أدلة الوعيد ، وإما من الإرجاء ؛ بمعنى التأخير ؛ لتأخيرهم الأعمال عن مسمَّى الإيمان .

ولهذا يقولون : الأعمال ليست من الإيمان ، والإيمان هو الاعتراف بالقلب فقط .

ولهذا يقولون : إن فاعل الكبيرة كالزاني والسارق وشارب الخمر وقاطع الطريق لا يستحق دخول النار لا دخولًا مؤبدًا ولا مؤقتًا ؛ فلا يضر مع الإيمان معصية ؛ مهما كانت صغيرة أم كبيرة ؛ إذا لم تصل إلى حد الكفر .

وأما الوعيديّة ؛ فقابلوهم ، وغلّبوا جانب الوعيد ، وقالوا : أي كبيرة يفعلها الإنسان ولم يتب منها ؛ فإنه مخلَّد في النار بها : إن سرق ؛ فهو من أهل النار خالدًا مخلَّدًا ، وإن شرب الخمر ؛ فهو في النار خالدًا مخلدًا ... وهكذا .

والوعيدية يشمل طائفتين : المعتزلة ، والخوارج . ولهذا قال المؤلف : « من القدرية وغيرهم » . فيشمل المعتزلة - والمعتزلة قدرية ؛ يرون الإنسان مستقل بعلمه ، وهم وعيدية - ويشمل الخوارج .

فاتفقت الطائفتان على أن فاعل الكبيرة مخلد في النار ، لا يخرج منها أبدًا ، وأن من شرب الخمر مرة ؛ كمن عبد الصنم ألف سنة ؛ كلهم مخلَّدون في النار ؛ لكن يختلفون في الاسم ؛ كما سيأتي إن شاء اللَّه في الباب الثاني .

وأما أهل السنة والجماعة ؛ فيقولون : لا نغلب جانب الوعيد كما فعل المعتزلة والخوارج ، ولا جانب الوعد كما فعل المرجئة ، ونقول : فاعل الكبيرة مستحق للعذاب ، وإن عذِّب ؛ لا يخلد في النار .

وسبب الخلاف بين الوعيدية وبين المرجئة : أن كل واحد منهما نظر إلى النصوص بعين عوراء ؛ ينظر من جانب واحد .

- هؤلاء نظروا نصوص الوعد ، فأدخلوا الإنسان في الرجاء ، وقالوا : نأخذ بها ، وندع ما سواها ، وحملوا نصوص الوعيد على الكفار .

....

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

ثالثًا : وأهل السنة والجماعة وسط فى باب وعيد اللّٰه .

الوعيد التخويف والتهديد ، والمراد هنا النصوص التى فيها توعد للعصاة بالعذاب والنكال .

وقوله : (بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم) .

المرجئة : نسبةً إلى الإرجاء ، وهو التأخير ، سموا بذلك ؛ لأنهم أخروا الأعمال عن مسمى الإيمان حيث زعموا أن مرتكب الكبيرة غير فاسقٍ ، وقالوا : لا يضر مع الإيمان ذنب ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة .

فعندهم أن مرتكب الكبيرة كامل الإيمان ، غير معرضٍ للوعيد ، فهم تساهلوا فى الحكم على العاصى ، وأفرطوا فى التساهل حتى زعموا أن المعاصى لا تنقص الإيمان ، ولا يحكم على مرتكب الكبيرة بالفسق .

وأما الوعيدية : فهم الذين قالوا بإنفاذ الوعيد على العاصى وشددوا فى ذلك حتى قالوا : إن مرتكب الكبيرة إذا مات ، ولم يتب ، فهو مخلد فى النار ، وحكموا بخروجه من الإيمان فى الدنيا .

وأهل السنة والجماعة توسطوا بين الطرفين ، فقالوا : إن مرتكب الكبيرة آثم ، ومعرض للوعيد ، وناقص الإيمان ، ويحكم عليه بالفسق ، لا كما تقول المرجئة : إنه كامل الإيمان ، وغير معرضٍ للوعيد .

ولكنه لا يخرج من الإيمان ، ولا يخلد فى النار إن دخلها ، فهو تحت مشيئة اللّٰه ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عذبه بقدر معصيته ، ثم يخرج من النار ، ويدخل الجنة ، لا كما تقوله الوعيدية بخروجه من الإيمان ، وتخليده فى النار .

فالمرجئة أخذوا بنصوص الوعد ، والوعيدية أخذوا بنصوص الوعيد ، وأهل السنة والجماعة جمعوا بينهما .

❁ **قال الشيخ هراس :**

قوله : (وفى باب وعيد اللّٰه) إلخ : يعنى أن أهل السنة والجماعة وسط فى باب الوعيد بين المفرطين من المرجئة الذين قالوا : لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا تنفع مع الكفر طاعة . وزعموا أن الإيمان مجرد التصديق بالقلب ، وإن لم ينطق به ، وسموا بذلك نسبة إلى الإرجاء ، أى : التأخير ؛ لأنهم أخروا الأعمال عن الإيمان .

....

ولا شك أن الإرجاء بهذا المعنى كفر يخرج صاحبة عن الملة ، فإنه لابد فى الإيمان من قول باللسان ، واعتقاد بالجنان ، وعمل بالأركان ، فإذا اختل واحد منها لم يكن الرجل مؤمنًا .

وأما الإرجاء الذى نسب إلى بعض الأئمة من أهل الكوفة كأبى حنيفة وغيره ، وهو قولهم : إن الأعمال ليست من الإيمان ، ولكنهم مع ذلك يوافقون أهل السنة على أن الله يعذب من يعذب من أهل الكبائر بالنار ، ثم يخرجهم منها بالشفاعة وغيرها ، وعلى أنه لابد فى الإيمان من نطق باللسان ، وعلى أن الأعمال المفروضة واجبة يستحق تركها الذم والعقاب ، فهذا النوع من الإرجاء ليس كفرًا ، وإن كان قولًا باطلًا مبتدعًا لإخراجهم الأعمال عن الإيمان .

❁ قال الشيخ ابن عثيمين :

والوعيدية بالعكس ؛ نظروا إلى نصوص الوعيد ، فأخذوا بها ، وغفلوا عن نصوص الوعد .

فلهذا اختل توازنهم لما نظروا من جانب واحد .

وأهل السنة والجماعة أخذوا بهذا وهذا ، وقالوا : نصوص الوعيد محكمة ؛ فنأخذ بها ، ونصوص الوعد محكمة ؛ فنأخذ بها . فأخذوا من نصوص الوعد ما ردوا به على الوعيدية ، ومن نصوص الوعيد ما ردوا به على المرجئة ، وقالوا : فاعل الكبيرة مستحق لدخول النار ؛ لئلا نهدر نصوص الوعيد ؛ غير مخلَّد فيها ؛ لئلا نهدر نصوص الوعد .

فأخذوا بالدليلين ونظروا بالعينين .

الأصل الرابع : أسماء الإيمان والدين .

❁ قال الشيخ هراس :

وأما الوعيدية فهم القائلون بأن الله يجب عليه عقلًا أن يعذب العاصى كما يجب عليه أن يثيب المطيع ، فمن مات على كبيرة ولم يتب منها لا يجوز عندهم أن يغفر الله له ، ومذهبهم باطل مخالف للكتاب والسنة ، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء : ٤٨] ، وقد استفاضت الأحاديث فى خروج عصاة الموحدين من النار ودخولهم الجنة .

فمذهب أهل السنة والجماعة وسط بين نفاة الوعيد من المرجئة وبين موجبيه من القدرية ، فمن مات على كبيرة عندهم فأمره مفوض إلى الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه ، كما دلت عليه الآية السابقة . وإذا عاقبه بها فإنه لا يخلد خلود الكفار بل يخرج من النار ويدخل الجنة .

وفى بابِ أسماءِ الإيمانِ والدينِ بينَ الحَرُوريَّةِ والمُعْتَزِلةِ ، وبينَ المرجئةِ والجهميةِ[١] .

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

هذا فى باب الأسماء والدين ، وهو غير باب الأحكام الذى هو الوعد والوعيد ؛ ففاعل الكبيرة ماذا نسميه ؟ ! أمؤمن أم كافر ؟ !

وأهل السنة وسط فيه بين طائفتين : الحرورية والمعتزلة من وجه ، والمرجئة الجهمية من وجه :

- فالحرورية والمعتزلة أخرجوه من الإيمان ، لكن الحرورية قالوا : إنه كافر يحل دمه وماله ، ولهذا خرجوا على الأئمة ، وكفَّروا الناس .

- وأما المرجئة الجهمية ؛ فخالفوا هؤلاء ، وقالوا : هو مؤمن كامل الإيمان ! ! يسرق ويزنى ويشرب الخمر ويقتل النفس ويقطع الطريق ؛ ونقول له : أنت مؤمن كامل الإيمان ! ! كرجل فعل الواجبات والمستحبات وتجنَّب المحرمات ! ! أنت وهو فى الإيمان واحد ! !

فهؤلاء وأولئك على الضد فى الاسم وفى الحكم .

❋ قال الشيخ الفوزان :

رابعًا : وأهل السنة والجماعة وسط فى باب أسماء الإيمان والدين ؛ أى : الحكم على الإنسان بالكفر ، أو الإسلام ، أو الفسق ، وفى جزاء العصاة فى الدنيا والآخرة بين الحرورية والمعتزلة ، وبين المرجئة والجهمية .

الحرورية هم الخوراج ، سموا بذلك نسبةً إلى « حرورى » قريةٍ بالعراق ، اجتمعوا فيها حين خرجوا على عليٍّ رضى الله عنه .

والمعتزلة هم أتباع واصل بن عطاءٍ ، الذى اعتزل مجلس الحسن البصرى ، وانحاز إليه أتباعه بسبب خلافٍ وقع بينهما فى حكم مرتكب الكبيرة من المسلمين ، فقال الحسن رحمه الله عن واصلٍ هذا : إنه قد اعتزلنا . فسموا معتزلةً .

فمذهب الخوارج والمعتزلة فى حكم مرتكب الكبيرة من المسلمين مذهب متشدد ، حيث حكموا عليه بالخروج من الإسلام ، ثم قال المعتزلة : إنه ليس بمسلمٍ ، ولا كافرٍ ، بل هو بالمنزلة بين المنزلتين .

قال الخوارج : إنه كافر . واتفقوا على أنه إذا مات على تلك الحال أنه خالد مخلد فى النار .

....

وقابلتهم المرجئة والجهمية فتساهلوا فى حكم مرتكب الكبيرة ، وأفرطوا فى التساهل معه ، فقالوا : لا يضر مع الإيمان معصية ؛ لأن الإيمان عندهم هو تصديق القلب فقط ، أو مع نطق اللسان على خلافٍ بينهم ، ولا تدخل فيه الأعمال فلا يزيد بالطاعة ، ولا ينقص بالمعصية ، فالمعاصى لا تنقص الإيمان ، ولا يستحق صاحبها النار ، إذا لم يستحلها .

وأهل السنة والجماعة توسطوا بين الفرقتين ، فقالوا : إن العاصى لا يخرج من الإيمان لمجرد المعصية ، وهو تحت المشيئة ، إن شاء اللّٰه عفا عنه ، وإن شاء عذبه فى النار ، لكنه لا يخلد فيها ، كما تقول الخوارج والمعتزلة .

والمعاصى تنقص الإيمان ويستحق صاحبها دخول النار إلا أن يعفو اللّٰه عنه .

ومرتكب الكبيرة يكون فاسقًا ناقص الإيمان ، لا كما تقول المرجئة : إنه كامل الإيمان ، واللّٰه تعالى أعلم .

✽ قال الشيخ هراس :

قوله : (وفى الباب أسماء الإيمان) إلخ : كانت مسألة الأسماء والأحكام من أول ما وقع فيه النزاع فى الإسلام بين الطوائف المختلفة وكان للأحداث السياسية والحروب التى جرت بين على ومعاوية رضى اللّٰه عنهما فى ذلك الحين وما ترتب عليها من ظهور الخوارج والرافضة والقدرية أثر كبير فى ذلك النزاع ، والمراد بالأسماء هنا أسماء الدين ، مثل مؤمن ومسلم وكافر وفاسق . إلخ . والمراد بالأحكام أحكام أصحابها فى الدنيا والآخرة .

فالخوارج الحرورية والمعتزلة ذهبوا إلى أنه لا يستحق اسم الإيمان إلا من صدق بجنانه ، وأقر بلسانه ، وقام بجميع الواجبات واجتنب جميع الكبائر ؛ فمرتكب الكبيرة عندهم لا يسمى مؤمنًا باتفاق بين الفريقين ، ولكنهم اختلفوا هل يسمى كافرًا أو لا . فالخوارج يسمونه كافرًا ويستحلون دمه وماله ، ولهذا كفروا عليًا ومعاوية وأصحابهما واستحلوا منهم ما يستحلون من الكفار .

✽ قال الشيخ ابن عثيمين :

وأما المعتزلة ؛ فقالوا : فاعل الكبيرة خرج من الإيمان ، ولم يدخل فى الكفر ؛ فهو فى منزلة بين منزلتين ؛ لا نتجاسر أن نقول : إنه كافر ! وليس لنا أن نقول : إنه مؤمن ؛ وهو يفعل الكبيرة ؛ [illegible] مرق ويشرب الخمر ! وقالوا : نحن أسعد الناس بالحق !

حنيئته أنهم إذا قالوا : إن هذا لا يتساوى مع مؤمن عابد ؛ فقد صدقوا .

....

لكن كونهم يخرجونه من الإيمان ، ثم يحدثون منزلة بين منزلتين : بدعة ما جاءت لا فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ، كل النصوص تدل على أنه لا يوجد منزلة بين منزلتين : كقوله تعالى : ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ : ٢٤] .

وقوله : ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يونس : ٣٢] . وقوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ [التغابن : ٢] . وفى الحديث : « القرآن حجة لك أو عليك » .

فأين المنزلة بين المنزلتين ؟ !

هم يقولون : فى منزلة بين منزلتين ! ! وفى باب الوعيد ينفذون عليه الوعيد ، فيوافقون الخوارج فى أن فاعل الكبيرة مخلَّد فى النار ، أما فى الدنيا ؛ فقالوا : تجرى عليه أحكام الإسلام ؛ لأنه هو الأصل ؛ فهو عندهم فى الدنيا بمنزلة الفاسق العاصى .

فيا سبحان الله ! كيف نصلى عليه ، ونقول : اللهمَّ اغفر له . وهو مخلَّد فى النار ؟ !

فيجب عليهم أن يقولوا فى أحكام الدنيا : إنه يُتَوَقَّف فيه ! لا نقول : مسلم ، ولا : كافر ، ولا نعطيه أحكام الإسلام ، ولا أحكام الكفر ! ! إذا مات ؛ لا نصلى عليه ، ولا نكفنه ، ولا نغسله ، ولا يدفن مع المسلمين ، ولا ندفنه مع الكفار ؛ إذن ؛ نبحث له عن مقبرة بين مقبرتين ! !

❁ قال الشيخ هراس :

وأما المعتزلة فقالوا : إن مرتكب الكبيرة خرج من الإيمان ولم يدخل فى الكفر فهو بمنزلة بين المنزلتين ، وهذا أحد الأصول التى قام عليها مذهب الاعتزال .

واتفق الفريقان أيضًا على أن من مات على كبيرة ولم يتبْ منها فهو مخلد فى النار ، فوقع الاتفاق بينهما فى أمرين :

١- نفى الإيمان عن مرتكب الكبيرة .

٢- خلوده فى النار مع الكفار . ووقع الخلاف أيضًا فى موضعين ؛ أحدهما : تسميته كافرًا . والثانى : استحلال دمه وماله وهو الحكم الدنيوى . وأما المرجئة فقد سبق بيان مذهبهم ، وهو أنه لا يضرهم مع الإيمان معصية ، فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن كامل الإيمان ولا يستحق دخول النار .

❁ قال الشيخ ابن عثيمين :

وأما أهل السنة والجماعة ؛ فكانوا وسطًا بين هذه الطوائف ؛ فقالوا : نسمى المؤمن الذى

وفى أصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ بينَ الراوفضِ والخوارجِ(١) .

يفعل الكبيرة مؤمنًا ناقص الإيمان ، أو نقول : مؤمن بإيمانه ، فاسق بكبيرته ، وهذا هو العدل ؛ فلا يعطى الاسم المطلق ، ولا يسلب مطلق الاسم .

ويترتَّب على هذا : أن الفاسق لا يجوز لنا أن نكرهه كرهًا مطلقًا ، ولا أن نحبه حبًا مطلقًا ، بل نحبه على ما معه من الإيمان ، ونكرهه على ما معه من المعصية .

الأصل الخامس : فى الصحابة رضى اللَّه عنهم .

✽ قال الشيخ هراس :

فمذهب أهل السنة والجماعة وسط بين هذين المذهبين ، فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن ناقص الإيمان ، قد نقص من إيمانه بقدر ما ارتكب من معصية فلا ينفون عنه الإيمان أصلًا كالخوارج والمعتزلة ، ولا يقولون بأنه كامل الإيمان كالمرجئة الجهمية ، وحكمه فى الآخرة عندهم أنه قد يعفو اللَّه عزَّ وجلَّ عنه فيدخل الجنة ابتداء أو يعذبه بقدر معصيته ثم يخرجه ويدخله الجنة كما سبق ، وهذا الحكم أيضًا وسط بين من يقول : بخلوده فى النار . وبين من يقول : إنه لا يستحق على المعصية عقابًا .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

« أصحاب » : جمع صاحب ، والصحب اسم جمع صاحب ، والصاحب : الملازم للشىء .

والصحابى : هو الذى اجتمع بالنبى ﷺ مؤمنًا به ومات على ذلك .

وهذا خاص فى الصحابة ، وهو من خصائص النبى ﷺ ؛ أن الإنسان يكون من أصحابه ، وإن لم يجتمع به إلا لحظة واحدة ؛ لكن بشرط أن يكون مؤمنًا به .

وأهل السنة والجماعة وسط فيهم بين الرافضة والخوارج .

– فالرافضة : هم الذين يسمُّون اليوم : شيعة ، وسموا رافضة ؛ لأنهم رفضوا زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى اللَّه عنه ، الذى ينتسب إليه الآن الزيدية ؛ رفضوه لأنهم سألوه : ما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ يريدون منه أن يسبَّهما ويطعن فيهما ! ولكنه رضى اللَّه عنه قال لهم : نعم الوزيران وزيرا جدى . يريد بذلك رسول اللَّه ﷺ ؛ فأثنى عليهما ، فرفضوه ، وغضِبوا عليه ، وتركوه ! فسموا رافضة .

هؤلاء الروافض – والعياذ باللَّه – لهم أصول معروفة عندهم ، ومن أقبح أصولهم : الإمامة

....

التى تتضمن عصمة الإمام ، وأنه لا يقول خطأ ، وأن مقام الإمامة [عندهم] أرفع من مقام النبوة ؛ لأن الإمام يتلقى عن اللّه مباشرة ، والنبى [يتلقى] بواسطة الرسول ، وهو جبريل ، ولا يخطئ الإمام عندهم أبدًا ، بل غلاتهم يدعون أن الإمام يخلق ؛ يقول للشيء : كن فيكون ! !

وهم يقولون : إن الصحابة كفار ، وكلهم ارتدوا بعد النبى ﷺ ؛ حتى أبو بكر وعمر عند بعضهم كانا كافرين وماتا على النِّفاق ، والعياذ باللّه ، ولا يستثنون من الصحابة إلا آلَ البيت ، ونفرًا قليلًا ممن قالوا : إنهم أولياء آل البيت .

وقد قال صاحب كتاب « الفصل » : « إن غلاتهم كفروا على بن أبى طالب ؛ قالوا : لأن عليًا أقر الظلم والباطل حين بايع أبا بكر وعمر ، وكان الواجب عليه أن ينكر بيعتهما ، فلما لم يأخذ بالحق والعدل ، ووافق على الظلم ؛ صار ظالمًا كافرًا » .

– أما الخوارج ؛ فهم على العكس من الرافضة ؛ حيث إنهم كفَّروا على بن أبى طالب ، وكفروا معاوية بن أبى سفيان ، وكفروا كل من لم يكن على طريقتهم ، واستحلوا دماء المسلمين ، فكانوا كما وصفهم النبى عليه الصلاة والسلام : « يمرقون من الدِّين كما يمرق السهمُ من الرَّمِيَّة »[1] ، وإيمانهم لا يتجاوز حناجرهم .

فالشيعة غلوا فى آل البيت وأشياعهم ، وبالغوا فى ذلك ، حتى إن منهم من ادَّعى ألوهية على ، ومنهم من ادَّعى أنه أحق بالنبوة من محمد رسول اللّه ﷺ ، والخوارج بالعكس .

*** قال الشيخ الفوزان :**

خامسًا : وأهل السنة والجماعة وسط فى حق أصحاب رسول اللّه ﷺ بين الرافضة والخوارج .

الصحابى هو من لقى النبى ﷺ مؤمنًا به ، ومات على ذلك .

والرافضة اسم مأخوذ من الرفض ، وهو الترك ، سموا بذلك ؛ لأنهم قالوا لزيد ابن على بن الحسين : تبرأ من الشيخين ؛ أبى بكرٍ وعمر . فأبى ، وقال : معاذ اللّه . فرفضوه ، فسموا رافضةً .

ومذهبهم فى صحابة رسول اللّه ﷺ أنهم غلوا فى علىٍّ رضى اللّه عنه ، وأهل البيت ، وفضلوهم على غيرهم ، ونصبوا العداوة لبقية الصحابة ، خصوصًا الخلفاء الثلاثة ؛ أبا بكرٍ وعمر

---

(1) أخرجه البخارى (٣٣٤٤) ، ومسلم (١٠٦٤) .

....

وعثمان رضى اللَّه عنهم ، وسبوهم ، ولعنوهم ، وربما كفروهم ، أو كفروا بعضهم .

وقابلهم الخوارج ، فكفروا عليًا رضى اللَّه عنه ، وكفروا معه كثيرًا من الصحابة ، وقاتلوهم ، واستحلوا دماءهم وأموالهم .

وأهل السنة والجماعة خالفوا الجميع ، فوالوا جميع الصحابة ، ولم يغلوا فى أحدٍ منهم ، واعترفوا بفضل جميع الصحابة ، وأنهم أفضل هذه الأمة بعد نبيها ، ويأتى لهذا مزيد بيانٍ .

✽ قال الشيخ هراس :

قوله : (وفى أصحاب رسول اللَّه) إلخ : المعروف أن الرافضة قبحهم اللَّه يسبون الصحابة رضى اللَّه عنهم ويلعنونهم وربما كفروهم أو كفروا بعضهم ، والغالبية منهم مع سبهم لكثير من الصحابة والخلفاء يغلون فى علىّ وأولاده ويعتقدون فيهم الإلهية ، وقد ظهر هؤلاء فى حياة على رضى اللَّه عنه بزعامة عبد اللَّه بن سبأ الذى كان يهوديًا وأسلم وأراد أن يكيد للإسلام وأهله كما كاد اليهود من قبل للنصرانية وأفسدوها على أهلها ، وقد حرقهم علىّ بالنار لإطفاء فتنتهم ، وروى عنه فى ذلك قوله :

لَـمَّـا رَأَيـتُ الأَمـرَ أَمـرًا مُـنـكَـرا أَجَّـجْـتُ نَـارِى وَدَعَـوْتُ قُـنْـبُـرا

وأما الخوارج فقد قابلوا هؤلاء الروافض فكفروا عليًا ومعاوية ومن معهما من الصحابة وقاتلوهم واستحلوا دماءهم وأموالهم .

✽ قال الشيخ ابن عثيمين :

أما أهل السنة والجماعة ؛ فكانوا وسطًا بين الطائفتين ؛ قالوا : نحن ننزل آل البيت منزلتهم ، ونرى أن لهم حقين علينا : حق الإسلام والإيمان ، وحق القرابة من رسول اللَّه ﷺ . وقالوا : قرابة رسول اللَّه ﷺ لها الحق علينا ، لكن من حقها علينا أن ننزلها منزلتها ، وألا نغلو فيها . ويقولون فى بقية أصحاب الرسول ﷺ : لهم الحق علينا بالتوقير والإجلال والترضى ، وأن نكون كما قال اللَّه تعالى : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] . ولا نعادى أحدًا منهم أبدًا ؛ لا آل البيت ، ولا غيرهم ؛ فكل منهم نعطيه حقه ؛ فصاروا وسطًا بين جفاةٍ وغلاةٍ .

✽ قال الشيخ هراس :

وأما أهل السنة والجماعة فكانوا وسطًا بين غلو هؤلاء وتقصير أولئك وهداهم اللَّه إلى

وجوبُ الإيمانِ باستواءِ اللَّهِ على عرشِه وعُلُوِّه على خلقِه ومَعِيَّته لخلقِه ، وأنه لا تنافِيَ بينَهما

« فصلٌ » :

وقد دخَل فيما ذكَرْناه مِن الإيمانِ باللَّهِ الإيمانُ بما أخْبَرَ اللَّهُ به فى كتابِه ، وتَواتَر عن رسولِه ، وأجْمَع عليه سلفُ الأمَّةِ مِن أنه سبحانَه فوقَ سماواتِه على عرشِه ، عَلِيٌّ على خلقِه[1] ، ....

الاعتراف بفضل أصحاب نبيهم وأنهم أكمل هذه الأمة إيمانًا وإسلامًا وعلمًا وحكمة ، ولكنهم لم يغلوا فيهم ولم يعتقدوا عصمتهم ، بل قاموا بحقوقهم وأحبوهم لعظيم سابقتهم وحسن بلائهم فى نصرة الإسلام وجهادهم مع رسول اللَّه ﷺ .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

فصل : فى المعية وبيان الجمع بينها وبين علو اللَّه واستوائه على عرشه :

سبق أن [قُلْنا أنه] مما يدخل فى الإيمان باللَّه : الإيمان بأسمائه وصفاته ومن ذلك الإيمان بعلو اللَّه واستوائه على عرشه ، والإيمان بمعيته ، وفى هذا الفصل بيّن المؤلف رحمه اللَّه الجمع بين العلو والمعية ؛ فقال : « وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان باللَّه : الإيمان بما أخبر اللَّه به فى كتابه ، وتواتر عن رسوله ﷺ ، وأجمع عليه سلف الأمة من أنه سبحانه فوق سماواته على عرشه عليّ على خلقه » .

هذه ثلاثة أدلة على علو اللَّه تعالى : الكتاب ، والسنة ، والإجماع .

ومر علينا دليل رابع وخامس ، وهما : العقل ، والفطرة .

« من أنه سبحانه فوق سماواته على عرشه عليّ على خلقه » . تقدم لنا أن علو اللَّه عز وجل نوعان : علو صفة ، وعلو ذات ، وأن علو الذات دلَّ عليه الكتاب والسنة والإجماع ، والعقل والفطرة وكذلك علو الصفة .

فالكتاب مملوء من ذلك : تارة بالتصريح بالفوقية ، وتارة بالتصريح بالعلو ، وتارة بالتصريح بأنه فى السماء ، وتارة بنزول الأشياء من عنده ، وتارة بصعودها إليه ، ونحو ذلك .

والسنة جاءت بالقول والفعل والإقرار ، وسبق ذكر ذلك .

....

أما الإجماع ؛ فقد أجمع السلف على ذلك ، وطريق العلم بإجماعهم عدم نقل ضد ما جاء في الكتاب والسنة ؛ فإنهم كانوا يقرؤون القرآن وينقلون الأخبار ويعلمون معانيها ، ولما لم ينقل عنهم ما يخالف ظاهرها ؛ علم أنهم لا يعتقدون سواه ، وأنهم مجمعون على ذلك . وهذا طريق حسن لإثبات إجماعهم ، فاستمسك به ينفعك في مواطن كثيرة .

وأما العقل ؛ فمن وجهين :

الوجه الأول : أن العلو صفة كمال ، والله تعالى قد ثبت له كل صفات الكمال ، فوجب إثبات العلو له سبحانه .

الوجه الثاني : إذا لم يكن عاليًا ؛ فإما أن يكون تحت أو مساويًا ، وهذا صفة نقص ؛ لأنه يستلزم أن تكون الأشياء فوقه أو مثله ؛ فلزم ثبوت العلو له .

أما الفطرة ؛ فلا أحد ينكرها ؛ إلا من انحرفت فطرته ؛ فكل إنسان يقول : يا الله ! يتجه قلبه إلى السماء ، لا ينصرف عنه يمنة ولا يُسرة ، لأن الله تعالى في السماء .

❁ قال الشيخ الفوزان :

خصص المصنف رحمه الله هاتين المسألتين : (الاستواء على العرش ، ومعيته للخلق) بالتنبيه ليزيل الإشكال ، فقد يتوهم وجود التنافي بينهما ، فقد يظن الظان أن ذلك مثل صفات المخلوقين ، وأنه مختلط بهم .

فكيف يكون فوق خلقه ، مستويًا على عرشه ، ويكون مع خلقه قريبًا منهم ، بدون مخالطةٍ ؟ !

والجواب عن هذه الشبهة - كما وضحه رحمه الله - من وجوهٍ :

الوجه الأول : أن هذا لا توجبه لغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم ؛ فإن كلمة (مع) في اللغة لمطلق المصاحبة ، لا تفيد اختلاطًا ، ولا امتزاجًا ، ولا مجاورةً ، ولا مماسةً .

فإنك تقول : زوجتي معي . وأنت في مكانٍ ، وهي في مكانٍ آخر ، وتقول : مازلنا نسير ، والقمر معنا . وهو في السماء ، ويكون مع المسافر وغير المسافر أينما كان .

وإذا صح أن يقال هذا في حق القمر ، وهو مخلوق صغير ، فكيف لا يقال في حق الخالق ، الذي هو أعظم من كل شيءٍ ؟ !

الوجه الثاني : أن هذا القول خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة من الصحابة ، والتابعين ،

....

وتابعيهم ، وهم القرون المفضلة ، الذين هم القدوة ، فقد أجمعوا على أن اللّٰه مستوٍ على عرشه ، عالٍ على خلقه ، بائن منهم .

وأجمعوا على أنه مع خلقه بعلمه سبحانه وتعالى ، كما فسروا قوله تعالى : (وهو معكم) بذلك .

الوجه الثالث : أن هذا خلاف ما فطر اللّٰه عليه الخلق ؛ أى : ركزه فى فطرِهم ؛ فإن الخلق فطروا على الإقرار بعلو اللّٰه سبحانه على خلقه ؛ فإن الخلق يتجهون إلى اللّٰه عند الشدائد والنوازل نحو العلو ، لا يلتفتون يمنةً ، ولا يسرةً ، من غير أن يرشدهم إلى ذلك أحد ، وإنما بموجب الفطرة التى فطر اللّٰه الناس عليها .

الوجه الرابع : أن هذا خلاف ما أخبر اللّٰه به فى كتابه ، وتواتر عن رسوله ، من أنه سبحانه وتعالى على عرشه ، عليٌّ على خلقه ، وهو معهم أينما كانوا .

والمتواتر من النصوص هو ما رواه جماعة تحيل العادة تواطؤهم على الكذب ، عن مثلهم ، من الابتداء إلى الانتهاء ، والآيات والأحاديث فى هذا كثيرة ، منها الآية التى ذكرها المصنف رحمه اللّٰه .

❁ قال الشيخ هراس :

قوله : (وقد دخل فيما ذكرنا من الإيمان) إلخ : صرح المؤلف هنا بمسألة علوّ اللّٰه تعالى واستوائه على عرشه بائنًا من خلقه كما أخبر اللّٰه عن ذلك فى كتابه وكما تواتر الخبر بذلك عن رسوله ، وكما أجمع عليه سلف الأمة الذين هم أكملها علمًا وإيمانًا ، مؤكدًا بذلك ما سبق أن ذكره فى هذا الصدد ومشددًا النكير على من أنكر ذلك من الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الأشاعرة . ثم بيّن أن استواءه على عرشه لا ينافى معيته وقربه من خلقه ، فإن المعية ليس معناها الاختلاط والمجاورة الحسية ، وضرب لذلك مثلًا بالقمر الذى هو موضوع فى السماء وهو مع المسافر وغيره أينما كان بظهوره واتصال نوره ، فإذا جاز هذا بالنسبة للقمر وهو من أصغر مخلوقات اللّٰه ، أفلا يجوز بالنسبة إلى اللطيف الخبير الذى أحاط بعباده علمًا وقدرة ، والذى هو شهيد مطلع عليهم يسمعهم ويراهم ويعلم سرهم ونجواهم ، بل العالم كله سماواته وأرضه من العرش إلى الفرش كله بين يديه سبحانه كأنه بندقة فى يد أحدنا ، أفلا يجوز لمن هذا شأنه أن يقال : إنه مع خلقه مع كونه عاليًا عليهم بائنًا منهم فوق عرشه ؟ بلى يجب الإيمان بكل من علوه

وهو سبحانَه معهم أينَما كانوا ، يَعْلَمُ ما هم عاملون(١) ، كما جمَع بيَنَ ذلك(٢) في

تعالى ومعيته ، واعتقاد أن ذلك كله حق على حقيقته من غير أن يساء فهم ذلك أو يحمل على معان فاسدة .

كأن يفهم من قوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ معية الاختلاط والامتزاج كما يزعمه الحلولية ، أو يفهم من قوله : ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ . أن السماء ظرف حاو له محيطة به ، كيف وقد وسع كرسيه السماوات والأرض جميعها ؟ وهو الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، فسبحان من لا يبلغه وهم الواهمين ولا تدركه أفهام العالمين .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

هذا من الإيمان بالله ، وهو الإيمان بمعيته لخلقه .

وقد سبق أن معية الله تنقسم إلى عامة وخاصة ، وخاصة الخاصة .

- فالعامة : التى تشمل كل أحد من مؤمن وكافر ، وبر وفاجر ، ومثالها قوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد : ٤] .

- والخاصة : مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل : ١٢٨] .

- والتى أخص : مثل قوله تعالى لموسى وهارون : ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] ، وقوله عن رسوله محمد ﷺ : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة : ٤٠] .

وسبق أن هذه المعية حقيقية ، وأن من مقتضى المعية العامة العلم والسمع والبصر والقدرة والسلطان وغير ذلك ، ومن مقتضى الخاصة النصر والتأييد .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « بين ذلك » ؛ أى : بين العلو والمعية ، ففى قوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ إثبات العلو ، وفى قوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ : إثبات المعية ، فجمع بينهما فى آية واحدة ، ولا منافاة بينهما كما سبق ويأتى .

ووجه الجمع من وجوه ثلاثة :

الأول : أنه ذكر استواءه على العرش ، ثم قال : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ ، وإذا جمع الله لنفسه بين وصفين ؛ فإننا نعلم علم اليقين أنهما لا يتناقضان ؛ لأنهما لو تناقضا ؛ لاستحال اجتماعهما ؛ إذ المتناقضين لا يجتمعان ولا يرتفعان ؛ فلابد من وجود أحدهما وانتفاء الثانى ، ولو

قوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد : ٤] .

وليس معنى قوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ . أنه مُخْتَلِطٌ بالخلقِ[(١)]؛ فإن هذا لا تُوجِبُه اللغةُ[(٢)]، وهو خلافُ ما أجمَع عليه سَلَفُ الأُمَّةِ ، وخلافُ ما فَطَر اللَّهُ عليه الخَلْقَ[(٣)]، ....

كان هناك تناقض ؛ لزم أن يكون أول الآية مكذبًا لآخرها أو بالعكس .

الثاني : أنه قد يجتمع العلو والمعية في المخلوقات ؛ كما سيذكره المؤلف في قول الناس : ما زلنا نسيرُ والقمرُ معنا .

الثالث : لو فرض تعارضهما بالنسبة للمخلوق ؛ لم يلزم ذلك بالنسبة للخالق ؛ لأن اللَّه ليس كمثله شيء .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « وليس مَعْنى قوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ . أنه مُخْتَلِطٌ بِالخَلْقِ » ، لأن هذا المعنى نقص ، وقد سبق أنه لو كان هذا هو المعنى ؛ للزم أحد أمرين : إما تعدد الخالق ، أو تجزؤه ؛ مع ما في ذلك أيضًا من كون الأشياء تحيط به ، وهو سبحانه محيط بالأشياء .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « فإنَّ هذا لا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ » ؛ يعني : وإذا كانت اللغة لا توجبه ؛ لم يتعين ، وهذا أحد الوجوه الدالة على بطلان مذهب الحلولية من الجهمية وغيرهم ؛ القائلين بأن اللَّه مع خلقه مختلطًا بهم .

ولم يقل : لا تقتضيه اللغة ؛ لأن اللغة قد تقتضيه ، وفرق بين كون اللغة تقتضي ذلك وبين كونها توجب ذلك .

فالمعية في اللغة قد تقتضي الاختلاط ؛ مثل الماء واللبن ؛ تقول : ماء مع لبن مخلوطًا .

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « وَهُوَ خِلافُ ما أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ ، وَخِلافُ ما فَطَرَ اللَّهُ عليْهِ الخَلْقَ » . وذلك لأن الإنسان مفطور على أن الخالق بائنٌ من المخلوق ، ليس أحد إذا قال : يا اللَّه . إلا ويعتقد أن اللَّه تعالى بائن من خلقه ، لا يعتقد أنه حالٌّ في خلقه ؛ فدعوى أنه مختلط بالخلق مخالف للشرع

بل[١] القمرُ آيةٌ مِن آياتِ اللَّهِ ، مِن أصغرِ مخلوقاتِه ، وهو موضوعٌ فى السماءِ ، وهو مع المسافرِ وغيرِ المسافرِ ، أينَما كان[٢].

ومخالف للعقل ومخالف للفطرة .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

« بل » : للإضراب الانتقالى .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

هذا مثل ضربه المؤلف رحمه اللَّه تقريبًا للمعنى وتحقيقًا لصحة كون الشىء مع الإنسان حقيقة مع تباعد ما بينهما ، وذلك أن القمر من أصغر المخلوقات ، وهو فى السماء ، ومع المسافر وغيره أينما كان ..

فإذا كان هذا المخلوق ، وهو من أصغر المخلوقات ؛ نقول : إنه معناه ، وهو فى السماء . ولا يعد ذلك تناقضًا ، ولا يقتضى اختلاطًا ؛ فلماذا لا يصح أن نجرى آيات المعية على ظاهرها ، ونقول : هو معنا حقيقة ، وإن كان هو فى السماء فوق كل شىء ؟ !

وكما قلنا سابقًا : لو فرض أن هذا ممتنع فى الخلق ؛ لكان فى الخالق غير ممتنع ، فالرب عز وجل هو فى السماء حقيقة ، وهو معنا حقيقة ، ولا تناقض فى ذلك ، حتى وإن كان بعيدًا عز وجل فى علوه ؛ فإنه قريب فى علوه .

وهذا الذى حققه شيخ الإسلام فى كتبه ، وقال : إنه لا حاجة إلى نؤوّل الآيةَ ، بل الآية على ظاهرها ، لكن مع اعتقادنا بأن اللَّه تعالى فى السماء على عرشه ؛ فهو معنا حقًّا ، وهو على عرشه حقًّا ؛ كما نقول : إنه ينزل إلى السماء الدنيا حقًّا ، وهو فى العلو ، ولا أحد من أهل السنة ينكر هذا أبدًا ؛ كل أهل السنة يقولون : هو ينزل حقًّا ، متفقون على أنه فى العلو ؛ لأن صفات الخالق ليست مثل صفات المخلوق .

وقد عثرت على تقرير للشيخ محمد بن إبراهيم رحمه اللَّه يبين هذا المعنى تمامًا ؛ أى أن المعية حق على حقيقتها ، ولا تستلزم أن يكون مختلطًا بالخلق ، أو أنه فى الأرض ؛ قال جوابًا على قول بعض السلف : « معهم بعلمه » .

« إذا جاءت هذه الكلمة ؛ فهى تفسير للمعية بالمقتضى ، ليس تفسيرًا لحقيقة الكلمة ، والذى يحمل ويحدو على التفسير بهذا أن المنازع فى هذا المبتدعة الذين يقولون : إنه مختلط بهم ، فيأتى البعض من السلف بالمراد بالسياق ، وهو أنه بكمال علمه ، ولكن لا يريدون أن كلمة (مع)

وهو سبحانَه فوقَ عرشِه(١)، رَقيبٌ على خلقِه(٢)، مُهَيْمِنٌ عليهم(٣)، مُطَّلِعٌ عليهم، إلى غيرِ ذلك مِن معاني ربوبيتِه(٤).

مدلولها بكل شيء عليم، بل اجتمعت معها في العلم، وزادت المعية في المعنى، وهو كونه معهم؛ فتفسيرها بالمقتضى لا يدل على أن معناها باطل، فالكل حق ...».

إلى أن قال: «ولهذا، شيخ الإسلام في عقيدته الأخرى المباركة المختصرة؛ بين أن قوله: «معهم» حق على حقيقته؛ فمن فسرها من السلف بالمقتضى؛ فلحاجة دعت إلى ذلك، وهو الرد على أهل الحلول الجهمية الذين ينكرون العلو كما تقدم، والقرآن يفسر بالمطابقة وبالمفهوم وبالاستلزام والمقتضى وغير ذلك من الدلالات، وهؤلاء العلماء الذين روى عنهم التفسير بالمقتضى لا ينكرون المعية، بل هي عندهم كالشمس» أهـ. من «الفتاوى»؛ تقريرًا على الحموية. (مجموع فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم ١/ ٢١٢).

سؤال: هل يصح أن نقول: هو معنا بذاته؟

الجواب: هذا اللفظ يجب أن يبعد عنه؛ لأنه يوهم معنًى فاسدًا يحتج به من يقول بالحلول، ولا حاجة إليه، لأن الأصل أن كل شيء أضافه الله إلى نفسه؛ فهو له نفسه؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾؛ هل يحتاج أن نقول: جاء بذاته؟! وإلى قوله ﷺ: «ينزل إلى السماء الدنيا»[1]؛ هل يحتاج أن نقول: ينزل بذاته؟! إننا لا نحتاج إلى ذلك؛ اللهم إلا في مجادلة من يدعي أنه جاء أمره أو ينزل أمره؛ لرد تحريفه.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

يقول رحمه الله: «وهو سبحانه فوق عرشه»: مع أنه مع الخلق، لكنه فوق عرشه.

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

يعني: مراقبًا حافظًا لأقوالهم وأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم.

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

أي: حاكم مسيطر على عباده؛ فله الحكم، وإليه يرجع الأمر كله، وأمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن! فيكون.

(٤) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

يعني بذلك ما تضمنه معنى الربوبية من ملك وسلطان وتدبير وغير ذلك؛ فإن معاني الربوبية

---

(1) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

ما يَجِبُ اعتقادُه فى عُلُوِّه ومَعِيَّتِه سبحانَه ، ومعنى كونِه سبحانَه فى السماءِ ، وأدلةُ ذلك

وكلُّ هذا الكلامِ الذى ذكَرَه اللَّهُ مِن أنه فوقَ العرشِ ، وأنه معَنا ، حقٌّ على حقيقتِه ، لا يَحتاجُ إلى تحريفٍ ، ولكن يُصانُ عن الظنونِ الكاذبةِ ، مثلَ أن يُظَنَّ أن ظاهرَ قولِه : « فى السماءِ » . أنَّ السماءَ تُقِلُّه أو تُظِلُّه ، وهذا باطلٌ بإجماعِ أهلِ العلمِ والإيمانِ (١) ؛ ....

كثيرة ؛ لأن الرب هو الخالق المالك المدبر ، وهذه تحمل معانى كثيرة جدًّا .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

وقول المصنف رحمه اللَّه : (وهو سبحانه فوق عرشه ، رقيب على خلقه ، مهيمن عليهم مطلع عليهم) . تقرير وتأكيد لما سبق من ذكر علوه على عرشه ، وكونه مع خلقه ، بذكر اسمين من أسمائه سبحانه ، وهما (الرقيب والمهيمن) .

قال اللَّه تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء : ١] . والرقيب هو المراقب لأحوال عباده ، وفى ذلك دلالة على قربه منهم .

وقال تعالى : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر : ٢٣] . والمهيمن هو الشاهد على خلقه ، المطلع على أعمالهم ، الرقيب عليهم .

(إلى غير ذلك من معانى ربوبيته) ؛ أى : أن مقتضى ربوبيته سبحانه أن يكون فوق خلقه بذاته ، ويطلع على أعمالهم ، ويكون قريبًا منهم بعلمه وإحاطته ، يصرف شئونهم ، ويحصى أعمالهم ، ويجازيهم عليها .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هذه الجملة تأكيد لما سبق ، وإنما كرر معنى ما سبق لأهمية الموضوع ؛ فبين رحمه اللَّه أن ما ذكره اللَّه من كونه فوق العرش حق على حقيقته ، وكذلك ما ذكره من كونه معنا حق على حقيقته ، لا يحتاج إلى تحريف ، يعنى : لا يحتاج أن نصرف معنى الفوقية إلى فوقية القدر كما ادعاه أهل التحريف والتعطيل ، بل هى فوقية ذاتٍ وقدرٍ ، كما لا يحتاج أن نصرف معنى المعية عن ظاهرها ، بل نقول : هى حق على ظاهرها ، ومن فسرها بغير حقيقتها فهو محرِّف ؛ لكن ما

....

ورد من تفسيرها بلازمها ومقتضاها وارد عن السلف لحاجة دعت إلى ذلك ، وهو لا ينافى الحقيقة ؛ لأن لازم الحق حق .

✽ قال الشيخ الفوزان :

يُبيِّـن الشيخ رحمه اللَّه ما يجب اعتقاده بالنسبة لما أخبر اللَّه عن نفسه ، من كونه فوق العرش ، وهو معنى : أنه يجب الإيمان به ، كما أخبر اللَّه ، ولا يجوز تأويله ، وصرفه عن ظاهره ، كما يفعله الـمعطلة ، من الجهمية والمعتزلة وأشباههم .

فيزعمون أن ذلك ليس حقيقةً ، وإنما هو مجاز ، فيؤولون الاستواء على العرش بالاستيلاء على الـملك ، وعلو اللَّه على خلقه بعلو قدره وقهره ، ونحو ذلك من التأويلات الباطلة التى هى تحريف لكلام اللَّه عن مواضعه .

ومنهم من يقول : إن معنى كونه معنا : أنه حالٌّ فى كل مكانٍ ، كما تقوله حلولية الجهمية وغيرهم ، تعالى اللَّه عما يقولون علوًّا كبيرًا .

✽ قال الشيخ ابن عثيمين :

ثم استدرك المؤلف رحمه اللَّه ، فقال : « ولكن يصان على الظنون الكاذبة » مثْلَ أَنْ يُظَنَّ أنَّ ظاهرَ قوله : ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أن السماءَ تُقلُّهُ أَوْ تُظِلُّهُ ، وهَذا باطلٌ بإجماع أَهْلِ العلمِ والأيمَانِ » .

الظنون الكاذبة هى الأوهام التى ليس لها أساس من الصحة ؛ فيجب أن يصان عنها كلام اللَّه تعالى ورسوله ﷺ .

مثال ذلك أن يُظَنَّ أن ظاهر قوله : ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ؛ أن السماء تُقلُّه ؛ أى : تحمله كما يحمل سقف البيت من كان على ظهره . « أو تُظِلُّهُ » ؛ يعنى : تكون فوقه ؛ كالسقف على الإنسان .

إذا ظن الإنسان هذا ؛ فهو كاذب ؛ يجب صون الأدلة الدالة على أن اللَّه فى السماء عن ذلك .

قال المؤلف : « وهذا باطلٌ بإجماع أهل العلم والإيمان » .

تنبيه :

قد يقول قائل : كان على المؤلف أن يقول : ومثل أن يظن أن ظاهر قوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾

فإنَّ اللَّهَ قد ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾(١)، ....

[الحديد : ٤] ؛ أنه مختلط بالخلق ؛ لأن هذا الظن كاذب أيضًا .

وجوابه أن نقول : إن المؤلف رحمه الله ذكر ذلك سابقًا في قوله : « وليس معنى قوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ ؛ أنه مختلط بالخلق » .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (ولكن يصان عن الظنون الكاذبة ، مثل أن يظن أن ظاهر قوله : (في السماء) أن السماء تقله ، أو تظله . تقله ؛ أي : تحمله ، وتظله ؛ أي : تستره ، والظلة : الشيء الذي يظلك من فوقك .

وليس هذان المعنيان مرادين في كونه سبحانه في السماء ، ومن ظن ذلك فقد أخطأ غاية الخطاء ، وذلك لأمرين .

الأمر الأول : أن هذا خلاف ما أجمع عليه أهل العلم والإيمان ، فقد أجمعوا على أنه سبحانه فوق عرشه ، بائن من خلقه ، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته ، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته .

وقد تقدم الكلام في تفسير قوله تعالى : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وأنه إن أريد بالسماء السماء المبنية فـ « في » بمعنى « على » ؛ أي : على السماء ، كقوله : ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ ؛ أي : على جذوع النخل .

وإن أريد بالسماء العلو كان المعنى (في السماء) ؛ أي : في العلو . والله أعلم .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

« الكرسي » : كما يروى عن ابن عباس : موضع القدمين[1] .

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ؛ يعني : أحاط بالسماوات والأرض ؛ السماوات السبع والأرضين السبع .

فكيف يظنُّ ظانٌّ أن السماء تظل الله أو تقلُّه ؟ !

فإذا كان قد وسع كرسيه السماوات والأرض ؛ فلا يظن أحد أبدًا هذا الظن الكاذب ، وهو أن السماء تقلُّه أو تظلُّه .

❁ قال الشيخ الفوزان :

الأمر الثاني : أن هذا الظن مخالف ، ومصادم لأدلة القرآن الدالة على عظمة الله ، وغناه عن

(1) « الصحيحة » للألباني (١٠٩) .

وهو الذى ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾(١)، ويُمْسِكُ السماءَ أن تَقَعَ على الأرضِ إلا بإذنِه(٢)، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ(٣) أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ(٤)﴾ .

خلقه، وحاجة خلقه إليه، كما فى قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ .

والكرسى مخلوق عظيم، بين يدى العرش، وهو أعظم من السماوات والأرض، والعرش أعظم منه .

فإذا كانت السماوات والأرض أصغر من الكرسى، والكرسى أصغر من العرش، والله أعظم من كل شىء، فكيف تحويه السماء، أو تقله، أو تظله ؟ !

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

يمسكهما أن تزولا عن أماكنهما، ولولا إمساك الله لهما؛ لاضطربتا ومَادَتا وزالتا، ولكن الله عز وجل بقدرته وقوته يمسك السماوات والأرض أن تزولا، بل قال تعالى: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١] . ما أمسكهما أحد بعد الله أبدًا .

لو تزول نجمة من النجوم؛ لا يستطيع أحد أن يمسكها؛ فكيف لو زالت السماوات والأرض ؟ ! ما يمسكهما إلا الله الذى خلقهما، الذى يقول للشىء: كن ! فيكون . سبحانه وتعالى، بيده ملكوت السماوات والأرض .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قوله: «ويُمْسِكُ السماءَ أن تَقَعَ على الأرضِ إلا بإذنِه» . السماء فوق الأرض، والله لولا إمساك الله لها، لوقعت على الأرض؛ لأنها أجرام عظيمة؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] . وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]؛ فلولا أن الله يمسكها؛ لوقعت على الأرض، وإذا وقعت على الأرض؛ أتلفتها .

فالذى يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه؛ هل يتصور متصور أن السماء تقلُّه أو تظلُّه ؟ !

لا أحد يتصور ذلك .

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

يعنى: من العلامات الدالة على كماله عز وجل من كل وجه .

(٤) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]: الكونى والشرعى؛ لأن أمره مبنى على

وجوبُ الإيمانِ بقُرْبِه مِن خَلْقِه ، وأنَّ ذلك لا يُنافى عَلوَّه وفَوْقِيَّته

« فصلٌ » :

وقد دخَل فى ذلك(١) ....

الحكمة والرحمة والعدل والإحسان؛ ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]. والأهواء فساد للسماوات والأرض، وهى مخالفة للأمر الشرعى، إذن فالسماوات والأرض تقوم بأمر اللَّه الكونى والشرعى، ولو أن الحق اتبع أهواء الخلق؛ لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن، ولهذا قال العلماء فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]؛ أى: « لا تفسدوا فيها بالمعاصي ».

❁ قال الشيخ الفوزان:

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾، ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ فهذه الآيات تدل على أن السماوات والأرض بحاجةٍ إليه، فهو الذى يمسكها أن تزول، أو تقع، ويكون قيامها بأمره وحده.

فلا يعقل مع هذا أن يكون سبحانه بحاجةٍ إليها لتقله، أو تظله، تعالى اللَّه عن هذا الظن الباطل علوًّا كبيرًا.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

فصل: فى قرب اللَّه تعالى وإجابته وأن ذلك لا ينافى علوه وفوقيته.

يعنى: فيما وصف به نفسه.

❁ قال الشيخ الفوزان:

لما قرر المصنف وجوب الإيمان بعلو اللَّه سبحانه على خلقه، واستوائه على عرشه نبه فى هذا الفصل إلى أنه يجب مع ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه.

وقوله: (وقد دخل فى ذلك)؛ أى: فى الإيمان باللَّه.

الإيمانُ بأنه قريبٌ مِن خَلْقِه ، مجيبٌ(١)، ....

✽ **قال الشيخ هراس :**

قوله : (وقد دخل فى ذلك الإيمان) إلخ : يجب الإيمان بما وصف اللَّه به نفسه من أنه قريب مجيب ، فهو سبحانه قريب ممن يدعوه ويناجيه ، يسمع دعاءه ونجواه ويجيب دعاءه متى شاء وكيف شاء ، فهو تعالى قريب قرب العلم والإحاطة كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق : ١٦] . وبهذا يتبين أنه لا منافاة أصلًا بين ما ذكر فى الكتاب والسنة من قربه تعالى ومعيته وبين ما فيهما من علوه تعالى وفوقيته ، فهذه كلها نعوت له على ما يليق به سبحانه ليس كمثله شىء فى شىء منها .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

« الإيمان بأنه قريب » فى نفسه ، و« مجيب » ؛ يعنى : لعباده .

ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

فى هذه الآية ستة ضمائر تعود على اللَّه ، وعلى هذا ؛ فيكون القرب قربه عز وجل ، ولكن نقول فى ﴿قَرِيبٌ ۖ﴾ كما قلنا فى المعية ؛ أنه لا يستلزم أن يكون فى المكان الذى فيه الإنسان .

وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « إنه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » ، ولا يلزم أن يكون اللَّه عز وجل نفسه فى الأرض بينه وبين عنق راحلته .

وإذا كان قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « فإن اللَّه قبل وجه المصلي »(1). لا يستلزم أن يكون اللَّه بينه وبين الجدار ، إن كان يصلى إلى الجدار ، ولا بينه وبين الأرض إن كان ينظر إلى الأرض .

فكذلك لا يلزم من قربه أن يكون فى الأرض ؛ لأن اللَّه ليس كمثله شىء فى جميع صفاته ، وهو محيط بكل شىء .

واعلم أن من العلماء من قسم قرب اللَّه تعالى إلى قسمين ؛ كالمعية ، وقال : القرب الذى مقتضاه الإحاطة قرب عام ، والقرب الذى مقتضاه الإجابة والإثابة قرب خاص .

ومنهم من يقول : إن القرب خاص فقط ؛ مقتض لإجابة الداعى وإثابة العابد ، ولا ينقسم .

– ويستدل هؤلاء بقوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ

---

(1) أخرجه البخارى (٤٠٦) ، ومسلم (٥٤٧) .

كما جمع بين ذلك(1) في قوله : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ الآيَةَ [البقرة: ١٨٦] ، ....

ﵟالدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖﵞ [البقرة: ١٨٦] ، وبقول النبي ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»(1)، وأنه لا يمكن أن يكون الله تعالى قريبًا من الفجرة والكفرة.

وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى.

- ولكن أورد على هذا القول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] ؛ فالمراد بـ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ : كل إنسان، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ إلى أن قال: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٢ - ٢٤] فهو شامل.

- وأورد عليه أيضًا قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٨٥] ، ثم قسم هؤلاء الذين بلغت أرواحهم الحلقوم إلى ثلاثة أقسام، ومنهم الكافر.

- وأجيب عن ذلك بأن قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]. يعني: بملائكتنا، واستدل لذلك بقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق: ١٧] ؛ فإن ﴿إِذْ﴾ ظرف متعلق بـ﴿أَقْرَبُ﴾ ؛ يعني: ونحن أقرب إليه حين يتلقى المتلقيان. وهذا يدل على أن المراد بقربه تعالى قرب ملائكته.

وكذلك قوله في المحتضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ : المراد: قرب الملائكة، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] ، وهذا يدل على أن هذا القريب موجود عندنا، لكن لا نبصره، وهذا يمتنع غاية الامتناع أن يكون المراد به الله عز وجل؛ لأن الله في السماء.

وما ذهب إليه شيخ الإسلام؛ فهو عندي أقرب، ولكنه ليس في القرب بذاك.

❁ قال الشيخ الفوزان:

(الإيمان بأنه قريب)؛ أي: من خلقه. (مجيب) لدعائهم.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله: «كما جمع بين ذلك»: المشار إليه القرب الإجابة.

---

(1) أخرجه مسلم (٤٨٢).

وقولِه ﷺ : « إنَّ الذى تَدْعُونَه أقربُ إلى أحدِكم مِن عُنُقِ راحلتِه ».

وما ذُكِر فى الكتابِ والسنةِ مِن قربِه ومَعِيَّتِه ، لا يُنافِي ما ذُكِر من عُلُوِّه وفوقيَّتِه ؛ فإنه سبحانَه ليس كمثلِه شىءٌ فى جميعِ نُعوتِه ، وهو عَلِيٌّ فى دُنُوِّه ، قريبٌ فى عُلُوِّه (١).

✽ قال الشيخ الفوزان :

(كما جمع بين ذلك) ؛ أى : بين القرب والإجابة فى قوله : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ ورد فى سبب نزول هذه الآية : أن رجلًا جاء إلى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول اللّٰه ، أقريب ربنا فنناجيه ؟ أم بعيد فنناديه ؟ فسكت النبى ﷺ ، فنزلت هذه الآية : ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة : ١٨٦] من الداعى ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ .

وهذا يدل على الإرشاد إلى المناجاة فى الدعاء ، بدون رفع صوتٍ ، كما فى قوله ﷺ : « إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » سبق شرحه .

وفى هذه الآية وهذا الحديث دلالة على قرب اللّٰه تعالى من الداعى بإجابته ، وهذا القرب لا يناقض علوه ، ولهذا قال المصنف : (وما ذكر فى الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافى ما ذكر من علوه وفوقيته) ؛ لأن الكل حقٌّ ، والحق لا يتناقض .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

« نعوته » ؛ يعنى : صفاته . هو عَلِى مع أنه دانى ، قريب مع أنه عالٍ ، ولا تناقض فى ذلك ، وقد سبق بيان ذلك قريبًا فى الكلام على المعية .

قال الشيخ الفوزان :

ولأن اللّٰه تعالى : (ليس كمثله شىء فى جميع نعوته) ؛ أى : صفاته ، فلا يقال : إذا كان فوق خلقه ، فكيف يكون معهم ؟ ! لأن هذا السؤال ناشئ عن تصورٍ خاطىءٍ ، هو قياسه سبحانه بخلقه ، وهذا قياس باطل ؛ لأن اللّٰه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ .

فالقرب والعلو يجتمعان فى حقه لعظمته وكبريائه وإحاطته ، وأن السماوات السبع فى يده كخردلةٍ فى يد العبد ، فكيف يستحيل فى حق من هذا بعض عظمته أن يكون فوق عرشه ، ويقرب من خلقه ، كيف يشاء ، وهو على العرش ؟ !

(وهو عليٌّ فى دنوه ، قريب فى علوه) سبحانه وتعالى ، كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة ، وأجمع عليه علماء الملة ، وهو من خصائصه سبحانه .

(وعليٌّ فى دنوه) ؛ أى : فى حال قربه من خلقه .

وجوبُ الإيمانِ بأنَّ القرآنَ كلامُ اللَّهِ حقيقةً

« فَصْلٌ » :

ومِن الإيمانِ باللَّهِ وكتبِه الإيمانُ بأنَّ القرآنَ(١) كلامُ اللَّهِ(٢)، ....

(قريب في علوه) ؛ أي : قريب من خلقه في حال علوه على عرشه .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

فصل : في الإيمان بأن القرآن كلام الله حقيقة :

وجه كون الإيمان بالقرآن على هذا الوجه من الإيمان بالله أن القرآن من كلام الله ، وكلام الله صفة من صفاته ، وأيضًا ؛ فإن الله وصف القرآن بأنه كلامه ، وأنه منزل ؛ فتصديق ذلك من الإيمان بالله .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

من أصول الإيمان : الإيمان بالله والإيمان بكتبه ، كما سبق ، ويدخل في هذين الأصلين الإيمان بأن القرآن كلام الله .

فالإيمان بالله عز وجل يتضمن الإيمان بصفاته ، وكلامه من صفاته ؛ فإن الله تعالى موصوف بأنه يتكلم بما شاء ، إذا شاء ، لم يزل ، ولا يزال يتكلم .

وكلامه لا ينفد ، ونوع الكلام في حقه أزليٌّ أبديٌّ ، ومفرداته لا تزال تقع شيئًا فشيئًا ، حسب حكمته تعالى .

❁ **قال الشيخ هراس :**

قوله : (ومن الإيمان بالله وكتبه) إلخ : جعل المصنف الإيمان بأن القرآن كلام الله داخلًا في الإيمان بالله لأنه صفة من صفاته ، فلا يتم الإيمان به سبحانه إلا بها ، إذ الكلام لا يكون إلا صفة للمتكلم والله سبحانه موصوف بأنه متكلم بما شاء متى شاء ، وأنه لم يزل ولا يزال يتكلم بمعنى أن نوع كلامه قديم وإن كانت آحاده لا تزال تقع شيئًا بعد شيء بحسب حكمته .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

والدليل على ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة : ٦] .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

ومن كلامه القرآن العظيم الذى هو أعظم كتبه ، فهو داخل في الإيمان بكتبه دخولًا أوليًا ،

مُنَزَّلٌ(١) غيرُ مخلوقٍ(٢)، ....

وهو منزلٌ منه سبحانه، فهو تكلم به، وأنزله على رسوله ﷺ.

❁ قال الشيخ هراس:

وقد قلنا فيما سبق: إن الإضافة فى قولنا: «القرآن كلام الله». هى من إضافة الصفة للموصوف فتفيد أن القرآن صفة الرب سبحانه وأنه تكلم به حقيقة بألفاظه ومعانيه بصوت نفسه، فمن زعم أن القرآن مخلوق من المعتزلة فقد أعظم [الفِريةَ] على الله ونفى كلام الله عن الله وصفًا وجعله وصفًا لمخلوق وكان أيضًا متجنيًا على اللغة فليس فيها متكلم بمعنى خالق للكلام، ومن زعم أن القرآن الموجود بيننا حكاية عن كلام الله كما تقوله الكلابية أو أنه عبارة عنه كما تقوله الأشعرية، فقد قال بنصف قول المعتزلة حيث فرق بين الألفاظ والمعانى، فجعل الألفاظ مخلوقة والمعانى عبارة عن الصفة القديمة، كما أنه ضاهى النصارى فى قولهم بحلول اللاهوت وهو الكلمة فى الناسوت وهو جسد عيسى عليه السلام، إذ قال بحلول المعانى التى هى الصفة القديمة فى هذه الألفاظ المخلوقة، فجعل الألفاظ ناسوتًا لها.

والقرآن كلام الله حيث تصرف، فمهما كتبناه فى المصاحف أو تلوناه بالألسنة لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله؛ لأن الكلام كما قال المصنف إنما يضاف إلى من قاله مبتدئًا لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

قول المؤلف: «منزل». أى: من عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين:

أى: ليس من مخلوقات الله التى خلقها.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. والقرآن من الأمر؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. ولأن الكلام صفة المتكلم، والمخلوق مفعول للخالق، بائن منه؛ كالمصنوع؛ بائن من الصانع.

❁ قال الشيخ الفوزان:

فهو (منزَّل غير مخلوقٍ)؛ لأنه صفة من صفاته، أضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها، وصفاته غير مخلوقةٍ، فكلامه غير مخلوقٍ.

منه بدَأ[(١)]، وإليه يعودُ[(٢)]، ....

وقد خالف في هذا طوائف ، ذكر الشيخ رحمه الله هنا مقالة بعضهم ، فذكر :

١- مقالة الجهمية ، حيث يقولون : إن الله لا يتكلم ، وإنما خلق كلامًا في غيره ، وجعله يعبر عنه ، فإضافة الكلام عندهم إلى الله مجاز ، لا حقيقة ؛ لأنه خلق الكلام ، فهو متكلم ، بمعنى : خالق الكلام في غيره .

وهذا القول باطل مخالف للأدلة السمعية والعقلية ، ومخالف لقول السلف وأئمة المسلمين ؛ فإنه لا يعقل أن يسمى متكلمًا إلا من قام به الكلام حقيقةً .

فكيف يقال : قال الله . والقائل غيره ؟ ! وكيف يقال : كلام الله ؟ ! وهو كلام غيره ؟ !

(١ ، ٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

سبق الكلام عن معناها والدليل عليها في شرح الآيات عند البحث عن كلام الله .

✵ **قال الشيخ الفوزان :**

وقول المصنف : (منه بدأ وإليه يعود ، وأن الله تكلم به حقيقةً ، وأن هذا القرآن الذي أنزله على محمدٍ ﷺ هو كلام الله حقيقةً ، لا كلام غيره) قصده بهذا الرد على الجهمية الذين يقولون : إن القرآن بدأ من غيره ، وإن الله لم يتكلم به حقيقةً ، بل مجازًا ، وهو كلام غيره ، أضيف إليه ؛ لأنه خالقه .

ومعنى قوله : (منه بدأ) أن القرآن بدأ ، وخرج من الله تعالى ، وتكلم به و« من » لابتداء الغاية .

وقوله : (وإليه يعود) ؛ أي : أن القرآن يرجع إلى الله تعالى ؛ لأنه يرفع في آخر الزمان ، فلا يبقى منه شيء في الصدور ، ولا في المصاحف ، وذلك من علامات الساعة .

أو معنى ذلك : أنه ينسب إليه .

✵ **قال الشيخ هراس :**

وأما معنى قول السلف : (منه بدأ وإليه يعود) : فهو من البدء يعني أن الله هو الذي تكلم به ابتداء لم يتبدأ من غيره ، ويحتمل أن يكون من البدء بمعنى الظهور ، يعني أنه هو الذي تكلم به وظهر منه لم يظهر من غيره ، ومعنى إليه يعود أي يرجع إليه وصفًا ؛ لأنه وصفه القائم به ، وقيل : معناه يعود إليه في آخر الزمان حين يرفع من المصاحف والصدور ، كما ورد في أشراط الساعة .

وأنَّ اللَّهَ تكلَّم به حقيقةً(١)، وأنَّ هذا القرآنَ الذى أُنزِل على محمدٍ ﷺ ....

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قوله : « وأن اللَّه تكلم به حقيقة » . بناء على الأصل ؛ أن جميع الصفات حقيقية ، وإذا كان كلام اللَّه حقيقة ؛ فلا يمكن أن يكون مخلوقًا ؛ لأنه صفته ، وصفة الخالق غير مخلوقة ؛ كما أن صفة المخلوق مخلوقة .

وقد قال الإمام أحمد : « من قال : لفظى بالقرآن مخلوق ؛ فهو جهمى . ومن قال : غير مخلوق . فهو مبتدع » .

فنقول : اللفظ يطلق على معنيين ؛ على المصدر الذى هو فعل الفاعل ، وعلى الملفوظ به :

– أما على المعنى الأول الذى هو المصدر ؛ فلا شك أن ألفاظنا بالقرآن وغير القرآن مخلوقة .

لأننا إذا قلنا : إن اللفظ هو التلفظ ؛ فهذا الصوت الخارج من حركة الفم واللسان والشفتين مخلوق .

فإذا أريد باللفظ التلفظ ؛ فهو مخلوق ، سواء كان الملفوظ به قرآنًا أو حديثًا أو كلامًا أحدثته من عندك .

– أما إذا قصد باللفظ الملفوظ به ؛ فهذا منه مخلوق ، ومنه غير مخلوق . وعليه ؛ إذا قصد باللفظ الملفوظ به ؛ فهذا منه مخلوق ، ومنه غير مخلوق ، وعليه ؛ إذا كان الملفوظ به هو القرآن ؛ فليس بمخلوق .

هذا تفصيل القول فى هذه المسألة .

لكن الإمام أحمد رحمه اللَّه قال : « من قال : لفظى بالقرآن مخلوق . فهو جهمي » قال ذلك لأحد احتمالين :

– إما أن هذا القول من شعار الجهمية ؛ كأن الإمام أحمد يقول : إذا سمعت الرجل يقول : لفظى بالقرآن مخلوق . فاعلم أنه جهمى .

– وإما أن يكون ذلك حين يريد القائل باللفظ الملفوظ به ، وهذا أقرب ؛ لأن الإمام أحمد نفسه فسره ؛ قال : « من قال : لفظى بالقرآن مخلوق ؛ يريد القرآن ؛ فهو جهمي » .

وحينئذ يتضح معنى قوله : « من قال : لفظى بالقرآن مخلوق ؛ فهو جهمي » ؛ لأنه أراد الملفوظ به ، ولا شك أن الذى يريد باللفظ هنا الملفوظ به جهمى .

أما من قال : غير مخلوق ؛ فالإمام أحمد يقول : مبتدع ؛ لأن هذا ما عهد عن السلف ، وما كانوا يقولون مثل هذا القول ؛ يقولون : القرآن كلام اللَّه ؛ فقط .

هو كلامُ اللَّهِ حقيقةً(١)، لا كلامُ غيرِه(٢).

✽ قال الشيخ الفوزان :

٢- ثم ذكر الشيخ رحمه اللَّه هنا مقالة الكلابية (أتباع عبد اللَّه بن سعيد بن كلابٍ) فى القرآن ، أنه حكاية عن كلام اللَّه ؛ لأن كلام اللَّه عندهم هو المعنى القائم فى نفسه ، لازم لذاته ، كلزوم الحياة والعلم ، لا يتعلق بمشيئته وإرادته .

وهذا المعنى القائم فى نفسه غير مخلوقٍ ، وهذه الألفاظ المكونة من حروفٍ وأصواتٍ مخلوقة ، وهى حكاية لكلام اللَّه ، وليست هى كلامه .

٣- وذكر مقالة الأشاعرة (أتباع أبى الحسن الأشعرى) أن القرآن عبارة عن كلام اللَّه ؛ لأن كلام اللَّه عندهم معنىً قائم ، وهذا المعنى غير مخلوقٍ .

أما هذه الألفاظ المقروءة فهى عبارة عن ذلك المعنى القائم بالنفس ، وهى مخلوقة ، ولا يقال : إنها حكاية عنه .

وبعض العلماء يقول : إن الخلاف بين الكلابية والأشاعرة خلاف لفظىٌّ ، لا طائل تحته ، فالأشاعرة والكلابية يقولون : القرآن نوعان : ألفاظ ومعانٍ ، فالألفاظ مخلوقة ، وهى هذه الألفاظ الموجودة .

والمعانى قديمة قائمة بالنفس ، وهى معنًى واحد ، لا تبعض فيه ، ولا تعدد .

وعلى كل حالٍ فالقولان إن لم يكونا متفقين فهما متقاربان .

✽ قال الشيخ هراس :

وأما كون الإيمان بأن القرآن كلام اللَّه داخلًا فى الإيمان بالكتب ؛ فإن الإيمان بها إيمانًا صحيحًا يقتضى إيمان العبد بأن اللَّه تكلم بها بألفاظها ومعانيها ، وأنها جميعًا كلامه هو لا كلام غيره ، فهو الذى تكلم بالتوراة بالعبرانية ، وبالإنجيل بالسريانية ، وبالقرآن بلسان عربى مبين .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

كرر المؤلف هذا ؛ لأن المقام مقام عظيم ؛ فإن هذه المسألة حصل فيها على علماء المسلمين من المحن ما هو معلوم ، وهلك فيها أمم كثيرة ، ولكن حمى اللَّه الحق بالإمام أحمد وأشباهه ، الذين أبوا أن يقولوا إلا أن القرآن كلام اللَّه غير مخلوق .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « لا كلام غيره » . خلافًا لمن قال : إن القرآن من كلام جبريل ؛ ألهمه اللَّه إياه ، أو من

ولا يجوزُ إطلاقُ القولِ بأنه حكايةٌ عن كلامِ اللَّهِ ، أو عبارةٌ عنه[1]، ....

محمد . .. أو ما أشبه ذلك .

فإن قلت : قول المؤلف هنا : « لا كلام غيره » . معارض بقول اللَّه تعالى : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة : ٤٠، ٤١] ، وقوله : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير : ١٩، ٢٠] ، والأول محمد ﷺ ، والثانى جبريل ؟ !

فالجواب عن ذلك نقول : لا يمكن أن نحمل الآيتين على أن الرسولين تكلما به حقيقة ، وأنه صدر منهما ؛ لأن كلامًا واحدًا لا يمكن أن يصدر من متكلمين .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قال : « لا يجوز إطلاق القول » : ولم يقل : لا يجوز القول ! يعنى : لا يجوز أن نقول : هذا القرآن عبارة عن كلام اللَّه ؛ إطلاقًا ، ولا يجوز أن نقول : إنه حكاية عن كلام اللَّه ؛ على سبيل الإطلاق .

والذين قالوا : إنه حكاية : هم الكلابية ، والذين قالوا : إنه عبارة : هم الأشعرية .

والكل اتفقوا على أن هذا القرآن الذى فى المصحف ليس كلام اللَّه ، بل هو إما حكاية أو عبارة ، والفرق بينهما : أن الحكاية المماثلة ؛ يعنى : كأن هذا المعنى الذى هو الكلام عندهم حُكى بمرآة ؛ كما يحكى الصدى كلام المتكلم .

أما العبارة ؛ فيعنى بها أن المتكلم عبر عن كلامه النفسى بحروف وأصوات خلقت .

فلا يجوز أن نطلق أنه حكاية أو عبارة ، لكن عند التفصيل ؛ قد يجوز أن نقول : إن القارئ الآن يعبر عن كلام اللَّه أو يحكى كلام اللَّه ؛ لأن لفظه بالقرآن ليس هو كلام اللَّه .

وهذا القول على هذا التقييد لا بأس به ، لكن إطلاق أن القرآن عبارة أو حكاية عن كلام اللَّه لا يجوز .

وكان المؤلف رحمه اللَّه دقيقًا فى العبارة حيث قال : « لا يجوز إطلاق القول » ، بل لابد من التقييد والتعيين ..

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقد أشار الشيخ رحمه اللَّه إلى بطلان هذين القولين بقوله : (ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام اللَّه) ؛ أى : كما تقول الكلابية (أو عبارة عنه) كما تقول الأشاعرة .

بل إذا قرَأه الناسُ ، أو كتبُوه فى المصاحفِ لم يَخْرُجْ بذلك عن أن يكونَ كلامَ اللَّهِ تعالى حقيقةً ؛ فإنَّ الكلامَ إنما يُضافُ حقيقةً إلى مَن قاله مُبْتَدِئًا ، لا إلى مَن قاله مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا [(١)].

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

يعنى : مهما كتبه الناس فى المصاحف أو حفظوه فى صدورهم أو قرءوه بألسنتهم ؛ فإنه لا يخرج عن كونه كلام اللَّه ، ثم علل ذلك ، فقال : « فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئًا » .

وهذا تعليل واضح ؛ فالكلام يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئًا ، أما إضافته إلى من قاله مبلغًا مؤديًا ؛ فعلى سبيل التوسع ؛ فلو قرأنا الآن مثلًا :

حُكْمُ المَحَبَّةِ ثَابِتُ الأَرْكَانِ مَا لِلصُّدودِ بِفَسْخِ ذاكَ يَدَانِ

فإن هذا البيت ينسب حقيقة إلى ابن القيم .

ولو قلت :

كَلامُنا لَفْظٌ مُفِيدٌ كَاسْتَقِمْ وَاسْمٌ وَفِعْلٌ ثُمَّ حَرْفٌ الكَلِمْ

فهذا ينسب حقيقة إلى ابن مالك .

إذن ؛ الكلام يضاف حقيقة إلى القائل الأول .

فالقرآن كلام من تكلم به أولًا ، وهو اللَّه تعالى ، لا كلام من بلغه إلى غيره .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

(بل إذا قرأه الناس أو كتبوه فى المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام اللَّه حقيقةً) ؛ أى : أن القرآن العظيم كلام اللَّه ؛ ألفاظه ومعانيه ، أين وجد ، سواء حفظ فى الصدور ، أو تلى بالألسنة ، أو كتب فى المصاحف ، لا يخرج بذلك عن أن يكون كلام اللَّه تعالى حقيقةً .

ثم ذكر الشيخ رحمه اللَّه دليل ذلك فقال : (فإن الكلام إنما يضاف حقيقةً إلى من قاله مبتدئًا ، لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا) فإن المبلغ المؤدى إنما يسمى واسطةً فقط .

قال تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة : ٦] ، والسماع المذكور فى هذه الآية إنما يكون بواسطة المبلغ .

وسمى المسموع كلام اللَّه ، فدل على أن الكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدئًا .

وهو كلامُ اللَّهِ ؛ حروفُه ومَعانيه[1]، ليس كلامُ اللَّهِ الحروفَ دونَ المعاني[2]، ولا المعانىَ دونَ الحروفِ[3].

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قوله : « وهو كلامُ اللَّه ؛ حُروفُهُ وَمَعانِيهِ » .

هذا مذهب أهل السنة والجماعة ؛ قالوا : إن اللَّه تعالى تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قوله : « لَيسَ كلامُ اللَّهِ الحروفَ دونَ المَعاني » .

وهذا مذهب المعتزلة والجهمية ؛ لأنهم يقولون : إن الكلام ليس معنى يقوم بذات اللَّه ، بل هو شيء من مخلوقاته ؛ كالسماء والأرض والناقة والبيت وما أشبه ذلك ! فليس معنًى قائمًا فى نفسه ؛ فكلام اللَّه حروفٌ خلقها اللَّه عز وجل ، وسماها كلامًا له ؛ كما خلق الناقة وسماها ناقة اللَّه ، وكما خلق البيت وسماه بيت اللَّه .

ولهذا كان الكلام عند الجهمية والمعتزلة هو الحروف ؛ لأن كلام اللَّه عندهم عبارة عن حروف وأصوات خلقها اللَّه عز وجل ونسبها إليه تشريفًا وتعظيمًا .

✲ **قال الشيخ الفوزان :**

٤- ثم ذكر الشيخ رحمه اللَّه مقالة المعتزلة ، حيث يقولون : إن كلام اللَّه الحروف دون المعانى ، فيقولون : إن مسمى القول والكلام عند الإطلاق اسم للفظ فقط ، والمعنى ليس جزء مسماه ، بل مدلول مسماه .

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قوله : « وَلاَ المَعانى دُونَ الحُروفِ » . وهذا مذهب الكلابية والأشعرية ؛ فكلام اللَّه عندهم معنى فى نفسه ، ثم خلق أصواتًا وحروفًا تدل على هذا المعنى ؛ إما عبارة أو حكاية .

واعلم أن ابن القيم رحمه اللَّه ذكر أننا إذا أنكرنا أن اللَّه يتكلم ؛ فقد أبطلنا الشرع والقدر :

- أما الشرع ؛ فلأن الرسالات إنما جاءت بالوحى ، والوحى كلام مبلغ إلى المرسل إليه ، فإذا نفينا الكلام ؛ انتفى الوحى ، وإذا انتفى الوحى ؛ انتفى الشرع .

- أما القدر ؛ فلأن الخلق يقع بأمره ؛ بقوله : كن ! فيكون . كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس : ٨٢] .

وجوبُ الإيمانِ برؤيةِ المؤمنينَ ربَّهم يومَ القيامةِ ، ومواضعُ الرؤيةِ

« فَصْلٌ » :

وقد دخَل أيضًا فيما ذكَرْناه مِن الإيمانِ به وبكتبِه وبملائكتِه وبرسلِه ، الإيمانُ بأن المؤمنين يَرَوْنَه يومَ القيامةِ[1] عِيانًا[2] بأبصارِهم ، كما يَرَوْنَ الشمسَ صَحْوًا ،

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

ثم ذكر رحمه اللَّه المذهب المقابل لذلك فقال : (ولا المعانى دون الحروف) كما هو مذهب الكلابية والأشاعرة ، وكما سبق شرحه .

والمذهب الحق أن القرآن كلام اللَّه ، حروفه ومعانيه ، كما هو قول أهل السنة والجماعة ، وهو الذى قامت عليه الأدلة من الكتاب والسنة ، والحمد للَّه رب العالمين .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

فصل : فى الإيمان برؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة ومواضع الرؤية .

وجه كون الإيمان بأن المؤمنين يَرَوْنَه يومَ القيامةِ من الإيمان باللَّه ظاهر ؛ لأن هذا مما أخبر اللَّه به ؛ فإذا آمنا به ؛ فهو من الإيمان باللَّه .

– ووجه كونه من الإيمان بالكتب ؛ لأن الكتب أخبرت بأن اللَّه يُرى ؛ فالتصديق بذلك تصديقٌ بالكتب .

– ووجه كونه من الإيمان بالملائكة ؛ لأن نقل الوحى بواسطة الملائكة ؛ فإن جبريل ينزل بالوحى من اللَّه تعالى ؛ فكان الإيمان بأن اللَّه يُرى من الإيمان بالملائكة .

– وكذلك نقول : من الإيمان بالرسل ؛ لأن الرسل هم الذين بلَّغوا ذلك للخلق ؛ فكان الإيمان بذلك من الإيمان بالرسل .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

وجه دخول الإيمان بالرؤية فى الإيمان باللَّه وبكتبه وبرسله أن اللَّه سبحانه أخبر بها فى كتابه ، وأخبر بها رسوله ﷺ ، فمن لم يؤمن بها كان مكذبًا للَّه ولكتبه ولرسله ؛ فإن الذى يؤمن باللَّه وكتبه ورسله يؤمن بكل ما أخبروا به .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

بمعنى : معاينةً . والمعاينة هى : الرؤية بالعين .

ليس دونَها سَحابٌ[١]، وكما يَرَوْنَ القمرَ ليلةَ البَدْرِ، لا يُضامُّون في رؤيتِه[٢]، يَرَوْنَه سبحانَه، وهم في عَرَصاتِ القيامةِ[٣]، ثم يَرَوْنَه بعدَ دخولِ الجنةِ، كما يشاءُ اللَّهُ سبحانَه تعالى.

❁ قال الشيخ الفوزان:

وقوله: (عيانًا) - بكسر العين -؛ أي: رؤيةً محققةً، لا خفاء فيها، فليست مجازًا، كما تقوله المعطلة.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

دليل ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «ترونه كما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب»[1].

والمراد بالرؤية: بالعين؛ كما يدل عليه تشبيه الرؤية برؤية الشمس صحوًا ليس دونها سحاب.

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين:

سبق الكلام في ذلك.

❁ قال الشيخ الفوزان:

(كما يرون الشمس صحوًا، ليس دونها سحاب، وكما يرون القمر ليلة البدر، لا يضامون في رؤيته)؛ أي: رؤيةً حقيقيةً، لا مشقة فيها، كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث التي سبق شرحها.

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين:

«عَرَصات»: جمع عَرَصة، وهو المكان الواسع الفسيح، الذي ليس فيه بناء؛ لأن الأرض تُمَدُّ مَدَّ الأديم؛ كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام؛ يعني: مَدَّ الجلد.

فالمؤمنون يرون اللَّه في عرصات يوم القيامة قبل أن يدخلوا الجنة؛ كما قال اللَّه تعالى عن المكذبين بيوم الدين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]؛ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: يعني يوم الدين؛ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، ويرونه كذلك بعد دخول الجنة.

أما في عرصات القيامة؛ فالناس في العرصات ثلاثة أجناس:

---

(1) أخرجه البخاري (٧٤٤٠)، ومسلم (١٨٣).

....

١- مؤمنون خُلَّص ظاهرًا وباطنًا .

٢- وكافرون خُلَّص ظاهرًا وباطنًا .

٣- ومؤمنون ظاهرًا كافرون باطنًا ، وهم المنافقون .

- فأما المؤمنون ؛ فيرون الله تعالى فى عرَصات القيامة وبعد دخول الجنة .

- وأما الكافرون ؛ فلا يرون ربهم مطلقًا ، وقيل : يرونه ؛ لكن رؤية غضب وعقوبة ، ولكن ظاهر الأدلة يدل على أنهم لا يرون الله ؛ كما قال الله تعالى : ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين : ١٥] .

- وأما المنافقون ؛ فإنهم يرون الله عز وجل فى عرصات القيامة ، ثم يحتجب عنهم ، ولا يرونه بعد ذلك .

٩٥- يعنى : يرون الله كما يشاء سبحانه وتعالى فى كيفية رؤيتهم إياه ، وكما يشاء الله فى زمن رؤيتهم إياه ، وفى جميع الأحوال ؛ يعنى : على الوجه الذى يشاؤه الله عز وجل فى هذه الرؤية .

وحينئذ ؛ فإن هذه الرؤية لا نعلم كيفيتها ؛ بمعنى أن الإنسان لا يعلم كيف يرى ربه ، ولكن معنى الرؤية معلوم ؛ أنهم يرون الله كما يرون القمر ؛ لكن على أى كيفية ؟ هذه لا نعلمها ، بل كما يشاء الله ، وقد سبق التفصيل فى الرؤية .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (يرونه سبحانه ، وهم فى عرضات القيامة ، ثم يرونه بعد دخول الجنة) هذا بيان للمواضع التى تحصل فيها الرؤية ، وذلك فى موضعين :

الموضع الأول : فى عرصات القيامة ، والعرصات جمع عرصةٍ ، وهى الموضع الواسع ، الذى لا بناء فيه ، وعرصات القيامة : مواقف الحساب .

وهل يختص المؤمنون برؤيته فى هذا الموضع ؟

فى المسألة ثلاثة أقوالٍ :

قيل : يراه فى عرصات القيامة المؤمنون والمنافقون والكفار .

وقيل : يراه المؤمنون والمنافقون فقط ، دون الكفار .

....

وقيل : يراه المؤمنون فقط . والله أعلم .

الموضع الثانى : يراه المؤمنون بعد دخولهم الجنة ، كما ثبت ذلك فى الأدلة من الكتاب والسنة ، وسبق ذكر بعض تلك الأدلة مشروحةً ، وسبق ذكر شبه من نفى الرؤية ، مع الرد عليها .

والجنة فى اللغة البستان ، والمراد بها هنا الدار التى أعدها الله لأوليائه ، وهى دار النعيم المطلق الكامل .

❁ قال الشيخ هراس :

قوله : (وقد دخل أيضًا فيما ذكرناه) إلخ : تقدم الكلام على رؤية المؤمنين لربهم عزَّ وجلَّ فى الجنة كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث الصريحة ، فلا حاجة بنا إلى إعادة الكلام فيها .

غير أن قوله : يرونه سبحانه وهم فى عرصات القيامة . قد يوهم أن هذه الرؤية أيضًا خاصة بالمؤمنين ولكن الحق أنها عامة لجميع أهل الموقف حين يجىء الرب لفصل القضاء بينهم كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الآية [البقرة : ٢١٠] .

والعرصات جمع عرصة وهى كل موضع واسع لا بناء فيه .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقول الشيخ : (كما يشاء الله) ؛ أى : من غير إحاطةٍ ، ولا تكييفٍ لرؤيته .

ما يَدْخُلُ فى الإيمانِ باليومِ الآخِرِ

« فصلٌ » :

١- ما يكونُ فى القبرِ :

ومِنَ الإيمانِ باليومِ الآخِرِ الإيمانُ بكلِّ ما أخْبَرَ به النبىُّ ﷺ مما يكونُ بعدَ الموتِ(١)،

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

فصل : فى الإيمان باليوم الآخر :

شرع المؤلف رحمه اللّٰه تعالى فى الكلام عن اليوم الآخر وعقيدة أهل السنة والجماعة فيه، فقال : « فصل : ومن الإيمان باليوم الآخر : الإيمان بكل ما أخبر به النبى ﷺ مما يكون بعد الموت ».

حكم الإيمان باليوم الآخر فريضة واجب، ومرتبته فى الدين أنه أحد أركان الإيمان الستة.

وكثيرًا ما يقرن اللّٰه تعالى بين الإيمان به تعالى والإيمان باليوم الآخر؛ الإيمان بالمبدأ والإيمان بالمعاد؛ لأن من لم يؤمن باليوم الآخر؛ لا يمكن أن يؤمن باللّٰه؛ إذ إن الذى لا يؤمن باليوم الآخر؛ لن يعمل؛ لأنه لا يعمل إلا لما يرجوه من الكرامة فى اليوم الآخر، وما يخافه من العذاب والعقوبة؛ فإذا كان لا يؤمن به؛ صار كمن حكى اللّٰه عنهم : ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية : ٢٤].

وسمى اليوم الآخر باليوم الآخر؛ لأنه يوم لا يوم بعده؛ فهو آخر المراحل.

والإنسان له خمس مراحل : مرحلة العدم، ثم الحمل، ثم الدنيا، ثم البرزخ، ثم الآخرة.

- فأما مرحلة العدم فقد دلّ عليها قوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان : ١]، وقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج : ٥].

- وأما مرحلة الحمل؛ فقال اللّٰه عنها : ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى

....

ﵟظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖﵞ [الزمر: ٦].

- وأما مرحلة الدنيا؛ فقال الله عنها: ﵟوَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَﵞ [النحل: ٧٨].

وهذه المراحل هى التى عليها مدار السعادة والشقاء وهى دار الامتحان والابتلاء؛ كما قال تعالى: ﵟٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُﵞ [الملك: ٢].

- وأما مرحلة البرزخ؛ فقال الله عنها: ﵟوَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَﵞ [المؤمنون: ١٠٠].

- وأما مرحلة الآخرة؛ فهى غاية المراحل، ونهاية الراحل؛ قال الله تعالى بعد ذكر المراحل: ﵟثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَﵞ [المؤمنون: ١٥، ١٦].

وقوله رحمه الله: «الإيمانُ بكلِّ ما أخبرَ به النبى ﷺ مما يكون بعد الموت»: كل هذا داخل فى الإيمان باليوم الآخر. وذلك لأن الإنسان إذا مات؛ دخل فى اليوم الآخر، ولهذا يقال: من مات قامت قيامته. فكل ما يكون بعد الموت؛ فإنه من اليوم الآخر.

إذن؛ ما أقرب اليوم الآخر لنا؛ ليس بيننا وبينه إلا أن يموت الإنسان، ثم يدخل فى اليوم الآخر الذى ليس فيه إلا الجزاء على العمل.

ولهذا يجب علينا أن ننتبه لهذه النقطة.

فكر أيها الإنسان؛ تجد أنك على خطر؛ لأن الموت ليس له أجل معلوم عندنا؛ قد يخرج الإنسان من بيته ولا يرجع إليه، وقد يكون الإنسان على كرسى مكتبه ولا يقوم منه، وقد ينام الإنسان على فراشه ولكنه يحمل من فراشه إلى سرير غسله، وهذا أمر يستوجب منا أن ننتهز فرصة العمر بالتوبة إلى الله عز وجل، وأن يكون الإنسان دائمًا مستشعرًا بأنه تائب إلى الله وراجع ومنيبٌ حتى يأتيه الأجل وهو على خير ما يرام.

✽ قال الشيخ الفوزان:

اليوم الآخر هو يوم القيامة، والإيمان به أحد أركان الإيمان، وقد دل عليه العقل والفطرة، وصرحت به جميع الكتب السماوية، ونادى به جميع الأنبياء والمرسلين، وسمى باليوم الآخر لتأخره عن الدنيا.

وقد ذكر الشيخ رحمه الله هنا ضابطًا شاملًا لمعنى الإيمان باليوم الآخر بأنه الإيمان بكل ما أخبر به النبى ﷺ مما يكون بعد الموت.

فيُؤْمِنون بفتنةِ القبرِ ، وبعذابِ القبرِ وبنعيمِه[١] .

فيدخل فيه الإيمان بكل ما دلت عليه النصوص من حالة الاحتضار ، وحالة الميت فى القبر ، والبعث من القبور ، وما يحصل بعده .

❁ قال الشيخ هراس :

قوله : (ومن الإيمان باليوم الآخر) إلخ : إذا كان الإيمان باليوم الآخر أحد الأركان الستة التى يقوم عليها الإيمان فإن الإيمان به إيمانًا تامًا كاملًا لا يتحقق إلا إذا آمن العبد بكل ما أخبر به النبى ﷺ من أمور الغيب التى تكون بعد الموت والضابط فى ذلك أنها أمور محكمة أخبرنا بها الصادق صلوات الله عليه وسلامه وآله ، وكل ممكن أخبر به الصادق يجب الإيمان بوقوعه كما أخبر ، فإن هذه الأمور لا تستفاد إلا من خبر الرسول ، فأهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك كله .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الفتنة هنا : الاختبار ، والمراد بفتنة القبر : سؤال الميت إذا دفن عن ربه ودينه ونبيه .

والضمير فى « يؤمنون » : يعود على أهل السنة ؛ أى أن أهل السنة والجماعة يؤمنون بفتنة القبر ، وذلك لدلالة الكتاب والسنة عليها :

أما الكتاب ؛ ففى قوله تعالى : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ؛ فإن هذا فى فتنة القبر ؛ كما ثبت فى « الصحيحين »[1] وغيرهما من حديث البراء بن عازب عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

– وأما السنة ؛ فقد تظافرت بأن الإنسان يفتن فى قبره ، وهى فتنة قال فيها النبى ﷺ : « إنه قد أوحى إلىَّ أنكم تفتنون فى قبوركم مثل (أو : قريبًا من) فتنة الدجال »[2] .

وفتنة الدجال أعظم فتنة منذ خلق الله آدمَ إلى أن تقوم الساعة ؛ كما فى « صحيح مسلم » عن عمران بن حصين رضى الله عنه ؛ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أكبر من الدجال »[3] .

ولكن النبى ﷺ قال لأصحابه ، بل قال لأمته : « إن يخرج وأنا فيكم ؛ فأنا حجيجه

---

(1) أخرجه البخارى (١٣٦٩) ، ومسلم (٢٨٧١) .

(2) أخرجه البخارى (٨٦) ، ومسلم (٩٠٥) .

(3) أخرجه مسلم (٢٩٤٦) .

....

دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم ؛ فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتى على كل مسلم »[1] .

ومع ذلك ؛ فإن نبينا محمدًا ﷺ أعلمنا كيف نحاجه ، وأعلمنا بأوصافه وميزاته حتى كأنا نشاهده ، رأى عين ، وبهذه الأوصاف والميزات نستطيع أن نحاجه .

ولهذا نقول : إن فتنة الدجال أعظم فتنة ، والرسول عليه الصلاة والسلام قال : « إنكم تفتنون فى قبوركم مثل - أو قريبًا من - فتنة الدجال » .

وما أعظمها من فتنة ! لأن الإنسان يتلقى فيها السؤال الذى لا يمكن الجواب عليه ؛ إلا على أساس متين من العقيدة والعمل الصالح .

✵ قال الشيخ الفوزان :

ثم أشار الشيخ رحمه الله إلى أشياء من ذلك ؛ منها ما يكون فى القبر ، فقال : (فيؤمنون بفتنة القبر وبعذاب القبر ونعيمه) فذكر أمرين .

الأمر الأول : فتنة القبر ، والفتنة لغةً : الامتحان والاختبار ، والمراد بها هنا سؤال الملكين للميت ، لهذا قال : (فأما الفتنة فإن الناس يفتنون فى قبورهم ، فيقال للرجل ؛ أى : الميت ، سواء كان رجلًا ، أو امرأةً ، ولعل ذكر الرجل من باب التغليب .

ثم ذكر الأسئلة التى توجه إلى الميت ، وما يجيب به المؤمن ، وما يجيب به غير المؤمن ، وما يكون بعد هذه الإجابة من نعيمٍ ، أو عذابٍ .

والإيمان بسؤال الملكين واجب لثبوته عن النبى ﷺ فى أحاديث ، يبلغ مجموعها حد التواتر .

ويدل على ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] .

فقد أخرج الشيخان ، من حديث البراء بن عازبٍ رضى الله عنهما ، عن النبى ﷺ قال فى قوله تعالى : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ : « نزلت فى عذاب القبر » . زاد مسلم : « يقال له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله ، ونبيى محمد . فذلك قوله : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ » .

---

(1) أخرجه مسلم (٢٩٣٧) .

فأمَّا الفتنةُ فإنَّ الناسَ يُفْتَنُونَ[1] ....

والقول الثابت هو كلمة التوحيد التى ثبتت فى قلب المؤمن بالحجة والبرهان .

وتثبيت المؤمنين بها فى الدنيا أنهم يتمسكون بها ، ولو نالهم فى سبيلها ما نالهم من الأذى والتعذيب ، وتثبيتهم بها فى الآخرة توفيقهم للجواب عند سؤال الملكين .

❁ **قال الشيخ هراس :**

وأما أهل المروق والإلحاد من الفلاسفة والمعتزلة فينكرون هذه الأمور من سؤال القبر ومن نعيم القبر وعذابه والصراط والميزان وغير ذلك بدعوى أنها لم تثبت بالعقل ، والعقل عندهم هو الحاكم الأول الذى لا يجوز الإيمان بشىء إلا عن طريقه ، وهم يردون الأحاديث الواردة فى هذه الأمور بدعوى أنها أحاديث آحاد لا تقبل فى باب الاعتقاد ، وأما الآيات فيأولونها بما يصرفها عن معانيها . والإضافة فى قوله : (بفتنة القبر) على معنى (فى) أى : بالفتنة التى تكون فى القبر ، وأصل الفتنة وضع الذهب ونحوه على النار لتخليصه من الأوضار والعناصر الغريبة ، ثم استعملت فى الأخبار والامتحان ، وأما عذاب القبر ونعيمه فيدل عليه قوله تعالى فى حق آل فرعون : ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر : ٤٦] ، وقوله سبحانه عن قوم نوح : ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح : ٢٥] .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « القبر إما روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار » .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هذا شروع فى بيان كيفية فتنة الميت فى قبره .

وكلمة « الناس » عامة ، وظاهر كلام المؤلف أن كل أحد ؛ حتى الأنبياء والصديقون والشهداء والمرابطون وغير المكلفين من الصغار والمجانين ، وفى هذا تفصيل ؛ فنقول :

أولًا : أما الأنبياء ؛ فلا تشملهم الفتنة ، ولا يسألون ، وذلك لوجهين :

الأول : أن الأنبياء أفضل من الشهداء ، وقد أخبر النبى ﷺ أن الشهيد يوقى فتنة القبر ، وقال : « كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة » ؛ أخرجه النسائي[1] .

الثانى : أن الأنبياء يسأل عنهم ؛ فيقال للميت : من نبيك ؟ فهم مسئول عنهم ، وليسوا مسئولين ، ولهذا قال النبى ﷺ : « إنه أوحى إلىَّ أنكم تفتنون فى قبوركم » ، والخطاب للأمة

---

(1) صححه الألبانى فى « صحيح الجامع » (٤٤٨٣) .

....

المرسل إليهم ؛ فلا يكون الرسول داخلًا فيهم .

ثانيًا : وأما الصديقون ؛ فلا يسألون ؛ لأن مرتبة الصديقين أعلى من مرتبة الشهداء ؛ فإذا كان الشهداء لا يسألون ؛ فالصديقون من باب أولى ، ولأن الصديق على وصفه مصدِّق وصادق ؛ فهو قد علم صدقه ؛ فلا حاجة إلى اختباره ، لأن الاختبار لمن يُشَك فيه ؛ هل هو صادق أو كاذب ، أما إذا كان صادقًا ؛ فلا حاجة تدعو لسؤاله ، وذهب بعض العلماء إلى أنهم يسألون ؛ لعموم الأدلة ، والله أعلم .

ثالثًا : وأما الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله ؛ فإنهم لا يسألون ؛ لظهور صدق إيمانهم بجهادهم : قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة : ١١١] .

وقال : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران : ١٦٩] . وقال النبى ﷺ : « كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة » .

وإذا كان المرابط ؛ إذا مات ؛ أمن الفَتَّان ؛ لظهور صدقه ؛ فهذا الذى قتل فى المعركة مثله أو أولى منه ؛ لأنه بذل وعرَّض رقبته لعدو الله ؛ إعلاءً لكلمة الله ، وانتصارًا لدينه ، وهذا من أكبر الأدلة على صدق إيمانه .

رابعًا : وأما المرابطون ؛ فإنهم لا يفتنون ؛ ففى « صحيح مسلم » ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله ، وأجرى عليه رزقه ، وأمن الفتان »(1) .

خامسًا : الصغار والمجانين ، هل يفتنون أو لا يفتنون ؟

قال بعض العلماء : إنهم يفتنون ؛ لدخولهم فى العموم ، ولأنهم إذا سقط التكليف عنهم فى حال الحياة ؛ فإن حال الممات تخالف حال الحياة .

وقال بعض العلماء : إن المجانين والصغار لا يُسألون ؛ لأنهم غير مكلفين ، وإذا كانوا غير مكلفين ؛ فإنه لا حساب عليهم ؛ إذ لا حساب إلا على من كان مكلفًا يعاقب على المعاصى ، وهؤلاء لا يعاقبون ، وليس لهم إلا الثواب ؛ إن عملوا عملًا صالحًا يثابون عليه .

---

(1) أخرجه مسلم (١٩١٣) .

في قبورِهم(١) ، فيُقالُ للرجلِ(١) : ....

إذن ؛ خرج من قول المؤلف : « فإن الناس » . خمسة أصناف ؛ الأنبياء ، والصديقون ، والشهداء ، والمرابطون ، ومن لا عقل له ؛ كالمجانين والصبيان .

تنبيه :

الناس ثلاثة أقسام : مؤمنون خلص ، ومنافقون ، وهذان القسمان يفتنون ، والثالث كفار خلص ؛ ففي فتنتهم خلاف ، وقد رجح ابن القيم في كتاب « الروح » أنهم يفتنون .

وهل تسأل الأمم السابقة ؟

ذهب بعض العلماء – وهو الصحيح – إلى أنهم يسألون ؛ لأنه إذا كانت هذه الأمة – وهم أشرف الأمم – تسأل ؛ فمن دونها من باب أولى .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « في قبورهم » . جمع قبر ، وهي مدفن الأموات ، والمراد ما هو أعم ؛ فيشمل البرزخ ، وهو ما بين موت الإنسان وقيام الساعة ، سواء دفن الميت أو أكلته السباع في البر أو الحيتان في البحر أو أتلفته الرياح .

والظاهر أن الفتنة لا تكون إلا إذا انتهت الأحوال الدنيوية ، وسلم إلى عالم الآخرة ؛ فإذا تأخر دفنه يومًا أو أكثر ؛ لم يكن السؤال حتى يدفن .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « فيقال للرجل » . القائل ملكان يأتيان إلى الإنسان في قبره ويجلسانه ويسألانه ، حتى إنه ليسمع قرع نعال المنصرفين عنه وهما يسألانه ، ولهذا كان من هدى النبيّ ﷺ ؛ أنه إذا دفن الميت وقف عليه ، وقال : « استغفروا لأخيكم ، واسألوا له التثبيت ؛ فإنه الآن يسأل »(1) .

وورد في بعض الآثار أن اسمهما : منكر ، ونكير(2) .

وأنكر بعض العلماء هذين الاسمين ؛ قال : كيف يسمى الملائكة وهم الذين وصفهم الله تعالى بأوصافِ الثناء بهذين الاسمين المنكرين ، وضعف الحديث الوارد في ذلك .

---

(1) صححه الألباني في « صحيح الجامع » (٤٧٦٠) .

(2) حسنه الألباني في « صحيح الجامع » (٧٢٤) .

مَن ربُّك(١) ؟ وما دينُك(٢) ؟ ومَن نبيُّك(٣)؟ ....

وذهب آخرون إلى أن الحديث حجة ، وأن هذه التسمية ليس لأنهما منكران من حيث ذواتهما ، ولكنهما منكران من حيث إن الميت لا يعرفهما ، وليس له بهما علم سابق ، وقد قال إبراهيم لأضيافه الملائكة : ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات : ٢٥] . لأنه لا يعرفهم ؛ فهذان منكر ونكير ؛ لأنهما غير معروفين للميت .

ثم هذان الملكان هل هما ملكان جديدان ، موكلان بأصحاب القبور أو هما الملكان الكاتبان عن اليمين وعن الشمال قعيد ؟

– منهم من قال : إنهما الملكان اللذان يصحبان المرء ؛ فإن لكل إنسان ملكين فى الدنيا يكتبان أعماله ، وفى القبر يسألانه هذه الأسئلة الثلاثة .

– ومنهم من قال : بل هما ملكان آخران ، والله عز وجل يقول : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر : ٣١] ، والملائكة خلق كثير ؛ قال النبى ﷺ : « أطت السماء ، وحُقَّ لها أن تئط – والأطيط : صرير الرَّحْل – ما من موضع شبرٍ – أو قال : أربع أصابع – إلا وفيه ملك قائم لله أو راكع أو ساجد »(1) ، والسماء واسعة الأرجاء ؛ كما قال الله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات : ٤٧] .

فالمهم أنه لا غرابةَ أن ينشئ الله عز وجل لكل مدفونٍ ملكين يرسلهما إليه ، والله على كل شىء قدير .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

يعنى : مَن ربُّك الذى خلقك وتعبده وتخصه بالعبادة ؟ لأجل أن تنتظم هذه الكلمة توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

يعنى : ما عملُك الذى تدين به لله عز وجل ، وتتقرب به إليه ؟

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين :

يعنى : من النبى الذى تؤمن به وتتبعه ؟

---

(1) حسنه الألبانى فى « صحيح الجامع » (٢٤٤٩) .

فيُثبِّتُ اللَّهُ الذين آمنوا بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدنيا ، وفي الآخرةِ[١]، فيقولُ المؤمنُ : اللَّهُ رَبِّي ، والإسلامُ ديني ، ومحمدٌ ﷺ نَبِيِّي[٢].

وأمَّا المرتابُ فيقولُ : هاه هاه ، لا أدري ، سمِعْتُ الناسَ يقولون شيئًا فقُلْتُه[٣]،

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

أي : يجعلهم ثابتين لا يترددون ولا يتلعثمون في الجواب .

والقول ثابت : هو التوحيد ؛ كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم : ٢٤] .

وقوله : ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ : يحتمل أنها متعلقة بـ ﴿يُثَبِّتُ﴾ ؛ يعنى : أن اللَّه يثبت المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة . ويحتمل أنها متعلقة بالثابت ؛ فتكون وصفًا للقول ؛ يعنى : أن هذا القول ثابت في الدنيا وفي الآخرة .

ولكن المعنى الأول أحسن وأقرب ؛ لأن اللَّه [تعالى] يقول : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟﴾ [الأنفال : ٤٥] ، وقال اللَّه عز وجل : ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال : ١٢] ؛ فهم يثبتون في الحياة الدنيا وفي الآخرة بالقول الثابت .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

فيقول المؤمن : ربي اللَّه . عندما يقال له : من ربك ؟ ويقول إذا قيل له : ما دينك ؟ فيقول : الإسلام ديني . ويقول كذلك : محمد ﷺ نبيي . إذا قيل له : من نبيك ؟

وحينئذ يكون الجواب صوابًا ، فينادي منادٍ من السماء : أن صدق عبدي ؛ فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابًا إلى الجنة .

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « وأما المرتاب فيقول هاه هاه ! لا أدري ؛ سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته » .

المرتاب : الشاك والمنافق وشبههما ، « فيقول : هاه ! هاه ! لا أدري ؛ سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته » ؛ يعنى : لم يلج الإيمان قلبه ، وإنما كان يقول كما يقول الناس من غير أن يصل الإيمان إلى قلبه .

وتأمل قوله : « هاه ! هاه ! » ؛ كأن شيئًا غاب عنه ؛ يريد أن يتذكره ، وهذا أشد في التحسر ؛ أن يتخيل أنه يعرف هذا الجواب ، ولكن يحال بينه وبينه ، ويقول هاه ! هاه ! ثم يقول : سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته .

ولا يقول : ربي اللَّه . ولا : ديني الإسلام . ولا : نبيي محمد . لأنه في الدنيا مرتابٌ شاكٌّ !

فيُضْرَبُ(١) بمِرْزَبَّةٍ مِن حديدٍ(٢)، فيَصِيحُ صَيْحةً ، يَسْمَعُها كلُّ شيءٍ(٣) ....

هذا إذا سئل في قبره وصار أحوج ما يكون إلى الجواب الصواب ؛ يعجز ويقول : لا أدرى ؛ سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته .

إذن ؛ إيمانه قول فقط ! !

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (وأما المرتاب) : أى : الشاك (فيقول) إذا سئل : (هاه هاه) كلمة ترددٍ وتوجعٍ (لا أدرى ، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته) لأنه غير مؤمنٍ بما جاء به الرسول ﷺ ، فيستعجم عليه الجواب ، ولو كان من أعلم الناس وأفصحهم ، كما قال تعالى : ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

يعنى : الذى لم يجب ؛ سواء كان الكافر أو المنافق والضَّاربُ له الملكان اللذان يسألانه .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

المرزبة : هى مطرقة من حديد ، وقد ورد فى بعض الروايات أنه لو اجتمع عليها أهل مِنًى ؛ ما أقلوها .

فإذا ضرب ؛ يصيح صيحة يسمعها كل شىء إلا الإنسان .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(فيضرب بمرزبةٍ من حديدٍ) وهى المطرقة الكبيرة (فيصيح صيحةً يسمعها كل شىءٍ إلا الإنسان) .

✽ قال الشيخ هراس :

والمِرْزَبَة بالتخفيف المطرقة الكبيرة ، ويقال لها أيضًا : إرزَبَّة بالهمزة والتشديد .

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين :

أى : صياحًا مسموعًا ؛ يسمعه كل شىء ، يكون حوله مما يسمع صوته ، وليس كل شىء فى أقطار الدنيا يسمعه ، وأحيانًا يتأثر به ما يسمعه ؛ كما مر النبى ﷺ بأقبر للمشركين على بغلته ؛ فحادت به ، حتى كادت تلقيه ؛ لأنها سمعت أصواتهم يعذبون(1) .

---

(1) أخرجه مسلم (٢٨٦٧) .

إلَّا الإنسانَ ، ولو سمِعَها الإنسانُ لَصَعِقَ[١] .

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « إلا الإنسان » ؛ يعنى : أنه لا يسمع هذا الصياح ، وذلك لحكم عظيمة منها :

أولًا : ما أشار إليه النبى ﷺ بقوله : « لولا ألَّا تدافنوا ؛ لدعوت اللَّه أن يسمعكم من عذاب القبر » .

ثانيًا : أن فى إخفاء ذلك سترًا للميت .

ثالثًا : أن فيه عدم إزعاج لأهله ؛ لأن أهله إذا سمعوا ميتهم يعذب ويصيح ؛ لم يستقر لهم قرار .

رابعًا : عدم تخجيل أهله ؛ لأن الناس يقولون : هذا ولدكم ! هذا أبوكم ! هذا أخوكم ! وما أشبه ذلك .

خامسًا : أننا قد نهلك ؛ لأنها صيحة ليست هينة ، بل صيحة قد توجب أن تسقط القلوب من معاليقها ، فيموت الإنسان أو يغشى عليه .

سادسًا : لو سمع الناس صراخ هؤلاء المعذبين ؛ لكان الإيمان بعذاب القبر من باب الإيمان بالشهادة ، لا من باب الإيمان بالغيب ، وحينئذ تفوت مصلحة الامتحان ؛ لأن الناس سوف يؤمنون بما شاهدوه قطعًا ؛ لكن إذا كان غائبًا عنهم ، ولم يعلموا به إلا عن طريق الخبر ؛ صار من باب الإيمان بالغيب .

تنبيه :

قول المؤلف رحمه اللَّه : « فيصيح صيحة يسمعها كل شىء إلا الإنسان ، ولو سمعها الإنسان ؛ لصعق » . إنما ورد قوله : « يسمعها كل شىء إلا الإنسان . . . . » إلخ فى قول الجنازة إذا احتملها الرجال على أعناقهم ؛ كما قال النبى ﷺ : « فإن كانت صالحة ؛ قالت : قدِّمونى ! وإن كانت غير صالحة ؛ قالت يا ويلها ، أين يذهبون بها ؟ !! يسمع صوتها كل شىء إلا الإنسان ، ولو سمعه ؛ لصعق »[1] . أما الصيحة فى القبر ؛ فقال النبى ﷺ : « فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين » . أخرجه البخارى بهذا اللفظ[2] ، والمراد بالثقلين : الإنس والجن .

---

(1) أخرجه البخارى (١٣١٤) .

(2) أخرجه البخارى (١٣٣٨) .

٢- القيامةُ الكبرى ، وما يجرى فيها :

ثم بعدَ هذه الفتنةِ ، إما نعيمٌ ، وإما عذابٌ[(١)]

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

ثم بين الحكمةَ من عدم سماع الإنسان لها بقوله : (ولو سمعها الإنسان لصعق) ؛ أى : خرَّ ميتًا ، أو غشى عليه .

ومن حكمة اللّٰه أيضًا أن ما يجرى على الميت فى قبره لا يحس به الأحياء ؛ لأن اللّٰه تعالى جعله من الغيب ، ولو أظهره لفاتت الحكمة المطلوبة ، وهى الإيمان بالغيب .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

﴿ ثم ﴾ : هذه لمطلق الترتيب ، وليست للتراخى ؛ لأن الإنسان يعذب أو ينعم فورًا ؛ كما سبق أنه إذا قال : لا أدرى . يضرب بمرزبة ، وأن ذاك الذى أجاب بالصواب ؛ يفتح له باب إلى الجنة ، ويوسع له فى قبره .

وهذا النعيم أو العذاب ؛ هل هو على البدن أو على الروح أو يكون على البدن والروح جميعًا ؟

نقول : المعروف عند أهل السنة والجماعة أنه فى الأصل على الروح ، والبدن تابع لها ؛ كما أن العذاب فى الدنيا على البدن ، والروح تابعة له ، وكما أن الأحكام الشرعية فى الدنيا على الظاهر ، وفى الآخرة بالعكس ؛ ففى القبر يكون العذاب أو النعيم على الروح ، لكن الجسم يتأثر بهذا تبعًا ، وليس على سبيل الاستقلال ، وربما يكون العذاب على البدن والروح تتبعه ، والنعيم للروح والبدن تبع . لكن هذا لا يقع إلا نادرًا ؛ إنما الأصل أن العذاب على الروح والبدن تبع .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

الأمر الثانى : مما يجرى على الميت فى قبره ، ما أشار إليه الشيخ بقوله : (ثم بعد هذه الفتنة ؛ إما نعيم وإما عذاب إلى أن تقوم القيامة الكبرى) . هذا فيه إثبات عذاب القبر أو نعيمه .

ومذهب أهل السنة والجماعة أن الميت إذا مات يكون فى نعيمٍ ، أو عذابٍ ، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه ، كما تواترت به الأحاديث عن رسول اللّٰه ﷺ .

فيجب الإيمان به ، ولا يتكلم فى كيفيته وصفته ؛ لأن ذلك لا تدركه العقول ؛ لأنه من أمور الآخرة ، وأمور الآخرة لا يعلمها إلا اللّٰه ، ومن أطلعهم اللّٰه على شيء منه ، وهم الرسل ، صلوات اللّٰه وسلامه عليهم .

....

❁ **قال الشيخ ابن عثيمين :**

وقوله : « إما نعيم وإما عذاب » : فيه إثبات النعيم والعذاب فى القبر ، وقد دلّ على ذلك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، بل لنا أن نقول : وإجماع المسلمين :

- أما من كتاب الله ؛ فالثلاثة أصناف التى فى آخر « الواقعة » ظاهرة فى ثبوت عذاب القبر ونعيمه .

قال الله تعالى : ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة : ٨٣ - ٩٤] .

وهذا أمر مشاهد ؛ يسمع المحتضر يرحب بالقادمين عليه من الملائكة ، ويقول : مرحبًا ! وأحيانًا يقول : مرحبًا ؛ اجلس هنا ! كما ذكره ابن القيم فى كتاب « الروح » ، وأحيانًا يحس بأن هذا الرجل أصيب بشىء مخيف ، فيتغير وجهه عند الموت إذا نزلت عليه ملائكة العذاب ، والعياذ بالله .

ومن أدلة القرآن قوله تعالى فى آل فرعون : ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ . وهذا قبل قيام الساعة ؛ بدليل قوله : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر : ٤٦] .

ومن أدلة القرآن أيضًا قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غمراك الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾ ، وهم شاحون بأنفسهم ، لا يريدونها أن تخرج ؛ لأنهم قد بشروا بالعذاب والعقوبة ؛ فتجد الروح تأبى الخروج ، ولهذا قال : ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام : ٩٣] : ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ : (ال) : للعهد الحضورى ؛ كقوله تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة : ٣] ؛ يعنى : اليوم الحاضر .

وكذلك ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ : (ال) للعهد الحضورى ، والمراد به : يوم حضور الملائكة لقبض أرواحهم ، وهذا يقتضى أنهم يعذبون من حين أن تخرج أرواحهم ، وهذا هو عذاب القبر .

ومن أدلة القرآن أيضًا قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ [النحل : ٣٢] ، وذلك فى حال الوفاة .

....

ولهذا جاء فى الحديث الصحيح : « يقال لنفس المؤمن : اخرجى أيتها النفس المطمئنة إلى مغفرة من اللّه ورضوان » ؛ فتفرح بهذه البشرى ، وتخرج منقادة سهلة ، وإن كان البدن قد يتألم ، لكن الروح منقادة مستبشرة .

- وأما السنة فى عذاب القبر ونعيمه ؛ فمتواترة ، ومنها ما ثبت فى « الصحيحين » من حديث ابن عباس رضى اللّه عنهما ؛ أن النبى ﷺ مرَّ بقبرين ؛ فقال : « إنهما ليعذبان ، وما يعذبان فى كبير . . . . »[1] الحديث .

- وأما الإجماع ؛ فكل المسلمين يقولون فى صلاتهم : أعوذ باللّه من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر . . .. ولو أن عذاب القبر غير ثابت ؛ ما صح أن يتعوذوا باللّه منه ؛ إذ لا تعوذ من أمرٍ ليس موجودًا ، وهذا يدل على أنهم يؤمنون به .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وأنكر عذاب القبر المعتزلة ، وشبهتهم فى ذلك أنهم لا يدركونه ، ولا يرون الميت يعذب ، ولا يسأل .

والجواب عن ذلك : إن عدم إدراكنا ورؤيتنا للشيء لا يدل على عدم وجوده ووقوعه ، فكم من أشياء لا نراها ، وهى موجودة ، ومن ذلك عذاب القبر أو نعيمه .

وأن اللّه تعالى جعل أمر الآخرة ، وما كان متصلًا بها غيبًا ، وحجبها عن إدراك العقول فى هذه الدار ؛ ليتميز الذين يؤمنون بالغيب من غيرهم ، وأمور الآخرة لا تُقاس بأمور الدنيا . واللّه أعلم .

❁ قال الشيخ ابن عثيمين :

فإن قال قائل : هل العذاب أو النعيم فى القبر دائم أو ينقطع ؟ .

فالجواب أن يقال :

- أما العذاب للكفار فإنه دائم ، ولا يمكن أن يزول العذاب عنهم ؛ لأنهم مستحقون لذلك ، ولأنه لو زال العذاب عنهم ؛ لكان هذا راحة لهم ، وهم ليسوا أهلًا لذلك ؛ فهم باستمرار فى عذاب إلى يوم القيامة ، ولو طالت المدة ؛ فقوم نوح الذين أُغرقوا مازالوا يعذبون فى هذه النار

---

(1) أخرجه البخارى (٢١٦) ، ومسلم (٢٩٢) .

....

التى أدخلوا فيها ، ويستمر عذابهم إلى يوم القيامة ، وكذلك آل فرعون يعرضون على النار غدوًّا وعشيًّا .

وذكر بعض العلماء أنه يخفف عن الكفار ما بين النفختين ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ [يس : ٥٢] ، ولكن هذا ليس بلازم ؛ لأن قبورهم مرقد لهم ، وإن عذبوا فيها .

- أما عصاة المؤمنين الذين يقضى الله تعالى عليهم بالعذاب ؛ فهؤلاء قد يدوم عذابهم وقد لا يدوم ، وقد يطول وقد لا يطول ؛ حسب الذنوب ، وحسب عفو الله عز وجل .

والعذاب فى القبر أهون من عذاب يوم القيامة ؛ لأن العذاب فى القبر ليس فيه خزى وعار ، لكن فى الآخرة فيه الخزى والعار ؛ لأن الأشهاد موجودن : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر : ٥١] .

فإن قال قائل : لو أن هذا الرجل تمزق أوصالاً ، وأكلته السباع ، وذرته الرياح ؛ فكيف يكون عذابه ، وكيف يكون سؤاله ؟ ! .

فالجواب : أن الله عز وجل على كل شيء قدير ، وهذا أمر غيبى ؛ فالله عز وجل قادر على أن يجمع هذه الأشياء فى عالم الغيب ، وإن كنا نشاهدها فى الدنيا متمزقةً متباعدةً ، لكن فى عالم الغيب ربما يجمعها الله .

فانظر إلى الملائكة تنزل لقبض روح الإنسان فى المكان نفسه ؛ كما قال تعالى : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة : ٥٨] . ومع ذلك لا نبصرهم .

وملك الموت يكلم الروح ، ونحن لا نسمع .

وجبريل يتمثل أحيانًا للرسول عليه الصلاة والسلام ، ويكلمه بالوحى فى نفس المكان ، والناس لا ينظرون ولا يسمعون .

فعالم الغيب لا يمكن أبدًا أن يقاس بعالم الشهادة ، وهذه من حكمة الله عز وجل ؛ فنفسك التى فى جوفك ما تدرى كيف تتعلق ببدنك ؟ ! كيف هى موزعة على البدن ؟ ! وكيف تخرج منك عند النوم ؟ ! هل تحس بها عند استيقاظك بأنها ترجع ؟ ! ومن أين تدخل لجسمك ؟ ! .

فعالم الغيب ليس فيه إلا التسليم ، ولا يمكن فيه القياس إطلاقًا ؛ فالله عز وجل قادر على أن يجمع هذه المتفرقات من البدن المتمزق الذى ذرته الرياح ، ثم يحصل عليه المساءلة والعذاب أو

....

النعيم ؛ لأن اللَّهَ سبحانه على كل شيء قدير .

فإن قال قائل : الميت يدفن في قبر ضيق ؛ فكيف يوسع له مدَّ البصر ؟ ! .

فالجواب :أن عالم الغيب لا يقاس بعالم الشهادة ، بل إننا لو فرض أن أحدًا حفر حفرة مدَّ البصر ، ودفن فيه الميت ، وأطبق عليه التراب ؛ فالذي لا يعلم بهذه الحفرة ؛ هل يراها أو لا يراها ؟ ! لا شك أنه لا يراها ؛ مع أن هذا في عالم الحس ، ومع ذلك لا يرى هذه السعة ، ولا يعلم بها ؛ إلا من شاهدها .

فإذا قال قائل : نحن نرى الميت الكافر إذا حفرنا قبره بعد يوم أو يومين ؛ نرى أضلاعه لم تختلف وتتداخل من الضيق ؟ ! .

فالجواب كما سبق : أن هذا من عالم الغيب ، ومن الجائز أن تكون مختلفة ؛ فإذا كشف عنها ؛ أعادها اللَّه ، وردَّ كل شيء إلى مكانه ؛ امتحانًا للعباد ؛ لأنها لو بقيت مختلفة ونحن قد دفنَّاه وأضلاعه مستقيمة ؛ صار الإيمان بذلك إيمان شهادة .

فإن قال قائل كما قال الفلاسفة : نحن نضع الزئبق على الميت ، وهو أسرع الأشياء تحركًا ومروقًا ، وإذا جئنا من الغد ؛ وجدنا الزئبق على ما هو عليه ، وأنتم تقولون : إن الملائكة يأتون ويجلسون هذا الرجل ، والذي يجلس ؛ كيف يبقى عليه الزئبق ؟ ! .

فنقول أيضًا كما قلنا سابقًا : هذه من عالم الغيب ، وعلينا الإيمان والتصديق ، ومن الجائز أيضًا أن اللَّه عز وجل يرد هذا الزئبق إلى مكانه بعد أن تحول بالجلوس .

ونقول أيضًا : انظروا إلى الرجل في المنام ؛ يرى أشياء لو كان على حسب رؤيته إياها ؛ ما بقي في فراشه على السرير ، وأحيانًا تكون رؤيا حق من اللَّه عز وجل ، فتقع كما كان يراها في منامه ، ومع ذلك ؛ نحن نؤمن بهذا الشيء .

والإنسان إذا رأى في منامه ما يكره ؛ أصبح وهو متكدر ، وإذا رأى ما يسره ؛ أصبح وهو مستبشر ؛ كل هذا يدل على أن أمور الروح ليست من الأمور المشاهدة ، ولا تقاس أمور الغيب بالمشاهد ، ولا ترد النصوص الصحيحة ؛ لاستبعادنا ما تدل عليه حسب المشاهد .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وعذاب القبر على نوعين :

النوع الأول : عذاب دائم ، وهو عذاب الكافر ، كما قال تعالى : ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا

إلى أن تقومَ القيامةُ الكبرى(١)، ....

غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦].

النوع الثانى: يكون إلى مدةٍ، ثم ينقطع، وهو عذاب بعض العصاة من المؤمنين، فيعذب بحسب جرمه، ثم يخفف عنه.

وقد ينقطع عنه العذاب بسبب دعاءٍ، أو صدقةٍ، أو استغفارٍ.

أشار الشيخ رحمه الله فى هذا وما بعده إلى ما يكون فى الدار الآخرة، وهى التى تبدأ بالقيامة الكبرى؛ فإن الدور ثلاث: دار الدنيا، ودار البرزخ، والدار الآخرة. وكل دارٍ من هذه الدور الثلاث لها أحكام تخصها، وحوادث تجرى فيها، وقد تكلم الشيخ على ما يكون فى دار البرزخ.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

فصل: فى القيامة الكبرى:

القيامة الكبرى هى التى يقوم فيها الناس من قبورهم لرب العالمين.

وأفادنا المؤلف رحمه الله بقوله: «القيامة الكبرى». أن هناك قيامة صُغرى، وهى قيامة كل إنسان بعينه؛ فإن كل إنسان له قيامة؛ فـ: «من مات؛ قامت قيامته».

وسكت المؤلف رحمه الله عن أشراط الساعة؛ فلم يذكرها؛ لأن المؤلف إنما يريد أن يتكلم عن اليوم الآخر، وما أشراط الساعة إلا مجرد علامات وإنذارات لقرب قيام الساعة؛ ليستعد لها من يستعد.

وبعض أهل العلم الذين صنَّفوا فى العقائد ذكروا أشراط الساعة هنا، والحقيقة أنه لا تعلق لها فى الإيمان باليوم الآخر، وإن كانت هى من الأمور الغيبية التى أشار الله إليها فى القرآن وفصلها النبى ﷺ فى السنة.

✵ **قال الشيخ الفوزان:**

وهنا أخذ يتكلم على ما يكون فى الدار الآخرة، فيقول: (إلى أن تقوم القيامة الكبرى) القيامة قيامتان:

قيامة صغرى: وهى الموت، وهذه القيامة تقوم على كل إنسانٍ فى خاصته، من خروج روحه وانقطاع سعيه.

وقيامة كبرى: وهذه تقوم على الناس جميعًا، وتأخذهم أخذةً واحدةً، وسميت قيامةً؛

فتُعادُ الأرواحُ إلى الأجسادِ (١) ....

لقيام الناس من قبورهم لرب العالمين .

❁ قال الشيخ هراس :

قوله : (وتقوم القيامة) إلخ : يعنى القيامة الكبرى ، وهذا الوصف للتخصص احترز به عن القيامة الصغرى التى تكون عند الموت كما فى الخبر : « من مات فقد قامت قيامته » . وذلك أن اللّٰه عزَّ وجلَّ إذا أذن بانقضاء هذه الدنيا أمر إسرافيل عليه السلام أن ينفخ فى الصور النفخة الأولى فيصعق كل من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء اللّٰه ، وتصبح الأرض صعيدًا جرزًا ، والجبال كثيبًا مهيلًا ، ويحدث كل ما أخبر اللّٰه به فى كتابه لا سيما فى سورتى « التكوير » و« الانفطار » ، وهذا هو آخر أيام الدنيا ، ثم يأمر اللّٰه السماء فتمطر مطرًا كمنى الرجال أربعين يومًا فينبت منه الناس فى قبورهم من عَجَبِ أذنابهم ، وكل ابن آدم يَبْلَى إلا عجب الذنب ، حتى إذا تم خلقهم وتركيبهم ، أمر اللّٰه إسرافيل بأن ينفخ فى الصور النفخة الثانية ، فيقوم الناس من الأجداث أحياءً فيقول الكفار والمنافقون حينئذ : ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾ [يس : ٥٢] ، ويقول المؤمنون : ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس : ٥٢] ، ثم تحشرهم الملائكة إلى المواقف حفاةً غير منتعلين عراة غير مكتسين غرلًا غير مختتنين ، جمع أغر وهو الأقلف ، والغرلة : القلفة ، وأول من يكتسى يوم القيامة إبراهيم . كما فى الحديث .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الأمر الأول مما يكون فى القيامة :

ما أشار إليه المؤلف بقوله : « فَتُعَادُ الأَرْوَاحُ إلى الأَجْسَادِ » .

هذا أول الأمور : ويكون بعد النفخة الثانية فى الصور ، وذلك بعد أن فارقتها بالموت ، وهذه غير الإعادة التى تكون فى البرزخ حين سؤال الميت عن ربه ودينه ونبيه ، وذلك أن اللّٰه يأمر إسرافيل فينفخ فى الصور ، فيصعق من فى السماوات والأرض ؛ إلا من شاء اللّٰه ، ثم ينفخ فيه مرة أخرى فتتطاير الأرواح من الصور إلى أجسادها ، وتحل فيها .

وفى قول المؤلف : « إلى الأجساد » : إشارة [إلى] أن الأرواح لا تخرج من الصور ؛ إلا بعد أن تتكامل الأجساد مخلوقة ؛ فإذا كملت خلقتها ؛ نفخ فى الصور ، فأعيدت الأرواح إلى أجسادها .

وفى قوله : « تعاد الأرواح إلى الأجساد » . دليل على أن البعث إعادة ، وليس تجديدًا ، بل

....

هو إعادة لما زال وتحول ؛ فإن الجسد يتحول إلى تراب ، والعظام تكون رميمًا ؛ يجمع اللَّه تعالى هذا المتفرق ، حتى يتكون الجسد ، فتعاد الأرواح إلى أجسادها ، وأما من زعم بأن الأجساد تخلق من جديد ؛ فإن هذا زعم باطل يرده الكتاب والسنة والعقل :

- أما الكتاب ؛ فإن اللَّه عز وجل يقول : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم : ٢٧] ؛ أي : يعيد ذلك الخلق الذي ابتدأه .

وفي الحديث القدسي : « يقول اللَّه تعالى : ليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته »[1] ؛ فالكل على اللَّه هين .

وقال تعالى : ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] .

وقال تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون : ١٥، ١٦] .

وقال تعالى : ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۞ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس : ٧٨، ٧٩] .

- وأما السنة ؛ فهي كثيرة جدًا في هذا ؛ حيث بين النبي ﷺ « أن الناس يحشرون فيها حفاة عراة غُرْلًا »[2] ؛ فالناس هم الذين يحشرون ، وليس سواهم .

فالمهم ؛ أن البعث إعادة للأجساد السابقة .

فإذا قلت : ربما يؤكل الإنسان من قبل السباع ، ويتحول جسمه الذي أكله السبع إلى تغذية لهذا الآكل تختلط بدمه ولحمه وعظمه وتخرج في روثه وبوله ؛ فما الجواب على ذلك ؟ .

فالجواب : أن الأمر هين على اللَّه ؛ يقول : كن ! فيكون ، ويتخلص هذا الجسم الذي سيبعث من كل هذه الأشياء التي اختلط بها ، وقدرة اللَّه عز وجل فوق ما تتصوره ؛ فاللَّه على كل شيء قدير .

۞ قال الشيخ الفوزان :

ولهذا قال : (فتعاد الأرواح إلى الأجساد) وذلك عندما ينفخ إسرافيل في الصور ، قال

---

(1) أخرجه البخاري (٤٩٧٤) .

(2) أخرجه البخاري (٣٣٤٩) ، ومسلم (٢٨٦٠) .

وتقومُ القيامةُ التى أخبَر اللّهُ بها فى كتابِه، وعلى لسانِ رسولِه، وأجمَع عليها المسلمون(١)، ....

تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ [يس: ٥١-٥٢].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

والأرواح جمع روحٍ، وهى ما يحيى به الإنسان وغيره من ذوات الأرواح، ولا يعلم حقيقتها إلا اللّه، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

هذه ثلاثة أنواع من الأدلة: كتاب اللّه تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع المسلمين:

- فأما كتاب اللّه تعالى؛ فقد أكّد اللّه تعالى فى كتابه هذه القيامة، وذكرها اللّه عز وجل بأوصافٍ عظيمة، توجب الخوف والاستعداد لها:

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢].

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ مَا ٱلْحَآقَّةُ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١-٣].

وقال تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ مَا ٱلْقَارِعَةُ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ١-٥].

والأوصاف لها فى القرآن كثيرة؛ كلها مروعة مخوفة؛ لأنها عظيمة، وإذا لم نؤمن بها؛ فلن نعمل لها؛ إذ لا يمكن للإنسان أن يعمل لهذا اليوم حتى يؤمن به وحتى يذكر له أوصافه التى توجب العمل لهذا اليوم.

- وأما السنة؛ فالأحاديث فى ذكر القيامة كثيرة، بين الرسول عليه الصلاة والسلام بها ما يكون فيها؛ كما سيأتى إن شاء اللّه فى ذكر الحوض والصِّراط والكتاب وغير ذلك مما بينه الرسول ﷺ.

- وأما الإجماع - وهو النوع الثالث؛ فقد أجمع المسلمون إجماعًا قطعيًا على الإيمان بيوم القيامة، ولهذا كان من أنكره؛ فهو كافر؛ إلا إذا كان غريبًا عن الإسلام وجاهلًا؛ فإنه يعرف؛

....

فإن أصر على الإنكار بعد ذلك ؛ فهو كافر ..

- وهناك نوع رابع من الأدلة ، وهو الكتب السماوية ؛ حيث اتفقت على إثبات اليوم الآخر ، ولهذا كان اليهود والنصارى يؤمنون بذلك ، وحتى الآن يؤمنون به ، ولهذا تسمعونهم يقولون : فلان المرحوم ، أو : رحمه الله ، أو : ما أشبه ذلك ؛ مما يدل على أنهم يؤمنون باليوم الآخر إلى يومنا هذا .

- وثَمَّ نوع خامس ، وهو العقل ، ووجه ذلك أنه لو لم يكن هذا اليوم ، لكان إيجاد الخلائق عبثًا ، والله عز وجل منزه عن العبث ؛ فما الحكمة من قوم يُخلقون ويُؤمرون ويُنهون ويُلزَمون بما يُلزَمون به ويُندبون إلى ما يُندَبون إليه ، ثم يموتون ، ولا حساب ، ولا عقاب ؟ ! .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون : ١١٥، ١١٦] .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص : ٨٥] .

كيف يُفرض القرآن ويُفرض العمل به ؛ ثم لا يكون هناك معادٌ نحاسب على ما نفذنا من هذا القرآن الذى فرض علينا ؟ ! .

فصارت أنواع الأدلة على ثبوت اليوم الآخر خمسة .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (وتقوم القيامة التى أخبر الله بها فى كتابه ، وعلى لسان رسوله ، وأجمع عليها المسلمون) . إشارةٌ إلى أدلة البعث ، وأنه ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين والعقل والفطر السليمة .

فقد أخبر الله عنه فى كتابه ، وأقام الدليل عليه ، ورد على المنكرين للبعث فى غالب سور القرآن ، ولما كان نبينا محمد ﷺ خاتم النبيين بين تفاصيل الآخرة بيانًا لا يوجد فى كثيرٍ من كتب الأنبياء .

والجزاء على الأعمال ثابت بالعقل ، وواقع فى الشرع ؛ فإن الله نبّه العقول إلى ذلك فى مواضع كثيرةٍ من القرآن ، حيث ذكرها أنه لا يليق بحكمته وحمده أن يترك الناس سدًى ، أو يخلقهم عبثًا ، لا يؤمرون ، ولا ينهون ، ولا يثابون ، ولا يعاقبون .

وأن يكون المحسن كالمسيء ، أو يجعل المسلمين كالمجرمين ؛ فإن بعض المحسنين

فيقومُ الناسُ مِن قبورِهم لربِّ العالمين ، حُفاةً ، عُراةً ، غُرْلًا (١).

يموت قبل أن يجزى على إحسانه ، وبعض المجرمين يموت قبل أن يجازى على إجرامه ، فلا بد أن هناك دارًا يُجازى فيها كلٌّ منهما .

ومنكر البعث كافرٌ ، كما قال تعالى : ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ [التغابن : ٧] .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الأمر الثانى مما يكون فى القيامة .

ما أشار إليه بقوله : « فَيَقومُ النَّاسُ مِنْ قُبورِهِم لِرَبِّ العَالَمِينَ حُفاةً عُرَاةً غُرْلًا » .

قوله : « من قبورهم » . هذا بناء على الأغلب وإلا ؛ فقد يكون الإنسان غير مدفون .

قوله : « لرب العالمين » . يعنى : لأن اللّٰه عز وجل يناديهم .

قال اللّٰه تعالى : ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ [ق : ٤١، ٤٢] ؛ فيقومون لهذا النداء العظيم من قبورهم لربهم عز وجل .

قال اللّٰه تبارك وتعالى : ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين : ٤- ٦] .

قوله : « حُفاة عُراةً غُرلًا » : ليس عليهم نعال ولا خفاف ؛ يعنى : أنه ليس عليهم لباس للرجل .

« عراة » : ليس عليهم لباس للجسد .

« غرلًا » : لم ينقص من خلقهم شىء ، والغرل : جمع أغرل ، وهو الذى لم يختن ؛ أى أن القلفة التى قطعت منه فى الدنيا تعود يوم القيامة ؛ لأن اللّٰه يقول : ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] ؛ فيعاد كاملًا ، لم ينقص منه شىء ؛ يعودون على هذا الوصف مختلطين رجالًا ونساءً .

ولما حدث النبى عليه الصلاة والسلام بذلك ؛ قالت عائشة : يا رسول اللّٰه الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ ! فقال : « الأمر أشد من أن يُهِمَّهُم ذلك » . وفى رواية : « من أن ينظر بعضهم إلى بعض »[1] .

فكل إنسان له شأن يغنيه : ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ

(1) أخرجه البخارى (٦٥٢٧) ، ومسلم (٢٨٥٩) .

ما يجرى فى يومِ القيامةِ :

وتَدْنُو منهم الشمسُ(١)، ....

يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٤- ٣٧] . لا رجل ينظر إلى امرأة ، ولا امرأة تنظر إلى رجل ، حتى إن ابنه أو أباه يفر منه ؛ خوفًا من أن يطالبه بحقوق له ، وإذا كان هذا هو الواقع ؛ فإنه لا يمكن أن تنظر المرأة إلى الرجل ، ولا الرجل إلى المرأة ؛ الأمر أشد وأعظم .

ولكن ؛ مع ذلك ؛ يكسون بعد هذا ، و« أول من يكسى إبراهيم عليه الصلاة والسلام » ؛ كما ثبت ذلك عن النبى ﷺ[1] .

* قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (فيقوم الناس من قبورهم حفاةً) . جمع حافٍ ، وهو الذى ليس على رجله نعل ، ولا خفٌ .

(عراةً) جمع عارٍ ، وهو الذى ليس عليه لباس .

(غرلًا) جمع أغرل ، وهو الأقلف الذى لم يختن .

وهذه الصفات الثلاث يكونون عليها حين قيامهم من قبورهم ، وهذا ثابت فى الصحيح ، عن النبى ﷺ ، ففى الصحيحين ، عن عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : « إنكم تحشرون إلى الله يوم القيامة حفاةً عراةً غرلًا » الحديث[2] .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الأمر الثالث مما يكون يوم القيامة :

ما أشار إليه بقوله : « وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ » .

« تدنو » : أى تقرب منهم الشمس ، وتقرب منهم مقدار مِيلٍ .

وهذا الميل سواء كان المسافة أو ميل المكحلة ؛ فإنها قريبة ، وإذا كانت هذه حرارتها فى

---

(1) أخرجه البخارى (٣٣٤٩) ، ومسلم (٢٨٦٠) .

(2) البخارى (٦٥٢٧) ، ومسلم (٢١٩٤/٤) (٢٨٥٩) عن عائشة رضى الله عنها ، ومسلم (٢٩١٤/٤) (٢٨٦٠) عن ابن عباس رضى الله عنهما .

والغُرل - بضم الغين المعجمة ، وإسكان الراء - : معناه : غير مختونين ، جمع أغْرل ، وهو الذى لم يختن ، وبقيت معه غُرلته ، وهى قُلفته ، وهى الجلدة التى تقطع فى الختان .

....

الدنيا ، وبيننا وبينها من البعد شيء عظيم ؛ فكيف إذا كانت عن الرءوس بمقدار ميل[1] ؟ ! .

قد يقول قائل : المعروف الآن أن الشمس لو تدنو بمقدار شعرة عن مستوى خطها ؛ لأحرقت الأرض ، فكيف يمكن أن تكون فى ذلك اليوم بهذا المقدار من البعد ، ثم لا تحرق الخلق ؟ .

فالجواب على ذلك : أن الناس يحشرون يوم القيامة ؛ ليسوا على القوة التى هم عليها الآن ، بل هم أقوى وأعظم وأشد تحملًا .

لو أن الناس الآن وقفوا خمسين يومًا فى شمس لا ظل ولا أكل ولا شرب ؛ فلا يمكنهم ذلك ، بل يموتون ! لكن يوم القيامة يقفون خمسين ألف سنة ؛ لا أكل ولا شرب ولا ظل ؛ إلا من أظله الله عز وجل ، ومع ذلك ؛ يشاهدون أهوالًا عظيمة ؛ فيتحملون .

واعتبر بأهل النار ؛ كيف يتحملون هذا التحمل العظيم ؛ ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء : ٥٦] .

وبأهل الجنة ؛ ينظر الإنسان إلى ملكه مسيرة ألف عام إلى أقصاه ؛ كما ينظر إلى أدناه ؛ كما روى ذلك عن النبى ﷺ[2] .

فإن قيل : هل أحد يسلم من الشمس ؟ .

فالجواب : نعم هناك أناس يظلهم الله فى ظِله يوم لا ظل إلا ظله ؛ كما أخبر بذلك النبى ﷺ : « إمام عادل ، وشاب نشأ فى طاعة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليًا ؛ ففاضت عيناه »[3] .

وهناك أيضًا أصناف أخرى يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله .

وقوله : « لا ظل إلا ظله » ؛ يعنى : إلا الظل الذى يخلقه ، وليس كما توهم بعض الناس أنه ظل ذات الرب عز وجل ؛ فإن هذا باطل ؛ لأنه يستلزم أن تكون الشمس حينئذ فوق الله عز وجل .

---

(1) أخرجه مسلم (٢٨٦٤) .
(2) ضعفه الألبانى فى « الضعيفة » (١٩٨٥) .
(3) أخرجه البخارى (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) .

ويُلْجِمُهم العرقُ[١]، ....

ففى الدنيا ؛ نحن نبنى الظل لنا ، لكن يوم القيامة ؛ لا ظل إلا الظل الذى يخلقه سبحانه وتعالى ليستظل به من شاء من عباده .

✽ قال الشيخ الفوزان :

ذكر الشيخ رحمه اللَّه فى هذا الكلام بعض ما يجرى فى يوم القيامة مما ذكر فى الكتاب والسنة ؛ فإن تفاصيل ما يجرى فى هذا اليوم مما لا يدرك بالعقل ، وإنما يدرك بالنقول الصحيحة عن النبى ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ .

ومن الحكمة فى محاسبة الخلائق على أعمالهم ، ووزنها ، وظهورها مكتوبةً فى الصحف مع إحاطة علم اللَّه بذلك ؛ ليرى عباده كمال حمده ، وكمال عدله ، وسعة رحمته ، وعظمة ملكه .

وذكر الشيخ مما يجرى فى هذا اليوم العظيم على العباد :

١- (أنها تدنو منهم الشمس) ؛ أى : تقرب من رءوسهم ، كما روى مسلم ، عن المقداد رضى اللَّه عنه قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد ، حتى تكون قدر ميلٍ أو ميلين »[1] .

✽ قال الشيخ هراس :

وهناك فى الموقف تدنو الشمس من رءوس الخلائق .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الأمر الرابع مما يكون يوم القيامة :

ما ذكره المؤلف رحمه اللَّه بقوله : « وَيُلْجِمُهُمُ العَرَقُ » .

« يلجمهم » ؛ أى يصل منهم إلى موضع اللجام من الفرس ، وهو الفم ، ولكن هذا غاية ما يصل إليه العرق ، وإلا ؛ فبعضهم يصل العرق إلى كعبيه ، وإلى ركبتيه ، وإلى حقويه ، ومنهم من يلجمه ؛ فهم يختلفون فى هذا العرق ، ويعرقون من شدة الحر ؛ لأن المقام مقام زحام وشدة ودنو شمس ؛ فيعرق الإنسان مما يحصل فى ذلك اليوم ؛ لكنهم على حسب أعمالهم .

فإن قلت : كيف يكون ذلك وهم فى مكان واحد ؟ .

---

(1) رواه أحمد (٦/٣) (٢٣٧٠٣) ، ومسلم (٤/٢١٩٦) (٢٨٦٤) ، والترمذى (٢٤٢١) .

وتُنْصَبُ الموازينُ ، فتُوزَنُ فيها أعمالُ العبادِ[١] ، ....

فالجواب : أننا أصلنا قاعدة يجب الرجوع إليها ، وهى : أن الأمور الغيبية يجب علينا أن نؤمن بها ونصدق دون أن نقول : كيف ؟ ! ولِمَ ؟ ! لأنها شيء وراء عقولنا ، ولا يمكن أن ندركها أو نحيط بها .

أرأيت لو أن رجلين دُفنا فى قبر واحد : أحدهما : مؤمن ، والثانى : كافر ؛ فإنه ينال المؤمن من النعيم ما يستحق ، وينال الكافر من العذاب ما يستحق ، وهما فى قبر واحد ، وهكذا نقول فى العرق يوم القيامة .

فإن قلت : هل تقول : إن اللّه سبحانه وتعالى يجمع من يلجمهم العرق فى مكان ومن يصل إلى كعبيه فى مكان ، وإلى ركبتيه فى مكان ، وإلى حقويه فى مكان ؟ .

فالجواب : لا نجزم بهذا ، واللّه أعلم ، بل نقول : من الجائز أن يكون الذى يصل العرق إلى كعبه إلى جانب الذى يلجمه العرق ، واللّه على كل شيء قدير ، وهذا نظير النور الذى يكون للمؤمنين ؛ يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، والكفار فى ظلمة ؛ فيوم القيامة يجب علينا أن نؤمن به وبما يكون فيه ، أما كيف ؟ ! ولِمَ ؟ ! فهذا ليس إلينا .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (ويلجمهم العرق) ؛ أى : يصل إلى أفواههم ، فيصير بمنزلة اللجام ، يمنعهم من الكلام ، وذلك نتيجةً لدنو الشمس منهم ، وذلك بالنسبة لأكثر الخلق ، ويستثنى من ذلك الأنبياء ، ومن شاء اللّه .

❁ قال الشيخ هراس :

ويلجمهم العرق ، فمنهم من يبلغ كعبيه ، ومنهم من يبلغ ركبته ، ومنهم من يبلغ ثدييه ، ومنهم من يبلغ ترقوته ، كل على قدر عمله ، ويكون أناس فى ظل اللّه عزَّ وجلَّ ، فإذا اشتد بهم الأمر وعظم الكرب استشفعوا إلى اللّه عزَّ وجلَّ بالرسل والأنبياء أن ينقذوهم مما هم فيه ، وكل رسول يحيلهم على من بعده ، حتى يأتوا نبينا ﷺ فيقول : « أنا لها » . ويشفع فيهم ، فينصرفون إلى فصل القضاء .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الأمر الخامس مما يكون يوم القيامة :

ما ذكره بقوله : « فتُنْصَبُ المَوازِينُ فَتُوزَنُ بِها أعْمالُ العِبادِ » .

....

والمؤلف يقول: «الموازين»: بالجمع، وقد وردت النصوص بالجمع والإفراد:

- فمثال الجمع: قول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

- وأما الإفراد؛ فقال النبي ﷺ: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[1].

فقال: «في الميزان» فأفرد؛ فكيف نجمع بين الآيات القرآنية وبين هذا الحديث؟!.

فالجواب أن نقول:

إنها جمعت باعتبار الموزون؛ حيث إنه متعدد، وأفردت باعتبار أن الميزان واحد، أو ميزان كل أمة، أو أن المراد بالميزان في قوله عليه الصلاة والسلام: «ثقيلتان في الميزان»؛ أي: في الوزن.

ولكن الذي يظهر - والله أعلم - أن الميزان واحد، وأنه جمع باعتبار الموزون؛ بدليل قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨].

لكن يتوقف الإنسان: هل يكون ميزانًا واحدًا لجميع الأمم أو لكل أمة ميزان؛ لأن الأمم كما دلت عليه النصوص تختلف باعتبار أجرها؟!.

وقوله: «تنصب الموازين»: ظاهره أنها موازين حسية، وأن الوزن يكون على حسب المعهود بالراجح والمرجوح، وذلك لأن الأصل في الكلمات الواردة في الكتاب والسنة حملها على المعهود المعروف؛ إلا إذا قام دليل على أنها خلاف ذلك، والمعهود المعروف عند المخاطبين منذ نزول القرآن الكريم إلى اليوم أن الميزان حسي، وأن هناك راجح ومرجوح.

وخالف في ذلك جماعة:

- فالمعتزلة قالوا: إنه ليس هناك ميزان حسي، ولا حاجة له؛ لأن الله تعالى قد علم أعمال العباد وأحصاها، ولكن المراد بالميزان: الميزان المعنوي الذي هو العدل.

ولا شك أن قول المعتزلة باطل؛ لأنه مخالف لظاهر اللفظ وإجماع السلف، ولأننا إذا قلنا:

---

(1) أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

....

إن المراد بالميزان : العدل ؛ فلا حاجة إلى أن نعبر بالميزان ، بل نعبر بالعدل ؛ لأنه أحب إلى النفس من كلمة (ميزان) ، ولهذا قال اللّه تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل : ٩٠] .

– وقال بعض العلماء : إن الرجحان للعالى ؛ لأنه يحصل فيه العلو ، ولكن الصواب أن نجرى الوزن على ظاهره ، ونقول : إن الراجح هو الذى ينزل ، ويدل لذلك حديث صاحب البطاقة[1] ؛ فإن فيه أن السجلات تطيش وتثقل البطاقة ، وهذا واضح ؛ بأن الرجحان يكون بالنزول .

وقوله : « فتوزن بها أعمال العباد » . كلام المولف رحمه اللّه صريح بأن الذى يوزن : العمل .

وهنا مبحثان :

المبحث الأول : كيف يوزن العمل ؛ والعمل وصف قائم بالعامل ، وليس جسمًا فيوزن ؟ ! .

والجواب على ذلك : أن يقال : إن اللّه سبحانه وتعالى يجعل هذه الأعمال أجسامًا ، وليس هذا بغريب على قدرة اللّه عز وجل ، وله نظير ، وهو الموت ؛ فإنه يجعل على صورة كبش ، ويذبح بين الجنة والنار[2] ، مع أن الموت معنى ، وليس بجسم ، وليس الذى يذبح ملك الموت ، ولكنه نفس الموت حيث يجعله اللّه تعالى جسمًا يشاهد ويرى ، كذلك الأعمال يجعلها اللّه عز وجل أجسامًا توزن بهذا الميزان الحسى .

المبحث الثانى : صريح كلام المؤلف أن الذى يوزن العمل ؛ سواء كان خيرًا أم شرًا :

وهذا هو ظاهر القرآن ؛ كما قال اللّه تعالى : ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة : ٦– ٨] ، فهذا واضح أن الذى يوزنُ العمل ؛ سواء كان خيرًا أم شرًّا .

وقال النبى عليه الصلاة والسلام : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان » . وهذا ظاهر أيضًا ، بل صريح ، فى أن الذى يوزن العمل ، والنصوص فى هذا كثيرة .

ولكن هناك نصوص قد يخالف ظاهرها هذا الحديث :

– منها حديث صاحب البطاقة ؛ رجل يؤتى به على رءوس الخلائق ، وتعرض عليه أعماله

(1) « صحيح الجامع » للألبانى (١٧٧٦، ٨٠٩٥) .

(2) أخرجه البخارى (٤٧٣٠) ، ومسلم (٢٨٤٩) .

....

فى سجلات تبلغ تسعة وتسعين سجلًّا ؛ كل سجل منها يبلغ مد البصر ، فيقر بها ، فيقال له : ألك عذر أو حسنة ؟ فيقول : لا ؛ يا رب . فيقول اللَّه : بلى ؛ إن لك عندنا حسنة . فيؤتى ببطاقة صغيرة ، فيها : أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأشهد أن محمدًا رسول اللَّه . فيقول : يا رب ، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ ! فيقال : إنك لا تظلم . قال : فتوضع السجلات فى كِفَّة ، والبطاقة فى كِفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة . .» الحديث .

وظاهر هذا أن الذى يوزن صحائف الأعمال .

- وهناك نصوص أخرى تدل على أن الذى يوزن العامل ؛ مثل :

قوله تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف : ١٠٥] . مع أنه قد ينازع فى الاستدلال بهذه الآية ؛ فيقال : إن معنى قوله : ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ . يعنى : قدرًا .

ومثل ما ثبت من حديث ابن مسعود رضى اللَّه عنه ؛ أنه كان يجتنى سواكًا من الأراك ، وكان رضى اللَّه عنه دقيق الساقين ، جعلت الريح تحركه ، فضحك الصحابة رضى اللَّه عنهم ، فقال النبى ﷺ : « مم تضحكون ؟ » . قالوا : من دقة ساقيه . قال : « والذى نفسى بيده ؛ لهما فى الميزان أثقل من أُحدٍ » .

فصار هاهنا ثلاثة أشياء : العمل ، والعامل ، والصحائف .

- فقال بعض العلماء : إن الجمع بينها أن يقال : إن من الناس من يوزن عمله ، ومن الناس من يوزن صحائف عمله ، ومن الناس من يوزن هو بنفسه .

- وقال بعض العلماء : الجمع بينها أن يقال : إن المراد بوزن العمل أن العمل يوزن وهو فى الصحائف ، ويبقى وزن صاحب العمل ، فيكون لبعض الناس .

- ولكن عند التأمل نجد أن أكثر النصوص تدل على أن الذى يوزن هو العمل ، ويخص بعض الناس ، فتوزن صحائف أعماله ، أو يوزن هو نفسه .

وأما ما ورد فى حديث ابن مسعود وحديث صاحب البطاقة ؛ فقد يكون هذا أمرًا يخص اللَّه به من يشاء من عباده .

✽ قال الشيخ الفوزان :

٢- ومما ذكر فى هذا اليوم قوله : (وتنصب الموازين ، وتوزن بها الأعمال) الموازين جمع

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١) ....

ميزانٍ، وهو الذى توزن به الحسنات والسيئات .

وهو ميزان حقيقيٌ له لسان وكفتان، وهو من أمور الآخرة، ونؤمن به، كما جاء، ولا نبحث عن كيفيته إلا على ضوء ما ورد من النصوص .

والحكمة فى وزن الأعمال إظهار مقاديرها؛ ليكون الجزاء بحسبها .

✽ **قال الشيخ هراس :**

وهناك تنصب الموازين، فتوزن بها أعمال العباد وهى موازين حقيقية كل ميزان منها له لسان وكفتان، ويقلب اللّه أعمال العباد (وهى أعراض) - أجسامًا لها ثقل - فتوضع الحسنات فى كفة والسيئات فى كفة، كما قال تعالى : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:] .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

﴿فَمَن﴾ : شرطية . وجواب الشرط جملة : ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

وأتت الجملة الجزائية جملة اسمية بصفة الحصر ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار .

وجاءت باسم الإشارة الدال على البعد ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾، ولم يقل : فهم المفلحون : إشارة إلى علو مرتبتهم .

وجاءت بصفة الحصر فى قوله : ﴿هُمُ﴾، وهم ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد، والفصل بين الخبر والصفة .

والمفلح : هو الذى فاز بمطلوبه ونجا من مرهوبه؛ فحصل له السلامة مما يكره، وحصل له ما يحب .

والمراد بثقل الموازين رجحان الحسنات على السيئات .

وقوله : ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ : فيه إشكال من جهة العربية؛ فإن ﴿مَوَازِينُهُ﴾ الضمير فيه مفرد، و﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الضمير فيه جمع .

وجوابه : أن (من) الشرطية صالحة للإفراد والجمع؛ فباعتبار اللفظ يعود الضمير إليها مفردًا، وباعتبار المعنى يعود الضمير إليها جمعًا .

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ(١) الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾(٢) [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣].

وكلمات جاءت (من)؛ فإنه يجوز أن تعيد الضمير إليها بالإفراد أو بالجمع، وهذا كثير فى القرآن: قال الله تعالى: ﴿مَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]؛ فتجد الآية الكريمة فيها مراعاة اللفظ ثم المعنى ثم اللفظ.

✽ قال الشيخ الفوزان:

(فمن ثقلت موازينه)؛ أى: رجحت حسناته على سيئاته.

(فأولئك هم المفلحون)؛ أى: الفائزون والناجون من النار، المستحقون لدخول الجنة.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

الإشارة هنا للبعد؛ لانحطاط مرتبتهم، لا لعلو مرتبتهم.

✽ قال الشيخ الفوزان:

(ومن خفت موازينه)؛ أى: ثقلت سيئاته على حسناته.

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله: ﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾. الكافر قد خسر نفسه وأهله وماله: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ١٥]. بينما المؤمن العامل للصالحات قد ربح نفسه وأهله وماله وانتفع به.

فهؤلاء الكفار خسروا أنفسهم؛ لأنهم لم يستفيدوا من وجودهم فى الدنيا شيئًا، بل ما استفادوا إلا الضرر، وخسروا أموالهم؛ لأنهم لم ينتفعوا بها، حتى ما أعطوه للخلق لينتفع به؛ فإنه لا ينفعهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤]. وخسروا أهليهم؛ لأنهم فى النار؛ فصاحب النار لا يأنس بأهله، بل إنه مغلق عليه فى تابوت، ولا يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا.

والمراد بخفة الموازين: رجحان السيئات على الحسنات، أو فقدان الحسنات بالكلية، إن قلنا بأن الكفار توزن أعمالهم؛ كما هو ظاهر هذه الآية الكريمة وأمثالها وهو أحد القولين لأهل العلم.

والقول الثانى: أن الكفار لا توزن أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ

وتُنْشَرُ الدَّواوينُ(١)، وهى صحائفُ الأعمالِ(٢)، ....

وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف: ١٠٣- ١٠٥]. والله أعلم.

✽ قال الشيخ الفوزان:

(فأولئك الذين خسروا أنفسهم)؛ أى: خابوا وصاروا إلى النار.

(فى جهنم خالدون)؛ أى: ماكثون فى النار.

والشاهد من الآية الكريمة: أن فيها إثبات الموازين والوزن يوم القيامة، وقد ورد ذكر الوزن والموازين فى آياتٍ كثيرةٍ من القرآن، وقد أفاد مجموع النصوص أنه يوزن العامل والعمل والصحف.

ولا منافاة بينها فالجميع يوزن، ولكن الاعتبار فى الثقل والخفة يكون بالعمل نفسه، لا بذات العامل، ولا بالصحيفة. والله أعلم.

وقد تأول المعتزلة النصوص فى ذلك على أن المراد بالوزن والميزان العدل، وهذا تأويل فاسد مخالف للنصوص، وإجماع سلف الأمة، وأئمتها.

قال الشوكانى[1]: وغاية ما تشبثوا به مجرد الاستبعادات العقلية، وليس فى ذلك حجة على أحدٍ، فهذا إذا لم تقبله عقولهم فقد قبلته عقول قومٍ، هى أقوى من عقولهم، من الصحابة والتابعين وتابعيهم، حتى جاءت البدع كالليل المظلم، وقال كلٌّ ما شاء، وتركوا الشرع خلف ظهورهم. أهـ

وأمور الآخرة ليست مما تدركها العقول. والله أعلم.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

الأمر السادس مما يكون يوم القيامة: وهو ما ذكره المؤلف بقوله: «وَتُنْشَرُ الدَّواوينُ».

«وتنشر»؛ أى: تفرق وتفتح لقارئها.

و«الدواوين»: جمع ديوان، وهو السجل الذى تكتب فيه الأعمال، ومنه دواوين بيت المال، وما أشبه ذلك.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

يعنى: التى كتبتها الملائكة الموكلون بأعمال بنى آدم؛ قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ

(1) «فتح القدير» (٢/١٩٠).

....

بِٱلدِّينِ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَـٰفِظِينَ كِرَامٗا كَـٰتِبِينَ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الانفطار: ٩- ١٢].

فيكتب هذا العمل، ويكون لازما للإنسان فى عنقه؛ فإذا كان يوم القيامة؛ أخرج الله هذا الكتاب.

قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلۡزَمۡنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ٱقۡرَأۡ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وقال بعض السلف: لقد أنصفك من جعلك حسيبًا على نفسك.

والكتابة فى صحائف الأعمال: إما للحسنات، وإما للسيئات، والذى يكتب من الحسنات ما عمله الإنسان، وما نواه، وما هم به؛ فهذه ثلاثة أشياء:

- فأما ما عمله؛ فظاهر أنه يكتب.

- وأما ما نواه؛ فإنه يكتب له، لكن يكتب له أجر النية فقط كاملًا؛ كما فى الحديث الصحيح فى قصة الرجل الذى كان له مال ينفقه فى سبل الخير، فقال الرجل الفقير: لو أن عندى مالًا؛ لعملت فيه بعمل فلان. قال النبى ﷺ: «فهو بنيته؛ فأجرهما سواء»[1].

ويدل على أنهما ليسا سواء فى الأجر من حيث العمل: أن فقراء المهاجرين لما أتوا إلى النبى ﷺ وقالوا: يا رسول الله، إن أهل الدُّثور سبقونا. فقال لهم ﷺ: «تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين». فلما سمع الأغنياء بذلك؛ فعلوا مثله، فرجع الفقراء يشكون إلى النبى عليه الصلاة والسلام، فقال لهم: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[2]. ولم يقل: إنكم بنيتكم أدركتم عملهم.

ولأن هذا هو العدل؛ فرجل لم يعمل لا يكون كالذى عمل، لكن يكون مثله فى أجر النية فقط.

- وأما الهمّ؛ فينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يهم بالشىء ويفعل ما يقدر عليه منه، ثم يحال بينه وبين إكماله.

فهذا يكتب له الأجر كاملًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ

---

(1) صححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٣٠٢٤).

(2) أخرجه البخارى (٨٤٣)، ومسلم (٥٩٥).

....

﴿يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وهذه بشرى لطلبة العلم: إذا نوى الإنسان أن يطلبَ العلم وهو يريد أن ينفع الناس بعلمه، ويذب عن سنة الرسول ﷺ وينشر دين الله فى الأرض، ثم لم يقدر له ذلك؛ بأن مات مثلًا، وهو فى طلبه؛ فإنه يكتب له أجر ما نواه وسعى إليه.

بل إن الإنسان إذا كان من عادته العمل، وحيل بينه وبينه لسبب؛ فإنه يكتب له أجره، قال النبى عليه الصلاة والسلام: «إذا مرض العبد أو سافر؛ كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا»[1].

القسم الثانى: أن يهم بالشىء ويتركه مع القدرة عليه؛ فيكتب له به حسنة كاملة؛ لنيته.

وأما السيئات؛ فإنه يكتب على الإنسان ما عمله، ويكتب عليه ما أراده وسعى فيه ولكن عجز عنه، ويكتب عليه ما نواه وتمناه.

فالأول: واضح.

والثانى: يكتب عليه كاملًا؛ لقول النبى عليه الصلاة والسلام: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما؛ فالقاتلُ والمقتولُ فى النار». قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟! قال: «لأنه كان حريصًا على قتل صاحبه»[2]، ومثله من هَمَّ أن يشرب الخمر، ولكن حصل له مانع؛ فهذا يكتب عليه الوزر كاملًا؛ لأنه سعى فيه.

والثالث: الذى نواه وتمناه يكتب عليه، لكن بالنية، ومنه الحديث الذى أخبر النبى عليه الصلاة والسلام عن رجل أعطاه الله مالًا؛ فكان يتخبط فيه، فقال رجل فقير: لو أن لى مالًا؛ لعملت فيه بعمل فلان. قال النبى عليه الصلاة والسلام: «فهو بنيته؛ فوزرهما سواء».

ولو هم بالسيئة، ولكن تركها؛ فهذا على ثلاثة أقسام:

١ - إن تركها عجزًا؛ فهو كالعامل إذا سعى فيها.

٢ - وإن تركها لله؛ كان مأجورًا.

٣ - وإن تركها لأن نفسه عزفت عنها، أو لم تطرأ على باله؛ فهذا لا إثم عليه ولا أجر.

---

(1) أخرجه البخارى (٢٩٩٦).

(2) أخرجه البخارى (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

فآخِذٌ كتابَه بيمينِه (١)، وآخِذٌ كتابَه بشمالِه ، أو مِن وراءِ ظهرِه (٢)، كما قال سبحانَه

والله عز وجل يجزى بالحسنات أكثر من العمل ، ولا يجزى بالسيئات إلا مثل العمل ؛ قال تعالى : ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠] ، وهذا من كرمه عز وجل ومن كون رحمته سبقت غضبه .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

٣- ومما ذكره الشيخ من حوادث هذا اليوم العظيم قوله : (وتنشر الدواوين ، وهى صحائف الأعمال) ؛ أى : الصحائف التى كتبت فيها أعمال العباد التى عملوها فى الدنيا ، وكتبها عليهم الحفظة ؛ لأنها تطوى عند الموت ، (وتنشر) ؛ أى : تفتح عند الحساب ؛ ليقف كل إنسانٍ على صحيفته ، فيعلم ما فيها .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قوله : « فآخذٌ كتابه بيمينه » : « آخذ » : مبتدأ ، وخبره محذوف ، والتقدير : فمنهم آخذ .

وجاز الابتداء به وهو نكرة ؛ لأنه فى مقام التفصيل ؛ أى أن الناس ينقسمون ، فمنهم من يأخذ كتابه بيمينه ، وهم المؤمنون ، وهذا إشارة إلى أن لليمنى الإكرام ، ولذلك يأخذ المؤمن كتابه بها ، والكافر يأخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره ؛ كما قال المؤلف : « وآخذ كتابه بشماله » .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

وقوله : « أو من وراء ظهره » : « أو » للتنويع ، وليست للشك .

فظاهر كلام المؤلف أن الناس يأخذون كتبهم على ثلاثة أوجه : باليمين ، وبالشمال ، ومن وراء الظهر .

ولكن الظاهر أن هذا الاختلافَ اختلافُ صفاتٍ ؛ فالذى يأخذ كتابه من وراء ظهره هو الذى يأخذ كتابه بشماله ؛ فيأخذ بالشمال ، وتجعل يده من الخلف ؛ فكونه يأخذه بالشمال ؛ لأنه من أهل الشمال ، وكونه من وراء ظهره ؛ لأنه لـمّا استدبر كتاب الله ، وولّى ظهره إياه فى الدنيا ؛ صار من العدلِ أن يجعل كتاب أعماله يوم القيامة خلف ظهره ؛ فعلى هذا ؛ تخلع اليد الشمال حتى تكون من الخلف . والله أعلم .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

(فآخذ كتابه بيمينه ، وآخذ كتابه بشماله ، أو من وراء ظهره) هذا فيه بيان كيفية أخذ الناس لصُحفهم ، كما جاء ذلك فى القرآن الكريم ، وهو على نوعين :

وتعالى : ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ(١) فِى عُنُقِهِۦ(٢)﴾ ....

آخذٌ كتابه بيمينه ، وهو المؤمن .

وآخذ كتابه بشماله أو من وراءِ ظهره ، وهو الكافرُ ، بأن تُلْوى يده اليسرى من وراء ظهره ، ويعطى كتابه بها ، كما جاءت الآيات بهذا وهذا .

ولا منافاةَ بينهما ؛ لأن الكافر تغل يمناه إلى عنقه ، وتجعل يُسراه وراء ظهره ، فيأخذ بها كتابه .

✽ قال الشيخ هراس[1] :

ثم تنشر الدواوين ، وهى صحائف الأعمال .

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق : ٧ - ٩] ، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ أو من وراء ظهره[2] ، ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق : ١١، ١٢] ، ويقول : يا ليتنى لم أوتَ كتابيه ولم أدرِ ما حسابيه ، قال تعالى : ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف : ٤٩] .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾ : أى عمله ؛ لأن الإنسان يتشاءم به أو يتفاءل به ، ولأن الإنسان يطير به فيعلو أو يطير به فينزل .

✽ قال الشيخ الفوزان :

ثم استدل الشيخ بقوله تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ الآية ، وطائره : ما طار عنه من عمله ، من خيرٍ وشرٍّ .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ ؛ أى : رقبته ، وهذا أقوى ما يكون تعلقًا بالإنسان ؛ حيث يربط فى العنق ؛

---

(1) نلاحظ هنا أن الدكتور محمد خليل هراس ، رحمه الله ، قد أجمل شرحه هنا كما نبّهنا على ذلك في المقدمة ، وهذا من أسباب تقديمنا لشرح الشيخ ابن عثيمين ، رحمه الله ، حيث أطال النَّفَس في شرحه .

(2) دعوى أن الذى يؤتى كتابه من وراءه ظهره غير الذى يؤتاه بشماله تنافى ما قرره ابن كثير من تفسيره ، حيث قال : ﴿ وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ﴾ أى : بشماله من وراء ظهره يثنى يده إلى وراءه ويعطى كتابه بها . وكذلك . ولو أتى المؤلف بالآيات على ترتيبها فى المصحف لأصاب ولسلم مما وقع فيه . « إسماعيل الأنصاري » .

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ⁽¹⁾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ ⁽²⁾ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (٣) [الإسراء: ١٣، ١٤].

لأنه لا يمكن أن ينفصل إلا إذا هلك الإنسان ؛ فهذا يلزم عمله .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ ؛ أى : يلزم به ، ويجازى به ، لا مَحِيدَ له عنه ، فهو لازم له لزوم القِلادة فى العنق .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

وإذا كان يوم القيامة ؛ كان الأمر كما قال اللَّه تعالى : ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ ؛ أى : مفتوحًا ؛ لا يحتاج إلى تعب ولا إلى مشقة فى فتحه .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ ؛ أى : نجمع له عمله كله فى كتابٍ يعطاه يوم القيامة ؛ إما بيمينه إن كان سعيدًا ، أو بشماله إن كان شقيًّا .

﴿مَنشُورًا﴾ ؛ أى : مفتوحًا يقرؤه هو وغيره ، وإنما قال سبحانه : ﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ تعجيلًا للبشرى بالحسنة ، والتوبيخ على السيئة .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

ويقال له : ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ وانظر ما كتب عليك فيه .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ ؛ أى : نقول له ذلك ، فيقرأ ذلك الكتاب من كان قارئًا ، ومن لم يكن قارئًا .

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ : وهذا من تمام العدل والإنصاف : أن يوكل الحساب إلى الإنسان نفسه .

والإنسان العاقل لا بد أن ينظر ماذا كتب فى هذا الكتاب الذى سوف يجده يوم القيامة مكتوبًا .

ولكن ؛ نحن أمامنا باب يمكن أن يقضى على كل السيئات ، وهو التوبة ، وإذا تاب العبد

ويُحاسِبُ اللَّهُ الخلائقَ(١)، ....

إلى اللَّه مهما عظُم ذنبه ؛ فإن اللَّه يتوب عليه ، وحتى لو تكرر الذنب منه ، وهو يتوب ؛ فإن اللَّه يتوب عليه ؛ فما دام الأمر بأيدينا الآن ؛ فعلينا أن نحرص على ألَّا يكتب فى هذا الكتاب إلا العمل الصالح .

✽ قال الشيخ الفوزان :

﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ . أى : حاسبًا ، وهو منصوب على التميز ، وهذا أعظم العدل حيث جعله حسيب نفسه ؛ ليرى جميع عمله ، لا ينكر منه شيئًا .

والشاهد من الآية الكريمة : أن فيها إثبات إعطاء كل إنسانٍ صحيفةَ عمله يوم القيامة يقرؤها بنفسه ، ويطلع عليها هو ، لا بواسطة غيره .

✽ قال الشيخ هراس :

وأما قوله تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء : ١٣] ، فقد قال الراغب : أى عمله الذى طار عنه من خير وشر ، ولكن الظاهر أن المراد بالطائر هنا نصيبه فى هذه الدنيا وما كتب له فيها من رزق وعمل كما فى قوله تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الأعراف : ٣٧] يعنى : ما كتب عليهم فيه .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الأمر السابع مما يكون يوم القيامة :

وهو ما ذكره المؤلف بقوله : « وَيُحَاسِبُ اللَّهُ الخَلائقَ » :

المحاسبة : اطلاع العباد على أعمالهم يوم القيامة .

وقد دلّ عليه الكتاب والسنة والإجماع والعقل :

- أما الكتاب ؛ فقال تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق : ٧، ٨] ، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق : ١٠- ١٢] .

- وأما السنة ؛ فقد ثبت عن النبى عليه الصلاة والسلام بعدةِ أحاديث أن اللَّه تعالى يحاسب الخلائق .

- وأما الإجماع ؛ فإنه متفق عليه بين الأمة : أن اللَّه تعالى يحاسب الخلائق .

....

- وأما العقل ؛فواضح ؛ لأننا كلفنا بعمل فعلًا وتركًا وتصديقًا ، والعقل والحكمة تقتضيان أن من كلف بعمل ؛ فإنه يحاسب عليه ويناقش فيه .

وقول المؤلف : « الخلائق » : جمع خليقة ؛ يشمل كل مخلوق .

إلا أنه يستثنى من ذلك من يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب ؛ كما ثبت ذلك فى « الصحيحين » : أن النبى ﷺ رأى أمّته ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب ، وهم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون [1].

وقد روى الإمام أحمد بسند جيد : أن مع كل واحد سبعين ألفًا [2].

فتضرب سبعين ألفًا بسبعين ألفًا ويزاد سبعون ألفًا . هؤلاء كلهم يدخلون الجنة لا حساب ولا عذاب .

وقوله : « الخلائق » . يشمل أيضًا الجن ؛لأنهم مكلّفون ، ولهذا يدخل كافرهم النار بالنص والإجماع ؛ كما قال تعالى : ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾ [الأعراف : ٣٨] ، ويدخل مؤمنهم الجنة على قول جمهور أهل العلم ، وهو الصحيح ؛ كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ ، إلى قوله : ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن : ٤٦- ٥٦] .

وهل تشمل المحاسبة البهائم ؟ .

أما القِصاص ؛ فيشمل البهائم ؛ لأنه ثبت عن النبى عليه الصلاة والسلام « أنه يقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » [3]، وهذا قصاص ، لأنها لا تحاسب حساب تكليف وإلزام ؛ لأن البهائم ليس لها ثواب ولا عقاب .

❁ قال الشيخ الفوزان :

٤-ثم ذكر الشيخ رحمه اللّٰه الحساب ، فقال : (ويحاسب اللّٰه الخلائق)الحساب : هو تعريف اللّٰه عز وجل للخلائق بمقادير الجزاء على أعمالهم ، وتذكيره إياهم ما قد نسوه من ذلك .

---

(1)أخرجه البخارى (٥٧٠٥) ، ومسلم (٢٢٠) .

(2)أخرجه أحمد (٢٣) .

(3)أخرجه مسلم (٢٥٨٢) .

ويَخْلُو بعبدِه المؤمنِ ، فيُقَرِّرُه بذنوبه[(١)] ، ....

أو بعبارةٍ أخرى : هو توقيف الله عباده قبل الانصراف من المَحشر على أعمالهم ؛ خيرًا كانت أو شرًّا .

✽ **قال الشيخ هراس :**

قوله : (ويحاسب الله الخلائق) إلخ : المراد بتلك المحاسبة تذكيرهم وإنباؤهم بما قدَّموه من خير وشر أحصاه الله ونسوه ، قال تعالى : ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨] ، وفي الحديث الصحيح : « من نُوقش الحساب عُذِّب » . فقالت عائشة رضى الله عنها : يا رسول الله ، أَوَ ليس الله يقول : ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق : ٨] ؟ فقال : « إنما ذلك العَرْض ، ولكن من نُوقش الحساب يَهلِك » .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قوله : « وَيَخْلو بِعَبْدِهِ المُؤْمنِ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنوبِهِ » .

هذا صفة حساب المؤمن :

يخلو به الله عز وجل دون أن يطلع عليه أحد ، ويقرره بذنوبه ؛ أي : يقول له : عمِلت كذا ، وعملت كذا . .. حتى يقر ويعترف ، ثم يقول : « سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم »[(1)] .

ومع ذلك فإنه سبحانه وتعالى يضع عليه ستره ؛ بحيث لا يراه أحد ، ولا يسمعه أحد ، وهذا من فضل الله عز وجل على المؤمن ؛ فإن الإنسان إذا قررك بجناياتك أمام الناس وإن سمح عنك ؛ ففيه شيء من الفضيحة ، لكن إذا كان ذلك وحدك ؛ فإن ذلك ستر منه عليك .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

ثم ذكر الشيخ رحمه الله أن الحساب على نوعين :

النوع الأول : حساب المؤمن ، قال فيه : (ويخلو بعبده المؤمن ، فيقرره بذنوبه ، كما وصف ذلك بالكتاب والسنة) كما قال الله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق : ٧- ٩] .

وفي الصحيحين ، عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

---

(1) أخرجه البخاري (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) .

كما وُصِف ذلك فى الكتابِ والسنةِ[(١)].

« إن اللَّه يُدنى المؤمن، فيضع عليه كنفه، ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى فى نفسه أن قد هلك، قال: فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته »[(1)].

ومعنى « يقرره بذنوبه »: يجعله يُقر؛ أى: يعترف بها، كما فى هذا الحديث: « أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ ».

ومن المؤمنين من يدخل الجنة بغير حسابٍ، كما صح فى حديث السبعين الألف الذين يدخلون الجنة، بلا حسابٍ، ولا عذابٍ.

✽ **قال الشيخ هراس:**

وأما قوله: (ويخلو بعبده المؤمن): فقد ورد عن ابن عمر رضى اللَّه عنهما: « أن اللَّه عزَّ وجلَّ يدنى منه عبده المؤمن فيضع عليه كنفه ويحاسبه فيما بينه وبينه ويقرره بذنبوه، فيقول: ألم تفعل كذا يوم كذا، ألم تفعل كذا يوم كذا، حتى إذا قرره بذنوبه وأيقن أنه قد هلك، قال له: سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ».

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

« ذلك » المشار إليه الحساب؛ يعنى: كما وصف الحساب فى الكتاب والسنة، لأن هذا من الأمور الغيبية المتوقفة على الخبر المحض، فوجب الرجوع فيه إلى ما وصف فى الكتاب والسنة.

✽ **قال الشيخ الفوزان:**

والحساب يختلف، فمنه اليسير، وهو العرض، ومنه المناقشة، وفى الصحيحين، عن عائشة رضى اللَّه عنها، أن رسول اللَّه ﷺ قال: « ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك ». فقلت: يا رسول اللَّه، أليس قد قال اللَّه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾.

فقال رسول اللَّه ﷺ: « إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عُذِّب »[(2)].

---

(1) البخارى (٢٤٤١، ٤٦٨٥، ٦٠٧٠، ٧٥١٤)، ومسلم (٤/٢١٢٠) (٢٧٦٨).

(2) البخارى (٦٥٣٧)، ومسلم (٤/٢٢٠٤) (٢٨٧٦).

وأمَّا الكفارُ فلا يُحاسَبون مُحاسَبةَ مَن تُوزَنُ حَسَناتُه وسيئاتُه ؛ فإنه لا حَسَناتِ لهم ، ولكن تُعَدُّ أعمالُهم ، فتُحْصَى ، فيُوقَفون عليها ، ويُقَرَّرون بها ، ويُجْزَوْنَ بها(١) .

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هكذا جاء معناه فى حديث ابن عمر رضى اللّٰه عنهما عن النبى صلى اللّٰه عليه وعلى آله وسلم حينما ذكر حساب اللّٰه تعالى لعبده المؤمن ، وأنه يخلو به ، ويقرره بذنوبه . قال : « وأما الكفار والمنافقون ؛ فينادى بهم على رءوس الخلائق : هؤلاء الذين كَذبوا على ربهم ألا لعنة اللّٰه على الظالمين » . متفق عليه .

وفى « صحيح مسلم »[1] ، عن أبى هريرة رضى اللّٰه عنه ، فى حديث طويل عن النبى ﷺ قال : « فيلقى العبد ، أى : يلقى اللّٰه العبد ، يعنى : المنافق ، فيقول : يا فُل ، أى : يا فلان ، ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ ! فيقول : بلى . قال : فيقول : أظننت أنك ملاقىّ ؟ فيقول : لا ، فيقول : فإنى أنساك كما نسيتنى ، ثم يلقى الثانى فيسأله فيجيب كما أجاب الأول ، فيقول اللّٰه ، فإنى أنساك كما نسيتنى ، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك ، فيقول : يا رب ، آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت . ويثنى بخير ما استطاع ، فيقول : هاهنا إذن ، قال : ثم يقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك ، ويفكر فى نفسه من ذا الذى يشهد علىّ ؟ فيختم على فيه ، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطقى ، فتنطق بعمله ، وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك المنافق وذلك الذى يسخط اللّٰه عليه » .

تنبيه :

فى قول المؤلف رحمه اللّٰه محاسبة من توزن حسناته وسيئاته .. إلخ ، إشارة إلى أن المراد بالمحاسبة المنفية عنهم هى محاسبة الموازنة بين الحسنات والسيئات ، وأما محاسبة التقرير والتقريع فثابتة كما يدل على ذلك حديث أبى هريرة رضى اللّٰه عنه .

فائدة :

أول ما يحاسب عليه العبد من الأعمال الصلاة ، وأول ما يقضى فيه بين الناس الدِّماء ؛ لأن الصلاة أفضل العبادات البدنية ، والدماء أعظم ما يعتدى به فى حقوق الآدميين .

---

(1) أخرجه مسلم (٢٩٦٨) .

حوضُ النبيِّ ﷺ ، ومكانُه ، وصفاتُه :

وفى عَرَصاتِ القيامةِ الحوضُ الموروُدُ للنبيِّ ﷺ ، ماؤُه أشدُّ بياضًا من اللبنِ ، وأحْلَى من العسلِ ، آنيتُه عددُ نجومِ السماءِ ، طولُه شهرٌ ، وعرضُه شهرٌ ، مَن يَشْرَبْ مِنه شربةً لم يَظْمَأْ بعدَها أبدًا(١) .

❊ قال الشيخ الفوزان :

النوع الثانى : حساب الكفار ، وقد بينه بقوله : (وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته ؛ فإنه لا حسنات لهم) ؛ أى : ليس لهم حسنات توزن مع سيئاتهم ؛ لأن أعمالهم قد حبطت بالكفر ، فلم يبق لهم فى الآخرة إلا سيئات .

فحسابهم معناه : أنهم (تعد أعمالهم ، فتحصى ، فيوقفون عليها ، ويقررون بها ، ويجزون بها) ؛ أى : يخبرون بأعمالهم الكفرية ، ويعترفون بها ، ثم يجازون عليها ، كما قال تعالى : ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت : ٥٠] .

وقال تعالى : ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف : ٣٧] .

وقال : ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك : ١١] .

❊ قال الشيخ هراس :

وأما قوله : (فإنه لا حسنات لهم) : يعنى الكفار ؛ لقوله تعالى : ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان : ٢٣] ، وقوله : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [إبراهيم : ١٨] ، والصحيح [أن][1] أعمال الخير التى يعملها الكافر يجازى بها فى الدنيا فقط ، حتى إذا جاء يوم القيامة وجد صحيفة حسناته بيضاء ، وقيل : يخفف بها عنه من عذاب غير الكفر .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الأمر الثامن مما يكون يوم القيامة :

وهو ما ذكره المؤلف بقوله : « وَفى عَرَصاتِ القِيامَةِ الحَوْضُ المَوْرودُ لمحمد ﷺ » .

العرصات : جمع عرْصة ، وهى المكان المتسع بين البنيان ، والمراد به هنا مواقف القيامة .

والحوض فى الأصل : مجمع الماء ، والمراد به هنا : حوض النبى ﷺ .

---

(1) زيادة يقتضيها السياق . « إسماعيل الأنصاري » .

....

والكلام على الحوض من عدة وجوه :

أولًا : هذا الحوض موجود الآن ؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه خطب ذات يوم فى أصحابه ، وقال : « وإنى والله لأنظر إلى حوضى الآن »[1] .

وأيضًا ؛ ثبت عن النبى عليه الصلاة والسلام ؛ أنه قال : « ومنبرى على حوضي »[2] .

وهذا يحتمل أنه فى هذا المكان ، لكن لا نشاهده ؛ لأنه غيبى ، ويحتمل أن المنبر يوضع يوم القيامة على الحوض .

ثانيًا : هذا الحوض يصب فيه ميزابان من الكوثر - وهو النهر العظيم ، الذى أعطيه النبى ﷺ فى الجنة - ينزلان إلى هذا الحوض .

ثالثًا : زمن الحوض قبل العبور على الصراط ؛ لأن المقام يقتضى ذلك ؛ حيث إن الناس فى حاجة إلى الشرب فى عرصات القيامة قبل عبور الصراط .

رابعًا : يرد هذا الحوض المؤمنون بالله ورسوله ﷺ ، المتبعون لشريعته ، وأما من استنكف واستكبر عن اتباع الشريعة ؛ فإنه يطرد منه .

خامسًا : فى كيفية مائه : فيقول المؤلف رحمه الله : « ماؤه أشد بياضًا من اللبن » : هذا فى اللون ، أما فى الطعم ؛ فقال : « وأحلى من العسل » ، وفى الرائحة : « أطيب من ريح المسك » . كما ثبت به الحديث عن النبى ﷺ[3] .

سادسًا : فى آنيته : يقول المؤلف : « آنيته عدد نجوم السماء » .

هذا كما ورد فى بعض ألفاظ الحديث ، وفى بعضها : « آنيته كنجوم السماء » ، وهذا اللفظ أشمل ؛ لأنه يكون كالنجوم فى العدد وفى الوصف بالنور واللمعان ؛ فآنيته كنجوم السماء كثرة وإضاءة .

سابعًا : آثار هذا الحوض : قال المؤلف : « من يشرب منه شربة ؛ لا يظمأ بعدها أبدًا » . حتى على الصراط وبعده .

---

(1) أخرجه البخارى (١٣٤٤) ، ومسلم (٢٢٩٦) .

(2) أخرجه البخارى (١١٩٦) ، ومسلم (١٣٩١) .

(3) أخرجه البخارى (٦٥٧٥) ، ومسلم (٢٢٩٢) .

....

وهذه من حكمة اللّٰه عز وجل ؛ لأن الذى يشرب من الشريعة فى الدنيا لا يخسر أبدًا كذلك .

ثامنًا : مساحة هذا الحوض : يقول المؤلف : « طوله شهر وعرضه شهر » . هذا إذن يقتضى أن يكون مدورًا ؛ لأنه لا يكون بهذه المساحة من كل جانب ؛ إلا إذا كان مدورًا ، وهذه المسافة باعتبار ما هو معلوم فى عهد النبى ﷺ من سير الإبل المعتاد .

تاسعًا : يصب فى الحوض ميزابان من الكوثر الذى أعطاه اللّٰه تعالى محمدًا ﷺ .

عاشرًا : هل للأنبياء الآخرين أحواضٌ ؟ .

فالجواب : نعم ؛ فإنه جاء فى حديث رواه الترمذى - وإن كان فيه مقال : « إن لكل نبى حوضًا »[1].

لكن هذا يؤيده المعنى ، وهو أن اللّٰه عز وجل بحكمته وعدله كما جعل للنبى محمد ﷺ حوضًا يرده المؤمنون من أمته ؛ كذلك يجعل لكل نبى حوضًا ، حتى ينتفع المؤمنون بالأنبياء السابقين ، لكن الحوض الأعظم هو حوض النبى صلى اللّٰه عليه وعلى آله وسلم .

✽ قال الشيخ الفوزان :

٥- مما يوجد فى القيامة حوض النبى ﷺ ، وقد ذكره الشيخ هنا ، وبين أوصافه ، فقال : (وفى عرصات القيامة الحوض المورود للنبى ﷺ) كما ثبت ذلك عن النبى ﷺ .

قال الإمام ابن القيم : وقد روى أحاديث الحوض أربعون صحابيًا ، وكثير منها ، أو أكثرها فى الصحيح . أهـ

وتقدم بيان معنى العرَصات[2].

والحوض لغةً : مجمع الماء ، وقد أجمع أهل السنة والجماعة على إثبات الحوض ، وخالفت فى ذلك المعتزلة ، فلم تقل بإثباته ، وأولوا النصوص الواردة فيه ، وأحالوها عن ظاهرها .

ثم ذكر الشيخ رحمه اللّٰه أوصاف الحوض ، فقال : (ماؤه أشد بياضًا من اللبن . إلخ) وهذه الأوصاف ثابتة فى الأحاديث ، كحديث عبد اللّٰه بن عمرو المتفق عليه قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « حوضى مسيرة شهرٍ ، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم

---

(1) أخرجه الترمذى (٢٤٤٣) ، وابن ماجه (٤٣٠١) ، وأورده الألبانى فى « الصحيحة » (١٥٨٩) .

(2) تقدم ص٤٨١ .

الصِّراطُ ومعناه ومكانُه وصفةُ مرورِ الناسِ عليه :

والصراطُ منصوبٌ على مَتْنِ جَهَنَّمَ ، وهو الجِسرُ الذى بينَ الجنةِ والنارِ[١] ،

السماء ، من شرب منه لا يظمأ أبدًا »[1].

❋ **قال الشيخ هراس :**

وأما قوله : (فى عرصات القيامة) : فإن الأحاديث الواردة فى ذكر الحوض تبلغ حد التواتر ، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابيًا ، فمن أنكره فأخلق به أن يحال بينه وبين [وُرُده] يوم العطش الأكبر ، وقد ورد فى أحاديث : أن لكل نبى حوضًا ، ولكن حوض نبينا ﷺ أعظمها وأحلاها وأكثرها واردًا . جعلنا اللَّه منهم بفضله وكرمه .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الأمر التاسع مما يكون يوم القيامة الصراط :

وقد ذكره المؤلف بقوله : « والصِّراطُ مَنصوبٌ عَلى مَتْنِ جَهنَّم ، وَهُوَ الجِسْرُ الذى بين الجنة والنَّار » .

وقد اختلف العلماء فى كيفيته :

- فمنهم من قال : طريق واسع يمر الناس على قدر أعمالهم ؛ لأن كلمة الصراط مدلولها اللغوى هو هذا ؛ ولأن رسول اللَّه ﷺ أخبر بأنه دَحْض ومَزَلة[2] ، والدحض والمزلة لا يكونان إلا فى طريق واسع ، أما الضيق ؛ فلَا يكون دحضًا ومزلة .

- ومن العلماء من قال : بل هو صراط دقيق جدًّا ؛ كما جاء فى حديث أبى سعيد الخدرى الذى رواه مسلم بلاغًا[3] ؛ أنه أدق من الشعر ، وأحد من السيف .

على هذا يرد سؤال : وهو كيف يمكن العبور على طريق كهذا ؟

والجواب : أن أمور الآخرة لا تقاس بأمور الدنيا ؛ فاللَّه تعالى على كل شىء قدير ، ولا ندرى ؛ كيف يعبرون ؟ ! هل يجتمعون جميعًا فى هذا الطريق أو واحد بعد واحد ؟ .

وهذه المسألة لا يكاد الإنسان يجزم بأحد القولين ؛ لأن كليهما له وجهة قوية .

---

(1) البخارى (٦٥٧٩) ، ومسلم (٤/ ١٧٩٣، ١٧٩٤) (٢٢٩٢) .

(2) أخرجه البخارى (٧٤٤٠) ، ومسلم (١٨٣) .

(3) أخرجه مسلم (١٨٣) .

يَمُرُّ الناسُ عليه على قَدْرِ أعمالِهم ، فمِنهم مَن يَمُرُّ كلَمْحِ البَصَرِ ، ومنهم مَن يَمُرُّ كالبَرقِ الخاطفِ ، ومنهم مَن يَمُرُّ كالريحِ ، ومنهم مَن يَمُرُّ كالفرسِ الجَوَادِ ، ومنهم مَن يَمُرُّ كرِكابِ الإبلِ ، ومنهم مَن يَعْدُو عَدْوًا ، ومنهم مَن يَمْشِيَ مَشْيًا ، ومنهم مَن يَزْحَفُ زَحْفًا(١)، ....

وقوله : « منصوب على متن جهنم » ، يعنى : على نفس النار .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

٦- ذكر الشيخ رحمه اللَّه فى هذا أن مما يحصل يوم القيامة المرور على الصراط ، والصراط فى اللغة هو الطريق الواضح .

وأما فى الشرع فهو ما بينه الشيخ بقوله : (وهو الجسر الذى بين الجنة والنار) وبين مكانه بقوله : (على متن جهنم) ؛ أى : على ظهر النار .

❁ **قال الشيخ هراس :**

قوله : (والصراط منصوب) إلخ : أصل الصراط الطريق الواسع ، قيل : سمى بذلك لأنه يسترط السابلة ، أى يبتلعهم إذا سلكوه ، وقد يستعمل فى الطريق المعنوى كما فى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [النساء : ١٥٣] .

والصراط الأخروى – الذى هو الجسر الممدود على ظهر جهنم بين الجنة والنار – حقٌّ لا ريب فيه ؛ لورود خبر الصادق به ، ومن استقام على صراط اللَّه الذى هو دينه الحق فى الدنيا ، استقام على هذا الصراط فى الآخرة ، وقد ورد فى وصفه أنه أرق من الشعرة وأحدُّ من السيف .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قوله : « يمر الناس » . المراد بـ : « الناس » هنا : المؤمنون ؛ لأن الكفار قد ذهب بهم إلى النار .

فيمر الناس عليه على قدر أعمالهم ؛ منهم من يمر كلمح البصر ، ومنهم من يمر كالبرق ، ولمح البصر أسرع من البرق ، ومنهم من يمر كالريح ؛ أى : الهواء ، ولا شك أن الهواء سريع ، لا سيما قبل أن يعرف الناس الطائرات ، والهواء المعروف يصل أحيانًا إلى مائة وأربعين ميلًا فى الساعة ، ومنهم من يمر كالفرس الجواد ، ومنهم يمر كركاب الإبل ، وهى دون الفرس الجواد بكثير ، ومنهم من يعدو عدوًا ؛ أى : يسرع ، ومنهم من يمشى مشيًا ، ومنهم من يزحف زحفًا ؛ أى : يمشى على مقعدته ، وكل منهم يريد العبور .

ومنهم مَن يُخْطَفُ خَطْفًا[١]، ويُلْقَى فى جَهَنَّمَ[٢]؛ فإنَّ الجسرَ عليه كَلاليبُ

وهذا بغير اختيار الإنسان ، ولو كان باختياره ؛ لكان يحب أن يكون بسرعة ، ولكن السير على حسَب سرعته فى قبولِ الشريعة فى هذه الدنيا ، فمن كان سريعًا فى قبولِ ما جاءت به الرسل ؛ كان سريعًا فى عبور الصراط ، ومن كان بطيئًا فى ذلك ؛ كان بطيئًا فى عبور الصراط ؛ جزاء وِفاقًا ، والجزاء من جنس العمل .

✽ قال الشيخ الفوزان :

ثم بين صفة مرور الناس عليه بقوله : (يمر الناس عليه على قدر أعمالهم) ووقت المرور عليه بعد مفارقة الناس للموقف والحشر والحساب ؛ فإن الصراط ينجو عليه المؤمنون من النار إلى الجنة ، ويسقط منه أهل النار فيها ، كما ثبت فى الأحاديث .

ثم فصل الشيخ رحمه اللّه أحوال الناس فى المرور على الصراط ، فقال : (فمنهم من يمر كلمح البصر) إلخ ؛ أى : أنهم يكونون فى سرعة المرور وبطئه على حسب إيمانهم وأعمالهم الصالحة التى قدموها فى الدنيا .

فبحسب استقامة الإنسان على دين الإسلام وثباته عليه يكون ثباته ومروره على الصراط ، فمن ثبت على الصراط المعنوى - وهو الإسلام - ثبت على الصراط الحسى المنصوب على متن جهنم ، ومن زل عن الصراط المعنوى زل عن الصراط الحسى .

وقوله : (يعدو عدوًا) ؛ أى : يركض ركضًا . وقوله : (يزحف زحفًا) ؛ أى : يمشى على مقعدته ، بدل رجليه .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

وقوله : « ومنهم من يخطف » ؛ أى : يؤخذ بسرعة ، وذلك بالكلاليب التى على الجسر ؛ تخطف الناس بأعمالهم .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

« فيلقى فى جهنم » : يفهم منه أن النار التى يلقى فيها العصاة هى النار التى يلقى فيها الكفار ، ولكنها لا تكون بالعذاب كعذاب الكفار ، بل قال بعض العلماء : إنها تكون بردًا وسلامًا عليهم كما كانت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم ، ولكن الظاهر خلاف ذلك ، وأنها تكون حارة مؤلمة لكنها ليست كحرارتها بالنسبة للكافرين .

ثم إن أعضاء السجود لا تمسها النار ؛ كما ثبت ذلك عن النبى عليه الصلاة والسلام فى

تَخْطِفُ الناسَ بأعمالِهم .

القَنْطرةُ بينِ الجنةِ والنارِ :

فمَن مَرَّ على الصراطِ دخَل الجنةَ(١)، فإذا عبَروا عليه وُقِفوا على قَنْطَرةٍ بينَ الجنةِ

« الصحيحين »[1]، وهى الجبهة والأنف والكفان والركبتان وأطراف القدمين .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (عليه كلاليب) جمع كلوب - بفتح الكاف واللام المشددة المضمومة - وهى حديدة معطوفة الرأس .

وقوله : تخطف - بفتح الطاء ، ويجوز كسرها - من الخطف ، وهو أخذ الشىء بسرعةٍ .

وقوله : (بأعمالهم) ؛ أى : بسبب أعمالهم السيئة ، فيكون اختطاف الكلاليب لهم على صراط جهنم بحسب اختطاف الشبهات والشهوات لهم عن الصراط المستقيم .

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بالصراط المنصوب على متن جهنم ومرور الناس عليه ، على ما جاءت به الأحاديث الصحيحة ، عن النبى ﷺ .

وخالف فى ذلك القاضى عبد الجبار المعتزلى وكثير من أتباعه ، وقالوا : المراد بالصراط المذكور طريق الجنة ، المشار إليه بقوله تعالى : ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [محمد : ٥] . وطريق النار المشار إليه بقوله تعالى : ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات : ٢٣] .

وهذا قول باطل ، وردٌّ للنصوص الصحيحة بغير برهانٍ ، والواجب حمل النصوص على ظاهرها .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « فمن مر على الصراط ؛ دخل الجنة » ؛ أى : لأنه نجا .

✽ قال الشيخ الفوزان :

٧- ذكر الشيخ رحمه الله مما يكون يوم القيامة الوقوف على القنطرة ، فقال : (فمن مر على الصراط) ؛ أى : تجاوزه ، وسلم من السقوط فى جهنم .

(دخل الجنة) لأن من نجا من النار دخل الجنة ، قال تعالى : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران : ١٨٥] . وقال تعالى : ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى : ٧] .

---

(1) أخرجه البخارى (٨٠٦) ، ومسلم (١٨٢) .

والنارِ[١]، فيُقْتَصُّ لبعضِهم مِن بعضٍ[٢]، ....

لكن قبل دخول الجنة لا بد من إجراء القصاص بين المؤمنين حتى يدخلوا الجنة ، وهم على أكمل حالةٍ ، قد خلصوا من المظالم ، وهذا ما أشار إليه الشيخ بقوله : (فإذا عبروا) ؛ أى : تجاوزوا الصراط ، ونجوا من السقوط فى النار .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

« القنطرة » : هى الجسر ، لكنها جسر صغير ، والجسر فى الأصل مر على الماء من نهر ونحوه .

واختلف العلماء فى هذه القنطرة ؛ هل هى طرف الجسر الذى على متن جهنم أو هى جسر مستقل ؟ ! .

والصواب فى هذا أن نقول : اللّٰه أعلم ، وليس يعنينا شأنها ، لكن الذى يعنينا أن الناس يوقفون عليها .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

(وقفوا على قنطرةٍ) هى الجسر ، وما ارتفع من البنيان ، وهذه القنطرة قيل : هى طرف الصراط مما يلى الجنة ، وقيل : هى صراط آخر خاصٌّ بالمؤمنين .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قوله : « فيقتص لبعضهم من بعض » : وهذا القصاص غير القصاص الأول الذى فى عرصات القيامة ؛ لأن هذا القصاص أخص ؛ لأجل أن يذهب الغل والحقد والبغضاء التى فى قلوب الناس ، فيكون هذا بمنزلة التنقية والتطهير ، وذلك لأن ما فى القلوب لا يزول بمجرد القِصاص .

فهذه القنطرة التى بين الجنة والنار ؛ لأجل تنقية ما فى القلوب ، حتى يدخلوا الجنة وليس فى قلوبهم غل ؛ كما قال اللّٰه تعالى : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر : ٤٧] .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

(فيقتص لبعضهم من بعضٍ) ؛ أى : يجرى بينهم القصاص فى المظالم ، فيؤخذ للمظلوم حقه ممن ظلمه .

فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم فى دخولِ الجنةِ(١) .

أولُ مَن يَسْتَفْتِحُ بابَ الجنةِ ، وأولُ مَن يَدْخُلُها ، وشفاعاتُ النبىِّ ﷺ :

وأولُ مَن يَسْتَفْتِحُ بابَ الجنةِ محمدٌ ﷺ(٢) ....

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

هكذا رواه البخارى من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه[1] .

إذا هذبوا مما فى قلوبهم من العداوة والبغضاء ونقوا منها ؛ فإنه يؤذن لهم فى دخول الجنة ؛ فإذا أذن لهم فى الدخول ؛ فلا يجدون الباب مفتوحًا ، ولكن النبى ﷺ يشفع إلى الله فى أن يفتح لهم باب الجنة ؛ كما سيأتى فى أقسام الشفاعة إن شاء الله .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(فإذا هذبوا ونقوا) ؛ أى : خلصوا من التبعات والحقوق (أذن لهم فى دخول الجنة) وقد ذهب ما فى قلوب بعضهم لبعضٍ من الغل ، كما قال تعالى : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر : ٤٧] .

❁ قال الشيخ الفوزان :

٨- يبين الشيخ رحمه الله ما ينتهى إليه أمر المؤمنين يوم القيامة بعد اجتيازهم لتلك الأحوال التى مر ذكر أهمها ، فيقول : (فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة) فهم لا يدخلون الجنة إلا بعد إذنٍ من الله تعالى ، وطلبٍ لفتح أبوابها .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

الأمر العاشر مما يكون يوم القيامة :

دخول الجنة : وأشار إليه المؤلف بقوله : « وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ » . ودليله ما ثبت فى « صحيح مسلم » أن النبى ﷺ قال : « أنا أول شفيع فى الجنة » . وفى لفظ : « أنا أول من يقرع باب الجنة »[2] . وفى لفظ : « آتى باب الجنة يوم القيامة ، فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد . فيقول : بك أمرت لا أفتح لأحد من قبلك »[3] .

وقوله ﷺ : « فأستفتح » ، أى : أطلب فتح الباب . وهذا من نعمة الله على محمد ﷺ ؛

---

(1) أخرجه البخارى (٢٤٤٠) .

(2) أخرجه مسلم (١٩٦) .

(3) أخرجه مسلم (١٩٧) .

وأولُ مَن يَدْخُلُ الجنةَ مِن الأممِ[١] أمتُه .

فإن الشفاعة الأولى التى يشفعها فى عرصات القيامة لإزالة الكروب والهموم والغموم ، والشفاعة الثانية لنيل الأفراح والسرور ؛ فيكون شافعًا للخلق عليه الصلاة والسلام فى دفع ما يضرهم وجلب ما ينفعهم .

ولا دخول إلى الجنة إلا بعد شفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأن ذلك ثبت فى السنة كما سبق ، وأشار إليه الله عز وجل بقوله : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر : ٧٣] ؛ فإنه لم يقل : حتى إذا جاءوها ؛ فتحت ! وفيه إشارة إلى أن هناك شيئًا قبل الفتح ، وهو الشفاعة . أما أهل النار ؛ فقال فيهم : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر : ٧١] ؛ لأنهم يأتونها مهيأة فتبغتهم ؛ نعوذ بالله منها .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ) كما فى الصحيح ، عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « آتى باب الجنة يوم القيامة ، فأستفتح فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد . فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحدٍ قبلك »[1] .

والاستفتاح طلب الفتح ، وفى هذا تشريف له ﷺ ، وإظهار لفضله .

❁ قال الشيخ هراس :

قوله : (وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ) : يعنى أول من يحرك حلقها طالبًا أن يفتح له بابها ، كما قال عليه السلام : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فأدخلها ويدخلها معى فقراء أمتي » . يعنى بعد دخول الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يكون فقراء هذه الأمة أول الناس دخولًا الجنة .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

هذا حق ثابت ؛ دليله ما ثبت فى « صحيح مسلم » عن أبى هريرة رضى الله عنه ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، ونحن أول من يدخل الجنة »[2] ، وقال ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة »[3] .

(1) أحمد فى مسنده (١٣٦/٣) (١٢٣٣٧) ، ومسلم (١٨٨/١) (١٩٧) .

(2) أخرجه مسلم (٨٥٥) .

(3) أخرجه البخارى (٢٣٨) ، ومسلم (٨٥٥) .

....

وهذا يشمل كل مواقف القيامة ، وانظر : « حادى الأرواح » لابن القيم .

تتمة :

أبواب الجنة لم يذكرها المؤلف ، لكنها معروفة أنها ثمانية ؛ قال الله تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر : ٧٣] ، وقال النبى ﷺ فيمن توضأ وأسبغ الوضوء وتشهد : « إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ؛ يدخل من أيها شاء »[1] .

وهذه الأبواب كانت ثمانية بحسب الأعمال ؛ لأن كل باب له عمال ؛ فأهل الصلاة ينادون من باب الصلاة ، وأهل الصدقة من باب الصدقة ، وأهل الجهاد من باب الجهاد ، وأهل الصيام من باب الريان .

وقد يوفق الله عز وجل بعض الناس لأعمال صالحة شاملة ؛ فيدعى من جميع الأبواب ؛ كما فى « الصحيحين »[2] عن أبى هريرة رضى الله عنه ؛ أن النبى ﷺ قال : « من أنفق زوجين فى سبيل الله ؛ نودى من أبواب الجنة : يا عبد الله ! هذا خير . . . . » وذكر الحديث ، وفيه : فقال أبو بكر رضى الله عنه : بأبى أنت وأمى يا رسول اللهَ ما على من دعى من تلك الأبواب من ضرورة ؛ فهل يدَّعى أحد من تلك الأبواب كلها ؟ قال : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم » .

فإن قلت : إذا كانت الأبواب بحسب الأعمال ؛ لزم أن يدعى كل أحد من كل تلك الأبواب إذا عمل بأعمالها ؛ فما الجواب ؟ .

فالجواب : أن يقال : يُدْعى من الباب المعين مَن كان يكثر من العمل المخصص له ؛ مثلًا : إذا كان هذا الرجل كثير الصلاة ؛ فيدعى من باب الصلاة ، كثير الصيام من باب الريان ، وليس كل إنسان تحصل له الكثرة فى كل عمل صالح ؛ لأنك تجد فى نفسك بعض الأعمال أكثر وأنشط من بعض ، لكن قد يمن الله على بعض الناس ، فيكون نشيطًا قويًا فى جميع الأعمال ؛ كما سبق فى قصة أبى بكر رضى الله عنه .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(وأول من يدخلها من الأمم أمته) وذلك لفضلها على سائر الأمم ، ودليل ذلك ما فى حديث

---

(1) أخرجه مسلم (٢٣٤) .

(2) أخرجه البخارى (١٨٩٧) ، ومسلم (١٠٢٧) .

وله ﷺ في القيامةِ ثلاثُ شَفاعاتٍ(١): أمَّا الشفاعةُ الأولى فيَشْفَعُ في أهلِ

أبي هريرة الذي رواه مسلم، من قوله ﷺ: «ونحن أول من يدخل الجنة»[1].

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الأمر الحادي عشر مما يكون يوم القيامة الشفاعة:

وقد ذكرها المؤلف بقوله: «وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات».

«له»: الضمير يعود للنبي ﷺ.

والشفاعات: جمع شفاعة، والشفاعة في اللغة: جعل الشيء شفعًا. وفي الاصطلاح: التوسط للغير بجلب منفعةٍ أو دفع مضرةٍ، ومناسبتها للاشتقاق ظاهرة؛ لأنك إذا توسطت له؛ صرت معه شفيعًا تشفعه.

والشفاعة تنقسم إلى قسمين: شفاعة باطلة، وشفاعة صحيحة.

- فالشافعة الباطلة: ما يتعلق به المشركون في أصنامهم؛ حيث يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاء لهم عند الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

لكن هذه الشفاعة باطلة لا تنفع؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

- والشفاعة الصحيحة ما جمعت شروطًا ثلاثة:

الأول: رضا الله عن الشافع.

الثاني: رضاه عن المشفوع له، لكن الشفاعة العظمى في الموقف عامة لجميع الناس من رضي الله عنهم ومن لم يرض عنهم.

الثالث: إذنه في الشفاعة.

والإذن لا يكون إلا بعد الرضا عن الشفاعة والمشفوع له.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]، ولم يقل: عن الشافع، ولا: المشفوع له؛ ليكون أشمل.

(1) مسلم (٢/ ٥٨٥، ٥٨٦) (٨٥٥).

....

وقال تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه : ١٠٩] .

وقال سبحانه : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء : ٢٨] .

فالآية الأولى تضمنت الشروط الثلاثة ، والثانية : تضمنت شرطين ، والثالثة تضمنت شرطًا واحدًا .

فللنبى ﷺ ثلاث شفاعات :

١ - الشفاعة العظمى .

٢ - الشفاعة لأهل الجنة ليدخلوا الجنة .

٣ - الشفاعة فيمن استحق النار ألا يدخلها ، وفيمن دخلها أن يخرج منها .

❁ قال الشيخ الفوزان :

قوله : (وله ﷺ فى القيامة ثلاث شفاعاتٍ) . الشفاعات جمع شفاعةٍ ، والشفاعة لغةً : الوسيلة .

وعرفًا : سؤال الخير للغير ، مشتقة من الشفع الذى هو ضد الوتر ، فكأن الشافع ضم سؤاله إلى سؤال المشفوع له بعد أن كان منفردًا .

وقول الشيخ رحمه اللَّه : (وله ﷺ فى القيامة ثلاث شفاعاتٍ) . بيان للشفاعات التى يقوم بها النبى ﷺ فى يوم القيامة بإذن اللَّه تعالى .

هكذا ذكر الشيخ رحمه اللَّه أنواع الشفاعة هنا مختصرةً ، وهى على سبيل الاستقصاء ثمانية أنواعٍ ، منها ما هو خاصٌّ بالنبى ﷺ ، ومنها ما هو مشترك بينه وبين غيره .

❁ قال الشيخ هراس :

وأما قوله : (وله ﷺ فى القيامة ثلاث شفاعات) : فأصل الشفاعة من قولنا : شفع كذا بكذا إذا ضمه إليه ، ويسمى الشافع شافعًا ؛ لأنه يضم طلبه ورجاءه إلى طلب المشفوع له .

والشفاعة من الأمور التى ثبتت بالكتاب والسنة ، وأحاديثها متواترة ، قال تعالى : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، ففى الشفاعة بلا إذن إثبات للشفاعة من بعد الإذن ، قال تعالى عن الملائكة : ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم : ٢٦] ، فبيّن اللَّه الشفاعة الصحيحة وهى التى تكون

الموقفِ حتى يُقْضَى بينَهم[(١)] بعدَ أن يَتَرَاجَعَ الأنبياءُ ؛ آدمُ ونوحٌ وإبراهيمُ وموسى وعيسى ابنُ مريمَ عن الشفاعةِ[(٢)]، ....

بإذنه ولمن يرتضى قوله وعمله .

وأما ما يتمسك به الخوارج والمعتزلة فى نفى الشفاعة من مثل قوله : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ﴾ [المدثر : ٤٨] ، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ﴾ [البقرة : ١٢٣] ، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ﴾ [الشعراء : ١٠٠] إلخ . فإن الشفاعة المنفية هنا هى الشفاعة فى أهل الشرك ، وكذلك الشفاعة الشركية التى يثبتها المشركون لأصنامهم ويثبتها النصارى للمسيح والرهبان ، وهى التى تكون بغير إذن الله ورضاه .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « حتى يقضى بينهم » . (حتى) هذه تعليلية ، وليست غائية ؛ لأن شفاعة الرسول ﷺ تنتهى قبل أن يقضى بين الناس ؛ فإنه إذا شفع ؛ نزل الله عز وجل للقضاء بين عباده وقضى بينهم .

ونظيرها قوله تعالى : ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ [المنافقون : ٧] . فإن قوله : ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ . للتعليل ؛ أى : من أجل أن ينفضوا ، وليست للغاية ؛ لأن المعنى يفسد ذلك .

✽ قال الشيخ الفوزان :

الشفاعة الأولى : الشفاعة العظمى ، وهى المقام المحمود ، وهى أن يشفع النبى ﷺ أن يقضى الله سبحانه بين عباده ، بعد طول الموقف عليهم ، وبعد مراجعتهم الأنبياء للقيام بها ، فيقوم بها نبينا ﷺ بعد إذن ربه .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

أى : يردها كل واحد منهم إلى الآخر .

شرح هذه الجملة ما رواه البخارى ومسلم[(1)] عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : « أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون فيم ذلك ؟ يجمع الله الناس الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، يَسمعهم الداعى ، ويَنفُذهم البصر ، وتدنو منهم الشمس ، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس : ألا ترون ما قد بلغكم ؟

---

(1) أخرجه البخارى (٣٣٤٠) ، ومسلم (١٩٤) .

....

ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعضهم لبعض : عليكم بآدم ! فيأتونه ، فيقولون له : أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول : إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهانى عن الشجرة ، فعصيته ؛ نفسى نفسى نفسى ! اذهبوا إلى نوح ! فيأتون نوحًا ، فيقولون : يا نوح ! إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سماك الله عبدًا شكورًا ؛ اشفع لنا إلى ربك ؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول كما قال آدم فى غضب الله ، وإنه قد كانت لى دعوة دعوتها على قومى ؛ اذهبوا إلى إبراهيم ! فيأتون إبراهيم ، فيقولون : يا إبراهيم ! أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض ؛ اشفع لنا إلى ربك ؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول كما قال آدم فى غضب الله ، وإنى قد كذبت ثلاث كذبات ؛ اذهبوا إلى موسى ! فيأتون موسى ، فيقولون : يا موسى ! أنت رسول الله ، فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس ؛ اشفع لنا إلى ربك ؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول كما قال آدم فى غضب الله ، وإنى قد قتلت نفسًا لم أومر بقتلها ؛ اذهبوا إلى عيسى فيأتون عيسى ، فيقولون : يا عيسى ! أنت رسول الله وكلمته إلى مريم وروح منه وكلمت الناس فى المهد صبيًّا ؛ اشفع لنا إلى ربك ؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول كما قال آدم فى غضب الله ، ولم يذكر ذنبًا ، وكلهم يقول كما قال آدم : نفسى نفسى نفسى ! اذهبوا إلى محمد ! فيأتون محمدًا ﷺ ، فيقولون : يا محمد أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؛ اشفع لنا إلى ربك ؛ ألا ترى ما نحن فيه ؟ فأنطلق ، فآتى تحت العرش ، فأقع ساجدًا لربى عز وجل ، ثم يفتح الله علىَّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلى ، ثم يقال : يا محمد ! ارفع رأسك ؛ سل تعطه ، واشفع تشفع . . . .» وذكر تمام الحديث .

والكذبات الثلاث التى ذكرها إبراهيم عليه السلام فُسِّرت بما رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه ؛ قال : لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات ؛ اثنتين منهن فى ذات الله : قوله : ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ ، وقوله : ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ ، وذكر قوله عن امرأته سارة : إنها أختى[1] .

---

(1) أخرجه البخارى (٣٣٥٨) ، ومسلم (٢٣٧١) .

حتى تَنْتَهِيَ إليه(١).

وفى « صحيح مسلم » فى حديث الشفاعة السابق أن الثالثة قوله فى الكوكب ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، ولم يذكر قصة سارة.

لكن قال ابن حجر فى « الفتح » : « الذى يظهر أنها وَهْمٌ من بعض الرُّواة » . وعلل لذلك .

وإنما سمى إبراهيم عليه السلام هذه كذبات ؛ تواضعًا منه ؛ لأنها بحسب مراده صدق مطابق للواقع ؛ فهى من باب التورية . والله أعلم .

✽ قال الشيخ هراس :

وأما قوله : (وأما الشفاعة الأولى فيشفع أهل الموقف حتى يقضى بينهم) : فهذه هى الشفاعة العظمى وهى المقام المحمود الذى يغبطه به النبيون ، والذى وعده الله أن يبعثه إياه بقوله : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء : ٧٩] ، يعنى : يحمده عليه أهل الموقف جميعًا ، وقد أمرنا نبينا ﷺ إذا سمعنا النداء أن نقول بعد الصلاة عليه : « اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آتِ محمدًا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقامًا محمودًا الذى وعدته » .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

أى : إلى الرسول ﷺ، وسبق فى الحديث ما يكون بعد ذلك .

وهذه الشفاعة العظمى لا تكون لأحد أبدًا إلا للرسول عليه الصلاة والسلام ، وهى أعظم الشفاعات ؛ لأن فيها إراحة الناس من هذا الموقف العظيم والكرب والغم .

وهؤلاء الرسل الذين ذكروا فى حديث الشفاعة كلهم من أولى العزم ، وقد ذكرهم الله تعالى فى موضعين من القرآن : فى سورة « الأحزاب » ، وفى سورة « الشورى » .

أما فى سورة الأحزاب ؛ ففى قوله تعالى : ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ [الأحزاب : ٧] .

وأما فى سورة « الشورى » ؛ فقوله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى : ١٣] .

تنبيه :

قوله : « الأنبياء ؛ آدم ونوح . . . . » إلى آخره . جزم المؤلف رحمه الله بأن آدم نبى ، وهو كذلك ؛ لأن الله تعالى أوحى إليه بشرع أمره ونهاه .

وروى ابن حبان فى « صحيحه » : أن أبا ذر سأل النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم : هل

وأمَّا الشفاعةُ الثانيةُ فيَشْفَعُ فى أهلِ الجنةِ أن يَدْخُلوا الجنةَ(١)، وهاتان

كان آدم نبيًّا ؟ قال : « نعم » .

فيكون آدم أول الأنبياء الموحى إليهم ، وأما أول الرسل ؛ فنوح ؛ كما هو صريح فى حديث الشفاعة وظاهر القرآن فى قوله تعالى : ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]. وقوله : ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ [الحديد: ٢٦].

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

وذلك أن أهل الجنة إذا عبروا الصراط ؛ وقفوا على قنطرة ، فيقتص لبعضهم من بعض ، وهذا القصاص غير القصاص الذى كان فى عَرَصات القيامة ، بل هو قصاص أخص ، يطهر اللّه فيه القلوب ، ويزيل ما فيها من أحقاد وضغائن ؛ فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا ؛ أذن لهم فى دخول الجنة .

ولكنهم إذا أتوا إلى الجنة ؛ لا يجدونها مفتوحة كما يجد ذلك أهل النار ؛ فلا تفتح الأبواب ، حتى يشفع النبى ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوها ، فيدخل كل الناس من باب العمل الذى يكون أكثر اجتهادًا فيه من غيره ، وإلا ؛ فإن المسلم قد يدعى من كل الأبواب .

وهذه الشفاعة يشير إليها القرآن ؛ لأن اللّه قال فى أهل الجنة : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]. وهذا يدل أن هناك شيئًا بين وصولهم إليها وبين فتح الأبواب .

وهو صريح فيما رواه مسلم[1] عن حذيفة وأبى هريرة رضى اللّه عنهما ؛ قالا : قال رسول اللّه ﷺ : « يجمع اللّه تبارك وتعالى الناس ، فيقوم المؤمنون حتى تُزلف لهم الجنة ، فيأتون آدم ، فيقولون : يا أبانا ! استفتح لنا الجنة . . . . » وذكر الحديث . وفيه : « فيأتون محمدًا ، فيقوم فيؤذن له . . . » الحديث .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

الشفاعة الثانية : شفاعته فى دخول أهل الجنة الجنة بعد الفراغ من الحساب .

❁ **قال الشيخ هراس :**

وأما قوله : (وأما الشفاعة الثانية فيشفع فى أهل الجنة أن يدخلوا الجنة) : يعنى أنهم وقد

---

(1) أخرجه مسلم (١٩٥) .

الشفاعتان (١) خاصَّتان له (٢).

استحقوا دخول الجنة لا يؤذن لهم بدخولها إلا بعد الشفاعة.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

يعنى: الشفاعة فى أهل الموقف أن يقضى بينهم، والشفاعة فى دخول الجنة.

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين:

أى: للنبى محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولذلك يعتذر عنهما آدم وأولو العزم من الرسل.

وهناك أيضًا شفاعة ثالثة خاصة بالنبى ﷺ، لا تكون لغيره، وهى الشفاعة فى عمه أبى طالب، وأبو طالب - كما فى «الصحيحين»[1] وغيرهما - مات على الكفر. فأعمام الرسول عليه الصلاة والسلام عشرة، أدرك الإسلام منهم أربعة؛ فبقى اثنان على الكفر وأسلم اثنان:

- فالكافران هما: أبو لهب: وقد أساء إلى النبى ﷺ إساءة عظيمة، وأنزل الله تعالى فيه وفى امرأته حمَّالة الحطب سورة كاملة فى ذمهما ووعيدهما.

والثانى: أبو طالب، وقد أحسن إلى الرسول عليه الصلاة والسلام إحسانًا كبيرًا مشهورًا، وكان من حكمة الله عز وجل أن بقى على كفره؛ لأنه لولا كُفره؛ ما استطاع الدفاع عن الرسول عليه الصلاة والسلام، بل كان يؤذَى كما يؤذَى الرسول عليه الصلاة والسلام، لكن بجاهه العظيم عند قريش وبقائه على دينهم صاروا يعظِّمونه وصار للنبى عليه الصلاة والسلام جانب من الحماية بذلك.

- واللذان أسلما هما العباس وحمزة، وهو أفضل من العباس، حتى لقبه الرسول عليه الصلاة والسلام أسد الله، وقتل شهيدًا فى أُحدٍ رضى الله عنه وأرضاه، وسماه النبى ﷺ سيد الشهداء.

فأبو طالب أذن الله لرسوله ﷺ أن يشفع فيه، مع أنه كافر، فيكون هذا مخصوصًا من قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، ولكنها شفاعة لم تخرجه من النار، بل كان فى ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلى منه دماغه؛ قال الرسول عليه الصلاة والسلام:

---

(1) أخرجه البخارى (٣٨٨٥)، ومسلم (٢١٠).

....

« ولولا أنا ؛ لكان فى الدرك الأسفل من النار »[1] ، وليس هذا من أجل شخصية أبى طالب ، لكن من أجل ما حصل من دفاعه عن النبى ﷺ وعن أصحابه .

✽ قال الشيخ الفوزان :

الشفاعة الثالثة : شفاعته ﷺ فى عمه أبى طالبٍ أن يخفف عنه العذاب ، وهذه خاصة به ؛ لأن اللّٰه أخبر أن الكافرين لا تنفعهم شفاعة الشافعين ، ونبينا أخبر أن شفاعته لأهل التوحيد خاصةً .

فشفاعته لعمه أبى طالبٍ خاصة به ، وخاصة لأبى طالبٍ .

هذه الأنواع الثلاثة من الشفاعة خاصة بنبينا محمدٍ ﷺ .

الشفاعة الرابعة : شفاعته فيمن استحق النار من عصاة الموحدين ألَّا يدخلها .

الشفاعة الخامسة : شفاعته ﷺ فيمن دخل النار من عصاة الموحدين أن يخرج منها .

الشفاعة السادسة : شفاعته فى رفع درجات بعض أهل الجنة .

الشفاعة السابعة : شفاعته ﷺ فيمن استوت حسناتهم وسيائهم أن يدخلوا الجنة ، وهم أهل الأعراف على قولٍ .

الشفاعة الثامنة : شفاعته ﷺ فى دخول بعض المؤمنين الجنة ، بلا حسابٍ ، ولا عذابٍ ، كشفاعته ﷺ فى عكاشة بن محصنٍ رضى اللّٰه عنه حيث دعا له النبى ﷺ أن يكون من السبعين الألف الذين يدخلون الجنة بلا حسابٍ ، ولا عذابٍ .

وهذه الأنواع الخمسة الباقية يشاركه فيها غيره من الأنبياء والملائكة والصديقين والشهداء .

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بهذه الشفاعات كلها لثبوت أدلتها ، وأنها لا تتحقق إلا بشرطين :

الشرط الأول : إذن اللّٰه للشافع أن يشفع ، كما قال تعالى : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ [يونس : ٣] .

الشرط الثانى : رضا اللّٰه عن المشفوع له ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء : ٢٨] . ويجمع الشرطين قوله تعالى : ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِى

---

(1) أخرجه البخارى (٣٨٨٣) ، ومسلم (٢٠٩) .

وأمَّا الشفاعةُ الثالثةُ فيَشْفَعُ فيمَن اسْتَحَقَّ النارَ ، وهذه الشفاعةُ له ولسائرِ النبيِّين والصِّدِّيقِين وغيرِهم ، فيَشْفَعُ فيمَن اسْتَحَقَّ النارَ أن لا يَدْخُلَها ، ويَشْفَعُ فيمَن دخَلَها أن يُخْرَجَ منها(١) .

شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم : ٢٦] .

وقد خالفت المعتزلة فى الشفاعة لأهل الكبائر من المؤمنين فيمن استحق النار منهم أن لا يدخلها ، وفيمن دخلها أن يخرج منها ؛ أى : فى النوع الخامس والسادس من أنواع الشفاعة .

ويحتجون بقوله تعالى : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر : ٤٨] والجواب عنها : أنها واردة فى حق الكفار ، فهم الذين لا تنفعهم شفاعة الشافعين ، أما المؤمنون فتنفعهم الشفاعة بشروطها .

هذا وقد انقسم الناس فى أمر الشفاعة إلى ثلاثة أصنافٍ .

الصنف الأول : غلوا فى إثباتها ، وهم النصارى ، والمشركون ، وغلاة الصوفية والقبوريون ، حيث جعلوا شفاعة من يعظمونه عند اللَّه كالشفاعة المعروفة فى الدنيا عند الملوك ، فطلبوها من دون اللَّه ، كما ذكر اللَّه عن المشركين .

الصنف الثانى : وهم المعتزلة والخوارج غلوا فى نفى الشفاعة ، فأنكروا شفاعة النبى ﷺ ، وشفاعة غيره فى أهل الكبائر .

الصنف الثالث : وهم أهل السنة والجماعة أثبتوا الشفاعة على وفق ما جاءت به النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ، فأثبتوا الشفاعة بشروطها .

(٥٢، ٥٣) قال الشيخ هراس :

وأما قوله : (وهاتان الشفاعتان خاصتان له) : يعنى الشفاعة فى أهل الموقف والشفاعة فى أهل الجنة أن يدخولها ، وتنضم إليهما ثالثة وهى شفاعة فى تخفيف العذاب عن بعض المشركين كما فى شفاعته لعمه أبى طالب ، فيكون فى ضحضاحٍ من نار . كما ورد بذلك الحديث .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « وأما الشفاعة الثالثة ، فيشفع فيمن استحق النار »(1) ؛ أى : من عصاة المؤمنين .

وهذه لها صورتان : يشفع فيمن استحق النار ألَّا يدخلها ، وفيمن دخلها أن يخرج منها .

---

(1) أخرجه مسلم (٩٢٠) .

إخراجُ بعضِ العُصاةِ مِن النارِ برحمةِ اللَّهِ ، بغيرِ شفاعةٍ ، واتساعُ الجنةِ عن أهلِها:
ويُخْرِجُ اللَّهُ تعالى مِن النارِ أقوامًا بغيرِ شفاعةٍ ، بل بفضلِه ورحمتِه(١)، ......

- أما فيمن دخلها أن يخرج منها ؛ فالأحاديث في هذا كثيرة جدًّا ، بل متواترة .

- وأما فيمن استحقها ألَّا يدخلها ؛ فهذه قد تستفاد من دعاء الرسول ﷺ للمؤمنين بالمغفرة والرحمة على جنائزهم ؛ فإنه من لازم ذلك أن لا يدخل النار ؛ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : « اللهم اغفر لأبي سلمة ، وارفع درجته في المهديين . . . » الحديث[1].

لكن هذه الشفاعة في الدنيا ؛ كما في قوله صلى اللَّه عليه وآله وسلم : « ما من رجل مسلم يموت ، فيقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يشركون باللَّه شيئًا ؛ إلا شفعهم اللَّه فيه »[2].

وهذه الشفاعة ينكرها من أهل البدع طائفتان ؛ المعتزلة والخوارج ؛ لأن المعتزلة والخوارج مذهبهما في فاعل الكبيرة أنه مخلَّد في نار جهنم ، فيرون من زنى كمن أشرك باللَّه ؛ لا تنفعه الشفاعة ، ولن يأذن اللَّه لأحد بالشفاعة له .

وقولهم مردود بما تواترت به الأحاديث في ذلك .

قوله : « وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم » . فيشفع فيمن استحق النار ألَّا يدخلها ، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها ، يعني : أنها ليست خاصة بالنبي ﷺ ، بل تكون للنبيين ؛ حيث يشفعون في عصاة قومهم ، وللصديقين يشفعون في عصاة أقاربهم وغيرهم من المؤمنين ، وكذلك تكون لغيرهم من الصالحين ، حتى يشفع الرجل في أهله وفي جيرانه وفيما أشبه ذلك .

✽ قال الشيخ هراس :

وأما قوله : (وأما الشفاعة الثالثة فيشفع في من استحق النار) : وهذه هي الشفاعة التي ينكرها الخوارج والمعتزلة ، فإن مذهبهم أن من استحق النار لابد أن يدخلها ومن دخلها لا يخرج منها لا بشافعة ولا بغيرها ، والأحاديث المستفيضة المتواترة ترد على زعمهم وتبطله .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

يعني : أن اللَّه تعالى يخرج من عصاة المؤمنين من شاء بغير شفاعة ، وهذا من نعمته ؛ فإن

---

(1) أخرجه مسلم (٩٤٨) .

(2) أخرجه مسلم (٩٤٨) .

ويَبْقَى فى الجنةِ فَضْلٌ عمَّن دخَلَها مِن أهلِ الدنيا ، فيُنْشِئُ اللَّهُ لها أقوامًا ، فيُدْخِلُهم الجنة(١) .

رحمته سبقت غضبه ، فيشفع الأنبياء والصالحون والملائكة وغيرهم ، حتى لا يبقى إلا رحمة أرحم الراحمين ، فيخرج من النار من يخرج بدون شفاعة ، حتى لا يبقى فى النار إلا أهلها الذين هم أصحاب النار ، فقد روى الشيخان البخارى ومسلم من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ : « أن اللَّه تعالى يقول : شفعت الملائكة ، وشفع النبيون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار ، فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط ، قد عادوا حممًا . . . » الحديث[1] .

*** قال الشيخ الفوزان :**

٩ـ لما ذكر الشيخ رحمه اللَّه أن من أنواع الشفاعات التى تقع بإذن اللَّه الشفاعة بإخراج بعض من دخلوا النار منها ، ذكر هنا أن الخروج من النار له سبب آخر غير الشفاعة ، وهو رحمة اللَّه سبحانه وفضله وإحسانه .

فيخرج من النار من عصاة الموحدين من فى قلبه أدنى مثقال حبةٍ من إيمانٍ ، قال اللـه تعالـى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء : ٤٨] .

وفى الحديث المتفق عليه : « يقول اللَّه : شفعت الملائكة ، وشفع النبيون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضةً من النار ، فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط »[2] الحديث .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الأمر الثانى عشر مما يكون يوم القيامة :

وهو ما ذكره المؤلف بقوله : « ويبقى فى الجنة فضل عمن دخلها من أهل الدنيا » .

الجنة عرضها السماوات والأرض ، وهذه الجنة التى عرضها السماوات والأرض يدخلها أهلها ، ولكن لا تمتلئ .

وقد تكفل اللَّه عز وجل للجنة وللنار لكل واحدة ملؤها :

---

(1) أخرجه مسلم (١٨٣) .

(2) رواه البخارى (٧٤٣٩) ، ومسلم (١/١٧٠) (١٨٣) من حديث أبى سعيد الخدرى ، واللفظ لمسلم .

وأصنافُ(١) ما تضَمَّنَتْه الدارُ الآخرةُ ....

- « فالنار لا تزال يلقى فيها وهى تقول : هل من مزيد ؟ فلا تمتلئ ، فيضع الله عز وجل عليها قدمه ، فينزوى بعضها إلى بعض ، وتقول : قط قط »[1].

- وأما الجنة ؛ فينشئ لها أقوامًا ، فيدخلون الجنة بفضل الله ورحمته :

- ثبت ذلك فى « الصحيحين » من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهذا مقتضى قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] ، وقول النبى عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه سبحانه وتعالى : « إن رحمتى سبقت غضبي »[2].

ولهذا قال المؤلف : « فينشئ الله لها أقوامًا ، فيدخلهم الجنة » .

❋ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (ويبقى فى الجنة فضل) ؛ أى : متسع .

(عمن دخلها من أهل الدنيا) لأن الله وصفها بالسّعة ، فقال : ﴿ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] .

(فينشئ الله) ؛ أى : يخلق ويوجد (أقوامًا) ؛ أى : جماعاتٍ .

(فيدخلهم الجنة) بفضله ورحمته ؛ لأن الجنة رحمته يرحم بها من يشاء ، وأما النار فلا يعذب فيها إلا من قامت عليه حجته ، وكذب رسله .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الأصناف : الأنواع .

❋ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة .. إلخ) لما ذكر رحمه الله ما ذكر من أحوال اليوم الآخر ، وما يجرى فيه أحال على الكتاب والسنة فى معرفة تفاصيل البقية مما لم يذكره ؛ لأن ذلك من علم الغيب الذى لا يعرف إلا من طريق الوحى .

---

(1) أخرجه البخارى (٧٣٨٤) .

(2) أخرجه البخارى (٧٤٢٢) ، ومسلم (٢٧٥١) .

مِن الحسابِ [١] والثوابِ [٢] والعقابِ [٣] والجنةِ [٤] ....

✽ **قال الشيخ هراس :**

وأما قوله : (وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب) إلخ : فاعلم أن أصل الجزاء على الأعمال خيرها ، وشرها ثابت بالعقل كما هو ثابت بالسمع ، وقد نبه الله العقول إلى ذلك فى مواضع كثيرة من كتابه مثل قوله تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون : ١١٥] ، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة : ٣٦] ، فإنه لا يليق فى حكمة الحكيم أن يترك الناس سدًى مهملين ، لا يؤمرون ولا ينهون ، ولا يثابون ولا يعاقبون ، كما لا يليق بعدله وحكمته أن يسوى بين المؤمن والكافر والبر والفاجر ، كما قال تعالى : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص : ٢٨] . فإن العقول الصحيحة تأبى ذلك وتنكره أشد الإنكار .

وكذلك نبههم الله على ذلك بما وقعه من أيامه فى الدنيا من إكرام الطائعين ، وخذلان الطاغين ، وأما تفاصيل الأجزية ومقاديرها فلا يدرك إلا بالسمع ، والنقول الصحيحة عن المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

سبق معنى الحساب .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الثواب : جزاء الحسنات ؛ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة .

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

العقاب : جزاء السيئات ومن جاء بالسيئة ؛ فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون .

(٤) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الجنة : هى الدار التى أعدها الله تعالى لأوليائه ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؛ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة : ١٧] ؛ أى : لا تعلم حقيقته وكنهه .

والجنة موجودة الآن ؛ لقوله تعالى : ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ، والأحاديث فى هذا المعنى متواترة .

والنارِ[(١)] ، وتفاصيلُ ذلك مذكورٌ فى الكتبِ المُنَزَّلةِ مِن السماءِ[(٢)] ، والآثارِ مِن العلمِ المأثورِ عن الأنبياءِ[(٣)] .

ولا تزال باقية أبد الآبدين ؛ لقوله تعالى : ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود : ١٠٨] ، وقوله : ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ ؛ فى آيات متعددة .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

النار : هى الدار التى أعدَّها اللَّه تعالى لأعدائه ، وفيها من أنواع العذابِ والعقاب ما لا يطاق .

وهى موجودة الآن ؛ لقوله تعالى : ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٣١] ، والأحاديث فى هذا المعنى مستفيضة مشهورة .

وأهلها خالدون فيها أبدًا ؛ لقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب : ٦٤، ٦٥] .

وقد ذكر اللَّه خلودهم أبدًا فى ثلاث آيات من القرآن ؛ هذه أحدها ، والثانية فى آخر سورة « النساء » ، والثالثة فى سورة « الجن » ، وهى ظاهرة فى أن النار لا تزال باقية أبد الآبدين .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

يعنى : مثل التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى وغيرها من الكتب المنزلة ؛ فقد ذكر فيها مبينًا مفصلًا لحاجة الناس ، بل ضرورتهم إلى بيانه وتفصيله ؛ إذ لا يمكنهم الاستقامة إلا بالإيمان باليوم الآخر الذى يجازى فيه كل عامل بما عمل من خير وشر .

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين :

اعلم أن العلم المأثور عن الأنبياء قسمان :

القسم الأول : قسم ثبت بالوحى ، وهو ما ذكر فى القرآن والسنة الصحيحة ، وهذا لاشك فى قبوله واعتقاد مدلوله .

القسم الثانى : قسم أتى عن طريق النقل غير الوحى ، وهذا هو الذى دخل فيه الكذب والتحريف والتبديل والتغيير .

ولهذا لابد من أن يكون الإنسان حذرًا مما ينقل بهذه الطريقة عن الأنبياء السابقين ، حتى

وفى العلمِ الموروثِ عن محمدٍ ﷺ مِن ذلك ما يَشْفِي ويَكْفِي(١) ،

قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « إذا حدثكم أهل الكتاب ؛ فلا تصدِّقوهم ولا تكذِّبوهم ، قولوا : آمنا بما أُنزل إلينا وما أُنزل إليكم »[1] ؛ لأنك إن صدقت ؛ قد تصدق بباطل ، وإن كذبته ؛ قد تكذب بحق ؛ فلا تصدق ولا تكذب ؛ قل : إن كان هذا من عند اللّه ؛ فقد آمنت به .

وقد قسم العلماء ما أثر عمن سبق ثلاثة أقسام :

الأول : ما شهد شرعنا بصدقه .

الثانى : ما شهد شرعنا بكذبه .

والحكم فى هذين واضح .

الثالث : ما لم يحكم بصدقه ولا كذبه .

فهذا مما يجب فيه التوقف ؛ لا يصدَّق ولا يكذَّب .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

العلم الموروث عن محمد صلوات اللّه وسلامه عليه سواء فى كتاب اللّه أو فى سنة رسول اللّه ﷺ فيه من ذلك ما يشفى ويكفى .

فلا حاجة إلى أن نبحث عن مواعظ ترقق القلوب من غير الكتاب والسنة ، بل نحن فى غنى عن هذا كله ؛ ففى العلم الموروث عن محمد رسول اللّه ﷺ ما يشفى ويكفى فى كل أبواب العلم والإيمان .

ثم المنسوب إلى رسول اللّه ﷺ فى باب الوعظ والفضائل ترغيبًا أو ترهيبًا ينقسم إلى ثلاثة أقسام : صحيح مقبول ، وضعيف ، وموضوع ؛ فليس كله صحيحًا مقبولًا ، ونحن فى غنى عن الضعيف والموضوع .

- الموضوع اتفق العلماء رحمهم اللّه على أنه لا يجوز ذكره ونشره بين الناس ؛ لا فى باب الفضائل والترغيب والترهيب ، ولا فى غيره ؛ إلا من ذكره ليبين حاله .

- والضعيف اختلف فيه العلماء ، والذين قالوا بجواز نشره ونقله اشترطوا ثلاثة شروط :

الشرط الأول : ألَّا يكون الضعف شديدًا .

الشرط الثانى : أن يكون أصل العمل الذى رتب عليه الثواب أو العقاب ثابتًا بدليل صحيح .

---

(1) أخرجه البخارى (٤٤٨٥) .

فمَن ابتغاه وجَدَه[١] .

* * *

الشرط الثالث : ألَّا يعتقد أن النبى ﷺ قاله ، بل يكون مترددًا غير جازم ، لكنه راج فى باب الترغيب ، خائفٌ فى باب الترهيب .

أما صيغة عرضه ؛ فلا يقول : قال رسول اللَّه ﷺ . بل يقول : روى عن رسول اللَّه ، أو ذكر عنه . . . . وما أشبه ذلك .

فإن كنت فى عوام لا يفرقون بين : ذكر وقيل وقال ؛ فلا تأت به أبدًا ؛ لأن العامى يعتقد أن الرسول عليه الصلاة والسلام قاله ؛ فما قيل فى المحراب ؛ فهو عنده الصواب !

تنبيه :

هذا الباب - أى : باب اليوم الآخر وأشراط الساعة - ذكرت فيه أحاديث كثيرة فيها ضعف وفيها وضع ، وأكثر ما تكون هذه فى كتب الرقائق والمواعظ ؛ فلذلك يجب التحرر منها ، وأن نحذِّر العامة الذين يقع فى أيديهم مثل هذه الكتب ..

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قوله : « فمن ابتغاه » ؛ أى : طلبه : « وجده » .

وهذا صحيح ؛ فالقرآن بين أيدينا ، وكتب الأحاديث بين أيدينا ، لكنها تحتاج إلى تنقيح وبيان الصحيح منها والضعيف ، حتى يبنى الناس ما يعتقدون فى هذا الباب على أساس سليم .

* * *

الإيمانُ بالقَدَرِ وبيانُ ما يَتَضَمَّنُه

فصلٌ :

وتُؤْمِنُ الفرقةُ الناجيةُ ؛ أهلُ السنةِ والجماعةِ[1] بِالقَدَرِ[2] ....

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

فصل : فى الإيمان بالقدر .

« الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة » : سبق تعريفها والكلام عنها فى أول الكتاب .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

القدَرُ فى اللغة ؛ بمعنى : التقدير ؛ قال تعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر : ٤٩] . وقال تعالى : ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات : ٢٣] .

- وأما القضاء ؛ فهو فى اللغة : الحكم .

ولهذا نقول : إن القضاء والقدر متباينان إن اجتمعا ، ومترادفان إن تفرّقا ؛ على حد قول العلماء : هما كلمتان : إن اجتمعتا افترقتا ، وإن افترقتا اجتمعتا .

فإذا قيل :هذا قدر اللّٰه ؛ فهو شامل للقضاء ، أما إذا ذكرا جميعًا ؛ فلكل واحد منهما معنى .

- فالتقدير :هو ما قدره اللّٰه تعالى فى الأزل أن يكون فى خلقه .

- وأما القضاء ؛ فهو ما قضى به اللّٰه سبحانه وتعالى فى خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير ، وعلى هذا يكون التقدير سابقًا .

فإن قال قائل :متى ؟ قلنا : إن القضاء هو ما يقضيه اللّٰه سبحانه وتعالى فى خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير ، وإن القدر سابق عليه إذا اجتمعا ؛ فإن هذا يعارض قوله تعالى : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان : ٢] . فإن هذه الآية ظاهرها أن التقدير بعد الخلق ؟

فالجواب على ذلك من أحد وجهين :

- إما أن نقول :إن هذا من باب الترتيب الذكرى لا المعنوى ، وإنما قدم الخلق على التقدير لتتناسب رءوس الآيات .

ألم تر إلى أن موسى أفضل من هارون ، لكن قدم هارون عليه فى سورة « طه » فى قوله تعالى عن السحرة : ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه : ٧٠] ؛ لتتناسب رءوس الآيات .

....

وهذا لا يدل على أن المتأخر فى اللفظ متأخر فى الرتبة .

- أو نقول : إن التقدير هنا بمعنى التسوية ؛ أى خلقه على قدر معين ؛ كقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى : ٢] ؛ فيكون التقدير بمعنى التسوية .

وهذا المعنى أقرب من الأول ؛ لأنه يطابق تمامًا لقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ ؛ فلا إشكال .

والإيمان بالقدر واجب ، ومرتبته فى الدين أنه أحد أركان الإيمان الستة ؛ كما قال النبى عليه الصلاة والسلام لجبريل حين قال : ما الإيمان ؟ قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره »[1] .

وللإيمان بالقدر فوائد ؛ منها :

أولًا : أنه من تمام الإيمان ، ولا يتم الإيمان إلا بذلك .

ثانيًا : أنه من تمام الإيمان بالربوبية ؛ لأن قدر الله من أفعاله .

ثالثًا : رد الإنسان أموره إلى ربه ؛ لأنه إذا علم أن كل شىء بقضائه وقدره ؛ فإنه سيرجع إلى الله فى دفع الضراء ورفعها ، ويضيف السراء إلى الله ، ويعرف أنها من فضل الله عليه .

رابعًا : أن الإنسان يعرف قدر نفسه ، ولا يفخر إذا فعل الخير .

خامسًا : يهوِّنُ المصائب على العبد ؛ لأن الإنسان إذا علم أنها من عند الله ؛ هانت عليه المصيبة ؛ كما قال تعالى : ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن : ١١] . قال علقمة رحمه الله : « هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم أنها من عند الله ، فيرضى ويسلِّم » .

سادسًا : إضافة النعم إلى مُسديها ؛ لأنك إذا لم تؤمن بالقدر ؛ أضفت النعم إلى من باشر الإنعام ، وهذا يوجد كثيرًا فى الذين يتزلفون إلى الملوك والأمراء والوزراء ؛ فإذا أصابوا منهم ما يريدون ؛ جعلوا الفضل إليهم ، ونسوا فضل الخالق سبحانه .

صحيح أنه يجب على الإنسان أن يشكر الناس ؛ لقول النبى عليه الصلاة والسلام : « من صنع إليكم معروفًا ؛ فكافئوه »[2] . ولكن يعلم أن الأصل كل الأصل هو فضل الله عز وجل جعله

---

(1) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(2) صححه الألبانى فى « صحيح الجامع » (٦٠٢١) .

خيرِه وشرِّه (١).

على يد هذا الرجل .

سابعًا : أن الإنسان يعرف به حكمة الله عز وجل ؛ لأنه إذا نظر فى هذا الكون وما يحدث فيه من تغييرات باهرة ؛ عرف بهذا حكمة الله عز وجل ؛ بخلاف من نسى القضاء والقدر ؛ فإنه لا يستفيد هذه الفائدة .

✽ قال الشيخ الفوزان :

القدر : مصدر قدرت الشىء ، إذا أحطت بمقداره . والمراد به هنا تعلق علم الله بالكائنات ، وإرادته لها أزلًا قبل وجودها ، فلا حادث إلا وقد قدره الله ؛ أى : سبق علمه به ، وتعلقت به إرادته .

والإيمان بالقدر هو أحد أركان الإيمان الستة ، وهو الإيمان بالقدر ؛ خيره وشره .

✽ قال الشيخ هراس :

والإيمان بالقدر خيره وشره من الله تبارك وتعالى أحد الأركان الستة التى يدور عليها فلك الإيمان كما دل عليه حديث جبريل وغيره ، وكما دلت عليه الآيات الصريحة من كتاب الله عزَّ وجلَّ .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الخير : ما يلائم طبيعة الإنسان ؛ بحيث يحصل له به خير أو ارتياح وسرور ، وكل ذلك من الله عز وجل .

- والشر فى القدر : ما لا يلائم طبيعة الإنسان ؛ بحيث يحصل له به أذية أو ضرر .

ولكن ؛ إن قيل : كيف يقال : إن فى قدر الله شرًا ؛ وقد قال النبى ﷺ : « الشر ليس إليه » ؟[1].

فالجواب على ذلك أن يقال : الشر فى القدر ليس باعتبار تقدير الله له ، لكنه باعتبار المقدور له ؛ لأن لدينا قدرًا هو التقدير ومقدورًا ؛ كما أن هناك خلقًا ومخلوقًا وإرادة ومرادًا ؛ فباعتبار تقدير الله له ليس بشرٍّ ، بل هو خير ، حتى وإن كان لا يلائم الإنسان ويؤذيه ويضره ، لكن باعتبار المقدور ؛ فنقول : المقدور إما خيرٌ وإما شر ؛ فالقدر خيره وشره يراد به المقدور خيره وشره .

---

(1) أخرجه مسلم (٧٧١) .

....

ونضرب لهذا مثلًا فى قوله تعالى : ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الروم : ٤١] .

ففى هذه الآية بين اللَّه عز وجل ما حدث من الفساد وسببه والغاية منه ؛ فالفساد شرٌّ ، وسببه عمل الإنسان السيئ ، والغاية منه : ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

فكون الفساد يظهر فى البر والبحر فيه حكمة ؛ فهو نفسه شر ، لكن لحكمة عظيمة ، بها يكون تقديره خيرًا .

كذلك المعاصى والكفر شر ، وهو من تقدير اللَّه ، لكن لحكمةٍ عظيمة ، لولا ذلك لبطلت الشرائع ، ولولا ذلك لكان خلق الناس عبثًا .

والإيمان بالقدر خيره وشره لا يتضمن الإمان بكل مقدور ، بل المقدور ينقسم إلى كونى وإلى شرعى :

- فالمقدور الكونى : إذا قدر اللَّه عليك مكروهًا ؛ فلابد أن يقع ؛ رضيت أم أبيت .
- والمقدور الشرعى : قد يفعله الإنسان وقد لا يفعله ، ولكن باعتبار الرضى به [و]فيه تفصيل :

إن كان طاعة للَّه ؛ وجب الرضى به ، وإن كان معصية ؛ وجب سخطه وكراهته والقضاء عليه ؛ كما قال اللَّه عز وجل : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

وعلى هذا ؛ يجب علينا الإيمان بالمقضى كله ؛ من حيث كونه قضاء للَّه عز وجل ، أما من حيث كونه مقضيًا ؛ فقد نرضى به وقد لا نرضى ؛ فلو وقع الكفر من شخص فلا نرضى بالكفر منه ، لكن نرضى بكون اللَّه أوقعه .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وفى قول الشيخ رحمه اللَّه : (وتؤمن الفرقة الناجية - أهل السنة والجماعة - بالقدر خيره وشره) إشارة إلى أن من لم يؤمن بالقدر فليس من أهل السنة والجماعة .

وهذا هو مقتضى النصوص ، كما فى حديث جبريل حين سأل النبى ﷺ عن الإيمان ، فقال : « الإيمان أن تؤمن باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر ؛ خيره وشره » .

فصلٌ :

والإيمانُ بالقَدَرِ على دَرَجَتَيْن ، كلُّ درجةٍ تَتَضَمَّنُ شيئين[١] :

تفصيلُ مَراتبِ القَدَرِ

الدرجةُ الأُولى وما تَتَضَمَّنُه :

فجعل ﷺ الإيمان بالقدر سادس أركان الإيمان ، فمن أنكره فليس بمؤمنٍ ، كما لو لم يؤمن بغيره من أركان الإيمان .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

فصل : فى درجات الإيمان بالقدر

إنما قسم المؤلف هذا التقسيم من أجل الخلاف ؛ لأن الخلاف فى القدر ليس شاملًا لكل مراتبه ، وباب القدر من أشكال أبواب العلم والدين على الإنسان ، وقد كان النزاع فيه من عهد الصحابة رضى اللَّه عنهم ، لكنه ليس مشكلًا لمن أراد الحق .

❊ **قال الشيخ الفوزان :**

وقوله : (والإيمان بالقدر على درجتين . . . إلخ) وذكر الشيخ رحمه اللَّه هنا أن الإيمان يشتمل على أربع مراتب هى إجمالًا ، كما يلى :

الأولى : علم اللَّه الأزلى بكل شيء ، ومن ذلك علمه بأعمال العباد قبل أن يعملوها .

الثانية : كتابة ذلك فى اللوح المحفوظ .

الثالثة : مشيئته الشاملة وقدرته التامة لكل حادثٍ .

الرابعة : إيجاد اللَّه لكل المخلوقات ، وأنه الخالق ، وما سواه مخلوق .

هذا مجمل مراتب القدر ، وإليك بيانها بالتفصيل .

❊ **قال الشيخ هراس :**

وقد ذكر المؤلف هنا أن الإيمان بالقدر على درجتين ، وأن كلًّا منهما تتضمن شيئين ، فالدرجة الأولى تتضمن أولًا الإيمان بعلمه القديم المحيط بجميع الأشياء ، وأنه تعالى علم بهذا العلم القديم الموصوف به أزلًا وأبدًا كل ما سيعمله الخلق فيما لا يزال وعلم به جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصى والأرزاق والآجال ، فكل ما يوجد من أعيان وأوصاف ويقع من أفعال وأحداث فهو مطابق لما علمه للَّه عزَّ وجلَّ أزلًا .

فالدرجةُ الأولى : الإيمانُ بأنَّ اللَّهَ تعالى عَلِم ما الخلقُ عامِلون [(١)] بعلمِه القديمِ [(٢)]، ....

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قوله : « فالدرجة الأولى : الإيمان بأن الله علم ما الخلق عاملون » : ولم يذكر المؤلف أن الله علم ما يفعله هو ؛ لأن هذه المسألة ليس فيها خلاف ، إنما ذكر ما فيه الخلاف ، وهو : هل الله يعلم ما الخلق عاملون أو لا يعلمه إلا بعد وقوعه منهم ؟

ومذهب السلف والأئمة أن الله تعالى عالم بذلك .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

القديم في اصطلاحهم : هو الذي لا أول لابتدائه ؛ أي أنه لم يزل فيما مضى من الأزمنة التي لا نهاية لها عالمًا بما يعمله الخلق ؛ بخلاف القديم في اللغة ؛ فقد يراد به ما كان قديمًا نسبيًا ؛ كما في قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس : ٣٩] . ومعلوم أن عرجون النخلة ليس بقديم أزلي ، بل قديم بالنسبة لما بعده .

فالله تعالى موصوف بأنه عالم بما الخلق عاملون بعلمه القديم الأزلي ، الذي لا نهاية لأوله ، عالم جل وعلا بأن هذا الإنسان سيعمل كذا في يوم كذا في مكان كذا بعلمه القديم الأولي ؛ فيجب أن نؤمن بذلك :

ودليل ذلك من الكتاب والسنة والعقل :

أما الكتاب ؛ فما أكثر الآيات التي فيها العموم في علم الله ؛ مثل : ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء : ٣٢] ، [وقوله] ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر : ٧] ، ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق : ١٢] ... إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى كثرة .

- أما في السنة فإن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر بأن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وبأن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن الأقلام قد جفت وطُويت الصحف ... والأحاديث في هذا كثيرة .

- وأما العقل ؛ فإن من المعلوم بالعقل أن الله تعالى هو الخالق ، وأن ما سواه مخلوق ، ولابد عقلًا أن يكون الخالق عالمًا بمخلوقه ، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ

الذى هو موصوفٌ به أزلًا وأبدًا(١)، وعَلِم جميعَ أحوالِهم مِن الطاعاتِ والمعاصِى والأرزاقِ والآجالِ(٢)، ....

ﱡﭐﭑﭒﱠ [الملك: ١٤].

فالكتاب والسنة والعقل كلها تدل على أن اللَّه تعالى عالم بما الخلق عاملون بعلمه الأولى.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

قوله: «الذى هو موصوف به أزلًا وأبدًا»: ففى كونه موصوفًا به أزلًا نفى للجهل، وفى كونه موصوفًا به أبدًا نفى النسيان.

ولهذا كان علم اللَّه عز وجل غير مسبوق بجهل ولا ملحوق بنسيان؛ كما قال موسى عليه الصلاة والسلام لفرعون: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]؛ بخلاف علم المخلوق المسبوق بالجهل والملحوق بالنسيان.

إذن؛ يجب علينا أن نؤمن بأن اللَّه عالم بما الخلق عاملون بعلم سابق موصوف به أزلًا وأبدًا.

❁ **قال الشيخ الفوزان:**

قوله: (أزلًا) الأزل القدم الذى لا بداية له.

وقوله: (أبدًا) الأبد هو الدوام فى المستقبل، الذى لا نهاية له.

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

دليل ذلك ما ثبت فى «الصحيحين» عن عبد اللَّه بن مسعود رضى اللَّه عنه؛ قال: حدثنا رسول اللَّه ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه . . .» وذكر أطوار الجنين، وفيه: «ثم يبعث اللَّه ملكًا، فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله وشقى أم سعيد . . .» وذكر تمام الحديث[1]. فاللَّه عالم بذلك قبل أن يخلق الإنسان.

فطاعتنا معلومة للَّه، ومعاصينا معلومة للَّه، وأرزاقنا معلومة له، وآجالنا معلومة له، إذا مات الإنسان بسبب أو بغير سبب معلوم؛ فإنه للَّه معلوم، ولا يخفى عليه؛ بخلاف علم الإنسان بأجله؛ فإنه لا يعرف أجله؛ فلا يعرف أين يموت، ولا متى يموت، ولا يعرف بأى سبب يموت، ولا يعرف على أى حال يموت؛ نسأل اللَّه تعالى حسن الخاتمة.

وهذا هو الشىء الأول من الدرجة الأولى.

---

(1) أخرجه البخارى (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

ثم كتَب اللَّهُ فى اللوحِ المحفوظِ مقاديرَ الخلقِ(١)، ....

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

و(الطاعات) جمع طاعةٍ ، وهى موافقة الأمر ، و(المعاصى) جمع معصيةٍ ، وهى مخالفة الأمر ، و(الأرزاق) جمع رزقٍ ، وهو ما ينفع ، و(الآجال) جمع أجلٍ ، وهو مدة الشىء .

وأجل الإنسان نهاية وقته فى الدنيا بالموت .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هذا الشىء الثانى من الدرجة الأولى ، وهو أن اللَّه كتب فى اللوح المحفوظ مقادير الخلق .

اللوح المحفوظ : لا نعرف ماهيته ؛ من أى شىء ؛ أمن خشب ، أم من حديد ، أم من ذهب ، أم من فضة ، أم من زمرد ؟ فاللَّه أعلم بذلك ؛ إنما نؤمن بأن هناك لوحًا كتب اللَّه فيه مقادير كل شىء ، وليس لنا الحق فى أن نبحث وراء ذلك ، لكن لو جاء فى الكتاب والسنة ما يدلنا على شىء ؛ فالواجب أن نعتقده .

ووصف بكونه محفوظًا ؛ لأنه محفوظ من أيدى الخلق ؛ فلا يمكن أن يلحق أحد به شيئًا أو يغير به شيئًا أبدًا .

ثانيًا : محفوظ من التغيير ؛ فاللَّه عز وجل لا يغير فيه شيئًا ؛ لأنه كتبه عن علم منه ؛ كما سيذكره المؤلف ، ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه اللَّه : « إن المكتوب فى اللوح المحفوظ لا يتغير أبدًا » ، وإنما يحصل التغيير فى الكتب التى بأيدى الملائكة .

قوله : « مقادير الخلق » ؛ أى : مقادير المخلوقات كلها ، وظاهر النصوص أنه شمل ما يفعله الإنسان ، وما يفعله البهائم ، وأنه عام وشامل .

ولكن ؛ هل هذه الكتابة إجمالية أو تفصيلية ؟

قد نقول : إننا لا نجزم بأنها تفصيلية أو إجمالية .

فمثلًا : القرآن الكريم : هل هو مكتوب فى اللوح المحفوظ بهذه الآيات والحروف أو أن المكتوب فى اللوح ذكره وأنه سينزل على محمد ﷺ وأنه سيكون نورًا وهدًى للناس ، وما أشبه ذلك ؟

ففيه احتمال : إن نظرنا إلى ظاهر النصوص ؛ قلنا : إن ظاهرها أن القرآن كله مكتوب جملة وتفصيلًا ، وإن نظرنا إلى أن اللَّه سبحانه وتعالى يتكلم بالقرآن حين نزوله ؛ قلنا : إن الذى كتب فى اللوح المحفوظ ذكر القرآن ، ولا يلزم من كون ذكره فى اللوح المحفوظ أن يكون قد كتب فيه ؛

....

كما قال الله تعالى عن القرآن : ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦] ؛ يعني : كتب الأولين ، ومعلوم أن القرآن لم يوجد نصه في الكتب السابقة ، وإنما وجد ذكره ، ويمكن أن نقول مثلها في قوله تعالى : ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢] ؛ أي : ذكره في هذا اللوح .

فالمهم أن نؤمن بأن مقادير الخلق مكتوبة في اللوح المحفوظ ، وأن هذا اللوح لا يتغير ما كتب فيه ؛ لأن الله أمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة .

✽ قال الشيخ الفوزان :

و(اللوح المحفوظ) وهو أم الكتاب (محفوظ) من الزيادة والنقصان فيه .

ذكر الشيخ هنا ما تتضمنه الدرجة الأولى من درجتي الإيمان بالقدر ، وأنها تتضمن شيئين ؛ أي مرتبتين .

المرتبة الأولى : الإيمان بعلم الله المحيط بكل شيء من الموجودات والمعدومات ، هذا العلم الذي هو صفة من صفاته تعالى الذاتية ، التي لا يزال متصفًا بها أزلًا وأبدًا ، ومن ذلك علمه بأعمال الخلق من الطاعات والمعاصي ، وعلمه بأحوالهم من الأرزاق والآجال وغيرها .

المرتبة الثانية : مرتبة الكتابة ، وهي أن الله كتب في اللوح المحفوظ مقادير الخلق ، فما يحدث شيء في الكون إلا وقد علمه الله ، وكتبه قبل حدوثه .

ثم استدل الشيخ رحمه الله على ذلك بأدلةٍ من الكتاب والسنة ؛

✽ قال الشيخ هراس :

ثانيًا : إن الله كتب ذلك كله وسجله في اللوح المحفوظ ، فما علم الله كونه ووقوعه من مقادير الخلائق وأصناف الموجودات وما يتبع ذلك من الأحوال والأوصاف والأفعال ودقيق الأمور جليلها قد أمر القلم بكتابته كما قال ﷺ : « قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » . وكما قال في الحديث الذي ذكره المؤلف : « إن[1] أول ما خلق الله القلم ، قال له : اكتب . قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو

(1) ليس في نص « الواسطية ذكر لفظ « أن » أول رواية هذا الحديث التي ذكرها ، ثم إن قول المؤلف : « وأول » هنا بالنصب على الظرفية يتنافى مع وجود « أن » أولها إذ لو كان موجودًا لكان نصب « أول » به لا على الظرفية » . « إسماعيل الأنصاري » .

فأولُ ما خلَق اللَّهُ القلمُ ، قال له : اكْتُبْ ، قال : ما أَكْتُبُ[١]؟ قال[٢]: ....

كائن إلى يوم القيامة ».

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « فأول ما خلق اللَّه القلم ؛ قال له : اكتب ». فأمره أن يكتب ؛ مع أن القلم جماد . فكيف يوجه الخطاب إلى الجماد ؟ !

والجواب عن ذلك : أن الجماد بالنسبة إلى اللَّه عاقل يصح أن يوجه إليه الخطاب : قال اللَّه تعالى : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت : ١١] ؛ فوجه الخطاب إليهما ، وذكر جوابهما ، وكان الجواب بجمع العقلاء طائعين دون طائعات .

وقال تعالى : ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء : ٦٩] ؛ فكانت كذلك .

وقال تعالى : ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ : ١٠] ؛ فكانت الجبال تؤوب معه .

والحاصل أن اللَّه أمر القلم أن يكتب ، وقد امتثل القلم ، لكنه أشكل عليه ماذا يكتب ؛ لأن الأمر مجمل ، فقال : « ما أكتب ؟ » ؛ أى : أى شيء أكتب ؟

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

أى : اللَّه .

✽ قال الشيخ الفوزان :

فمن أدلة السنة على ذلك الحديث الذى ذكر الشيخ معناه ، ولفظه كما رواه أبو داود فى سننه ، عن عبادة بن الصامت رضى اللَّه عنه قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « أول ما خلق اللَّه القلم فقال له : اكتب . قال : وما أكتب ؟ قال[1] : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة »[2] .

فهذا الحديث يدل على مرتبة الكتابة وأن المقادير كلها مكتوبة .

وقوله : « أول ما خلق اللَّه القلم قال له : اكتب ». روى بنصب (أول) و(القلم) على أن الكلام جملة واحدة ، ومعناه : أنه عند أول خلقه القلم قال له : اكتب .

---

(1) أي اللَّه عزَّ وجلَّ .

(2) رواه أحمد (٥/٣١٧) ، وأبو داود (٤٧٠٠) ، والترمذى (٢١٥٥) ، وقال الألبانى فى « صحيح الجامع » (٢١٠٨) : صحيح .

اكْتُبْ ما هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ (١).

فما أصاب الإنسانَ لم يَكُنْ لِيُخْطِئَه ، وما أَخْطَأَه لم يَكُنْ لِيُصِيبَه (٢)،

وروى برفع (أول) و (القلم) على أن الكلام جملتان ، الأولى : « أول ما خلق الله القلم » ، و« قال له اكتب » جملة ثانية ، فيكون المعنى أن أول المخلوقات من هذا العالم القلم .

❁ قال الشيخ هراس :

و(أول) هنا بالنصب على الظرفية ، والعامل فيه : قال أى له ذلك أول ما خلقه ، وقد روى بالرفع على أنه مبتدأ خبره القلم ، ولهذا اختلف العلماء فى العرش والقلم أيهما خلق أولًا . وحكى العلّامة ابن القيم فى ذلك قولين ، واختار أن العرش مخلوق قبل القلم . قال فى « النونية » :

وَالنَّاسُ مختَلِفُونَ فِى القَلَمِ الَّذِي ... كُتِبَ القَضَاءُ بِهِ مِنَ الدَّيَّانِ

هَلْ كَانَ قَبلَ العَرْشِ أَو هُوَ بَعدَهُ ... قَولَانِ عِندَ أَبِى العَلَا الهَمَدانِي

وَالحَقُّ أَنَّ العَرشَ قَبلُ لأَنَّهُ ... وَقتَ الكِتَابَةِ كَانَ ذَا أَركَانِ

وَكِتَابَةُ القَلَمِ الشَّرِيفِ تَعَقَّبَتْ ... إِيجَادَهُ مِنْ غَيرِ فَصلِ زَمَانِ

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

« اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة » : فكتب القلم بأمر الله ما هو كائن إلى يوم القيامة .

فانظر كيف علم القلم ماذا يكون إلى يوم القيامة ، فكتبه ؛ لأن أمر الله عز وجل لا يرد .

وقوله : « ما هو كائن إلى يوم القيامة » : يشمل ما كان من فعل الله تعالى وما كان من أفعال الخلق .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

إذا آمنت بهذه الجملة ؛ اطمأننت : ما أصاب الإنسان ؛ لم يكن ليخطئه أبدًا .

ومعنى « ما أصاب » . يحتمل أن المعنى : ما قدر أن يصيبه ؛ فإنه لن يخطئه ، ويحتمل أن ما أصابه بالفعل لا يمكن أن يخطئه ، حتى لو تمنى الإنسان ، وهما معنيان صحيحان لا يتنافيان .

وما أخطأه لم يكن ليصيبه أى : ما قدر أن يخطئه فإنه لم يكن ليصيبه ، أو المعنى : ما أخطأه بالفعل ، لأنه معروف أنه غير صائب ، ولو تمنى الإنسان ، وهما معنيان صحيحان لا يتنافيان .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه إلخ) . من كلام عبادة بن الصامت راوى

جَفَّت الأَقلامُ[١]، وطُوِيَت الصُّحُفُ[٢].

الحديث ؛ أى : ما يصب الإنسان مما ينفعه أو يضره فهو مقدر عليه ، لابد أن يقع به ، ولا يقع به خلافه .

✽ **قال الشيخ هراس :**

وإذا كان القلم قد جرى بكل ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فكل ما يقع من كائنات وأحداث فهو مطابق لما كتب فيه ، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، كما جاء فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما وغيره .

وهذا التقدير التابع للعلم القديم تارة يكون جملة كما فى اللوح المحفوظ ، فإن فيه مقادير كل شيء ، ويكون فى مواضع تفصيلًا يخص كل فرد كما فى الكلمات الأربع التى يؤمر الملك بكتابتها عند نفخ الروح فى الجنين ؛ يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد ، فهذا تقدير خاص ، وهذا التقدير السابق على وجود الأشياء قد كان ينكره غلاة القدرية قديمًا مثل معبد الجهنى ، وغيلان الدمشقى ، وكانوا يقولون : إن الأمر أنف . ومنكر هذه الدرجة من القدر كافر ؛ لأنه أنكر معلومًا من الدين بالضرورة قد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

« الأقلام » . هى أقلام القدر التى كتب الله بها المقادير ؛ جفت وانتهت .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

وطويت الصحف ، وهذا كناية عن أن الأمر انتهى .

وفى « صحيح مسلم »[1] عن جابر رضى الله عنه ؛ قال : جاء سُراقة بن مالك بن جعشم ؛ قال : يا رسول الله ، بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن : فيم العمل اليوم ؛ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ؟ أم فيما نستقبل ؟ قال : « لا ؛ بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير » . قال : ففيم العمل ؟ قال : « اعملوا ؛ فكل ميسر » .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

وقوله : (جفت الأقلام وطويت الصحف) . كناية عن سبق كتابة المقادير والفراغ منها ، وهو معنى ما جاء فى حديث ابن عباسٍ : « رفعت الأقلام ، وجفت الصحف » . رواه الترمذى .

---

(1) أخرجه مسلم (٢٦٤٨) .

كما(١) قال سبحانه وتعالى : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ(٢) أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ(٣) إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ(٤) إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ(٥)﴾ [الحج : ٧٠] .

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

« كما » : الكاف فى مثل هذا التعبير للتعليل .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ : أيها المخاطب .

✵ **قال الشيخ الفوزان :**

ثم ذكر الشيخ من أدلة القرآن قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ .

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الاستفهام للتقرير ؛ أى : قد علمت يا محمد ، وتيقنت .

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ . وهذا عام ؛ علم لما فيهما من أعيان وأوصاف وأعمال وأحوال .

✵ **قال الشيخ الفوزان :**

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فيه إحاطة علمه بالعالم العلوى والعالم السفلى ، وهذه مرتبة العلم .

(٤) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ . وهو اللوح المحفوظ .

✵ **قال الشيخ الفوزان :**

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ ؛ أى : الذى فى السماء والأرض من معلوماته .

﴿فِى كِتَٰبٍ﴾؛ أى : مكتوب عنده فى أم الكتاب ، وهذه مرتبة الكتابة .

(٥) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ . أى : الكتابة على الله أمر يسير .

✵ **قال الشيخ الفوزان :**

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ؛ أى : أن إحاطة علمه بما فى السماء والأرض ، وكتابته ، يسير عليه .

وقال: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ(١) وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ(٢) إِلَّا فِي كِتَابٍ(٣) مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا(٤) إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

والشاهد من الآية الكريمة: أن فيها إثبات علم الله بالأشياء وكتابتها فى اللوح المحفوظ، وهذا هو ما تتضمنه الدرجة الأولى.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾. كالجدب والزلازل والفيضانات وغيرها.

✲ قال الشيخ الفوزان:

واستدل الشيخ أيضًا بقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من قحط مطرٍ، وضعف نباتٍ، ونقص ثمارٍ.

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾. كالمرض والأوبئة المهلكة وغير ذلك.

✲ قال الشيخ الفوزان:

﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ بالآلام والأسقام وضيق العيش.

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾. وهو اللوح المحفوظ.

✲ قال الشيخ الفوزان:

﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾؛ أى: إلا وهى مكتوبة فى اللوح المحفوظ.

(٤) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

﴿نَّبْرَأَهَآ﴾. أى: من قبل أن نخلقها، والضمير فى ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾: يحتمل أن يعود على المصيبة، ويحتمل أن يعود على الأنفس، ويحتمل أن يعود على الأرض، والكل صحيح؛ فالمصيبة قد كتبت قبل أن يخلقها الله عز وجل، وقبل أن يخلق النفس المصابة، وقبل أن يخلق الأرض.

وفى «صحيح مسلم»[1] عن عبد الله بن عمرو؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب الله

---

[1] أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

وهذا التقديرُ التابعُ لعلمِه سبحانَه يكونُ فى مواضعَ جملةً وتفصيلًا ، فقد كتَب فى اللوحِ المحفوظِ ما شاء ، وإذا خلَق جسدَ الجنينِ قبلَ نَفْخِ الرُّوحِ فيه بعَث إليه مَلكًا ، فيُؤْمَرُ بأربعِ كلماتٍ ، فيقالُ له : اكْتُبْ رزقَه وأجَلَه وعملَه وشَقِيٌّ أو سَعِيدٌ ، ونحوَ ذلك (١)، ....

مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة . قال : وكان عرشه على الماء » .

✽ قال الشيخ الفوزان :

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ ؛ أى : قبل أن نخلقها ونوجدها .

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ أى : أن إثباتها فى الكتاب على كثرتها يسير على الله سبحانه .

والشاهد من الآية الكريمة :أن فيها دليلًا على كتابة الحوادث فى اللوح المحفوظ قبل وقوعها ، ويتضمن ذلك علمه بها قبل الكتابة ، فهى دليل على مرتبتى العلم والكتابة .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « فى مواضع » ؛ مواضع غير اللوح المحفوظ .

ثم بين هذه المواضع بقوله : « فقد كتب فى اللوح المحفوظ ما شاء . وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه ؛ بعث إليه ملكًا ، فيؤمر بأربع كلمات ، فيقال له : اكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد ونحو ذلك » .

فهذان موضعان :

الأول : اللوح المحفوظ ، وسبق دليل ذلك وتفصيل القول فيه .

والثانى : الكتابة العمرية التى تكون للجنين فى بطن أمه ، وسبق دليلها فى حديث ابن مسعود رضى الله عنه .

والموضع الثالث : ما أشار إليه بقوله : « ونحو ذلك » ، وهو التقدير الحولى الذى يكون فى ليلة القدر ؛ فإن ليلة القدر يكتب فيها ما يكون فى تلك السنة ؛ كما قال تعالى : ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان : ٤، ٥] .

فهذا التقديرُ قد كان يُنْكِرُه غُلاةُ القَدَرِيةِ قديمًا ، ومُنْكِروه اليومَ قليلٌ[(١)].

* قال الشيخ الفوزان :

ثم بعد ذلك أشار الشيخ رحمه الله إلى أن التقدير نوعان .

تقدير عامٌّ شامل لكل كائنٍ ، وهو الذى تقدم الكلام عليه بأدلته ، وهو المكتوب فى اللوح المحفوظ .

وتقدير خاصٌّ ، وهو تفصيل للقدر العام ، وهو ثلاثة أنواعٍ :

تقدير عمرىٌّ ، وتقدير حولىٌّ ، وتقدير يومى .

هذا معنى قول الشيخ : (وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون فى مواضع جملةً) ؛ أى : تقديرًا عامًّا ، وهو المكتوب فى اللوح المحفوظ ، يعم جميع المخلوقات .

(وتفصيلًا) ؛ أى : تقديرًا خاصًّا مفصلًا للتقدير العام ، وهو :

١- التقدير العمرى ، كما فى حديث ابن مسعودٍ فى شأن ما يكتب على الجنين فى بطن أمه من أربع الكلمات : رزقه وأجله وعمله ، وشقاوته أو سعادته .

٢- تقدير حولىٌّ ، وهو ما يقدر فى ليلة القدر من وقائع العام ، كما فى قوله تعالى : ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان : ٤] .

٣- تقدير يومىٌّ ، وهو ما يقدر من حوادث اليوم من حياةٍ وموتٍ ، وعزٍّ وذلٍّ ، إلى غير ذلك . كما فى قوله تعالى : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن : ٢٩] .

وعن ابن عباسٍ رضى الله عنهما : إن الله خلق لوحًا محفوظًا من درةٍ بيضاء ، دفتاه من ياقوتةٍ حمراء ، قلمه نور ، وكتابته نور ، عرضه ما بين السماء والأرض ، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائةٍ وستين نظرةً ، يحيى ويميت ، ويعز ويذل ، ويفعل ما يشاء ، فكذلك قوله سبحانه : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ . رواه عبد الرزاق ، وابن المنذر ، والطبرانى ، والحاكم[(1)] .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

« هذا التقدير » . يعنى : العلم والكتابة ، وينكره غلاة القدرية قديمًا ، ويقولون : إن الله لا يعلم أفعال العبد إلا بعد وجودها ، وأنها لم تكتب ، ويقولون : إن الأمر أنف ؛ أى : مستأنف ،

---

(1) رواه ابن جرير (٢٧/٣٥) ، والحاكم (٢/٥١٩) ، وقال الألبانى فى تحقيق « شرح الطحاوية » حاشية (٢٧٠) : ضعيف .

الدرجةُ الثانيةُ ، وما تتضمنُه :

وأما الدرجةُ الثانيةُ(١): فهي مشيئةُ اللَّهِ النافذةُ وقدرتُه الشاملةُ ، وهو الإيمانُ بأنَّ ما شاء اللَّهُ كان ، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ ، وأنه ما فى السماواتِ وما فى الأرضِ مِن حركةٍ ، ولا سكونٍ إلا بمشيئةِ اللَّهِ سبحانَه(٢)، ....

لكن متأخروهم أقروا بالعلم والكتابة ، وأنكروا المشيئة والخلق ، وهذا بالنسبة لأفعال المخلوقين .

أما بالنسبة لأفعال اللّه ؛ فلا أحد ينكر أن اللّه عالم بها قبل وقوعها .

وهؤلاء الذين ينكرون علم اللّه بأفعال العبد حكمهم فى الشرع أنهم كفار ؛ لأنهم كذبوا قول اللّه تعالى : ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، وغيرها من الآيات ، وخالفوا المعلوم بالضرورة من الدين .

✿ **قال الشيخ الفوزان :**

وقوله : (فهذا التقدير) ؛ أى : الذى سبق بيانه بنوعيه العام والخاص (قد كان ينكره غلاة القدرية) ؛ أى : المبالغون فى نفى القدر ، فينكرون علم اللّه بالأشياء قبل وجودها ، وكتابته لها فى اللوح المحفوظ وغيره ، ويقولون : إن اللّه أمر ونهى ، وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه ، فالأمر أنف ؛ أى : مستأنف ، لم يسبق فى علم اللّه وتقديره .

وهؤلاء كفرهم الأئمة ، لكنهم انقرضوا ، ولهذا قال الشيخ : (ومنكروه اليوم قليل) وبقيت الفرقة التى تقر بالعلم ، ولكن تنفى دخول أفعال العباد فى القدر ، وتزعم أنها مخلوقة لهم استقلالًا ، لم يخلقها اللّه ، ولم يردها ، كما يأتى بيانه .

(١ ، ٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

يعنى : من درجات الإيمان بالقدر .

يعنى : أن تؤمن بأن مشيئة اللّه نافذة فى كل شىء ، سواء كان مما يتعلق بفعله أو يتعلق بأفعال المخلوقين ، وأن قدرته شاملة ، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر : ٤٤] .

وهذه الدرجة تتضمن شيئين ؛ المشيئة والخلق :

- أما المشيئة ؛ فيجب أن نؤمن بأن مشيئة اللّه تعالى نافذة فى كل شىء ، وأن قدرته شاملة لكل شىء من أفعاله وأفعال المخلوقين .

....

- وأما كونها شاملة لأفعاله ؛ فالأمر فيها ظاهر .

- وأما كونها شاملة لأفعال المخلوقين فلأن الخلق كلهم ملك لله تعالى ، ولا يكون فى ملكه إلا ما شاء .

والدليل على هذا :

قوله تعالى : ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام : ١٤٩] .

وقوله سبحانه : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود : ١١٨] .

وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

فهذه الآيات تدل على أن أفعال العباد متعلقة بمشيئة الله .

وقال تعالى : ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنبياء : ٣٠] .

وهذه تدل على أن مشيئة العبد داخلة تحت مشيئة الله وتابعة لها .

❁ قال الشيخ الفوزان :

هذا بيان للمرتبة الثالثة والمرتبة الرابعة من مراتب القدر ، أشار إلى الثالثة بقوله : (فهى مشيئة الله النافذة ، وقدرته الشاملة) والنافذة هى الماضية التى لا راد لها ، والشاملة هى العامة لكل شيء من الموجودات والمعدومات .

وقوله : (وهو الإيمان) ؛ أى : ومعنى الإيمان بهذه المرتبة اعتقاد :

(أن ما شاء الله كان) ؛ أى : وجد .

(وما لم يشأ لم يكن) ؛ أى : لم يوجد .

(وأنه ما فى السماوات من حركةٍ ، ولا سكونٍ إلا بمشيئة الله) ؛ أى : لا يحصل شىء من ذلك إلا وقد شاءه الله سبحانه .

❁ قال الشيخ هراس :

قوله : (وأما الدرجة الثانية من القدر . . .) إلخ : فهى تتضمن شيئين أيضًا :

أولهما : الإيمان بعموم مشيئته تعالى ، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا يقع فى ملكه ما لا يريد ، وأن أفعال العباد من الطاعات والمعاصى واقعة بتلك المشيئة العامة التى لا يخرج

لا يكونُ فى مُلْكِه ما لا يُرِيدُ(١).

عنها كائن سواء كان مما يحبه الله ويرضاه أم لا .

وثانيهما : الإيمان بأن جميع الأشياء واقعة بقدرة الله تعالى ، وأنها مخلوقة له لا خالق لها سواه ، لا فرق فى ذلك بين أفعال العباد وغيرها ، كما قال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات : ٩٦] .

ويجب الإيمان بالأمر الشرعى ، وأن الله تعالى كلف العباد فأمرهم بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته ، ولا منافاة أصلًا بين ما ثبت من عموم مشيئته سبحانه لجميع الأشياء وبين تكليفه العباد بما شاء من أمر ونهى ، فإن تلك المشيئة لا تنافى حرية العبد واختياره للفعل ، ولهذا جمع الله بين المشيئتين بقوله : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير : ٢٨، ٢٩] .

كما أنه لا تلازم بين تلك المشيئة وبين الأمر الشرعى المتعلق بما يحبه الله ويرضاه ، فقد يشاء الله ما لا يحبه ويحب ما لا يشاء كونه ، (فالأول) : كمشيئته وجود إبليس وجنوده . (والثانى) : كمحبة إيمان الكفار وطاعات الفجار وعدل الظالمين ، وتوبة الفاسقين ولو شاء ذلك لوجد كله ، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هذه العبارة تحتاج إلى تفصيل : لا يكون فى ملكه ما لا يريد بالإرادة الكونية ، أما بالإرادة الشرعية ؛ فيكون فى ملكه ما لا يريد .

وحينئذٍ ؛ نحتاج إلى أن نقسم الإرادة إلى قسمين : إرادة كونية ، وإرادة شرعية :

- فالإرادة الكونية بمعنى المشيئة ، ومثالها قول نوح عليه السلام لقوله : ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود : ٣٤] .

- والإرادة الشرعية بمعنى المحبة ، مثلها قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء : ٢٧] .

وتختلف الإرادتان فى موجبهما وفى متعلقهما :

- ففى المتعلق : الإرادة الكونية تتعلق فيما وقع ، سواء أحبه أم كرهه ، والإرادة الشرعية تتعلق فيما أحبه ، سواء وقع أم لم يقع .

- وفى موجبهما : الإرادة الكونية يتعين فيها وقوع المراد ، والإرادة الشرعية لا يتعين فيها

وأنه سبحانَه وتعالى على كلِّ شيءٍ قديرٌ، مِن الموجوداتِ والمعدوماتِ[1]،

وقوع المراد .

وعلى هذا يكون قول المؤلف : « ولا يكون في ملكه ما لا يريد » . يعني به : الإرادة الكونية .

فإن قال قائل : هل المعاصي مرادة لله ؟

فالجواب : أما بالإرادة الشرعية ؛ فليست مرادة له ؛ لأنه لا يحبها ، وأما بالإرادة الكونية ؛ فهي مرادة له سبحانه ؛ لأنها واقعة بمشيئته .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

(لا يكون في ملكه ما لا يريد) وقوعه كونًا وقدرًا .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

كل شيء ؛ فالله قادر عليه من الموجودات ؛ فيعدمها أو يغيرها ، ومن المعدومات ؛ فيوجدها .

فالقدرة تتعلق في الموجود بإيجاده أو إعدامه أو تغييره ، وفي المعدوم بإعدامه أو إيجاده .

فمثلًا ؛ كل موجود ؛ فالله قادر أن يعدمه ، وقادر أن يغيره ؛ أي : ينقله من حالٍ إلى حال ، وكل معدوم ؛ فالله قادر على أن يوجده ؛ مهما كان ؛ كما قال الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة : ٢٠] .

ذكر بعض العلماء استثناء من ذلك ، وقال : إلا ذاته ؛ فليس عليها بقادر ! وزعم أن العقل يدل على ذلك .

فنقول : ماذا تريد بأنه غير قادر على ذاته ؟

- إن أردت أنه غير قادر على أن يعدم نفسه أو يلحقها نقصًا ؛ فنحن نوافقك على أن الله لا يلحقه النقص أو العدم ، لكننا لا نوافقك على أن هذا مما تتعلق به القدرة ؛ لأن القدرة إنما تتعلق بالشيء الممكن ، أما الشيء الواجب أو المستحيل ؛ فهذا لا تتعلق به القدرة أصلًا ؛ لأن الواجب مستحيل العدم ، والمستحيل مستحيل الوجود .

- وإن أردت بقولك إنه غير قادر على ذاته : أنه غير قادر على أنه يفعل ما يشاء ؛ فلا يقدر أن يجيء أو نحوه ! فهذا خطأ ، بل هو قادر على ذلك ، وفاعل له ، ولو قلنا : إنه ليس بقادر على

فما من مخلوقٍ فى الأرضِ ، ولا فى السماءِ إلا اللَّهُ خالقُه سبحانَه(١)، ....

مثل هذه الأفعال ؛ لكان ذلك من أكبر النقص الممتنع على اللَّه سبحانه .

وبهذا علم أن هذا الاستدراك من عموم القدرة فى غير محله على كل تقدير .

وإنما نصَّ المؤلف على هذا ردًّا على القدرية الذين قالوا : إن اللَّه ليس بقادر على فعل العبد ، وأن العبد مستقل بعمله !

ولكن ما فى الكتاب والسنة من شمول قدرة اللَّه يرد عليهم .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(وأنه سبحانه على كل شىءٍ قدير من الموجودات والمعدومات) لدخولها تحت عموم (كل شىءٍ) فاللَّه قد أخبر فى آياتٍ كثيرةٍ أنه على كل شىءٍ قدير .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هذا صحيح بلاشك ولهذا دليل أثرى ودليل نظرى :

- أما الدليل الأثرى : فقد قال اللَّه تعالى : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر : ٦٢] .

وقال تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور : ٣٥، ٣٦] .

فلا يمكن أن يوجد شىء فى السماء والأرض إلا اللَّه خالقه وحده .

ولقد تحدى اللَّه العابدين للأصنام تحديًا أُمرنا أن نستمع له ، فقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ ، ومعلوم أن الذين يدعون من دون اللَّه فى القمة عندهم ؛ لأنهم اتخذوا أربابًا ؛ فإذا عجز هؤلاء القمة عن أن يخلقوا ذبابًا ، وهو أخس الأشياء وأهونها ؛ فما فوقه من باب أولى ، بل قال : ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج : ٧٣] ؛ فيعجزون حتى عن مدافعة الذباب وأخذ حقهم منه .

فإن قيل : كيف يسلب هذه الأصنام شيئًا ؟ !

فالجواب : قال بعض العلماء : إن هذا على سبيل الفرض ؛ يعنى : على فرض أن يسلبهم الذباب شيئًا ؛ لا يستنقذوه منه . وقال بعضهم : بل على سبيل الواقع ؛ فيقع الذباب على هذه الأصنام ، ويمتص ما فيها من أطياب ؛ فلا تستطيع الأصنام أن تخرج ما امتصه الذباب .

....

وإذا كانت عاجزةً عن الدفع عن نفسها ، واستنقاذ حقها ؛ فهى عن الدفع عن غيرها واستنقاذ حقه أعجز .

والمهم أن الله تعالى خالق كل شيء ، وأن لا خالق إلا الله ، فيجب الإيمان بعموم خلق الله عز وجل ، وأنه خالق كل شيء ، حتى أعمال العباد ؛ لقوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد : ١٦] ، وعمل الإنسان من الشيء ، وقال تعالى : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان : ٢] . . . .. والآيات فى هذا كثيرة .

وفيه آية خاصة فى الموضوع ، وهو خلق أفعال العباد :

فقال إبراهيم لقومه : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات : ٩٦] .

فـ : (ما) مصدرية ، وتقدير الكلام : خلقكم وعملكم ، وهذا نص فى أن عمل الإنسان مخلوق للّه تعالى .

فإن قيل : ألا يحتمل أن تكون (ما) اسمًا موصولًا ، ويكون المعنى : خلقكم وخلق الذى تعملونه ؟

فكيف يمكن أن نقول : إن الآية دليلًا على خلق أفعال العباد على هذا التقدير أن (ما) موصولة ؟

فالجواب : أنه إذا كان المعمول مخلوقًا للّه ؛ لزم أن يكون عمل الإنسان مخلوقًا ؛ لأن المعمول كان بعمل الإنسان ؛ فالإنسان هو الذى باشر العمل فى المعمول ؛ فإذا كان المعمول مخلوقًا للّه ، وهو فعل العبد ؛ لزم أن يكون فعل العبد مخلوق ، فيكون فى الآية دليل على خلق أفعال العباد على كلا الاحتمالين .

- وأما الدليل النظرى على أن أفعال العبد مخلوقة للّه ؛ فتقريره أن نقول : إن فعل العبد ناشئ عن أمرين : عزيمة صادقة وقدرة تامة .

مثال ذلك : أردت أن أعمل عملًا من الأعمال ؛ فلا يوجد هذا العمل حتى يكون مسبوقًا بأمرين هما :

أحدهما : العزيمة الصادقة على فعله ؛ لأنك لو لم تعزم ما فعلته .

الثانى : القدرة التامة ؛ لأنك لو لم تقدر ؛ ما فعلته ؛ فالذى خلق فيك هذه القدرة هو اللّه عز وجل ، وهو الذى أودع فيك العزيمة ، وخالق السبب التام خالق للمسبب .

لا خالقَ غيرُه(١)، ولا ربَّ سِواه(٢).

- ووجه ثان نظرى : أن نقول : الفعل وصف الفاعل ، والوصف تابع للموصوف ؛ فكما أن الإنسان بذاته مخلوق لله ؛ فأفعاله مخلوقة ؛ لأن الصفة تابعة للموصوف .

فتبين بالدليل أن عمل الإنسان مخلوق لله ، وداخل فى عموم الخلق أثريًّا ونظريًّا ، والدليل الأثرى قسمان عام وخاص ، والدليل النظرى له وجهان .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (فما من مخلوقٍ فى الأرض ، ولا فى السماء إلا الله خالقه سبحانه) . هذا فيه إشارة إلى المرتبة الرابعة ، وهى مرتبة الخلق والإيجاد ، فكل ما سوى الله فهو مخلوق ، وكل الأفعال ؛ خيرها وشرها ، صادرة عن خلقه وإحداثه لها .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « لا خالق غيره » .

إن قلت : هذا الحصر يرد عليه أن هناك خالقًا غير الله ؛ فالمصور يعد نفسه خالقًا ، بل جاء فى الحديث[1] أنه خالق : « فإن المصورين يعذبون ؛ يقال لهم : أحيوا ما خلقتم » ، وقال عز وجل : ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون : ١٤] ؛ فهناك خالق ، لكن الله تعالى هو أحسن الخالقين ؛ فما الجواب عن قول المؤلف ؟

الجواب : أن الخلق الذى ننسبه إلى الله عز وجل هو الإيجاد وتبديل الأعيان من عين لأخرى ؛ فلا أحد يوجد إلا الله عز وجل ، ولا أحد يبدل عينًا إلى عين ؛ إلا الله عز وجل ، وما قيل : إنه خلق ؛ بالنسبة للمخلوق ؛ فهو عبارة عن تحويل شىء من صفة إلى صفة ؛ فالخشبة مثلًا بدلًا من أن كانت فى الشجرة ، تحول بالنجارة إلى باب ؛ فتحويلها إلى باب يسمى خلقًا ، لكنه ليس الخلق الذى يختص به الخالق ، وهو الإيجاد من العدم ، أو تبديل العين من عين إلى أخرى .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

أى : أن الله وحده هو الرب المدبر لجميع الأمور ، وهذا حصر حقيقى .

ولكن ربما يرد عليه أنه جاء فى الأحاديث إثبات الربوبية لغير الله .

ففى لُقَطِةِ الإبل قال النبى ﷺ : « دَعْها ؛ معها سقاؤها وحِذاؤها ، ترِد الماءَ ، وتأكلُ

---

(1) أخرجه البخارى (٢١٠٥) ، ومسلم (٢١٠٧) .

١، ٢- لا تَعارُضَ بينَ القَدَرِ والشرعِ ، ولا بينَ تقديرِه للمعاصى وبغضِه لها : ومع ذلك فقد أمَرَ العبادَ بطاعتِه وطاعةِ رسلِه ، ونهاهم عن معصيتِه(١).

الشجر ، حتى يجدها ربُّها »[1] ، وربها : صاحبها .

وجاء فى بعض ألفاظ حديث جبريل ؛ يقول : « حتى تلد الأمة ربتَها »[2] .

فما هو الجمع بين هذا وبين قول المؤلف : « لا رب سواه » ؟

نقول : إن ربوبية الله عامة كاملة ؛ كل شيء ؛ فالله ربه ، لا يسأل عما يفعل فى خلقه ؛ لأن فعله كله رحمة وحكمة ، ولهذا يقدر الله عز وجل الجدب والمرض والموت والجروح فى الإنسان وفى الحيوان ، ونقول : هذا غاية الكمال والحكمة . أما ربوبية المخلوق للمخلوق ؛ فربوبية ناقصة قاصرة ، لا تتجاوز محلها ، ولا يتصرف فيها الإنسان تصرفًا تامًا ، بل تصرفه مقيد : إما بالشرع ، وإما بالعرف .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(لا خالق غيره ، ولا رب سواه) .

ولما فرغ الشيخ من ذكر مراتب القدر نبه على مسائل تتعلق بهذا الموضوع :

المسألة الأولى : أنه لا تعارض بين القدر والشرع .

المسألة الثانية : لا تعارض بين تقدير الله وقوع المعاصى ، وبغضه لها .

المسألة الثالثة : لا تعارض بين تقدير الله لأفعال العباد ، وكونهم يفعلونها باختيارهم .

لما قرر الشيخ رحمه الله القدر بمراتبه الأربع : العلم ، والكتابة ، والمشيئة ، والإرادة ، والخلق والإيجاد ، وأنه ما من شيءٍ يحدث إلا وقد علمه الله ، وكتبه ، وشاءه ، وأراده ، وأوجده بين هنا أنه لا تعارض بين ذلك وبين كونه أمر العباد بطاعته ، ونهاهم عن معصيته ، ولا بين تقديره وقوع المعصية وبغضه لها .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

يعنى : ومع عموم خلقه وربوبيته لم يترك العباد هملًا ، ولم يرفع عنهم الاختيار ، بل أمرهم بطاعته وطاعة رسله ، ونهاهم عن معصيته .

وأمره بذلك أمر ممكن ؛ فالمأمور مخلوق لله عز وجل ، وفعله مخلوق لله ، ومع ذلك ؛ يؤمر وينهى .

---

(1) أخرجه البخارى (٩١) ، ومسلم (١٧٢٢) .

(2) أخرجه مسلم (٨) .

وهو سبحانَه يُحِبُّ المُتَّقِين والمُحْسِنين والمُقْسِطِين(١)، ويَرْضَى عن الذين آمنوا

ولو كان الإنسان مجبرًا على عمله؛ لكان أمره أمرًا بغير ممكن، والله عز وجل يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. ويقول تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وهذا يدل على أنهم قادرون على فعل الطاعة، وعلى تجنب المعصية، وأنهم غير مكرهين على ذلك.

✽ قال الشيخ الفوزان:

فقوله: (ومع ذلك)؛ أى: مع كونه سبحانه هو الذى علم الأشياء، وقدرها، وكتبها، وأرادها، وأوجدها.

(فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسوله، ونهاهم عن معصيته) كما دلت على ذلك أدلة كثيرة من الكتاب والسنة أمر فيها بالطاعة، ونهى عن المعصية.

ولا تعارض فى ذلك بين شرعه وقدره، كما يظنه بعض الضلال الذين يعارضون بين الشرع والقدر.

يقول الشيخ رحمه الله فى هذا الموضوع فى رسالته التدمرية: وأهل الضلال انقسموا إلى فرقٍ؛ مجوسيةٍ، ومشركيةٍ، وإبليسيةٍ.

فالمجوسية: الذين كذبوا بقدر الله، وإن آمنوا بأمره ونهيه، فغلاتهم أنكروا العلم والكتاب، ومقتصدوهم أنكروا عموم مشيئته وخلقه وقدرته، وهؤلاء هم المعتزلة، ومن وافقهم.

والفرقة الثانية «المشركية» الذين أقروا بالقضاء والقدر، وأنكروا الأمر والنهى، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٨]، فمن احتج على تعطيل الأمر والنهى، فهو من هؤلاء.

والفرقة الثالثة، وهم الإبليسية الذين أقروا بالأمرين، لكن جعلوا هذا تناقضًا من الرب سبحانه وتعالى، وطعنوا فى حكمته وعدله، كما يذكر ذلك عن إبليس مقدمهم.

والمقصود أن هذا مما تقوله أهل الضلال، وأما أهل الهدى والفلاح فيؤمنون بهذا وهذا، ويؤمنون بأن الله خالق كل شيءٍ وربه ومليكه، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو على كل شيءٍ قدير، وأحاط بكل شيءٍ علمًا، وكل شيءٍ أحصاه فى إمامٍ مبينٍ. اهـ

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

يعنى أن الله عز وجل يحب المحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

وعمِلوا الصالحاتِ[(١)] ولا يُحِبُّ الكافرين[(٢)]، ولا يَرْضَى عن القومِ الفاسِقين[(٣)]،

[البقرة: ١٩٥]. والمتقين؛ لقوله: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧] والمقسطين؛ لقوله: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

فهو عز وجل يحب هؤلاء، ومع ذلك هو الذى قدر لهم هذا العمل الذى يحبه، فكان فعلهم محبوبًا إلى الله مرادًا له كونًا وشرعًا؛ فالمحسن قام بالواجب والمندوب، والمتقى قام بالواجب، والمقسط اتقى الجور فى المعاملة.

*** قال الشيخ الفوزان:**

وقوله: (وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين)؛ أى: يحب من اتصف بالصفات الحميدة، كالتقوى والإحسان والقسط.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

الدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧، ٨].

*** قال الشيخ الفوزان:**

(ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) كما أخبر بذلك فى آياتٍ كثيرةٍ لما اتصفوا به من الإيمان والعمل الصالح.

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله: «ولا يحب» الله عز وجل «الكافرين».

والدليل قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

مع أن الكفر واقع بمشيئته، لكن لا يلزم من وقوعه بمشيئته أن يكون محبوبًا له سبحانه وتعالى.

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين:

الدليل قوله تعالى: ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

والفاسق - وهو الخارج عن طاعة الله - قد يراد به الكافر، وقد يراد به العاصى.

- ففى قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

ولا يَأْمُرُ بالفحشاءِ(١)، ولا يَرضَى لعبادِه الكفرَ(٢)، ولا يُحِبُّ الفسادَ(٣).

ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة : ١٨- ٢٠] فالمراد بالفاسق الكافر .

وأما قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات : ٦] ؛ فالمراد بالفاسق العاصي .

فاللّٰه عز وجل لا يرضى عن القوم الفاسقين ، لا هؤلاء ولا هؤلاء ، لكن الفاسقين بمعنى الكافرين لا يرضى عنهم مطلقًا ، وأما الفاسقون بمعنى العصاة ؛ فلا يرضى عنهم فيما فسقوا فيه ، ويرضى عنهم فيما أطاعوا فيه .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(ولا يحب الكافرين ، ولا يرضى عن القوم الفاسقين) ؛ أي : لا يرضى عمن اتصف بالصفات التي يبغضها كالكفر والفسوق وسائر الصفات الذميمة .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الدليل قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ ؛ لأنهم إذا فعلوا فاحشة : ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ ؛ فاحتجوا بأمرين ، فقال اللّٰه تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ ، وسكت عن قولهم : ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ ؛ لأنه حق لا ينكر ، لكن ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ كذب ، ولهذا كذبهم وأمر نبيه أن يقول : ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف : ٢٨] ، ولم يقل : ولم يجدوا عليها آباءهم ؛ لأنهم قد وجدوا عليها آباءهم .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(ولا يأمر بالفحشاء) وهي ما تناهى قبحه من الأقوال والأفعال .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

لقوله تعالى : ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر : ٧] ، لكن يقدر أن يكفروا ، ولا يلزم من تقديره الكفر أن يكون راضيًا به سبحانه وتعالى ، بل يقدره وهو يكرهه ويسخطه .

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين :

دليل ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ

....

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

كرر المؤلف مثل هذه العبارات ليبين أنه لا يلزم من إرادته الشيء أن يكون محبوبًا له، ولا يلزم من كراهته للشيء أن لا يكون مرادًا له بالإرادة الكونية، بل هو عز وجل يكره الشيء ويريده بالإرادة الكونية، ويوقع الشيء ولا يرضى عنه، ولا يريده بالإرادة الشرعية.

فإن قلت: كيف يوقع ما لا يرضاه وما لا يحبه؟! وهل أحد يكرهه على أن يوقع ما لا يحبه ولا يرضاه؟!

فالجواب: لا أحد يكرهه على أن يوقع ما لا يحبه ولا يرضاه، وهذا الذى يقع من فعله عز وجل وهو مكروه له، هو مكروه له من وجه، محبوب له من وجه آخر؛ لما يترتب عليه من المصالح العظيمة.

فمثلًا؛ الإيمان محبوب لله، والكفر مكروه له، فأوقع الكفر وهو مكروه له لمصالح عظيمة؛ لأنه لولا وجود الكفر؛ ما عرف الإيمان، ولولا وجود الكفر؛ ما عرف الإنسان قدر نعمة الله عليه بالإيمان، ولولا وجود الكفر؛ ما قام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ لأن الناس كلهم يكونون على المعروف، ولولا وجود الكفر؛ ما قام الجهاد، ولولا وجود الكفر لكان خلق النار عبثًا؛ لأن النار مثوى الكافرين ولولا وجود الكفر؛ لكان الناس أمة واحدة، ولم يعرفوا معروفًا ولم ينكروا منكرًا، وهذا لا شك أنه مخل بالمجتمع الإنسانى، لولا وجود الكفر؛ ما عرفت ولاية الله؛ لأن من ولاية الله أن تبغض أعداء الله وأن تحب أولياء الله.

وكذلك يقال فى الصحة والمرض؛ فالصحة محبوبة للإنسان؛ وملائمة له، ورحمة الله تعالى فيها ظاهرة، لكن المرض مكروه للإنسان، وقد يكون عقوبة من الله له، ومع ذلك يوقعه؛ لما فى ذلك من المصالح العظيمة.

كم من إنسان إذا أسبغ الله عليه النعمة بالبدن والمال والولد والبيت والمركوب؛ تَرَفَّع ورأى أنه مستغن بما أنعم الله به عليه عن طاعة الله عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، وهذه مفسدة عظيمة؛ فإذا أراد الله أن يرد هذا الإنسان إلى مكانه؛ ابتلاه، حتى يرجع إلى الله، وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وأنت أيها الإنسان إذا فكرت هذا التفكير الصحيح فى تقديرات الله عز وجل؛ عرفت ما له

٣- لا تَنافِيَ بينَ إثباتِ القَدَرِ ، وإسنادِ أفعالِ العبادِ إليهم حقيقةً ، وأنهم يَفْعَلُونَها باختيارِهم :

والعبادُ فاعلون حقيقةً ، واللَّهُ خلَقَ أفعالَهم[1]، ....

سبحانه وتعالى من الحكمة فيما يقدره من خير أو شر ، وأن اللَّه سبحانه وتعالى يخلق ما يكرهه ويقدر ما يكرهه لمصالح عظيمة ؛ قد تحيط بها ، وقد لا تحيط بها ويحيط بها غيرك ، وقد لا يحيط بها لا أنت ولا غيرك .

فإن قيل : كيف يكون الشيء مكروهًا للَّه ومرادًا له ؟

فالجواب : أنه لا غرابة في ذلك ؛ فها هو الدواء المر طعمًا ، الخبيث رائحة يتناوله المريض وهو مرتاح ؛ لما يترتب عليه من مصلحة الشفاء ، وها هو الأب يمسك بابنه المريض ليكويه الطبيب ، وربما كواه هو بنفسه ، مع أنه يكره أشد الكره أن يحرق ابنه بالنار .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

(ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يحب الفساد) لقبحهما ، ولما فيهما من المضرة على العباد والبلاد .

ويريد الشيخ رحمه اللَّه بهذا الكلام الرد على من زعم أن الإرادة والمحبة بينهما تلازم ، فإذا أراد اللَّه شيئًا فقد أحبه ، وإذا شاء شيئًا فقد أحبه .

وهذا قول باطل ، والقول الحق أنه لا تلازم بين الإرادة والمحبة ، أو بين المشيئة والمحبة - أعني : الإرادة والمشيئة الكونية - فقد يشاء اللَّه ما لا يحبه ، وقد يحب ما لا يشاء وجوده .

مثال الأول : مشيئة وجود إبليس وجنوده ، ومشيئته العامة لما في الكون مع بغضه لبعضه .

ومثال الثاني : محبته لإيمان الكفار وطاعات الكفار ، ولم يشأ وجود ذلك منهم ، ولو شاءه لوجد .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هذا صحيح ؛ فالعبد هو المباشر لفعله حقيقة ، واللَّه خالق فعله حقيقة ، وهذه عقيدة أهل السنة ، وقد سبق تقريرها بالأدلة .

وخالفهم في هذا الأصل طائفتان :

الطائفة الأولى : القدرية من المعتزلة وغيرهم ؛ قالوا إن العباد فاعلون حقيقة ؛ واللَّه لم يخلق أفعالهم .

....

الطائفة الثانية : الجبرية من الجهمية وغيرهم ؛ قالوا : إن اللَّه خالق أفعالهم ، وليسوا فاعلين حقيقة ، لكن أضيف الفعل إليهم من باب التجوز ، وإلا فالفاعل حقيقة هو اللَّه .

وهذا القول يؤدى إلى القول بوحدة الوجود ، وأن الخلق هو اللَّه ، ثم يؤدى إلى قول من أبطل الباطل ؛ لأن العباد منهم الزانى ومنهم السارق ومنهم شارب الخمر ومنهم المعتدى بالظلم ؛ فحاشا أن تكون هذه الأفعال منسوبة إلى اللَّه ! ! وله لوازم باطلة أخرى .

وبهذا تبين أن فى قول المؤلف : « والعباد فاعلون حقيقة ، واللَّه خالق أفعالهم » : ردًّا على الجبرية والقدرية .

✽ قال الشيخ الفوزان :

أراد الشيخ رحمه اللَّه بهذا الكلام أن يبين أنه لا تنافى بين إثبات القدر بجميع مراتبه السابقة ، وبين كون العباد يفعلون باختيارهم ، ويعملون بإرادتهم .

وقصده بهذا الرد على من زعم أن إثبات ذلك يلزم منه التناقض ، ومن ثم ذهبت طائفة منهم إلى الغلو فى إثبات القدر ، حتى سلبوا العبد قدرته واختيـــاره .

وذهبت الطائفة الثانية إلى الغلو فى إثبات أفعال العباد واختيارهم حتى جعلوهم هم الخالقين لها ، ولا تعلق لها بمشيئة اللَّه ، ولا تدخل تحت قدرته .

ويقال للطائفة الأولى : الجبرية .لأنهم يقولون : إن العبد مجبر على ما يصدر منه ، لا اختيار له فيه .

ويقال للطائفة الثانية النفاة ؛ لأنهم ينفون القدر .

✽ قال الشيخ الفوزان :

فقول الشيخ رحمه اللَّه : (والعباد فاعلون حقيقةً) .ردٌّ على الطائفة الأولى ، وهم الجبرية ؛ لأنهم يقولون : إن العباد ليسوا فاعلين حقيقةً ، وإسناد الأفعال إليهم من باب المجاز .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (واللَّه خالق أفعالهم) .ردٌّ على الطائفة الثانية القدرية النفاة ؛ لأنهم يقولون : إن اللَّه لم يخلق أفعال العباد ، وإنما هم خلقوها استقلالًا ، دون مشيئة اللَّه ، وتقديره لها .

✽ قال الشيخ هراس :

وكذلك لا منافاة بين عموم خلقه تعالى لجميع الأشياء ، وبين كونه العبد فاعلًا لفعله ، فالعبد

....

هو الذى يوصف بفعله فهو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلى والصائم ، والله خالقه وخالق فعله ؛ لأنه هو الذى خلق فيه القدرة والإرادة اللتين بهما يفعل .

يقول العلّامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر آل سعدى ، غفر الله له وأجزل مثوبته :

(إن العبد إذا صلى وصام وفعل الخير أو عمل شيئًا من المعاصى ، كان هو الفاعل لذلك العمل الصالح ، وذلك العمل السيئ ، وفعله المذكور بلا ريب قد وقع باختياره وهو يحس ضرورة أنه غير مجبور على الفعل أو الترك وأنه لو شاء لم يفعل ، وكان هذا هو الواقع فهو الذى نص الله عليه فى كتابه ونص عليه رسوله حيث أضاف الأعمال صالحها وسيئها إلى العباد ، وأخبر أنهم الفاعلون لها وأنهم ممدوحون عليها إن كانت صالحة ومثابون ، وملومون عليها إن كانت سيئة ومعاقبون عليها .

فقد تبين واتضح بلا ريب أنها واقعة منهم باختيارهم وأنهم إذا شاءوا فعلوا وإذا شاءوا تركوا ، وأن هذا الأمر ثابت عقلًا وحسًا وشرعًا ومشاهدة .

ومع ذلك إذا أردت أن تعرف أنها وإن كانت كذلك واقعة منهم كيف تكون داخلة فى القدر وكيف تشملها المشيئة؟ فيقال : بأى شيء وقعت هذه الأعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها ؟ فيقال : بقدرتهم وإرادتهم ، هذا يعترف به كل أحد ، فيقال : ومن خلق قدرتهم وإرادتهم ومشيئتهم؟ فالجواب : الذى يعترف به كل أحد : إن الله هو الذى خلق قدرتهم وإرادتهم ، والذى خلق ما به تقع الأفعال هو الخالق للأفعال ، فهذا هو الذى يحل الإشكال ويتمكن العبد أن يعقل بقلبه اجتماع القدر والقضاء والاختيار ، ومع ذلك فهو تعالى أمد المؤمنين بأسباب وألطاف وإعانات متنوعة وصرف عنهم الموانع كما قال ﷺ : «أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة» . وكذلك خذل الفاسقين ووكلهم إلى أنفسهم ؛ لأنهم لم يؤمنوا به ولم يتوكلوا عليه فولاهم ما تولوا لأنفسهم) . اهـ .

وخلاصة مذهب أهل السنة والجماعة فى القدر وأفعال العباد ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة من أن الله سبحانه هو الخالق لكل شيء من الأعيان والأوصاف والأفعال وغيرها ، وأن مشيئته تعالى عامة شاملة لجميع الكائنات ، فلا يقع منها شيء إلا بتلك المشيئة ، وأن خلقه

والعبدُ هو المؤمنُ والكافرُ، والبَرُّ والفاجرُ، والمُصَلِّى والصائمُ(١)، وللعبادِ قُدْرةٌ على أعمالِهم، ولهم إرادةٌ(٢)، ....

سبحانه الأشياء بمشيئته إنما يكون وفقًا لما علمه منها بعلمه القديم، ولما كتبه وقدره فى اللوح المحفوظ، وأن للعباد قدرة وإرادة تقع بها أفعالهم، وأنهم الفاعلون حقيقة لهذه الأفعال بمحض اختيارهم، وأنهم لهذا يستحقون عليها الجزاء، إما بالمدح والمثوبة، وإما بالذم والعقوبة، وأن نسبة هذه الأفعال إلى العباد فعلًا لا ينافى نسبتها إلى اللّه إيجادًا وخلقًا ؛ لأنه هو الخالق لجميع الأسباب التى وقعت بها .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

يعنى : أن الوصف بالإيمان والكفر والبر والفجور والصلاة والصيام وصف للعبد، لا لغيره ؛ فهو المؤمن، وهو الكافر، وهو البار، وهو الفاجر، وهو المصلى، وهو الصائم ... وكذلك هو المزكى، وهو الحاج، وهو المعتمر ... وهكذا، ولا يمكن أن يوصف بما ليس من فعله حقيقة .

وهذه الجملة تتضمن الرد على الجبرية .

والمراد بالعبودية هنا العبودية العامة ؛ لأن العبودية نوعان : عامة وخاصة :

فالعامة : هى الخضوع لأمر اللّه الكونى ؛ كقوله تعالى : ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم : ٩٣] .

- والعبودية الخاصة : هى الخضوع لأمر اللّه الشرعى، وهى خاصة بالمؤمنين ؛ كقوله تعالى : ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان : ٦٣]، وقوله : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان : ١]، وهذه أخص من الأولى .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة » . خلافًا للجبرية القائلين بأنهم لا قدرة لهم ولا إرادة، بل هم مجبرون عليها .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (والعبد هو المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمصلى والصائم، وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة) . ردٌّ على الجبرية ؛ أى : ليس العباد بمجبرين على تلك الأعمال ؛ لأنه لو كان كذلك لما صح وصفهم بها ؛ لأن فعل المجبر لا يُنسب إليه، ولا يوصف به، ولا يستحق عليه الثواب، أو العقاب .

واللهُ خالقُهم، وخالقُ قُدْرتِهم وإرادتِهم[١]، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢] [التكوير: ٢٨، ٢٩].

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

قوله: «والله خالقهم وخالق إرادتهم وقدرتهم»؛ خلافًا للقدرية القائلين بأن الله ليس خالقًا لفعل العبد ولا لإرادته وقدرته.

وكأن المؤلف يشير بهذه العبارة إلى وجه كون فعل العبد مخلوقًا لله تعالى؛ بأن فعله صادر عن قدرة وإرادة، وخالق القدرة والإرادة هو الله؛ وما صدر عن مخلوق، فهو مخلوق.

ويشير بها أيضًا إلى كون فعل العبد اختياريًا لا إجباريًا؛ لأنه صادر عن قدرة وإرادة؛ فلولا القدرة والإرادة؛ لم يصدر منه الفعل، ولولا الإرادة؛ لم يصدر منه الفعل، ولو كان الفعل إجباريًا، ما كان من شرطه القدرة والإرادة.

❁ **قال الشيخ الفوزان:**

وقوله: (والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم). ردٌّ على القدرية النفاة، حيث زعموا أن العباد يخلقون أفعالهم بدون إرادة الله ومشيئته، كما سبق.

ثم استدل الشيخ في الرد على الطائفتين بقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

ثم استدل المؤلف لذلك، فقال: «كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]».

فقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾: فيها رد على الجبرية.

وفي قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: ردٌّ على القدرية.

❁ **قال الشيخ الفوزان:**

فقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾. فيه الرد على الجبرية؛ لأنه أثبت للعباد مشيئةً، وهم يقولون: لا مشيئة لهم.

وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. فيه الرد على القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل، من غير توقفٍ على مشيئة الله، وهذا باطلٌ؛ لأن الله علق مشيئة العباد على مشيئته سبحانه، وربطها بها.

وهذه الدرجةُ مِن القدرِ(١) يُكَذِّبُ بها عامةُ القَدَرِيةِ(٢)، الذين سمَّاهم النبيُّ ﷺ مجوسَ هذه الأمةِ(٣)، ....

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

أى : درجة المشيئة والخلق .

✵ **قال الشيخ الفوزان :**

قوله : (وهذه الدرجة من القدر) . وهى عموم مشيئته وإرادته لكل شيء ، وعموم خلقه لكل شيء ، وأن العباد فاعلون حقيقةً ، والله خالقهم وخالق أفعالهم .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

أى : أكثرهم يكذبون بهذه الدرجة ، ويقولون : إن الإنسان مستقلٌ بعمله ، وليس لله فيه مشيئة ولا خلق .

✵ **قال الشيخ الفوزان :**

(يكذب بها عامة القدرية) النُّفاة حيث يزعمون أن العبد يخلق فعل نفسه ، بدون مشيئة الله وإرادته .

✵ **قال الشيخ هراس :**

وضل فى القدر طائفتان كما تقدم :

(الطائفة الأولى) : القدرية نفاة القدر الذين هم مجوس هذه الأمة ، كما ورد ذلك فى بعض الأحاديث مرفوعًا وموقوفًا ، وهؤلاء ضلوا بالتفريط وإنكار القدر ، وزعموا أنه لا يمكن الجمع بين ما هو ثابت بالضرورة من اختيار العبد فى فعله ومسئوليته عنه ، وبين ما دلت عليه النصوص من عموم خلقه تعالى مشيئته ؛ لأن ذلك العموم فى زعمهم إبطال لمسئولية العبد عن فعله وهدم للتكاليف ، فرجحوا جانب الأمر والنهى وخصَّصوا النصوص الدالة على عموم الخلق والمشيئة بما عدا أفعال العباد وأثبتوا أن العبد خالق لفعله بقدرته وإرادته ، فأثبتوا خالقين غير الله ، ولهذا سموا مجوس هذه الأمة ؛ لأن المجوس يزعمون أن الشيطان يخلق الشر والأشياء المؤذية ، فجعلوه خالقًا مع الله ، فكذلك هؤلاء جعلوا العباد خالقين مع الله .

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

لأن المجوس يقولون : إن للحوادث خالقين : خالقًا للخير ، وخالقًا للشر ! فخالق الخير هو النور ، وخالق الشر هو الظلمة . فالقدرية يشبهون هؤلاء المجوس من وجه ؛ لأنهم يقولون : إن

ويَغْلُو فيها[1] قومٌ مِن أهلِ الإثباتِ حتى سَلَبوا العبدَ قدرتَه واختيارَه[2]، ....

الحوادث نوعان : حوادث من فعل الله ؛ فهذه خلق الله ، وحوادث من فعل العباد ؛ فهذه للعباد استقلالًا ، وليس لله تعالى فيها خلق .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(الذين سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة) لمشابهتهم المجوس الذين يثبتون خالقين ، هما النور والظلمة ، فيقولون : إن الخير من فعل النور ، والشر من فعل الظلمة ، فصاروا ثنويةً .

وكذلك هؤلاء القدرية جعلوا خالقًا مع الله ، حيث زعموا أن العباد يخلقون أفعالهم بدون إرادة الله ومشيئته ، بل يستقلون بخلقها .

ولم يثبت أن النبي ﷺ سماهم مجوس هذه الأمة ؛ لتأخرِ ظهورِهم عن وقت النبي ﷺ ، فأكثر ما يجيء من ذمهم إنما هو موقوف على الصحابة .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

أي : في هذه الدرجة .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (ويغلو فيها) أي : هذه الدرجة من القدر ، والغلو هو الزيادة في الشيء عن الحد المطلوب .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

أي : إثبات القدر .

وهؤلاء القوم هم الجبرية ؛ حيث إنهم سَلَبوا العبد قدرته واختياره ، وقالوا : إنه مجبر على عمله ؛ لأنه مكتوب عليه .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(قوم من أهل الإثبات) فاعل « يغلو » ، والمراد بهم الجبرية الذين قالوا : إن العبد مجبر على فعله .

(حتى سلبوا العبد قدرته واختياره) .

فالأولون غلوا في إثبات أفعال العباد حتى أخرجوها عن مشيئة الله ، وهؤلاء غلوا في نفي أفعال العباد حتى سلبوهم القدرة والاختيار .

ويُخْرِجُون عن أفعالِ اللَّهِ وأحكامِه حِكَمَها ومَصالِحَها[١].

* قال الشيخ هراس :

(والطائفة الثانية) : يُقال لها : الجبرية ، وهؤلاء غلوا في إثبات القدر حتى أنكروا أن يكون للعبد فِعلٌ حقيقة بل هو في زعمهم لا حريةَ له ولا اختيار ولا فعل كالريشة في مهب الرياح ، وإنما تسند الأفعال إليه مجازًا فيقال : صلى وصام وقتل وسرق . كما يقال : طلعت الشمس وجرت الريح ونزل المطر . فاتهموا ربَّهم بالظلم وتكليف العباد بما لا قدرة لهم عليه ، ومجازاتهم على ما ليس من فعلهم ، واتهموه بالعبث في تكليف العباد ، وأبطلوا الحكمة من الأمر والنهي ، ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل : ٥٩] .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « ويخرجون عن أفعال اللَّه وأحكامه حكمها ومصالحها » : « يخرجون » : معطوفة على قوله : « يغلو » .

ووجه كونهم يخرجون الحكم والمصالح عن أفعال اللَّه وأحكامه : أنهم لا يثبتون للَّه حكمة أو مصلحة ؛ فهو يفعل ويحكم لمجرد مشيئته ، ولهذا يثيب المطيع ، وإن كان مجبرًا على الفعل ، ويعاقب العاصي ، وإن كان مجبرًا على الفعل .

ومن المعلوم أن المجبر لا يستحق الحمدَ على محمود ، ولا الذمَّ على مذموم ؛ لأنه بغير اختياره .

وهنا مسألة يحتج بها كثير من العُصاة : إذا أنكرت عليه المنكر ؛ قال : هذا هو ما قدره اللَّه علي ؛ أتعترض على اللَّه ؟ ! فيحتج بالقدر على معاصي اللَّه ، ويقول : أنا عبد مُسير ! ثم يحتج أيضًا بحديث : « تحاج آدم وموسى ، فقال له موسى : أنت أبونا ، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ؟ ! فقال له آدم : أنت موسى اصطفاك اللَّه بكلامه ، وكتب لك التوراة بيده ! أتلومني على أمر قدره عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ ! » . قال النبي عليه الصلاة والسلام : « فحج آدم موسى » ؛ قالها ثلاثًا[1] . وعند أحمد : « فحجة آدم »[2] . وهي صريحة في أن آدم غلب موسى بالحجة .

قال : فهذا آدم لما اعترض عليه موسى ؛ احتج عليه بالقدر ، وآدم نبي ، وموسى رسول ،

---

(1) أخرجه البخاري (٦٦١٤) ، ومسلم (٢٦٥٢) .

(2) أخرجه أحمد (٧٥٧٩) .

....

فسكت موسى ؛ فلماذا تحتج عليَّ ؟

والجواب على حديث آدم :

- أما على رأى القدرية ؛فإن طريقتهم أن أخبار الآحاد لا توجب اليقين ؛ قالوا : وإذا عارضت العقل ؛ وجب أن ترد وبناء على ذلك قالوا : هذا لا يصح ولا نقبله ولا نسلم به .

- وأما الجبرية ؛فقالوا : إن هذا هو الدليل ، ودلالته حق ، ولا يلام العبد على ما قدر عليه .

- أما أهل السنة والجماعة ؛فقالوا : إن آدم عليه الصلاة والسلام فعل الذنب ، وصار ذنبه سببًا لخروجه من الجنة ، لكنه تاب من الذنب ، وبعد توبته اجتباه اللَّهُ وتاب عليه وهداه ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ومن المحال أن موسى عليه الصلاة والسلام - وهو أحد أولى العزمِ من الرسل - يلوم أباه على شىء تاب منه ثم اجتباه اللَّه بعده وتاب عليه وهداه ، وإنما اللوم على المصيبة التى حصلت بفعله ، وهى إخراج الناس ونفسه من الجنة ؛ فإن سببَ هذا الإخراج هو معصية آدم ؛ على أن آدم عليه الصلاة والسلام لاشك أنه لم يفعل هذا ليخرج من الجنة حتى يلام ؛ فكيف يلومه موسى ؟ !

وهذا وجه ظاهر فى أن موسى عليه السلام لم يرد لوم آدم على فعل المعصية ، إنما على المصيبة التى هى من قدر اللَّه ، وحينئذٍ يتبين أنه لا حجةَ بهذا الحديث للجبرية .

فنحن نقبله ولا ننكره كما فعل القدرى ، ولكننا لا نحتج به على المعصية ؛ كما فعل الجبرى .

وهناك جواب آخر أشار إليه ابن القيم رحمه اللَّه ،وقال : الإنسان إذا فعل المعصية واحتج بالقدر عليها بعد التوبة منها ؛ فلا بأس به .

ومعناه : أنه لو لامك أحد على فعل المعصية بعد أن تبت منها ، وقلت : هذا بقضاء اللَّه وقدره ، وأستغفر اللَّه وأتوب إليه . .. وما أشبه ذلك ؛ فإنه لا حرج عليك فى هذا .

فآدم احتج بالقدر بعد أن تاب منه ، وهذا لاشك أنه وجهٌ حسنٌ ، لكن يبعده أن موسى لا يمكن أن يلوم آدم على معصية تاب منها .

ورجح ابن القيم قوله هذابما جرى للنبى عليه الصلاة والسلام حين طرق عليًا وفاطمة رضى اللَّه عنهما ليلة ، فقال : « ألا تصليان ؟ » . فقال على رضى اللَّه عنه : يا رسول اللَّه ، أنفسنا بيد اللَّه ؛ فإذا شاء أن يبعثنا ؛ بعثنا . فانصرف النبى ﷺ يضرب فَخِذه وهو يقول : ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ

....

﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[1] [الكهف : ٥٤] .

وعندى أن فى الاستدلال بهذا الحديث نظرًا ؛ لأن عليًا رضى الله عنه احتج بالقدر على نومه ، والإنسان النائم له أن يحتج بالقدر ؛ لأن فعله لا ينسب إليه ، ولهذا قال الله تعالى فى أصحاب الكهف : ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف : ١٨] . فنسب التقليب إليه ، مع أنهم هم الذين يتقلبون ، لكن لما كان بغير إرادة منهم ؛ لم يضفه إليهم .

والوجه الأول فى الجواب عن حديث آدم وموسى – وهو ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية – هو الصواب .

فإذن ؛ لا حجة للجبرى بهذا الحديث ، ولا للعصاة الذين يحتجون بهذا الحديث لاحتجاجهم بالقدر .

فنقول له : إن احتجاجك بالقدر على المعاصى يبطله السمع والعقل والواقع :

– فأما السمع ؛ فقد قال الله تعالى : ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام : ١٤٨] . قالوا ذلك احتجاجًا بالقدر على المعصية ، فقال الله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ . يعنى : كذبوا الرسل واحتجوا بالقدر ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ ، وهذا يدل على أن حجتهم باطلة ؛ إذ لو كانت حجة مقبولة ؛ ما ذاقوا بأس الله .

– ودليل سمعى آخر : قال الله تعالى : ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء : ١٦٣] إلى قوله : ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء : ١٦٥] ، ووجه الدلالة من هذه الآية أنه لو كان القدر حجة ؛ ما بطلت بإرسال الرسل ، وذلك لأن القدرَ لا يبطل بإرسال الرسل ، بل هو باقٍ .

فإذا قال قائل : يرد عليك فى الدليل الأول قول الله تبارك وتعالى فى سورة «الأنعام» : ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام : ١٠٦، ١٠٧] ؛ فهنا قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ ؛ فنقول : إن قول الإنسان عن الكفارِ : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ :

---

(1) أخرجه البخارى (١١٢٧) ، ومسلم (٧٧٥) .

....

قولٌ صحيح وجائز، لكن قول المشرك: ﴿مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ يريد أن يحتج بالقدَر على المعصية قول باطل، والله عز وجل إنما قال لرسوله هكذا تسلية له وبيانًا أن ما وقع فهو بمشيئة الله.

- وأما الدليل العقلى على بطلان احتجاج العاصى بالقدر على معصية الله أن نقول له: ما الذى أعلمك بأن الله قدر لك أن تعصيه قبل أن تعصيه؟ فنحن جميعًا لا نعلم ما قدر الله إلا بعد أن يقع؛ أما قبل أن يقع، فلا ندرى ماذا يراد بنا؛ فنقول للعاصى: هل عندك علم قبل أن تمارس المعصية أن الله قدر لك المعصية؟ سيقول: لا. فنقول: إذن؛ لماذا لم تقدر أن الله قدر لك الطاعة وتطع الله؛ فالباب أمامك مفتوح؛ فلماذا لم تدخل من الباب الذى تراه مصلحة لك؛ لأنك لا تعلم ما قدر لك. واحتجاج الإنسان بحجة على أمر فعله قبل أن تتقدم حجته على فعله احتجاج باطل؛ لأن الحجة لابد أن تكون طريقًا يمشى به الإنسان؛ إذ إن الدليل يتقدم المدلول.

ونقول له أيضًا: ألست لو ذكر لك أن لمكة طريقين أحدهما طريق مُعبَّد آمِن، والثانى طريق صعب مخوف؛ ألست تسلك الآمن؟ سيقول: بلى. فنقول: إذن؛ لماذا تسلك فى عبادتك الطريق المخوف المحفوف بالأخطار، وتدع الطريق الآمن الذى تكفل الله تعالى بالأمن لمن سلكه؛ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢]. وهذه حجة واضحة.

ونقول له: لو أعلنت الحكومة عن وظيفتين: إحداهما بالمرتبة العالية، والثانية بالمرتبة السفلى؛ فأيهما تريد؟ بلاشك ستريد المرتبة العالية، وهذا يدل على أنك تأخذ بالأكمل فى أمور دنياك؛ فلماذا لم تأخذ بالأكمل فى أمور دينك؟! وهل هذا إلا تناقض منك؟!

وبهذا يتبين أنه لا وجه أبدًا لاحتجاج العاصى بالقدر على معصية الله عز وجل.

✽ قال الشيخ الفوزان:

وقوله: (ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها). جمع حكمةٍ ومصلحةٍ؛ أى: أن الجبرية فى مذهبهم هذا حينما نفوا أفعالَ العباد، وسلبوهم القدرة والاختيار نفوا حكمةَ الله فى أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، فقالوا: إنه يثيب، أو يعاقب العباد على ما ليس من فعلهم، ويأمرهم بما لا يقدرون عليه فاتَّهموا الله بالظلم والعبث، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

حقيقةُ الإيمانِ ، وحكمُ مُرْتكِبِ الكبيرةِ

« فصلٌ » :

ومِن أصولِ أهلِ السنةِ والجماعةِ أنَّ الدينَ(١) والإيمانَ(٢) قولٌ وعملٌ ؛ قولُ

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

فصل : في الإيمان .

« الدين » : هو ما يدان به الإنسان ، أو يدين به ؛ فيطلق على العمل ويطلق على الجزاء :

ففي قوله تعالى : ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٨، ١٩] . فالمراد بالدين في هذه الآية : الجزاء .

وفي قوله تعالى : ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] . أي : عملًا تتقربون به إلى الله .

ويقال : كما تَدين تدان . أي : كما تعمل تجازى .

والمراد بالدين في كلام المؤلف : العمل .

❁ قال الشيخ الفوزان :

قوله : (ومن أصول أهل السنة والجماعة) ؛ أي : القواعد التي بنيت عليها عقيدتهم .

(أن الدين) هو لغةً : الذل والانقياد .

وشرعًا : هوما أمر الله به .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

« الإيمان » ؛ أكثر أهل العلم يقولون : إن الإيمان في اللغة التصديق .

ولكن في هذا نظر ؛ لأن الكلمة إذا كانت بمعنى الكلمة ؛ فإنها تتعدى بتعديتها ، ومعلوم أن التصديق يتعدى بنفسه ، والإيمان لا يتعدى بنفسه ؛ فتقول مثلًا : صدقته ، ولا تقول : آمنته ! بل تقول : آمنت به . أو : آمنت له . فلا يمكن أن نفسّر فعلًا لازمًا لا يتعدى إلا بحرف الجر بفعل متعد ينصب المفعول به نفسه ، ثم إن كلمة (صدقت) لا تعطي معنى كلمة (آمنت) ؛ فإن (آمنت) تدل على طمأنينة بخبره أكثر من (صدقت) .

ولهذا لو فسر الإيمان بالإقرار لكان أجود ؛ فنقول : الإيمان : الإقرار ، ولا إقرار إلا بتصديق ؛ فتقول : أقر به ؛ كما تقول : آمن به ، وأقرّ له ؛ كما تقول : آمن له . هذا في اللغة .

القلبِ واللسانِ ، وعملُ القلبِ واللسانِ والجوارحِ[1]، وأنَّ الإيمانَ يَزيدُ بالطاعةِ ،

❁ قال الشيخ الفوزان :

(والإيمان) لغةً : التصديق .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

وأما فى الشرع ؛ فقال المؤلف : « قول وعمل » .

وهذا تعريف مجمل فصله المؤلف بقوله : « قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح » .

فجعل المؤلف للقلب قولًا وعملًا ، وجعل للسان قولًا وعملًا .

- أما قول اللسان ؛ فالأمر فيه واضح ، وهو النطق ، وأما عمله ؛ فحركاته ، وليست هى النطق ، بل النطق ناشئ عنها إن سلمت من الخرس .

- وأما قول القلب ؛ فهو اعترافه وتصديقه . وأما عمله ؛ فهو عبارة عن تحركه وإرادته ؛ مثل الإخلاص فى العمل ؛ فهذا عمل القلب ، وكذلك التوكل والرجاء والخوف ؛ فالعمل ليس مجرد الطمأنينة فى القلب ، بل هناك حركة فى القلب .

- وأما عمل الجوارح ؛ فواضح ؛ ركوع ، وسجود ، وقيام ، وقعود ، فيكون عمل الجوارح إيمانًا شرعًا ؛ لأن الحامل لهذا العمل هو الإيمان .

فإذا قال قائل : أين الدليل على أن الإيمان يشمل هذه الأشياء؟

قلنا : قال النبى ﷺ : « الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره »[1] ؛ فهذا قول القلب . أما عمل القلب واللسان والجوارح ؛ فدليله قول النبى ﷺ : « الإيمان بضع وسبعون شعبة : أعلاها : قول : لا إله إلا الله ، وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان »[2] ؛ فهذا قول اللسان وعمله وعمل الجوارح ، والحياء عمل قلبى ، وهو انكسار يصيب الإنسان ويعتريه عند وجود ما يستلزم الحياء .

فتبين بهذا أن الإيمان يشمل هذه الأشياء كلها شرعًا .

ويدل لذلك أيضًا قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] ؛ قال

---

(1) أخرجه مسلم (٨) .

(2) أخرجه مسلم (٣٥) .

....

المفسرون : أى : صلاتكم إلى بيت المقدس ؛ فسمى اللّٰه تعالى الصلاة إيمانًا ؛ مع أنها عمل جوارح وعمل قلب وقول لسان .

هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة .

وشموله لهذه الأشياء الأربعة لا يعنى أنه لا يتم إلا بها ، بل قد يكون الإنسان مؤمنًا مع تخلف بعض الأعمال ، لكنه ينقص إيمانه بقدر ما نقص من عمله .

وخالف أهل السنة فى هذا طائفتان بدعيتان متطرفتان :

الطائفة الأولى : المرجئة : يقولون : إن الإيمان هو الإقرار بالقلب ، وما عدا ذلك ؛ فليس من الإيمان .

ولهذا كان الإيمان لا يزيد ولا ينقص عندهم ؛ لأنه إقرار القلب ، والناس فيه سواء ؛ فالإنسان الذى يعبد اللّٰه آناء الليل والنهار كالذى يعصى اللّٰه آناء الليل والنهار عندهم ، ما دامت معصيته لا تخرجه من الدين ! !

فلو وجدنا رجلًا يزنى ويسرق ويشرب الخمر ويعتدى على الناس ، ورجلًا آخر متقيًا للّٰه بعيدًا عن هذه الأشياء كلها ؛ لكانا عند المرجئة فى الإيمان والرجاء سواء ؛ كل منهما لا يعذب ؛ لأن الأعمال غير داخلة فى مسمى الإيمان .

الطائفة الثانية : الخوارج والمعتزلة ؛ قالوا : إن الأعمال داخلة فى مسمى الإيمان ، وأنها شرط فى بقائه ، فمن فعل معصية من الكبائر خرج من الإيمان . لكن الخوارج يقولون : إنه كافر ، والمعتزلة يقولون : هو فى منزلة بين منزلتين ؛ فلا نقول : مؤمن ، ولا نقول : كافر ، بل نقول : خرج من الإيمان ، ولم يدخل فى الكفر ، وصار فى منزلة بين منزلتين .

هذه أقوال الناس فى الإيمان .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وشرعًا هو ما ذكره الشيخ بقوله : (قول وعمل ، قول القلب واللسان والجوارح) .هذا هو تعريف الإيمان عند أهل السنة والجماعة : أنه قول وعمل .

فالقول قسمان : قول القلب ، وهوالاعتقاد ، وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام .

والعمل قسمان : عمل القلب وهو نية وإخلاص ، وعمل الجوارح ؛ أى : الأعضاء ، كالصلاة والحج والجهاد .

وينْقُصُ بالمعصيةِ[1]، ....

والفرق بين أقوال القلب وأعماله : أن أقواله هى العقائد التى يعترف بها ، ويعتقدها .

وأما أعمال القلب فهى حركته التى يحبها الله ورسوله ، وهى محبة الخير ، وإرادته الجازمة ، وكراهية الشر ، والعزم على تركه .

وأعمال القلب تنشأ عنها أعمال الجوارح ، وأقوال اللسان ، ومن ثم صارت أقوال اللسان وأعمال الجوارح من الإيمان .

أقوال الناس فى تعريف الإيمان :

١- عند أهل السنة والجماعة : أنه اعتقاد بالقلب ، ونطق باللسان ، وعمل بالأركان .

٢- عند المرجئة : أنه اعتقاد بالقلب ، ونطق باللسان فقط .

٣- عند الكرامية : أنه نطق باللسان فقط .

٤- عند الجبرية : أنه الاعتراف بالقلب ، أو مجرد المعرفة فى القلب .

٥- عند المعتزلة : أنه اعتقاد القلب ، ونطق اللسان ، وعمل الجوارح .

والفرق بينهم ؛ أى : بين المعتزلة وبين أهل السنة : أن مرتكب الكبيرة يسلب اسم الإيمان بالكلية : ويخلد فى النار عندهم ، وعند أهل السنة لا يسلب الإيمان بالكلية ، بل هو مؤمن ، ناقص الإيمان ، ولا يخلد فى النار إذا دخلها .

وكل هذه أقوال باطلة ، والحق ما قاله أهل السنة والجماعة لأدلةٍ كثيرةٍ .

❁ قال الشيخ هراس :

سبق أن ذكرنا فى مسألة الأسماء والأحكام ، أن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان ، وأن هذه الثلاثة داخلة فى مسمى الإيمان المطلق ، فالإيمان المطلق يدخل فيه جميع الدين ظاهره وباطنه ، أصوله وفروعه ، فلا يستحق اسم الإيمان المطلق إلا [من] جمع ذلك كله ولم ينقص منه شيئًا .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هذا معطوف على قوله : « أن الدين . . . » إلخ ؛ أى : أن من أصول أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص .

ويستدلون لذلك بأدلة من الكتاب والسنة :

- فمن الكتاب : قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة :

....

١٢٤] ، وقوله تعالى : ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر : ٣١] ، وهذا صريح فى ثبوت الزيادة .

- وأما النقص ؛ فقد ثبت فى « الصحيحين »(1) أن النبى ﷺ وعظ النساء وقال لهن : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن » ؛ فأثبت نقص الدين .

ثم لو فرض أنه لم يوجد نصٌّ فى ثبوت النقص ؛ فإن إثبات الزيادة مستلزم للنقص ؛ فنقول : كل نص يدل على زيادة الإيمان ؛ فإنه متضمن للدلالة على نقصه .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية) أى : ومن أصول أهل السنة والجماعة أن الإيمان يتفاضل بالزيادة والنقصان ، فتزيده الطاعة ، وينقص بالمعصية .

ويدل على ذلك أدلة كثيرة ، منها : قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال : ٢] ، وقوله تعالى : ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح : ٤] وغير ذلك من الأدلة .

❁ قال الشيخ هراس :

ولما كانت الأعمال والأقوال داخلة فى مسمى الإيمان كان الإيمان قابلًا للزيادة والنقص ، فهو يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، كما هو صريح الأدلة من الكتاب والسنة ، وكما هو ظاهر مشاهد من تفاوت المؤمنين فى عقائدهم وأعمال قلوبهم وأعمال جوارحهم .

❁ قال الشيخ ابن عثيمين :

وأسباب زيادة الإيمان أربعة :

الأول : معرفة اللَّه تعالى بأسمائه وصفاته ؛ فإنه كلما ازداد الإنسان معرفة باللَّه وأسمائه وصفاته ؛ ازداد إيمانه .

الثانى : النظر فى آيات اللَّه الكونية والشرعية :

قال اللَّه تعالى : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ

---

(1) أخرجه البخارى (٣٠٤) ، ومسلم (٨٠) .

....

﴿كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وكلما ازداد الإنسان علمًا بما أودع الله تعالى فى الكون من عجائب المخلوقات ومن الحكم البالغات؛ ازداد إيمانًا بالله عز وجل، وكذلك النظر فى آيات الله الشرعية يزيد الإنسان إيمانًا بالله عز وجل؛ لأنك إذا نظرت إلى الآيات الشرعية، وهى الأحكام التى جاءت بها الرسل؛ وجدت فيها ما يبهر العقول من الحكم البالغة والأسرار العظيمة التى تعرف بها أن هذه الشريعة نزلت من عند الله، وأنها مبنية على العدل والرحمة، فتزداد بذلك إيمانًا.

الثالث: كثرة الطاعات وإحسانها؛ لأن الأعمال داخلة فى الإيمان، وإذا كانت داخلة فيه؛ لزم من ذلك أن يزيد بكثرتها.

السبب الرابع: ترك المعصية تقربًا إلى الله عز وجل؛ فإن الإنسان يزداد بذلك إيمانًا بالله عز وجل.

أسباب نقص الإيمان أربعة:

الأول: الإعراض عن معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته.

الثانى: الإعراض عن النظر فى الآيات الكونية والشرعية؛ فإن هذا يوجب الغفلة وقسوة القلب.

الثالث: قلة العمل الصالح، ويدل لذلك قول النبى ﷺ فى النساء: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن». قالوا: يا رسول الله، كيف نقصان دينها؟ قال: «أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟».

الرابع: فعل المعاصى؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

وخالف أهل السنة والجماعة فى القول بالزيادة والنقصان طائفتان: الطائفة الأولى المرجئة، والطائفة الثانية: الخوارج والمعتزلة.

الطائفة الأولى: المرجئة: قالوا: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص؛ لأن الأعمال ليست من

....

الإيمان حتى يزيد بزيادتها وينقص بنقصانها ؛ فالإيمان هو إقرار القلب ، والإقرار لا يزيد ولا ينقص .

ونحن نرد عليهم فنقول :

أولًا : إخراجكم الأعمال من الإيمان ليس بصحيح ؛ فإن الأعمال داخلة فى الإيمان ، وقد سبق ذكر الدليل .

ثانيًا : قولكم : إن الإقرار بالقلب لا يختلف زيادة ونقصًا . ليس بصحيح ، بل الإقرار بالقلب يتفاضل ، فلا يمكن لأحد أن يقول : إن إيمانى كإيمان أبى بكر ! ! بل يتعدى ويقول : إن إيمانى كإيمان الرسول عليه الصلاة والسلام ! !

ثم نقول : إن الإقرار بالقلب يقبل التفاضل ؛ فإقرار القلب بخبر الواحد ليس كإقراره بخبر اثنين ، وإقراره بما سمع ليس كإقراره بما شاهد ، ألم تسمعوا قول إبراهيم : ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة : ٢٦٠] . فهذا دليل على أن الإيمان الكائن فى القلب يقبل الزيادة والنقص .

ولهذا قسم العلماء درجات اليقين ثلاثة أقسام : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ؛ قال الله تعالى : ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر : ٥ - ٧] ، وقال تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقة : ٥١] .

الطائفة الثانية : المخالفة لأهل السنة طائفة الوعيدية ، وهم الخوارج والمعتزلة ، وسموا وعيدية ؛ لأنهم يقولون بأحكام الوعيد دون أحكام الوعد ؛ أى : يغلبون نصوص الوعيد على نصوص الوعد ، فيخرجون فاعل الكبيرة من الإيمان ، لكن الخوارج يقولون : إنه خارج من الإيمان داخل فى الكفر ، والمعتزلة يقولون : خارج من الإيمان غير داخل فى الكفر ، بل هو فى منزلة بين منزلتين .

ومناقشة هاتين الطائفتين المرجئة والوعيدية فى الكتب المطولات .

✽ قال الشيخ هراس :

ومن الأدلة على زيادة الإيمان ونقصه أن الله قسم المؤمنين ثلاث طبقات ، فقال سبحانه : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر : ٣٢] ، فالسابقون بالخيرات هم الذين أدوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات ، وهؤلاء هم المقربون . والمقتصدون هم الذين

وهم مع ذلك(١) لا يُكَفِّرون أهلَ القِبْلةِ بمطلقِ المَعَاصِي والكبائرِ(٢)، كما يَفْعَلُه

اقتصروا على أداء الواجبات وترك المحرمات . والظالمون لأنفسهم هم الذين اجترءوا على بعض المحرمات وقصروا ببعض الواجبات مع بقاء أصل الإيمان معهم .

✽ **قال الشيخ هراس :**

ومن وجوه زيادته ونقصه كذلك أن المؤمنين متفاوتون فى علوم الإيمان ؛ فمنهم من وصل إليه من تفاصيله وعقائده خير كثير ، فازداد به إيمانه وتم يقينه ، ومنهم من هو دون ذلك حتى يبلغ الحال ببعضهم ألَّا يكون معه إلا إيمان إجمالى لم يتيسر له من التفاصيل شىء ، وهو مع ذلك مؤمن ، وكذلك هم متفاوتون فى كثير من أعمال القلوب والجوارح وكثرة الطاعات وقلتها .

✽ **قال الشيخ هراس :**

وأما من ذهب إلى أن الإيمان مجرد التصديق بالقلب وأنه غير قابل للزيادة أو النقص ، كما يروى عن أبى حنيفة وغيره فهو محجوج بما ذكرنا من الأدلة ، قال عليه السلام : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول : لا إله إلا اللّٰه . وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق » . ومع أن الإيمان المطلق مركب من الأقوال والأعمال والاعتقادات فهى ليست كلها بدرجة واحدة ، بل العقائد أصل فى الإيمان ، فمن أنكر شيئًا مما يجب اعتقاده فى اللّٰه أو ملائكته أو كتبه أو رسله أو اليوم الآخر ، أو مما هو معلوم من الدين بالضرورة كوجوب الصلاة والزكاة وحرمة الزنى والقتل . إلخ ، فهو كافر قد خرج من الإيمان بهذا الإنكار .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

أى : مع قولهم : إن الإيمان قول وعمل .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

أهل القبلة هم المسلمون ، وإن كانوا عصاة ؛ لأنهم يستقبلون قبلة واحدة ، وهى الكعبة .

فالمسلم عند أهل السنة والجماعة لا يكفر بمطلق المعاصى والكبائر .

وتأمل قول المؤلف : « بمطلق المعاصي » . ولم يقل : بالمعاصى والكبائر ؛ لأن المعاصى منها ما يكون كفرًا ، وأما مطلق المعصية ؛ فلا يكون كفرًا .

والفرق بين الشىء المطلق ومطلق الشىء : أن الشىء المطلق يعنى الكمال ، ومطلق الشىء ؛ يعنى : أصل الشىء .

الخوارجُ (١)؛ بل الأُخُوَّةُ الإيمانيةُ ثابتةٌ مع المعاصِى ، كما قال سبحانَه وتعالى فى آيةِ القِصاصِ : ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (٢) [البقرة : ١٧٨] ،

فالمؤمن الفاعل للكبيرة عنده مطلق الإيمان ؛ فأصل الإيمان موجود عنده ، لكن كماله مفقود .

فكلام المؤلف رحمه الله دقيق جدًّا .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

وقوله : (وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصى والكبائر ، كما يفعله الخوارج) ؛أى : وأهل السنة والجماعة - مع أنهم يرون أن الأعمال داخلة فى مسمى الإيمان ، وأنه يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية - هم مع ذلك لا يحكمون بالكفر على من يدعى الإسلام ، ويستقبل الكعبة ، بمطلق ارتكابه المعاصى ، التى هى دون الشرك والكفر .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

يعنى : الذين يقولون : إن فاعل الكبيرة كافر ، ولهذا خرجوا على المسلمين ، واستباحوا دماءهم وأموالهم .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

(كما يفعله الخوارج) حيث قالوا : من فعل كبيرةً فهو فى الدنيا كافر ، وفى الآخرة مخلد فى النار ، لا يخرج منها .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

يعنى : أن الأخوة بين المؤمنين ثابتة ولو مع المعصية ؛ فالزانى أخ للعفيف ، والسارق أخ للمسروق منه ، والقاتل أخ للمقتول ، ثم استدل المؤلف لذلك فقال : « كما قال سبحانه فى آية القصاص : ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة : ١٧٨] » .

آية القصاص هى قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ إلى قوله : ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ الآية ، والمراد بـ : ﴿أَخِيهِ﴾ . هو المقتول .

ووجه الدلالة من هذه الآية على أن فاعل الكبيرة لا يكفر [لأن] الله سمى المقتول أخًا للقاتل ، مع أن قتل المؤمن كبيرة من كبائر الذنوب .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

فأهل السنة يرون (أن الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصى) فالعاصى أخ لنا فى الإيمان .

وقال : ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(١) [الحجرات : ٩، ١٠] .

واستدل الشيخ على ذلك بقوله تعالى فى آية القصاص : ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ المعنى : أن الجانى إذا عفا عنه المجنى عليه ، أو وليه ، عن القصاص ، ورضى بأخذ المال فى الدية ، فعلى مستحق المال أن يطلبه بالمعروف ، من غير عنفٍ .

وعلى من عليه المال أن يؤديه إليه من غير مماطلةٍ .

ووجه الاستدلال من الآية :

أنه سمى القاتل أخًا للمقتول ، مع أن القتل كبيرة من كبائر الذنوب ، ومع هذا لم تزل معه الأخوة الإيمانية .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

هذا دليل آخر لقول أهل السنة : إن فاعل الكبيرة لا يخرج من الإيمان .

﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ جمع ، و﴿بَيْنَهُمَا﴾ مثنى ، و﴿طَآئِفَتَانِ﴾ مثنى ؛ فكيف يكون مثنى وجمع مثنى آخر والمرجع واحد ؟ !

نقول : لأن قوله : ﴿طَآئِفَتَانِ﴾ : الطائفة عدد كبير من الناس ، فيصح أن أقول : اقتتلوا ، وشاهد هذا قوله تعالى : ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ﴾ [النساء : ١٠٢] ، ولم يقل : لم تصلِّ . فالطائفة أمة وجماعة ، ولهذا عاد الضمير إليها جمعًا فيكون الضمير فى قوله ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ عائدًا إلى المعنى ، وفى قوله : ﴿بَيْنَهُمَا﴾ عائدًا إلى اللفظ .

فهاتان الطائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، وحمل السلاح بعضهم على بعض ، وقتال المؤمن للمؤمن كفر(1) ، ومع هذا قال الله تعالى بعد أن أمر بالصلح بينهما للطائفة الثالثة التى لم تدخل القتال : ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات : ٩، ١٠] ؛

---

(1) أخرجه البخارى (٤٨) ، ومسلم (٦٤) .

....

فجعل اللّٰه تعالى الطائفة المصلحة إخوة للطائفتين المقتتلتين .

وعلى هذا ؛ ففى الآية دليل على أن الكبائر لا تخرج من الإيمان .

وعلى هذا ؛ لو مررت بصاحب كبيرة ؛ فإنى أسلم عليه ؛ لأن النبى ﷺ ذكر من حقوق المسلم على المسلم : « إذا لقيته ؛ فسلم عليه »[1] ، وهذا الرجل ما زال مسلمًا ، فأسلم عليه ؛ إلا إذا كان فى هجره مصلحة ؛ فحينئذ أهجره للمصلحة ؛ كما جرى لكعب بن مالك وصاحبيه الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، فهجرهم المسلمون خمسين ليلة حتى تاب اللّٰه عليهم »[2] .

وهل نحبه على سبيل الإطلاق أو نكرهه على سبيل الإطلاق ؟

نقول : لا هذا ولا هذا ؛ نحبه بما معه من الإيمان ، ونكرهه بما معه من المعاصى ، وهذا هو العدل .

❁ قال الشيخ الفوزان :

واستدل الشيخ بقوله تعالى : ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ الآيتين ، ووجه الاستدلال من الآيتين الكريمتين أنه سماهم مؤمنين مع وجود الاقتتال والبغى بينهم ، وسماهم إخوةً للمؤمنين بقوله : ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ .

ومعنى الآية إجمالًا : أنه إذا تقاتل فريقان من المسلمين ، فعلى المسلمين أن يسعوا فى الصلح بينهم ، ويدعوهم إلى حكم اللّٰه .

فإن حصل بعد ذلك التعدى من إحدى الطائفتين على الأخرى ، ولم تقبل الصلح كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتى ترجع إلى أمر اللّٰه وحكمه .

فإن رجعت تلك الطائفة عن بغيها ، وأجابت الدعوة إلى كتاب اللّٰه وحكمه فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين فى الحكم ، ويتحروا الصواب المطابق لحكم اللّٰه ، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة ، حتى تخرج من الظلم ، وتؤدى ما يجب عليها للأخرى .

ثم أمر اللّٰه سبحانه المسلمين أن يعدلوا فى كل أمورهم بعد أمرهم بهذا العدل الخاص بالطائفتين المقتتلتين ، فقال : ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ ؛ أى : اعدلوا ، إن اللّٰه

---

(1) أخرجه البخارى (١٢٤٠) ، ومسلم (٢١٦٢) .

(2) أخرجه البخارى (٤٤١٨) ، ومسلم (٢٧٦٩) .

ولا يَسْلُبون الفاسقَ المِلِّيَّ الإسلامَ بالكُلِّيةِ(١)، ....

يحب العادلين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾. جملة مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر بالإصلاح، والمعنى: أنهم يرجعون إلى أمرٍ واحدٍ، هو الإيمان، فهم إخوة فى الدين ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ يعنى: كل مسلمين تخاصما وتقاتلا، وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوقهما بطريق الأولى.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فى كل أموركم، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بسبب التقوى.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

«الفاسق»: هو الخارج عن الطاعة.

والفسق - كما أشرنا إليه سابقًا - ينقسم إلى فسق أكبر مخرج عن الإسلام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠]، وفسق أصغر ليس مخرجًا عن الإسلام؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات: ٦].

والفاسق الذى لا يخرج من الإسلام هو الفاسق المِلِّى، وهو من فعل كبيرة، أو أصر على صغيرة.

ولهذا قال المؤلف: «المِلِّي»؛ يعنى: المنتسب إلى الملة الذى لم يخرج منها.

فأهل السنة والجماعة لا يسلبون الفاسق المِلِّى الإسلام بالكلية؛ فلا يمكن أن يقولوا: إن هذا ليس بمسلم، لكن يمكن أن يقولوا: إن هذا ناقص الإسلام أو ناقص الإيمان.

✱ **قال الشيخ الفوزان:**

وقوله: (ولا يسلبون الفاسق الملى الإسلام بالكلية، ولا يخلدونه فى النار، كما تقوله المعتزلة)؛ أى: ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم (لا يسلبون)؛ أى: لا ينفون عن (الفاسق) الفسق: هو الخروج عن طاعة الله، والمراد بالفاسق هنا الذى الذى يرتكب بعض الكبائر؛ كشرب الخمر، والزنى، والسرقة، مع اعتقاد حرمة ذلك.

(الملى)؛ أى: الذى على ملة الإسلام، ولم يرتكب من الذنوب ما يوجب كفره، فأهل السنة والجماعة لا يسلبونه الإسلام بالكلية، فيحكموا عليه بالكفر، كما تقوله

ولا يُخَلِّدونه فى النارِ، كما تقولُ المعتزلةُ[١]، بل الفاسقُ يَدْخُلُ فى اسمِ الإيمانِ المطلَقِ[٢]، ....

الخوارج فى الدنيا.

✽ **قال الشيخ هراس:**

وأما الفاسق الملى الذى يرتكب بعض الكبائر مع اعتقاده حرمتها، فأهل السنة والجماعة لا يسلبون عنه اسم الإيمان بالكلية ولا يخلدونه فى النار كما تقول المعتزلة والخوارج، بل هو عندهم مؤمن ناقص الإيمان، قد نقص من إيمانه بقدر معصيته، أو هو مؤمن فاسق فلا يعطونه اسم الإيمان المطلق ولا يسلبونه مطلق الإيمان.

وأدلة الكتاب والسنة دالة على ما ذكره المؤلف رحمه الله من ثبوت مطلق الإيمان مع المعصية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]، فناداهم باسم الإيمان مع وجود المعصية وهى موالاة الكفار منهم. إلخ.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

قوله: «ولا يخلدونه فى النار»: معطوف على قوله: «ولا يسلبون»: وعلى هذا يكون قوله: «كما تقول المعتزلة»: عائدًا للأمرين؛ لأن المعتزلة يسلبونه الإسلام ويخلدونه فى النار، وإن كانوا لا يطلقون عليه الكفر.

✽ **قال الشيخ الفوزان:**

(ولا يخلدونه فى النار)؛ أى: يحكمون عليه بالخلود فى النار فى الآخرة، وعدم خروجه منها، إذا دخلها.

(كما تقوله المعتزلة) والخوارج، فالمعتزلة يرون أن الفاسق لا يسمى مسلمًا، ولا كافرًا، بل هو عندهم بالمنزلة بين المنزلتين، هذا حكمه عندهم فى الدنيا.

وأما حكمه عندهم فى الآخرة فهو مخلد فى النار، والأدلة على بطلان هذا المذهب كثيرة، وقد مر بعضها، وسيأتى ذكر بقيتها.

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

مراد المؤلف بـ: «المطلق» هنا؛ يعنى: إذا أطلق الإيمان؛ فالوصف يعود إلى الاسم لا إلى الإيمان؛ كما سيتبين من كلام المؤلف رحمه الله؛ فيكون المراد به مطلق الإيمان الشامل

كما فى قوله : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾(١) [النساء: ٩٢]، وقد لا يَدْخُلُ فى اسم الإيمانِ المطلَقِ(٢)، كما فى قولِه تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾(٣) [الأنفال: ٢]، ....

للفاسق والعدل .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قوله كما فى قوله تعالى : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]؛ فإن المؤمنة هنا يدخل فيه الفاسق .

فلو أن إنسانًا اشترى رقيقًا فاسقًا وأعتقه فى كفارة؛ أجزأه؛ مع أن الله قال : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾؛ فكلمة ﴿مُّؤْمِنَةٌ﴾ تشمل الفاسق وغيره .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

ثم بين الشيخ رحمه الله الحكم الصحيح الذى ينطبق على الفاسق الملى ، مؤيدًا بأدلته من الكتاب والسنة ، فقال : (بل الفاسق يدخل فى اسم الإيمان المطلق) ؛ أى : مطلق الإيمان الذى يدخل فيه الإيمان الكامل ، والإيمان الناقص ، كما فى قوله : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ . فإن من أعتق رقبةً مؤمنةً ، وإن كان المعتق فاسقًا - فيما يشترط فيه إيمان الرقبة المعتقة؛ ككفارة الظهار والقتل - أجزأه ذلك العتق باتفاق العلماء؛ لأن ذلك يدخل فى عموم الآية ، وإن لم يكن المعتق من أهل الإيمان الكامل .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

أى : فى مطلق اسم الإيمان .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

وقوله : (وقد لا يدخل) ؛ أى : الفاسق الملى

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قوله : كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]؛ فـ : ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر؛ يعنى : ما المؤمنون إلا هؤلاء ، والمراد بالمؤمنين؛ يعنى : ذوى الإيمان المطلق الكامل .

فلا يدخل فى المؤمنين هنا الفُساق؛ لأن الفاسق لو تلوت عليه آيات الله ، ما زادته إيمانًا ، ولو

وقولِه ﷺ : « لا يَزْني الزاني حينَ يَزْني وهو مؤمنٌ »[١]، ....

ذكرت الله له ، لم يَوْجَل قلبه .

فبين المؤلف أن الإيمان قد يراد به مطلق الإيمان ، وقد يراد به الإيمان المطلق .

فإذا رأينا رجلًا : إذا ذكر الله ، لم يوجل قلبه ، وإذا تليت عليه آياته ، لم يزدد إيمانًا ، فيصح أن نقول : إنه مؤمن ، ويصح أن نقول : ليس بمؤمن ؛ فنقول : مؤمن ؛ أى : معه مطلق الإيمان ؛ يعنى : أصله ، وليس بمؤمن ؛ أى : ليس معه الإيمان الكامل .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(فى اسم الإيمان المطلق) ؛ أى : إذا أريد بالإيمان الإيمان الكامل ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية ؛ لأن المراد بالإيمان المذكور فى الآية الكريمة الإيمان الكامل ، فلا يدخل فيه الفاسق ؛ لأن إيمانه ناقص .

ولنرجع إلى تفسير الآية الكريمة : (إنما) أداة حصرٍ ، تثبت الحكم للمذكور ، وتنفيه عما سواه .

(المؤمنون) ؛ أى : الإيمان الكامل .

(إذا ذكر الله) ؛ أى : ذكرت عظمته وقدرته ، وما خوف به من عصاه .

(وجلت قلوبهم) ؛ أى : خافت

(وإذا تليت عليهم آياته) ؛ أى : قرئت آياته المنزلة ، أو ذكرت آياته الكونية .

(زادتهم إيمانا) ؛ أى : زاد إيمانهم بسبب ذلك .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هذا مثال ثان للإيمان الذى يراد به الإيمان المطلق ؛ أى الكامل .

وقوله : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن »[1]: هنا نفى عنه الإيمان الكامل حين زناه ، أما بعد أن يفرغ من الزنى ، فقد يؤمن ، فقد يلحقه الخوف من الله بعد أن يتم الزنى فيتوب ، لكن حين إقدامه على الزنى لو كان عنده إيمان كامل ، ما أقدم عليه ، بل إيمانه ضعيف جدًا حين أقدم عليه .

وتأمل قوله : « حين يزني » : احترازًا من أنه قبل الزنى وبعده تختلف حاله ؛ لأن الإنسان ما

---

(1) أخرجه البخارى (٢٤٧٥) ، ومسلم (٥٧) .

ولا يَسْرِقُ السارقُ حينَ يَسْرِقُ وهو مؤمنٌ [١]، ولا يَشْرَبُ الخَمْرَ حينَ يَشْرَبُها وهو مؤمنٌ [٢]، ولا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذاتَ شَرَفٍ ، يَرْفَعُ الناسُ إليه فيها أبصارَهم حينَ يَنْتَهِبُها وهو مؤمنٌ » [٣].

دام لم يفعل الفاحشة ، ولو هم بها ، فهو على أملٍ ألّا يقدم عليها .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(وعلى ربهم يتوكلون) ؛أى : يفوضون جميع أمورهم إليه ، لا إلى غيره .

ثم ذكر الشيخ دليلًا من السنة على أن الفاسق الملى لا يدخل فى اسم الإيمان الكامل ، وهو قوله ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » إلخ ؛ أى كامل الإيمان ، فالمنفى هنا عن الزانى والسارق والشارب هو كمال الإيمان ، لا جميع الإيمان ؛ بدليل الإجماع على توريث الزانى والسارق وشارب الخمر .

فقد دل الحديث على أن هؤلاء حين فعلهم المعصية قد انتفى الإيمان الكامل عنهم ، وقد دلت النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة على أنهم غير مرتدين بذلك ، فعلم أن الإيمان المنفى فى هذا الحديث إنما هو كمال الإيمان الواجب .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

وقوله : « ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » : أى : كامل الإيمان ؛ لأن الإيمان يردعه عن سرقته .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

وقوله : « ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » ؛ أى : كامل الإيمان .

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين :

« ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم » . « ذات شرف » ؛ أى : ذات قيمة عند الناس ؛ ولهذا يرفعون إليه أبصارهم ، فلا ينتهبها حين ينتهبها وهو مؤمن ؛ أى : كامل الإيمان .

هذه أربعة أشياء :الزنى (وهو الجماع فى فرج حرام) ، والسرقة (وهى أخذ المال المحترم على وجه الخفية من حرز مثله) ، وشرب الخمر (والمراد تناوله بأكل أو شرب ، والخمر كل ما أسكر على وجه اللذة والطرب) ، والنهبة التى لها شرفٌ وقيمة عند الناس (قيل : الانتهاب : أخذ المال

ونقولُ : هو مؤمنٌ ناقصُ الإيمانِ ، أو : مؤمنٌ بإيمانِه ، فاسقٌ بكبيرتِه ، فلا يُعْطَى الاسمَ المُطْلَقَ ، ولا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسمِ(١) .

على وجه الغنيمة) ؛ لا يفعل هذه الأشياء الأربعة أحد وهو مؤمن بالله حين فعله لها . فالمراد بنفى الإيمان هنا : نفى تمام الإيمان .

❋ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (ولا ينتهب نهبةً ذات شرفٍ إلخ) النهبة - بضم النون - هى الشىء المنهوب ، والنهب أخذ المال بالغلبة والقهر .

(ذات شرفٍ) ؛ أى : قدرٍ ، وقيل : ذات استشرافٍ ، يستشرف الناس إليها ناظرين إليها ، رافعين أبصارهم .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هذا بيان للوصف الذى يستحقه الفاسق الملى عند أهل السنة والجماعة .

والفرق بين مطلق الشىء والشىء المطلق : أن الشىء المطلق هو الشىء الكامل ، ومطلق الشىء ؛ يعنى : أصل الشىء ، وإن كان ناقصًا .

فالفاسق الملِّى لا يعطى الاسم المطلق فى الإيمان ، وهو الاسم الكامل ، ولا يسلب مطلق الاسم ؛ فلا نقول : ليس بمؤمن ، بل نقول : مؤمن ناقص الإيمان ، أو : مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته .

هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة ، وهو المذهب العدل الوسط .

وخالفهم فى ذلك طوائف :

- المرجئة ؛ يقولون : مؤمن كامل الإيمان .
- والخوارج ؛ يقولون : كافر .
- والمعتزلة ؛ يقولون : فى منزلة بين منزلتين .

❋ قال الشيخ الفوزان :

ثم إن الشيخ رحمه الله ذكر النتيجة للبحث السابق ، واستخلص الحكم بقوله فى حق الفاسق الملى : (ونقول : هو مؤمن ناقص الإيمان ، أو مؤمن بإيمانه ، فاسق بكبيرته) وهذا هو الحكم العادل ؛ جمعًا بين النصوص التى نفت الإيمان عنه ، كحديث : (لا يزنى الزانى حين

الواجبُ نحوَ أصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وذِكْرُ فضائِلِهم

« فصلٌ » :

ومن أصولِ أهلِ السنةِ والجماعةِ(١) سلامةُ قلوبهم وألسنتِهم لأصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ(٢)، ....

يزنى، وهو مؤمن) والنصوص التى أثبتت الإيمان له؛ كآية القصاص، وآية حكم البغاة السابقتين.

وبناءً على ذلك (فلا يعطى الاسم المطلق)؛ أى: اسم الإيمان الكامل.

(ولا يسلب مطلق الاسم)؛ أى: الإيمان الناقص، فيحكم عليه بالخروج من الإيمان، كما تقوله المعتزلة والخوارج، واللَّه أعلم.

فالإيمان المطلق هو الإيمان الكامل، ومطلق الإيمان هو الإيمان الناقص.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

فصل: فى موقف أهل السنة والجماعة من أصحاب رسول اللَّه ﷺ.

أى: من أسس عقيدتهم.

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

قوله: «سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول اللَّه ﷺ». ولم يقل: وأفعالهم؛ لأن الأفعال متعذرة بعد موت الصحابة، حتى لو فرض أن أحدًا نبش قبورهم وأخرج جثثهم؛ فإن ذلك لا يؤذيهم ولا يضرهم، لكن الذى يمكن أن يكون بعد موت الصحابة نحوهم هو ما يكون فى القلب وما ينطق به اللسان.

فمن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول اللَّه ﷺ؛ [أعنى] سلامة القلب من البغض والغل والحقد والكراهة، وسلامة ألسنتهم من كل قول لا يليق بهم.

فقلوبهم سالمة من ذلك، مملوءة بالحب والتقدير والتعظيم لأصحاب رسول اللَّه ﷺ على ما يليق بهم.

فهم يحبون أصحاب النبى ﷺ، ويفضّلونهم على جميع الخلق؛ لأن محبتهم من محبة رسول اللَّه ﷺ، ومحبة رسول اللَّه ﷺ من محبة اللَّه، وألسنتهم أيضًا سالمة من السب والشتم

....

واللعن والتفسيق والتكفير وما أشبه ذلك مما يأتى به أهل البدع ، فإذا سلمت من هذا ، ملئت من الثناء عليهم والترضى عنهم والترحم والاستغفار وغير ذلك ، وذلك للأمور التالية :

أولًا : أنهم خير القرون فى جميع الأمم ، كما صرح بذلك رسول اللَّه ﷺ حين قال : « خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »(1) .

ثانيًا : أنهم هم الواسطة بين رسول اللَّه ﷺ وبين أمته ؛ فمنهم تلقت الأمة عنه الشريعة .

ثالثًا : ما كان على أيديهم من الفتوحات الواسعة العظيمة .

رابعًا : أنهم نشروا الفضائل بين هذه الأمة من الصدق والنصح والأخلاق والآداب التى لا توجد عند غيرهم ، ولا يعرف هذا من كان يقرأ عنهم من وراء جدر ، بل لا يعرف هذا إلا من عاش فى تاريخهم وعرف مناقبهم وفضائلهم وإيثارهم واستجابتهم للَّه ولرسوله ﷺ .

فنحن نشهد اللَّه عز وجل على محبة هؤلاء الصحابة ، ونثنى عليهم بألسنتنا بما يستحقون ، ونبرأ من طريقين ضالين : طريق الروافض الذين يسبون الصحابة ويغلون فى آل البيت ، ومن طريق النواصب الذين يبغضون آل البيت ، ونرى أن لآل البيت إذا كانوا صحبة ثلاثة حقوق : حق الصحبة ، وحق الإيمان ، وحق القرابة من رسول اللَّه ﷺ .

وقوله : « لأصحاب رسول اللَّه ﷺ » : سبق أن أصحاب رسول اللَّه ﷺ كل من اجتمع به مؤمنًا به ومات على ذلك ، وسمى صاحبًا ؛ لأنه إذا اجتمع بالرسول ﷺ مؤمنًا به ؛ فقد التزم اتباعه ، وهذا من خصائص صحبة الرسول ﷺ ، أما غير الرسول ؛ فلا يكون الشخص صاحبًا له حتى يلازمه ملازمة طويلة يستحق أن يكون بها صاحبًا .

✽ قال الشيخ الفوزان :

أى : من أصول عقيدة أهل السنة والجماعة (سلامة قلوبهم) من الغل والحقد والبغض ، وسلامة (ألسنتهم) من الطعن واللعن والسب (لأصحاب رسول اللَّه ﷺ) ، لفضلهم ، وسبقهم ، واختصاصهم بصحبة النبى ﷺ ، ولما لهم من الفضل على جميع الأمة ؛ لأنهم الذين تحملوا الشريعة عنه ﷺ ، وبلغوها لمن بعدهم ، ولجهادهم مع الرسول ﷺ ، ومناصرتهم له .

وغرض الشيخ من عقد هذا الفصل الرد على الرافضة والخوارج الذين يسبون الصحابة ،

---

(1) أخرجه البخارى (٢٦٥٢) ، ومسلم (٢٥٣٣) .

كما وصفهم اللَّهُ به فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾(١) [الحشر: ١٠] ، ....

ويبغضونهم ، ويجحدون فضائلهم ، وبيان براءة أهل السنة والجماعة من هذا المذهب الخبيث ، وأنهم مع صحابة نبيهم .

✽ **قال الشيخ هراس :**

يقول المؤلف : إن من أصول أهل السنة والجماعة التى فارقوا بها من عداهم من أهل الزيغ والضلال أنهم لا يَزْرون بأحد من أصحاب رسول اللَّه ﷺ ولا يطعنون عليه ولا يحملون له حقدًا ولا بغضًا ولا احتقارًا ، فقلوبهم وألسنتهم من ذلك كله براء ، ولا يقولون فيهم إلا ما حكاه اللَّه عنهم بقوله : ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ الآية [الحشر: ١٠] ، فهذا الدعاء الصادر ممن جاء بعدهم ممن اتبعوهم بإحسان يدل على كمال محبتهم لأصحاب رسول اللَّه ﷺ وثنائهم عليهم وهم أهل لذلك الحب والتكريم لفضلهم وسبقهم وعظيم سابقتهم واختصاصهم بالرسول ﷺ ، ولإحسانهم إلى جميع الأمة ؛ لأنهم هم المبلغون لهم جميع ما جاء به نبيهم ، فما وصل لأحد علم ولا خبر إلا بواسطتهم ، وهم يوقرونهم أيضًا طاعة للنبى ﷺ ، حيث نهى عن سبهم والغض منهم ، وبيّن أن العمل القليل من أحد أصحابه ، يفضل العمل الكثير من غيرهم ، وذلك لكمال إخلاصهم وصادق إيمانهم(1) .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

استدل المؤلف رحمه اللَّه لموقف أهل السنة بقوله : « كما وصفهم اللَّه به فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠] » .

هذه الآية بعد آيتين سابقتين هما قوله تعالى : ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨] » ، وعلى رأس هؤلاء المهاجرين أبو بكر وعمر وعثمان وعلى بن أبى طالب رضى اللَّه عنهم أجمعين .

---

(1) شرفهم بصحبة النبى ﷺ . « إسماعيل الأنصاري » .

....

ففي قوله : ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ : إخلاص النية ، وفي قوله : ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ : تحقيق العمل ، وقوله : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ ؛ أي : لم يفعلوا ذلك رياء ولا سمعة ، ولكن عن صدق نية .

ثم قال في الأنصار : ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر : ٩] ؛ فوصفهم الله بأوصاف ثلاث : ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ ، ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ ، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ .

ثم قال تعالى بعد ذلك : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ الآية ، وهم التابعون لهم بإحسان وتابعوهم إلى يوم القيامة ؛ فقد أثنوا عليهم بالأخوة ، وبأنهم سبقوهم بالإيمان ، وسألوا الله ألَّا يجعل في قلوبهم غلًّا لهم ؛ فكل من خالف في ذلك وقدح فيهم ولم يعرف لهم حقهم ؛ فليس من هؤلاء الذين قال الله عنهم : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا﴾ .

ولما سئلت عائشة رضي الله عنها عن قوم يسبون الصحابة ؛ قالت : لا تعجبون ! هؤلاء قوم انقطعت أعمالهم بموتهم ، فأحب الله أن يجري أجرهم بعد موتهم ! ! .

وقوله : ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ، ولم يقل : للذين سبقونا بالإيمان ؛ ليشمل هؤلاء السابقين وغيرهم إلى يوم القيامة .

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ : ولرأفتك ورحمتك نسألك المغفرة لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان .

❊ قال الشيخ الفوزان :

كما وصفهم الله في قوله : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ ؛ أي : بعد المهاجرين والأنصار ، وهم التابعون لهم بإحسانٍ إلى يوم القيامة من عموم المسلمين .

❊ قال الشيخ الفوزان :

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ المراد بالأخوة هنا أخوة الدين ، فهم يستغفرون لأنفسهم ، ولمن تقدمهم من المهاجرين والأنصار .

....

❊ قال الشيخ الفوزان :

﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾؛ أى : غشًا وبغضًا وحسدًا .

﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أى : لأهل الإيمان ، ويدخل فى ذلك الصحابة دخولًا أوليًا ؛ لكونهم أشرف المؤمنين ، ولكون السياق فيهم .

قال الإمام الشوكانى : فمن لم يستغفر للصحابة على العموم ، ويطلب رضوان الله لهم فقد خالف ما أمر الله به فى هذه الآية .

فإن وجد فى قلبه غلًا لهم فقد أصابه نزغ من الشيطان ، وحل به نصيب وافر من عصيان الله بعداوة أوليائه وخير أمة نبيه ﷺ ، وانفتح له باب من الخذلان ما يفد به على نار جهنم ، إن لم يتدارك نفسه باللجوء إلى الله سبحانه ، والاستغاثة به بأن ينزع عن قلبه ما طرقه من الغل لخير القرون ، وأشرف هذه الأمة .

فإن جاوز ما يجده من الغل إلى شتم أحدٍ منهم فقد انقاد للشيطان بزمامٍ ، ووقع فى غضب الله وسخطه .

وهذا الداء العضال إنما يصاب به من ابتلى بمعلمٍ من الرافضة ، أو صاحبٍ من أعداء خير الأمة الذين تلاعب بهم الشيطان ، وزين لهم الأكاذيب المختلقة ، والأقاصيص المفتراة ، والخرافات الموضوعة ، وصرفهم عن كتاب الله ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه . اهـ

والشاهد من الآية الكريمة : أن فيها فضل الصحابة ؛ لسبقهم بالإيمان ، وفضل أهل السنة الذين يتولونهم ، وذم الذين يعادونهم .

وفيها : مشروعية الاستغفار للصحابة والترضى عنهم .

وفيها : سلامة قلوب أهل السنة وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ ، ففى قولهم : ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ إلخ سلامة الألسنة ، وفى قولهم : ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ سلامة القلوب .

وفى الآية تحريم سبهم وبغضهم ، وأنه ليس من فعل المسلمين ، وأن من فعل ذلك لا يستحق من الفىء شيئًا .

وطاعةُ[١] النبيِّ ﷺ في قولِه : « لا تَسُبُّوا[٢] أصحابي[٣]، فوالذي نفسي بيدِه[٤]،

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

« طاعة » : معطوف على قوله : « سلامة » ؛ أي : من أصول أهل السنة والجماعة : طاعة النبي ﷺ .... إلخ ..

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

السب : هو القدح والعيب ؛ فإن كان في غيبة الإنسان ؛ فهو غيبة .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

وقوله : (وطاعة النبي ﷺ في قوله) ؛ أي : أن أهل السنة يطيعون النبي ﷺ في سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحابه ، والكف عن سبهم وتنقصهم ، حيث نهاهم النبي ﷺ عن ذلك بقوله : « لا تسبوا أصحابي » ؛ أي : لا تتنقصوا ، ولا تشتموا .

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

أي : الذين صحبوه ، وصحبة النبي ﷺ لا شك أنها تختلف : صحبة قديمة قبل الفتح ، وصحبة متأخرة بعد الفتح .

والرسول عليه الصلاة والسلام كان يخاطب خالد بن الوليد حين حصل بينه وبين عبد الرحمن بن عوف ما حصل من المشاجرة في بني جذيمة ، فقال النبي ﷺ لخالد : « لا تسبوا أصحابي » ، والعبرة بعموم اللفظ .

ولا شك أن عبد الرحمن بن عوف وأمثاله أفضل من خالد بن الوليد رضي الله عنه من حيث سبقهم إلى الإسلام ؛ لهذا قال : « لا تسبوا أصحابي » ؛ يخاطب خالد بن الوليد وأمثاله .

وإذا كان هذا بالنسبة لخالد بن الوليد وأمثاله ؛ فما بالك بالنسبة لمن بعدهم .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

(أصحابي) جمع صاحبٍ ، ويقال لمن صاحب النبي ﷺ : صحابيٌّ ، وهو من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ، ومات على ذلك .

(٤) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

أقسم النبي عليه الصلاة والسلام ، وهو الصادق البار بدون قسم : « لو أن أحدكم أنفق مثل

لو أنَّ أحدَكم أنْفَق مثلَ أُحُدٍ(١) ذهبًا ، ما بلَغ مُدَّ(٢) أحدِهم ، ولا نَصِيفَه »(٣).

أُحد ذهبًا ؛ ما بلغ مُد أحدهم ولا نَصيفه »[1].

✽ قال الشيخ الفوزان :

(فوالذى نفسى بيده) هذا قسم من النبى ﷺ ، يريد به تأكيد ما بعده .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

« أحد » : جبل عظيم كبير معروف فى المدينة .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(لو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهبًا) جواب الشرط ، و(أحد) جبل معروف فى المدينة ، سمى بذلك لتوحده عن الجبال ، و(ذهبًا) منصوب على التمييز .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

المد : ربع الصاع .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(ما بلغ مد أحدهم) المد مكيال وهو ربع الصاع النبوى .

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين :

« ولا نصيفه » ؛ أى : نصفه . قال بعضهم : من الطعام ؛ لأن الذى يقدر بالمد والنصيف هو الطعام ، أما الذهب فيوزن ، وقال بعضهم : من الذهب ؛ بقرينة السياق ؛ لأنه قال : « لو أنفق مثل أحد ذهبًا ؛ ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » . يعنى : من الذهب .

وعلى كل حال ؛ فإن قلنا : من الطعام ؛ فمن الطعام ، وإن قلنا : من الذهب ؛ فليكن من الذهب ، ونسبة المد أو نصف المد من الذهب إلى جبل أُحد من الذهب لا شيء .

فالصحابة رضى اللَّه عنهم إذا أنفق الإنسان مثل أُحد ذهبًا ؛ ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ، والإنفاق واحد ، والمنفق واحد ، والمنفق عليه واحد ، وكلهم بشر ، لكن لا يستوى البشر بعضهم مع بعض ؛ فهؤلاء الصحابة رضى اللَّه عنهم لهم من الفضائل والمناقب والإخلاص والاتباع ما ليس لغيرهم ؛ فلإخلاصهم العظيم ، واتباعهم الشديد ؛ كانوا أفضل من غيرهم فيما ينفقون .

وهذا النهى يقتضى التحريم ؛ فلا يحل لأحدٍ أن يسب الصحابة على العموم ، ولا أن يسب

(1) أخرجه البخارى (٣٦٧٣) ، ومسلم (٢٥٤١) .

فَضْلُ الصَّحابةِ ، وموقفُ أهلِ السنةِ والجماعةِ منه ، وبيانُ تفاضُلِهم :
ويَقْبَلون[١] ما جاء به الكتابُ والسنةُ والإجماعُ مِن فضائِلِهم ومَراتِبِهم[٢] ،

واحدًا منهم على الخصوص ؛ فإن سبهم على العموم ؛ كان كافرًا ، بل لا شكَّ فى كُفر من شك فى كفره ، أما إن سبهم على سبيل الخصوص ؛ فينظر فى الباعث لذلك ؛ فقد يسبهم من أجل أشياء خلْقية أو خُلُقية أو دينية ، ولكل واحد من ذلك حكمه .

❋ قال الشيخ الفوزان :

(ولا نصيفه) لغة فى النصف ، كما يقال : ثمين ، بمعنى الثمن .

والمعنى أن الإنفاق الكثير فى سبيل اللَّه من غير الصحابة رضى اللَّه عنهم لا يعادل الإنفاق القليل من الصحابة ، وذلك أن الإيمان الذى كان فى قلوبهم حين الإنفاق فى أول الإسلام ، وقلة أهله ، وكثرة الصوارف عنه ، وضعف الدواعى إليه ، لا يمكن أن يحصل لأحدٍ مثله ممن بعدهم .

والشاهد من الحديث : أن فيه تحريم سب الصحابة ، وبيان فضلهم على غيرهم ، وأن العمل يتفاضل بحسب نية صاحبه ، وبحسب الوقت الذى أدى فيه ، واللَّه أعلم .

وفى الحديث أن من أحب الصحابة ، وأثنى عليهم فقد أطاع الرسول ﷺ ، ومن سبهم وأبغضهم فقد عصى الرسول ﷺ .

بين الشيخ رحمه اللَّه فى هذا المقطع من كلامه تفاضل الصحابة ، بعد أن بين - فيما سبق - فضلهم عمومًا ، وموقف أهل السنة والجماعة من ذلك .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

أى : أهل السنة .

❋ قال الشيخ الفوزان :

فقوله : (ويقبلون) ؛ أى : أهل السنة والجماعة (ما جاء فى الكتاب والسنة والإجماع) ؛ أى : إجماع المسلمين .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم » .

الفضائل : جمع فضيلة ، وهو ما يفضل به المرء غيره ويعد منقبة له .

والمراتب : الدرجات ؛ لأن الصحابة درجات ومراتب ؛ كما سيذكرهم المؤلف رحمه اللَّه .

ويُفَضِّلون مَن أنْفَق مِن قبلِ الفتحِ - وهو صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ - وقاتل، على مَن أَنْفَق مِن بعدُ، وقاتَل(١)، ....

فما جاء من فضائل الصحابة ومراتبهم؛ فإن أهل السنة والجماعة يقبلون ذلك:

- فمثلًا يقبلون ما جاء عنهم من كثرة صلاةٍ أو صدقةٍ أو صيامٍ أو حج أو جهاد أو غير ذلك من الفضائل.

- ويقبلون مثلًا ما جاء فى أبى بكر رضى اللّه عنه أن النبى ﷺ حثَّ على الصدقة، فجاء أبو بكر بجميع ماله، وهذه فضيلة.

- ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة من أن أبا بكر رضى اللّه عنه كان وحده صاحب رسول اللّه ﷺ فى هجرته فى الغار.

- ويقبلون ما جاء به النص من قول الرسول عليه الصلاة والسلام فى أبى بكر: «إن من أمنّ الناس علىّ فى ماله وصحبته أبو بكر».

- وكذلك ما جاء فى عمر وفى عثمان وفى على رضى اللّه عنهم، وما جاء فى غيرهم من الصحابة من الفضائل؛ يقبلون هذا كله.

- وكذلك المراتب، فيقبلون ما جاء فى مراتبهم؛ فالخلفاء الراشدون هم القمة فى هذه الأمة فى المرتبة، وأعلاهم مرتبة أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان ثم على؛ كما سيذكره المؤلف.

❊ قال الشيخ الفوزان:

(من فضائلهم ومراتبهم) وكفى بهذه المصادر الثلاثة شاهدًا على فضلهم.

ثم إنهم ليسوا على درجةٍ واحدةٍ فى الفضل، بل بحسب سبقهم إلى الإسلام والجهاد والهجرة، وبحسب ما قاموا به من أعمالٍ تجاه نبيهم ودينهم، رضى اللّه عنهم.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

دليل ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

فالذين أنفقوا وقاتلوا قبل صلح الحديبية أفضل من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وكان صلح الحديبية فى السنة السادسة من الهجرة فى ذى القعدة؛ فالذين أسلموا قبل ذلك وأنفقوا وقاتلوا أفضل من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا.

....

فإذا قال قائل : كيف نعرف ذلك ؟

فالجواب : أن ذلك يعرف بتاريخ إسلامهم ؛ كأن نرجع إلى « الإصابة فى تمييز الصحابة » لابن حجر أو « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب » لابن عبد البر أو غير ذلك من الكتب المؤلفة فى الصحابة رضى اللّٰه عنهم ، ويعرف أن هذا أسلم من قبل أو أسلم من بعد .

وقول المؤلف : « وهو صلح الحديبية » :

- هذا أحد القولين فى الآية ، وهو الصحيح ، ودليله قصة خالد مع عبد الرحمن بن عوف ، وقول البراء بن عازب : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحًا ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية . رواه البخاري[1] .

- وقيل : المراد فتح مكة ، وهو قول كثير من المفسرين أو أكثرهم .

❁ قال الشيخ الفوزان :

ولذلك قال الشيخ رحمه اللّٰه : (ويفضلون من أنفق قبل الفتح ، وهو صلح الحديبية) .

لأن اللّٰه سماه فتحًا بقوله تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح : ١] ، وذلك هو المشهور أن المراد صلح الحديبية ؛ لأن سورة الفتح نزلت عقيبه .

والحديبية : بئر قرب مكة ، وقعت عنده البيعة تحت شجرة كانت هناك ، حينما صد المشركون رسول اللّٰه ﷺ وأصحابه عن دخول مكة ، فبايعوه على الموت .

وسميت هذه البيعة فتحًا ؛ لما حصل بسببها من الخير والنصر للمسلمين .

والدليل على تفضيل هؤلاء : قوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد : ١٠] .

وهؤلاء هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، قال اللّٰه تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

❁ قال الشيخ هراس :

وأما قوله : (ويفضلون من أنفق من قبل الفتح - وهو صلح الحديبية - وقاتل ، على من أنفق

---

(1) أخرجه البخارى (٤١٥٠) .

ويُقَدِّمون المهاجرين (١) على الأنصارِ (٢).

من بعده وقاتل) : فقد ورد النص القرآني بذلك ، قال تعالى في سورة « الحديد » : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد : ١٠] ، وأما تفسير الفتح بصلح الحديبية فذلك هو المشهور ، وقد صح أن سورة « الفتح » نزلت عقيبه . وسمى هذا الصلح فتحًا لما ترتب عليه من نتائج بعيدة المدى في عزة الإسلام وقوته وانتشاره ودخول الناس فيه .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

المهاجرون : هم الذين هاجروا إلى المدينة في عهد النبي ﷺ قبل فتح مكة .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

الأنصار هم الذين هاجر إليهم النبي ﷺ في المدينة .

وأهل السنة يقدمون المهاجرين على الأنصار لأن المهاجرين جمعوا بين الهجرة والنصرة ، والأنصار أتوا بالنصرة فقط .

- فالمهاجرون تركوا أهلهم وأموالهم ، وتركوا أوطانهم ، وخرجوا إلى أرض هم فيها غرباء ؛ كل ذلك هجرة إلى الله ورسوله ، ونصرة لله ورسوله .

- والأنصار أتاهم النبي ﷺ في بلادهم ، ونصروا النبي ﷺ ، ولا شك أنهم منعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم .

ودليل تقديم المهاجرين : قوله تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة : ١٠٠]. فقدم المهاجرين على الأنصار ، وقوله : ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ [التوبة : ١١٧] ؛ فقدَّم المهاجرين ، وقوله في الفيء : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ [الحشر : ٨] ، ثم قال : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر : ٩] .

❁ قال الشيخ الفوزان :

قال : (ويقدمون المهاجرين على الأنصار) . المهاجرون جمع مهاجرٍ ، والمراد بهم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة .

والهجرة لغةً : الترك .

وشرعًا : الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام .

ويُؤْمِنون بأنَّ اللَّهَ قال لأهلِ بدرٍ، وكانوا ثلاثَمائةٍ و بِضْعةَ عشَرَ: « اعْمَلوا ما شِئْتُم فقد غفَرْتُ لكم »(١).

والأنصار؛ أى: الذين ناصروا الرسول ﷺ، وهم الأوس والخزرج، سماهم النبى ﷺ بهذا الاسم.

❁ قال الشيخ هراس:

وأما قوله: (ويقدمون المهاجرين على الأنصار): فلأن المهاجرين جمعوا الوصفين النصرة والهجرة، ولهذا كان الخلفاء الراشدون وبقية العشرة من المهاجرين، وقد جاء القرآن بتقديم المهاجرين على الأنصار فى سورة « التوبة » و« الحشر »، وهذا التفضيل إنما هو للجملة على الجملة، فلا ينافى أن فى الأنصار من هو أفضل من بعض المهاجرين.

وقد روى عن أبى بكر أنه قال فى خطبته يوم السقيفة: « نحن المهاجرون وأول الناس إسلامًا، أسلمنا قبلكم وقُدِّمنا فى القرآن عليكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ».

❁ قال الشيخ الفوزان:

والدليل على تفضيل المهاجرين على الأنصار أن اللّه قدمهم فى الذكر، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾، وقال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية [الحشر: ٨، ٩].

فدلت هذه الآيات الكريمة على فضل المهاجرين والأنصار، وعلى تقديم المهاجرين على الأنصار فى الفضل لتقديمهم فى الذكر، ولما قاموا به من ترك بلادهم وأموالهم وأولادهم؛ طلبًا للأجر، ونصرةً للّه ولرسوله، وصدقهم فى ذلك، رضى اللّه عنهم.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

أهل بدر مرتبتهم أعلى من مراتب الصحابة.

وبدر مكان معروف، كانت فيه الغزوة المشهورة، وكانت فى السنة الثانية من الهجرة فى رمضان، وسمى اللّه تعالى يومها يوم الفرقان.

....

وسببها أن النبى ﷺ سمع أن أبا سفيان قدِم بعيرٍ من الشام إلى مكة ، فندب أصحابه من أجل هذه العير فقط ، فانتدب منهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا ، معهم سبعون بعيرًا وفرسان وخرجوا من المدينة لا يريدون قتالًا ، لكن اللَّه عز وجل بحكمته جمع بينهم وبين عدوهم .

فلما سمع أبو سفيان بذلك ، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام خرج إليه لتلقى العير ؛ أخذ بساحل البحر ، وأرسل صارخًا إلى أهل مكة يستنجدهم ، فانتدب أهل مكة لذلك ، وخرجوا بأشرافهم وكبرائهم وزعمائهم ، خرجوا على الوصف الذى ذكر اللَّه عز وجل : ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال : ٤٧] .

وفى أثناء ذلك جاءهم الخبر أن أبا سفيان نجا بالعير ، فتآمروا بينهم فى الرجوع ، لكن أبا جهل قال : واللَّه لا نرجع حتى نقدم بدرًا ، فنقيم فيها ننحر الجزور ، ونسقى الخمور ، وتضرب علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبدًا .

وهذا الكلام يدل على الفخر والخيلاء والاعتزاز بالنفس ، ولكن - وللَّه الحمد - كان الأمر على عكس ما يقول ، سمعت العرب بهزيمتهم النكراء ، فهانوا فى نفوس العرب .

قدموا بدرًا ، والتقت الطائفتان ، وأوحى اللَّه تعالى إلى الملائكة : ﴿أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [الأنفال : ١٢- ١٤] .

حصل اللقاء بين الطائفتين ، وكانت الهزيمة - وللَّه الحمد - على المشركين ، والنصر المبين للمؤمنين ، انتصروا ، وأسروا منهم سبعين رجلًا ، وقتلوا سبعين رجلًا ، منهم أربعة وعشرون رجلًا من كبرائهم وصناديدهم ؛ سُحِبوا ، فألقوا فى قليب من قُلب بدر خبيثة قبيحة .

ثم إن النبى ﷺ بعد انتهاء الحرب بثلاثة أيام ركب ناقته ، ووقف عليهم يدعوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : « يا فلان بن فلان ! أيسركم أنكم أطعتم اللَّه ورسوله ؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا » . فقالوا : يا رسول اللَّه ، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟ فقال : « والذى نفسى بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم »[1]، والنبى عليه الصلاة

(1) أخرجه البخارى (٣٩٧٦) ، ومسلم (٢٨٧٣) .

....

والسلام وقف عليهم توبيخًا وتقريعًا وتنديمًا ، وهم قد وجدوا ما وعد الله حقًّا ؛ قال الله تعالى : ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [الأنفال : ١٤] ؛ فوجدوا النار من حين ماتوا وعرفوا أن الرسول حق ، ولكن أنى لهم التناوش من مكان بعيد .

✽ قال الشيخ الفوزان :

قال : (ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدرٍ – وكانوا ثلاثمائةٍ و بضعة عشر – : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . كما جاء في الصحيحين في قصة حاطب بن أبي بلتعة[1] .

وبدر : قرية مشهورة على نحو أربع مراحل من المدينة ، حصلت عندها الوقعة التي أعز الله بها الإسلام ، وسمي يوم الفرقان .

وقوله : (وكانوا ثلاثمائةٍ و بضعة عشر) . هكذا ورد عددهم في صحيح البخاري[2] .

✽ قال الشيخ هراس :

وأما قوله : (ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر) إلخ : فقد ورد أن عمر رضي الله عنه لما أراد قتل حاطب بن أبي بلتعة وكان قد شهد بدرًا ، لكتابته كتابًا إلى قريش يخبرهم فيه بمسير الرسول ﷺ ، فقال له الرسول ﷺ : « وما يدريك يا عمر ، لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

✽ قال الشيخ ابن عثيمين :

فأهل بدر الذين جعل الله على أيديهم هذا النصر المبين والفرقان الذي هاب العرب به رسول الله ﷺ وأصحابه ، وكان لهم منزلة عظيمة بعد هذا النصر ، اطلع اللهُ عليهم ، وقال : « اعملوا ما شئتم ؛ فقد غفرت لكم »[3] . فكل ما يقع منهم من ذنوب ؛ فإنه مغفور لهم بسبب هذه الحسنة العظيمة الكبيرة التي جعلها الله تعالى على أيديهم .

وفي هذا الحديث دليل على أن ما يقع منهم من الكبائر مهما عظم ، فهو مغفور لهم .

وفيه بشارة بأنهم لن يموتوا على الكفر ؛ لأنهم مغفور لهم ، وهذا يقتضي أحد أمرين :

---

(1) البخاري (٣٠٠٧) ، ومسلم (٤/١٩٤١) (٢٤٩٤) .

(2) البخاري (٣٩٥٧- ٣٩٥٩) .

(3) أخرجه البخاري (٣٠٠٧) ، ومسلم (٢٤٩٤) .

وبأنه لا يَدْخُلُ النارَ أحدٌ بايَع تحتَ الشجرةِ ، كما أَخْبَر به النبيُّ ﷺ ، بل لقد رضِيَ اللَّهُ عنهم ، ورَضُوا عنه ، وكانوا أكثرَ مِن ألفٍ وأربعِمائةٍ(١) .

- إما أنهم لا يمكن أن يكفروا بعد ذلك .
- وإما أنهم إن قدر أن أحدهم كفر ؛ فسيوفق للتوبة والرجوع إلى الإسلام .

وأيًا كان ، ففيه بشارة عظيمة لهم ، ولم نعلم أن أحدًا منهم كفر بعد ذلك .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) . وقال ابن القيم فى الفوائد : أشكل على كثيرٍ من الناس معناه ، ثم ذكر الأقوال فى ذلك ، ثم قال : فالذى نظن فى ذلك ، واللَّه أعلم ، أن هذا خطاب لقومٍ قد علم سبحانه أنهم لا يفارقون دينهم ، بل يموتون على الإسلام ، وأنهم قد يقارفون ما يقارفه غيرهم من الذنوب ، ولكن لا يتركهم سبحانه مصرين عليها ، بل يوفقهم لتوبةٍ نصوحٍ ، واستغفارٍ ، وحسناتٍ تمحو أثر ذلك .

ويكون تخصيصهم بهذا دون غيرهم ؛ لأنه قد تحقق ذلك فيهم ، وأنهم مغفور لهم ، ولا يمنع ذلك كون المغفرة حصلت بأسبابٍ تقوم بهم ، كما لا يقتضى أن يعطلوا الفرائض وثوقًا بالمغفرة .

فلو كانت قد حصلت بدون الاستمرار على القيام بالأوامر لما احتاجوا بعد ذلك إلى صلاةٍ ، ولا حجٍّ ، ولا زكاةٍ ، ولا جهادٍ ، وهذا محال . انتهى .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

أصحاب الشجرة هم أصحاب بيعة الرضوان(1) .

وسبب هذه البيعة أن النبى ﷺ خرج من المدينة إلى مكة يريد العمرة ، ومعه أصحابه والهدى ، وكانوا نحو ألف وأربعمائة رجل ، لا يريدون إلا العمرة ، فلما بلغوا الحديبية - وهى مكان قرب مكة ، فى طريق جدة الآن ، بعضها من الحل وبعضها من الحرم - وعلم بذلك المشركون ، منعوا رسول اللَّه ﷺ وأصحابه ؛ لأنهم يزعمون أنهم أهل البيت وحماة البيت ، [وقد قال تعالى] : ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال : ٣٤] . وجرت بينهم وبينهم مفاوضات .

---

(1) أخرجه مسلم (٢٤٩٦) .

....

وأرى الله تعالى من آياته فى هذه الغزوة ما يدل على أن الأَوْلى تنازل الرسول ﷺ وأصحابه لما يترتب على ذلك من الخير والمصلحة ؛ فإن ناقة الرسول عليه الصلاة والسلام بركت وأبت أن تسير ، حتى قالوا : « خلأت القصواء » ؛ يعنى : حرنت وأبت المسير . فقال النبى ﷺ مدافعًا عنها : « والله ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل » . ثم قال : « والذى نفسى بيده ، لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها »[1] .

وجرى التفاوض ، وأرسل النبى ﷺ عثمان بن عفان ؛ لأن له رهطًا بمكة يحمونه ، أرسله إلى أهل مكة يدعوهم إلى الإسلام ، ويخبرهم أن النبى ﷺ إنما جاء معتمرًا معظمًا للبيت ، فشاع الخبر بأن عثمان قد قتل ، وكبر ذلك على المسلمين ، فدعا النبى ﷺ إلى البيعة ؛ يبايع أصحابه على أن يقاتلوا أهل مكة الذين قتلوا رسول رسول الله ﷺ ، وكانت الرسل لا تقتل ، فبايع الصحابة رضى الله عنهم النبى ﷺ على أن يقاتلوا ولا يفروا إلى الموت .

وكان النبى ﷺ تحت شجرة يبايع الناس ؛ يمد يده فيبايعونه على هذه البيعة المباركة التى قال الله عنها : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح : ١٠] ، وكان عثمان رضى الله عنه غائبًا ، فبايع النبى ﷺ بيده عن يد عثمان ، وقال بيده اليمنى : « هذه يد عثمان » .

ثم تبين أن عثمان لم يقتل ، وصارت الرسل تأتى وتروح بين رسول الله ﷺ وقريش ، حتى انتهى الأمر على الصلح الذى صار فتحًا مبينًا للرسول عليه الصلاة والسلام .

هؤلاء الذين بايعوا قال الله عنهم : ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح : ١٨، ١٩] .

وكان من جملة المبايعين أبو بكر وعمر وعثمان وعلى .

فوصفهم الله تعالى بالإيمان ، وهذه شهادة من الله عز وجل بأن كل من بايع تحت الشجرة ، فهو مؤمن مرضى عنه ، والنبى عليه الصلاة والسلام قال : « لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » . فالرضا ثابت بالقرآن ، وانتفاء دخول النار ثبت بالسنة .

---

(1) أخرجه البخارى (٢٧٣٤) .

....

وقول النبي ﷺ : « لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » . قد يقول قائل : كيف نجمع بينه وبين قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم : ٧١] ؟

فالجمع من أحد وجهين :

الأول : أن يقال : إن المفسرين اختلفوا في المراد بالورود ، فقال بعضهم : هو المرور على الصراط ؛ لأن هذا نوع ورود بلا شك ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص : ٢٣] ، ومعلوم أنه لم ينزل وسط الماء ، بل كان حوله وقريبًا منه ، وبناء على هذا ؛ لا إشكال ولا تعارض أصلًا .

والوجه الثاني : أن من المفسرين من يقول : المراد بالورود الدخول ، وأنه ما من إنسان إلا ويدخل النار ، وبناء على هذا القول ، فيحمل قوله : « لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » : لا يدخلها دخول عذاب وإهانة ، وإنما يدخلها تنفيذًا للقسم : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ ، أو يقال : إن هذا من باب العام المخصوص بأهل بيعة الرضوان .

وقوله : « الشجرة » : الشجرة هذه شجرة سدر ، وقيل : شجرة سمر ، ولا طائل تحت هذا الخلاف ، كانت ذات ظل ، فجلس النبي ﷺ تحتها يبايع الناس ، وكانت موجودة في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وعهد أبي بكر رضي الله عنه وأول خلافة عمر ، فلما قيل له : إن الناس يختلفون إليها - أي : يأتونها - يصلون عندها ؛ أمر رضي الله عنه بقطعها ، فقطعت .

قال في « الفتح » : « وجدته عند ابن سعد بإسناد صحيح » . لكن في « صحيح البخاري »[1] عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : رجعنا من العام المقبل - يعني : بعد صلح الحديبية - فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها ، كانت رحمة من الله . وهكذا قال المسيب والد سعيد : فلما خرجنا من العام المقبل ؛ نسيناها ، فلم نقدر عليها » .

وهذا لا ينافي ما ذكره ابن حجر عن ابن سعد ؛ لأن نسيانها لا يستلزم عدمها ولا عدم تذكرها بعد . والله أعلم .

وهذه من حسنات عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ لأننا نظن أن هذه الشجرة لو كانت باقية إلى الآن ؛ لعبدت من دون الله .

---

(1) أخرجه البخاري (٢٩٥٨) .

ويَشْهَدون بالجنةِ لمن شهِد له رسولُ اللَّهِ ﷺ(١)، ....

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

قال : (وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة ، كما أخبر به النبى ﷺ ، بل لقد رضى اللَّه عنهم ، ورضوا عنه ، وكانوا أكثر من ألفٍ وأربعمائةٍ) . هذا الكلام فى شأن أهل بيعة الرضوان ، وهى البيعة التى حصلت فى الحديبية حين صد المشركون رسول اللَّه ﷺ عن دخول مكة ، كما سبق بيانه قريبًا ، وقد ذكر لهم الشيخ مزيتين :

الأولى :أنه لا يدخل النار أحد منهم ، ودليل ذلك ما فى صحيح مسلمٍ ، من حديث جابرٍ رضى اللَّه عنه ، أن النبى ﷺ قال : « لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة »(1).

الثانية :أن اللَّه قد رضى عنهم . وهذا صريح القرآن ، كما فى قوله تعالى : ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح : ١٨] .

وقوله : (وكانوا أكثر من ألفٍ وأربعمائةٍ) . هذا بناءً على الصحيح فى عددهم . واللَّه أعلم .

✽ **قال الشيخ هراس :**

وأما قوله : (وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة) إلخ : فلإخباره ﷺ بذلك ، ولقوله تعالى : ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ الآية [الفتح : ١٨] ، فهذا الرضا مانع من إرادة تعذيبهم ومستلزم لإكرامهم ومثوبتهم .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

أى : أهل السنة والجماعة .

والشهادة بالجنة نوعان : شهادة معلقة بوصف ، وشهادة معلقة بالشخص .

– أما المعلقة بالوصف ؛ فأن نشهد لكل مؤمن أنه فى الجنة ، وكل متق أنه فى الجنة ، بدون تعيين شخص أو أشخاص .

وهذه شهادة عامة ، يجب علينا أن نشهد بها ؛ لأن اللَّه تعالى أخبر به ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

---

(1)رواه أحمد فى مسنده (٣/٣٥٠) (١٤٧١٤) ، ومسلم (٤/١٩٤٢) (٢٤٩٦) ، وأبو داود (٤٦٥٣) ، والترمذى (٣٨٦٠) .

....

[لقمان : ٨، ٩] ، وقال : ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٣] .

- وأما الشهادة المعلقة بشخص معين ؛ فأن نشهد لفلان أو لعدد معين أنهم في الجنة .

وهذه شهادة خاصة ؛ فنشهد لمن شهد له الرسول ﷺ ؛ سواء شهد لشخص معين واحد أو لأشخاص معينين .

١ - مثال ذلك ما ذكره المؤلف بقوله : « كالعشرة » ؛ يعني بهم : العشرة المبشرين بالجنة ؛ لقبوا بهذا الاسم لأن النبي ﷺ جمعهم في حديث واحد وهم : الخلفاء الأربعة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وسعيد بن زيد ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، وانظر تراجمهم في المطولات .

وقد جمع الستة الزائدون عن الخلفاء الأربعة في بيت واحد ؛ فاحفظه :

سعيد وسعد وابن عوف وطلحة   وعامر فهر والزبير الممدح

هؤلاء بشرهم النبي ﷺ في نسق واحد ، فقال : « أبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة . . . . »[1] ، ولهذا لقبوا بهذا اللقب ؛ فيجب أن نشهد أنهم في الجنة لشهادة النبي ﷺ بذلك .

٢ - ثابت بن قيس رضي الله عنه أحد خطباء النبي ﷺ ، كان جهوري الصوت ، فلما نزل قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات : ٢] ؛ خاف أن يكون حبط عمله وهو لا يشعر ، فاختفى في بيته ، ففقده النبي عليه الصلاة والسلام ، فبعث إليه رجلًا يسأله عن اختفائه فقال : إن الله أنزل قوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ . وأنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ، حبط عملي ، أنا من أهل النار ! ! فأتى الرجل إلى النبي ﷺ فأخبره بما قال ثابت ، فقال النبي ﷺ : « اذهب إليه ؛ فقل له إنك لست من أهل النار ، ولكنك

---

(1) صححه الألباني في « صحيح الجامع » (٥٠- ٤٠١٠) .

كالعشرةِ[(١)]، وثابتِ بن قيسِ بنِ شَمَّاسٍ[(٢)]، ....

من أهل الجنة »[(1)]. فبشره النبى ﷺ بالجنة .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ كالعشرة ، وثابت بن قيس بن شماسٍ وغيرهم من الصحابة) ؛ أى : يشهد أهل السنة والجماعة بالجنة لمن شهد له الرسول بذلك .

أما من لم يشهد له الرسول ﷺ بالجنة فلا يشهدون له ؛ لأن فى هذا تقولًا على الله ، لكن يرجون للمحسنين ، ويخافون على المسيئين ، وهذا أصل من أصول العقيدة .

✽ قال الشيخ هراس :

وأما قوله : (ويشهدون بالجنة لمن شهد له الرسول ﷺ كالعشرة ، وثابت بن قيس بن شماس ، وغيرهم من الصحابة) : أما العشرة فهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبى وقاص ، وسعيد بن زيد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وأما غيرهم فكثابت بن قيس ، وعكاشة بن محصن ، وعبد الله بن سلَام ، وكل من ورد الخبر الصحيح بأنه من أهل الجنة .

(١) قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (كالعشرة) . هم : أبو بكرٍ وعمر وعثمان وعلىٌّ وعبد الرحمن بن عوفٍ والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاصٍ وسعيد بن زيدٍ وأبو عبيدة بن الجراح وطلحة بن عبيد الله رضى الله عنهم .

وقد صحت الأحاديث بالشهادة لهؤلاء بالجنة .

✽ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (وثابت بن قيس بن شماسٍ) . هو خطيب رسول الله ﷺ ، وبشارته بالجنة ثابتة فى صحيح البخارى ، عن النبى ﷺ .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

مثل أمهات المؤمنين ؛ لأنهن فى درجة الرسول ﷺ ، ومنهم بلال ، وعبد الله بن سلَام ، وعُكَّاشة بن محصن ، وسعد بن معاذ رضى الله عنهم .

---

(1) أخرجه البخارى (٤٨٤٦) ، ومسلم (١١٩) .

وغيرِهم مِن الصحابةِ(١).

ويُقِرُّون بما تواتَر به النقلُ عن أميرِ المؤمنين عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضِى اللَّهُ عنه، وغيرِه مِن أن خيرَ هذه الأُمَّةِ بعدَ نبيِّها : أبو بكرٍ ، ثم عمرُ(٢)، ....

(١) **قال الشيخ الفوزان :**

وقوله : (وغيرهم من الصحابة) ؛ أى : غير من ذكر ممن أخبر النبى ﷺ أنهم فى الجنة ، كعكاشة بن محصنٍ ، وعبد اللَّه بن سلَامٍ ، وغيرهما .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

التواتر : خبر يفيد العلم اليقينى ، وهو الذى نقله طائفة لا يمكن تواطؤهم على الكذب .

ففى « صحيح البخاري »[1] وغيره عن عبد اللَّه بن عمر رضى اللَّه عنهما ؛ قال : كنا نخير بين الناس فى زمن النبى ﷺ ؛ فنخير أبا بكر ، ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان .

وفى « صحيح البخاري »[2] أيضًا أن محمد ابن الحنفية قال : قلت لأبى : أى الناس خير بعد رسول اللَّه ﷺ ؟ قال : أبو بكر . قلت : ثم مَن ؟ قال : ثم عمر . وخشيت أن يقول : عثمان ؛ قلت : ثم أنت ؟ قال : ما أنا إلا رجل من المسلمين .

فإذا كان على رضى اللَّه عنه يقول وهو فى زمن خلافته : إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ؛ فقد اندحضت حجة الرافضة الذين فضلوه عليهما .

قوله : « وغيره » ؛ يعنى : غير علىٍّ من الصحابة والتابعين .

وهذا متفق عليه بين الأئمة .

- وقال الإمام مالك : ما رأيت أحدًا يشك فى تقديمهما .
- وقال الشافعى : لم يختلف الصحابة والتابعون فى تقديم أبى بكر وعمر .

ومن خرج عن هذا الإجماع ؛ فقد اتبع غير سبيل المؤمنين .

❊ **قال الشيخ الفوزان :**

قوله : (ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين على بن أبى طالبٍ رضى اللَّه عنه وغيره) ؛ أى : يعترف أهل السنة والجماعة ، ويعتقدون .

---

(1) أخرجه البخارى (٣٦٥٥) .

(2) أخرجه البخارى (٣٦٧١) .

ويُثَلِّثُون بعثمانَ(١)، ويُرَبِّعون بعليٍّ(٢) رضِى اللَّهُ عنهم، كما دلَّت عليه الآثارُ.

(ما تواتر به النقل) ؛ أى : ما ثبت بطريق التـــواتر والتواتر هو أقوى الأسانيد .

(عن أمير المؤمنين على بن أبى طالبٍ رضى اللَّه عنه وغيره) من الصحابة .

❊ قال الشيخ هراس :

وأما قوله : ([ويقرون] بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب وغيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر ، فقد ورد أن عليًا رضى اللَّه عنه قال ذلك على منبر الكوفة وسمعه منه الجم الغفير ، وكان يقول : « ما مات رسول اللَّه ﷺ حتى علِمنا أن أفضلنا بعده أبو بكر ، وما مات أبو بكر حتى علمنا أن أفضلنا بعده عمر » .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

« يثلثون » . يعنى : أهل السنة ؛ يجعلون عثمان هو الثالث .

❊ قال الشيخ الفوزان :

(أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكرٍ ، ثم عمر ، ويثلثون بعثمان) ؛ أى : يجعلونه الثالث فى الترتيب .

❊ قال الشيخ هراس :

وأما قوله : (ويثلثون ويربعون بعلى) إلخ : فمذهب جمهور أهل السنة أن ترتيب الخلفاء الراشدين فى الفضل على حسب ترتيبهم فى الخلافة ، وهم لهذا يفضلون عثمان على علىٍّ محتجِّين بتقديم الصحابة عثمان فى البيعة على علىٍّ .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

« ويربعون بعلي » . أى : يجعلون عليًا هو الرابع .

وعلى هذا ؛ فأفضل هذه الأمة هؤلاء الأربعة : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على .

❊ قال الشيخ الفوزان :

(ويربعون بعلىٍّ) ؛ أى : يجعلونه الرابع (رضى اللَّه عنهم) وفى هذه الرواية المتواترة عن علىٍّ ردٌّ على الرافضة الذين يفضلون عليًا على أبى بكرٍ وعمر ، ويقدمونه عليهما فى الخلافة ، فيطعنون فى خلافة الشيخين .

وهذا البحث يتضمن مسألتين :

الأولى : مسألة الخلافة ، الثانية : مسالة التفضيل ؛

وكما أجْمَع الصحابةُ على تقديمِ عثمانَ في البَيْعةِ[١] ، مع أنَّ بعضَ أهلِ السنةِ كانوا قد اخْتَلَفوا في عثمانَ وعليٍّ رضِي اللَّهُ عنهما ، بعدَ اتفاقِهم على تقديمِ أبي بكرٍ وعمرَ ، أيُّهما أفضلُ ؟ فقدَّم قومٌ عثمانَ ، وسكَتوا ، وربَّعوا بعليٍّ[٢]، وقدَّم قومٌ

فأما مسألة الخلافة فقد أجمع أهل السنة والجماعة بما فيهم الصحابة رضى الله عنهم على أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكرٍ ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم عليٌّ .

وأما مسألة التفضيل فقد أجمعوا على أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكرٍ ، ثم عمر ، كما تواتر به النقل عن عليٍّ .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

استدل المؤلف لهذا الترتيب بدليلين .

الأول : قوله : « كما دلت عليه الآثار » . وقد سبق ذكر شيء منها .

والثاني : قوله : « وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة » . فصار في تقديم عثمان على علي رضى الله عنهما آثار نقلية ، وفيه أيضًا دليل عقلي ، وهو إجماع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة ؛ فإن إجماعهم على ذلك يستلزم أن عثمان أفضل من علي ، وهو كذلك ؛ لأن حكمة الله عز وجل تأبى أن يولّى على خير القرون رجلًا وفيه من هو أفضل منه ؛ كما جاء في الأثر : « كما تكونون يولى عليكم » . فخير القرون لا يولى الله عليهم إلا من هو خيرهم .

❁ **قال الشيخ هراس :**

وبعض أهل السنة يفضل عليًا ؛ لأنه يرى أن ما ورد من الآثار في مزايا عليٍّ ومناقبه أكثر ، وبعضهم يتوقف في ذلك وعلى كل حال فمسألة التفضيل ليست كما قال المؤلف في مسائل الأصول التي يضلل فيها المخالف ، وإنما هي مسألة فرعية يتسع لها الخلاف ، وأما مسألة الخلافة فيجب الاعتقاد بأن خلافة عثمان كانت صحيحة ؛ لأنها كانت بمشورة من الستة الذين عينهم عمر رضى الله عنه ليختاروا الخليفة من بعده ، فمن زعم أن خلافة عثمان كانت باطلة وأن عليًا كان أحق بالخلاف منه فهو مبتدع ضال يغلب عليه التشيع مع ما في قوله من إزراء بالمهاجرين والأنصار .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

فيقولون : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ويسكتون ، أو يقولون : ثم علي .

عليًا[١]، وقومٌ توَقَّفوا[٢]، ....

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

فقالوا : أبو بكر ، ثم عمر . ثم على ، ثم عثمان . وهذا رأى من آراء أهل السنة .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

فقالوا : أبو بكر ، ثم عمر . وتوقفوا أيهما أفضل : عثمان أو على ؟ وهذا غير الرأى الأول .

فالآراء أربعة :

- الرأى المشهور : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على .
- الرأى الثانى : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم السكوت .
- الرأى الثالث : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم على ، ثم عثمان .
- الرأى الرابع : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم نتوقف أيهما أفضل : عثمان أو على ؛ فهم يقولون : لا نقول : عثمان أفضل ، ولا على أفضل ، لكن لا نرى أحدًا يتقدم على عثمان و [وعلى] على فى الفضيلة بعد أبى بكر وعمر .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

واختلفوا فى عثمان وعلىٍّ رضى اللَّه عنهما أيهما أفضل ، وقد ذكر الشيخ هنا فى المسألة ثلاثة أقوالٍ ، حيث يقول : (فقدم قوم عثمان وسكتوا ، أو ربعوا بعلىٍّ ، وقدم قوم عليًا ، وقوم توقفوا) .

هذا حاصل الخلاف فى المسألة : تقديم عثمان ، تقديم علىٍّ ، التوقف عن تقديم أحدهما على الآخر ، وأشار الشيخ إلى ترجيح الرأى الأول ، وهو تقديم عثمان ؛ لأمورٍ :

الأمر الأول : أن هذا هو الذى دلت عليه الآثار الواردة فى مناقب عثمان رضى اللَّه عنه .

الثانى : إجماع الصحابة على تقديم عثمان فى البيعة ، وما ذاك إلا أنه أفضل ، فترتيبهم فى الفضل كترتيبهم فى الخلافة .

الثالث : أنه استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ، ثم علىٍّ ، كما سبق أنهم قدموه فى البيعة .

قال عبد الرحمن بن عوفٍ لعلىٍّ رضى اللَّه عنه : إنى نظرت أمر الناس ، فلم أرهم يعدلون بعثمان .

لكن اسْتَقَرَّ أمرُ أهلِ السنةِ على تقديمِ عثمانَ(١)، ثم عليٍّ .

* * *

حكمُ تقديمِ عليٍّ رضِى اللَّهُ عنه على غيرِه مِن الخلفاءِ الأربعةِ فى الخلافةِ

وإن كانت هذه المسألةُ - مسألةُ عثمانَ وعليٍّ - ليست من الأصولِ التى يُضَلَّلُ المخالفُ فيها عندَ جمهورِ أهلِ السنةِ(٢)، لكن المسألةُ التى يُضَلَّلُ فيها مسألةُ

قال أبو أيوب : من لم يقدم عثمان على عليٍّ فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار[1] .

فهذا دليل على أن عثمان أفضل ؛ لأنهم قدموه باختيارهم بعد تشاورهم ، وكان عليٌّ رضى اللَّه عنه من جملة من بايعه ، وكان يقيم الحدود بين يديه .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

هذا الذى استقر عليه أمر أهل السنة ؛ فقالوا : أفضل هذه الأمة بعد نبيها : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على ؛ على ترتيبهم فى الخلافة . وهو الصواب ؛ كما سبق دليله .

❁ قال الشيخ الفوزان :

أبدى الشيخ رحمه اللَّه موازنةً بين المسألتين ؛ مسألة تقديم عليٍّ على عثمان فى الفضل ، ومسألة تقديم عليٍّ على غيره فى الخلافة ، من حيث ما يترتب على ذلك التقديم من خطورةٍ .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

يعنى : المفاضلة بين عثمان وعلى رضى اللَّه عنهما ليست من أصول أهل السنة التى يضلل فيها المخالف ؛ فمن قال : إن عليًّا أفضل من عثمان ؛ فلا نقول : إنه ضال ، بل نقول : هذا رأى من آراء أهل السنة ، ولا نقول فيه شيئًا .

❁ قال الشيخ الفوزان :

فبين أن مسألة تفضيل عليٍّ على عثمان لا يضلل - أى : لا يحكم بضلال من قال بها - نظرًا لوجود الخلاف فيها بين أهل السنة ، وإن كان الراجح تفضيل عثمان رضى اللَّه عنه .

---

(1) انظر شرح الطحاوية (ص٤٨٥) .

الخلافةِ(١)، وذلك أنهم يُؤْمِنون أنَّ الخليفةَ بعدَ رسولِ اللَّهِ ﷺ أبو بكرٍ، ثم عمرُ، ثم عثمانُ، ثم عليٌّ(٢)، ....

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

فيجب أن نقول: الخليفة بعد نبينا فى أمته أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم على. ومن قال: إن الخلافة لعلى دون هؤلاء الثلاثة. فهو ضالٌّ. ومن قال: إنها لعلى بعد أبى بكر وعمر. فهو ضال؛ لأنه مخالف لإجماع الصحابة رضى اللَّه عنهم.

❁ **قال الشيخ الفوزان:**

(لكن التى يضلل فيها مسألة الخلافة)؛أى: يحكم بضلال من خالف فيها، فرأى تقديم علىٍّ فى الخلافة على عثمان، أو غيره من الخلفاء الذين سبقوه، أو قدم عليًّا على أبى بكرٍ وعمر فى الفضيلة.

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

وهذا ما أجمع عليه أهل السنة فى مسألة الخلافة.

❁ **قال الشيخ الفوزان:**

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بأن الخليفة بعد رسول اللَّه ﷺ أبو بكرٍ الصديق رضى اللَّه عنه لفضله وسابقته، وتقديم النبى ﷺ له على جميع الصحابة، وإجماع الصحابة على بيعته.

ثم الخليفة من بعد أبى بكرٍ عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه لفضله وسابقته، وعهد أبى بكرٍ إليه، واتفاق الأمة عليه بعد أبى بكرٍ.

ثم الخليفة بعد عمر عثمان بن عفان رضى اللَّه عنه؛ لتقديم أهل الشورى له، واتفاق الأمة عليه.

ثم بعد عثمان الخليفة علىٌّ رضى اللَّه عنه لفضله وإجماع أهل عصره عليه.

فهؤلاء هم الخلفاء الأربعة المشار إليهم فى حديث العرباض بن سارية رضى اللَّه عنه بقوله ﷺ: «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى»(1).

---

(1)رواه أحمد (٤/ ١٢٦، ١٢٧)، وغيره، وقال الألبانى فى «صحيح الجامع» (٢٥٤٩): صحيح.

ومَن طعَن فى خلافةِ أحدٍ من هؤلاء الأئمةِ ، فهو أضلُّ مِن حمارِ أهلِه(١).

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الذى يطعن فى خلافة أحد من هؤلاء ، ويقول : إنه لا يستحق الخلافة ! أو : إنه أحق ممن سبقه ! فهو أضل من حمار أهله .

وعبر المؤلف بهذا التعبير ؛ لأنه تعبير الإمام أحمد رحمه الله ، ولا شك أنه أضل من حمار أهله ، وإنما ذكر الحمار ؛ لأنه أبلد الحيوانات على الإطلاق ؛ فهو أقل الحيوانات فهمًا ؛ فالطعن فى خلافه أحد من هؤلاء أو فى ترتيبه طعن فى الصحابة جميعًا .

فيجب علينا أن نعتقد بأن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على ، وأنهم فى أحقية الخلافة على هذا الترتيب ، حتى لا نقول : إن هناك ظلمًا فى الخلافة ؛ كما ادعته الرافضة حين زعموا أن أبا بكر وعمر وعثمان والصحابة كلهم ظلمة ؛ لأنهم ظلموا على بن أبى طالب ؛ حيث اغتصبوا الخلافة منه :

أما من بعدهم ؛ فإننا لا نستطيع أن نقول : إن كل خليفة استخلفه الله على الناس ؛ فهو أحق بالخلافة من غيره ؛ لأن من بعدهم ليسوا فى خير القرون ، بل حصل فيهم من الظلم والانحراف والفسوق ما استحقوا به أن يولى عليهم من ليس أحق بالخلافة منهم ، كما قال الله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام : ١٢٩] .

واعلم أن الترتيب فى الأفضلية على ما سبق لا يعنى أن من فضل غيره ؛ فإنه يفضله فى كل شىء ، بل قد يكون للمفضول فضيلة لم يشاركه فيها أحد ، وتميز أحد هؤلاء الأربعة أو غيرهم بميزة يفضل بها غيره لا يدل على الأفضلية المطلقة ؛ فيجب التفريق بين الإطلاق والتقييد .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

ولهذا قال الشيخ : (ومن طعن فى خلافة أحدٍ من هؤلاء) . يعنى : الأربعة المذكورين .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

(فهو أضل من حمار أهله) لمخالفته النص والإجماع من غير حجةٍ ، ولا برهانٍ ، وذلك كالرافضة الذين يزعمون أن الخلافة بعد النبى ﷺ لعلى بن أبى طالبٍ .

والحاصل فى مسألة تقديم علىٍّ رضى الله عنه على غيره من الخلفاء الثلاثة :

١- من قدمه فى الخلافة فهو ضالٌّ بالاتفاق .

٢- من قدمه فى الفضيلة على أبى بكرٍ وعمر فهو ضالٌّ ، ومن قدمه على عثمان فى الفضيلة فلا يضلل ، وإن كان هذا خلاف الراجح .

مكانةُ أهلِ بيتِ النبيِّ ﷺ عندَ أهلِ السنةِ والجماعةِ :

ويُحِبُّون آلَ بيتِ رسولِ اللّهِ ﷺ(١)، ....

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

أى : ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم يحبون آلَ بيت رسول اللّه ﷺ ؛ يحبونهم لأمرين : للإيمان ، وللقرابة من رسول اللّه ﷺ ، ولا يكرهونهم أبدًا .

ولكن لا يقولون كما قال الرافضة : كل من أحب أبا بكر وعمر ؛ فقد أبغض عليًا ، وعلى هذا فلا يمكن أن نحب عليًا حتى نبغض أبا بكر وعمر ، وكأن أبا بكر وعمر أعداء لعلى بن أبى طالب مع أنه تواتر النقل عن على رضى اللّه عنه أنه كان يثنى عليهما على المنبر .

فنحن نقول : إننا نُشهِد اللّه على محبة آل بيت رسول اللّه ﷺ وقرابته ؛ نحبهم لمحبة اللّه ورسوله .

– ومن أهل بيته أزواجه بنص القرآن ؛ قال اللّه تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب : ٢٨- ٣٣] . فأهل البيت هنا يدخل فيها أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام بلا ريبٍ .

– كذلك يدخل فيه قرابته ؛ فاطمة وعلى والحسن والحسين وغيرهم كالعباس بن عبد المطلب وأبنائه .

فنحن نحبهم لقرابتهم من رسول اللّه عليه الصلاة والسلام ، ولإيمانهم باللّه .

فإن كفروا ؛ فإننا لا نحبهم ، ولو كانوا من أقارب الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فأبو لهبٍ عم الرسول عليه الصلاة والسلام لا يجوز أن نحبه بأى حالٍ من الأحوال ، بل يجب أن نكرهه لكفره ولإيذائه النبى ﷺ ، وكذلك أبو طالب ؛ يجب علينا أن نكرهه لكفره ، لكن نحب أفعاله التى أسداها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام من الحماية والذَّبِّ عنه .

وَيَتَوَلَّوْنَهم(١) ....

* قال الشيخ الفوزان :

يبن الشيخ رحمه الله فى هذا مكانة أهل البيت عند أهل السنة والجماعة ، وأنهم (يحبون أهل بيت رسول الله ﷺ) .

وأهل البيت هم آل النبى ﷺ الذين حرمت عليهم الصدقة ، وهم آل علىٍّ ، وآل جعفرٍ ، وآل عقيلٍ ، وآل العباس ، وبنو الحارث بن عبد المطلب .

وأزواج النبى ﷺ وبناته من أهل بيته ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

فأهل السنة يحبونهم ويحترمونهم ؛ لأن ذلك من احترام النبى ﷺ وإكرامه ، ولأن الله ورسوله قد أمرا بذلك ، قال تعالى : ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى : ٢٣] .

وجاءت نصوص من السنة بذلك ، منها ما ذكره الشيخ .

وذلك إذا كانوا متبعين للسنة ، مستقيمين على الملة ، كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه وعلىٍّ وبنيه ، أما من خالف السنة ، ولم يستقم على الدين ، فإنه لا تجوز محبته ، ولو كان من أهل البيت .

* قال الشيخ هراس :

أهل بيته ﷺ هم من تحرم عليهم الصدقة وهم آل علىٍّ وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس وكلهم من بنى هاشم ويلحق [بهم] بنو المطلب لقوله عليه السلام : « إنهم لم يفارقونا جاهلية ولا إسلامًا » ، فأهل السنة والجماعة يرعون لهم حرمتهم وقرابتهم من رسول الله ﷺ كما يحبونهم لإسلامهم وسبقهم وحسن بلائهم فى نصرة دين الله عزَّ وجلَّ ، وغُديرُخُمٍّ - بضم الخاء - قيل : اسم رجل صباغ أُضيف إليه الغدير الذى بين مكة والمدينة بالجحفة . وقيل : خم اسم غيضة هناك نسب إليها الغدير ، والغيضة الشجر الملتف .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

أى : يجعلونهم من أوليائهم ، والولى : يطلق على عدة معان ؛ يطلق على الصديق ، والقريب ، والمتولى للأمر ، وغير ذلك من الموالاة والنصرة . وهنا يشمل النصرة والصداقة والمحبة .

ويَحْفَظون فيهم وصيةَ رسولِ اللهِ ﷺ[١]، حيث قال يومَ غَديرِ خُمٍّ : « أُذَكِّرُكم اللّهَ في أهلِ بيتي »[٢].

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (ويتولونهم) ؛ أى : يحبونهم من الولاية - بفتح الواو - وهى المحبة .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

أى : عهده الذى عهد به إلى أمته .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ) ؛ أى : يعملون بها ، ويطبقونها .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

هو اليوم الثامن عشر من ذى الحجة . وهذا الغدير ينسب إلى رجل يسمى (خُم) ، وهو فى الطريق الذى بين مكة والمدينة ، قريب من الجحفة ، نزل الرسول عليه الصلاة والسلام فيه منزلًا فى رجوعه من حجة الوداع ، وخطب الناس ، وقال : « أذكركم اللّه فى أهل بيتي »[1]. ثلاثًا يعنى : اذكروا اللّه ؛ اذكروا خوفه وانتقامه إن أضعتم حق آل البيت ، واذكروا رحمته وثوابه إن قمتم فى حقهم .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(حيث قال يوم غدير خمٍّ) الغدير هنا هو مجمع السيل (وخم) قيل : اسم رجلٍ ، نسب الغدير إليه .

وقيل : هو الغيضة ؛ أى : الشجر الملتف ، نسب هذا الغدير إليها ؛ لأنه واقع فيها .

وهذا الغدير كان فى طريق المدينة ، مر به ﷺ فى عودته من حجة الوداع ، وخطب فيه ، فكان من خطبته ما ذكره الشيخ : « أذكركم اللّه فى أهل بيتى »[2]؛ أى : أذكركم ما أمر اللّه به فى حق أهل بيتى ؛ من احترامهم وإكرامهم والقيام بحقهم .

---

(1) أخرجه مسلم (٢٤٠٨) .

(2) رواه مسلم (١٨٧٣/٤) (٢٤٠٨) .

وقال أيضًا[١] للعباسِ عمِّه، وقد اشْتَكَى إليه أن بعضَ قريشٍ يَجْفُو[٢] بني هاشمٍ[٣]، فقال: «والذى نفسى بيدِه، لا يُؤْمِنون حتى يُحِبُّوكم للَّهِ ولقَرَابَتى»[٤].

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

«أيضًا». مصدر آض يئيض؛ أى: رجع، وهو مصدر لفعل محذوف، والمعنى: عودًا على ما سبق.

❁ قال الشيخ الفوزان:

وقال أيضًا: (للعباس عمه). هو العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد منافٍ.

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين:

«يجفو» يترفع ويكره.

❁ قال الشيخ الفوزان:

(وقد اشتكى إليه)؛ أى: أخبره بما يكره.

(أن بعض قريشٍ يجفو) الجفاء ترك البر والصلة.

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين:

«هاشم»: هو جد أبى الرسول صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

أقسم ﷺ أنهم لا يؤمنون، أى: لا يتم إيمانهم حتى يحبوكم للَّه، وهذه المحبة يشاركهم فيها غيرهم من المؤمنين؛ لأن الواجب على كل إنسانٍ أن يحب كل مؤمن للَّه، لكن قال: «ولقرابتي». فهذا حب زائد على المحبة للَّه، ويختص به آل البيت قرابة النبى عليه الصلاة والسلام.

وفى قول العباس: «إن بعض قريش يجفو بنى هاشم». دليل على أن جفاء آل البيت كان موجودًا منذ حياة النبى ﷺ، وذلك لأن الحسد من طبائع البشر؛ إلا من عصمه اللَّه عز وجل، فكانوا يحسدون آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام على ما مَنَّ اللَّه عليهم من قرابة النبى ﷺ، فيجفونهم ولا يقومون بحقِّهم.

فعقيدة أهل السنة والجماعة بالنسبة لآل البيت: أنهم يحبونهم، ويتولونهم، ويحفظون

وقال ﷺ : « إن اللَّهَ اصْطَفَى بنى إسماعيلَ[1]، واصْطَفَى مِن بنى إسماعيلَ

فيهم وصية الرسول ﷺ فى التذكير بهم ، ولا ينزلونهم فوق منزلتهم ، بل يتبرءون ممن يغالون فيهم ، حتى يوصلوهم إلى حدِّ الألوهية ؛ كما فعل عبد اللَّه بن سبأ فى على بن أبى طالب حين قال له : أنت اللَّه . والقصة مشهورة .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(فقال) ؛ أى : النبى ﷺ :

(والذى نفسى بيده) هذا قسم منه ﷺ .

(لا يؤمنون) ؛ أى : الإيمان الكامل الواجب .

(حتى يحبوكم للَّه ولقرابتى)[1]؛ أى : لأمرين :

الأول : التقرب إلى اللَّه بذلك ؛ لأنهم من أوليائه .

الثاني : لكونهم قرابة رسول اللَّه ﷺ ، وفى ذلك إرضاء له ، وإكرام له .

✽ قال الشيخ هراس :

وأما قوله عليه السلام لعمه : « والذى نفسى بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم للَّه ولقرابتي » . فمعناه لا يتم إيمان أحد حتى يحب أهل بيت رسول اللَّه ﷺ للَّه أولًا ؛ لأنهم من أوليائه وأهل طاعته الذين تجب محبتهم وموالاتهم فيه . وثانيًا : لمكانهم من رسول اللَّه ﷺ واتصال نسبهم به .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

« إسماعيل » : هو ابن إبراهيم الخليل ، وهو الذى أمر اللَّه إبراهيم بذبحه ، وقصته فى سورة « الصافات » .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(وقال) النبى ﷺ مبينًا فضل بنى هاشم الذين هم قرابته : (إن اللَّه اصطفى) ؛ أى : اختار ، والصفوة الخيار .

(بنى إسماعيل) بن إبراهيم الخليل ، عليهما السلام .

---

(1) رواه أحمد فى مسنده (١/٢٠٧) (١٧٧٢) عن العباس ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٥٠٣٣) .

كِنانةَ[١]، واصَطَفى مِن كِنانةَ قريشًا[٢]، واصْطَفَى مِن قريشٍ بنى هاشمٍ[٣]، واصْطَفانى مِن بنى هاشمٍ »[٤].

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

« كنانة » : هو الأب الرابع عشر لرسول اللّٰه ﷺ .

❋ قال الشيخ الفوزان :

(واصطفى من بنى إسماعيل كنانة) اسم قبيلةٍ ، أبوهم كنانة بن خزيمة .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

« قريش » : هو الأب الحادى عشر لرسول اللّٰه ﷺ ، وهو فهر بن مالك . وقيل : الأب الثالث عشر ، وهو النضر بن كنانة .

❋ قال الشيخ الفوزان :

(واصطفى من كنانة قريشًا) وهم أولاد النضر بن كنانة .

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين :

« هاشم » : هو الأب الثالث لرسول اللّٰه ﷺ .

❋ قال الشيخ الفوزان :

(واصطفى من قريشٍ بنى هاشمٍ) وهم بنو هاشم بن عبد منافٍ .

(٤) قال الشيخ الفوزان :

(واصطفانى من بنى هاشمٍ)[1] فهو محمد بن عبد اللّٰه بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

والشاهد من الحديث : أن فيه دليلًا على فضل العرب ، وأن قريشًا أفضل العرب ، وأن بنى هاشمٍ أفضل قريشٍ ، وأن الرسول ﷺ أفضل بنى هاشمٍ ، فهو أفضل الخلق نفسًا ، وأفضلهم نسبًا .

وفيه فضل بنى هاشمٍ ، الذين هم قرابة الرسول ﷺ .

---

(1) رواه أحمد فى مسنده (١٠٧/٤) (١٦٩٢٤) ، ومسلم (١٧٨٢/٤) (٢٢٧٦) ، والترمذى (٣٦٠٥، ٣٦٠٦).

مكانةُ أزواجِ النبيِّ ﷺ عندَ أهلِ السنةِ والجماعةِ :

ويتَوَلَّوْن أزواجَ رسولِ اللهِ ﷺ ؛ أمهاتِ المؤمنين(١)، ....

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « أمهات المؤمنين » : هذه صفة لـ : « أزواج » ؛ فأزواج النبي ﷺ أمهات لنا في الإكرام والاحترام والصلة ؛ قال تعالى : ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب : ٦] ؛ فنحن نتولاهن بالنصرة والدفاع عنهن واعتقاد أنهن أفضل أزواج أهل الأرض ؛ لأنهن زوجات الرسول ﷺ .

وهذا دليل على أن بني هاشم مصطفون عند الله مختارون من خلقه .

✽ قال الشيخ الفوزان :

ذكر الشيخ رحمه الله تعالى في هذه الجملة عقيدة أهل السنة والجماعة في أزواج النبي ﷺ ، فقال : (ويتولون أزواج رسول الله ﷺ) ؛ أي : يحبونهن ويوقرونهن ؛ لأنهن (أمهات المؤمنين) في الاحترام والتوقير وتحريم نكاحهن على الأمة .

أما بقية الأحكام فحكمهن حكم الأجنبيات ، من حيث تحريم الخلوة بهن والنظر إليهن ، قال الله تعالى : ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ الآية [الأحزاب : ٦] .

وقال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ الآية [الأحزاب : ٥٣] .

وقال تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب : ٥٣] ، فهن أمهات المؤمنين في الاحترام والتحريم ، لا في المحرمية .

وقد توفي ﷺ عن تسعٍ ، وهن : (عائشة وحفصة وزينب بنت جحش وأم سلمة وصفية وميمونة وأم حبيبة وسودة وجويرية) .

وأما خديجة فقد تزوجها قبل النبوة ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت ، وتزوج ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية ، ولم تلبث إلا يسيرًا ، ثم توفيت .

هؤلاء جملة من دخل بهن من النساء ، وهن إحدى عشرة ، رضي الله عنهن .

✽ قال الشيخ هراس :

أزواجه ﷺ هن من تزوجهن بنكاح ، فأولهن خديجة بنت خويلد رضي الله عنها تزوجها

ويُؤْمِنون بأَنَّهن أزواجُه في الآخرةِ(١) ، خصوصًا(٢) ....

بمكة قبل البعثة وكانت سنه خمسًا وعشرين ، وكانت هي تكبره بخمسة عشرة عامًا ، ولم يتزوج عليها حتى توفيت ، وقد رُزق منها بكل أولاده إلا إبراهيم ، وكانت أول من آمن به وقواه على احتمال أعباء الرسالة ، وقد ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين عن خمس وستين سنة ، فتزوج بعدها سودة بنت زمعة ، وعقد على عائشة رضي الله عنها وكانت بنت ست سنين حتى إذا هاجر إلى المدينة بنى بها وهي بنت تسع ، ومن زوجاته أيضًا أم سلمة رضي الله عنها تزوجها بعد زوجها أبي سلمة ، وزينب بنت جحش تزوجها بعد تطليق زيد بن حارثة لها ، أو على الأصح[1] زوجه الله إياها ، وجويرية بنت الحارث ، وصفية بنت حُيَي ، وحفصة بنت عمر ، وزينب بنت خزيمة ، وكلهن أمهات المؤمنين .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

لأحاديث وردت في ذلك ، ولقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [غافر : ٧، ٨] ، فقال : ﴿وَأَزْوَٰجِهِمْ﴾ ؛ فأثبت الزوجية لهن بعد دخول الجنة ، وهذا يدل على أن زوجة الإنسان في الدنيا تكون زوجته في الآخرة إذا كانت من أهل الجنة .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(ويؤمنون) ؛ أي : أهل السنة والجماعة .

✽ قال الشيخ هراس :

وهن أزواجه ﷺ في الآخرة وأفضلهن على الإطلاق خديجة وعائشة رضي الله عنهما .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

« خصوصًا » : مصدر محذوف العامل ؛ أي : أخص خصوصًا .

---

(1) لا يليق التعبير بعبارة : « أو على الأصح » ، بل الواجب أن يقال : « تزوجها بعد تطليق زيد بن حارثة لها ، زوجه الله إياها » ؛ لأن ذلك هو الموافق لقول الله تعالى : ﴿ زوجناكها ﴾ . « إسماعيل الأنصاري » .

خديجةَ رضِي اللَّهُ عنها[١]، أمِّ أكثرِ أولادِه، وأولَ مَن آمَن به[٢]، وعاضَدَه على

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

«خديجة بنت خويلد»: تزوجها النبي ﷺ أول ما تزوج، وكان عمره حينذاك خمسًا وعشرين سنة، وعمرها أربعين سنة، وكانت امرأة عاقلة، وانتفع بها ﷺ انتفاعًا كثيرًا؛ لأنها امرأة ذات عقل وذكاء، ولم يتزوج عليها أحدًا.

فكانت كما قال المؤلف: «أم أكثر أولاده»: البنين والبنات، ولم يقل المؤلف: أم أولاده؛ لأن من أولاده من ليس منها، وهو إبراهيم؛ فإنه كان من مارية القبطية.

وأولاده الذين من خديجة هم ابنان وأربع بنات: القاسم، ثم عبد اللّه ويقال له: الطيب، والطاهر. وأما البنات؛ فهن: زينب، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية. وأكبر أولاده القاسم، وأكبر بناته زينب.

* **قال الشيخ الفوزان:**

(بأنهن أزواجه في الآخرة) وفي هذا شرف لهن، وفضيلة جليلة.

(خصوصًا خديجة رضي اللّه عنها) فلها من المزايا والفضائل الشيء الكثير، وقد ذكر الشيخ منها:

٤- أنها كان لها منه ﷺ المنزلة العالية، فكان يحبها، ويذكرها كثيرًا، ويثني عليها[1]

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

لا شك أنها أول من آمن به؛ لأن النبي ﷺ لما جاءها وأخبرها بما رأى في غار حراء؛ قالت: كلا، واللّه لا يخزيك اللّه أبدًا. وآمنت به، وذهبت به إلى ورقة بن نوفل، وقصت عليه الخبر، وقال له: إن هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى[2]. «الناموس»: أي: صاحب السر. فآمن به ورقة.

ولهذا نقول: أول من آمن به من النساء خديجة، ومن الرجال ورقة بن نوفل.

* **قال الشيخ الفوزان:**

١- أنها أم أكثر أولاده، فكل أولاده منها ما عدا إبراهيم فمن مارية القبطية.

---

(1) أخرجه البخاري (٣٨١٨).

(2) أخرجه البخاري (٤)، ومسلم (١٦٠).

أمرِه[١]، وكان لها منه المنزلةُ العاليةُ[٢]، والصِّدِّيقةَ بنتَ الصِّدِّيقِ رضِى اللَّهُ عنهما[٣]،

٢- أنها أول من آمن به مطلقًا على قولٍ ، وهو الذى ذكر الشيخ هنا ، أو هى أول من آمن به من النساء على القول الآخر .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

أي : ساعده ، ومن تدبر السيرة ؛ وجد لأم المؤمنين خديجة رضى اللَّه عنها من معاضدة النبى ﷺ ما لم يحصل لغيرها من نسائه .

✽ قال الشيخ الفوزان :

٣- هى أول من عاضده وأعانه فى أول أمره ، وكانت نصرتها له فى أعظم أوقات الحاجة .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « وكان لها منه المنزلة العالية » : حتى إنه كان يذكرها بعد موتها صلوات اللَّه وسلامه عليه ، ويرسل بالشيء إلى صديقاتها ، ويقول : « إنها كانت وكانت وكان لى منها ولد »[1] ؛ فكان يثنى عليها ، وهذا يدل على عظم منزلتها عند الرسول ﷺ .

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين :

أما كونها صديقة ؛ فلكمال تصديقها لرسول اللَّه ﷺ ، ولكمال صدقها فى معاملته ، وصبرها على ما حصل من الأذى فى قصة الإفك ، ويدلك على صدقها وصدق إيمانها باللَّه أنه لما نزلت براءتها ؛ قالت إنى لا أحمد غير اللَّه . وهذا يدل على كمال إيمانها وصدقها .

وأما كونها بنت الصديق ؛ فكذلك أيضًا ؛ فإن أباها رضى اللَّه عنه هو الصديق فى هذه الأمة ، بل صديق الأمم كلها ؛ لأن هذه الأمة أفضل الأمم ؛ فإذا كان صديق هذه الأمة ؛ فهو صديق غيرها من الأمم .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(والصديقة بنت الصديق رضى اللَّه عنها) يعنى : عائشة بنت أبى بكرٍ ، والصديق هو المبالغ فى الصدق ، وقد لقب النبى ﷺ أبا بكرٍ بذلك[2] .

---

(1) البخارى (٣٨١٦- ٣٨١٨) ، ومسلم (٤/ ١٨٨، ١٨٨٩) (٢٤٣٥) .

(2) رواه الحاكم فى « المستدرك » (٣/٦٢) ، وصححه ووافقه الذهبى ، وأورده الألبانى فى « الصحيحة » (٣٠٦) .

التى قال فيها النبيُّ ﷺ: «فَضْلُ عائشةَ على النساءِ كفَضْلِ الثَّرِيدِ على سائرِ الطعامِ»(١).

✽ **قال الشيخ الفوزان:**

وقد ذكر الشيخ من فضائلها هنا (أن النبى ﷺ قال فيها: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[1]. والثريد هو أفضل الأطعمة؛ لأنه خبز ولحم، والخبز من البر، وهو أفضل الأقوات، واللحم أفضل الإدام، فإذا كان اللحم سيد الإدام، والبر سيد القوت، ومجموعهما الثريد، كان الثريد أفضل الطعام.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

قوله: «على النساء»: ظاهره العموم؛ أي: على جميع النساء. وقيل: إن المراد: فضل عائشة على النساء؛ أي: من أزواجه اللاتى على قيد الحياة؛ فلا تدخل فى ذلك خديجة.

لكن ظاهر الحديث العموم؛ لأن الرسول ﷺ قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»، وقد أخرجه الشيخان بدون ذكر خديجة[2]. وهذا يدل على أنها أفضل النساء مطلقًا.

ولكن ليست أفضل من فاطمة باعتبار النسب؛ لأن فاطمة بلا شك أشرف من عائشة نسبًا.

وأما منزلة؛ فإن عائشة رضى الله عنها لها من الفضائل العظيمة ما لم يدركه أحد غيرها من النساء.

وظاهر كلام المؤلف رحمه الله أن هاتين الزوجين رضى الله عنهما فى منزلة واحدة؛ لأنه قال: «خصوصًا خديجة .... والصديقة»، ولم يقل: ثم الصديقة.

والعلماء اختلفوا فى هذه المسألة:

- فقال بعض العلماء: خديجة أفضل؛ لأن لها مزايا لم تلحقها عائشة فيها.
- وقال بعض العلماء: بل عائشة أفضل؛ لهذا الحديث، ولأن لها مزايا لم تلحقها خديجة فيها.
- وفصل بعض أهل العلم؛ فقال: إن لكل منهما ميزة لم تلحقها الأخرى فيها؛ ففى أول

(1) البخارى (٣٣٧٠)، ومسلم (١٨٩٥/٤) (٢٤٤٦).

(2) أخرجه البخارى (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١).

تَبَرُّؤُ أهلِ السنةِ والجماعةِ مما يقولُه المُبْتَدِعةُ فى حقِّ الصحابةِ وأهلِ البيتِ :
ويَتَبَرَّءُون مِن طريقةِ الروافضِ الذين يَبْغَضون الصحابةَ ، ويَسُبُّونهم[1]، ومِن

الرسالة لاشك أن المزايا التى حصلت عليها خديجة لم تلحقها فيها عائشة ، ولا يمكن أن تساويها ، وبعد ذلك ، وبعد موت الرسول ﷺ ، حصل من عائشة من نشر العلم ونشر السنة وهداية الأمة ما لم يحصل لخديجة ؛ فلا يصح أن تفضَّل إحداهما على الأخرى تفضيلًا مطلقًا ، بل نقول : هذه أفضل من وجه ، وهذه أفضل من وجه ، ونكون قد سلكنا مسلك العدل ؛ فلم نهدر ما لهذه من المزية ، ولا ما لهذه من المزية ، وعند التفصيل يحصل التحصيل . وهما وبقية أزواج الرسول فى الجنة معًا .

❁ قال الشيخ الفوزان :

ولعائشة رضى اللّه عنها فضائل كثيرة منها :

أنها أحب أزواج النبى ﷺ إليه . وأنه لم يتزوج بكرًا غيرها . وأنه ﷺ كان ينزل عليه الوحى فى لحافها . وأن اللّه برأها مما رماها به أهل الإفك . وأنها أفقه نسائه ، وكان أكابر الصحابة إذا أشكل عليهم الأمر استفتوها[1] . وأن الرسول ﷺ توفى فى بيتها بين سحرها ونحرها ، ودفن فى بيتها[2] ، إلى غير ذلك من فضائلها .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الروافض : طائفة غلاة فى على بن أبى طالب وآل البيت ، وهم من أضل أهل البدع ، وأشدهم كرهًا للصحابة رضى اللّه عنهم ، ومن أراد معرفة ما هم عليه من الضلال ؛ فليقرأ فى كتبهم وفى كتب من رد عليهم .

وسموا روافض ؛ لأنهم رفضوا زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب عندما سألوه عن أبى بكر وعمر ، فأثنى عليهما وقال : هما وزيرا جدي .

أما النواصب ؛ فهم الذى ينصبون العداء لآل البيت ، ويقدحون فيهم ، ويسبونهم ؛ فهم على النقيض من الروافض .

فالروافض اعتدوا على الصحابة بالقلوب والألسن .

---

(1) البخارى (٤٧٥٠) ، ومسلم (٢١٢٩/٤) (٢٧٧٠) .

(2) البخارى (١٣٨٩) ، ومسلم (١٨٩٣/٤) (٢٤٤٣) .

....

- ففى القلوب يبغضون الصحابة ويكرهونهم ؛ إلا من جعلوهم وسيلة لنيل مآربهم وغلوا فيهم ، وهم آل البيت .

- وفى الألسن يسبونهم فيلعنونهم ويقولون : إنهم ظلمة ! ويقولون : إنهم ارتدوا بعد النبى ﷺ إلا قليلًا ، إلى غير ذلك من الأشياء المعروفة فى كتبهم .

وفى الحقيقة أن سب الصحابة رضى اللّه عنهم ليس جرحًا فى الصحابة رضى اللّه عنهم فقط بل هو قدح فى الصحابة وفى النبى ﷺ وفى شريعة اللّه وفى ذات اللّه عز وجل :

- أما كونه قدحًا فى الصحابة ؛ فواضح .

- وأما كونه قدحًا فى رسول اللّه ﷺ ؛ فحيث كان أصحابه وأمناؤه وخلفاؤه على أمته من شرار الخلق ؛ وفيه قدح فى رسول اللّه ﷺ من وجه آخر ، وهو تكذيبه فيما أخبر به من فضائلهم ومناقبهم .

- وأما كونه قدحًا فى شريعة اللّه ؛ فلأن الواسطة بيننا وبين رسول اللّه ﷺ فى نقل الشريعة هم الصحابة ، فإذا سقطت عدالتهم ؛ لم يبق ثقة فيما نقلوه من الشريعة .

- وأما كونه قدحًا فى اللّه سبحانه ؛ فحيث بعث نبيه ﷺ فى شرار الخلق ، واختارهم لصحبته وحمل شريعته ونقلها لأمته ! ! .

فانظر ماذا يترتب من الطوام الكبرى على سب الصحابة رضى اللّه عنهم .

ونحن نتبرأ من طريقة هؤلاء الروافض الذين يسبون الصحابة ويبغضونهم ، ونعتقد أن محبتهم فرض ، وأن الكَفَّ عن مساوئهم فرض ، وقلوبنا وللّه الحمد مملوءة من محبتهم ؛ لما كانوا عليه من الإيمان والتقوى ونشر العلم ونصرة النبى ﷺ .

✽ قال الشيخ الفوزان :

يبن الشيخ رحمه اللّه فى هذا :

أولًا : موقف أهل السنة والجماعة من الصحابة وأهل البيت ، وأنه موقف الاعتدال ، والوسط بين الإفراط والتفريط ، والغلو والجفاء .

يتولون جميع المؤمنين ، لاسيما السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان .

طريقةِ النَّواصِبِ الذين يُؤْذُون أهلَ البيتِ بقولٍ أو عملٍ[1].

ويتولون أهل البيت ، يعرفون قدر الصحابة وفضلهم ومناقبهم ، ويرعون حقوق أهل البيت التى شرعها الله لهم .

(ويتبرءون من طريقة الروافض) الذين يسبون الصحابة ويطعنون فيهم ، ويغلون فى حق على بن أبى طالبٍ وأهل البيت .

❁ قال الشيخ هراس :

يريد أن أهل السنة والجماعة يتبرءون من طريقة الروافض التى هى الغلو فى علىٍّ وأهل بيته ، وبغض من عداه من كبار الصحابة وسبهم وتكفيرهم ، وأول من سماهم بذلك زيد بن علىّ رحمه الله ؛ لأنهم لما طلبوا منه أن يتبرأ من إمامة الشيخين أبى بكر وعمر ليبايعوه ، أبى ذلك ، فتفرقوا عنه ، فقال : رفضتمونى ، فمن يومئذ قيل لهم : رافضة . وهم فرق كثيرة منهم الغالية ومنهم دون ذلك .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

يعني : يتبرأ أهل السنة والجماعة من طريقة النواصب .

وهؤلاء على عكس الروافض ، الذين يغلون فى آل البيت حتى يخرجوهم عن طور البشرية إلى طور العِصمةِ والولاية .

أما النواصب ؛ فقابلوا البدعة ببدعة ، فلما رأوا الرافضة يغلون فى آل البيت ؛ قالوا : إذن نبغض آل البيت ونسبُّهم ؛ مقابلة لهؤلاء فى الغلو فى محبتهم والثناء عليهم ، ودائمًا يكون الوسط هو خير الأمور ؛ ومقابلة البدعة ببدعة لا تزيد البدعة إلا قوة .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(ومن طريقة النواصب) الذين ينصبون العداوة لأهل البيت ، ويكفرونهم ويطعنون فيهم ، وقد سبق بيان مذهب أهل السنة والجماعة فى الصحابة وأهل البيت ، ولكن الغرض من ذكره هنا مقارنته بالمذاهب المنحرفة المخالفة له .

❁ قال الشيخ هراس :

ويتبرءون كذلك من طريقة النواصب الذين ناصبوا أهل بيت النبوة العداء لأسباب وأمور سياسية معروفة ولم يعد لهؤلاء وجود الآن .

ويُمْسِكون عما شَجَر بينَ الصحابةِ[1]، ويقولون : إن هذه الآثارَ المَرْوِيَّةَ فى

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

يعني : عما وقع بينهم من النزاع .

فالصحابة رضى الله عنهم وقعت بينهم بعد مقتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه نزاعات ، واشتد الأمر بعد مقتل عثمان ، فوقع بينهم ما وقع ، ممَّا أدى إلى القتال .

وهذه القضايا مشهورة ، وقد وقعت بلا شك عن تأويل واجتهاد ، كل منهم يظن أنه على حق ، ولا يمكن أن نقول : إن عائشة والزبير بين العوام قاتلا عليًا رضى الله عنهم أجمعين وهم يعتقدون أنهم على باطلٍ ، وأن عليًا على حق .

واعتقادهم أنهم على حق لا يستلزم أن يكونوا قد أصابوا الحق .

ولكن إذا كانوا مخطئين ، ونحن نعلم أنهم لن يقدموا على هذا الأمر إلا عن اجتهاد ؛ فإنه ثبت عن النبى ﷺ أنه [قال] : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب ، فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ ، فله أجر »[1]؛ فنقول : هم مخطئون مجتهدون ؛ فلهم أجر واحد .

فهذا الذى حصل موقفنا نحن منه له جهتان : الجهة الأولى : الحكم على الفاعل . والجهة الثانية : موقفنا من الفاعل .

- أما الحكم على الفاعل ؛ فقد سبق ، وأن ما ندين الله به أن ما جرى بينهم ؛ فهو صادر عن اجتهاد ، والاجتهاد إذا وقع فيه الخطأ ، فصاحبه معذور مغفور له .

- وأما موقفنا من الفاعل ، فالواجب علينا الإمساك عما شجر بينهم ، لماذا نتخذ من فعل هؤلاء مجالًا للسب والشتم والوقيعة فيهم والبغضاء بيننا ؛ ونحن فى فعلنا هذا إما آثمون وإما سالمون ولسنا غانمين أبدًا .

فالواجب علينا تجاه هذه الأمور أن نسكت عما جرى بين الصحابة ، وألَّا نطالع الأخبار أو التاريخ فى هذه الأمور ؛ إلا المراجعة للضرورة .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

ثانيًا : بين الشيخ رحمه الله موقف أهل السنة والجماعة من الاختلاف الذى وقع بين الصحابة فى وقت الفتنة ، والحروب التى حصلت بينهم ، وموقفهم مما ينسب إلى الصحابة من

---

(1) أخرجه البخارى (٧٣٥٢) ، ومسلم (١٧١٦) .

....

مساوئ ومثالب ، اتخذها أعداء الله سببًا للوقيعة فيهم ، والنيل منهم .

كما حصل من بعض المتأخرين والكتاب العصريين الذين جعلوا أنفسهم حكمًا بين أصحاب رسول الله ﷺ ، فصوبوا وخطئوا بلا دليل ، بل باتباع الهوى ، وتقليد للمغرضين الذين يحاولون الدس على المسلمين بتشكيكهم فى تاريخهم المجيد وسلفهم الصالح الذين هم خير القرون ؛ لينفذوا من ذلك إلى الطعن فى الإسلام وتفريق كلمة المسلمين .

وما أحسن ما ذكره الشيخ هنا من تجلية الحق وإيضاح الحقيقة ، فقد ذكر أن موقف أهل السنة مما نسب إلى الصحابة ، وما شجر بينهم - أى : تنازعوا فيه - يتلخص فى أمرين :

الأمر الأول : أنهم (يمسكون عما شجر بين الصحابة) ؛ أى : يكفون عن البحث فيه ، ولا يخوضون فيه ؛ لما فى الخوض فى ذلك من توليد الإحن والحقد على أصحاب رسول الله ﷺ ، وذلك من أعظم الذنوب ، فطريق السلامة هو السكوت عن ذلك ، وعدم التحدث به .

✽ قال الشيخ هراس :

ويمسك أهل السنة والجماعة عن الخوض فيما وقع من نزاع بين الصحابة رضى الله عنهم لا سيما ما وقع بين علىّ وطلحة والزبير بعد مقتل عثمان ، وما وقع بعد ذلك بين علىّ ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم ، ويرون أن الآثار المروية فى مساوئهم أكثرها كذب أو محرف عن وجهه ، وأما الصحيح منها فيعذرونهم فيه ويقولون : إنهم متأولون مجتهدون ، وهم مع ذلك لا يدعون لهم العصمة من كبار الذنوب وصغارها ، ولكن ما لهم من السوابق والفضائل وصحبة رسول الله ﷺ والجهاد معه قد يوجب مغفرة ما يصدر منهم من زلّات ، فهم بشهادة رسول الله ﷺ خير القرون وأفضلها ومُدّ أحدهم أو نصيفه أفضل من جبل أُحدٍ ذهبًا يتصدق به من بعدهم فسيئاتهم مغمورة إلى جانب حسناتهم الكثيرة .

يريد المؤلف رحمه الله أن ينفى عن الصحابة رضى الله عنهم أن يكون أحدهم قد مات مصرًّا على ما يوجب سخط الله عليه من الذنوب ، بل إذا كان قد قد صدر الذنب من أحدهم فلا يخلو عن أحد هذه الأمور التى ذكرها ؛ فإما أن يكون قد تاب منه قبل الموت ، أو أتى بحسنات تذهبه وتمحوه ، أو غفر له بفضل سالفته فى الإسلام كما غفر لأهل بدر وأصحاب الشجرة ، أو بشفاعة رسول الله ﷺ وهم أسعد الناس بشفاعته وأحقهم بها ، أو ابتلى ببلاء فى الدنيا فى نفسه أو ماله أو ولده فكفر عنه به . فإذا كان هذا هو ما يجب اعتقاده فيهم بالنسبة إلى

مسَاوِئهم، منها ما هو كذبٌ، ومنها ما قد زِيد فيه، ونقَص، وغُيِّر عن وجهِه الصريحِ.

والصحيحُ منه هم فيه مَعْذُورُون، إمَّا مُجْتَهِدون مُصيبون، وإما مُجْتهدون مُخْطِئون(١).

ما ارتكبوه من الذنوب المحققة فكيف فى الأمور التى هى موضع اجتهاد والخطأ فيها مغفور، ثم إذا قيس هذا الذى أخطئوا فيه إلى جنب ما لهم من محاسن وفضائل لم يعد أن يكون قطرة فى بحر، فاللّه الذى اختار نبيه ﷺ هو الذى اختار له هؤلاء الأصحاب، فهم خير الخلق بعد الأنبياء والصفوة المختارة من هذه الأمة التى هى أفضل الأمم.

ومن تأمل كلام المؤلف رحمه اللّه فى شأن الصحابة عجب أشد العجب مما يرميه به الجهلة المتعصبون وادعائهم عليه أنه يتهجم على أقدارهم ويغض من شأنهم ويخرق إجماعهم. إلى آخر ما قالوه من مزاعم ومفتريات.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

قسم المؤلف الآثار المروية فى مساوئهم ثلاثة أقسام:

وقد ذكر أن جملة الاعتذارات تتلخص فيما يلى:

القسم الأول: ما هو كذبٌ محض لم يقع منهم، وهذا يوجد كثيرًا فيما يرويه النواصب فى آل البيت وما يرويه الروافض فى غير آل البيت.

القسم الثاني: شيء له أصل، لكن زيد فيه ونقص وغيِّر عن وجهه.

وهذان القسمان كلاهما يجب رده.

❁ **قال الشيخ الفوزان:**

الأمر الثانى: الاعتذار عن الآثار المروية فى مساوئهم؛ لأن فى ذلك دفاعًا عنهم، وردًّا لكيد أعدائهم.

١- (هذه الآثار المروية فى مساوئهم منها ما هو كذب) قد افتراه أعداؤهم؛ ليشوهوا سمعتهم، كما تفعله الرافضة - قبحهم اللّه - والكذب لا يلتفت إليه.

٢- هذه المساوئ المروية (منها ما قد زيد فيه، ونقص، وغير عن وجهه الصحيح) ودخله الكذب، فهو محرف، لا يعتمد عليه؛ لأن فضل الصحابة معلوم، وعدالتهم متيقنة، فلا يترك

....

المعلوم المتيقن لأمرٍ محرفٍ مشكوكٍ فيه .

✽ قال الشيخ ابن عثيمين :

القسم الثالث : ما هو صحيح ؛ فماذا نقول فيه ؟ بينه المؤلف بقوله :

« والصحيح منــه هم فيه معــذورون : إما مجتهدون مصيبون ، وإما مجتهــدون مخطئون » .

والمجتهد إن أصاب ؛ فله أجران ، وإن أخطأ ، فله أجر واحد ؛ لقول النبى صلى اللّٰه عليه وآله وسلم : « إذا حكم الحاكم ، فاجتهد ، ثم أصاب ، فله أجران ، وإذا حكم ، فاجتهد ثم أخطأ ، فله أجر » .

فما جرى بين معاوية وعلى رضى اللّٰه عنهما صادر عن اجتهاد وتأويل .

لكن لا شك أن عليًا [كان] أقرب إلى الصواب فيه من معاوية ، بل قد نكاد نجزم بصوابه ؛ إلا أن معاوية كان مجتهدًا .

ويدل على أن عليًا [كان] أقرب إلى الصواب أن النبى ﷺ قال : « ويح عمار ! تقتله الفئة الباغية »[1] ؛ فكان الذى قتله أصحاب معاوية ، وبهذا عرفنا أنها فئة باغية خارجة على الإمام ، لكنهم متأوِّلون ، والصواب مع على إما قطعًا وإما ظنًّا .

✽ قال الشيخ الفوزان :

٣- (الصحيح منه) ؛ أى : من هذه الآثار المروية (هم فيه معذورون ؛ إما مجتهدون مصيبون ، وإما مجتهدون مخطئون) فهو من موارد الاجتهاد التى إن أصاب المجتهد فيها فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد .

لما فى الصحيحين عن أبى هريرة وعمرو بن العاص رضى اللّٰه عنهما ، أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد »[2] .

---

(1) أخرجه البخارى (٤٤٧) ، ومسلم (٢٩١٦) .

(2) تقدم تخريجه ص٦٤٨ .

وهم مع ذلك لا يَعْتَقِدون أن كلَّ واحدٍ مِن الصحابةِ معصومٌ عن كبائرِ الإثمِ وصغائرِه(١)، بل تَجوزُ عليهم الذنوبُ في الجملةِ(٢)، ولهم مِن السوابقِ والفَضائلِ ما

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

وهناك قسم رابع: وهو ما وقع منهم من سيئات حصلت لا عن اجتهاد ولا عن تأويل: فبينه المؤلف بقوله:

« وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره ».

لا يعتقدون ذلك؛ لقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: « كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون »[1].

ولكن العصمة في إجماعهم؛ فلا يمكن أن يجمعوا على شيء من كبائر الذنوب وصغائرها فيستحلوها أو يفعلوها.

لكن الواحد منهم قد يفعل شيئًا من الكبائر؛ كما حصل من مسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش في قصة الإفك[2]، ولكن هذا الذي حصل تطهروا منه بإقامة الحد عليهم.

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

يعني: كغيرهم من البشر، لكن يمتازون عن غيرهم بما قال المؤلف رحمه الله: « ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر ».

❁ **قال الشيخ الفوزان:**

٤- أنهم بشر يجوز على أفرادهم ما يجوز على البشر من الخطأ، فأهل السنة: (لا يعتقدون أن كل واحدٍ من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة)، لكن ما يقع منهم من ذلك فله مكفرات عديدة، منها:

أ- أن (لهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر) فما يقع من أحدهم يغتفره بجانب ما له من الحسنات العظيمة، كما في قصة حاطبٍ، لما وقع منه ما وقع في غزوة الفتح غفر له بشهوده وقعة بدرٍ.

---

(1) حسنه الألباني في « صحيح الجامع » (٤٥١٥).

(2) أخرجه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

يُوجِبُ مغفرةَ ما يَصْدُرُ منهم إن صدَر(١)، حتى إنهم يُغْفَرُ لهم مِن السيئاتِ ما لا يُغْفَرُ لمن بعدَهم ؛ لأنَّ لهم مِن الحسناتِ التى تَمْحُو السيئاتِ ، ما ليس لمن بعدَهم .

وقد ثبَت بقولِ رسولِ اللَّهِ ﷺ أنهم خيرُ القرونِ ، وأن المُدَّ مِن أحدِهم إذا تصَدَّق به كان أفْضَلَ مِن جبلِ أُحُدٍ ذهبًا ممَّن بعدَهم(٢)، ثم إذا كان قد صدَر مِن

ب - أنهم تضاعف لهم الحسنات أكثر من غيرهم ، ولا يساويهم أحد فى الفضل .

(وقد ثبت بقول رسول اللَّه ﷺ أنهم خير القرون ، وأن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحدٍ ذهبًا ممن بعدهم) .

أخرج الشيخان ، وغيرهما أحاديث عن أبى هريرة وابن مسعودٍ وعمران بن حصينٍ ، أن رسول اللَّه ﷺ قال : « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم » الحديث .

والقرون جمع قرنٍ ، والقرن أهل زمانٍ واحدٍ متقاربٍ ، اشتركوا فى أمرٍ من الأمور المقصودة ، ويطلق القرن على المدة من الزمان .

جـ - كثرة مكفرات الذنوب لديهم ، فإنهم يتوفر لهم من المكفرات ما لم يتوفر لغيرهم .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هذا من الأسباب التى يمحو اللَّه بها عنهم ما فعلوه من الصغائر أو الكبائر ، وهو ما لهم من السوابق والفضائل التى لم يلحقهم فيها أحد ؛ فهم نصروا النبى عليه الصلاة والسلام ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، وبذلوا رقابهم لإعلاء كلمة اللَّه ؛ فهذه توجب مغفرة ما صدر منهم ، ولو كان من أعظم الذنوب ، إذا لم يصل إلى الكفر .

ومن ذلك قصة حاطب بن أبى بلتعة حين أرسل إلى قريش يخبرهم عن مسير النبى ﷺ إليهم ، حتى أطلع اللَّه نبيه على ذلك ، فلم يصلهم الخبر ، فاستأذن عمر النبى ﷺ أن يضرب عنق حاطب ، فقال النبى ﷺ : « إنه شهد بدرًا ، وما يدريك ؟ لعل اللَّه اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ؛ فقد غفرت لكم »[1] .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

وذلك فى قوله ﷺ : « خير الناس قرني »[2]، وفى قوله : « لا تسبوا أصحابي ؛ فوالذى

---

(1) أخرجه البخارى (٣٠٠٧) ، ومسلم (٢٤٩٤) .

(2) أخرجه البخارى (٢٦٥٢) ، ومسلم (٢٥٣٣) .

أحدِهم ذنبٌ ، فيكونُ قد تاب منه [١]، أو أتَى بحسناتٍ تَمْحُوه [٢]، أو غُفِر له بفضلِ سابقتِه [٣]، أو بشفاعةِ محمدٍ ﷺ ، الذى هم أحقُّ الناسِ بشفاعتِه [٤]، أو ابْتُلِى ببلاءٍ

نفسي بيده ؛ لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ؛ ما بلغ مُد أحدهم ولا نصيفه » [1].

❁ قال الشيخ الفوزان :

(حتى إنهم يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم ؛ لأن لهم من الحسنات التى تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم)، وقد قال اللّه تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

يعني : وإذا تاب منه ؛ ارتفع عنه وباله ومعرته ؛ لقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ ، إلى قوله : ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان :٦٨- ٧٠] ، ومن تاب من الذنب كمن لا ذنب له ؛ فلا يؤثر عليه .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

لقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود : ١١٤] .

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين :

لقوله تعالى فى الحديث القدسى فى أهل بدر : « اعملوا ما شئتم ؛ فقد غفرت لكم » .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(فإذا كان قد صدر من أحدهم ذنب قد تاب منه ، أو أتى بحسناتٍ تمحوه ، أو غفر له بفضل سابقته) ؛ أى : الأعمال الصالحة التى أسبقها قبله .

(٤) قال الشيخ ابن عثيمين :

وقد سبق أن النبى ﷺ يشفع فى أمته ، والصحابة رضى اللّه عنهم أحق الناس فى ذلك .

---

(1) أخرجه البخارى (٣٦٧٣) ، ومسلم (٢٥٤١) .

في الدنيا كُفِّر به عنه(١).

فإذا كان هذا في الذنوبِ المُحَقَّقةِ ، فكيف بالأمورِ التي كانوا فيها مُجْتَهِدِين ، إن أصابوا فلهم أجران ، وإن أخْطَئوا فلهم أجرٌ واحدٌ ، والخطأُ مغفورٌ(٢) لهم .

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

فإن البلاء في الدنيا يكفر الله به السيئات ، كما أخبر بذلك النبي ﷺ في قوله : « ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سِواه ؛ إلا حط الله به سيئاته ؛ كما تحط الشجرة ورقها »[1] ﷺ ، والأحاديث في هذا مشهورة كثيرة .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

(أو بشفاعة محمدٍ ﷺ الذي هم أحق الناس بشفاعته ، أو ابتلي ببلاءٍ في الدنيا كفر به عنه) ؛ أي : امتحن وأصيب بمصيبةٍ محى عنه ذلك الذنب بسببها .

كما في الصحيح ، أن رسول الله ﷺ قال : « ما يصيب المؤمن من وصبٍ ، ولا نصبٍ ، ولا غمٍّ ، ولا همٍّ ، ولا حزنٍ ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله بها من خطاياه » . متفق عليه[2] ، والصحابة أولى الناس بذلك .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

سبق دليله ؛ فتكون هذه من باب أولى ألا تكون سببًا للقدح فيهم والعيب .

فهذه الأسباب التي ذكرها المؤلف ترفع القدح في الصحابة ، وهي قسمان :

الأول : خاص بهم ، وهو ما لهم من السوابق والفضائل .

والثاني : عام ، وهي التوبة ، والحسنات الماحية ، وشفاعة النبي ﷺ ، والبلاء .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

قال : (فإذا كان هذا في الذنوب المحققة) ؛ أي : الواقعة منهم فعلًا ، وأن لديهم رصيدًا من الأعمال الصالحة التي تكفرها .

(فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين) الاجتهاد هو بذل الطاقة في معرفة الحكم الشرعي .

---

(1) أخرجه البخاري (٥٦٤٨) ، ومسلم (٢٥٧١) .

(2) البخاري (٥٦٤١، ٥٦٤٢) ، ومسلم (٤/ ١٩٩٢، ١٩٩٣) (٢٥٧٣) .

ثم إن القَدْرَ الذى يُنْكَرُ مِن فعلِ بعضِهم قليلٌ ، نَزْرٌ ، مَغْفورٌ فى جَنْبِ فضائلِ القومِ ومحاسِنِهم (1) مِن الإيمانِ باللَّهِ ورسولِه ، والجهادِ فى سبيلِه ، والهجرةِ ، والنُّصْرةِ ، ....

(إن أصابوا فلهم أجران ، وإن أخطئوا فلهم أجر واحد ، والخطأ مغفور) كما سبق بيان دليل ذلك قريبًا .

وإذن فما يصدر من الصحابى من خطأ على قلته ؛ فهو بين أمرين :

الأول : أن يكون صدر عن اجتهادٍ ، وهو فيه مأجور ، وخطؤه مغفور .

والثانى : أن يكون صدر عن غير اجتهادٍ ، وعنده من الأعمال والفضائل والسوابق الخيرة ما يكفره ويمحوه .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

القدر الذى ينكر من فعل بعضهم قليل جدًّا نزر أقل القليل ، ولهذا قال : « مغمور فى جنب فضائل القوم ومحاسنهم » .

ولا شك أنه حصل من بعضهم سرقة وشرب خمر وقذف وزنًى بإحصان وزنًى بغير إحصان ، لكن كل هذه الأشياء تكون مغمورة فى جنب فضائل القوم ومحاسنهم ، وبعضها أقيم فيه الحدود ، فيكون كفارة .

✵ **قال الشيخ الفوزان :**

وقوله : (ثم القدر الذى ينكر من فعل بعضهم) إلخ ، هو كالتلخيص لما سبق ، وبيان فضائل الصحابة إجمالًا ، وهى :

١- الإيمان بالله ورسوله ، وهو أفضل الأعمال .

٢- الجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، وهو ذروة سنام الإسلام (1) .

٣- الهجرة فى سبيل الله ، وهى من أفضل الأعمال .

٤- النصرة لدين الله ، قال تعالى فيهم : ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾

٥- العلم النافع والعمل الصالح .

---

(1) رواه أحمد فى مسنده (٥/٢٣١) ، وقال الألبانى فى « صحيح الجامع » (٥١٣٦) : صحيح .

والعلمِ النافعِ، والعملِ الصالحِ[(١)].

ومَن نَظَر فى سِيرةِ القومِ بعلمٍ وبَصِيرةٍ، وما مَنَّ اللَّهُ عليهم به مِن الفضائلِ عَلِم يقينًا أنهم خيرُ الخلقِ بعدَ الأنبياءِ[(٢)].

٦- أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، فأمة محمدٍ ﷺ خير الأمم، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، وخير هذه الأمة صحابة رسول الله ﷺ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «خيركم قرنى، ثم الذين يلونهم». الحديث.

٧- أنهم الصفوة من قرون هذه الأمة، التى هى خير الأمم، وأكرمها على الله، كما فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد، أن النبى ﷺ قال: «أنتم توفون سبعين أمةً، أنتم خيرها وأكرمها على الله سبحانه». رواه الترمذى، وابن ماجه، والحاكم فى مستدركه[(1)].

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

فكل هذه مناقب وفضائل معلومة مشهورة، تغمر كل ما جاء من مساوئ القوم المحققة؛ فكيف بالمساوئ غير المحققة أو التى كانوا فيها مجتهدين متأولين.

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين:

هذا بالإضافة إلى ما ثبت عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم من قوله: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» أخرجه البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

وعلى هذا تثبت خيريتهم على غيرهم من أتباع الأنبياء بالنص والنظر فى أحوالهم.

فإذا نظرت بعلم وبصيرة وإنصاف فى محاسن القوم وما أعطاهم الله من الفضائل؛ علمت يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء؛ فهم خير من الحواريين أصحاب عيسى، وخير من النقباء أصحاب موسى، وخير من الذين آمنوا مع نوح ومع هود وغيرهم، لا يوجد أحد فى أتباع الأنبياء أفضل من الصحابة رضى الله عنهم، والأمر فى هذا ظاهر معلوم؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ

---

(1) رواه أحمد فى مسنده (٤/ ٤٤٧، ٥/٥) (١٩٩٠٠، ١٩٩٣٢)، والترمذى (٢٩٢٧)، وابن ماجه (٤٢٨٨)، والحاكم فى مستدركه (٤/ ٨٤).

لا كان ولا يكونُ مثلُهم[١]، وأنهم الصَّفْوةُ مِن قرونِ هذه الأمةِ، التي هي خيرُ الأممِ، وأكرمُها على اللَّهِ تعالى[٢].

﴿أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وخيرنا الصحابة، ولأن النبي ﷺ خير الخلق؛ فأصحابه خير الأصحاب بلا شك.

هذا عند أهل السنة والجماعة، أما عند الرافضة، فهم شر الخلق، إلا من استثنوا منهم.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

أي: ما وجد ولا يوجد مثلهم؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «خير الناس قرني». فلا يوجد على الإطلاق مثلهم رضي اللَّه عنهم لا سابقًا ولا لاحقًا.

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

أما كون هذه الأمة خير الأمم؛ فلقوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. ولأن النبي صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم خير الرُّسل؛ فلا جَرَمَ أن تكون أمته خير الأمم.

- وأما كون الصحابة صفوة قرون الأمة؛ فلقوله ﷺ: «خير الناس قرني». وفي لفظ: «خير أمتي قرني». والمراد بقرنه: الصحابة، وبالذين يلونهم: التابعون، وبالذين يلونهم: تابعو التابعين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والاعتبار بالقرون الثلاثة بجمهور أهل القرن، وهم وسطه، وجمهور الصحابة انقرضوا بانقراض خلافة الخلفاء الأربعة، حتى إنه لم يكن بقِي من أهل بدر إلا نفر قليل، وجمهور التابعين بإحسان انقرضوا في أواخر عصر أصاغر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبد الملك وجمهور تابعي التابعين في أواخِر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية». أهـ.

وكان آخرَ الصحابة موتا أبو الطفيل عامر بن واثلةَ الليثي سنة مائة من الهجرة، وقيل: مائة وعشر.

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: «واتفقوا على أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله من عاش إلى حدود العشرين ومائتين».

مذهبُ أهلِ السنةِ والجماعةِ
فى كراماتِ الأولياءِ

ومِن أصولِ أهلِ السنةِ التَّصْديقُ بكَراماتِ الأولياءِ[١]، وما يُجْرِى اللَّهُ على

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

فصل : فى كرامة الأولياء :

كرامات الأولياء مسألة هامة ينبغى أن يعرف الحق فيها من الباطل ؛ هل هى حقيقة ثابتة ، أو هى من باب التخيلات ؟

فبين المؤلف رحمه اللَّه قول أهل السنة فيها بقوله :

« ومن أصول أهل السنة والجماعة : التصديق بكرامات الأولياء » .

فمن هم الأولياء ؟ .

والجواب : أن اللَّه بيّنهم بقوله : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس : ٦٢، ٦٣] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه : « من كان مؤمنًا تقيًا ؛ كان لِلَّهِ وليًا » .

ليست الولاية بالدعوى والتمني ، الولاية إنما هى بالإيمان والتقوى ، فلو رأينا رجلًا يقول : إنه ولي ! ولكنه غير متقٍ للَّه تعالى ، فقوله مردود عليه .

أما الكرامات ، فهى جمع كرامة ، والكرامة أمر خارق للعادة ، يجريه اللَّه تعالى على يد ولي ؛ تأييدًا له ، أو إعانة ، أو تثبيتًا ، أو نصرًا للدين .

- فالرجل الذى أحيا اللَّه تعالى له فرسه ، وهو صلة بن أَشْيَمَ ، بعد أن ماتت ، حتى وصل إلى أهله ، فلما وصل إلى أهله ؛ قال لابنه : ألق السرج عن الفرس ؛ فإنها عرية ! فلما ألقى السرج عنها ؛ سقطت ميتة . فهذه كرامة لهذا الرجل [و]إعانة له .

- أما التى لنصرة الإسلام ؛ فمثل الذى جرى للعلاء بن الحضرمى رضى اللَّه عنه فى عبور ماء البحر ، وكما جرى لسعد بن أبى وقاص رضى اللَّه عنه فى عبور نهر دجلة ، وقصتهما مشهورة فى التاريخ .

فالكرامة أمر خارق للعادة .

أما ما كان على وفق العادة ؛ فليس بكرامة .

....

وهذا الأمر إنما يجريه اللَّه على يد ولي ؛ احترازًا من أمور السِّحر والشعوذة ؛ فإنها أمور خارقة للعادة ، لكنها تجرى على يد غير أولياء اللَّه ، بل على يد أعداء اللَّه ، فلا تكون هذه كرامة .

وقد كثرت هذه الكرامات التى تدعى أنها كرامات فى هؤلاء المشعوذين الذين يصدون عن سبيل اللَّه ، فالواجب الحذر منهم ومن تلاعبهم بعقول الناس وأفكارهم .

فالكرامة ثابتة بالقرآن والسنة والواقع سابقًا ولاحقًا .

- فمن الكرامات الثابتة بالقرآن والسنة لمن سبق قصة أصحاب الكهف ، الذين عاشوا فى قوم مشركين ، وهم قد آمنوا باللَّه ، وخافوا أن يغلبوا على أمرهم ، فخرجوا من القرية مهاجرين إلى اللَّه عز وجل ، فيسر اللَّه لهم غارًا فى جبل ، وجه هذا الغار إلى الشمال ، فلا تدخل الشمس عليهم فتفسد أبدانهم ، ولا يحرمون منها إذا طلعت ، تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرِضهم ذات الشمال ، وهم فى فجوةٍ منه ، وبقوا فى هذا الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا ، وهم نائمون ، يقلبهم اللَّه ذات اليمين وذات الشمال ، فى الصيف وفى الشتاء ، لم يزعجهم الحر ، ولم يؤلمهم البرد ، ما جاعوا ولا عطشوا وما ملُّوا من النوم . فهذه كرامة بلا شك ، بقوا هكذا حتى بعثهم اللَّه وقد زال الشرك عن هذه القرية ، فسَلِموا منه .

- ومن ذلك قصة مريم رضى اللَّه عنها ، أكرمها اللَّه حيث أجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، وأمرها اللَّه أن تهز بجذعها لتساقط عليها رطبًا جنيًّا .

- ومن ذلك قصة الرجل الذى أماته اللَّه مائة عام ثم بعثه ؛ كرامة له ؛ ليتبين له قدرة اللَّه تعالى ، ويزداد ثباتًا فى إيمانه .

- أما فى السنة ؛ فالكرامات كثيرة ، وراجع (كتاب الأنبياء ، باب ما ذُكر عن بنى إسرائيل) فى « صحيح البخاري » ، وكتاب « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » لشيخ الإسلام ابن تيمية .

- وأما شهادة الواقع بثبوت الكرامات ؛ فظاهر ، يعلم به المرء فى عصره : إما بالمشاهدة ، وإما بالأخبار الصادقة .

فمذهب أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء .

وهناك مذهب مخالف لمذهب أهل السنة ، وهو مذهب المعتزلة ومن تبعهم ؛ حيث إنهم ينكرون الكرامات ، ويقولون : إنك لو أثبت الكرامات ؛ لاشتبه الساحر بالولى والولى بالنبي ؛

....

لأن كل واحد منهم يأتى بخارق .

فيقال : لا يمكن الالتباس ؛ لأن الكرامة على يد ولي ، والولى لا يمكن أن يدعى النبوة ، ولو ادَّعاها لم يكن وليًا . آية النبى تكون على يد نبي ، والشعوذة والسحر على يد عدو بعيد من ولاية اللّه ، وتكون بفعله باستعانته بالشياطين ، فسينالها بكسبه ، بخلاف الكرامة ، فهى من اللّه تعالى ، لا يطلبها الولى بكسبه .

قال العلماء : كل كرامة لولي ، فهى آية للنبى الذى اتَّبعه ؛ لأن الكرامة شهادة من اللّه عز وجل أن طريق هذا الولى طريق صحيح .

وعلى هذا ، ما جرى من الكرامات للأولياء من هذه الأمة فإنها آيات لرسول اللّه ﷺ .

ولهذا قال بعض العلماء : ما من آية لنبى من الأنبياء السابقين ، إلا ولرسول اللّه ﷺ مثلها .

- فأورد عليهم أن الرسول ﷺ لم يلقَ فى النار فيخرج حيًا ، كما حصل ذلك لإبراهيم .

فأجيب بأنه جرى ذلك لأتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ كما ذكره المؤرخون عن أبى مسلم الخولاني ، وإذا أكرم أتباع الرسول عليه الصلاة والسلام بجنس هذا الأمر الخارق للعادة ؛ دل ذلك على أن دين النبى ﷺ حق ؛ لأنه مؤيد بجنس هذه الآية التى حصلت لإبراهيم .

- وأورد عليهم أن البحر لم يفلق للنبى ﷺ ، وقد فلق لموسى ! .

فأجيب بأنه حصل لهذه الأمة فيما يتعلق فى البحر شيء أعظم مما حصل لموسى ، وهو المشى على الماء ، كما فى قصة العلاء بن الحضرمي ، حيث مشوا على ظهر الماء ، وهذا أعظم مما حصل لموسى ؛ لأن موسى مشى على أرض يابسة .

- وأورد عليهم أن من آيات عيسى إحياء الموتى ، ولم يقع ذلك لرسول اللّه ﷺ .

فأجيب بأنه حصل ووقع لأتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ كما فى قصة الرجل الذى مات حماره فى أثناء الطريق ، فدعا اللّه تعالى أن يحييه ، فأحياه اللّه تعالى .

- وأورد عليهم إبراء الأكمه والأبرص .

فأجيب بأنه حصل من النبى ﷺ أن قتادة بن النعمان لما جرح فى أُحدٍ ندرت عينه حتى صارت على خده ، فجاء النبى ﷺ ، فأخذها بيده ، ووضعها فى مكانها ، فصارت أحسن عينيه . فهذه من أعظم الآيات .

فالآيات التى كانت للأنبياء السابقين كان من جنسها للنبى ﷺ أو لأمته ، ومن أراد المزيد

....

من ذلك فليرجع إلى كتاب « البداية والنهاية فى التاريخ » لابن كثير .

تنبيه :

الكرامات ؛ قلنا : إنها تكون تأييدًا أو تثبيتًا أو إعانة للشخص أو نصرًا للحق ، ولهذا كانت الكرامات فى التابعين أكثر منها فى الصحابة ؛ لأن الصحابة عندهم من التثبيت والتأييد والنصر ما يستغنون به عن الكرامات ؛ فإن الرسول ﷺ كان بين أظهرهم ، وأما التابعون ؛ فإنهم دون ذلك ، ولذلك كثرت الكرامات فى زمنهم تأييدًا لهم وتثبيتًا ونصرًا للحق الذى هم عليه .

❁ قال الشيخ الفوزان :

قوله : (ومن أصول أهل السنة) ؛ أى : من أصول عقيدتهم .

(التصديق بكرامات الأولياء) الكرامات جمع كرامةٍ ، وهى (ما يجرى اللّه على أيديهم من خوارق العادات) فالكرامة أمر خارق للعادة ؛ أى : لمألوف الآدميين .

والأولياء جمع ولىٍّ ، وهو المؤمن المتقى ، كما قال تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾

سمى وليًا اشتقاقًا من الولاء ، وهو المحبة والقرب ، فولى اللّه من والى اللّه بموافقته فى محبوباته ، والتقرب إليه بمرضاته .

وكرامات الأولياء حقٌّ ، وقد دل عليها الكتاب والسنة والآثار المتواترة عن الصحابة والتابعين .

والناس فى كرامات الأولياء على ثلاثة أصنافٍ :

الصنف الأول : من ينفيها من المبتدعة كالمعتزلة والجهمية وبعض الأشاعرة ، وشبهتهم : أن الخوارق لو جاز ظهورها على أيدى الأولياء لالتبس النبى بغيره ؛ إذ الفرق بين النبى وغيره هو المعجزة التى هى خرق العادة .

الصنف الثانى : من يغلو فى إثبات الكرامة من أصحاب الطرق الصوفية ، والقبوريين الذين يدجلون على الناس ، ويأتون بخوارق شيطانيةٍ ، كدخول النار ، وضرب أنفسهم بالسلاح ، وإمساك الثعابين ، وغير ذلك مما يدعونه لأصحاب القبور من التصرفات التى يسمونها كراماتٍ .

الصنف الثالث : الذين ذكرهم الشيخ هنا ، وهم أهل السنة والجماعة ، فيؤمنون بكرامات الأولياء ، ويثبتونها على مقتضى ما جاء فى الكتاب والسنة .

....

ويردون على من نفاها بحجة منع الاشتباه بين النبى وغيره بأن هناك فوارق عظيمةً بين الأنبياء وغيرهم غير خوارق العادات ، وأن الولى لا يدعى النبوة ، ولو ادعاها لخرج عن الولاية ، وصار مدعيًا كذابًا ، لا وليًا ، ومن سنة الله أن يفضح الكاذب ، كما حصل لمسيلمة وغيره .

ويردون على من غلا فى إثباتها ، فادعاها للمشعوذين والدجالين ، بأن هؤلاء ليسوا أولياء الله ، وإنما هم أولياء للشيطان ، وما يجرى عليهم ، إما كذب وتدجيل ، أو فتنة لهم ولغيرهم ، واستدراج . والله أعلم .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية فى هذا الموضوع كتاب جليل ، اسمه : (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) .

❁ قال الشيخ هراس :

وقد تواترت نصوص الكتاب والسنة ، ودلت الوقائع قديمًا وحديثًا على وقوع كرامات الله لأوليائه المتبعين لهدى أنبيائهم ، والكرامة أمر خارق للعادة يجريه الله على يد ولى من أوليائه معونة له على أمر دينى أو دنيوى ، ويفرق بينها وبين المعجزة بأن المعجزة تكون مقرونة بدعوى الرسالة بخلاف الكرامة .

ويتضمن وقوع هذه الكرامات حكم ومصالح كثيرة أهمها :

أولًا : أنها كالمعجزة تدل أعظم دلالة على كمال قدرة الله ونفوذ مشيئته ، وأنه فعال لما يريد ، وأن له فوق هذه السنن والأسباب المعتادة سننًا أخرى لا يقع عليها علم البشر ، ولا تدركها أعمالهم ، فمن ذلك قصة أصحاب الكهف ، والنوم الذى أوقعه الله بهم تلك المدة الطويلة مع حفظه تعالى لأبدانهم من التّحلل والفناء ، ومنها ما أكرم الله به مريم بنت عمران من إيصال الرزق إليها وهى فى المحراب حتى عجب من ذلك زكريا عليه السلام ، وسألها : ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ . وكذلك حملها بعيسى بلا أب وولادتها إياه ، وكلامه فى المهد ، وغير ذلك .

ثانيًا : أن وقوع كرامات الأولياء هو فى الحقيقة معجزة للأنبياء ، لأن تلك الكرامات لم تحصل لهم إلا ببركة متابعتهم لأنبيائهم وسيرهم على هديهم .

ثالثًا : أن كرامات الأولياء هى البشرى التى عجلها الله لهم فى الدنيا ، فإن المراد بالبشرى كل أمر يدل على ولايتهم وحسن عاقبتهم ، ومن جملة ذلك الكرامات .

أيديهم مِن خوارقِ العاداتِ[1] في أنواعِ العلومِ والمُكاشَفاتِ ، وأنواعِ القدرةِ والتأثيراتِ[2]، والمأثورِ عن سالفِ الأممِ في سورةِ الكهفِ وغيرِها ، وعن صَدْرِ هذه

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

« خوارق » : جمع خارق .

و« العادات » : جمع عادة .

والمراد بـ : « خوارق العادات » : ما يأتي على خلاف العادة الكونية .

وهذه الكرامات لها أربع دلالات :

أولًا : بيان كمال قدرة الله عز وجل ، حيث حصل هذا الخارق للعادة بأمر الله .

ثانيًا : تكذيب القائلين بأن الطبيعة هي التي تفعل ؛ لأنه لو كانت الطبيعة هي التي تفعل ، لكانت الطبيعة على نسق واحد لا يتغير ، فإذا تغيرت العادات والطبيعة ، دل على أن للكون مدبرًا وخالقًا .

ثالثًا : أنها آية للنبي المتبوع كما أسلفنا قريبًا .

رابعًا : أن فيها تثبيتًا وكرامة لهذا الولي .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

يعني : أن الكرامة تنقسم إلى قسمين : قسم يتعلق بالعلوم والمكاشفات ، وقسم آخر يتعلق بالقدرة والتأثيرات .

- أما العلوم ، فأن يحصل للإنسان من العلوم ما لا يحصل لغيره .

- وأما المكاشفات ، فأن يظهر له من الأشياء التي يكشف له عنها ما لا يحصل لغيره .

- مثال الأول - العلوم - : ما ذكر عن أبي بكر : أن الله أطلعه على ما في بطن زوجته - الحمل - أعلمه الله أنه أنثى .

- ومثال الثاني - المكاشفات - : ما حصل لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث كان يخطب الناس يوم الجمعة على المنبر ، فسمعوه يقول : يا ساريةَ الجبل[1] . فتعجبوا من هذا الكلام ، ثم سألوه عن ذلك ؟ فقال : إنه كشف له عن سارية بن زنيم وهو - أحد قواده في العراق - وأنه محصور من عدوه ، فوجهه إلى الجبل ، وقال له : يا سارية الجبل . فسمع سارية

(1) حسنه الألباني في « الصحيحة » (١١١٠) .

الأمةِ مِن الصحابةِ والتابعين وسائرِ فِرَقِ الأمةِ(١)، ....

صوت عمر، وانحاز إلى الجبل، وتحصن به .

هذه من أمور المكاشفات ؛ لأنه أمر واقع، لكنه بعيد .

– أما القدرة والتأثيرات ؛ فمثل ما وقع لمريم من هزها لجذع النخل وتساقط الرطب عليها، ومثل ما وقع للذى عنده علم [من] الكتاب ؛ حيث قال لسليمان : « أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وفى قوله : (فى أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات) إشارة إلى أن الكرامة منها ما يكون من باب العلم والكشف بأن يسمع العبد ما لا يسمعه غيره، أو يرى ما لايراه غيره، يقظةً أو منامًا، أو يعلم ما لا يعلمه غيره، ومنها ما هو من باب القدرة والتأثير .

مثال النوع الأول : قول عمر : يا سارية، الجبل . وهو بالمدينة، وسارية فى المشرق، وإخبار أبى بكرٍ بأن ببطن زوجته أنثى[1]، وإخبار عمر بمن يخرج من ولده، فيكون عادلًا[2]، وقصة صاحب موسى، وعلمه بحال الغلام .

ومثال النوع الثانى : قصة الذى عنده علم من الكتاب، وإتيانه بعرشِ بلقيس إلى سليمان عليه السلام، وقصة أهل الكهف، وقصة مريم، وقصة خالد بن الوليد لما شرب السم، ولم يحصل له منه ضرر[3] .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الكرامات موجودة فيما سبق من الأمم، ومنها قصة أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة[4]، وموجودة فى عهد الرسول ﷺ ؛ كقصة أُسيد بن حضير، وتكثير الطعام عند بعض الصحابة، وموجودة فى التابعين ؛ مثل قصة صلة بن أشيم الذى أحيا اللهُ له فرسَه .

يقول شيخ الإسلام فى كتاب « الفرقان » : « وهذا باب واسع، قد بسط الكلام على كرامات الأولياء فى غير هذا الموضوع، وأما ما نعرفه نحن عيانًا ونعرفه فى هذا الزمان، فكثير » .

---

(1) أورده ابن حجر فى « الإصابة » (٤/٢٦١) .

(2) « سير أعلام النبلاء » (٥/١١٦) .

(3) أورده الهيثمى فى المجمع (٩/٣٥٠) .

(4) أخرجه البخارى (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣) .

وهى موجودةٌ فيها إلى يومِ القيامةِ(١).

❋ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (والمأثور عن سالف الأمم فى سورة الكهف ، وغيرها ، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين ، وسائر فرق الأمة) . يشير بذلك إلى الكرامات التى وقعت وذكرت فى القرآن الكريم ، وغيره من النقول الصحيحة .

فمما ذكره اللّه فى القرآن الكريم عن سالف الأمم ما ذكره اللّه عن حمل مريم بلا زوجٍ ، وما ذكر فى سورة الكهف من قصة أصحاب الكهف ، وقصة صاحب موسى ، وقصة ذى القرنين .

(وكالمأثور) ؛ المنقول بالسند الصحيح عن (صدر هذه الأمة) ؛ أى : أولها من الصحابة والتابعين ، كرؤية عمر لجيش سارية وهو على منبر المدينة ، وسارية بنهاوند بالمشرق ، وندائه له : يا سارية ، الجبل . فسمعه سارية ، وانتفع بهذا التوجيه ، وسلم من كيد العدو .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الدليل على أنها موجودة إلى يوم القيامة : سمعى وعقلي :

- أما السمعي ؛ فإن الرسول ﷺ أخبر فى قصة الدَّجال أنه يدعو رجلًا من الناس من الشباب ؛ يأتي ، ويقول له : كذبت ، إنما أنت المسيح الدجال الذى أخبرنا عنك رسول اللّه ﷺ ، فيأتى الدجال ، فيقتله قطعتين ، فيجعل واحدة هنا وواحدة هنا رمية الغرض (يعني : بعيد ما بينهما) ، ويمشى بينهما ، ثم يدعوه ، فيقوم يتهلَّل ، ثم يدعوه ليقر له بالعبودية ، فيقول الرجل : ما كنت فيك أشد بصيرة منى اليوم . فيريد الدجال أن يقتله ، فلا يسلط عليه(1) .

فهذه - أي : عدم تمكن الدجال من قتل ذلك الشاب - من الكرامات بلا شكٍّ .

- وأما العقلي ، فيقال : ما دام سبب الكرامة هى الولاية ، فالولاية لا تزال موجودة إلى قيام الساعة .

❋ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (وهى موجودة فيها إلى يوم القيامة) ؛ أى : لا تزال الكرامات موجودةً فى هذه الأمة إلى يوم القيامة ، ما وجدت فيهم الولاية بشروطها ، واللّه أعلم .

❋ قال الشيخ هراس :

هذا ولم تزل الكرامات موجودة لم تنقطع فى هذه الأمة إلى يوم القيامة ، والمشاهدة أكبر

(1) أخرجه البخارى (١٨٨٢) ، ومسلم (٢٩٣٨) .

« فَصْلٌ »
فى صفاتِ أهلِ السنةِ والجماعةِ،
ولِمَ سُمُّوا بذلك

ثم مِن طريقةِ أهلِ السنةِ والجماعةِ اتِّباعُ آثــارِ رَســولِ اللَّــهِ ﷺ(١)

دليل، وأنكر الفلاسفة كرامات الأولياء كما أنكروا معجزات الأنبياء، وأنكر الكرامات أيضًا المعتزلة وبعض الأشاعرة بدعوى التباسها بالمعجزة، وهى دعوى باطلة؛ لأن الكرامة - كما قلنا - لا تقترن بدعوى الرسالة.

لكن يجب التنبه إلى أن ما يقوم به الدجاجلة والمشعوذون من أصحاب الطرق المبتدعة الذين يسمون أنفسهم بالمتصوفة من أعمال ومخاريق شيطانية؛ كدخول النار وضرب أنفسهم بالسلاح والإمساك بالثعابين والإخبار بالغيب، إلى غير ذلك، ليس من الكرامات فى شيء، فإن الكرامة إنما تكون لأولياء اللَّه بحق، وهؤلاء أولياء الشيطان.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

فصل فى طريقة أهل السنة العملية.

لما فرغ المؤلف مما يريد ذكره من طريقة أهل السنة العقدية؛ شرع فى ذكر طريقتهم العملية.

قوله: «اتباع الآثار»: لا اتباع إلا بعلم، إذن، فهم حريصون على طلب العلم؛ ليعرفوا آثار الرسول ﷺ ثم يتبعوها، فهم يتبعون آثار الرسول ﷺ فى العقيدة والعبادة والأخلاق والدعوة إلى اللَّه تعالى؛ يدعون عباد اللَّه إلى شريعة اللَّه فى كل مناسبة، وكلما اقتضت الحكمة أن يدعوا إلى اللَّه، دَعَوا إلى اللَّه، ولكنهم لا يخبطون خبط عشواء، وإنما يدعون بالحكمة؛ يتبعون آثار الرسول عليه الصلاة والسلام فى الأخلاق الحميدة فى معاملة الناس باللطف واللين، وتنزيل كل إنسان منزلته؛ يتبعونه أيضًا فى أخلاقه مع أهله، فتجدهم يحرصون على أن يكونوا أحسن الناس لأهليهم؛ لأن النبى ﷺ يقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»(1).

ونحن لا نستطيع أن نحصر آثار الرسول عليه الصلاة والسلام، ولكن نقول على سبيل الإجمال فى العقيدة والعبادة والخلق والدعوة: فى العبادة لا يتشددون ولا يتهاونون ويتبعون ما هو أفضل.

---

(1) صححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٣٣١٤).

....

وربما يشتغلون عن العبادة بمعاملة الخلق للمصلحة ؛ كما كان الرسول يأتيه الوفود يشغلونه عن الصلاة ؛ فيقضيها فيما بعد .

✽ قال الشيخ الفوزان :

لما ذكر الشيخ طريقة أهل السنة فى مسائل العقيدة ذكر فى هذا الفصل والذى بعده طريقتهم فى عموم الدين ؛ أصوله وفروعه ، وأوصافهم التى تميزوا بها عن أهل البدع والمخالفات ، فمن صفاتهم :

(باطنًا وظاهرًا) بخلاف المنافقين الذين يتبعونه فى الظاهر دون الباطن .

وآثار الرسول ﷺ سنته ، وهى ما روى عنه وأثر عنه ، من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ ، لا آثاره الحسية كمواضع جلوسه ونومه ونحو ذلك ؛ لأن تتبع ذلك سبب للوقوع فى الشرك ، كما حصل فى الأمم السابقة .

✽ قال الشيخ هراس :

قوله : (من طريقة أهل السنة) إلخ : هذا بيان لمنهج أهل السنة والجماعة فى استنباط الأحكام الدينية كلها أصولها وفروعها ، بعد طريقتهم فى مسائل الأصول .

وهذا المنهج يقوم على أصول ثلاثة : أولها : كتاب اللَّه عزَّ وجلَّ الذى هو خير الكلام وأصدقه ، فهم لا يقدمون على كلام اللَّه كلام أحد من الناس . وثانيها : سنة رسول اللَّه ﷺ وما أثر عنه من هدى وطريقة ، لا يقدمون على ذلك هدى أحد من الناس . وثالثها : ما وقع عليه إجماع الصدر الأول من هذه الأمة قبل التفرق والانتشار وظهور البدعة والمقالات ، وما جاءهم بعد ذلك مما قاله الناس وذهبوا إليه من المقالات ووزنوها بهذه الأصول الثلاثة التى هى الكتاب والسنة والإجماع ، فإن وافقها قبلوه وإن خالفها ردوه أيًا كان قائله ، وهذا هو المنهج الوسط ، والصراط المستقيم الذى لا يضل سالكه ، ولا يشقى من اتَّبعه ، وسط بين من يتلاعب بالنصوص فيتأول الكتاب وينكر الأحاديث الصحيحة ، ولا يعبأ بإجماع السلف ، وبين من يخبط خبط عشواء فيتقبل كل رأى ويأخذ بكل قول لا يفرق فى ذلك بين غث وسمين وصحيح وسقيم .

✽ قال الشيخ الفوزان :

١- (اتباع آثار النبى ﷺ باطنًا وظاهرًا) ؛ أى : سلوك طريقه ، والسير على منهاجه .

باطنًا وظاهرًا[1]، ....

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « باطنًا وظاهرًا » . الظهور والبطون أمر نسبي : ظاهرًا فيما يظهر للناس ، وباطنًا فيما يسرونه بأنفسهم . ظاهرًا في الأعمال الظاهرة ، وباطنًا في أعمال القلوب . ..

فمثلًا ؛ التوكل والخوف والرجاء والإنابة والمحبة وما أشبه ذلك ؛ هذه من أعمال القلوب ؛ يقومون بها على الوجه المطلوب ، والصلاة فيها القيام والقعود والركوع والسجود والصدقة والحج ، والصيام ، وهذه من أعمال الجوارح ؛ فهي ظاهرة .

ثم اعلم أن آثار الرسول ﷺ تنقسم إلى ثلاثة أقسام أو أكثر :

أولًا : ما فعله على سبيل التعبُّد ؛ فهذا لا شك أننا مأمورون باتِّباعه ؛ لقوله تعالى : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب : ٢١] . فكل شيء لا يظهر فيه أنه فعله تأثرًا بعادة أو بمقتضى جبلة وفطرة أو حصل اتفاقًا ؛ فإنه على سبيل التعبد ، ونحن مأمورون به .

ثانيًا : ما فعله اتفاقًا ؛ فهذا لا يشرع لنا التأسي فيه ؛ لأنه غير مقصود ؛ كما لو قال قائل : ينبغي أن يكون قدومنا إلى مكة في الحج في اليوم الرابع من ذي الحجة ؛ لأن الرسول ﷺ قدم مكة في اليوم الرابع من ذي الحجة . فنقول : هذا غير مشروع ؛ لأن قدومه ﷺ في هذا اليوم وقع اتفاقًا .

ولو قال قائل : ينبغي إذا دفعنا من عرفة ووصلنا إلى الشِّعب الذي نزل فيه ﷺ وبال أن ننزل ونبول ونتوضأ خفيفًا كما فعل النبي ﷺ . فنقول : هذا لا يشرع .

وكذلك غيرها من الأمور التي وقعت اتفاقًا ؛ فإنه لا يشرع التأسي فيه بذلك ؛ لأنه ﷺ فعله لا على سبيل القَصد للتعبُّد ، والتأسي به تعبد .

ثالثًا : ما فعله بمقتضى العادة ؛ فهل يشرع لنا التأسي به ؟

الجواب : نعم ؛ ينبغي لنا أن نتأسى به ، لكن بجنسه لا بنوعه .

وهذه المسألة قل من يتفطَّن لها من الناس ؛ يظنون أن التأسي به فيما هو على سبيل العادة بالنوع ، ثم ينفون التأسي به في ذلك .

ونحن نقول : نتأسى به ، لكن باعتبار الجنس ؛ بمعنى أن نفعل ما تقتضيه العادة التي كان عليها الناس ؛ إلا أن يمنع ذلك مانع شرعي .

رابعًا : ما فعله بمقتضى الجبلة ؛ فهذا ليس من العبادات قطعًا ، لكن قد يكون عبادة من

واتِّباعُ(١) سبيلِ السابقين(٢) الأوَّلين(٣) مِن المهاجرين(٤) والأنصارِ(٥) ،

وجه ؛ بأن يكون فعله على صفة معينة عبادة : كالنوم ؛ فإنه بمقتضى الجبلة ، لكن يسن أن يكون على اليمين ، والأكل والشرب جبلة وطبيعة ، ولكن قد يكون عبادة من جهة أخرى ، إذا قصد به الإنسان امتثال أمر اللَّه والتنعم بنعمِه والقوة على عبادتِه وحفظ البدن ، ثم إن صفته أيضًا تكون عبادة كالأكل باليمين ، والبسملة عند البداءة ، والحَمْدلة عند الانتهاء .

وهنا نسأل : هل اتخاذ الشعر عادة أو عبادة ؟

يرى بعض العلماء أنه عبادة ، وأنه يسن للإنسان اتخاذ الشعر .

ويرى آخرون أن هذا من الأمور العادية ؛ بدليل قول الرسول ﷺ للذى رآه قد حلق بعض رأسه وترك بعضه ؛ فنهاهم عن ذلك ، وقال : « احلقوا كله أو ذروا كله »[1] . وهذا يدل على أن اتخاذ الشعر ليس بعبادة ، وإلا لقال : أبقه ، ولا تحلق منه شيئًا .

وهذه المسألة ينبغى التثبت فيها ، ولا يحكم على شيء بأنه عبادة إلا بدليل ؛ لأن الأصل فى العبادات المنع ، إلا ما قام الدليلُ على مشروعيته .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

أي : ومن طريقة أهل السنة اتباع ... إلخ ؛ فهى معطوفة على « اتباع الآثار » .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

يعني : إلى الأعمال الصالحة .

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

يعني : من هذه الأمة .

(٤) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

المهاجرون : من هاجروا إلى المدينة .

(٥) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الأنصار : أهل المدينة فى عهد النبى ﷺ .

وإنما كان اتباع سبيلهم من منهج أهل السنة والجماعة ؛ لأنهم أقرب إلى الصواب والحق ممن بعدهم ، وكلما بعد الناس عن عهد النبوة ؛ بعدوا من الحق ، وكلما قرب الناس من عهد النبوة ؛

---

(1) صححه الألبانى فى « صحيح الجامع » (٢١٢) .

واتِّباعُ[(١)] وصيةِ[(٢)] رسولِ اللَّهِ ﷺ حيث قال: «عليكم بسُنَّتي وسنةِ الخلفاءِ

قربوا من الحق، وكلما كان الإنسان أحرص على معرفةِ سيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين؛ كان أقرب إلى الحق.

ولهذا ترى اختلاف الأمة بعد زمن الصحابة والتابعين أكثر انتشارًا وأشمل لجميع الأمور، لكن الخلاف في عهدهم كان محصورًا.

فمن طريقة أهل السنة والجماعة أن ينظروا في سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، فيتبعوها؛ لأن اتباعها يؤدى إلى محبتهم، مع كونهم أقرب إلى الصواب والحق، خلافًا لمن زهد في هذه الطريقة، وصار يقول: هم رجال ونحن رجال. لا يبالى بخلافهم!! وكأن قول أبى بكر وعمر وعثمان وعلى كقول فلان وفلان من أواخر هذه الأمة!! وهذا خطأ وضلال، فالصحابة أقرب إلى الصواب، وقولهم مقدَّم على قول غيرهم من أجل ما عندهم من الإيمان والعلم، وما عندهم من الفَهمِ السليم والتقوى والأمانة، وما لهم من صحبة الرسول ﷺ.

❁ قال الشيخ الفوزان:

٢- ومن صفات أهل السنة (اتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار) لما خصهم اللَّه به من العلم والفقه، فقد شاهدوا التنزيل، وسمعوا التأويل، وتلقوا عن الرسول ﷺ بدون واسطةٍ، فهم أقرب إلى الصواب، وأحق بالاتباع بعد الرسول ﷺ.

فاتباعهم يأتى بالدرجة الثانية بعد اتباع الرسول ﷺ، فأقوال الصحابة حجة يجب اتباعها إذا لم يوجد نصٌّ عن النبى ﷺ؛ لأن طريقهم أسلم وأعلم وأحكم، لا كما يقول بعض المتأخرين: إن طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم. فيتبعون طريقة الخلف، ويتركون طريقة السلف.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

«اتباع»: معطوفة على «اتباع الآثار».

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين:

«الوصية»: العهد إلى غيره بأمر هام.

❁ قال الشيخ الفوزان:

٣- ومن صفات أهل السنة (اتباع وصية رسول اللَّه ﷺ، حيث قال: «عليكم بسنتى

الراشدين المَهْدِيِّين مِن بعدِي ، تَمَسَّكوا بها ، وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ[١] ، ....

وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ؛ فإن كل بدعةٍ ضلالة » . رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

معنى : « عليكم بسنتي ...... » إلخ : الحث على التمسك بها ، وأكد هذا بقوله : « وعضوا عليها بالنواجذ ، وهى أقصى الأضراس ؛ مبالغة فى التمسك بها .

والسنة : هى الطريقة ظاهرًا وباطنًا .

والخلفاء الراشدون : هم الذين خلفوا النبى ﷺ فى أمته علمًا وعملًا ودعوة .

وأول من يدخل فى هذا الوصف وأولى من يدخل فيه : الخلفاء الأربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي .

ثم يأتى رجل فى هذا العصر ، ليس عنده من العلم شىءٌ ، ويقول : أذان الجمعة الأول بدعة ؛ لأنه ليس معروفًا على عهد الرسول ﷺ ، ويجب أن نقتصر على الأذان الثانى فقط !

فنقول له : إن سنة عثمان رضى الله عنه سنة متبعة إذا لم تخالف سنة رسول الله ﷺ ، ولم يقم أحد من الصحابة الذين هم أعلم منك وأغير على دين الله بمعارضته ، وهو من الخلفاء الراشدين المهديين ، الذين أمر رسول الله ﷺ باتِّباعهم .

ثم إن عثمان رضى الله عنه اعتمد على أصلٍ ، وهو أن بلالًا يؤذن قبل الفجر فى عهد النبى ﷺ ، لا لصلاة الفجر ، ولكن ليرجع القائم ويوقظ النائم ، كما قال ذلك رسول الله ﷺ ، فأمر عثمان بالأذان الأول يوم الجمعة[1] ، لا لحضور الإمام ، ولكن لحضور الناس ؛ لأن المدينة كبرت واتسعت واحتاج الناس أن يعلموا بقرب الجمعة قبل حضور الإمام ، من أجل أن يكون حضورهم قبل حضور الإمام .

❋ **قال الشيخ الفوزان :**

وغرض الشيخ أن يبين أن أهل السنة والجماعة يتبعون طريقة الخلفاء الراشدين على الخصوص ، بعد اتباعهم لطريقة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، على وجه العموم ؛

---

(1) أخرجه البخارى (٩١٢) .

وإياكم(١) ومُحْدثاتِ الأمورِ(٢)؛ ....

لأن النبى ﷺ أوصى باتباع طريقة الخلفاء الراشدين وصيةً خاصةً فى هذا الحديث .

ففيه قرن سنة الخلفاء الراشدين بسنته عليه الصلاة والسلام ، فدل على أن ما سنه الخلفاء الراشدون أو أحدهم لايجوز العدول عنه .

✽ قال الشيخ ابن عثيمين :

فأهل السنة والجماعة يتبعون ما أوصى به النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الحث على التمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ؛ إلا إذا خالف كلام رسول الله ﷺ مخالفة صريحة ، فالواجب علينا أن نأخذ بكلام رسول الله ﷺ ونعتذر عن هذا الصحابي ، ونقول : هذا من باب الاجتهاد المعذور فيه .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(والخلفاء الراشدون) هم الخلفاء الأربعة : أبو بكرٍ وعمر وعثمان وعليٌ ، ووصفوا بالراشدين لأنهم عرفوا الحق واتبعوه ، فالراشد هو من عرف الحق ، وعمل به ، وضده الغاوى ، وهو من عرف الحق ، ولم يعمل به .

وقوله : (المهديين) ؛أى : الذين هداهم الله إلى الحق .

(تمسكوا بها) ؛أى : الزموها .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

« إياكم » للتحذير ؛ أي : أحذركم .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

« والأمور » : بمعنى : الشئون ، والمراد بها أمور الدين ، أما أمور الدنيا ، فلا تدخل فى هذا الحديث ؛ لأن الأصل فى أمور الدنيا الحل ، فما ابتدع منها ، فهو حلال ، إلا أن يدل الدليل على تحريمه . لكن أمور الدين الأصل فيها الحظر ، فما ابتدع منها ، فهو حرام بدعة ، إلا بدليل من الكتاب والسنة على مشروعيته .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(وعضوا عليها بالنواجذ) كنايةٌ عن شدة التمسك بها ، والنواجذ آخر الأضراس و(محدثات الأمور)هى البدع .

فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ »(١).

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قال النبي عليه الصلاة والسلام : « فإن كل بدعة ضلالة »[1]. الجملة مفرَّعة على الجملة التحذيرية ، فيكون المراد بها هنا توكيد التحذير وبيان حكم البدعة .

هذا كلام عام مسور بأقوى لفظ دال على العموم ، وهو لفظ (كل) ؛ فهو تعميم محكم صدر من الرسول ﷺ ، والرسول عليه الصلاة والسلام أعلم الخلق بشريعة اللّه ، وأنصح الخلق لعباد اللّه ، وأفصح الخلق بيانًا ، وأصدقهم خبرًا ، فاجتمعت فى حقه أربعة أمور : علم ونصح وفصاحة وصدق ، نطق بقوله : « كل بدعة ضلالة » .

فعلى هذا : كل من تعبد للّه بعقيدة أو قولٍ أو فعلٍ لم يكن من شريعة اللّه ، والأشاعرة يتعبدون بما هم عليه من عقيدة باطلةٍ .

- والذين أحدثوا أذكارًا معينة يتعبدون للّه بذلك ، ويعتقدون أنهم مأجورون على هذا .
- والذين أحدثوا أفعالًا يتعبدون للّه بها ، ويعتقدون أنهم مأجورون على هذا .

كل هذه الأصناف الثلاثة الذين ابتدعوا فى العقيدة أو فى الأقوال أو فى الأفعال ، كل بدعة من بدعهم ؛ فهى ضلالة ، ووصفها الرسول عليه الصلاة والسلام بالضلالة ؛ لأنها مركب ولأنها انحراف عن الحق .

والبدعةُ تستلزم محاذير فاسدة :

فأولًا : تستلزم تكذيب قول اللّه تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة : ٣] ؛ لأنه إذا جاء ببدعة جديدة يعتبرها دينًا ، فمقتضاه أن الدين لم يكمل .

ثانيًا : تستلزم القدح فى الشريعة ، وأنها ناقصة ، فأكملها هذا المبتدع .

ثالثًا : تستلزم القدح فى المسلمين الذين لم يأتوا بها ، فكل من سبق هذه البدع من الناس دينهم ناقص ! وهذا خطير ! !

رابعًا : من لوازم هذه البدعة أن الغالب أن من اشتغل ببدعة ؛ اشتغل عن سنة ، كما قال بعض السلف : « ما أحدث قوم بدعة ، إلا هدموا مثلها من السنة » .

خامسًا : أن هذه البدع توجب تفرق الأمة ، لأن هؤلاء المبتدعة يعتقدون أنهم أصحاب

---

(1) صححه الألبانى فى « المشكاة » (١٦٥) .

....

الحق ، ومن سواهم على ضلال ! ! وأهل الحق يقولون : أنتم الذين على ضلال ! فتتفرق قلوبهم .

فهذه مفاسد عظيمة ، كلها تترتب على البدعة من حيث هى بدعة ، مع أنه يتصل بهذه البدعة سفه فى العقل وخلل فى الدين .

وبهذا نعرف أن من قسم البدعة إلى ثلاثة أقسام أو خمسة أو ستة ، فقد أخطأ ، وخطؤه من أحد وجهين :

- إما ألّا ينطبق شرعًا وصف البدعة على ما سماه بدعة .
- إما ألّا يكون حسنًا كما زعم .

فالنبى ﷺ قال : « كل بدعة ضلالة » . فقال : « كل » . فما الذى يخرجنا من هذا السور العظيم حتى نقسم البدع إلى أقسام ؟ .

فإن قلت : ما تقول فى قول أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه حين خرج إلى الناس وهم يصلون بإمامهم فى رمضان ، فقال : نعمت البدعة هذه[1] . فأثنى عليها ، وسماها بدعة ؟ !

فالجواب أن نقول : ننظر إلى هذه البدعة التى ذكرها ؛ هل ينطبق عليها وصف البدعة الشرعية أو لا ؟

فإذا نظرنا وجدنا أنه لا ينطبق عليها وصف البدعة الشرعية ، فقد ثبت أن النبى ﷺ صلى بأصحابه فى رمضان ثلاث ليال ، ثم تركه خوفًا من أن تفرض عليهم[2] ، فثبت أصل المشروعية ، وانتفى أن تكون بدعة شرعية ، ولا يمكن أن نقول : إنها بدعة ، والرسول ﷺ قد صلاها .

وإنما سماها عمر رضى الله عنه بدعة ؛ لأن الناس تركوها ، وصاروا لا يصلون جماعة بإمام واحد ، بل أوزاعًا ؛ الرجل وحده والرجلان والثلاثة والرهط ، فلما جمعهم على إمام واحد ، صار اجتماعهم بدعة بالنسبة لما كانوا عليه أولًا من هذا التفرق .

فإنه خرج رضى الله عنه ذات ليلة ، فقال : لو أنى جمعت الناس على إمام واحد لكان أحسن ، فأمر أبى بن كعب وتميمًا الدارى أن يقوما للناس بإحدى عشرة ركعة ، فقاما للناس بإحدى عشرة ركعة ، فخرج ذات ليلة والناس يصلون بإمامهم ، فقال : نعمت البدعة هذه .

---

(1) أخرجه البخارى (٢٠١٠) .

(2) أخرجه البخارى (٩٢٤) ، ومسلم (٧٦١) .

....

إذن ، هى بدعة نسبية ، باعتبار أنها تركت ثم أنشئت مرة أخرى .

فهذا وجه تسميتها ببدعة .

وأما أنها بدعة شرعية ، ويثنى عليها عمر ؛ فكلًّا .

وبهذا نعرف أن كلام رسول اللَّه ﷺ لا يعارضه كلام عمر رضى اللَّه عنه .

فإن قلت : كيف تجمع بين هذا وبين قول الرسول صلى اللَّه وعليه وسلم : « من سن فى الإسلام سنة حسنة ؛ فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة »[1]. فأثبت أن الإنسان يسن سنة حسنة فى الإسلام ؟ .

فنقول : كلام الرسول ﷺ يصدق بعضه بعضًا ، ولا يتناقض ؛ فيريد بالسنة الحسنة السنة المشروعة ، ويكون المراد بسنها المبادرة إلى فعلها .

يعرف هذا ببيان سبب الحديث ، وهو أن النبى ﷺ قاله حين جاء أحد الأنصار بصرة (يعني : من الدراهم) ، ووضعها بين يدى النبى ﷺ حين دعا أصحابه أن يتبرعوا للرهط الذين قدموا من مضر مجتابى النمار ، وهم من كبار العرب ، فتمعر وجه النبى ﷺ لما رأى من حالهم ، فدعا إلى التبرع لهم ، فجاء هذا الرجل أول ما جاء بهذه الصرة ، فقال : « من سن فى الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

أو يقال : المراد بالسنة الحسنة ما أحدث ليكون وسيلة إلى ما ثبتت مشروعيته ؛ كتصنيف الكتب وبناء المدارس ونحو ذلك .

وبهذا نعرف أن كلام الرسول ﷺ لا يناقض بعضه بعضًا ، بل هو متفق ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(فإن كل بدعةٍ ضلالة) والبدعة لغةً : ما ليس له مثال سابق .

وشرعًا : ما لم يدل عليه دليل شرعىٌ ، فكل من أحدث شيئًا ، ونسبه إلى الدين ، ولم يكن له دليل فهو بدعة وضلالة ، سواء فى العقيدة ، أو فى الأقوال أو الأفعال .

---

(1) أخرجه مسلم (١٠١٧) .

ويعلَمون أن أصدقَ الكلامِ كلامُ اللّهِ(١)، وخيرَ الهديِ هَدْىُ محمدٍ ﷺ(٢)،

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

هذا علمنا واعتقادنا ، وأنه ليس فى كلام اللّه من كذب ، بل هو أصدق الكلام ، فإذا أخبر اللّه عن شىء بأنه كائن ، فهو كائن ، وإذا أخبر عن شىءٍ بأنه سيكون ، فإنه سيكون ، وإذا أخبر عن شىءٍ بأن صفته كذا وكذا ، فإن صفته كذا وكذا ، فلا يمكن أن يتغير الأمر عما أخبر اللّه به ، ومن ظن التغير ، فإنما ظنه خطأ ؛ لقصوره أو تقصيره .

مثال ذلك لو قال قائل : إن اللّه عز وجل أخبر أن الأرض قد سطحت ، قال : ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية : ٢٠] ، ونحن نشاهد أن الأرض مكورة ؛ فكيف يكون خبره خلاف الواقع ؟ .

فجوابه أن الآية لا تخالف الواقع ، ولكن فهمه خاطئ إما لقصوره أو تقصيره ؛ فالأرض مكورة مسطحة ، وذلك لأنها مستديرة ، ولكن لكبر حجمها لا تظهر استدارتها إلا فى مساحة واسعة تكون بها مسطحة ، وحينئذٍ يكون الخطأ فى فهمه ؛ حيث ظن أن كونها قد سطحت مخالف لكونها كروية .

فإذا كنا نؤمن أن أصدق الكلام كلام اللّه ؛ فلازم ذلك أنه يجب علينا أن نصدق بكل ما أخبر به فى كتابه ؛ سواء كان ذلك عن نفسه أو عن مخلوقاته .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

٤- ومن صفات أهل السنة أنهم يعظمون كتاب اللّه وسنة رسوله ، ويجلونهما ، ويقدمونهما فى الاستدلال بهما ، والاقتداء بهما ، على أقوال الناس وأعمالهم ؛ لأنهم (يعلمون أن أصدق الكلام كلام اللّه) ، قال اللّه تعالى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء : ١٢٢] ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء : ٨٧] .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

« الهدى » : هو الطريق التى كان عليها السالك .

والطرق شتى ، لكن خيرها طريق النبى ﷺ ، فنحن نعلم ذلك ونؤمن به ، نعلم أن خير الهدى هدى محمد ﷺ فى العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات ، وأن هدى محمد ﷺ ليس بقاصر ، لا فى حسنه وتمامه وانتظامه وموافقته لمصالح الخلق ، ولا فى أحكام الحوادث التى لم تزل ولا تزال تقع إلى يوم القيامة ، فإن هدى محمد ﷺ كامل تام ، فهو خير الهدي ، أهدى

ويُؤْثِرون[١] كلامَ اللَّهِ على غيرِه مِن كلامِ أصنافِ الناسِ[٢]، ويُقَدِّمون هدىَ محمدٍ

من شريعة التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وجميع الهدي.

فإذا كنا نعتقد ذلك، فواللَّه، لا نبغي به بديلًا.

وبناء على هذه العقيدة لا نعارض قول رسول اللَّه ﷺ بقول أحد من الناس، كائنًا من كان، حتى لو جاءنا قول لأبي بكر، وهو خير الأمة، وقول لرسول اللَّه ﷺ، أخذنا بقول رسول اللَّه ﷺ.

وأهل السنة والجماعة بنوا هذا الاعتقاد على الكتاب والسنة.

- قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

- وقال النبي ﷺ وهو يخطب الناس على المنبر: «خير الحديث كتاب اللَّه، وخير الهدى هدى محمد ﷺ»[1].

ولهذا نجد الذين اختلفوا في الهدى وخالفوا فيه: إما مقصرين عن شريعة الرسول ﷺ، وإما غالين فيها؛ بين متشددين وبين متهاونين، بين مفرّط ومفرِط، وهدى الرسول ﷺ يكون بين هذا وهذا.

✽ **قال الشيخ الفوزان:**

ويعلمون: (أن خير الهدى هدى محمدٍ) «الهدى» بفتح الهاء وسكون الدال: السمت والطريقة والسيرة، وقرئ بضم الهاء وفتح الدال؛ أي: الدلالة والإرشاد.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

أي: يقدمون.

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين:

أي يقدمون كلام اللَّه على كلام غيره من سائر أصناف الناس في الخبر والحكم، فأخبار اللَّه عندهم مقدمة على خبر كل أحد.

فإذا جاءتنا أخبار عن أمم مضت وصار القرآن يكذبها؛ فإننا نكذبها.

مثال ذلك: اشتهر عند كثير من المؤرخين أن إدريس قبل نوح، وهذا كذب؛ لأن القرآن يكذبه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾

---

(1) أخرجه مسلم (٨٦٧).

ﷺ(١) على هديِ كلِّ أحدٍ(٢)، ولهذا(٣) سُمُّوا أهلَ الكتابِ والسنةِ(٤).

[النساء: ١٦٣]، وإدريس من النبيين؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾ [مريم: ٥٦] إلى أن قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ﴾ [مريم: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ [الحديد: ٢٦]؛ فلا نبي قبل نوح إلا آدم فقط.

❁ **قال الشيخ الفوزان:**

(ويؤثرون كلام الله على غيره من كلام أصناف الناس)؛ أي: يقدمونه، ويأخذون به، ويتركون ما عارضه من كلام الخلق، أيًّا كانوا، رؤساء، أوعلماء، أو عبادًا.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

أي: طريقته وسنته التي عليها.

❁ **قال الشيخ الفوزان:**

(ويقدمون هدى محمدٍ ﷺ)؛ أي: سنته، وسيرته، وتعليمه، وإرشاده.

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

فى العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات والأحوال وفى كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقوله: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣١].

❁ **قال الشيخ الفوزان:**

(على هدى كل أحدٍ) من الخلق، مهما عظمت مكانته، إذا كان هديه يعارض هدى رسول الله ﷺ، وذلك عملًا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية [النساء: ٥٩].

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

قوله: «ولهذا». اللام فى قوله: «ولهذا» للتعليل؛ أي: ومن أجل إيثارهم كلام الله وتقديم هدى رسول الله ﷺ.

(٤) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

لتصديقهما والتزامهما وإيثارهما على غيرهما، ومن خالف الكتاب والسنة، وادعى أنه من

وسُمُّوا أهلَ الجماعةِ ؛لأن الجماعةَ هى الاجتماعُ ، وضدُّها الفُرْقةُ [(١)]، وإن كان لفظُ الجماعةِ قد صار اسمًا لنفسِ القومِ المُجْتَمِعين [(٢)].

أهل الكتاب والسنة ، فهو كاذب ؛ لأن من كان من أهل شيء لابد أن يلزمه ويلتزم به .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (ولهذا سموا أهل الكتاب والسنة) ؛أى : لأجل تمسكهم بكتاب الله ، وإيثارهم لكلامه على كلام كل أحدٍ ، وتمسكهم بهدى رسول الله ، وتقديمه على هدى كل أحدٍ ، سموا أهل الكتاب والسنة .

لأجل ذلك لقبوا بهذا اللقب الشريف الذى يفيد اختصاصهم بهما دون غيرهم ، ممن حاد عن الكتاب والسنة من فرق أهل الضلال ؛ كالمعتزلة ، والخوارج ، والروافض ، ومن وافقهم فى أقوالهم ، أو فى بعضها .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الجماعة اسم مصدر : اجتمع اجتماعًا وجماعة ، فالجماعة هى الاجتماع ، فمعنى أهل الجماعة أهل الاجتماع ؛ لأنهم مجتمعون على السنة ، متآلفون فيها ، لا يضلل بعضهم بعضًا ، ولا يبدع بعضهم بعضًا ؛ بخلاف أهل البدع .

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (وسموا أهل الجماعة) ؛أى : كما سموا أهل الكتاب والسنة ، سموا(أهل الجماعة) والجماعة ضد الفرقة ؛ لأن التمسك بالكتاب والسنة يفيد الاجتماع والائتلاف ، قال تعالى : ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ فالجماعة هنا هم المجتمعون على الحق .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

هذا استعمال ثان ؛ حيث صار لفظ (الجماعة) عرفًا : اسمًا للقوم المجتمعين .

وعلى ما قرره المؤلف تكون (الجماعة) فى قولنا : « أهل السنة والجماعة » : معطوفة على (السنة) ، ولهذا عبر المؤلف بقوله : « سموا أهل الجماعة » ، ولم يقل : سموا جماعة ؛ فكيف يكونون أهل الجماعة وهم جماعة ؟!

نقول : الجماعة فى الأصل : الاجتماع ؛ فأهل الجماعة ؛ يعني : أهل الاجتماع ، لكن نقل اسم الجماعة إلى القوم المجتمعين نقلًا عرفيًا .

والإجماعُ هو الأصلُ الثالثُ الذى يُعْتَمَدُ عليه فى العلمِ والدينِ(١)، وهم يَزِنُونَ

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

يعنى به الدليل الثالث؛ لأن الأدلة أصول الأحكام، حيث تبنى عليها.

والأصل الأول: هو الكتاب، والثاني: السنة، والإجماع هو: الأصل الثالث، ولهذا يسمون: أهل الكتاب والسنة والجماعة.

فهذه ثلاثة أصول يعتمد عليها فى العلم والدين، وهي: الكتاب، والسنة، والإجماع.

أما الكتاب والسنة؛ فأصلان ذاتيان، وأما الإجماع؛ فأصل مبنى على غيره؛ إذ لا إجماع إلا بكتاب أو سنة.

أما كون الكتاب والسنة أصلًا يُرجع إليه؛ فأدلته كثيرة؛ منها:

- قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]. وقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨].

ومن أنكر أن تكون السنة أصلًا فى الدليل، فقد أنكر أن يكون القرآن أصلًا.

ولا شك عندنا فى أن من قال: إن السنة لا يرجع إليها فى الأحكام الشرعية، أنه كافر مرتد عن الإسلام؛ لأنه مكذب ومنكر للقرآن؛ لأن القرآن فى غير ما موضع جعل السنة أصلًا يرجع إليه.

وأما الدليل على أن الإجماع أصل؛ فيقال:

أولًا: هل الإجماع موجود أو غير موجود؟

قال بعض العلماء: لا إجماع موجود إلا على ما فيه نصٌّ، وحينئذٍ: يستغنى بالنص عن الإجماع.

فمثلًا، لو قال قائل: العلماء مجمعون على أن الصلوات المفروضة خمس؛ فهذا صحيح، لكن ثبوت فرضيتها بالنص.

ومجمعون على تحريم الزنى؛ فهذا صحيح، لكن ثبوت تحريمه بالنص. ومجمعون على تحريم نكاح ذوات المحارم؛ فهذا صحيح، لكن ثبوت تحريمه بالنص.

ولهذا قال الإمام أحمد: من ادعى الإجماع، فهو كاذب، وما يدريه لعلهم اختلفوا؟

والمعروف عن عامة العلماء أن الإجماع موجودٌ، وأن كونه دليلًا ثابت بالقرآن والسنة:

بهذه الأصولِ الثلاثةِ جميعَ ما عليه الناسُ مِن أقوالٍ وأعمالٍ باطنةٍ أو ظاهرةٍ ، مما له تَعَلُّقٌ بالدينِ(١).

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء : ٥٩] ؛ فإن قوله : ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ﴾ : يدل على أن ما أجمعنا عليه لا يجب رده إلى الكتاب والسنة ؛ اكتفاء بالإجماع ، وهذا الاستدلال فيه شيءٌ .

- ومن ذلك قوله : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء : ١١٥] . فقال : ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ .

- واستدلوا أيضًا بحديث : « لا تجتمع أمتي على ضلالة »[1] .

وهذا الحديث حسَّنه بعضهم وضعفه آخرون ، لكن قد نقول : إن هذا وإن كان ضعيف السند ، لكن يشهد لمتنه ما سبق من النص القرآني .

فجمهور الأمة على أن الإجماع دليلٌ مستقل ، وأننا إذا وجدنا مسألة فيها إجماع ؛ أثبتناها بهذا الإجماع .

وكأن المؤلف رحمه الله يريد من هذه الجملة إثبات أن إجماع أهل السنة حجة .

❁ قال الشيخ الفوزان :

٥- فمن صفات أهل السنة الاجتماع على الأخذ بالكتاب والسنة ، والاتفاق على الحق ، والتعاون على البر والتقوى ، وقد أثمر هذا وجود الإجماع .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(والإجماع هو الأصل الثالث الذى يعتمد عليه فى العلم والدين) وقد عرف الأصوليون الإجماع بأنه : اتفاق علماء العصر على أمرٍ دينيٍّ ، وهو حجة قاطعة يجب العمل به .

وقوله : (وهو الأصل الثالث) ؛ أى : بعد الأصلين الأولين ، وهما الكتاب والسنة .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

« الأصول الثلاثة » : هى الكتاب والسنة والإجماع .

يعني : أن أهل السنة والجماعة يَزِنُون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من قول أو

---

(1) صححه الألبانى فى « صحيح الجامع » (١٨٤٨) .

والإجماعُ الذى يَنْضَبِطُ هو ما كان عليه السلفُ الصالحُ، إذ بعدَهم كثُر الاختلافُ، وانْتَشَرت الأُمَّةُ[١].

عمل، باطن أو ظاهر، لا يعرفون أنه حق إلا إذا وَزَنُوه بالكتابِ والسنةِ والإجماع، فإن وجد له دليل منها فهو حق، وإن كان على خلافه فهو باطل.

❁ قال الشيخ الفوزان:

٦-من صفات أهل السنة أنهم (يزنون بهذه الأصول الثلاثة) ؛الكتاب والسنة والإجماع (جميع ما عليه الناس من أقوالٍ، وأعمالٍ باطنةٍ، أو ظاهرةٍ، مما له تعلق بالدين).

فهم يجعلون هذه الأصول الثلاثة ميزانًا لبيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فيما يصدر من الناس، من تصرفاتٍ قوليةٍ، أو فعليةٍ، اعتقاديةٍ أو عمليةٍ.

(مما له تعلق بالدين) من أعمال الناس؛ كالصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، والمعاملات، وغيرها.

أما ما ليس له تعلق بالدين من الأمور العادية، والأمور الدنيوية فالأصل فيه الإباحة.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

يعنى أن الإجماع الذى يمكن ضبطه والإحاطة به هو ما كان عليه السلف الصالح وهم القرون الثلاثة، الصحابة والتابعون وتابعوهم.

ثم علل المؤلف ذلك بقوله: «إذ بعدهم كَثُرَ الاختلاف وانتشرت الأمة». يعني: أنه كثر الاختلاف ككثرة الأهواء؛ لأن الناس تفرقوا طوائف، ولم يكونوا كلهم يريدون الحق، فاختلفت الآراء، وتنوعت الأقوال، «وانتشرت الأمة»: فصارت الإحاطة بهم من أصعب الأمور.

فشيخ الإسلام رحمه الله كأنه يقول: من ادَّعى الإجماع بعد السلف الصالح، وهم القرون الثلاثة؛ فإنه لا يصح دعواه الإجماع؛ لأن الإجماع الذى ينضبط ما كان عليه السلف الصالح، وهل يمكن أن يوجد إجماع بعد الخلاف؟ فنقول: لا إجماع مع وجود خلاف سابقٍ ولا عبرة بخلاف بعد تحقق الإجماع.

❁ قال الشيخ الفوزان:

ثم بين الشيخ رحمه الله حقيقة الإجماع الذى يجعل أصلًا فى الاستدلال، فقال:

« فصلٌ »

فى بيانِ مُكَمّلاتِ العقيدةِ من مكارِمِ الأخلاقِ ومحاسنِ الأعمالِ التى يَتَحَلَّى بها أهلُ السنةِ

ثم هم مع هذه الأصولِ(١) ....

(والإجماع الذى ينضبط) ؛ أى : يجزم بحصوله ووقوعه .

(هو ما كان عليه السلف الصالح) لما كانوا قليلين مجتمعين فى الحجاز ، يمكن ضبطهم ، ومعرفة رأيهم فى القضية .

(وبعدهم كثر الاختلاف ، وانتشرت الأمة) ؛ أى : بعد السلف الصالح صار الإجماع لا ينضبط لأمرين :

أولًا : كثرة الاختلاف ، بحيث لا يمكن الإحاطة بأقوالهم .

ثانيًا : انتشار الأمة فى أقطار الأرض بعد الفتوح ، بحيث لا يمكن عادةً بلوغ الحادثة لكل واحدٍ منهم ، ووقوفه عليها ، ثم لا يمكن الجزم بأنهم أطبقوا على قولٍ واحدٍ فيها .

تنبيه : إنما اقتصر الشيخ رحمه الله على ذكر الأصول الثلاثة ، ولم يذكر الأصل الرابع ، وهو القياس ؛ لأن القياس مختلف فيه ، كما اختلفوا فى أصولٍ أخرى ، مرجعها كتب الأصول .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

فصل : فى منهج أهل السنة والجماعة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وغيرها من الخصال .

أي : أهل السنة والجماعة .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

هذا الفصل كالمتمم للفصل الذى قبله ، فيه بيان لصفات أهل السنة ، التى هى من مكملات العقيدة .

فقوله : (ثم هم) ؛ أهل السنة .

❁ **قال الشيخ هراس :**

قوله : (ثم هم مع هذه الأصول) : إلخ : جمع المؤلف فى هذا الفصل جُمَّاع مكارم

يَأْمُرُون بالمعروفِ(١)، ويَنْهَوْن عن المنكرِ(٢)، ....

الأخلاق التى يتخلق بها أهل السنة والجماعة من الأمر بالمعروف ، وهو ما عرف حسنه بالشرع والعقل ، والنهى عن المنكر ، وهو كل قبيح عقلًا وشرعًا ، على حسب ما توجبه الشريعة من تلك الفريضة كما يفهم من قوله عليه السلام : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » . ومن شهود الجمع والجماعات والحج والجهاد مع الأمراء أيًا كانوا ؛ لقوله عليه السلام : « صلوا خلف كل بر وفاجر » . ومن النصح لكل مسلم لقوله عليه السلام : « الدين النصيحة » . ومن فهم صحيح لما توجبه الأخوة الإيمانية من تعاطف وتواد وتناصر كما فى هذه الأحاديث التى يُشَبِّه فيها الرسول المؤمنين بالبنيان المرصوص المتماسك اللبنات أو بالجسد المترابط الأعضاء ، ومن دعوة إلى الخير وإلى مكارم الأخلاق ، فهم يدعون إلى الصبر على المصائب والشكر على النعماء والرضا بقضاء اللّٰه وقدره ، إلى غير ذلك مما ذكره .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

« مع هذه الأصول » : السابقة التى ذكرها قبل هذا ، وهو اتِّباع آثار الرسول عليه الصلاة والسلام ، واتباع الخلفاء الراشدين ، وإيثارهم كلام اللّٰه وكلام رسوله على غيره ، واتباع إجماع المسلمين ، مع هذه الأصول : يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(مع هذه الأصول) ؛ أى : التى مر ذكرها ؛ أى : مع قيامهم بها علمًا وعملًا ، يتحلون بصفاتٍ هى من مكملاتها وثمراتها فهم :

(يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) كما وصفهم اللّٰه بذلك فى قوله : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ .

والمعروف هو اسم جامع لكل ما يحبه اللّٰه من الإيمان والعمل والصالح ، والمنكر اسم جامع لكل ما يكرهه اللّٰه وينهى عنه .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

« المعروف » : كل ما أمر به الشرع ، فهم يأمرون به .

« المنكر » : كل ما نهى عنه الشرع ، فهم ينهون عنه .

على ما تُوجِبُه الشريعةُ[(١)]، ويَرَوْنَ إقامةَ الحجِّ والجهادِ والجُمَعِ والأعيادِ مع الأمراءِ،

لأن هذا هو ما أمر الله به فى قوله : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

وكذلك قال النبى عليه الصلاة والسلام : « لتأمرون بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذُن على يدِ الظالم ، ولتأطرنّه على الحق أطرًا »[(1)].

فهم يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولا يتأخرون عن ذلك .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

ولكن يشترط للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن يكونا على ما توجبه الشريعة وتقتضيه .

ولذلك شروط :

الشرط الأول : أن يكون عالمًا بحكم الشرع فيما يأمر به أو ينهى عنه ، فلا يأمر إلا بما علم أن الشرع أمر به ، ولا ينهى إلا عما علم أن الشرع نهى عنه ، ولا يعتمد فى ذلك على ذوقٍ ولا عادةٍ . لقوله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة : ٤٨] .

وقوله : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء : ٣٦] .

وقوله : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل : ١١٦] .

- فلو رأى شخصًا يفعل شيئًا الأصل فيه الحل ، فإنه لا يحل له أن ينهاه عنه حتى يعلم أنه حرام أو منهى عنه .

- ولو رأى شخصًا ترك شيئًا يظنه الرائى عبادة ، فإنه لا يحل له أن يأمره بالتعبد به حتى يعلم أن الشرع أمر به .

الشرط الثاني : أن يعلم بحال المأمور : هل هو ممن يوجه إليه الأمر أو النهى أم لا ؟ فلو رأى شخصًا يشك هل هو مكلف أم لا ، لم يأمره بما لا يُؤمَر به مثله حتى يستفصل .

---

(1) ضعفه الألبانى فى « ضعيف الجامع » (١٨٢٢) .

....

الشرط الثالث : أن يكون عالمًا بحال المأمور حال تكليفه ؛ هل قام بالفعل أم لا ؟ .

- فلو رأى شخصًا دخل المسجد ثم جلس ، وشك هل صلى ركعتين [أم لا ؟] ، فلا ينكر عليه ، ولا يأمره بهما حتى يستفصل .

ودليل ذلك أن النبي ﷺ كان يخطب يوم الجمعة ، فدخل رجل ، فجلس ، فقال له النبي صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم : « أصليت ؟ » . قال : لا . قال : « قم فصل ركعتين وتجوز فيهما »[1] .

- ولقد نقل لي أن بعض الناس يقول : يحرم أن يسجل القرآن بأشرطة ؛ لأن ذلك إهانة للقرآن على زعمه ؛ فينهى الناس أن يسجلوا القرآن على هذه الأشرطة ؛ لظنه أنه منكر ! !

فنقول له : إن المنكر أن تنهاهم عن شيء لم تعلم أنه منكر ! ! فلابد أن تعلم أن هذا منكر في دين اللّه .

وهذا في غير العبادات ، أما العبادات ؛ فإننا لو رأينا رجلًا يتعبد بعبادة ؛ لم يعلم أنها مما أمر اللّه به ، فإننا ننهاه ؛ لأن الأصل في العبادات المنع .

الشرط الرابع : أن يكون قادرًا على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا ضرر يلحقه ، فإن لحقه ضرر ، لم يجب عليه ، لكن إن صبر وقام به فهو أفضل ؛ لأن جميع الواجبات مشروطة بالقدرة والاستطاعة ؛ لقوله تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن : ١٦] . وقوله : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

فإذا خاف إذا أمر شخصًا بمعروف أن يقتله ؛ فإنه لا يلزمه أن يأمره ؛ لأنه لا يستطيع ذلك ، بل قد يحرم عليه حينئذٍ . وقال بعض العلماء : بل يجب عليه الأمر والصبر ، وإن تضرر بذلك ما لم يصل إلى حد القتل . لكن القول الأول أولى ؛ لأن هذا الآمر إذا لحقه الضرر بحبس ونحوه ؛ فإن غيره قد يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفًا مما حصل ، حتى في حال لا يخشى منها ذلك الضرر .

وهذا ما لم يصل الأمر إلى حد يكون الأمر بالمعروف من جنس الجهاد ؛ كما لو أمر بسنة ونهى عن بدعة ، ولو سكت لاستطال أهل البدعة على أهل السنة ، ففي هذه الحال

---

(1) أخرجه البخاري (٩٣٠) ، ومسلم (٨٧٥) .

....

يجب إظهار السنة وبيان البدعة ؛ لأنه من الجهاد في سبيل الله ، ولا يعذر من تعين عليه بالخوف على نفسه .

الشرط الخامس : ألَّا يترتب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مفسدة أعظم من السكوت ، فإن ترتب عليها ذلك فإنه لا يلزمه ، بل لا يجوز له أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر .

ولهذا قال العلماء : إن إنكار المنكر ينتج منه إحدى أحوال أربعة : إما أن يزول المنكر ، أو يتحول إلى أخف منه ، أو إلى مثله ، أو إلى أعظم منه .

- أما الحالة الأولى والثانية ؛ فالإنكار واجب .
- أما في الثالثة ؛ فهي في محل نظر .
- وأما في الرابعة ؛ فلا يجوز الإنكار ؛ لأن المقصود بإنكار المنكر إزالته أو تخفيفه .

مثال ذلك : إذا أراد أن يأمر شخصًا بفعل إحسان ، لكن يستلزم فعل هذا الإحسان ألا يصلِّي مع الجماعة ؛ فهنا لا يجوز الأمر بهذا المعروف ؛ لأنه يؤدي إلى ترك واجب من أجل فعل مستحب .

وكذلك في المنكر لو كان إذا نهى عن هذا المنكر تحول الفاعل له إلى فعل منكر أعظم ، فإنه في هذه الحال لا يجوز أن ينهى عن هذا المنكر دفعًا لأعلى المفسدتين بأدناهما .

ويدل لهذا قوله تعالى : ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام : ١٠٨] . فإن سب آلهة المشركين لا شك أنه أمر مطلوبٌ ، لكن لما كان يترتب عليه أمر محظور أعظم من المصلحة التي تكون بسب آلهة المشركين ، وهو سبهم لله تعالى عدوًا بغير علم ، نهى الله عن سب آلهة المشركين في هذه الحال .

ولو وجدنا رجلًا يشرب الخمر ، وشرب الخمر منكر ، فلو نهيناه عن شربه لذهب يسرق أموال الناس ويستحل أعراضهم فهنا لا ننهاه عن شرب الخمر ؛ لأنه يترتب عليه مفسدة أعظم .

الشرط السادس : أن يكون هذا الآمر أو الناهي قائمًا بما يأمر به منتهيًا عما ينهى عنه ، وهذا على رأي بعض العلماء ، فإن كان غير قائم بذلك ؛ فإنه لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ؛

....

لأن الله تعالى قال لبنى إسرائيل : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة : ٤٤] . فإذا كان هذا الرجل لا يصلي ، فلا يأمر غيره بالصلاة ، وإن كان يشرب الخمر ، فلا ينهى غيره عنها ، ولهذا قال الشاعر :

لا تَنْهَ عَن خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

فهم استدلوا بالأثر والنظر .

ولكن الجمهور على خلاف ذلك ، وقالوا : يجب أن يأمر بالمعروف وإن كان لا يأتيه ، وينهى عن المنكر وإن كان يأتيه ، وإنما وبخ الله تعالى بنى إسرائيل ، لا على أمرهم بالبِرّ ، ولكن على جمعهم بين الأمر بالبر ونسيان النفس .

وهذا القول هوالصحيح ؛ فنقول : أنت الآن مأمور بأمرين : الأول : فعل البر ، والثاني : الأمر بالبر . منهى عن أمرين : الأول : فعل المنكر ، والثاني : ترك النهى عن فعله . فلا تجمع بين ترك المأمورين وفعل المنهيين ؛ فإن ترك أحدهما لا يستلزم سقوط الآخر .

فهذه ستة شروط ؛ منها أربعة للجواز ، وهى الأول والثانى والثالث والخامس ؛ على تفصيل فيه ، واثنان للوجوب ، وهما الرابع والسادس .

– ولا يشترط ألَّا يكون من أصول الآمر أو الناهى كأبيه أو أمه أو جده أو جدته ، بل ربما نقول : إن هذا يتأكد أكثر ؛ لأن من بر الوالدين أن ينهاهما عن فعل المعاصى ويأمرهما بفعل الطاعات قد يقول : أنا إذا نهيت أبي غضب عليّ وهجرني ، فماذا أصنع ؟

نقول : اصبر على هذا الذى ينالك بغضب أبيك وهجره ، والعاقبة للمتقين ، واتبع ملة أبيك إبراهيم عليه السلام ، حيث عاتب أباه على الشرك ؛ فقال : ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ . إلى أن قال : ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ﴾ ؛ أي : أبوه : ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم : ٤٢ – ٤٦] . وقال إبراهيم أيضًا لأبيه آزر : ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام : ٧٤] .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(على ما توجبه الشريعة) ؛ أى : باليد ، ثم باللسان ، ثم بالقلب ، تبعًا للقدرة والمصلحة ،

أبرارًا كانوا أو فُجّارًا[1]، ....

خلافًا للمعتزلة الذين يخالفون ما توجبه الشريعة فى هذا، فيرون أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو الخروج على الأئمة .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الأبرار : جمع بَرّ، وهو كثير الطاعة، والفجار : جمع فاجر وهو العاصى كثير المعصية .

فأهل السنة رحمهم اللّه يخالفون أهل البدع تمامًا، فيرون إقامة الحج مع الأمير وإن كان من أفسق عباد اللّه .

وكان الناس فيما سبق يجعلون على الحج أميرًا، كما جعل النبى ﷺ أبا بكر أميرًا على الحج فى العام التاسع من الهجرة، وما زال الناس على ذلك، يجعلون للحجة أميرًا قائدًا يدفعون بدفعه ويقفون بوقوفه، وهذا هو المشروع ؛ لأن المسلمين يحتاجون إلى إمام يقتدون به، أما كون كل إنسان على رأسه، فإنه يحصل به فوضى واختلاف .

فهم يرون إقامة الحج مع الأمراء، وإن كانوا فُسّاقًا، حتى وإن كانوا يشربون الخمر فى الحج، لا يقولون : هذا إمام فاجر، لا نقبل إمامته ؛ لأنهم يرون أن طاعة ولى الأمر واجبة، وإن كان فاسقًا، بشرط ألّا يخرجه فسقه إلى الكفر البواح الذى عندنا فيه من اللّه برهان ؛ فهذا لا طاعة له، ويجب أن يزال عن تولى أمور المسلمين، لكن الفجور الذى دون الكفر مهما بلغ ؛ فإن الولاية لا تزول به، بل هى ثابتة، والطاعة لولى الأمر واجبة فى غير المعصية .

– خلافًا للخوارج الذين يرون أنه لا طاعة للإمام والأمير إذا كان عاصيًا ؛ لأن من قاعدتهم : أن الكبيرة تخرج من الملة .

– وخلافًا للرافضة الذين يقولون : إنه لا إمام إلا المعصوم، وإن الأمة الإسلامية منذ غاب من يزعمون أنه الإمام المنتظر، ليست على إمام، ولا تبعًا لإمام، بل هى تموت مِيتةً جاهلية من ذلك الوقت إلى اليوم، ويقولون : إنه لا إمام إلا الإمام المعصوم، ولا حج ولا جهاد مع أى أمير كان ؛ لأن الإمام لم يأت بعد .

لكن أهل السنة والجماعة يقولون : نحن نرى إقامة الحج مع الأمراء سواء كانوا أبرارًا أو فجّارًا، وكذلك إقامة الجهاد مع الأمير، ولو كان فاسقًا، ويقيمون الجهاد مع أمير لا يصلى معهم الجماعة، بل يصلى فى رحله .

فأهل السنة والجماعة لديهم بُعد نظرٍ ؛ لأن المخالفات فى هذه الأمور معصية للّه ورسوله ،

....

وتجر إلى فتن عظيمة .

فما الذى فتح باب الفتن والقتال بين المسلمين والاختلاف فى الآراء إلا الخروج على الأئمة ؟ !

فيرى أهل السنة والجماعة وجوب إقامة الحج والجهاد مع الأمراء، وإن كانوا فجارًا .

ولكن هذا لا يعنى أن أهل السنة والجماعة لا يرون أن فعل الأمير منكر ، بل يرون أنه منكر ، وأن فعل الأمير للمنكر قد يكون أشد من فعل عامة الناس ؛ لأن فعل الأمير للمنكر يلزم منه زيادة على إثمه محظوران عظيمان :

الأول : اقتداء الناس به وتهاونهم بهذا المنكر .

والثاني :أن الأمير إذا فعل المنكر سيقل فى نفسه تغييره على الرعية أو تغيير مثله أو مقاربه .

لكن أهل السنة والجماعة يقولون : حتى مع هذا الأمر المستلزم لهذين المحظورين أو لغيرهما ؛ فإنه يجب علينا طاعة ولاة الأمور وإن كانوا عصاة فنقيم معهم الحج والجهاد ، وكذلك الجُمع ؛ نقيمها مع الأمراء، ولو كانوا فجّارًا .

فالأمير إذا كان يشرب الخمر مثلًا ، ويظلم الناس بأموالهم ، نصلى خلفه الجُمُعة ، وتصح الصلاة ، حتى إن أهل السنة والجماعة يرون صحة الجمعة خلف الأمير المبتدع إذا لم تصل بدعته إلى الكفر ؛ لأنهم يرون أن الاختلاف عليه فى مثل هذه الأمور شرٌ ، ولكن لا يليق بالأمير الذى له إمامة الجمعة أن يفعل هذه المنكرات .

وكذلك أيضًا إقامة الأعياد مع الأمراء الذين يصلون بهم ، أبرارًا كانوا أو فجارًا .

وبهذه الطريق الهادئة يتبين أن الدين الإسلامى وسط بين الغالى فيه والجافى عنه .

فقد يقول قائل : كيف نصلى خلف هؤلاء ونتابعهم فى الحج والجهاد والجمع والأعياد ؟ !

فنقول : لأنهم أئمتنا ، ندين لهم بالسمع والطاعة : امتثالًا لأمر الله بقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء : ٥٩] . ولأمر النبى ﷺ بقوله : « إنكم سترون بعدى أثرة وأمورًا تنكرونها » . قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : « أدوا إليهم حقهم ، وسلوا الله حقكم »[1] . وحقهم : طاعتهم فى غير معصية الله .

---

(1) أخرجه البخارى (٧٠٥٢) ، ومسلم (١٨٤٣) .

....

وعن وائل بن حُجرٍ ؛ قال : سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم ، فقال : يا نبي اللَّه ، أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا ؛ فما تأمرنا ؟ قال : « اسمعوا وأطيعوا ؛ فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم »[1] .

وفي حديث عبادة بن الصامت رضي اللَّه عنه ؛ قال : بايعنا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره ، وألا تنازع الأمر أهله . قال : « إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم فيه من اللَّه برهان »[2] .

ولأننا لو تخلفنا عن متابعتهم ؛ لشققنا عصا الطاعة الذي يترتب على شقه أمور عظيمة ، ومصائب جسيمة .

والأمور التي فيها تأويل واختلاف بين العلماء إذا ارتكبها ولاة الأمور ؛ لا يحل لنا منابذتهم ومخالفتهم ، لكن يجب علينا مناصحتهم بقدر المستطاع فيما خالفوا فيه ؛ مما لا يسوغ فيه الاجتهاد ، وأما ما يسوغ فيه الاجتهاد ؛ فنبحث معهم فيه بحث تقدير واحترام ؛ لنبين لهم الحق ، لا على سبيل الانتقاد لهم والانتصار للنفس ، وأما منابذتهم وعدم طاعتهم ؛ فليس من طريق أهل السنة والجماعة .

❁ قال الشيخ الفوزان :

قوله : (ويرون إقامة الحج والجمع والأعياد مع الأمراء ، أبرارًا كانوا أو فجارًا) ؛ أي : ويعتقد أهل السنة وجوب إقامة هذه الشعائر مع ولاة أمور المسلمين .

(أبرارًا كانوا أو فجارًا) ؛ أي : سواء كانوا صالحين مستقيمين ، أو فساقًا فسقًا لا يخرجهم عن الملة .

وذلك لأن غرض المسلمين من ذلك هو جمع الكلمة والابتعاد عن الفرقة والخلاف ؛ ولأن الوالي الفاسق لا ينعزل بفسقه ، ولا يجوز الخروج عليه ؛ لما يترتب على ذلك من ضياع الحقوق وإراقة الدماء .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه : ولعله لا يكاد يعرف طائفة خرجت على ذي

---

(1) أخرجه مسلم (١٨٤٦) .

(2) أخرجه البخاري (٧٠٥٦) ، ومسلم (١٧٠٩) .

ويُحافِظون على الجماعاتِ[(١)]، ويَدِينون بالنصيحةِ للأمةِ[(٢)]، ويَعْتَقِدون معنى قولِه ﷺ :

سلطانٍ ، إلا وكان فى خروجها من الفساد أكثر من الذى فى إزالته . اهـ

وأهل السنة يخالفون فى ذلك أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والشيعة الذين يرون قتال الولاة والخروج عليهم ، إذا فعلوا ما هو ظلم ، أو ظنوه ظلمًا ، ويرون ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

أي : يحافظ أهل السنة والجماعة على الجماعات ؛ أي : على إقامة الجماعة فى الصلوات الخمس ؛ يحافظون عليها محافظة تامَّة ؛ بحيث إذا سمعوا النداء ؛ أجابوا وصلوا مع المسلمين ؛ فمن لم يحافظ على الصلوات الخمس ؛ فقد فاته من صفات أهل السنة والجماعة ما فاته من هذه الجماعات .

وربما يدخل فى الجماعات الاجتماع على الرأى وعدم النزاع فيه ؛ فإن هذا ما أوصى به النبى صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم معاذ بن جبل وأبا موسى حين بعثهما إلى اليمن ، فقال : « يسِّرا ولا تعسرا ، وبشِّرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ، ولا تختلفا »[(1)].

❁ قال الشيخ الفوزان :

وقوله : (ويحافظون على الجماعات) ؛ أى : ومن صفات أهل السنة أنهم يحافظون على حضور صلاة الفريضة مع الجماعة ؛ جمعةً أو غيرها ؛ لأن ذلك من أعظم شعائر الإسلام وطاعة للّه ورسوله فى ذلك .

خلافًا للشيعة الذين لا يرون الصلاة إلا مع الإمام المعصوم .

وخلافًا للمنافقين الذين يتخلفون عن صلاة الجماعة ، وقد وردت أحاديث فى فضل صلاة الجماعة ، والأمر بها ، والنهى عن تركها ، ليس هذا موضع ذكرها .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

« يدينون » . أي : يتعبدون للّه عز وجل بالنصيحة للأمة ، ويعتقدون ذلك دينًا .

والنصح للأمة قد يكون الحامل عليه غير التعبد للّه ؛ فقد يكون الحامل عليه الغيرة ، وقد يكون الحامل عليه الخوف من العقوبات ، وقد يكون الحامل عليه أن يتخلق بالأخلاق الفاضلة

(1) أخرجه البخارى (٣٠٣٨) ، ومسلم (١٧٣٣) .

....

التي يريد بها نفع المسلمين .. . إلى غير ذلك من الأسباب .

لكن هؤلاء ينصحون للأمة طاعة لله تعالى وتدينًا له ؛ لقول الرسول عليه الصلاة والسلام في حديث تميم بن أوس الدَّاري : « الدين النصيحة ، الدين النصيحة » . قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : « لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم »[1].

- فالنصيحة لله صدق الطلب في الوصول إليه .

- والنصيحة للرسول عليه الصلاة والسلام صدق الاتباع له ، ويستلزم ذلك الذود عن دين الله عز وجل الذى جاء به رسوله ﷺ ، ولهذا قال : « ولكتابه » .

- فينصح للقرآن ببيان أنه كلام الله ، وأنه منزل غير مخلوق ، وأنه يجب تصديق خبره وامتثال أحكامه ، وهو كذلك يعتقده في نفسه .

- « وأئمة المسلمين » . كل مَن ولاه الله أمرًا من أمور المسلمين ؛ فهو إمام في ذلك الأمر ؛ فهناك إمام عام كرئيس الدولة ، وهناك إمام خاص ؛ كالأمير والوزير والمدير والرئيس وأئمة المساجد وغيرهم .

- وعامتهم ؛ يعني : عامة المسلمين ، وهم التابعون للأئمة .

- ومن أعظم أئمة المسلمين العلماء ، والنصيحة لعلماء المسلمين هى نشر محاسنهم ، والكف عن مساوئهم ، والحرص على إصابتهم الصواب ؛ بحيث يرشدهم إذا أخطئوا ، ويبين لهم الخطأ على وجه لا يخدش كرامتهم ، ولا يحطُّ من قدرهم ؛ لأن تخطئة العلماء على وجه يحط من قدرهم ضرر على عموم الإسلام ؛ لأن العامة إذا رأوا العلماء يضَلِّل بعضهم بعضًا سقطوا من أعينهم وقالوا : كل هؤلاء رادٌّ ومردود عليه ، فلا ندرى من الصواب معه ! فلا يأخذون بقول أى واحد منهم ، لكن إذا احترم العلماء بعضهم بعضًا ؛ وصار كل واحد يرشد أخاه سرًّا إذا أخطأ ، ويعلن للناس القول الصحيح ؛ فإن هذا من أعظم النصيحة لعلماء المسلمين .

وقول المؤلف : « للأمة » . يشمل الأئمة والعامة ؛ فأهل السنة والجماعة يدينون بالنصيحة للأمة ؛ أئمتهم وعامتهم .

وكان مما يبايع الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه : « والنصح لكل مسلم »[2] .

---

(1) أخرجه مسلم (٥٥) .

(2) أخرجه البخارى (٥٧) ، ومسلم (٥٦) .

« المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنْيانِ ، يَشُدُّ بعضُه بعضًا » . وشبَّكَ بينَ أصابعِه ﷺ(١).
وقولِه(٢) ﷺ : « مَثَلُ المؤمنين ....

فإذا قال قائل : ما ميزان النصيحة للأمة ؟

فالميزان هو ما أشار إليه النبى عليه الصلاة والسلام بقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1]. فإذا عاملت الناس هذه المعاملة ؛ فهذا هو تمام النصيحة .

فقبل أن تعامل صاحبك بنوع من المعاملة فكر ؛ هل ترضى أن يعاملك شخص بها ؟ فإن كنت لا ترضى فلا تعامله ! !

✽ قال الشيخ الفوزان :

قوله : (ويدينون بالنصيحة للأمة) ؛ أى : يرونها من الدين ، وأصل النصح فى اللغة : الخلوص .

وشرعًا : هى إرادة الخير للمنصوح له ، وإرشاده إلى مصالحه ، فأهل السنة يريدون الخير للأمة ، ويرشدونها إلى ما فيه صلاحها .

ومن صفات أهل السنة التعاون على الخير ، والتألم لألم المصابين منهم .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

شبه النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم المؤمن لأخيه المؤمن بالبنيان الذى يَشدُّ بعضه بعضًا ، حتى يكون بناء محكمًا متماسكًا يشد بعضه بعضًا ، ويقوى به ، ثم قرب هذا وأكده ، فشبك بين أصابعه .

فالأصابع المتفرقة فيها ضعف ، فإذا اشتبكت قوّى بعضها بعضًا فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا ، فالبنيان يمسك بعضه بعضًا ، كذلك المؤمن مع أخيه إذا صار فى أخيه نقص ، فإن هذا يكمله ، فهو مرآة أخيه إذا وجد فيه النقص كمله ، إذا احتاج أخوه ساعده ، إذا مرض أخوه عاده . . . . وهكذا فى كل الأحوال . فأهل السنة والجماعة يعتقدون هذا المعنى ويطبقونه عملًا .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

« قوله » : هنا معطوف على : « قوله » فى الحديث السابق .

✽ قال الشيخ الفوزان :

فهم (يعتقدون معنى قوله ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان ، يشد بعضه بعضًا » وشبك بين

(1) أخرجه البخارى (١٣) ، ومسلم (٤٥) .

فى تَوَادِّهم[١] وتَراحُمِهم[٢] وتَعاطُفِهم[٣]، كمَثَلِ الجسدِ، إذا اشْتَكَى منه عُضْوٌ تَدَاعَى له سائرُ الجسدِ بالحُمَّى والسَّهَرِ»[٤].

أصابعه) رواه البخارى ومسلم[1].

وقوله ﷺ: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر». رواه البخارى ومسلم وغيرهما[2].

فالحديثان يمثلان ما ينبغى أن يكون عليه المسلمون، من تعاونٍ، وتراحمٍ، وأهل السنة يعملون بمقتضاهما.

وقوله: (المؤمن للمؤمن)، وقوله: (مثل المؤمنين) المراد بالإيمان هنا الإيمان الكامل.

(كالبنيان) هذا التمثيل يقصد منه التقريب للفهم.

(يشد بعضه بعضًا) بيان لوجه الشبه.

(وشبك بين أصابعه) تمثيل آخر، يقصد منه التقريب للفهم.

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

أي: مودة بعضهم بعضًا.

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين:

أي: رحمة بعضهم بعضًا.

❁ قال الشيخ الفوزان:

(توادهم)؛ أى: محبة بعضهم لبعضٍ.

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين:

أي: عطف بعضهم على بعض.

❁ قال الشيخ الفوزان:

(تعاطفهم)؛ أى: عطف بعضهم على بعضٍ.

(٤) قال الشيخ ابن عثيمين:

أي: أنهم يشتركون فى الآمال والآلام، فيرحم بعضهم بعضًا، فإذا احتاج أزال حاجته،

---

(1) البخارى (٦٠٢٦)، ومسلم (١٩٩٩/٤) (٢٥٨٥).

(2) رواه أحمد (٢٧٠/٤) (١٨٢٨٧، ١٨٢٩٣)، والبخارى (٦٠١١)، ومسلم (١٩٩٩/٤) (٢٥٨٦).

ويأمُرُون [١] بالصبرِ عندَ البَلاءِ [٢]، ....

ويعطف بعضهم على بعض باللين والرفق وغير ذلك .. ويود بعضهم بعضًا ، حتى إن الواحد منهم إذا رأى فى قلبه بغضاء لأحد من إخوانه المسلمين ، حاول أن يزيله وأن يذكر من محاسنه ما يوجب زوال هذه البغضاء .

فالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو ، ولو من أصغر الأعضاء ، تداعى له سائر الجسد ، فإذا أوجعك إصبعك الخنصر الذى هو من أصغر الأعضاء ؛ فإن الجسد كله يتألم ، إذا أوجعتك الأذن ؛ تألم الجسد كله ، وإذا أوجعتك العين ؛ تألم الجسد كله ، وغير ذلك .

فهذا المثل الذى ضربه النبى عليه الصلاة والسلام مَثَلٌ مصور للمعنى ومقرب له غاية التقريب .

✽ قال الشيخ الفوزان :

قوله : (كمثل الجسد الواحد) ؛أى : بالنسبة إلى جميع أعضائه من حيث الشعور بالراحة أو التعب .

(إذا اشتكى) تألم .

(تداعى) شارك بعضه البعض الآخر فى الألم .

(سائر الجسد) باقيه .

(بالحمى) ما ينشأ عن الألم من حرارة الجسم .

(والسهر) عدم النوم .

وهذا الحديث خبر ، معناه الأمر ؛ أى : كما أنه إذا تألم بعض جسده سرى ذلك الألم إلى جميع جسده ، فكذا المؤمنون ؛ ليكونوا كنفسٍ واحدةٍ ، إذا أصاب أحدهم مصيبة يغتم جميعهم ، ويعملون على إزالتها . وفى هذا التشبيه تقريب للفهم ، وإظهار للمعاني فى الصور المرئية . ومن صفات أهل السنة ثباتهم فى مواقف الامتحان .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

« يأمرون » . قد يقال : إن هذه الكلمة تشمل أمر نفوسهم ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف : ٥٣] . فهم يأمرون حتى أنفسهم .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

الصبر : هو تحمل البلاء ، وحبس النفس عن التسخط بالقلب أو اللسان أو الجوارحِ .

والشكرِ عندَ الرخاءِ[١]، ....

والبلاء: المصيبة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦].

فالصبر يكون عند البلاء، وأفضله وأعلاه الصبر عند الصدمة الأولى، وهذا عنوان الصبر الحقيقي؛ كما قاله النبي ﷺ للمرأة التي مرَّ بها وهي تبكي عند قبرٍ، فقال لها: «اتقي الله واصبري. قالت: إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك. فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[1]. أما بعد أن تبرد الصدمة؛ فإن الصبر يكون سهلًا، ولا ينال به كمال الصبر.

فأهل السنة والجماعة يأمرون بالصبر عند البلاء وما من إنسان؛ إلا يبتلى إما في نفسه وإما في أهله، وإما في ماله، وإما في صحبه، وإما في بلده، وإما في المسلمين عامة. ويكون ذلك إما في الدنيا وإما في الدين، والمصيبة في الدين أعظم بكثير من المصيبة في الدنيا.

فأهل السنة والجماعة يأمرون بالصبر عند البلاء في الأمرين:

- فأما الصبر على بلاء الدنيا؛ فأن يتحمل المصيبة كما سبق.
- وأما الصبر على بلاء الدين؛ فأن يثبت على دينه، ولا يتزعزع عنه، ولا يكون كمن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

❁ قال الشيخ الفوزان:

(يأمرون بالصبر عند البلاء) الصبر لغةً: الحبس، ومعناه هنا: حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي، والتسخط، وحبس الجوارح عن لطم الخدود، وشق الجيوب.

(البلاء) الامتحان بالمصائب والشدائد.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الرخاء: سعة في العيش، والأمن في الوطن، فيأمرون عند ذلك بالشكر.

وأيهما أشق الصبر على البلاء، أو الشكر عند الرخاء؟

---

(1) أخرجه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦).

والرِّضا بمُرِّ القضاءِ(١)، ....

اختلف العلماء في ذلك ؛ فقال بعضهم : إن الصبر على البلاء أشق ، وقال آخرون : الشكر عند الرخاء أشق .

والصواب : أن لكل واحد آفته ومشقته ؛ لأن الله عز وجل قال : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود : ٩، ١٠] .

لكن كل منهما قد يهونه بعض التفكير : فالمصاب إذا فكر وقال : إن جَزَعي لا يرد المصيبة ولا يرفعها ؛ فإما أن أصبر صبر الكرام ، وإما أن أسلو سلو البهائم ، فهان عليه الصبر ، وكذلك الذي في رخاء ورغد .

لكن أهل السنة والجماعة يأمرون بهذا وهذا ؛ بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

(والشكر عند الرخاء) الشكر : فعل ينبئ عن تعظيم المنعم ؛ لكونه منعمًا ، وهو صرف العبد ما أنعم الله به عليه في طاعته .

(الرخاء) اتساع النعمة .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الرضا أعلى من الصبر . ومر القضاء : وهو ما لا يلائم طبيعة الإنسان ، ولهذا عبر عنه بـ : « المر » .

فإذا قضى الله قضاء لا يلائم طبيعة البشر ، وتأذى به ؛ سمى ذلك مر القضاء ؛ فهو ليس لذيذًا ولا حلوًا ، بل هو مر ؛ فهم يأمرون بالرضا بمر القضاء .

واعلم أن مُرَّ القضاء لنا فيه نظران :

النظر الأول : باعتباره فعلًا واقعًا من الله .

والنظر الثاني : باعتباره مفعولًا له .

فباعتبار كونه فعلًا من الله يجب علينا أن نرضى به ، ألا نعترض على ربنا به ؛ لأن هذا من تمام الرضا بالله ربًا .

وأما باعتباره مفعولًا له ؛ فهذا يسن الرضا به ، ويجب الصبر عليه .

....

فالمرض باعتبار كون اللّٰه قدره ، الرضا به واجب ، وباعتبار المرض نفسه يسن الرضا به ، وأما الصبر عليه ، فهو واجب ، والشكر عليه مستحب .

ولهذا نقول : المصابون لهم تجاه المصائب أربعة مقامات : المقام الأول : السخط ، والثاني : الصبر ، والثالث : الرضا ، والرابع : الشكر .

فأما السخط ؛ فحرام ، بل هو من كبائر الذنوب ؛ مثل أن يلطم خده ، أو ينتف شعره ، أو يشق ثوبه ، أو يقول : واثبوراه ! أو يدعو على نفسه بالهلاك وغير ذلك مما يدل على السخط ؛ قال النبي ﷺ : « ليس منا من شق الجيوب ولطم الخدود ودعا بدعوى الجاهلية »[1] .

الثاني : الصبر : بأن يحبس نفسه قلبًا ولسانًا وجوارحَ عن التسخط ؛ فهذا واجب .

الثالث : الرضا : والفرق بينه وبين الصبر : أن الصابر يتجرع المر ، لكن لا يستطيع أن يتسخَّط ؛ إلا أن هذا الشيء في نفسه صعب ومُر ، ويتمثل بقول الشاعر :

والصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ

لكن الراضي لا يذوق هذا مرًّا ، بل هو مطمئن ، وكأن هذا الشيء الذي أصابه لا شيء .

وجمهور العلماء على أن الرضى بالمَقْضِي مستحب ، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ، وهو الصحيح .

الرابع : الشكر : وهو أن يقول بلسانه وحاله : « الحمد للّٰه » ، ويرى أن هذه المصيبة نعمة ، لكن هذا المقام قد يقول قائل : كيف يكون ؟ !

فنقول : يكون لمن وفقه اللّٰه تعالى :

فأولًا : لأنه إذا علم أن هذه المصيبة كفارة للذنب ، وأن العقوبة على الذنب في الدنيا أهون من تأخير العقوبة في الآخرة صارت هذه المصيبة عنده نعمة يشكر اللّٰه عليها .

وثانيًا : أن هذه المصيبة إذا صبر عليها أثيب ؛ لقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر : ١٠] .

فيشكر اللّٰه على هذه المصيبة الموجبة للأجر .

وثالثا : أن الصبر من المقامات العالية عند أرباب السلوك ، لا ينال إلا بوجود أسبابه ،

---

(1) أخرجه البخاري (١٢٩٤) ، ومسلم (١٠٣) .

....

فيشكر الله على نيل هذا المقام .

ويُذْكَر أن بعض العابدات أصيبت في إصبعها ، فشكرت الله ، فقيل لها في ذلك ، فقالت : إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها .

فأهل السنة والجماعة رحمهم الله يأمرون بالصبر على البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضا بمر القضاء .

تتمة :

القضاء يطلق على معنيين :

أحدهما : حكم الله تعالى الذي هو قضاؤه ووصفه ، فهذا يجب الرضا به بكل حال ، سواء كان قضاء دينيًا أم قضاء كونيًا ؛ لأنه حكم الله تعالى ، ومن تمام الرضا بربوبيته .

- فمثال القضاء الديني قضاؤه بالوجوب والتحريم والحل ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

- ومثال القضاء الكوني : قضاؤه بالرخاء والشدة والغنى والفقر والصلاح والفساد والحياة والموت ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ [سبأ : ١٤] . ومنه قوله تعالى : ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء : ٤] .

المعنى الثاني : المقضي ، وهو نوعان :

الأول : المقضى شرعًا ، فيجب الرضا به وقبوله ، فيفعل المأمور به ، ويترك المنهى عنه ، ويتمتع بالحلال .

والنوع الثاني : المقضى كونًا :

- فإن كان من فعل الله ؛ كالفقر والمرض والجدب والهلاك ونحو ذلك ، فقد تقدم أن الرضا به سنة ، لا واجب ، على القول الصحيح .

- وإن كان من فعل العبد ؛ جرت فيه الأحكام الخمسة ؛ فالرضا بالواجب واجب ، وبالمندوب مندوب ، وبالمباح مباح ، وبالمكروه مكروه ، وبالحرام حرام .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(والرضا بمر القضاء) الرضا ضد السخط ، والقضاء لغةً : الحكم .

وعرفًا : إرادة الله المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه .

ويَدْعُون إلى مكارمِ الأخلاقِ(١)، ومحاسِنِ الأعمالِ(٢)، ويَعْتَقِدون معنى قولِه ﷺ: «أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا»(٣).

ومر القضاء: ما يجرى على العبد مما يكرهه؛ كالمرض، والفقر، وأذى الخلق، والحر، والبرد، والآلام.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

أي: أطايبها، والكريم من كل شيء هو الطيب منه بحسب ذلك الشيء، ومنه قول الرسول ﷺ لمعاذ: «إياك وكرائم أموالهم»[1]؛ حين أمره بأخذ الزكاة من أهل اليمن.

والأخلاق: جمع خلق، وهو الصورة الباطنة فى الإنسان؛ يعني: السجايا والطبائع، فهم يدعون إلى أن يكون الإنسان سريرته كريمة، فيحب الكرم والشجاعة والتحمل من الناس والصبر، وأن يلاقى الناس بوجه طلق وصدرٍ منشرح ونفس مطمئنة؛ كل هذه من مكارم الأخلاق.

❁ **قال الشيخ الفوزان:**

يهتم أهل السنة بالأخلاق، فيتحلون بالأخلاق الفاضلة، ويرغبون فيها غيرهم، فهم (يدعون إلى مكارم الأخلاق)؛ أى: أحسنها، والأخلاق: جمع خلقٍ - بضم الخاء واللام - وهو الصورة الباطنة، والخلق - بفتح الخاء، وسكون اللام - هو الصورة الظاهرة، وهو الدين والسجية والطبع.

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

«محاسن الأعمال»؛ هى مما يتعلق بالجوارح، ويشمل الأعمال التعبدية والأعمال غير التعبدية؛ مثل البيع والشراء والإجارة؛ حيث يدعون الناس إلى الصدق والنصح فى الأعمال كلها، وإلى تجنب الكذب والخيانة، وإذا كانوا يدعون الناس إلى ذلك، فهم بفعله أولى.

❁ **قال الشيخ الفوزان:**

ويدعون إلى (محاسن الأعمال) كالكرم والشجاعة والصدق والأمانة.

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

هذا الحديث[2] ينبغى أن يكون دائمًا نُصب عينى المؤمنِ، فأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم

---

(1) أخرجه البخارى (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

(2) صححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (١٢٣٠- ١٢٣٢).

ويَنْدُبون[١] إلى أن تَصِلَ مَن قَطَعَك[٢]، ....

خلقًا مع الله ومع عباد الله .

- أما حسن الخلق مع الله ؛ فأن تتلقى أوامره بالقبول والإذعان والانشراح وعدم الملل والضجر ، وأن تتلقى أحكامه الكونية بالصبر والرضا وما أشبه ذلك .

- أما حسن الخلق مع الخَلْق ؛ فقيل : هو بذل الندى ، وكَفُّ الأذى ، وطلاقةُ الوجه .

بذل الندى ؛ يعني : الكرم ، وليس خاصًّا بالمال ، بل بالمال والجاه والنفس ، وكل هذا من بذل الندى .

وطلاقة الوجه ضده العبوس .

وكذلك كف الأذى لا يؤذى أحدًا لا بالقول ولا بالفعل .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(ويعتقدون معنى قوله ﷺ) ؛ أى : يؤمنون به ، ويعملون بمقتضاه .

(أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا) رواه أحمد والترمذى ، وقال : حسن صحيح[1] .

وقوله : (أحسنهم خلقًا) ؛ أى : ألينهم وألطفهم ، وأجملهم .

ففى الحديث الحث على التخلق بأحسن الأخلاق ، وفيه : أن الأعمال تدخل فى مسمى الإيمان وأن الإيمان يتفاضل ، وأهل السنة يدعون إلى التعامل مع الناس بالتى هى أحسن ، وإلى إيتاء ذوى الحقوق حقوقهم ، ويحذرون من أضداد تلك الأخلاق من الكبر والتعدى على الناس .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

أي : يدعون .

❁ قال الشيخ الفوزان :

فهم (يندبون) ؛ أى : يدعون .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

« أن تصل من قطعك » . من الأقارب ممن تجب صلتهم عليك ، إذا قطعوك ؛ فصِلْهم ، لا تقل : من وصلني وصلته . فإن هذا ليس بصلة ، كما قال النبى عليه الصلاة والسلام : « ليس

---

(1) رواه أحمد (٢/٢٥٠) (٧٣٩٦) ، وأبو داود (٤٦٨٢) ، والترمذى (٢٦١٢) ، وقال الألبانى فى « صحيح الجامع » (١٢٣٠) : صحيح .

وتُعْطِيَ مَن حَرَمَكَ (١)، وتَعْفُوَ عمَّن ظلَمَكَ (٢)، ....

الواصل بالمكافئ ، إنما الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها »[1]. فالواصل هو الذى إذا قطعت رحمه وصلها .

وسأل النبى ﷺ رجلٌ ، فقال : يا رسول الله ، إن لى أقارب أصلهم ويقطعونني ، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ ، وأحلم عنهم ويجهلون علي . فقال النبى ﷺ : « إن كنت كما قلت ، فكأنما تسفهم المل ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك »[2].

« تسفهم المل » ؛ أي : كأنما تضع التراب أو الرماد الحار فى أفواههم .

فأهل السنة والجماعة يندبون إلى أن تصل من قطعك ، وأن تصل من وصلك بالأولى ، لأن من وصلك وهو قريب ، صار له حقان : حق القرابة ، وحق المكافأة ؛ لقول النبى عليه الصلاة والسلام : « من صنع إليكم معروفًا ، فكافئوه »[3].

❁ قال الشيخ الفوزان :

(إلى أن تصل من قطعك) ؛ أى : تحسن إلى من أساء إليك .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

أي : من منعك ، ولا تقل : منعني فلا أعطيه .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(وتعطى من حرمك) ؛ أى : تبذل العطاء ، وهو التبرع والهدية ونحوها لمن منع عنك ؛ لأن ذلكِ من الإحسان .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

أي : من انتقصك حقك : إما بالعدوان ، وإما بعدم القيام بالواجب .

والظلم يدور على أمرين : اعتداء وجحود : إما أن يعتدى عليك بالضرب وأخذ المال وهتك العرض ، وإما أن يجحدك فيمنعك حقك .

وكمال الإنسان أن يعفو عمن ظلمه .

---

(1) أخرجه البخارى (٥٩٩١) .

(2) أخرجه مسلم (٢٥٥٨) .

(3) صححه الألبانى فى « صحيح الجامع » (٦٠٢١) .

ويأمُرُون بِبِرِّ الوالدَيْنِ(١) ، ....

ولكن العفو إنما يكون عند القدرة على الانتقام ، فأنت تعفو مع قدرتك على الانتقام .

أولًا : رجاء لمغفرة الله عز وجل ورحمته ؛ فإن من عفا وأصلح فأجره على الله .

ثانيًا : لإصلاح الود بينك وبين صاحبك ؛ لأنك إذا قابلت إساءته بإساءة ؛ استمرت الإساءة بينكما ، وإذا قابلت إساءته بإحسان ، عاد إلى الإحسان إليك ، وخجل ، قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت : ٣٤] .

فالعفو عند المقدرة من سمات أهل السنة والجماعة ، لكن بشرط أن يكون العفو إصلاحًا ؛ فإن تضمن العفو إساءة ؛ فإنهم لا يندبون إلى ذلك ؛ لأن الله اشترط فقال : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ [الشورى : ٤٠] . أي : كان في عفوه إصلاح ، أما من كان في عفوه إساءة ، أو كان سببًا للإساءة ؛ فهنا نقول : لا تعف . مثل أن يعفو عن مجرم ، ويكون عفوه هذا سببًا لاستمرار هذا المجرم في إجرامه ؛ فترك العفو هنا أفضل ، وربما يجب ترك العفو حينئذ .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

(وتعفو عمن ظلمك) ؛ أي : تسامح من تعدى عليك في مالٍ ، أو دمٍ ، أو عرضٍ ؛ لأن ذلك مما يجلب المودة ، ويكسب الأجر والثواب .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

وذلك لعظم حقهما .

ولم يجعل الله لأحد حقًّا يلي حقه وحق رسوله إلا للوالدين ، فقال : ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء : ٣٦] .

وحق الرسول في ضمن الأمر بعبادة الله ، لأنه لا تتحقق العبادة حتى يقوم بحق الرسول عليه الصلاة والسلام ، بمحبته واتباع سبيله ، ولهذا كان داخلًا في قوله : ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ . وكيف يعبد الله إلا من طريق الرسول ﷺ ، وإذا عبد الله على مقتضى شريعة الرسول ، فقد أدى حقَّه .

ثم يلي ذلك حق الوالدين ؛ فالوالدان تعبا على الولد ، ولا سيما الأم ، قال الله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف : ١٥] . وفي آية

....

أخرى : ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان : ١٤] ، والأم تتعب فى الحمل ، وعند الوضع ، وبعد الوضع ، وترحم صبيها أشد من رحمة الوالد له ، ولهذا كانت أحق الناس بحسن الصحبة والبر ، حتى من الأب .

قال رجل : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : « أمك » . قال : ثم من ؟ قال : « أمك » . قال : ثم من؟ قال : « أمك » . ثم قال فى الرابعة : « ثم أبوك »[1] .

والأب أيضًا يتعب فى أولاده ، ويضجر بضجرهم ، ويفرح لفرحهم ، ويسعى بكل الأسباب التى فيها راحتهم وطمأنينتهم وحسن عيشهم ، يضرب الفيافى والقِفار من أجل تحصيل العيش له ولأولاده .

فكل من الأم والأب له حق ، مهما عملت من العمل لن تقضى حقهما ، ولهذا قال الله عز وجل : ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء : ٢٤] ؛ فحقهم سابق ؛ حيث ربياك صغيرًا حين لا تملك لنفسك نفعًا ولا ضرًا ؛ فواجبهما البر .

والبر فرض عين بالإجماع على كل واحد من الناس ، ولهذا قدمه النبى ﷺ على الجهاد فى سبيل الله ؛ كما فى حديث ابن مسعود ؛ قال : قلت : يا رسول الله ، أى العمل أحب إلى الله ؟ قال : « الصلاة على وقتها » . قلت : ثم أي؟ قال : « بر الوالدين » . قلت : ثم أي؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله »[2] .

والوالدان هما الأب والأم ، أما الجد والجدة ؛ فلهما بر ، لكنه لا يساوى بر الأم والأب ؛ لأن الجد والجدة لم يحصل لهما ما حصل للأم والأب من التعب والرعاية والملاحظة ؛ فكان برهما واجبًا من باب الصلة ، لكن هما أحق الأقارب بالصلة ، أما البر ؛ فإنه للأم والأب .

لكن ؛ ما معنى البر ؟

البر : إيصال الخير بقدر ما تستطيع ، وكف الشرِّ .

إيصال الخير بالمال ، وإيصال الخير بالخدمة ، وإيصال الخير بإدخال السرور عليهما ؛ من طلاقة الوجه ، وحسن المقال والفعال ، وبكل ما فيه راحتهما .

---

(1) أخرجه البخارى (٥٩٧١) ، ومسلم (٢٥٤٨) .

(2) أخرجه البخارى (٥٢٧) ، ومسلم (٨٥) .

وصلةِ الأرحامِ[١]، ....

ولهذا كان القول الراجح وجوب خدمة الأب والأم على الأولاد ، إذا لم يحصل على الولد ضرر ، فإن كان عليه ضرر ؛ لم يجب عليه خدمتهما ، اللهم إلا عند الضرورة .

ولهذا نقول : إن طاعتهما واجبة فيما فيه نفع لهما ولا ضرر على الولد فيه ، أما ما فيه ضرر عليه ، سواء كان ضررًا دينيًا ؛ كأن يأمراه بترك واجب أو فعل محرم ؛ فإنه لا طاعة لهما فى ذلك ؛ ، أو كان ضررًا بدنيًا ؛ فلا يجب عليه طاعتهما . أما المال ؛ فيجب عليه أن يبرهما ببذله ، ولو كَثر ، إذا لم يكن عليه ضرر ، ولم تتعلق به حاجته ، والأب خاصة له أن يأخذ من مال ولده ما شاء ، ما لم يضر .

وإذا تأملنا فى أحوال الناس اليوم ؛ وجدنا كثيرًا منهم لا يبر بوالديه ، بل هو عاقٌ ، تجده يحسن إلى أصحابه ، ولا يمل الجلوس معهم ، لكن لو يجلس إلى أبيه وأمه ساعة من نهار ؛ لوجدته متململًا ، كأنما هو على الجمر ؛ فهذا ليس ببارٍّ ، بل البار من ينشرح صدره لأمه وأبيه ويخدمهما على أهداب عينيه ، ويحرص غاية الحرص على رضاهما بكل ما يستطيع .

وكما قالت العامة : « البر أسْلاف » . فإن البر مع كونه يحصل به البار على ثواب عظيم فى الآخرة ؛ فإنه يجازى به فى الدنيا . فالبر والعقوق كما يقول العوام : « أسلاف » . أقرض ؛ تستوف ، إنْ قدمت البر ؛ برك أولادك ، وإن قدمت العقوق ؛ عقك أولادك . . .

وهنا حكايات كثيرة فى أن من الناس من بر والديه فبر به أولاده ، وكذلك العقوق فيه حكايات تدل على أن الإنسان عقه أولاده كما عق هو آباءه .

فأهل السنة والجماعة يأمرون ببر الوالدين .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

(**ويأمرون**) ؛ أى : أهل السنة بما أمر الله به من إعطاء ذوى الحقوق حقوقهم .

(**ببر الوالدين**) ؛ أى : طاعتهما فى غير معصيةٍ ، والإحسان إليهما بالقول والفعل .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

وكذلك يأمرون بصلة الأرحام .

ففرق بين الوالدين والأقارب الآخرين ، الأقارب لهم الصلة ، والوالدان لهما البر ، والبر أعلى من الصلة ؛ لأن البر كثرة الخير والإحسان ، لكن الصلة ألا يقطع ، ولهذا يقال فى تارك البر : إنه عاق ، ويقال فيمن لم يصل : إنه قاطع ، فصلة الأرحام واجبة ، وقطعها سبب للعنة والحرمان من

وحُسْنِ الجِوَارِ(١)، ....

دخول الجنة ، قال الله تعالى : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد : ٢٢، ٢٣] ، وقال النبى عليه الصلاة والسلام : « لا يدخل الجنة قاطع »[1]؛ أي : قاطع رحم .

والصلة جاءت فى القرآن والسنة مطلقة .

وَكُلُّ مَا أَتَى وَلَمْ يُحَدَّدِ بِالشَّرْعِ كَالحِرْزِ فَبِالعُرْفِ احْدُدِ

وعلى هذا يرجع إلى العرف فيها ، فما سماه الناس صلة فهو صلة ، وما سماه قطيعة فهو قطيعة ، وهذه تختلف باختلاف الأحوال والأزمان والأمكنة والأمم .

- إذا كان الناس فى حالة فقر وأنت غني ، وأقاربك فقراء ، فصلتهم أن تعطيهم بقدر حالك .

- وإذا كان الناس أغنياء ، وكلهم فى خير ؛ فيمكن أن يعد الذهاب إليهم فى الصباح أو المساء صلة .

وفى زماننا هذه الصلة بين الناس قليلة ، وذلك لانشغال الناس فى حوائجهم ، وانشغال بعضهم عن بعض ، والصلة التامة أن تبحث عن حالهم ، وكيف أولادهم ، وترى مشاكلهم ، ولكن هذه مع الأسف مفقودة ، كما أن البر التام مفقود عند كثير من الناس .

✽ **قال الشيخ الفوزان :**

(وصلة الأرحام) ؛ أى : الإحسان إلى الأقربين ، والأرحام جمع رحِم ، وهو من تجمعك به قرابة .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

أى : ويأمرون ؛ يعني : أهل السنة والجماعة بحسن الجوار مع الجيران ، والجيران هم الأقارب فى المنزل ، أدناهم أولاهم بالإحسان والإكرام : قال الله تعالى : ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [النساء : ٣٦] ، فأوصى الله بالإحسان إلى الجار القريب والجار البعيد .

وقال النبى ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره »[2] . وقال : « إذا طبخت

(1) أخرجه البخارى (٥٩٨٤) ، ومسلم (٢٥٥٦) .

(2) أخرجه البخارى (٦٠٩١) ، ومسلم (٤٧) .

والإحسانِ(١) إلى اليَتَامَى(٢) ....

مرقة ؛ فأكثر من مائها ، وتعاهد جيرانك »[1].

وقال : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »[2].

وقال : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن » . قيل : من يا رسول الله ؟ قال : « الذى لا يأمن جاره بوائقه »[3]. إلى غير ذلك من النصوص الدالة على العناية بالجار والإحسان إليه وإكرامه .

والجار إن كان مسلمًا قريبًا ؛ كان له ثلاثة حقوق : حق الإسلام ، وحق القرابة ، وحق الجوار .

وإن كان قريبًا جارًا ؛ فله حقان : حق القرابة ، وحق الجوار .

وإن كان مسلمًا غير قريب وهو جار ؛ فله حقان : حق الإسلام ، وحق الجوار .

وإن كان جارًا كافرًا بعيدًا ؛ فله حق واحد ، وهو حق الجوار .

فأهل السنة والجماعة يأمرون بحسن الجوار مطلقًا ، أيًا كان الجار ، ومن كان أقرب فهو أولى .

ومن المؤسف أن بعض الناس اليوم يسيئون إلى الجار أكثر مما يسيئون إلى غيره ، فتجده يعتدى على جاره بالأخذ من ملكه وإزعاجه .

وقد ذكر الفقهاء رحمهم الله فى آخر باب الصلح فى الفقه شيئًا من أحكام الجوار ؛ فليرجع إليه .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(وحسن الجوار) ؛ أى : الإحسان إلى من يسكن بجوارك ببذل المعروف وكف الأذى .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

كذلك يأمرون ؛ أي : أهل السنة والجماعة بالإحسان إلى هؤلاء الأصناف الثلاثة .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

اليتامى : جمع يتيم ، وهو الذى مات أبوه قبل بلوغه .

---

(1) أخرجه مسلم (٢٧٢٥) .

(2) أخرجه البخارى (٦٠١٥) ، ومسلم (٢٦٢٥) .

(3) أخرجه البخارى (٦٠١٦) ، ومسلم (٤٦) .

والمساكينِ(١) وابنِ السبيلِ(٢)، ....

وقد أمر اللَّه تعالى بالإحسان إلى اليتامى ، وكذلك النبى ﷺ حث عليه فى عدة أحاديث .

ووجه ذلك أن اليتيم قد انكسر قلبه بفقد أبيه ، فهو فى حاجة إلى العناية والرفق .

والإحسان إلى اليتامى يكون بحسب الحال .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(والإحسان إلى اليتامى) جمع يتيمٍ ، وهو لغةً : المنفرد .

وشرعًا : من مات أبوه قبل بلوغه .

والإحسان إليهم هو برعاية أحوالهم وأموالهم ، والشفقة عليهم .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

والمساكين : هم الفقراء ، وهو هنا شامل للمسكين والفقير .

فالإحسان إليهم مما أمر به الشرع فى آيات متعددة من القرآن ، وجعل لهم حقوقًا خاصَّة فى الفىء وغيره .

ووجه الإحسان إليهم أن الفقر أسكنهم وأضعفهم وكسر قلوبهم ، فكان من محاسن الإسلام أن نحسن إليهم جبرًا لما حصل لهم من النقص والانكسار .

والإحسان إلى المساكين يكون بحسب الحال : فإذا كان محتاجًا إلى طعام ؛ فالإحسان إليه بأن تطعمه ، وإذا كان محتاجًا إلى كُسوة ؛ فالإحسان إليه بأن تكسوه ، وإلى اعتبار بأن توليه اعتبارًا ، فإذا دخل المجلس ترحب به ، وتقدمه لأجلِ أن ترفعَ من معنوياته .

فمن أجل هذا النقص الذى قدره اللَّه عز وجل عليه بحكمته أمرنا عز وجل أن نحسنَ إليهم .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(والمساكين) ؛ أى : والإحسان إلى المساكين ، جمع مسكينٍ ، وهو المحتاج الذى أسكنته الحاجة والفقر ، والإحسان إليهم يكون بالتصدق عليهم ، والرفق بهم .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

ابن السبيل ، وهو المسافر ، وهو هنا المسافر الذى انقطع به السفر ، أو لم ينقطع ؛ بخلاف الزكاة ؛ لأن المسافر غريب ، والغريب مستوحش ، فإذا آنسته بإكرامه والإحسان إليه ، فإن هذا مما

والرِّفْقِ بالمَمْلوكِ(١) ، ويَنْهَوْن عن الفخرِ والخُيَلاءِ والبَغْيِ والاستطالةِ على الخَلْقِ بحقٍّ ،

يأمر به الشرع .

فإذا نزل ابن سبيل بك ضيفًا ؛ فمن إكرامه أن تُكرم ضيافته .

لكن قال بعض العلماء : إنه لا يجب إكرامه بضيافته إلا فى القرى دون الأمصار ! .

ونحن نقول : بل هى واجبة فى القرى والأمصار ؛ إلا أن يكون هناك سبب ؛ كضيق البيت مثلا ، أو أسباب أخرى تمنع أن تضيف هذا الرجل ، لكن على كل حال ينبغى إذا تعذر أن تُحسن الردَّ .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(وابن السبيل) ؛ أى : والإحسان إلى ابن السبيل ، وهو المسافر المنقطع به ، الذى نفدت نفقته ، أو ضاعت ، أو سرقت .

وقيل : هو الضيف .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

يعني : أن أهل السنة والجماعة يأمرون بالرفق بالمملوك .

وهذا يشمل المملوك الآدمي والبهيم :

- فالرفق بالمملوك الآدمي أن تطعمه إذا طعمت ، وتكسوه إذا اكتسيت ، ولا تكلفه ما لا يُطيق .

- والرفق بالمملوك من البهائم سواء كانت مما تركب أو تحلب أو تقتنى ؛ يختلف بحسب ما تحتاج إليه ؛ ففى الشتاء تجعلها فى الأماكن الدافئة إذا كانت لا تتحمل البرد ، وفى الصيف فى الأماكن الباردة إذا كانت لا تتحمل الحر ، ويؤتى لها بالطعام وبالشراب إن لم تحصل عليه بنفسها بالرعي ، وإذا كانت مما تحمل ، فلا تحمل ما لا تطيق .

وهذا يدل على كمال الشرع ، وأنه لم ينسَ حتى البهائم ، وعلى شمولية طريقة أهل السنة والجماعة .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(والرفق بالمملوك) ؛ أى : ويأمرون بالرفق بالمملوك ، وهو الرقيق ، ويدخل فيه المملوك من البهائم ، والرفق ضد العنف ، وهو لين الجانب .

أو بغيرِ حقٍّ(١)، ....

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

الفخر بالقول ، والخيلاء بالفعل ، والبغى العدوان ، والاستطالة الترفع والاستعلاء .

فينهون عن الفخر : أن يتفاخر الإنسان على غيره بقوله ، فيقول : أنا العالم ! أنا الغني ! أنا الشجاع ! .

وإن زاد على ذلك أن يستطيل على الآخرين ويقول : ماذا أنتم عندي ؟ فيكون هذا فيه بغى واستطالة على الخلق .

والخيلاء تكون بالأفعال ؛ يتخايل فى مشيته وفى وجهه وفى رفع رأسِه ورقبته إذا مشى ، كأنه وصل إلى السماء ، والله عز وجل وَبَّخ من كان هذا فعله ، وقال : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء : ٣٧] .

فأهل السنة والجماعة ينهون عن هذا ، ويقولون : كن متواضعًا فى القول وفى الفعل ، حتى فى القول ، لا تثنِ على نفسك بصفاتك الحميدة ؛ إلا حيث دعت الضرورة أو الحاجة إلى ذلك ؛ كقول ابن مسعود رضى الله عنه : « لو أعلم أحدًا هو أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل ؛ لركبت إليه »(1)؛ فإنه رضى الله عنه قصد بذلك أمرين :

الأول : حث الناس على تعلم كتاب الله تعالى .

والثاني : دعوتهم للتلقى عنه .

والإنسان ذو الصفات الحميدة لا يظن أن الناس تخفى عليهم خصاله أبدًا ، سواء ذكرها للناس أم لم يذكرها ، بل إن الرجل إذا صار يعدد صفاته الحميدة أمام الناس سقط من أعينهم ؛ فاحذر هذا الأمر .

والبغي : العدوان على الغير ، ومواقعه ثلاثة بينها الرسول ﷺ فى قوله : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام »(2) .

فالبغى على الخلق بالأموال والدماء والأعراض .

– فى الأموال ؛ مثل أن يدعى ما ليس له ، أو ينكر ما كان عليه ، أو يأخذ ما ليس له ، فهذا بغى على الأموال .

---

(1) أخرجه البخارى (٥٠٠٢) ، ومسلم (٢٤٦٣) .

(2) أخرجه البخارى (٦٧) ، ومسلم (١٦٧٩) .

ويَأْمُرُون بمعالى الأخلاقِ(١)، ....

- وفى الدماء : القتل فما دونه ؛ يعتدى على الإنسان بالجرح والقتل .

- وفى الأعراض : يحتمل أن يراد بها الأعراض ؛ يعني : السمعة ، فيعتدى عليه بالغيبة التى يشوه بها سمعته ، ويحتمل أن يراد بها الزنى وما دونه ، والكل محرم ؛ فأهل السنة والجماعة ينهون عن الاعتداء على الأموال والدماء والأعراض .

وكذلك الاستطالة على الخلق ؛ يعنى الاستعلاء عليهم بحق أو بغير حق .

فالاستعلاء على الخلق ينهى عنه أهل السنة والجماعة ، سواء كان بحق أو بغير حق ، والاستعلاء هو أن الإنسان يترفع على غيره .

وحقيقة الأمر أن من شكر نعمة اللّه عليك أن اللّه إذا مَنَّ عليك بفضل على غيرك من مال أو جاه أو سيادة أو علم أو غير ذلك ، فإنه ينبغى أن تزداد تواضعًا ، حتى تضيف إلى الحسن حُسنى ؛ لأن الذى يتواضع فى موضع الرفعة هو المتواضع حقيقة .

ومعنى قوله : « بحق » . أي : حتى لو كان له الحق فى بيان أنه عالٍ مترفع ؛ فإن أهل السنة والجماعة ينهون عن الاستعلاء والترفع .

أو يقال : إن معنى قوله : « الاستطالة بحق » . أن يكون أصل استطالته حقًّا ؛ بأن يكون قد اعتدى عليه إنسان ، فيعتدى عليه أكثر .

فأهل السنة والجماعة رحِمهم اللّه ينهون عن الاستطالة والاستعلاء على الخلق ، سواء كان ذلك بحق أو بغير حق .

✽ قال الشيخ الفوزان :

(وينهون عن الفخر) وهو المباهاة بالمكارم والمناقب ، من حسبٍ ونسبٍ .

(والخيلاء) - بضم الخاء - : الكبر والعجب .

(والبغى) وهو العدوان على الناس .

(والاستطالة على الخلق) أى : الترفع عليهم ، واحتقارهم ، والوقيعة فيهم .

(بحقٍّ وبغير حقٍّ) لأن المستطيل إن استطال بحقٍّ فقد افتخر ، وإن استطال بغير حقٍّ فقد بغى ، ولا يحل ، لا هذا ، ولا هذا .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

أي : ما كان عاليًا منها ؛ كالصدق والعفاف وأداء الأمانة ونحو ذلك .

ويَنْهَوْن عن سَفْسَافِها [١].

وكلُّ ما يقولونه [٢] ويفعلونه [٣] مِن هذا وغيرِه ، فإنما هم فيه مُتَّبِعون للكتابِ والسنةِ [٤]، وطريقتُهم هي دينُ الإسلامِ ، الذي بعَث اللّٰهُ به محمدًا ﷺ .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(ويأمرون بمعالى الأخلاق)؛ أى : يأمر أهل السنة بالأخلاق العالية ، وهى الأخلاق الحسنة .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

أي : رديئها ؛ كالكذب والخيانة والفواحش ونحو ذلك .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(وينهون عن سفسافها)؛ أى : رديئها وحقيرها .

والسفساف : الأمر الحقير والردىء من كل شىء ، وهو ضد المعالى والمكارم .

وأصله ما يطير من غبار الدقيق ، إذا نخل ، والتراب إذا أثير .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

أي : أهل السنة والجماعة .

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين :

من هذا وغيره .

(٤) قال الشيخ ابن عثيمين :

وهذه حال ينبغى أن يتنبه لها ، وهو أننا كل ما نقوله وكل ما نفعله نشعر حال قوله أو فعله أننا نتبع فيه الرسول عليه الصلاة والسلام ، مع الإخلاص لله ؛ لتكون أقوالنا وأفعالنا كلها عبادات لله عز وجل ، ولهذا يقال : إن عبادات الغافلين عادات ، وعادات المنتبهين عبادات .

فالإنسان الموفَّق يمكن أن يحول العادات إلى عبادات ، والإنسان الغافل يجعل عباداته عادات .

فليحرص المؤمن على أن يجعل أقواله وأفعاله كلها تبعًا لكتاب اللّٰه وسنة رسول ﷺ ؛ لينالَ بذلك الأجرَ ، ويحصل به كمال الإيمان والإنابة إلى اللّٰه عز وجل .

لكن لمَّا أخْبَر النبيُّ ﷺ أن أُمَّته[1] سَتَفْتَرِقُ على ثلاثٍ وسبعينَ فرقةً ، كلُّها فى النارِ إلا واحدةً[2]، ....

✽ قال الشيخ الفوزان :

(وكل ما يقولونه ويفعلونه من هذا وغيره فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة) ؛ أى : كل ما يقوله ويفعله أهل السنة ، ويأمرون به ، وينهون عنه مما تقدم ذكره فى هذه الرسالة ، وما لم يذكر ، فقد استفادوه من كتاب ربهم وسنة نبيهم ، لم يبتدعوه من عند أنفسهم ، ولم يقلدوا فيه غيرهم .

فقد قال اللّه تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء : ٣٦] .

والأحاديث فى هذا كثيرة ، منها ما ذكره الشيخ .

✽ قال الشيخ الفوزان :

يواصل الشيخ رحمه اللّه بيان مزايا أهل السنة والجماعة ، فبين مزيتهم العظمى ، وهى : أن (طريقتهم دين الإسلام) ؛ أى : هو مذهبهم وطريقهم إلى اللّه ، وأنهم عند الافتراق الذى أخبر النبى ﷺ عن حدوثه فى هذه الأمة ثبتوا على الإسلام ، وصاروا هم الفرقة الناجية من بين تلك الفرق .

وهم الجماعة الثابتة على ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه ، وهو الإسلام المحض الخالص من الشوائب ، ولذلك فازوا بلقب أهل السنة والجماعة .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

« أن أمته » . يعني : أمة الإجابة ، لا أمة الدعوة ؛ لأن أمة الدعوة يدخل فيها اليهود والنصارى ، وهم مفترقون ؛ فاليهود إحدى وسبعون فرقة ، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وهذه الأمة على ثلاث وسبعين ؛ كلها تنسب نفسها إلى الإسلام واتباع رسول اللّه ﷺ .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

قوله : « كلها فى النار إلا واحدة » . لا يلزم من ذلك الخلود فى النار ، وإنما المعنى أن عملها مما تستحق به دخول النار .

وهى الجماعةُ(١). وفى حديثٍ عنه أنه قال: «هم مَن كان على مثلِ ما أنا عليه اليومَ وأصحابى»(٢). صار(٣) الـمُتَمَسِّكون بالإسلامِ المحْضِ الخالصِ عن الشَّوْبِ، هم أهلَ

وهذه الثلاث والسبعون فرقة؛ هل وقعت الآن وتمت أو هى فى المنظور؟

أكثر الذين تكلموا على هذا الحديث قالوا: إنها وقعت وانتهت، وصاروا يقسمون أهل البدع إلى خمسة أصول رئيسية، ثم هذه الخمسة الأصول يفرِّعون عنها فرقًا، حتى أوصلوها إلى اثنتين وسبعين فرقة، وأبقوا فرقة واحدة، وهى أهل السنة والجماعة.

وقال بعض العلماء: إن الرسول عليه الصلاة والسلام أبهم هذه الفرق، ولا حاجة أن نتكلم فنقسم البدع الموجودة الآن إلى خمسة أصول، ثم نقسم هذه الأصول إلى فروع، حتى يتم العدد، حتى إننا نجعل الفرع أحيانًا فرقة تامة من أجل مخالفتها فى فرعٍ واحدٍ؛ فإن هذا لا يعد فرقة مستقلة.

فالأولى أن نقول: إن هذه الفرق غير معلومة لنا، ولكننا نقول: بلا شك أنها فرق خرجت عن الصراط المستقيم؛ منها ما خرج فأبعد، ومنها ما خرج خروجًا متوسطًا، ومنها ما خرج خروجًا قريبًا، ولا نلزم بحصرها؛ لأنه ربما يخرج فرق تنتسب للأمة الإسلامية غير التى عدها العلماء؛ كما هو الواقع؛ فقد خرج فرق تنتسب إلى الإسلام من غير الفرق التى كانت قد عدت فى عهد العلماء السابقين.

وعلى كل حال؛ فالرسول عليه الصلاة والسلام أخبر أن أمَّتَه أمة الإجابة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها ضالة، وفى النار؛ إلا واحدة، وهي:

(١) قال الشيخ ابن عثيمين:

«الجماعة»؛ يعني: التى اجتمعت على الحق ولم تتفرق فيه.

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين:

الذين كانوا على ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه هم الجماعة الذين اجتمعوا على شريعته، وهم الذين امتثلوا ما وصى الله به: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]؛ فهم لم يتفرقوا، بل كانوا جماعة واحدة.

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين:

جملة «صار» جواب الشرط قوله: «لكن لما».

السنةِ والجماعةِ(١)، وفيهم الصِّدِّيقُونَ(٢)، ....

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

فإذا سئلنا : من أهل السنة والجماعة ؟

فنقول : هم المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب .

وهذا التعريف من شيخ الإسلام ابن تيمية يقتضى أن الأشاعرة والماتريدية ونحوهم ليسو من أهل السنة والجماعة ؛ لأن تمسكهم مشوب بما أدخلوا فيه من البدع .

وهذا هو الصحيح ؛ أنه لا يعد الأشاعرة والماتريدية فيما ذهبوا إليه فى أسماء اللّٰه وصفاته من أهل السنة والجماعة .

وكيف يعدون من أهل السنة والجماعة فى ذلك مع مخالفتهم لأهل السنة والجماعة ؟ !

لأنه يقال : إما أن يكون الحق فيما ذهب إليه السلف ؛ لأن السلف هنا هم الصحابة والتابعون وأئمة الهدى من بعدهم . فإذا كان الحق فيما ذهب إليه السلف ، وهؤلاء يخالفونهم ؛ صاروا ليسوا من أهل السنة والجماعة فى ذلك .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

قوله : « وفيهم » . أي : فى أهل السنة .

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

« الصديقون » : جمع صدِّيق ، من الصّدق ، وهذه الصيغة للمبالغة ، وهو الذى جاء بالصدق وصدق به ؛ كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر : ٣٣] . فهو صادق فى قَصْدِه ، وصادق فى قوله ، وصادق فى فعله .

– أما صدقه فى قصده ؛ فعنده تمام الإخلاص للّٰه عز وجل ، وتمام المتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام ، قد جرد الإخلاص والمتابعة ، فلم يجعل لغير اللّٰه تعالى شريكًا فى العمل ، ولم يجعل لغير سنة الرسول ﷺ اتباعًا فى عمله ؛ فلا شرك عنده ولا ابتداع .

– صادق فى قوله ، لا يقول إلا صدقًا ، وقد ثبت عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال : « عليكم بالصدق ؛ فإن الصدق يهدى إلى البرّ ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند اللّٰه صدِّيقًا »(1) .

(1) أخرجه البخارى (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٧) .

والشُّهَداءُ(١) ، ....

- صادق في فعله ؛ بمعنى : أن فعله لا يخالف قوله ، فإن قال فعل ، وبهذا يخرج عن مشابهةِ المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون .

- وأيضًا يصدق بما قامت البينة على صدقه ؛ فليس عنده ردٌّ للحق ، ولا احتقار للخلق .

ولهذا كان أبو بكر أول من سمى الصديق من هذه الأمة ؛ لأنه لما أسرى بالنبى عليه الصلاة والسلام وجعل يتكلم أنه أسرى به إلى بيت المقدس وعرج به إلى السماء ؛ صار الكفار يضحكون به ويكذبونه ويقولون : كيف تذهب يا محمد فى ليلة وتصل فى ليلة إلى ما وصلت إليه فى السماء ، ونحن إذا ذهبنا إلى الشام نبقى شهرًا لم نصله وشهرًا للرجوع ؟ ! فاتخذوا من هذا سُلَّمًا ليكذبوا الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولما وصلوا إلى أبى بكر ، وقالوا : إن صاحبك يحدث ويقول كذا وكذا ؟ قال : إن كان قال ذلك ؛ فقد صدق . فمن ذلك اليوم سمى الصديق ، وهو أفضل الصديقين من هذه الأمة وغيرها .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

وصار فيهم (الصديقون) المبالغون فى الصدق والتصديق .

❁ **قال الشيخ هراس :**

وأما قوله : (وفيهم الصديقون) إلخ : فالصديق صيغة مبالغة من الصدق ؛ يراد به الكثير التصديق ، وأبو بكر رضى الله عنه هو الصديق الأول لهذه الأمة .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين :**

« الشهداء » جمع شهيد ، بمعنى : شاهد .

فمن هم الشهداء ؟

- قيل : هم العلماء ؛ لأن العالم يشهد بشرع الله ، ويشهد على عباد الله بأنها قامت عليهم الحجة ، ولهذا يعد العالم مبلغًا عن الله عز وجل ورسوله محمد ﷺ ، فيكون شاهدًا بالحق على الخلق .

- وقيل : إن الشهيد من قتل فى سبيل الله .

والصحيح أن الآية عامة لهذا وهذا .

❁ **قال الشيخ الفوزان :**

(والشهداء) القتلى فى سبيل الله .

وفيهم الصالحون(١)، ومنهم أعلامُ(٢) الهُدَى(٣)، ومَصابِيحُ(٤) الدُّجى(٥)، أُولُو المَناقِبِ المأثورةِ(٦)، ....

❁ قال الشيخ هراس :

وأما الشهداء فهو جمع شهيد وهو من قتل فى المعركة .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

الصالح ضد الفاسد ، وهو الذى قام بحق اللّه وحق عباده ، وهو غير المصلح ؛ فالإصلاح وصف زائد على الصَّلاح ؛ فليس كل صالح مصلحًا ؛ فإن من الصالحين من همه هم نفسه ، ولا يهتم بغيره ، وتمام الصلاح بالإصلاح .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(والصالحون) أهل الأعمال الصالحة .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

الأعلام : جمع علم ، وهو فى الأصل الجبل ؛ قال اللّه تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى : ٣٢] ؛ يعني : الجبال ، وسمى الجبل علمًا ؛ لأنه يهتدى به ويستدل به .

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين :

« أعلام الهدى » : الذين يستدل الناس بهم ويهتدون بهديهم ، وهم العلماء الربانيون ؛ فإنهم هم الهداة وهم مصابيح الدُّجى .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(وفيهم أعلام الهدى . . . إلخ) ؛ أى : وفى أهل السنة العلماء الأعلام المتصفون بكل وصفٍ حميدٍ ؛ علمًا وعملًا .

(٤) قال الشيخ ابن عثيمين :

المصابيح : جمع مصباح ، وهو [ما] يستصبح به للإضاءة .

(٥) قال الشيخ ابن عثيمين :

الدجى : جمع دجية ، وهى الظلمة ؛ أي : هم مصابيح الظلم ، يستضىء بهم الناس ، ويمشون على نورهم .

(٦) قال الشيخ ابن عثيمين :

« المناقب » : جمع منقبة ، وهى المرتبة ؛ أي : ما يبلغه الإنسان من الشرف والسُّؤدد .

والفضائلِ المذكورةِ [١]، وفيهم الأبدالُ [٢]، وفيهم أئمةُ الدِّينِ، الذين أجْمَع المسلمون على هدايتِهم ودرايتهم [٣]، ....

(١) قال الشيخ ابن عثيمين :

« الفضائل » . جمع فضيلة ، وهى الخصال الفاضلة ، التى يتصف بها الإنسان من العلم والعبادة والزهد والكرم وغير ذلك ؛ فالفضائل سُلَّمٌ للمناقب .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين :

« الأبدال » : جمع بدل ، وهم الذين تميزوا عن غيرهم بالعلم والعبادة ، وسموا أبدالًا : إما لأنهم كلما مات منهم واحد ، خلفه بدله ، أو أنهم كانوا يبدلون سيئاتهم حسنات ، أو أنهم كانوا لكونهم أسوة حسنة كانوا يبدلون أعمال الناس الخاطئة [أعمالًا مصيبة] ، أو لهذا كله وغيره .

❁ قال الشيخ الفوزان :

(وفيهم الأبدال)وهم الأولياء والعباد ، سموا بذلك ، قيل : لأنهم كلما مات أحد أبدل بآخر ، وفى روايةٍ عن أحمد : أنهم أصحاب الحديث .

❁ قال الشيخ هراس :

وأما الأبدال فهم جمع بدل ، وهم الذين يخلف بعضهم بعضًا فى تجديد هذا الدين والدفاع عنه ، كما فى الحديث : « يبعث اللَّه لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » . واللَّه أعلم .

وصلى اللَّه على محمد وآله وصحبه وسلم .

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين :

الإمام : هو القدوة ، وفى أهل السنة والجماعة أئمة الدين الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ؛ مثل : الإمام أحمد ، والشافعي ، ومالك ، وأبى حنيفة ، وسفيان الثوري ، والأوزاعي ، وغيرهم من الأئمة المشهورين المعروفين ؛ كشيخ الإسلام ابن تيمية ، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب .

وقوله : « أئمة الدين » : خرج به أئمة الضَّلال من أهل البدع ؛ فهؤلاء ليسوا من أهل السنة والجماعة ، بل هم على خلاف أهل السنة والجماعة ، وهم وإن سموا أئمة ؛ فإن من الأئمة أئمة يدعون إلى النار ، كما قال تعالى عن آل فرعون : ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص : ٤١] .

وهم الطائفةُ المنصورةُ[(١)]، الذين قال فيهم النبيُّ ﷺ: «لا تَزَالُ طائفةٌ مِن أُمَّتي على الحقِّ منصورةً، لا يَضُرُّهم مَن خالَفَهم، ولا مَن خذَلَهم، حتى تقومَ الساعةُ»[(٢)].

* **قال الشيخ الفوزان:**

(وفيهم أئمة الدين)؛ أي: في أهل السنة العلماء المقتدى بهم كالأئمة الأربعة وغيرهم.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

يعني: أهل السنة والجماعة هم الطائفة المنصورة التي نصَرها الله عز وجل؛ لأنهم داخلون في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]. فهم منصورون، والعاقبة لهم.

ولكن لا بد قبل النصر من معاناة وتعبٍ وجهاد؛ لأن النصر يقتضي منصورًا ومنصورًا عليه؛ فلا بد من مغالبةٍ، ولا بد من محنةٍ، ولكن كما قال ابن القيم رحمه الله:

الحَقُّ مَنْصورٌ وَمُمْتَحَنٌ فَلا تَعْجَبْ فَهذي سُنَّةُ الرَّحْمَنِ

فلا يلحقك العجز والكسل إذا رأيت أن الأمور لم تتم لك بأول مرة، بل اصبر وكرر مرة بعد أخرى، واصبر على ما يقال فيك من استهزاء وسخرية؛ لأن أعداء الدين كثيرون.

لا يثني عزمك أن ترى نفسك وحيدًا في الميدان؛ فأنت الجماعة وإن كنت واحدًا، ما دمت على الحقِّ، ولهذا ثق بأنك منصور إما في الدنيا وإما في الآخرة.

ثم إن النصر ليس نصر الإنسان بشخصه، بل النصر الحقيقي أن ينصر الله تعالى ما تدعو إليه من الحق، أما إذا أُصيب الإنسان بذل في الدنيا؛ فإن ذلك لا ينافي [النصر] أبدًا؛ فالنبي عليه الصلاة والسلام أوذي إيذاءً عظيمًا، لكن في النهاية انتصر على من آذاه، ودخل مكة منصورًا مؤزَّرًا ظافرًا بعد أن خرج منها خائفًا.

* **قال الشيخ الفوزان:**

(وهم الطائفة المنصورة)؛ أي: وأهل السنة هم الطائفة المذكورة في الحديث: «لا تزال طائفة من أمتي» الحديث. رواه البخاري ومسلم[(1)].

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

هذا الحديث أخرجه البخاري ومسلم بنحو ما ساقه المؤلف عن عدد من الصحابة عن النبي ﷺ.

---

(1) البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧).

نَسْأَلُ اللَّهَ أن يَجْعَلَنا منهم ، وأن لا يُزِيغَ قلوبَنا بعدَ إذ هدانا ، وأن يَهَبَ لنا مِن لَدُنْهُ رحمةً ، إنه هو الوَهَّابُ ، واللَّهُ أعلمُ .

قوله : « لا تزال » : هذا من أفعال الاستمرار ، وأفعال الاستمرار أربعة ، وهي : فتئ ، وانفك ، وبرح ، وزال ، إذا دخل عليها النفي أو شبهه .

فقوله : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق » . يعني : تستمر على الحق .

وهذه الطائفة غير محصورة بعدد ولا بمكان ولا بزمان ، يمكن أن تكون بمكان تنصر فيه في شيء من أمور الدين ، وفي مكان آخر تنصر فيه طائفة أخرى ، وبمجموع الطائفتين يكون الدين باقيًا منصورًا مظفرًا .

وقوله : « لا يضرهم » : ولم يقل : لا يؤذيهم ؛ لأن الأذية قد تحصل لكن لا تضر ، وفرق بين الضرر والأذى ، ولهذا قال اللَّه تعالى في الحديث القدسي : « يا عبادي ، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني »[1] . وقال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأحزاب : ٥٧] ، وفي الحديث القدسي : « يؤذيني ابن آدم ؛ يسب الدهر ، وأنا الدهر »[2] . فأثبت الأذى ونفى الضرر ، وهذا ممكن ، ألا ترى الرجل يتأذى برائحة البصل ونحوه ، ولا يتضرر بها .

وفي قوله : « حتى تقوم الساعة » . إشكال ؛ لأنه قد ثبت في « الصحيح » أنها « لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض : اللَّه ، اللَّه »[3] ؛ أي : حتى يمحى الإسلام كله ، ولا يبقى من يعبد اللَّه أبدًا ؛ فكيف قال هنا : « حتى تقوم الساعة » ؟ !

وأجاب عنه العلماء بأحد جوابين :

١- إما أن يكون المراد حتى قرب قيام الساعة ، والشيء قد يعبر به عما قرب منه إذا كان قريبًا جدًّا ، وكأن هؤلاء المنصورين إذا ماتوا فإن الساعة تكون قريبة جدًّا .

٢- أو يقال : إن المراد بالساعة ساعتهم .

ولكن القول الأول أصح ؛ لأنه إذا قال : « حتى تقوم الساعة » . فقد تقوم ساعاتهم قبل

---

(1) أخرجه البخاري (٢٥٧٧) .

(2) أخرجه البخاري (٤٨٢٦) ، ومسلم (٢٢٤٥) .

(3) أخرجه مسلم (١٤٨) .

وصلَّى اللَّهُ على محمدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ، وسلَّمَ تَسْليمًا كثيرًا(١).

* * *

الساعة العامة بأزمنة طويلة، وظاهر الحديث أن هذا النصر سيمتد إلى آخر الدنيا؛ فالصواب أن المراد بذلك إلى قرب قيام الساعة. والله أعلم.

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين:**

بهذا الدعاء الجليل ختم المؤلف رحمه الله هذه الرسالة القليلة اللفظ الكثيرة المعنى، وهى تعتبر خلاصة مذهب أهل السنة والجماعة، وفيها فوائد عظيمة، ينبغى لطالب العلم أن يحفظها.

والحمد لله رب العالمين على الإتمام، ونسأل الله أن يتم ذلك بالقبول والثواب، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

قمت بمراجعة الكتاب وإضافة ما تدعو الضرورة إليه وحذف ما لا يحتاج إليه فى يوم الجمعة السابع عشر من شعبان سنة ١٤١٤هـ، وقمت بمراجعته مع المضاف مساء يوم الخميس السابع والعشرين من صفر سنة ١٤١٥هـ

✲ **قال الشيخ الفوزان:**

ثم ختم الشيخ رسالته المباركة بالدعاء والصلاة والسلام على النبى ﷺ، وهو خير ختام، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه وسلم.

✲ ✲ ✲

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

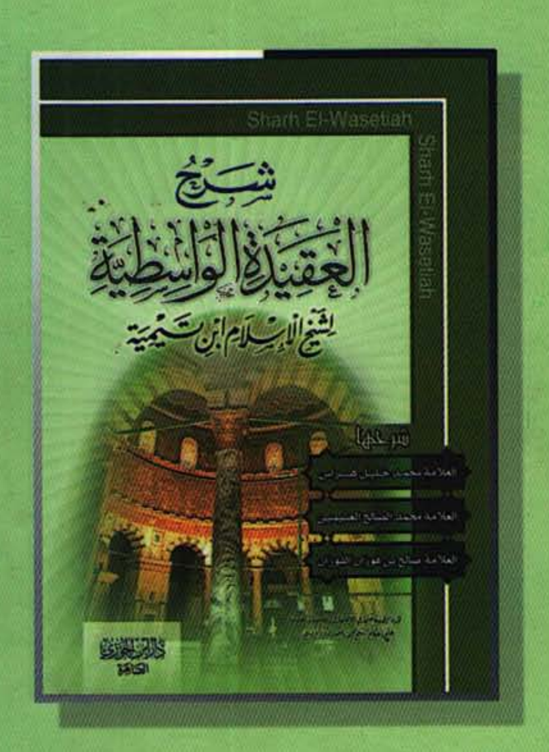
الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

* * *





جمهورية مصر العربية ـ القاهرة
١٢ درب الأتراك ـ خلف الجامع الأزهر
هاتف: ٠٠٢٠٢/٢٥٠٦١٩٠٣ - تليفاكس: ٠٠٢٠٢/٢٥٠٦١٦٢٠
جوال: ٠٠٢٠١٠١٧٦٧٣٩٨ - ٠٠٢٠١٠٣٣٥٠٦٩٧
E-mail:dar_ebnelgawzy@yahoo.com

